

تأملات شيخ الاسلام ابن تيمية

في

القرآن الكريم

سورة هود

رقية محمود الغرايبة

الفهرس

<u>2</u>	<u>الفهرس</u>
<u>16</u>	<u>مقدمة سورة هود</u>
<u>18</u>	<u>هود 1-24</u>
<u>124</u>	<u>هود 25-49</u>
<u>176</u>	<u>هود 50-60</u>
<u>199</u>	<u>هود 61-68</u>
<u>212</u>	<u>هود 69-83</u>
<u>224</u>	<u>هود 84-95</u>
<u>260</u>	<u>هود 96-123</u>

الفهرس (2)

2	الفهرس
3	الفهرس (2)
16	مقدمة سورة هود
16	عرض لما تضمنته سورة هود
18	هود 1-24
19	أسماء الحروف
20	الله سبحانه أحكم كتابه ثم فصله وبينه لعباده
20	إحكام آياته تعم القرآن كله
21	المعاني التي تقابل المحكم
23	التوحيد والإيمان بالرسول دين الله في الأولين والآخرين
24	الإيمان بكلام الله داخل في الإيمان برسالة الله إلى عباده
24	الرد على الجهمية الذين يزعمون ان كلام الله ليس من الله
25	محبة الله وتوحيده هو الغاية التي فيها صلاح للنفس
27	قوام الدين بالتوحيد والاستغفار
28	الجمع بين التوحيد والتحميد والاستغفار
31	الاستغفار دافع للعذاب
33	الإستغفار سبب للرزق والنعمة
35	التوبة والاستغفار يكون من ترك الواجبات وفعل المحرمات
36	ما تعلق به المشيئة تعلق به القدرة
38	الله سبحانه بصير لا تخفى عليه خافية
39	كتب الله في اللوح المحفوظ مقادير الخلق

- 40 الرزق يراد به شينان
- 41 الرد على قول الغزالي أن الله ضمن الرزق ضمانا مطلقا من غير شرط الطلب و
- 45 لا ينفون عن الله ما وصف به نفسه ولا يحرفون الكلم عن مواضعه
- 46 لم يخبر القرآن بأن الله خلق السموات والأرض من غير شيء
- 48 الزمان كان موجودا قبل أن يخلق الله الشمس والقمر
- 50 أول الأيام يقال يوم الأحد
- 51 كل ما سوى الله تعالى مخلوق محدث كائن بعد ان لم يكن
- 52 العرش والقلم أيهما خلق قبل الآخر
- 54 يقبل الله العمل الخالص الصواب
- 55 التقرب إلى الله إنما يكون بالإخلاص في الدين لله
- 57 علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة
- 59 الاعتصام بالسنة نجاة
- 60 الفضل بنفس العمل وجودته لا بقدره وكثرته
- 61 صاحب الكبائر إذا اتقى الله في عمل من الأعمال تقبل الله منه
- 63 لفظ الذوق مستعمل في الإحساس بالملائم والمنافر
- 63 حال الإنسان عند السراء والضراء
- 65 العبد مأمور بالصبر في السراء أعظم من الصبر في الضراء
- 67 "يا أم سلمة ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة "
- 68 مساعي القلوب وأعمالها
- 68 الأعمال الصالحة لازمة لإيمان القلب
- 69 الحسنات والسيئات في الآية المراد بها المسار والمضار
- 70 تحدى الله الخلق بأن يأتوا بمثله
- 71 القرآن معجز بلفظه ونظمه ومعناه

- 73 القرآن متضمن لعلم الله
- 74 الخلق كلهم عاجزين عن الاتيان بسورة مثله لانه خبر عن علم الله
- 76 ذكر براهين التوحيد والنبوه قبل ذكر الفرق بين أهل الحق و الباطل
- 76 الأمران المانعان للخلق من اتباع الرسول
- 77 لفظ الإسلام يتضمن الاستسلام والانقياد ويتضمن الإخلاص
- 77 يجب الإيمان بما أوجب الله الإيمان به
- 78 أصل الإيمان توحيد الله والإيمان برسله
- 78 أساس الطريق الارادة
- 79 الانسان مامورا بمخالفة هواه
- 79 قول القلب وعمله هو الأصل
- 87 الزهد الشرعى
- 87 ما قد يفضى الى حبوط العمل يجب تركه غاية الوجوب
- 88 البينة هي السبيل البينة
- 89 الرسول ومن اتبعه على بينة من ربهم وبصيرة
- 101 اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله
- 102 القرآن والتوراة كل منهما أصل مستقل
- 103 { وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَلَإِنَّ أَمْرَهُ }
اهمية معرفة مراتب الأديان
- 104 لا معصوم إلا الأنبياء
- 104 الفرق بين من لعنه الله لعنة مؤبدة عامة ومن لعنه لعنا مطلقا
- 106 من ادعى النبوة وهو كاذب فهو من أكفر الكفار وأظلم الظالمين
- 106 يقع الكذب على الله ممن فسد قصده
- 108 الإستطاعة جاءت فى كتاب الله على نوعين

- 111 نفوسهم لا تستطيع إرادته وإن كانوا قادرين على فعله لو أرادوه
- 112 الفرق في السمع والبصر من الإيمان وآثاره والكفر وآثاره
- 113 أحرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن
- 113 يأمر الله ويمدح أنواع العلم وأسبابه وكماله
- 114 الأعمال الصالحة لازمة للإيمان
- 115 علق الوعد بالجنة باسم الإيمان المطلق والمقيد بالعمل الصالح
- 116 "إن النور إذا دخل القلب إنشرح وإنفسح"
- 117 نفى المساواة بين الذي يعلم والذي لا يعلم مطلقا
- 118 لطائف لغوية

124 هود 25-49

- 125 الدعوة الى توحيد الله عز وجل
- 125 الغاية التي فيها صلاح للنفس
- 126 "ضعفأوهم هم أتباع الرسل "
- 127 الكفار بالرسول يزعمون أن لهم العقل والرأي والقياس العقلي
- 127 المسلك الشخصي استدل به هرقل ملك الروم
- 128 أخبر انه لم ينج من العذاب الا المؤمنين
- 128 تعليم القرآن والعلم بغير أجره فهو أفضل الأعمال وأحبها إلى الله
- 129 توسط البشر بالرسالة
- 129 من يزعم ان نبي او شخص ما ينطبق علمه على علم الله تعالى فهذا كفر صريح وجهل قبيح
- 130 دعاء الميت والغائب والاستغاثة به من أفعال المشركين وعبادات الضالين
- 131 الرد على الذين يقولون ان الملائكة افضل من البشر
- 132 ذكر أقوال الكفار وحججهم وجوابها
- 133 الإرادة في كتاب الله نوعان

- 134 أهل الكفر والمعصية لم يرد الله أن يخلق طاعتهم لكنه أمرهم بها
- 135 الاعتلال بالقدر ذنب
- 136 حال من لم يميز بين الإرادة الخلقية والإرادة الأمرية
- 138 هل أراد الله تعالى المعصية من خلقه أم لا ؟
- 139 الإلتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد ومحو الأسباب أن تكون أسبابا تغيير في وجه العقل والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع
- 141 القرآن نفسه فيه تحدي الأمم بالمعارضة والتحدي
- 142 الفرق بين مشيئة الله وبين محبته ورضاه
- 144 قدرة الرب والعبد
- 145 كل ما في الوجود فهو مخلوق لله خلقه بمشيئته وقدرته
- 145 من الإيمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه
- 146 الكفار بالرسل يسمون أنفسهم الحكماء والفلاسفة ويسخرون من اتباع المرسلين
- 147 الرد على زعم الرافضة أن امرأة نوح كانت بغيا
- 149 {وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}
- 149 المشروع في ذكر الله سبحانه هو ذكره بجملة تامة
- 151 أهل الاسلام والسنة الذين يذكرون أسماء الله يعرفونه ويحبونه ويظهرون ذكره
- 153 لفظ الأمر يراد به المصدر والمفعول
- 153 لم يلزم من اتفاق الاسمين اتفاقهما ولا تماثل المسمى
- 154 الله سبحانه أحكم الحاكمين
- 154 الدعاء سبب يقضي الله به ما علم الله أنه سيكون
- 156 السؤال كثيرا ما يجيء باسم الرب
- 157 حسن الأدب في السؤال والدعاء
- 159 إذا سألت فاسئل الله وإذا استعنت فاستعن بالله
- 159 إثبات العصمة من الإقرار على الذنوب مطلقا

161	التوبة من أفضل الكمالات وهي واجبة على جميع الخلق
162	أقسام الكلام وأنواعه الله موصوف بها كلها
162	المؤمن يطلب نعيم الدنيا والنعيم التام في الآخرة
165	العاقبة للمتقين
166	نفى علم قومه بما أخبره فيه بيانا لآلاء الله
167	القصص في القرآن من آيات الأنبياء
171	التقوى سبب لحفظ الحسنات ومنع السيئات
171	لطائف لغوية

176 هود 50-60

176	خلق الله الخلق لتكون كلمة الله هي العليا
178	العبادة هي اسم جامع لكل ما أمر الله به
179	العبادة متضمنة لغاية الحب بغاية الذل
180	كمال المخلوق في تحقيق عبوديته لله
182	إخلاص الدين كله لله هو تحقيق قول لا اله الا الله
184	إلهية ما سوى الله ليس لها أساس ثابت ولا فرع ثابت بل هي أعظم الكذب والإفتراء
185	يصف القرآن أهل الشرك بالفرية
186	الأفعال تكون قبيحة مذمومة قبل مجيء الرسول اليهم
187	العقل في القرآن يتضمن ما يجلب به المنفعة وما يدفع به المضرة
188	تعليم القرآن والحديث والفقه وغير ذلك بغير أجره عمل صالح
188	توحيد الله وإخلاص الدين له في عبادته وإستعانته هو قلب الإيمان
189	التوبة فرض على العباد دائما
190	القوة والعزة لأهل الطاعة التائبين إلى الله
191	العقل يفهم من المطلق قدرا مشتركا وعند الاختصاص يقيد ذلك

191	لسان الشرك لا يكون له لسان التوحيد
192	بتوكله على الله يعجزهم عما تحداهم به
193	المشركون يخشون ألهم ويرجونها
194	الرب سبحانه على صراط مستقيم
195	الكفار الذين جحدوا ما علموا أنه الحق
195	بالرسول يحصل الفرق بين السعداء والأشقياء وبين الحق والباطل
196	عاد عصوا هودا معصية تكذيب لجنس الرسل
196	لطائف لغوية

هود 61-68

199	رأس الإسلام مطلقا شهادة أن لا إله إلا الله
201	كلما ازداد العبد تحقيقا للعبودية ازداد كماله
203	أخبر الله تعالى عن قبح أعمال الكفار قبل أن يأتيهم الرسول
203	التوبة فرض على العباد دائما
204	قال طلق بن حبيب لما وقعت الفتنة اتقوها بالتقوى
205	ولفظ العبادة يتضمن كمال الذل بكمال الحب
206	قرب الله الذي فى القرآن خاص لا عام
207	الرحمة تحصل بالقرآن
208	المضاف إلى الله نوعان
208	معجزات الأنبياء خارجة عن القوانين الطبيعية
209	آيات الأنبياء لم يأت منها شيء إلا بأسباب تقدمته
210	لطائف لغوية

هود 69-83

212	إثبات الملائكة وأنهم أحياء ناطقون
-----	-----------------------------------

- 213 البشارة باسحق كانت معجزة
- 213 المضاف إلى الله نوعان
- 214 لفظ الأمر يراد به المصدر و المفعول
- 215 الله هو المستحق للمحامد الكاملة
- 215 "أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله يبتغي بها وجه الله "
- 216 {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ }
- 216 الله سبحانه يحب الحسن الجميل ويبغض السيئ الفاحش
- 217 عقوبة أهل الفواحش طمس الأبصار
- 218 الطهارة في كتاب الله على قسمين
- 219 التقوى ان تعمل بطاعة الله وأن تترك معصية الله تخاف عذاب الله
- 220 عذب الله عجوز السوء القوادة بمثل ما عذب الذين كانوا يعملون الخبائث
- 220 يكون في هذه الأمة من يمسح قرده وخنازير
- 222 لطائف لغوية

224 هود 84-95

- 224 خلق الله الخلق لتكون كلمة الله هي العليا ويكون الدين كله لله
- 225 قطب القرآن
- 227 الغاية التي فيها صلاح للنفس
- 228 العلم بلا عمل كالشجر بلا ثمر
- 229 الله تعالى أرسل الرسل ليقوم الناس بالقسط
- 230 بخس المكيال و الميزان من الأعمال التي أهلك الله بها قوم شعيب
- 230 اخبر عن اعمال قوم شعيب انها من السيئات القبيحة قبل أن ينهاهم
- 231 عامة من كذب الرسل علموا أن الحق معهم لكن إما لحسد هم وإما لإرادتهم العلو والرياسة يكذبونهم
- 231 توحيد الإلهية هو الذي يحبه الله ويرضاه ويأمر به

- 233 قدر الله الأشياء بأسبابها كما قدر السعادة والشقاوة بأسبابها
- 234 {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }
- 236 من ظن الإستغناء بالسبب عن التوكل فقد أخل بواجب التوحيد
- 238 الاخلاص والتوكل جماع صلاح الخاصة والعامة
- 239 من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله
- 240 العبادة والتوكل يجمعان الدين كله
- 247 من راعى الأمر والقدر كما ذكر كان عابدا لله متوكلا عليه
- 248 "إذا سألت فاسئل الله وإذا استعنت فاستعن بالله "
- 250 الاستغفار من أعظم الحسنات
- 252 الرد على انكار الجهمية المجبرة للوازم كرم الله سبحانه ورحمته وحكمته
- 253 ما ذكره الله عن أعداء الرسل تجد بعض ذلك فيمن أعرض عن ذكر الله و عن تدبر كتابه
- 253 الله قريب مجيب لاستغفار المستغفرين التائبين اليه رحيم ودود بهم
- 256 الدين مجموع فى التوحيد والاستغفار
- 256 الله سبحانه وتعالى لا يحدث شيئا إلا بإحداث أسباب ودفع موانع
- 257 الحكم بين الشينيين
- 258 لطائف لغوية

260 هود 123-96

- 261 لم يكفر أحد بالله ويدعى لنفسه الربوبية والإلهية مثل فرعون
- 263 النسخ لا يجوز فى الأخبار
- 264 حرم الله على نفسه الظلم
- 265 نزه الله نفسه عن أمر يقدر عليه لا عن الممتنع لنفسه
- 266 جعل إهلاك المهلكين حصادا لهم
- 267 أنباء القرى يعلم بالسمع والنقل تارة ويعلم بالعقل والاعتبار بآثارهم تارة

- 268 ظلم النفس جنس عام يتناول كل ذنب
- 269 لا يعذب الله في الآخرة إلا من أذنب
- 274 لفظ الدعاء والدعوة في القرآن يتناول معنيين
- 275 الشفاعة التي نفاها القرآن مطلقا ما كان فيها شرك
- 276 { وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ }
- 277 الأعمال هي سبب في الثواب والعقاب
- 278 "إن الله يملئ للظالم فإذا أخذه لم يفلته"
- 279 استعمال اللفظ في حال في معنى وفي حال أخرى
- 280 { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ }
- 280 اليوم الآخر هو الذي ذكره الله في القرآن
- 281 طوي السموات لا يوجب عدمها وفسادها بل أصلها باق
- 281 الحق الذي على الله هو أحقه على نفسه
- 282 إقامة الحجّة على أهل الشرائع و ذم تفرقهم و إختلافهم
- 283 أهل الرحمة لا يختلفون
- 285 الاستقامة اتباع ما أمر
- 285 الظالم لا يجوز أن يؤتم به في ظلمه ولا يركن اليه
- 285 يغزى مع كل أمير برا كان أو فاجرا إذا كان الغزو مشروعا
- 286 ما خوطب به خوطبت به الأمة ما لم يرد نص بالتخصيص
- 287 الإسلام هو الإستسلام لخلقه وأمره
- 287 لم يخاطبوا بالصلاة الا ومسامها معلوم عندهم
- 288 الصلاة عمود الدين فمتى ذهبت سقط الدين
- 288 إقامة الصلاة تتضمن إتمامها بحسب الإمكان
- 290 الوقت في كتاب الله وسنة رسول الله نوعان

- 290 اكثر آيات القرآن بدأت بالفجر
- 291 الجمع لا يختص بالسفر الطويل بل يجمع للمطر ويجمع للمرض
- 293 العشاء تجب بالطهر قبل الفجر
- 294 إذا طهرت الحائض في آخر النهار صلت الظهر والعصر جميعا
- 295 { إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ }
- 295 " لمن عمل بها من امتي "
- 297 عمل الحسنات يطهر النفس ويزكيها من الذنوب
- 298 الذنب المحقق يرتفع عقابه في الآخرة بأسباب متعددة
- 301 الرد على الذين يقولون ان الحسنات انما تكفر الصغائر فقط فأما الكبائر فلا تغفر الا بالتوبة
- 302 الوعيد الموجود في الكتاب والسنة لا يلحق التائب
- 303 يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان
- 304 المغتاب له سبيل الى التوبة بكل حال
- 304 الاعتذار عن النفس بالباطل و الجدال عنها لا يجوز
- 304 لا يزيل الإيمان كله إلا الكفر المحض
- 306 النأوى الجازم الآتى بما يمكن فإنه بمنزلة الفاعل التام
- 307 الصبر واجب على اداء الواجبات وترك المحظورات
- 308 قرن الصبر بالأعمال الصالحة عموما وخصوصا
- 309 أعظم عون لولى الأمر خاصة ولغيره عامة ثلاثة امور
- 310 مصلحة وفضائل الأعمال وثوابها وفوائدها
- 310 الفقه قبل الأمر
- 311 "من عبد الله بغير علم كان ما يفسد اكثر مما يصلح"
- 312 الإحسان يجمع كمال الإخلاص لله والإتيان بالفعل الحسن
- 312 { وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ }

- 313 أن الله على كل شيء قدير
- 314 لله حكمة بالغة في أقضيته وأقداره
- 314 أخبر الله بقدرته على أشياء مع أنه لا يفعلها
- 316 حكم الحلف على فعل مأمور إذا علقه بالمشيئة
- 317 الاختلاف في كتاب الله نوعان
- 318 "هلك من كان قبلكم من الأمم باختلافهم في الكتاب "
- 319 " المرء في القرآن كفر "
- 320 "هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم"
- 320 اتبع الناس للرسول اقلهم اختلافًا
- 322 أهل الرحمة الذين لا يختلفون
- 323 علم الله سبحانه من لوازم نفسه
- 324 مشيئة الله العامة الكونية
- 325 { وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ }
- 326 لا تمتلئ جهنم الا من أتباع ابليس من الجنة والناس
- 327 أهل السنة لا ينفون عن الله سبحانه ما وصف به نفسه ولا يحرفون الكلم عن مواضعه
- 328 صيغة الجمع في كلام العرب للواحد العظيم
- 328 أحوال الامم الماضية يعتبر بها ويقاس عليها أحوال الامم المستقبلية
- 329 من الإيمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه من غير تحريف ولا تعطيل
- 329 ختم السورة وافتتحها بالتوحيد والإيمان بالرسول
- 330 توحيد الإلهية الذي يحبه الله ويرضاه
- 331 توحيد الالهية هو الفارق بين الموحدين والمشركين
- 333 عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد
- 335 من أحوال القلب وأعماله ما يكون من لوازم الايمان الثابتة فيه

- 336 قُطِبَ رَحَى الدِّينِ
- 337 لَفْظُ الْعِبَادَةِ يَتَضَمَّنُ كَمَالَ الذَّلِّ بِكَمَالِ الْحُبِّ
- 338 الْإِعْرَاضُ عَنِ التَّوَكُّلِ خُرُوجٌ عَنِ حَقِيقَةِ الْإِيمَانِ
- 344 " أَحْرَصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ "
- 347 الدُّعَاءُ وَالتَّوَكُّلُ مِنْ أَعْظَمِ الْأَسْبَابِ
- 348 التَّوَكُّلُ مَقْرُونٌ بِالْعِبَادَةِ
- 350 الرَّجَاءُ مَقْرُونٌ بِالتَّوَكُّلِ
- 351 الْإِخْلَاصُ وَالتَّوَكُّلُ جَمَاعٌ صِلَاحُ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ
- 352 إِمْتِثَالُ الْأَمْرِ عَلَى الْإِطْلَاقِ لَا يَصِحُّ بَدُونَ التَّوَكُّلِ وَالْإِسْتِعَانَةِ
- 353 يَنْبُوعُ الْخَيْرِ وَأَصْلُهُ إِخْلَاصُ الْعَبْدِ لِرَبِّهِ عِبَادَةً وَإِسْتِعَانَةً
- 354 النُّورُ وَالْمَعْرِفَةُ هُوَ أَصْلُ الْمَحَبَّةِ وَالْإِرَادَةِ
- 355 أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَالِمٌ لَمْ يَنْفَعَهُ اللَّهُ بِعِلْمِهِ
- 356 مَنْ رَاعَى الْأَمْرَ وَالْقَدْرَ كَانَ مِنَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ
- 357 لَطَائِفُ لُغَوِيَّةٍ

مقدمة سورة هود

عرض لما تضمنته سورة هود

في قوله تعالى { أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابٌ مُّوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ } هود 17 الآية وما بعدها إلى قوله { أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ } هود 24 ذكر سبحانه الفرق بين أهل الحق والباطل وما بينهما من التباين والاختلاف مرة بعد مرة ترغيباً في السعادة وترهيباً من الشقاوة وقد افتتح السورة بذلك فقال {الرَّ كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ } 1 { أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ } 2 { هود 1-2 فذكر أنه نذير وبشير نذير ينذر بالعذاب لأهل النار وبشير يبشر بالسعادة لأهل الحق ثم ذكر حال الفريقين في السراء والضراء فقال { وَلَئِن أَدْفَنَّا الْإِنْسَانَ مِمَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَرَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيُؤْوِسُ كُفُورًا } 9 { وَلَئِن أَدْفَنَاهُ نَعْمَاءً بَعْدَ ضَرَاءٍ مَّسْنَةً لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورًا } 10 { إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ } 11 { هود 9-11 ثم ذكر بعد هذا قصص الأنبياء وحال من اتبعهم ومن كذبهم

كيف سعد هؤلاء في الدنيا والآخرة وشقي هؤلاء في الدنيا والآخرة فذكر ما جرى لهم إلى قوله { ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ } هود 100 إلى قوله { وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ } هود 103 ثم ذكر حال الذين سعدوا والذين شقوا ثم قال { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ } هود 103 فإنه قد يقال غاية ما أصاب هؤلاء أنهم ماتوا والناس كله يموتون وأما كونهم أهلوكوا كله وصارت بيوتهم خاوية وصاروا عبرة يذكرون بالشر ويلعنون إنما يخاف ذلك من آمن بالآخرة فإن لعنة المؤمنين لهم بالآخرة وبعضهم لهم كما جرى لآل فرعون هو مما يزيدهم عذاباً كما أن لسان الصدق وثناء الناس ودعاءهم للأنبياء وإتباعهم لهم هو ما يزيده ثواباً فمن استدل بما أصاب هؤلاء على صدق الأنبياء فأمن بالآخرة خاف عذاب الآخرة وكان ذلك له آية وأما من لم يؤمن بالآخرة ويظن أن من مات لم يبعث فقد لا يبالي بمثل هذا وإن كان يخاف هذا من لا يخاف الآخرة لكن كل من خاف الآخرة كان هذا حاله وذلك له آية وقد ختم السورة بقوله { وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ } هود 121 إلى آخرها كما افتتحها بقوله { أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ } هود 2 فذكر التوحيد والإيمان بالرسول فهذا دين الله في الأولين والآخرين قال أبو العالية كلمتان يسأل عنها الأولون والآخرون ماذا كنتم تعبدون وماذا أجبتم المرسلين ولهذا قال { وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ } القصص 65 و { أَيُّ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ } القصص 62 هو الشرك في العبادة وهذان هما الإيمان والإسلام وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ تارة في ركعتي الفجر سورتي الإخلاص وتارة يأتي الإيمان والإسلام فيقرأ قوله { أَمَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا } الآية (او هذه الآية لم اعرف من المقصود { أَمَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا } آل عمران 84 فأولها الإيمان وآخرها الإسلام ويقرأ في الثانية { قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ } آل عمران 64 فأولها إخلاص العباد لله وآخرها الإسلام له وقال { وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ

وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمُ وَاللَّهُنَّ وَاللَّهُمُّمُ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ { العنكبوت 46
ففيها الإيمان والإسلام في آخرها وقال { الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ } {69} ادْخُلُوا الْجَنَّةَ
أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ {70} { الزخرف 69-70 }¹

¹مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 103-106 و دقائق التفسير ج: 2 ص: 224-225

~ §§ هود (مكية) 123 §§ ~

هود 1-24

بسم الله الرحمن الرحيم

الر كِتَابٍ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ {1} أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ
إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ {2} وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ
مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي
أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ {3} إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَيَّ كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ {4} أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ
يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ {5} وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي
الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ
مُّبِينٍ {6} وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ
عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ
الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ {7} وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمْ
العَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَيَقُولَنَّ مَا يَجْحَسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا
عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ {8} وَلَئِنْ أَدْنَا الْإِنْسَانَ مِمَّا رَحْمَةً
ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيُؤْوِسُ كَفُورٌ {9} وَلَئِنْ أَدْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسْتَه
لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتِ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ {10} إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ {11} فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ
إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ
إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ {12} أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا
بِعَشْرِ سُورٍ مِّثْلَهُ مُفْتَرِيَاتٍ وَاذْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ
صَادِقِينَ {13} فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ
إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ {14} مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ
إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ {15} أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي
الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ {16} أَفَمَنْ
كَانَ عَلَىٰ بَيْتِهِ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا
وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ
فِي مَرِيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ {17} وَمَنْ

أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ {18} الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ {19} أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ {20} أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ {21} لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخْسَرُونَ {22} إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ {23} مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ {24}

أسماء الحروف

قال تعالى {الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ} هود 1 ليس في القرآن من حروف الهجاء التي هي أسماء الحروف إلا نصفها وهي أربعة عشر حرفاً وهي نصف أجناس الحروف نصف المجهورة والمهموسة والمستعلية والمطبقة والشديدة والرخوة وغير ذلك من أجناس الحروف وهو أشرف النصفين والنصف الآخر لا يوجد في القرآن إلا في ضمن الأسماء أو الأفعال أو حروف المعاني التي ليست باسم ولا فعل فلا يجوز أن نعتقد أن حروف المعجم بأسمائها جميعها موجودة في القرآن لكن نفس حروف المعجم التي هي أبعاض الكلام موجودة في القرآن بل قد اجتمعت في آيتين إحداهما في آل عمران والثانية في سورة الفتح {ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً} آل عمران 154 الآية و{مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ} الفتح 29 الآية²

أن المتشابه الحروف المقطعة في أوائل السور يروى هذا عن ابن عباس و على هذا القول فالحروف المقطعة ليست كلاماً تاماً من الجمل الإسمية والفعلية و إنما هي أسماء موقوفة و لهذا لم تعرب فإن الأعراب إنما يكون بعد العقد و التركيب و إنما نطق بها موقوفة كما يقال أ ب ت ث و لهذا تكتب بصورة الحرف لا بصورة الإسم الذي ينطق به فإنها في النطق أسماء و لهذا لما سأل الخليل أصحابه عن النطق بالزاي من زيد قالوا ز ا قال نطقتم بالإسم و إنما النطق بالحرف زه فهي في اللفظ أسماء و في الخط حروف مقطعة ألم لا تكتب ألف لام ميم كما يكتب قول النبي صلى الله عليه و سلم من قرأ القرآن فأعربه فله بكل حرف عشر حسنات أما إنني لا أقول ألم حرف و لكن ألف حرف و لام حرف و ميم حرف و الح لغة الرسول صلى الله عليه و سلم و أصحابه يتناول الذي يسميه النحاة أسماً و فعلاً و حرفاً و لهذا قال سيبويه في تقسيم الكلام إسم و فعل و حرف جاء لمعنى ليس بإسم و لا فعل فإنه لما كان معروفاً من اللغة أن الإسم حرف و الفعل حرف خص هذا القسم الثالث الذي يطلق النحاة عليه الحرف أنه جاء

لمعنى ليس باسم و لا فعل و هذه حروف المعانى التى يتألف منها الكلام و أما حروف الهجاء فتلك إنما تكتب على صورة الحرف المجرد و ينطق بها غير معربة و لا يقال فيها معرب و لا مبنى لأن ذلك إنما يقال في المؤلف فإذا كان على هذا القول كل ما سوى هذه محكم حصل المقصود فإنه ليس المقصود إلا معرفة كلام الله و كلام رسوله صلى الله عليه و سلم ثم يقال هذه الحروف قد تكلم فى معناها أكثر الناس فإن كان معناها معروفا فقد عرف معنى المتشابه وإن لم يكن معروفا و هي المتشابهة كان ما سواها معلوم المعنى و هذا المطلوب و أيضا فإن الله تعالى قال { مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ } آل عمران 7 و هذه الحروف ليست آيات عند جمهور العلماء و إنما يعدها آيات الكوفيون و سبب نزول هذه الآية الصحيح يدل على أن غيرها أيضا متشابهة و لكن هذا القول يوافق ما نقل عن اليهود من طلب علم المدد من حروف الهجاء³

الله سبحانه أحكم كتابه ثم فصله وبينه لعباده

قال تعالى { **الرَّ كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ** } هود 1 فقد فصله بعد أحكامه بخلاف من تكلم بكلام لم يحكمه وقد يكون فى الكلام المحكم مالم يبينه لغيره فهو سبحانه أحكم كتابه ثم فصله وبينه لعباده كما قال { **وَكَذَلِكَ نَفَصَلُ الْآيَاتِ وَنَسْتَبِينُ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ** } الأنعام 55 وقال { **وَلَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** } الأعراف 52 فهو سبحانه بينه وأنزله على عباده بعلم ليس كمن يتكلم بلا علم⁴

+ قال القاضي عياض قال بعضهم قال الله تعالى { **الرَّ كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ** } هود 1 ثم بين التفصيل فقال { **أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ** } هود 2 فهذا فصل الألوهية ثم قال { **إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ** } هود 2 و هذا فصل النبوة ثم قال { **وَأَن اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ** } هود 3 فهذا فصل التكليف وما وراءه من الوعد و الوعيد⁵

إحكام آياته تعم القرآن كله

قوله { **الرَّ كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ** } هود 1 و فى قوله { **اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مّتَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ** } الزمر 23 فوصفه هنا كله بأنه متشابه أي متفق غير مختلف يصدق بعضه بعضا و هو عكس المتضاد المختلف المذكورة فى قوله { **وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا** } النساء 82 و قوله { **إِنَّكُمْ لَفِي**

³ - مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 420-421 و الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 411 و مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 103

⁴ مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 123

⁵ مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 106 و دقائق التفسير ج: 2 ص: 226

قَوْلٍ مُخْتَلَفٍ {8} يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ {9} الذاريات 8-9 فإن هذا التشابه يعم القرآن كما أن إحكام آياته تعمه كله⁶

قال تعالى {الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير} هود 1 و قال تعالى {أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها} محمد 24 و قال {أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا} النساء 82 و قال تعالى {أفلم يتدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين} المؤمنون 68 و قال تعالى {فيسر عباد} 17 {الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه} 18 {الزمر 17-18 و قال {والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا} الفرقان 73 و قال {إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون} يوسف 2 و قال {كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون} 3 {بشيرا ونذيرا} 4 {فصلت 3-4 الى قوله {ومن بيننا وبينك حجاب} فصلت 5 فإذا كان كثير من القرآن أو أكثره مما لا يفهم احد معناه لم يكن المتدبر المعقول إلا بعضه و هذا خلاف ما دل عليه القرآن لا سيما عامة ما كان المشركون ينكرونه كآيات الخيرية و الأخبار عن اليوم الآخر أو الجنة و النار و عن نفي الشركاء و الأولاد عن الله و تسميته بالرحمن فكان عامة إنكارهم لما يخبرهم به من صفات الله نفيًا و إثباتًا و ما يخبرهم به عن اليوم الآخر و قد ذم الله من لا يعقل ذلك و لا يفقهه و لا يتدبره فعلم أن الله يأمر بعقل ذلك و تدبره و قد قال تعالى {و منهم من يستمعون إليك أفانت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون} 42 {و منهم من ينظر إليك أفانت تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون} 43 {يونس 42-43 و قال {و منهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا} الأنعام 25 الآية و قال تعالى {وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا} 45 {وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا} 46 {الإسراء 45-46 الآية⁷

المعاني التي تقابل المحكم

قال الله تعالى {الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير} هود 1 فأخبر أنه أحكم آياته كلها و قال تعالى {الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني} الزمر 23 فأخبر انه كله متشابه و الحكم هو الفصل بين الشيين فالحاكم يفصل بين الخصمين و الحكم فصل بين المتشابهات علما و عملا اذا ميز بين الحق و الباطل و الصدق و الكذب و النافع و الضار و ذلك يتضمن فعل النافع و ترك الضار فيقال حكمت السفية و أحكمته اذا أخذت على يديه و حكمت الدابة و أحكمتها اذا جعلت لها حكمة و هو ما أحاط بالحنك من اللجام و احكام الشيء اتقانه فأحكام الكلام إتقانه بتمييز الصدق من الكذب في أخباره و تمييز الرشد من الغي في أوامره و القرآن كله محكم بمعنى الإتيان فقد سماه الله حكيمًا بقوله {تلك آيات الحكيم} لقمان 2 فالحكيم بمعنى

و قد ذكرنا في غير هذا الموضع أن في قوله تعالى {منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات} آل عمران 7 في المتشابهات قولان أحدهما أنها آيات بعينها تتشابه على

⁶مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 390

⁷مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 430

كل الناس والثانى وهو الصحيح ان التشابه امر نسبي فقد يتشابه عند هذا ما لا يتشابه عند غيره ولكن ثم آيات محكمات لا تشابه فيها على أحد وتلك المتشابهات اذا عرف معناها صارت غير متشابهة بل القول كله محكم كما قال { **أَحْكَمْتَ آيَاتِهِ ثُمَّ فَصَّلْتَ** } هود1 وهذا كقوله الحلال بين والحرام بين وبين ذلك أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس وكذلك قولهم { **إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهُ عَلَيْنَا** } البقرة70⁸

قال طائفة من المفسرين المتقدمين ان المحكم هو الناسخ و المتشابه المنسوخ أرادوا والله أعلم قوله { **فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ** } الحج 52 والنسخ هنا رفع ما ألقاه الشيطان لا رفع ما شرعه الله وقد أشرت الى وجه ذلك فيما بعد وهو أن الله جعل المحكم مقابل المتشابه تارة ومقابل المنسوخ أخرى والمنسوخ يدخل فيه فى اصطلاح السلف العام كل ظاهر ترك ظاهره لمعارض راجح كتخصيص العام ويدخل فيه المجل فانه متشابه وإحكامه رفع ما يتوهم فيه من المعنى الذي ليس بمراد وكذلك ما رفع حكمه فإن فى ذلك جميعه نسخا لما يلقيه الشيطان فى معانى القرآن ولهذا كانوا يقولون هل عرفت الناسخ من المنسوخ فاذا عرف الناسخ عرف المحكم وعلى هذا فيصح أن يقال المحكم والمنسوخ كما يقال المحكم والمتشابه وقوله بعد ذلك { **ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ** } الحج52 جعل جميع الآيات محكمة محكمها ومتشابهها كما قال { **الرَّ كِتَابٍ أَحْكَمْتَ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتَ** } هود1 وقال { **تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ** } لقمان2 على أحد القولين وهناك جعل الآيات قسامين محكما ومتشابهها كما قال { **مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ** } آل عمران7 وهذه المتشابهات مما أنزله الرحمن لا مما ألقاه الشيطان ونسخه الله فصار المحكم فى القرآن تارة يقابل بالمتشابه والجميع من آيات الله وتارة يقابل بما نسخه الله مما ألقاه الشيطان ومن الناس من يجعله مقابلا لما نسخه الله مطلقا حتى يقول هذه الآية محكمة ليست منسوخة ويجعل المنسوخ ليس محكما وإن كان الله أنزله أولا اتباعا لظاهر قوله { **فَيَنْسَخُ اللَّهُ** } {52} الحج52 و { **يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ** } {52} الحج52 فهذه ثلاث معان تقابل المحكم ينبغى التفطن لها وجماع ذلك أن الأحكام تارة يكون فى التنزيل فيكون فى مقابله ما يلقيه الشيطان فالمحكم المنزل من عند الله أحكمه الله أى فصله من الاشتباه بغيره وفصل منه ما ليس منه فان الأحكام هو الفصل والتمييز والفرق والتحديد الذى به يتحقق الشيء ويحصل اتقانه ولهذا دخل فيه معنى المنع كما دخل فى الحد فالمنع جزء معناه لا جميع معناه وتارة يكون الأحكام فى ابقاء التنزيل عند من قابله بالنسخ الذى هو رفع ما شرع وهو اصطلاحى أو يقال وهو أشبه بقول السلف كانوا يسمون كل رفع نسخا سواء كان رفع حكم أو رفع دلالة ظاهرة وإلقاء الشيطان فى أمنيته قد يكون فى نفس لفظ المبلغ وقد يكون فى سمع المبلغ وقد يكون فى فهمه كما قال { **أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا** } الرعد17 الآية ومعلوم أن من سمع النص الذى قد رفع حكمه أو دلالة له فانه يلقي الشيطان فى تلك التلاوة اتباع ذلك المنسوخ فيحكم الله آياته بالناسخ الذى به يحصل رفع الحكم وبيان المراد وعلى هذا التقدير فيصح أن يقال المتشابه المنسوخ بهذا الاعتبار والله أعلم وتارة يكون الأحكام فى التأويل والمعنى وهو تمييز الحقيقة المقصودة من غيرها حتى لا تشتبه بغيرها وفى مقابلة المحكمات

الآيات المتشابهات التي تشبه هذا وتشبه هذا فتكون محتملة للمعنيين قال أحمد بن حنبل المحكم الذي ليس فيه اختلاف والمتشابه الذي يكون في موضع كذا وفي موضع كذا ولم يقل في المتشابه لا يعلم تفسيره ومعناه الا الله وانما قال {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ} آل عمران 7 وهذا هو فصل الخطاب بين المتنازعين في هذا الموضوع فان الله اخبر أنه لا يعلم تأويله الا هو والوقف هنا على ما دل عليه أدلة كثيرة وعليه اصحاب رسول الله وجمهور التابعين وجماهير الأمة ولكن لم ينف علمهم بمعناه وتفسيره بل قال {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ} ص 29 وهذا يعم الآيات المحكمات والآيات المتشابهات وما لا يعقل له معنى لا يتدبر وقال {أَفَلَا يَدَّبَّرُونَ الْقُرْآنَ} النساء 82 ولم يستثن شيئا منه نهى عن تدبره والله ورسوله انما ذم من اتبع المتشابه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله فأما من تدبر المحكم والمتشابه كما أمره الله وطلب فهمه ومعرفة معناه فلم يذمه الله بل أمر بذلك ومدح عليه⁹

التوحيد والإيمان بالرسول دين الله في الأولين والآخرين

و أصل الإيمان توحيد الله بعبادته وحده لا شريك له والإيمان برسوله كما قال تعالى {فَوَرَبِّكَ لَنَسَأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ} {92} عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} {93} الحجر 92-93 ولهذا يقرر الله هذين الأصلين في غير موضع من القرآن بل يقدمهما على كل ما سواهما لأنهما أصل الأصول ومن هذا قوله تعالى {الرَّ كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ} {1} {أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ} {2} هود 1-2¹⁰

وقد ختم السورة بقوله {وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ} هود 121 إلى آخرها كما افتتحها بقوله {أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ} {2} هود فذكر التوحيد والإيمان بالرسول فهذا دين الله في الأولين والآخرين قال أبو العالية كلمتان يسأل عنها الأولون والآخرين ماذا كنتم تعبدون وماذا أجبتم المرسلين ولهذا قال {وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ} القصص 65 و {أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ} القصص 62 هو الشرك في العبادة وهذان هما الإيمان والإسلام وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ تارة في ركعتي الفجر سورتي الإخلاص وتارة بآيتي الإيمان والإسلام فيقرأ قوله { أَمَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا } البقرة 136 الآية فأولها الإيمان وآخرها الإسلام ويقرأ في الثانية { قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ } آل عمران 64 فأولها إخلاص العباد لله وآخرها الإسلام له وقال {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَآلِهَتُهُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} العنكبوت 46 ففيها الإيمان والإسلام في آخرها وقال {الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ} {69} ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون} {70} {الزخرف 69-70¹¹

مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 273-275

¹⁰مجموع الفتاوى ج: 27 ص: 278

¹¹مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 104-105

الإيمان بكلام الله داخل في الإيمان برسالة الله إلى عباده

الإختلاف في تنزيله هو بين المؤمنين والكافرين فإن المؤمنين يؤمنون بما أنزل والكافرون كفروا بالكتاب وبما أرسل الله به رسله فسوف يعلمون فالمؤمنون بجنس الكتاب والرسول من المسلمين واليهود والنصارى والصابئين يؤمنون بذلك والكافرون بجنس الكتاب والرسول من المشركين والمجوس والصابئين يكفرون بذلك وذلك أن الله أرسل الرسول إلى الناس لتبلغهم كلام الله الذي أنزله إليهم فمن آمن بالرسول آمن بما بلغوه عن الله ومن كذب بالرسول كذب بذلك فالإيمان بكلام الله داخل في الإيمان برسالة الله إلى عباده والكفر بذلك هو الكفر بهذا فتدبر هذا الأصل فإنه فرقان هذا الاشتباه ولهذا كان من يكفر بالرسول تارة يكفر بأن الله له كلام أنزله على بشر كما أنه قد يكفر برب العالمين مثل فرعون وقومه قال الله تعالى {أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ} يونس 2 الآية فإن في هذه الآيات تقرير قواعد وقال عن الوحيد {إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ} المدثر 25 ولهذا كان أصل الإيمان الايمان بما أنزله قال تعالى {الم {1} ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ} {2} الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ {3} {البقرة 1-3 إلى قوله { وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ} {4} وفي وسط السورة {قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} البقرة 136 الآية ولهذا عظم تقرير هذا الأصل في القرآن فتارة يفتح به السورة إما اخبارا كقوله {ذَلِكَ الْكِتَابُ} البقرة 2 وقوله {الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ} يونس 1 وقوله {الر كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ} هود 1 الآية وكذلك ال طسم وال حم فعامة ال الم وال الر وال طسم وال حم كذلك وإما ثناء بانزله كقوله {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا} الكهف 1 {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا} الفرقان الآية 1¹²

الرد على الجهمية الذين يزعمون ان كلام الله ليس من الله

نزل الكتاب من الله كما وقال تعالى {الر كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ} هود 1 وقال تعالى {تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} الجاثية 2 وقال تعالى {وَإِنَّكَ لَتَلْقَىٰ الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ} النمل 6¹³

ولهذا قال السلف والأئمة القرآن كلام الله منزل غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود فقولهم منه بدأ نيهوا به على مخالفة الجهمية الذين قالوا إنه خلقه في غيره منفصلا عنه فقال أهل السنة منه بدأ لم يبتدىء من غيره من الموجودات كما قال تعالى كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير سورة هود 1¹⁴

¹²مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 8-9

¹³مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 13

¹⁴سؤال عن يقول إن صفات ج: 1 ص: 162

روى أبو القاسم اللالكائي في أصول السنة قال أخبرنا الحسن بن عثمان قال حدثنا عمرو بن جعفر قال حدثنا أحمد بن الحسن الترمذي قال قلت لأحمد بن حنبل ان الناس قد وقعوا في القرآن فكيف أقول فقال أليس أنت مخلوقا قلت نعم قال فكلامك منك مخلوق قلت نعم قال أليس القرآن من كلام الله قلت نعم قال وكلام الله من الله قلت نعم قال فيكون من الله شيء مخلوق بين أحمد للسائل ان الكلام من المتكلم وقائم به لا يجوز ان يكون الكلام غير متصل بالمتكلم ولا قائم به بدليل ان كلامك أيها المخلوق منك لا من غيرك فاذا كنت انت مخلوقا وجب ان يكون كلامك ايضا مخلوقا وإذا كان الله تعالى غير مخلوق امتنع ان يكون ما هو منه وبه مخلوقا وقصده بذلك الرد على الجهمية الذين يزعمون ان كلام الله ليس من الله ولا متصل به فبين أن هذا الكلام ليس هو معنى كون المتكلم متكلم ولا هو حقيقة ذلك ولا هو مراد الرسل والمؤمنين من الاخبار عن ان الله قال ويقول وتكلم بالقرآن ونادى وناجى ودعا ونحو ذلك مما اخبرت به عن الله رسله واتفق عليه المؤمنون به من جميع الأمم ولهذا قال تعالى { وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي } {السجدة 13} وقال { تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ } {الزمر 1} وقال تعالى { وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنَ لَدُنِّ حَكِيمٍ عَلِيمٍ } {النمل 6} وقال تعالى { **الرَّ كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَبِيرٍ** } {هود 1} وليس القرآن عينا من الأعيان القائمة بنفسها حتى يقال هذا مثل قوله { وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ } {الجاثية 13} وإنما هو صفة كالعلم والقدرة والرحمة والغضب والارادة والنظر والسمع ونحو ذلك وذلك لا يقوم الا بموصوف وكل معنى له اسم وهو قائم بمحل وجب ان يشتق لمحله منه اسم وان لا يشتق لغير محله منه اسم فكما ان الحياة والعلم والقدرة اذا قام بموصوف وجب ان يشتق له منه اسم الحي والعالم والقادر ولا يشتق الحي والعالم والقادر لغير من قام به العلم والقدرة فكذلك القول والكلام والحب والبغض والرضا والرحمة والغضب والارادة والمشية اذا قام بمحل وجب ان يشتق لذلك الموصوف منه الاسم والفعل فيقال هو الصادق والشهيد والحكيم والودود والرحيم والأمر ولا يشتق لغيره منه اسم فلو لم يكن الله سبحانه وتعالى هو القائل بنفسه { **أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا** } طه 14 بل أحدث ذلك في غيره لم يكن هو الأمر بهذه الأمور ولا المخبر بهذا الخبر وكان ذلك المحل هو الأمر بهذا الأمر المخبر بهذا الخبر وذلك المحل اما الهواء وإما غيره فيكون ذلك المحل المخلوق هو القائل لموسى { **إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي** } طه 14 ولهذا كان السلف يقولون في هذه الآية وأمثالها من قال إنه مخلوق فقد كفر ويستعظمون القول بخلق هذه الآية وأمثالها أكثر من غيرها يعظم عليهم أن تقوم دعوى الالهية والربوبية لغير الله تعالى ولهذا كان مذهب جماهير أهل السنة والمعرفة وهو المشهور عند أصحاب الامام أحمد وأبي حنيفة وغيرهم من المالكية والشافعية والصوفية وأهل الحديث وطوائف من أهل الكلام من الكرامية وغيرهم ان كون الله سبحانه وتعالى خالقا ورازقا ومحيا ومميتا وباعثا ووارثا وغير ذلك من صفات فعله وهو من صفات ذاته ليس من يخلق كمن لا يخلق ومذهب الجمهور ان الخالق غير المخلوق فالخلق فعل الله القائم به والمخلوق هو المخلوقات المنفصلة عنه ¹⁵

محبة الله وتوحيده هو الغاية التي فيها صلاح للنفس

وتوحيد الله وإخلاص الدين له في عبادته وإستعانته في القرآن كثير جدا بل هو قلب الإيمان وأول الإسلام وآخره كما قال النبي صلى الله عليه وسلم أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله

إلا الله وأن محمدا رسول الله وقال إني لأعلم كلمة لا يقولها عند الموت أحد إلا وجد روحه لها روحا وقال من كان آخر كلامه لا إله إلا الله وجبت له الجنة وهو قلب الدين والإيمان وسائر الأعمال كالجوارح له وقول النبي إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل أمرى ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه فبين بهذا أن النية عمل القلب وهي أصل العمل وإخلاص الدين لله وعبادة الله وحده ومتابعة الرسول فيما جاء به هو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وهو دين الإسلام العام الذي بعث الله به جميع الرسل كما قال تعالى {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} النحل 36 وقال النبي لمعاذ بن جبل يا معاذ أتدرى ما حق الله على عباده قلت الله ورسوله أعلم قال حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك أن لا يعذبهم وقال لابن عباس إذا سألت فاسئل الله وإذا استعنت فاستعن بالله وقال تعالى {وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ ثَابِرُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ} هود 3¹⁶

قال تعالى {الر كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ} {1} أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ} {2} هود 1-2 ومحبة الله وتوحيده هو الغاية التي فيها صلاح للنفس وهو عبادة الله وحده لا شريك له فلا صلاح للنفس ولا كمال لها إلا في ذلك وبدون ذلك تكون فاسدة لا صلاح لها ولهذا كان هذا هو دين الإسلام الذي اتفقت عليه الرسل قال الله تعالى {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} آل عمران 85 وقد قال تعالى {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} الذاريات 56 فالغاية الحميدة التي بها يحصل كمال بني آدم وسعادتهم ونجاتهم عبادة الله وحده وهي حقيقة قول القائل لا إله إلا الله ولهذا بعث الله جميع الرسل وأنزل جميع الكتب ولا تصلح النفس وتزكو وتكمل إلا بهذا ولفظ العبادة يتضمن كمال الذل بكمال الحب فلا بد أن يكون العابد محبا للإله المعبود كمال الحب ولا بد أن يكون ذليلا له كمال الذل فمن أحب شيئا ولم يذل له لم يعبد ومن خضع له ولم يحبه لم يعبد وكمال الحب والذل لا يصلح إلا لله وحده فهو الإله المستحق للعبادة التي لا يستحقها إلا هو وذلك يتضمن كمال الحب والذل والإجلال والإكرام والتوكل والعبادة فالنفس محتاجة إلى الله من حيث هو معبودها ومنتهى مرادها وبغيتها ومن حيث هو ربها وخالقها فمن آمن بالله رب كل شيء وخالقه ولم يعبد إلا الله وحده بحيث يكون الله أحب إليه من كل ما سواه وأخشى عنده من كل ما سواه وأعظم عنده من كل ما سواه وأرجى عنده من كل ما سواه بل من سوى بين الله وبين بعض المخلوقات في الحب بحيث يحبه مثل ما يحب الله ويخشاه مثل ما يخشى الله ويرجوه مثل ما يرجو الله ويدعوه مثل ما يدعوه فهو مشرك الشرك الذي لا يغفره الله ولو كان مع ذلك عفيفا في طعامه ونكاحه وكان حكيما شجاعا¹⁷

¹⁶مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 72

¹⁷الجواب الصحيح ج: 6 ص: 32

قوام الدين بالتوحيد والاستغفار

قد رتب اقتران الاستغفار بالتوحيد في غير موضع كقوله {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ} محمد19 وقوله {أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ} {2} وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ {3} هود2-3 وقوله {فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ} فصلت6¹⁸

فإن أصل الشر هو الإشراف بالله كما أن أصل الخير هو الإخلاص لله فإن الله سبحانه خلق الخلق ليعبده وحده لا يشركوا به شيئاً وبذلك أرسل الرسل وبه أنزل الكتب كما قال تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} {الأنبياء25} وقال تعالى {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} {النحل36} العبادة تجمع كمال المحبة وكمال الذل والعبادة تجمع كمال المحبة وكمال الذل فالعابد محب خاضع بخلاف من يحب من لا يخضع له بل يحبه ليتوسل به إلي محبوب آخر وبخلاف من يخضع لمن لا يحبه كما يخضع للظالم فإن كلا من هذين ليس عبادة محضة وإن كل محبوب لغير الله ومعظم لغير الله ففيه شوب من العبادة كما قال النبي في الحديث الصحيح تعس عبد درهم تعس عبد الدينار تعس عبد القطيفة تعس عبد الخميصة تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش وذلك كما جاء في الحديث إن الشرك في هذه الأمة أخفي من دبيب النمل مع أنه ليس في الأمم أعظم تحقيقاً للتوحيد من هذه الأمة ولهذا كان شداد بن أوس يقول يا نعايا العرب يا نعايا العرب إن أخوف ما أخوف عليكم الرياء والشهوة الخفية قال أبو داود الشهوة الخفية حب الرياسة وفي حديث الترمذي عن كعب بن مالك أن النبي قال ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء علي المال والشرف لدينه قال الترمذي حديث حسن صحيح والحرص يكون علي قدر قوة الحب والبغض وقد قال الله تعالى {وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ} يوسف106 وروي أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال للنبي إذا كان الشرك أخفي من دبيب النمل فكيف نتجنبه فقال النبي ألا أعلمك كلمة إذا قلتها نجوت من قليله وكثيره قل اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم فأمره مع الاستعاذة من الشرك المعلوم بالاستغفار فإن الاستغفار والتوحيد بهما يكمل الدين كما قال تعالى {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ} محمد19 وقال تعالى {الرَّ كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ} {1} أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ} {2} وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ} {3} هود1-3 وفي الحديث إن الشيطان قال أهلكت بني آدم بالذنوب وأهلكوني بلا إله إلا الله والاستغفار فلما رأيت ذلك بنتت فيهم الأهواء فهم يذنبون ولا يستغفرون لأنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا وهذا كذلك فإن من اتخذ إلهه هواه صار يعبد من يهواه وقد زين له سوء عمله فرآه حسنا¹⁹

وكلما حقق العبد الاخلاص في قول لا اله الا الله خرج من قلبه تأله ما يهواه وتصرف عنه المعاصي والذنوب كما قال تعالى {كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ} يوسف24 فعلى من صرف السوء والفحشاء عنه بأنه من عباد الله المخلصين وهؤلاء هم الذين قال فيهم {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ} {الحجر42} وقال الشيطان {قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ} {82} إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ} {83} ص82-83 وقد ثبت في

¹⁸مجموع الفتاوى ج: 24 ص: 243

¹⁹قاعدة في المحبة ج: 1 ص: 104

الصحيح عن النبي انه قال من قال لا اله الا الله مخلصا من قلبه حرمة الله على النار فإن الاخلاص ينفى اسباب دخول النار فمن دخل النار من القائلين لا اله الا الله لم يحقق اخلاصها المحرم له على النار بل كان في قلبه نوع من الشرك الذي اوقعه فيما ادخله النار والشرك في هذه الأمة اخفى من ديبب النمل ولهذا كان العبد مأمورا في كل صلاة ان يقول {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} الفاتحة 5 والشيطان يأمر بالشرك والنفس تطيعه في ذلك فلا تزال النفس تلتفت الى غير الله اما خوفا منه واما رجاء له فلا يزال العبد مفتقرا الى تخليص توحيده من شوائب الشرك وفي الحديث الذي رواه ابن ابي عاصم وغيره عن النبي انه قال يقول الشيطان اهلكت الناس بالذنوب واهلكوني بلا اله الا الله والاستغفار فلما رأيت ذلك بثنت فيهم الأهواء فهم يذنبون ولا يستغفرون لأنهم يحسبون انهم يحسنون صنعا فصاحب الهوى الذي اتبع هواه بغير هدى من الله له نصيب ممن اتخذ الهه هواه فصار فيه شرك منعه من الاستغفار واما من حقق التوحيد والاستغفار فلا بد ان يرفع عنه الشر فلماذا قال ذو النون { لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ } الأنبياء 87 ولهذا يقرن الله بين التوحيد والاستغفار في غير موضع كقوله تعالى { فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرُ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ } محمد 19 وقوله { أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ } 2 { وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ ثَابَرُوا إِلَيْهِ } 3 { هود 2-3 } وقوله { وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ } 50 { هود 50 } الى قوله { وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ ثَابَرُوا إِلَيْهِ } هود 52 وقوله { فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ } فصلت 6 وخاتمة المجلس سبحانك اللهم وبحمدك اشهد ان لا اله الا انت استغفرك واتوب اليك ان كان مجلس رحمة كانت كالطابع عليه وان كان مجلس لغو كانت كفارة له وقد روى ايضا انها تقال في آخر الضوء بعد ان يقال اشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له واشهد ان محمدا عبده ورسوله اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين وهذا الذكر يتضمن التوحيد والاستغفار فان صدره الشهادتان اللتان هما اصلا الدين وجماعة فان جميع الذين داخل في الشهادتين اذ مضمونها ان لا نعبد الا الله وان نطيع رسوله و الدين كله داخل في هذا في عبادة الله بطاعة الله وطاعة رسوله وكل ما يجب او يستحب داخل في طاعة الله ورسوله وقد روى انه يقول سبحانك اللهم وبحمدك اشهد ان لا اله الا انت استغفرك واتوب اليك²⁰

الجمع بين التوحيد و التحميد و الاستغفار

و في حديث أبي سعيد الحمد رأس الشكر و التوحيد كما جمع بينهما في أم القرآن فأولها تحميد و أوسطها توحيد و آخرها دعاء و كما في قوله { هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } غافر 65 وفي حديث الموطأ أفضل ما قلت أنا و النبيون من قبلي لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك و له الحمد و هو على كل شيء قدير من قالها كتب الله له الف حسنة و حط عنه ألف سيئة و كانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك و لم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل قال مثلها أو زاد عليه و من قال في يوم مائة مرة سبحان الله و بحمده حطت خطاياها و لو كانت مثل زبد البحر وفضائل هذه الكلمات في أحاديث كثيرة و فيها التوحيد و التحميد فقوله لا اله الا الله وحده لا شريك له توحيد و قوله له الملك و له الحمد تحميد و فيها معان أخرى شريفة و قد جاء الجمع بين التوحيد و التحميد و الاستغفار في مواضع مثل حديث كفارة المجلس سبحانك اللهم و بحمدك أشهد أن لا اله الا أنت أستغفرك و أتوب إليك فيه التسبيح و التحميد و التوحيد و الاستغفار من قالها في مجلس إن كان مجلس لغو كانت كفارة له و إن كان مجلس ذكر كانت كالطابع له و في حديث أيضا إن هذا يقال عقب الضوء ففي الحديث الصحيح في مسلم و غيره من حديث

عقبة عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما منكم من أحد يتوضأ فيسبغ الوضوء ثم يقول أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له و أشهد أن محمدا عبده و رسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء و في حديث آخر أنه يقول سبحانك اللهم و بحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك و أتوب إليك وقد روى عن طائفة من السلف في الكلمات التي تلقاها آدم من ربه نحو هذه الكلمات روى ابن جرير عن مجاهد أنه قال اللهم لا إله إلا أنت سبحانك و بحمدك رب إنني ظلمت نفسي فاغفر لي أنك خير الغافرين اللهم لا إله إلا أنت سبحانك و بحمدك رب إنني ظلمت نفسي فارحمني فأنت خير الراحمين لا إله إلا أنت سبحانك و بحمدك رب إنني ظلمت نفسي قتب علي إنك انت التواب الرحيم فهذه الكلمات من جنس خاتمة الوضوء و خاتمة الوضوء فيها التسبيح و التحميد و التوحيد و الاستغفار فالتسبيح و التحميد و التوحيد لله فانه لا يأتي بالحسنات الا هو الاستغفار من ذنوب النفس التي منها تأتي السيئات وقد قرن الله في كتابه بين التوحيد و الاستغفار في غير موضع كقوله {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ} محمد19 و في قوله { أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ}2 { وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ }3 { هود-3 } و في قوله { قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ } فصلت6 و في حديث رواه ابن ابي عاصم و غيره يقول الشيطان أهلك الناس بالذنوب و أهلكوني بالاستغفار و بلا إله إلا الله فلما رأيت ذلك بثنت فيهم الأهواء فهم يذنبون لا يستغفرون لأنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا و لا إله إلا الله تقتضي الاخلاص و التوكل و الاخلاص يقتضي الشكر فهي أفضل الكلام و هي أعلى شعب الايمان كما ثبت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال الايمان بضع وستون أو بضع و سبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله و أدناها إمطة الأذى عن الطريق و الحياء شعبة من الايمان لا إله إلا الله هي قطب رحى الايمان و إليها يرجع الأمر كله و الكتب المنزلة مجموعة في قوله تعالى {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} الفاتحة5 و هي معنى لا إله إلا الله و لاحول و لا قوة إلا بالله هي من معنى لا إله إلا الله و الحمد لله في معناها و سبحان الله و الله أكبر من معناها لكن فيها تفصيل بعد إجمال²¹

وقد ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي أنه قال يقول الله تعالى من ذكرني في نفسه ذكرتة في نفسي و من ذكرني في ملاء ذكرتة في ملاء خير منه و من تقرب الي شبرا تقربت إليه ذراعا و من تقرب الي ذراعا تقربت اليه باعا و من أتاني يمشي أتيتة هرولة و في بعض الآثار يقول الله تعالى أهل ذكرى أهل مجالستي و أهل شكرى أهل زيارتي و أهل طاعتي أهل كرامتي و أهل معصيتي لا أؤيسهم من رحمتي و ان تابوا فانا حبيهم لأن الله يحب التوابين و ان لم يتوبوا فانا طيبهم ابتليهم بالمصائب حتى اطهرهم من المعائب و قد قال تعالى { وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا } طه112 قالوا الظلم أن يحمل عليه سيئات غيره و الهضم أن ينقض من حسنات نفسه و قال تعالى { وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } النحل118 و في الحديث الصحيح عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي قال يقول الله تعالى يا عبادي اني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا يا عبادي كلكم ضال الا من هديته فاستهدوني اهدكم عبادي كلكم جائع الى من اطعمته فاستطعموني اطعمكم يا عبادي كلكم عار الا من كسوته فاستكسوني اكسكم يا عبادي انكم تذنبون بالليل و النهار و انا اغفر الذنوب و لا ابالي فاستغفروني اغفر لكم يا عبادي لو ان اولكم و آخركم و انسكم و جنكم كانوا على

اتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئا يا عبادى لو ان اولكم وأخركم وانسكم وكنتم
كانوا على افجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئا يا عبادى لو ان اولكم وأخركم
وانسكم وكنتم اجتمعوا فى وصعيد واحد فسألونى فأعطيت كل واحد منهم مسألته ما نقص ذلك
من ملكى الا كما ينقص المخيط الا اذا غمس فى البحر يا عبادى انما هي اعمالكم احصيتها لكم ثم
اوفيكم اياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن الا نفسه ومن ذلك
رواه البخارى فى صحيحة عن شداد بن اوس قال قال رسول الله سيد الاستغفار ان يقول العبد
اللهم انت ربى لاله الا الله أنت خلقتنى وأنا عبدك وانا على عهدك ووعدك ما استطعت اعوذ بك
من شر ما صنعت ابوء لك بنعمتك على وأبوء بذنبي فاغفر لى فانه لا يغفر الذنوب الا انت من
قالها اذا اصبح موقنا بها فمات فى يومه دخل الجنة ومن قالها اذا أمسى موقنا بها فمات من ليلته
دخل الجنة فالعبد دائما بين نعمة من الله يحتاج فيها الى شكر وذنوب منه يحتاج فيه الى
الاستغفار وكل من هذين من الأمور اللازمة للعبد دائما فانه لا يزال يتقلب فى نعم الله والآله ولا
يزال محتاجا الى التوبة والاستغفار ولهذا كان سيد آدم وامام المتقين محمد يستغفر فى جميع
الاحوال وقال فى الحديث الصحيح الذى رواه البخارى ايها الناس توبوا الى ربكم فانى
لأستغفر الله واتوب اليه فى اليوم اكثر من سبعين مرة وفى صحيح مسلم انه قال انه ليغان
على قلبى وانى لأستغفر الله وأتوب اليه فى اليوم مائة مرة وقال عبد الله بن عمر كنا نعد
لرسول الله فى المجلس الواحد يقول رب اغفر لى وتب على انك انت التواب الغفور مائة مرة
ولهذا شرع الاستغفار فى خواتيم الأعمال قال تعالى { وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالسُّحَارِ } آل
عمران 17 وقال بعضهم احبوا الليل بالصلاة فلما كان وقت السحر امروا بالاستغفار وفى الصحيح
ان النبى كان اذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثا وقال اللهم انت السلام ومنك السلام تباركت
باذا الجلال والاکرام وقال تعالى { فَإِذَا أَقَضْتُمْ مِنْ عَرَقاتِ فَادْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ
{البقرة 198 الى قوله { وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } 199 {البقرة 198 وقد امر الله
نبيه بعد ان بلغ الرسالة وجاهد فى الله حق جهاده واتى بما امر الله به مما لم يصل اليه احد غيره
فقال تعالى { إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ } 1 { وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً } 2 { فَسَبَّحْ
بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً } 3 {النصر 1-3 ولهذا كان قوام الدين بالتوحيد والاستغفار
كما قال الله تعالى { الرِّ كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ } 1 { أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ
إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ } 2 { وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ
مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ } 3 {هود 3-1
الآية وقال تعالى { فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ } فصلت 6 وقال تعالى { فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ
وَاسْتَغْفِرْ لِدُنْيِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ } محمد 19 ولهذا جاء فى الحديث الذى رواه ابن أبى
عاصم وغيره يقول الشيطان أهلك الناس بالذنوب وأهلكونى بلا إله إلا الله والاستغفار فلما
رأيت ذلك بثنت فيهم الأهواء فهم يذنبون ولا يتوبون لأنهم يحسبون انهم يحسنون صنعا وقد
قال يونس { لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ } الأنبياء 87 وكان النبى إذا
ركب دابته يحمد الله ثم يكبر ثلاثا ويقول لا اله الا أنت سبحانك ظلمت نفسى فاغفر لى وكفارة
المجلس التى كان يختم بها المجلس سبحانك اللهم وبحمدك أشهد ان لا اله الا أنت استغفرك
واتوب اليك والله اعلم وصلى الله على محمد وسلم²²

والمؤمن مأمور بأن يفعل المأمور ويترك المحظور ويصبر على المقدر كما قال تعالى فى
قصة يوسف { إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } يوسف 90 فالتقوى فعل ما
أمر الله به وترك ما نهى الله عنه ولهذا قال الله تعالى { فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِدُنْيِكَ

وَسَبَّحَ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ { غافر 55 فأمره مع الاستغفار بالصبر فإن العباد لا بد لهم من الاستغفار أولهم وآخرهم وكان يقول اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي واسرافي في أمري وما أنت أعلم به مني اللهم اغفر لي خطيئتي وعمدي وهزلي وجمدي وكل ذلك عندي اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أنت أعلم به مني أنت المقدم وأنت المؤخر وقد ذكر عن آدم أبي البشر انه استغفر ربه وتاب اليه فاجتباه ربه فتاب عليه وهداه وعن ابيليس أبي الجن لعنه الله أنه أصر متعلقاً بالقدر فلعنه وأقصاه فمن أذنب وتاب وندم فقد أشبهه أباه ومن أشبهه أباه فما ظلم²³

الاستغفار دافع للعذاب

أن التوبة فرض على العباد دائماً واقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم حيث يقول في الحديث الصحيح أيها الناس توبوا إلى ربكم فالذي نفسى بيده انى لاستغفر الله وأتوب اليه في اليوم مائة مرة وفي رواية أكثر من سبعين مرة وآخر سورة نزلت عليه { إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ {1} وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا {2} فَسَبَّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَعِزْ بِهِ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا {3} النصر 1-3²⁴

في قوله تعالى { وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ { الأنفال 33 والكلام عليها من وجهين أحدهما في الاستغفار الدافع للعذاب والثاني في العذاب المدفوع بالاستغفار أما الأول فإن العذاب إنما يكون على الذنوب والاستغفار يوجب مغفرة الذنوب التي هي سبب العذاب فيندفع العذاب كما قال تعالى { **الرَّ كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ {1} أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ {2} وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتَّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ {3} هود 1-3** فبين سبحانه أنهم إذا فعلوا ذلك متعوا متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ويؤتي كل ذي فضل فضله فبين سبحانه أنهم إذا فعلوا ذلك متعوا متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ثم إن كان لهم فضل اوتوا الفضل وقال تعالى عن نوح { يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ {2} أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا أَمْرًا {3} يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى {4} نوح 2-4 إلى قوله { اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا {10} يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا {11} نوح 10-11 الآية وقال تعالى { اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ { هود 52 وذلك أنه قد قال تعالى { وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ { الشورى 30 وقال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا { آل عمران 155 وقال تعالى { أَوْلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ { آل عمران 165 وقال تعالى { وَإِنْ نُصِيبَهُمْ سَيِّئَةً بِمَا قَدَّمْتُمْ عَلَيْهَا لِنُذِرْهُمْ قَارِعَةً مِمَّا قَدَّمْتُمْ عَلَيْهَا لِيَنْصَلِحُوا { آل عمران 48 وقال تعالى { مَا

²³مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 87-90 و أمراض القلوب ج: 1 ص: 79 و التحفة العراقية ج:

أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنْ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ { النساء 79 } وأما العذاب المدفوع فهو يعم العذاب السماوي ويعم ما يكون من العباد وذلك أن الجميع قد سماه الله عذاباً كما قال تعالى في النوع الثاني { وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبُّونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ { البقرة 49 } وقال تعالى { قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخِزُّهُمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ { التوبة 14 } وكذلك { قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا { التوبة 52 } إذ التقدير بعذاب من عنده أو بعذاب بأيدينا كما قال تعالى { قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخِزُّهُمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ { التوبة 14 } وعلى هذا فيكون العذاب بفعل العباد وقد يقال التقدير { وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ { التوبة 52 } أو يصيبكم بأيدينا لكن الأول هو الأوجه لأن الإصابة بأيدي المؤمنين لا تدل على أنها إصابة بسوء إذ قد يقال أصابه بخير وأصابه بشر قال تعالى { وَإِنْ يَرِئُكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ { يونس 107 } وقال تعالى { فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خَلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ { الروم 48 } وقال تعالى { وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ { يوسف 56 } ولأنه لو كان لفظ الإصابة يدل على الإصابة بالشر لا كتفى بذلك في قوله { أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ { التوبة 52 } وقد قال تعالى أيضاً { أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَا لَهُمْ لَوْ لَأِ الْفَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا { 78 } مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنْ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ { 79 } { النساء 78-79 } ومن ذلك قوله تعالى { الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ { النور 2 } إلى قوله { وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ { النور 2 } وقوله تعالى { فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ { النساء 25 } ومن ذلك أنه يقال في بلال ونحوه كانوا من المعذبين في الأرض ويقال إن أبا بكر اشتري سبعة من المعذبين في الله وقال السفر قطعة من العذاب وإذا كان كذلك فقوله تعالى { قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ { الأنعام 65 } مع ما قد ثبت في الصحيحين عن جابر عن النبي أنه لما نزل قوله { قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ { الأنعام 65 } قال أعود بوجهك { أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ { الأنعام 65 } قال أعود بوجهك { أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ { الأنعام 65 } قال هاتان أهون يقتضى أن لبسنا شيْعاً وإذاقة بعضنا بأْسَ بعض هو من العذاب الذي يندفع الاستغفار كما قال { وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً { الأنفال 25 } وإنما تنفى الفتنة بالاستغفار من الذنوب والعمل الصالح وقوله تعالى { إِلَّا تَتَفَرَّوْا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ { التوبة 39 } قد يكون العذاب من عنده وقد يكون بأيدي العباد فإذا ترك الناس الجهاد في سبيل الله فقد يبتليهم بأن يوقع بينهم العداوة حتى تقع بينهم الفتنة كما هو الواقع فإن الناس إذا اشتغلوا بالجهاد في سبيل الله جمع الله قلوبهم وألف بينهم وجعل بأسهم على عدو الله وعدوهم وإذا لم ينفروا في سبيل الله عذبهم الله بأن يلبسهم شيْعاً ويذيق بعضهم بأس بعض وكذلك قوله { وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ { السجدة 21 } يدخل في العذاب الأدنى ما يكون بأيدي العباد كما قد فسر بوقعة بدر بعض ما وعد الله به المشركين من العذاب²⁵

والفتن سببها الذنوب والخطايا فعلى كل واحد ان يستغفر الله ويتوب إليه فإن ذلك يرفع العذاب وينزل الرحمة قال الله تعالى { وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ } الأنفال 33 وفى الحديث عن النبى من أكثر من الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجا ومن كل ضيق مخرجا ورزقه من حيث لا يحتسب قال الله تعالى { **الر كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ {1} أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ {2} وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَنِّعْكُمْ مِّنَّا عَا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ {3} هود 1-3** ²⁶

الإستغفار سبب للرزق والنعمة

وقد أخبر الله تعالى أن الحسنات يذهبن السيئات والإستغفار سبب للرزق والنعمة وأن المعاصي سبب للمصائب والشدة قال الله تعالى { **الر كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ {1} أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ {2} وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَنِّعْكُمْ مِّنَّا عَا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ {3} هود 1-3** وقال تعالى { **اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا {10} إِلَىٰ قَوْلِهِ { وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا {12} وقال تعالى { وَأَلَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِينَهُمْ مَّاءً غَدَقًا {16} لِنَفْسِنَهُمْ فِيهِ {17} الجن 16-17 وقال تعالى { وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } الأعراف 96 وقال تعالى { **وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمْ مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ {المائدة 66} وقال تعالى { وَمَا أَصَابَكُمْ مِّن مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ {الشورى 30} وقال تعالى { وَلَئِن أَدَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكَيُوسٌ كَفُورٌ {هود 9} وقال تعالى { مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ {النساء 79} وقال تعالى { فَأَخَذْنَا هُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ {42} فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ {43} الأنعام 42-43} وقد أخبر الله تعالى فى كتابه أنه يبتلى عباده بالحسنات والسيئات فالحسنات هي النعم والسيئات هي المصائب ليكون العبد صبارا شكورا وفى الصحيح عن النبى أنه قال والذى نفسى بيده لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له ²⁷****

قال تعالى { **مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ {79} النساء 79} فبين الله سبحانه أن الحسنات من الله ينعم بها عليهم وأن السيئة أنا تصيبهم بذنوبهم ولهذا قال تعالى { **وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ } الأنفال 33} فأخبر أنه لا يعذب مستغفرا لأن الإستغفار يمحو الذنب الذى هو سبب العذاب فيندفع العذاب كما فى سنن أبى داود وابن ماجه عن النبى أنه قال من أكثر الإستغفار جعل الله له من كل هم فرجا ومن كل****

²⁶مجموع الفتاوى ج: 35 ص: 84

²⁷مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 54

ضيق مخرجا ورزقه من حيث لا يحتسب وقد قال تعالى { أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ } {2} وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ } {3} هود-2-3 فبين أن من وحده واستغفره متعه متاعا حسنا إلى أجل مسمى ومن عمل بعد ذلك خيرا زاده من فضله وفي الحديث يقول الشيطان أهلك الناس بالذنوب وأهلكوني بلا إله إلا الله والإستغفار فلما رأيت ذلك بثنت فيهم الأهواء فهم بذنوب ولا يتوبون لأنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ولهذا قال تعالى { فَأَخَذْنَاَهُمْ بِالْبِئْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَنْصَرُّوْنَ } {الأنعام 42} أي فهلا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا فحقهم عند مجيء البأس التضرع وقال تعالى { وَلَقَدْ أَخَذْنَاَهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَنْصَرُّوْنَ } {المؤمنون 76} قال عمر بن عبد العزيز ما نزل بلاء إلا بذنب ولا رفع إلا بتوبة ولهذا قال تعالى { الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ } {173} فَأَنْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ فَغَدَّوْا لَهُمْ فَخَشَوْهُمْ فزادهم إيمانا رضوان الله والله ذو فضل عظيم {174} إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يَخَوْفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ } {175} آل عمران 173-175 فنهى المؤمنين عن خوف أولياء الشيطان وأمرهم بخوفه وخوفه يوجب فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه والإستغفار من الذنوب وحينئذ يندفع البلاء وينتصر على الأعداء فلهذا قال علي بن ابي طالب رضي الله عنه لا يخاف عبد إلا ذنبه وإن سلط عليه مخلوق فما سلط عليه إلا بذنوبه فليخف الله وليتب من ذنوبه التي ناله بها ما ناله كما في الأثر يقول الله أنا الله مالك الملوك قلوب الملوك ونواصيهم بيدي من اطاعني جعلتهم عليه رحمة ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة فلا تشتغلوا بسب الملوك وأطيعوني أعطف قلوبهم عليكم²⁸

فان الايمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية فكلما فعل العبد الطاعة محبة لله وخوفا منه وترك المعصية حبا له وخوفا منه قوى حبه له وخوفه منه فيزيل ما فى القلب من محبة غيره ومخافة غيره وهكذا امراض الأبدان فان الصحة تحفظ بالمثل والمرض يدفع بالضد فصحة القلب بالايمان تحفظ بالمثل وهو ما يورث القلب ايمانا من العلم النافع والعمل الصالح فتلك اغذية له كما فى حديث ابن مسعود مرفوعا وموقوفا ان كل آدب يحب أن تؤتى مأدبته وان مأدبة الله هى القرآن والآدب المضيف فهو ضيافة الله لعباده مثل آخر الليل واولقات الأذان والاقامة وفى سجوده وفى ادبار الصلوات ويضم الى ذلك الاستغفار فإنه من استغفر الله ثم تاب اليه متعه متاعا حسنا الى اجل مسمى قال تعالى { وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ } هود²⁹

²⁸مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 163

²⁹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 136

التوبة والاستغفار يكون من ترك الواجبات وفعل المحرمات

فى ان التوبة والاستغفار يكون من ترك الواجبات وفعل المحرمات و الأول يخفى على كثير من الناس قال تعالى {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِدُنُوبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ} غافر 55 وقال تعالى {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِدُنُوبِكَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ} محمد 19 وقال تعالى {لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ} الفتح 2 وقال {أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَيَسِيرٌ} 2 {وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُغْفِرْ لَكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى} 3 {هود 2-3} ومثل هذا فى القرآن كثير فنقول التوبة والاستغفار يكون من ترك مأمور ومن فعل محظور فان كلاهما من السيئات والخطايا والذنوب وترك الايمان و التوحيد و الفرائض التى فرضها الله تعالى على القلب والبدن من الذنوب بلا ريب عند كل أحد بل هى أعظم الصنفين كما قد بسطناه فيما كتبناه من القواعد قبل ذهابى إلى مصر فان جنس ترك الواجبات أعظم من جنس فعل المحرمات و إذ قد يدخل فى ذلك ترك الايمان والتوحيد ومن أتى بالايمان والتوحيد لم يخلد فى النار ولو فعل ما فعل ومن لم يأت بالايمان والتوحيد كان مخلدا ولو كانت ذنوبه من جهة الأفعال قليلة كالزهاد والعباد من المشركين وأهل الكتاب كعباد مشركى الهند وعباد النصارى وغيرهم فانهم لا يقتلون ولا يزنون ولا يظلمون الناس لكن نفس الايمان والتوحيد الواجب تركه ولكن يقال ترك الايمان والتوحيد الواجب إنما يكون مع الاشتغال بصدده وضده إذا كان كفرا فهم يعاقبون على الكفر وهو من باب المنهى عنه وإن كان ضده من جنس المباحات كالاشتغال بأهواء النفس ولذاتها من الأكل والشرب والرئاسة وغير ذلك عن الايمان الواجب فالعقوبة هنا لأجل ترك الايمان لا لأجل ترك هذا الجنس وقد يقال كل من ترك الايمان والتوحيد فلا يتركه إلا إلى كفر وشرك فان النفس لا بد لها من إله تعبده فمن لم يعبد الرحمن عبد الشيطان فيقال عبادة الشيطان جنس عام وهذا إذا أمره أن يشتغل بما هو مانع له من الايمان والتوحيد يقال عبده كما أن من أطاع الشيطان فقد عبده ولكن عبادة دون عبادة والناس نوعان طلاب دين وطلاب دنيا فهو يأمر طلاب الدين بالشرك والبدعة كعباد المشركين وأهل الكتاب ويأمر طلاب الدنيا بالشهوات البدنية وفى الحديث عن النبى أن أخوف ما أخاف عليكم شهوات الغي فى بطونكم وفروجكم ومضلات الفتن ولهذا قال الحسن البصرى لما ذكر الحديث لكل عامل شرة ولكل شرة فترة فان صاحبها سد وقارب فارجوه وان أشير إليه بالأصابع فلا تعدوه فقالوا أنت إذا مررت فى السوق أشار إليك الناس فقال إنه لم يعن هذا وإنما أراد المبتدع فى دينه والفاجر فى دنياه وقد بسطت الكلام على النوعين فى مواضع كما ذكرنا فى اقتضاء الصراط المستقيم الكلام على قوله تعالى {فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} التوبة 69 وبسط هذا له موضع آخر فان ترك الواجب وفعل المحرم متلازمان ولهذا كان من فعل ما نهى عنه يقال إنه عصى الأمر ولو قال لها إن عصيتى أمرى فأنت طالق فنهاها فعصته فيه وجهان أصحهما أنها تطلق وبعض الفقهاء يعلل ذلك بأن هذا يعد فى العرف عاصيا ويجعلون هذا فى الأصل نوعين والتحقيق ان كل نهى ففيه طلب واستدعاء لما يقصده الناهي فهو أمر فالأمر يتناول هذا وهذا ومنه قول الخضر لموسى {إِنَّكَ لَنْ تَسْتَبِيحَ مَعِيَ صَبْرًا} 67 {وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا} 68 {قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا} 69 {الكهف 68-69} وقال له {فَإِنْ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أَحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا} 70 {الكهف 70} فقوله {فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أَحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا} 70 {الكهف 70} قد تناوله قوله {وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا} 69 {الكهف 69} ومنه قول موسى لأخيه {مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ} 70

ضَلُّوا {92} أَلَّا تَتَّبِعْنَ أَفْعَصَيْتَ أَمْرِي {93} طه 92-93 موسى قال له { أَخْلَفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ } الأعراف 142 نهى وهو لومه على أنه لم يتبعه وقال أفحصيت أمرى وعباد العجل كانوا مفسدين وقد جعل هذا كله أمرا وكذلك قوله { مَلَانِكَةً غِلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ } التحريم 6 فهم لا يعصونه إذ إنهم وقوله عن الرسول { فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } النور 63 فمن ركب ما نهى عنه فقد خالف أمره وقال تعالى { فَأَكْثَلَا مِنْهَا فَبَدَّتْ لَهُمَا سَوَاتِهِمَا وَطَفِيفًا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى } طه 121 وإنما كان فعلا منهيًا عنه وقوله { وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ } الأحزاب 36 هو يتناول ما نهى عنه أقوى مما يتناول ما امر به فإنه قال فى الحديث الصحيح إذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما أستطعتم وقوله { يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ } النساء 42 فالمعصية مخالفة الأمر ومخالف النهى عاص فإنه مخالف الأمر وفاعل المحذور قد يكون أظهر معصية من تارك الأمور و بالجملة فهما متلازمان كل من أمر بشيء فقد نهى عن فعل ضده ومن نهى عن فعل فقد أمر بفعل ضده كما بسط فى موضعه ولكن لفظ الأمر يعم النوعين واللفظ العام قد يخص احد نوعيه باسم ويبقى الاسم العام للنوع الآخر فلفظ الامر عام لكن خصوا أحد النوعين بلفظ النهى فاذا قرن النهى بالأمر كان المراد به أحد النوعين لا العموم و المقصود أن الاستغفار والتوبة يكونان من كلا النوعين و أيضا فالاستغفار والتوبة مما فعله وتركه فى حال الجهل قبل أن يعلم أن هذه قبيح من السيئات وقبل أن يرسل اليه رسول وقبل أن تقوم عليه الحجة فإنه سبحانه قال { وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا } الإسراء 15 أمر الله الناس أن يتوبوا ويستغفروا مما فعلوه فلو كان كالمباح المستوى الطرفين والمعفو عنه وكفعل الصبيان والمجانين ما أمر بالاستغفار والتوبة فعلم أنه كان من السيئات القبيحة لكن الله لا يعاقب الا بعد إقامة الحجة وهذا كقوله تعالى { الر كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ } {1} أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ {2} وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ } {3} هود 1-3

فدل على أنها كانت ذنوبا قبل انذاره إياهم³⁰

ما تعلق به المشيئة تعلق به القدرة

قال تعالى { إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } يونس 4 فإن ما تعلق به المشيئة تعلق به القدرة فإن ما شاء الله كان ولا يكون شيء إلا بقدرته وما تعلق به القدرة من الموجودات

تعلقت به المشيئة فإنه لا يكون شيء إلا بقدرته ومشيئته وما جاز أن تتعلق به القدرة جاز أن تتعلق به المشيئة وكذلك بالعكس وما لا فلا ولهذا قال { إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } البقرة 20 والشيء في الأصل مصدر شاء يشاء شيئاً كمال ينال نيلاً ثم وضعوا المصدر موضع المفعول فسموا المشيء شيئاً كما يسمى المنيل نيلاً فقالوا نيل المعدن و كما يسمى المقدر قدرة والمخلوق خلقاً فقوله { عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } البقرة 20 أي على كل ما يشاء فمنه ما قد شيء فوجد ومنه ما لم يشأ لكنه شيء في العلم بمعنى أنه قابل لأن يشاء وقوله { عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ } البقرة 20 يتناول ما كان شيئاً في الخارج والعلم أو ما كان شيئاً في العلم فقط بخلاف ما لا يجوز أن تتناوله المشيئة وهو الحق تعالى و صفاته أو الممتنع لنفسه فإنه غير داخل في العموم ولهذا إتفق الناس على أن الممتنع لنفسه ليس بشيء³¹

اتفق المسلمون وسائر أهل الملل على أن الله على كل شيء قدير كما نطق بذلك القرآن أي في مواضع كثيرة جداً وقد بسطت الكلام في الرد على من أنكر قدرة الرب في غير موضع كما قد كتبناه على الأربعة والمحصل وفي شرح الأصبهانية وغير ذلك وتكلمنا على ما ذكره الرازي وغيره في مسألة كون الرب قادراً مختاراً وما وقع فيها من التقصير الكثير مما ليس هذا موضعه والمقصود هنا الكلام بين أهل الملل الذين يصدقون الرسل فنقول هنا مسائل المسألة الأولى قد أخبر الله أنه على كل شيء قدير والناس في هذا على ثلاثة أقوال طائفة تقول هذا عام يدخل فيه الممتنع لذاته من الجمع بين الضدين وكذلك دخل في المقدر كما قال ذلك طائفة منهم ابن حزم وطائفة تقول هذا عام مخصوص يخص منه الممتنع لذاته فإنه وإن كان شيئاً فإنه لا يدخل في المقدر كما ذكر ذلك ابن عطية وغيره وكلا القولين خطأ والصواب هو القول الثالث الذي عليه عامة النظار وهو أن الممتنع لذاته ليس شيئاً ألبتة وأن كانوا متنازعين في المعدوم فإن الممتنع لذاته لا يمكن تحققه في الخارج ولا يتصوره الذهن ثابتاً في الخارج ولكن يقدر اجتماعهما في الذهن ثم يحكم على ذلك بأنه ممتنع في الخارج إذ كان يمتنع تحققه في الأعيان وتصوره في الأذهان إلا على وجه التمثيل بأن يقال قد تجتمع الحركة والسكون في الشيء فهل يمكن في الخارج أن يجتمع السواد والبياض في محل واحد كما تجتمع الحركة والسكون فيقال هذا غير ممكن فيقدر اجتماع نظير الممكن ثم يحكم بامتناعه وأما نفس اجتماع البياض والسواد في محل واحد فلا يمكن ولا يعقل فليس بشيء لا في الأعيان ولا في الأذهان فلم يدخل في قوله وهو على كل شيء قدير المسألة الثانية أن المعدوم ليس بشيء في الخارج عند الجمهور وهو الصواب وقد يطلقون أن الشيء هو الموجود فيقال على هذا فيلزم أن لا يكون وقادراً إلا على موجود وما لم يخلقه لا يكون قادراً عليه وهذا قول بعض أهل البدع قالوا لا يكون قادراً إلا على ما أراده دون ما لم يردده ويحكي هذا عن تلميذ النظام والذين قالوا إن الشيء هو الموجود من نظار المثبتة كالأشعري ومن وافقه من أتباع الأئمة أحمد وغير أحمد كالقاضي أبي يعلى وابن الزاغوني وغيرهما يقولون أنه قادر على الموجود فيقال أن هؤلاء أثبتوا ما لم تثبته الآية فالآية أثبتت قدرته على الموجود وهؤلاء قالوا هو قادر على الموجود والمعدوم والتحقيق أن الشيء اسم لما يوجد في الأعيان ولما يتصور في الأذهان فما قدره الله وعلم أنه سيكون هو شيء في التقدير والعلم والكتاب وأن لم يكن شيئاً في الخارج ومنه قوله { إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } يس 82 و لفظ الشيء في الآية يتناول هذا وهذا فهو على كل شيء ما وجد وكل ما يتصوره الذهن موجوداً إن تصور أن يكون موجوداً قدير لا يستثنى من ذلك شيء ولا يزداد عليه شيء كما قال تعالى

{بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَنْ تُسَوِّيَ بَنَانَهُ} {القيامة} 4 وقال {قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ} {الأنعام} 65 وقد ثبت في الصحيحين أنها لما نزلت قال النبي صلى الله عليه وسلم أعوذ بوجهك فلما نزل {أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ} {الأنعام} 65 الآية قال هاتان أهون فهو قادر على الأولتين وإن لم يفعلهما وقال {وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لِقَادِرُونَ} {المؤمنون} 18 قال المفسرون لقادرون على أن نذهب به حتى تموتوا عطشا وتهلك مواشيكم وتخرب أراضيكم و معلوم أنه لم يذهب به وهذا كقوله {أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ} {الواقعة} 68 إلى قوله و {وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ} {الواقعة} 82 وهذا يدل على أنه قادر على ما لا يفعله فإنه أخبر أنه لو شاء جعل الماء أجاجا وهو لم يفعله ومثل هذا و {وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا} {السجدة} 13 {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ} {يونس} 99 {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَنَّا الْيَهُودَ} {البقرة} 253 فإنه أخبر في غير موضع أنه لو شاء لفعل أشياء وهو لم يفعلها فلو لم يكن قادرا عليها لكان إذا شاءها لم يمكن فعلها المسألة الثالثة أنه على كل شيء قدير فيدخل في ذلك أفعال العباد وغير أفعال العباد وأكثر المعتزلة يقولون أن أفعال العبد غير مقدورة المسألة الرابعة أنه يدخل في ذلك أفعال نفسه وقد نطقت النصوص بهذا وهذا كقوله تعالى {أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ} {يس} 81 {أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ} {القيامة} 40 {بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَنْ تُسَوِّيَ بَنَانَهُ} {القيامة} 4 ونظائره كثيرة والقدرة على الأعيان جاءت في مثل قوله {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سَلَالَةٍ مِّن طِينٍ} {المؤمنون} 12 {أَيَحْسَبُ أَنْ لَّنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ} {البلد} 5 وجاءت منصوصا عليها في الكتاب والسنة أما الكتاب فقوله {فَأِمَّا تَدَّهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ} {الزخرف} 41 فبين أنه سبحانه يقدر عليهم أنفسهم وهذا نص في قدرته على الأعيان المفعولة وقوله {وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ} {ق} 45 و {أَلَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ} {الغاشية} 22 ونحو ذلك وهو يدل بمفهومه على أن الرب هو الجبار عليهم المسيطر وذلك يستلزم قدرته عليهم وقوله {فَطَنُّ أَنْ لَّنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ} {الأنبياء} 87 على قول الحسن وغيره من السلف ممن جعله من القدرة دليل على أن الله قادر عليه وعلى أمثاله وكذلك قول الموصي لأهله لئن قدر الله على ليعذبني عذابا ما عذبه أحدا من العالمين فلما حرقوه أعاده الله تعالى وقال له ما حملك على ما صنعت قال خشيتك يارب فغفر له وهو كان مخطئا في قوله لئن قدر الله على ليعذبني كما يدل عليه الحديث وأن الله قدر عليه لكن لخشيته وإيمانه غفر الله له هذا الجهل والخطأ الذي وقع منه وقد يستدل بقوله {أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ} {المرسلات} 20 إلى قوله {فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ} {المرسلات} 23 على قول من جعله من القدرة فإنه يتناول القدرة على المخلوقين وإن كان سبحانه قادرا أيضا على خلقه فالقدرة على خلقه قدرة عليه والقدرة عليه قدرة على خلقه وجاء أيضا الحديث منصوصا في مثل قول النبي صلى الله عليه وسلم لأبي مسعود لما رآه يضرب عبده الله أقدر عليك منك على هذا فهذا فيه بيان قدرة الرب على عين العبد وأنه أقدر عليه منه على عبده وفيه إثبات قدرة العبد

الله سبحانه بصير لا تخفى عليه خافية

(فيه نقص بالبداية)

ان الله هو سبحانه بصير لا تخفى عليه خافية و إنما ذلك ظن الذين كفروا و الذين اخبر الله عنهم بقوله {أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتُونُ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَعْشُونَ تِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} هود³³

كتب الله في اللوح المحفوظ مقادير الخلق

و التوحيد في العبادات المتضمن للإيمان بالشرع والقدر جميعا فنقول لا بد من الإيمان بخلق الله وأمره فيجب الإيمان بأن الله خالق كل شيء وربّه ومليكه وأنه على كل شيء قدير وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ولا حول ولا قوة إلا بالله وقد علم ما سيكون قبل أن يكون وقدر المقادير وكتبها حيث شاء كما قال تعالى {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} الحج 70 وفي الصحيح عن النبي أنه قال إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء ويجب الإيمان بأن الله أمر بعبادته وحده لا شريك له كما خلق الجن والإنس لعبادته وبذلك أرسل رسله وأنزل كتبه³⁴

وتؤمن الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة بالقدر خيره وشره والإيمان بالقدر على درجتين كل درجة تتضمن شيئين فالدرجة الأولى الإيمان بأن الله تعالى عليم بما الخلق عاملون بعلمه القديم الذي هو موصوف به أزلا وأبدا وعلم جميع أحوالهم من الطاعات والمعاصي والأرزاق والأجال ثم كتب الله في اللوح المحفوظ مقادير الخلق فأول ما خلق الله القلم قال له اكتب قال ما اكتب قال اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه جفت الأقلام وطويت الصحف كما قال تعالى {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} هود⁶ وهذا التقدير التابع لعلمه سبحانه يكون في مواضع جملة وتفصيلا فقد كتب في اللوح المحفوظ ما شاء وإذا خلق جسد الجنين قبل خلق الروح فيه بعث إليه ملكا فيؤمر بأربع كلمات فيقال له اكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أم سعيد ونحو ذلك (فيه نقص الدرجة الثانية)³⁵

قال تعالى {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ} القمر 49 وهو سبحانه يعلم قبل أن يخلق الأشياء كل ما سيكون وهو يخلق بمشيئته فهو يعلمه ويريده وعلمه وإرادته قائم بنفسه وقد يتكلم به ويخبر به كما في قوله {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ} {171} {إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ} {172} وَإِنَّ

³³ شرح العمدة ج: 4 ص: 258

³⁴ مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 89

³⁵ العقيدة الواسطية ج: 1 ص: 36

جُنْدَنَا لَهُمُ الْعَالِيُونَ {173} الصافات 171-173 وهو سبحانه كتب ما يقدره فيما يكتبه فيه كما قال { أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ } الحج 70 قال ابن عباس إن الله خلق الخلق وعلم ما هم عاملون ثم قال لعلمه كن كتابا فكان كتابا ثم أنزل تصديق ذلك في قوله { أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ } الحج 70 وقال للملائكة { وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ } البقرة 30 فالملائكة قد علمت ما يفعل بنو آدم من الفساد وسفك الدماء فكيف لا يعلمه الله سواء علموه بإعلام الله فيكون هو أعلم بما علمهم إياه كما قاله أكثر المفسرين أو قالوه بالقياس على من كان قبلهم كما قاله طائفة منهم أو بغير ذلك والله أعلم بما سيكون من مخلوقاته الذين لا علم لهم إلا ما علمهم وما أوحاه إلى أنبيائه وغيرهم مما سيكون هو أعلم به منهم فإنهم لا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء³⁶

الرزق يراد به شيان

قال تعالى { وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ } هود 6 أن لفظ الرزق يراد به ما أباحه الله تعالى للعبد وملكه إياه و يراد به ما يتغذى به العبد فالأول كقوله { أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ } البقرة 254 { وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ } البقرة 3 فهذا الرزق هو الحلال و المملوك لا يدخل فيه الخمر و الحرام و الثاني كقوله { وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا } هود 6 و الله تعالى يرزق البهائم و لا توصف بأنها تملك و لا بأنه أباح الله ذلك لها إباحة شرعية فإنه لا تكليف على البهائم و كذلك الأطفال و المجانين لكن ليس بمملوك لها و ليس بمحرم عليها و إنما المحرم بعض الذي يتغذى به العبد و هو من الرزق الذي علم الله أنه يغتذى به و قدر ذلك بخلاف ما أباحه و ملكه كما في الصحيحين عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال يجمع خلق أحدكم في بطن أمه أربعين يوما نطفة ثم يكون مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الملك فيؤمر بأربع كلمات فيقال أكتب رزقه و أجله و عمله و شقي أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح قال فولذي نفس بيده إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه و بينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها و إن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه و بينهما إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها و الرزق الحرام مما قدره الله و كتبه الملائكة و هو مما دخل تحت مشيئة الله و خلقه و هو مع ذلك قد حرمه و نهي عنه فلفاعله من غضبه و ذمه و عقوبته ما هو أهله و الله أعلم³⁷

و لفظ الرزق فيه إجمال فقد يراد بلفظ الرزق ما أباحه أو ملكه فلا يدخل الحرام في مسمى هذا الرزق كما في قوله تعالى { وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ } البقرة 3 و قوله تعالى { أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ } البقرة 254 و قوله { وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنْ رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا } النحل 75 وأمثال ذلك وقد يراد بالرزق ما ينتفع به الحيوان وإن لم يكن هناك إباحة و لا تمليك فيدخل فيه الحرام كما في قوله تعالى { وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا } هود 6

³⁶مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 381-382

³⁷مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 545-546

وقوله عليه السلام فى الصحيح فيكتب رزقه وعمله وأجله وشقى أو سعيد ولما كان لفظ الجبر والرزق ونحوهما فيها إجمال منع الأئمة من إطلاق ذلك نفيًا أو إثباتًا كما تقدم عن الأوزاعي وأبى إسحاق الفزاري وغيرهما من الأئمة³⁸

الرد على قول الغزالي أن الله ضمن الرزق ضمانًا مطلقًا من غير شرط الطلب و الكسب

وسئل شيخ الإسلام أحمد بن تيمية قدس الله روحه عما قاله أبو حامد الغزالي فى كتابه المعروف بمنهاج العابدين فى زاد الآخرة من العقبة الرابعة و هي العوارض بعد كلام تقدم فى التوكل بأن الرزق مضمون قال فإن قيل هل يلزم العبد طلب الرزق بحال فاعلم أن الرزق المضمون هو الغذاء و القوام فلا يمكن طلبه إذ هو شيء من فعل الله بالعبد كالحياة و الموت و لا يقدر العبد على تحصيله و لا دفعه و ما المقسوم من الأسباب فلا يلزم العبد طلبه إذ لا حاجة للعبد الى ذلك إنما حاجته الى المضمون وهو من الله و فى ضمان الله و أما قوله تعالى {وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ} الجمعة 10 المراد به العلم والثواب و قيل بل هو رخصة إذ هو أمر وارد بعد الحظر فيكون بمعنى الإباحة لا بمعنى الإيجاب والإلزام فإن قيل لكن هذا الرزق المضمون له أسباب هل يلزم منا طلب الأسباب قيل لا يلزم منك طلب ذلك إذ لإباحة بالعبد إليه إذ الله سبحانه يفعل بالسبب و بغير السبب فمن أين يلزمنا طلب السبب ثم أن الله ضمن ضمانًا مطلقًا من غير شرط الطلب و الكسب قال تعالى {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا} هود 6 ثم كيف يصح أن يأمر العبد بطلب ما لا يعرف مكانه فيطلبه إذ لا يعرف أي سبب منها رزقه يتناوله لا عرف الذي صير سبب غذائه و تربيته لا غير فالواحد منا لا يعرف ذلك السبب بعينه من أين حصل له فلا يصح تكليفه فتأمل راشدا فإنه بين ثم حسبك أن الأنبياء صلوات الله و سلامه عليهم و الأولياء المتوكلين لم يطلبوا الرزق فى الأكثر و الأعم و تجردوا للعبادة و باجماع أنهم لم يكونوا تاركين لأمر الله تعالى و لا عاصين له فى ذلك فليس لك أن تطلب الرزق و أسبابه بأمر لازم للعبد فما الفرق بين هذا الكلام من هذا الإمام و المنصوص عليه فى كتب الأئمة كالشفقة و غيره و هو أن العبد يجب عليه طلب الرزق و طلب سببه و أبلغ من ذلك أن العبد لو احتاج إلى الرزق و وجده عند غيره فاضلا عنه و جب عليه طلبه منه فإن منعه قهره و أن قتله فهل هذا الذى نص عليه فى المنهاج يختص بأحد دون أحد فأوضحوا لنا ما أشكل علينا من تناقض الكلامين مثابين مأجورين و أبسطوا لنا القول

فأجاب رضى الله عنه الحمد لله رب العالمين هذا الذى ذكره أبو حامد قد ذهب إليه طائفة من الناس و لكن أئمة المسلمين و جمهورهم على خلاف هذا و أن الكسب يكون و اجبا تارة و مستحبا تارة و مكروها تارة و مباحا تارة و محرما تارة فلا يجوز إطلاق القول بأنه لم يكن منه شيء و اجب كما أنه لا يجوز إطلاق القول بأنه ليس منه شيء محرم و السبب الذى أمر العبد به أمر إيجاب أو أمر إستحباب هو عبادة الله و طاعته له و لرسوله و الله فرض على العباد أن يعبدوه و يتوكلوا عليه كما قال تعالى {فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ} هود 123 و قال {وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا} {8} رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً} {9} المزملة 8-9 و قال {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا} {2} وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ} {3} الطلاق 2-3 و التقوى تجمع فعل ما أمر الله به و ترك ما نهى الله عنه و يروى عن

أبى ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ياأبا ذر لو عمل الناس كلهم بهذه الآية لوسعتهم ولهذا قال بعض السلف ما احتاج تقى قط يقول أن الله ضمن للمتقين أن يجعل لهم مخرجا مما يضيق على الناس و أن يرزقهم من حيث لا يحتسبون فيدفع عنهم ما يضرهم و يجلب لهم ما يحتاجون إليه فإذا لم يحصل ذلك دل على أن فى التقوى خلا فليستغفر الله و ليتب إليه و لهذا جاء فى الحديث المرفوع الى النبي صلى الله عليه وسلم الذي رواه الترمذى أنه قال من أكثر الإستغفار جعل الله له من كل هم فرجا و من كل ضيق مخرجا و رزقه من حيث لا يحتسب و المقصود أن الله لم يأمر بالتوكل فقط بل أمر مع التوكل بعبادته و تقواه التى تتضمن فعل ما أمر و ترك ما حذر فمن ظن أنه يرضى ربه بالتوكل بدون فعل ما أمر به كان ضالا كما أن من ظن أنه يقوم بما يرضى الله عليه دون التوكل كان ضالا بل فعل العبادة التى أمر الله بها فرض وإذا أطلق لفظ العبادة دخل فيها التوكل و إذا قرن أحدهما بالآخر كان للتوكل إسم يخصه كما فى نظائر ذلك مثل التقوى و طاعة الرسول فإن التقوى إذا أطلقت دخل فيها طاعة الرسول و قد يعطف أحدهما على الآخر كقول نوح عليه السلام { أَنْعَمُوا اللَّهُ وَفُؤَلُوا قَوْلًا سَدِيدًا } الأحزاب 70 و أمثال ذلك و قد جمع الله بين عبادته و التوكل عليه فى مواضع كقوله تعالى { قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٌ } الرعد 30 و قول شعيب { عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أَنِيبُ } الشورى 10 فإن الإنابة الى الله و المتاب هو الرجوع إليه بعبادته و طاعته و طاعة رسوله و العبد لا يكون مطيعا لله و رسوله فضلا أن يكون من خواص أوليائه المتقين إلا بفعل ما أمر به و ترك ما نهى عنه و يدخل فى ذلك التوكل و أما من ظن أن التوكل يغني عن الأسباب المأمور بها فهو ضال و هذا كمن ظن أنه يتوكل على ما قدر عليه من السعادة و الشقاوة بدون أن يفعل ما أمره الله و هذه المسألة مما سئل عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم كما فى الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم قال ما منكم من أحد إلا و قد كتب مقعده من الجنة و النار فقل يا رسول الله أفلا ندع العمل و نتكل على الكتاب فقال لا إعملوا فكل ميسر لما خلق له و كذلك فى الصحيحين عنه أنه قيل له أ رأيت ما يعمل الناس فيه و يكدحون أفيما جفت الأقلام و طويت الصحف و لما قيل له أفلا نتكل على الكتاب قال لا إعملوا فكل ميسر لما خلق له و بين صلى الله عليه وسلم أن الأسباب الخلوقة و المشروعة هي من القدر فقل له أ رأيت رقى نسترقى بها و تقى ننقى بها و أدوية ننداوي بها هل ترد من قدر الله شيئا فقال هي من قدر الله فالإلتفات الى الأسباب شرك فى التوحيد و محو الأسباب أن تكون أسبابا نقض فى العقل و الأعراض عن الأسباب المأمور بها قدح فى الشرع فعلى العبد أن يكون قلبه متعمدا على الله لا على سبب من الأسباب و الله يبسر له من الأسباب ما يصلحه فى الدنيا و الآخرة فإن كانت الأسباب مقدورة له و هو مأمور بها فعلها مع التوكل على الله كما يؤدي الفرائض و كما يجاهد العدو و يحمل السلاح و يلبس جنة الحرب و لا يكتفى فى دفع العدو على مجرد توكله بدون أن يفعل ما أمر به من الجهاد و من ترك الأسباب المأمور بها فهو عاجز مفرط مذموم و فى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال المؤمن القوي خير و أحب الى الله من المؤمن الضعيف و فى كل خير احرص على ما ينفعك و استعن بالله و لا تعجزن و إن أصابك شيء فلا تقل لو أنى فعلت لكان كذا و كذا و لكن قل قدر الله و ما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان و فى سنن أبى داود أن رجلين تحاكما الى النبي صلى الله عليه وسلم فقضى على أحدهما فقال المقضى عليه حسبنا الله و نعم الوكيل فقال صلى الله عليه وسلم إن الله يلوم على العجز و لكن عليك بالكيس فإن غلبك أمر فقل حسبنا الله و نعم الوكيل و قد تكلم الناس فى حمل الزاد فى الحج و غيره من الأسفار فالذي مضت عليه سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم و سنة خلفائه الراشدين و أصحابه و التابعين لهم بإحسان و أكابر المشائخ هو حمل الزاد لما فى ذلك من طاعة الله و رسوله و إنتفاع الحامل و نفعه للناس و زعمت طائفة أن من تمام التوكل أن لا يحمل الزاد و قد رد الأكاب هذا القول كما رده الحارث المحاسبى فى كتاب التوكل و حكاه عن شقيق البلخي و بالغ فى الرد على من قال بذلك و ذكر من الحجج عليهم ما يبين به غلطهم و

أنهم غالطون في معرفة حقيقة التوكل و أنهم عاصون لله بما يتركون من طاعته وقد حكي لأحمد بن حنبل أن بعض الغلاة الجهال بحقيقة التوكل كان إذا وضع له الطعام لم يمد يده حتى يوضع في فمه و إذا وضع يطبق فمه حتى يفتحوه و يدخلوا فيه الطعام فأنكر ذلك أشد الإنكار و من هؤلاء من حرم المكاسب وهذا و أمثاله من قلة العلم بسنة الله في خلقه و أمره فإن الله خلق المخلوقات بأسباب و شرع للعباد أسبابا ينالون بها مغفرته و رحمته و ثوابه في الدنيا و الآخرة فمن ظن أنه بمجرد توكله مع تركه ما أمره الله به من الأسباب يحصل مطلوبه و أن المطالب لا تتوقف على الأسباب التي جعلها الله أسبابا لها فهو غالط فالله سبحانه و إن كان قد ضمن للعبد رزقه و هو لا يد أن يرزقه ما عمر فهذا لا يمنع أن يكون ذلك الرزق المضمون له أسباب تحصل من فعل العبد و غيره فعله و أيضا فقد يرزقه حلالا و حراما فإذا فعل ما أمره به رزقه حلالا و إذا ترك ما أمره به فقد يرزقه من حرام و من هذا الباب الدعاء و التوكل فقد ظن بعض الناس أن ذلك لا تأثير له في حصول مطلوب و لا دفع مرهوب و لكنه عبادة محضة و لكن ما حصل به حصل بدون و ظن آخرون أن ذلك مجرد علامة و الصواب الذي عليه السلف و الأئمة و الجمهور أن ذلك من أعظم الأسباب التي تنال بها سعادة الدنيا و الآخرة و ما قدره الله بالدعاء و التوكل و الكسب و غير ذلك من الأسباب إذا قال القائل فلو لم يكن السبب ماذا يكون بمنزلة من يقول هذا المقتول لو لم يقتل هل كان يعيش و قد ظن بعض القدرية أنه كان يعيش و ظن بعض المنتسبين الى السنة أنه كان يموت و الصواب أن هذا تقدير لأمر علم الله أنه يكون فالله قدر موته بهذا السبب فلا يموت إلا به كما قدر الله سعادة هذا في الدنيا و الآخرة بعبادته و دعائه و توكله و عمله الصالح و كسبه فلا يحصل إلا به و إذا قدر عدم هذا السبب لم يعلم ما يكون المقدر و بتقدير عدمه فقد يكون المقدر حينئذ أنه يموت و قد يكون المقدر أنه يحيى و الجزم بإحدهما خطأ و لو قال القائل أنا لا أكل و لا أشرب فإن كان الله قدر حياتي فهو يحييني بدون الأكل و الشرب كان أحق كمن قال أنا لا أطأ إمرأتى فإن كان الله قدر لي و لدا تحمل من غير ذكر إذا عرف هذا فالسالكون طريق الله منهم من يكون مع قيامه بما أمره الله به من الجهاد و العلم و العبادة و غير ذلك عاجزا عن الكسب كالذين ذكرهم الله في قوله {لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا} البقرة 273 و الذين ذكرهم الله في قوله {لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} الحشر 8 فالصنف الأول أهل صدقات و الصنف الثاني أهل الفاء كما قال تعالى في الصنف الأول {إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} البقرة 271 الى قوله {لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ} البقرة 273 و قال في الصنف الثاني {مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ} الحشر 7 الى قوله {لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ} الحشر 8 ثم قال {الَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ} الحشر 9 فذكر المهاجرين و الأنصار و كان المهاجرون تغلب عليهم التجارة و الأنصار تغلب عليهم الزراعة و قد قال للطائفتين {أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ} البقرة 267 فذكر زكاة التجارة و زكاة الخارج من الأرض و هو العشر أو نصف العشر أو ربع العشر و من السالكين من يمكنه الكسب مع ذلك و قد قال تعالى لما أمرهم بقيام الليل {عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} المزمل 20 فجعل المسلمين أربعة أصناف صنفا أهل القرآن و العلم و العبادة و صنفا يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله و صنفا يجاهدون في سبيل الله و الرابع المعذورون و أما قول القائل أن الغذاء و القوام هو من فعل الله فلا يمكن طلبه كالحياة فليس كذلك هو بل ما فعل الله بأسباب يمكن طلبه بطلب الأسباب كما مثله في الحياة و الموت فإن الموت يمكن طلبه و دفعه بالأسباب التي قدرها الله فإذا أردنا أن يموت عدو الله سعينا في قتله و إذا أردنا دفع ذلك عن المؤمنين دفعناه بما شرع الله الدفع به قال

تعالى فى داود عليه السلام { وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لْتُحْصِنَكُمْ مِّنْ بَأْسِكُمْ } { الأنبياء 80 } و قال تعالى { فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتْهُمْ } { النساء 102 } و هذا مثل دفع الحر و البرد عنا هو من فعل الله فاللباس و الإكتساب و مثل دفع الجوع و العطش هو من فعل الله بالطعام و الشراب و هذا كما أن إزهاق الروح هو من فعل الله و يمكن طلبه بالقتل و حصول العلم و الهدى فى القلب هو من فعل الله و يمكن طلبه بأسبابه المأمور بها و بالدعاء و قول القائل أن الله يفعل بسبب و بغير سبب فمن أين يلزنا طلب السبب جوابه أن يقال له ليس الأمر كذلك بل جميع ما يخلقه الله و يقدره إنما يخلقه و يقدره بأسباب لكن من الأسباب ما يخرج عن قدرة العبد و منها ما يكون مقدورا له و من الأسباب ما يفعله العبد و منها ما لا يفعله و الأسباب منها معتاد و منها نادر فإنه فى بعض الأعوام قد يمسك المطر و يغذي الزرع بريح يرسلها و كما يكثر الطعام و الشراب بدعاء النبى صلى الله عليه و سلم و الرجل الصالح فهو أيضا سبب من الأسباب و لا ريب أن الرزق قد يأتى على أيدي الخلق فمن الناس من يأتيه برزقه جنى أو ملك أو بعض الطير و البهائم و هذا نادر و الجمهور إنما يرزقون بواسطة بنى آدم مثل أكثر الذين يعجزون عن الأسباب يرزقون على أيدي من يعطيهم إما صدقة إما هدية أو نذرا و إما غير ذلك مما يؤتيه الله على أيدي من ييسره لهم و قد ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال يا ابن آدم إن تنفق الفضل خير لك و إن تمسك الفضل شر لك و لا يلام على كفاف و اليد العليا خير من اليد السفلى و فى حديث آخر صحيح يد الله هي العليا و يد المعطى التي تليها و يد السائل السفلى و بعض الناس يزعم أن يد السائل الآخذ هي العليا لأن الصدقة تقع بيد الحق و هذا خلاف نص رسول الله صلى الله عليه و سلم حين أخبر أن يد الله هي العليا و يد المعطى التي تليها و يد السائل السفلى و قول القائل إن الله ضمن ضمانا مطلقا فيقال له هذا لا يمنع و جوب الأسباب على ما يجب فإن فيما ضمنه رزق الأطفال و البهائم و الزوجات و مع هذا فيجب على الرجل أن ينفق على و لده و بهائمه و زوجته بإجماع المسلمين و نفقته على نفسه أوجب عليه و قول القائل كيف يطلب ما لا يعرف مكانه جوابه أنه يفعل السبب المأمور به و يتوكل على الله فيما يخرج عن قدرته مثل الذي يشق الأرض و يلقى الحب و يتوكل على الله فى إنزال المطر و إنبات الزرع و دفع المؤذيات و كذلك التاجر غاية قدرته تحصيل السلعة و نقلها و أما إلقاء الرغبة فى قلب من يطلبها و بذل الثمن الذي يربح به فهذا ليس مقدورا للعبد و من فعل ما قدر عليه لم يعاقبه الله بما عجز عنه و الطلب لا يتوجه الى شيء معين بل الى ما يكفيه من الرزق كالداعي الذي يطلب من الله رزقه و كفايته من غير تعيين فإذا عرف ذلك فمن الكسب ما يكون و اجبا مثل الرجل المحتاج الى نفقته على نفسه أو عياله أو قضاء دينه و هو قادر على الكسب و ليس هو مشغولا بأمر أمره الله به هو أفضل عند الله من الكسب فهذا يجب عليه الكسب بإتفاق العلماء و إذا تركه كان عاصيا أثما و منه ما يكون مستحبا مثل هذا إذا إكتسب ما يتصدق به فقد ثبت فى الصحيحين عن أبى موسى عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال على كل مسلم صدقة قالوا يا رسول الله فمن لم يجد قال يعمل بيده ينفع نفسه و يتصدق قالوا فإن لم يجد قال يعين ذا الحاجة الملهوف قالوا فإن لم يجد قال فليأمر بالمعروف و ليمسك عن الشر فإنها له صدقة و أما قول القائل أن الأنبياء و الأولياء لم يطلبوا رزقا فليس الأمر كذلك بل عامة الأنبياء كانوا يفعلون أسبابا يحصل بها الرزق كما قال نبينا صلى الله عليه و سلم فى الحديث الذي رواه أحمد فى المسند عن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله و حده لا شريك له و جعل رزقى تحت ظل رمحي و جعل الذل و الصغار على من خالف أمري و من تشبه بقوم فهو منهم و قد ثبت فى الصحيح قوله صلى الله عليه و سلم إن أفضل ما أكل الرجل من كسبه و كان داود يأكل من كسبه و كان يصنع الدروع و كان زكريا نجارا و كان الخليل له ماشية كثيرة حتى أنه كان يقدم للضيف الذين لا يعرفهم عجلا سمينا و هذا إنما يكون مع اليسار و خيار الأولياء المتوكلين المهاجرون و الأنصار و أبو بكر الصديق رضي الله عنه أفضل الأولياء المتوكلين بعد الأنبياء و كان عامتهم يرزقهم الله بأسباب يفعلونها كان الصديق تاجرا و كان يأخذ ما يحصل له من المغنم و لما و لى الخلافة جعل له من

بيت المال كل يوم درهمان و قد أخرج ماله كله و قال له النبي صلى الله عليه و سلم ما تركت لأهلك قال تركت لهم الله و رسوله و مع هذا فما كان يأخذ من أحد شيئاً لا صدقة و لا فتوحاً و لا نذراً بل إنما كان يعيش من كسبه بخلاف من يدعى التوكل و يخرج ماله كله ظاناً أنه يقتدي بالصديق و هو يأخذ من الناس إما بمسألة و إما بغير مسألة فإن هذه ليست حال أبي بكر الصديق بل في المسند أن الصديق كان إذا وقع من يده سوط ينزل فيأخذه و لا يقول لأحد ناولني إياه و يقول إن خليلي أمرني أن لا أسأل الناس شيئاً فأين هذا ممن جعل الكدية و سؤال الناس طريقاً الى الله حتى أنهم يأمرون المرید بالمسألة للخلق و قد تواترت الأحاديث عن النبي صلى الله عليه و سلم بتحريم مسألة الناس إلا عند الضرورة و قال لا تلح المسألة إلا لذي غرم مقطوع أو دم موجه أو فقر مدقع و قال تعالى {فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ} و إلى ربك فارغب {8} الشرح 7-8 فأمره أن تكون رغبته الى الله و حده و من هؤلاء من يجعل دعاء الله و مسألته نقصاً و هو مع ذلك يسأل الناس و يكديهم و سؤال العبد لربه حاجته من أفضل العبادات و هو طريق أنبياء الله و قد أمر العباد بسؤاله فقال {وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ} النساء 32 و مدح الذين يدعون ربهم رغبة و رهبة من الدعاء ما هو فرض على كل مسلم كالدعاء المذكور في فاتحة الكتاب و من هؤلاء من يحتج بما يروى عن الخليل أنه لما ألقى في النار قال له جبرئيل هل لك من حاجة فقال أما إليك فلا قال سل قال حسبي من سؤالي علمه بحالي و أول هذا الحديث معروف و هو قوله أما إليك فلا قال سل قال حسبي من سؤالي علمه بحالي و أول هذا الحديث معروف و هو قوله أما إليك فلا و قد ثبت في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه عنهما في قوله حسبنا الله و نعم الوكيل أنه قالها إبراهيم حين ألقى في النار و قالها محمد صلى الله عليه و سلم حين قال له الناس { إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ } آل عمران 173 و أما قوله حسبي من سؤالي علمه بحالي فكلام باطل خلاف ما ذكره الله عن إبراهيم الخليل و غيره من الأنبياء من دعائهم لله و مسألته إياه و هو خلاف ما أمر الله به عباده من سؤالهم له صلاح الدنيا و الآخرة كقولهم { رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ } البقرة 201 و دعاء الله و سؤاله و التوكل عليه عبادة لله مشروعة بأسباب كما يقدره بها فكيف يكون مجرد العلم مسقطاً لما خلقه و أمر به و الله أعلم و صلى الله على محمد و سلم³⁹

لا ينفون عن الله ما وصف به نفسه ولا يحرفون الكلم عن مواضعه

و من الإيمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه وبما وصفه به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم من غير تحريف و لا تعطيل و من غير تكيف و لا تمثيل بل يؤمنون بأن الله سبحانه ليس

كمثله شيء وهو السميع البصير فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه ولا يحرفون الكلم عن مواضعه ولا يلحدون في أسماء الله وآياته ولا يكيفون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه لأنه سبحانه لا سمي له ولا كفو له ولا ند له ولا يقاس بخلقه سبحانه وتعالى فإنه أعلم بنفسه وبغيره وأصدق قيلاً وأحسن حديثاً من خلقه وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات وقد دخل في هذه الجملة قوله سبحانه **{ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِن قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ } هود7⁴⁰**

وقد دخل فيما ذكرناه من الإيمان بالله الإيمان بما أخبر به كتابه وتواتر عن رسوله وأجمع عليه سلف الأمة من أنه سبحانه فوق سماواته على عرشه علي خلقه وهو سبحانه فوق عرشه رقيب على خلقه مهيمن عليهم مطلع عليهم إلى غير ذلك من معاني ربوبيته وكل هذا الكلام الذي ذكره الله من أنه فوق العرش وأنه معنا حق على حقيقته لا يحتاج إلى تحريف ولكن يصاب عن الظنون الكاذبة مثل أن يظن أن ظاهر قوله في السماء أن السماء تقفه أو تظله وهذا باطل بإجماع أهل العلم والإيمان فإن الله قد وسع كرسيه السموات والأرض وهو الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره⁴¹

لم يخبر القرآن بأن الله خلق السموات والأرض من غير شيء

كان قيل ان يخلق الله هذه السموات وهذه الارض وهذا النهار كان العرش على الماء كما قال تعالى **{ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ } هود7** وخلق الله من بخار ذلك الماء هذه السموات وهو الدخان المذكور في قوله تعالى **{ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ } 11** { فَفَضَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ } 12 { فصلت 11- 12 } وذلك لما كان الماء غامراً لترربة الارض وكانت الريح تهب على ذلك الماء فخلق الله هذه السموات والأرض في ستة ايام ثم استوى على العرش فتلك الايام التي خلق الله تعالى فيها هذه⁴²

فقد أخبر أن عرشه كان على الماء قبل أن يخلق السموات والأرض كما قال تعالى **{ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ } هود7** وقد ثبت في صحيح البخارى وغيره عن عمران بن حصين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال كان الله ولم يكن شيء غيره وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء وخلق السموات والأرض

⁴⁰العقيدة الواسطية ج: 1 ص: 16

⁴¹العقيدة الواسطية ج: 1 ص: 29

⁴²مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 599

وفى رواية له كان الله ولم يكن شيء قبله وكان عرشه على الماء ثم خلق السموات والأرض وكتب فى الذكر كل شيء وفى رواية لغيره صحيحة كان الله ولم يكن شيء معه وكان عرشه على الماء ثم كتب فى الذكر كل شيء وثبت فى صحيح مسلم عن عبدالله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ان الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء وهذا التقدير بعد وجود العرش وقبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وهو سبحانه وتعالى متمدح بأنه ذو العرش كقوله سبحانه {قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَعُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا} الإسراء 42 وقوله تعالى {رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ} {15} {يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَىٰ اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} {16} غافر 15-16⁴³

ومن المعلوم أن القرآن لم يخبر بفناء العالم فى المستقبل قط كما لم يخبر بأن الله خلق السموات والأرض من غير شيء بل أخبر سبحانه وتعالى بخلق السموات والأرض كما أخبر بخلق الإنسان والجن وغير ذلك من المخلوقات وأخبر أنه خالق كل شيء وأخبر عن خلق السموات والأرض فقال {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِن قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ} {هود 7} فأخبر أنه خلق السموات والأرض فى ستة أيام وأنه كان عرشه على الماء وفى صحيح البخاري والمسند وغيرهما عن عمران بن حصين أن بني تميم جاءوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم أقبِلوا البشرى يا بني تميم قالوا قد بشرتنا فأعطنا فتغير وجه النبي صلى الله عليه وسلم ثم جاء أهل اليمن فقال أقبِلوا البشرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم قالوا قد قبلنا يا رسول الله جنناك لنتفقه فى الدين ونسألك عن أول هذا الأمر فقال كان الله ولم يكن شيء قبله وكان عرشه على الماء وكتب فى الذكر كل شيء ثم خلق السموات والأرض وفى لفظ ولم يكن شيء غيره وفى لفظ آخر ولم يكن معه شيء لكن الظاهر أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقل إلا واحدة والأخرى رويتا بالمعنى فإن المجلس كان واحدا لم يتكرر ليقال إنه قال كل لفظ فى مجلس ولو كرر الألفاظ لذكر ذلك عمران ومثل هذا يقع كثيرا فى الحديث كقوله فى حديث المرأة التى عرضت نفسها عليه أنكحتكها بما معك من القرآن وفى رواية أخرى زوجتكها وفى أخرى أملكته واللفظ الأول مطابق لما رواه مسلم فى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول اللهم رب السموات السبع ورب الأرض ورب العرش العظيم ربنا ورب كل شيء فالق الحب والنوى منزل التوراة والإنجيل والقرآن أعوذ بك من شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء اقض عني الدين وأغنني من الفقر فقوله أنت الأول فليس قبلك شيء مطابق لقوله كان الله ولم يكن شيء قبله والحديث دل بأنه كان عرشه على الماء وأنه كتب فى الذكر كل شيء قبل أن يخلق السموات والأرض وهكذا جاء فى صحيح مسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على

الماء فأخبر في هذا الحديث الصحيح بما يوافق ذلك الحديث الصحيح أيضاً أنه قدر المقادير قبل خلق السموات والأرض حين كان عرشه على الماء وكلاهما يوافق القرآن⁴⁴

وقد جاءت الآثار المتعددة عن الصحابة والتابعين وغيرهم بأن الله سبحانه لما كان عرشه على الماء خلق السماء من بخار الماء وأبيس الأرض وهكذا في أول التوراة الإخبار بأن الماء كان موجوداً وأن الريح كانت ترف عليه وأن الله خلق من ذلك الماء السماء والأرض فهذه الأخبار الثابتة عن نبينا صلى الله عليه وسلم في الكتاب والسنة مطابقة لما عند أهل الكتاب من اليهود والنصارى مما في التوراة وكل ذلك يصدق بعضه بعضاً ويخبر أن الله خلق هذا العالم سمواته وأرضه في ستة أيام ثم استوى على العرش وأنه كان قبل ذلك مخلوقات كالماء والعرش فليس في إخبار الله تعالى أن السموات والأرض أبدعتا من غير شيء ولا أنه لم يكن قبلها شيء من المخلوقات وقد أخبر الله في غير موضع أنه خالق كل شيء وأنه رب كل شيء⁴⁵

الزمان كان موجوداً قبل أن يخلق الله الشمس والقمر

والرسل أخبرت بخلق الأفلاك وخلق الزمان الذي هو مقدار حركاتها مع أخبارها بأنها خلقت من مادة قبل ذلك وفي زمان قبل هذا الزمان فإنه سبحانه أخبر أنه خلق السموات والأرض في ستة أيام وسواء قيل إن تلك الأيام بمقدار هذه الأيام المقطرة بطول الشمس وغروبها أو قيل أنها أكبر منها كما قال بعضهم إن كل يوم قدره ألف سنة فلا ريب أن تلك الأيام التي خلقت فيها السموات والأرض غير هذه الأيام وغير الزمان الذي هو مقدار حركة هذه الأفلاك وتلك الأيام مقطرة بحركة أجسام موجودة قبل خلق السموات والأرض⁴⁶

فإن الزمان إذا قيل أنه مقدار الحركة كان جنس الزمان مقدار جنس الحركة لا يتعين في ذلك أن يكون مقدار حركة الشمس أو الفلك وأهل الملل متفقون على أن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام وخلق ذلك من مادة كانت موجودة قبل هذه السموات والأرض وهو الدخان الذي هو البخار كما قال تعالى {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ} فصلت 11 وهذا الدخان هو بخار الماء الذي كان حينئذ موجوداً كما جاءت بذلك الآثار عن الصحابة والتابعين وكما عليه أهل الكتاب كما ذكر هذا كله في موضع آخر وتلك الأيام لم تكن مقدار حركة هذه الشمس وهذا الفلك فإن هذا مما خلق في تلك الأيام بل تلك الأيام مقطرة بحركة أخرى وكذلك إذا شق الله هذه السموات وأقام القيامة وادخل أهل الجنة الجنة قال تعالى {وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا} مريم 62 وقد جاءت الآثار عن النبي صلى الله عليه وسلم بأنه تبارك وتعالى يتجلى لعباده المؤمنين يوم الجمعة وإن أعلاهم منزلة من يرى الله

⁴⁴الصفدية ج: 2 ص: 79

⁴⁵الصفدية ج: 2 ص: 83

⁴⁶مجموع الفتاوى ج: 18 ص: 235

تعالى كل يوم مرتين وليس فى الجنة شمس ولا قمر ولا هناك حركة فلك بل ذلك الزمان مقدر بحركات كما جاء فى الآثار أنهم يعرفون ذلك بأنوار تظهر من جهة العرش⁴⁷

قال تعالى { وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِن قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ } هود7 وأخبر أنه { ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ } فصلت11 وقد ثبت فى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء وقد ثبت فى صحيح البخاري وغيره عن عمران بن حصين رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال كان الله ولم يكن شيء قبله وكان عرشه على الماء وكتب فى الذكر كل شيء وخلق السموات والأرض وفى رواية ثم خلق السموات والأرض والآثار متواترة عن الصحابة والتابعين بما يوافق القرآن والسنة من أن الله تعالى خلق السموات من بخار الماء الذي سماه الله دخانا وقد تكلم علماء المسلمين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم فى أول هذه المخلوقات على قولين حكاهما الحافظ أبو العلاء الهمداني وغيره أحدهما أنه هو العرش والثاني أنه هو القلم ورجحوا القول الأول لما دل عليه الكتاب والسنة أن الله تعالى لما قدر مقادير الخلائق بالقلم الذي أمره أن يكتب فى اللوح كان عرشه على الماء فكان العرش مخلوقا قبل القلم قالوا الآثار المروية أن أول ما خلق الله القلم معناها من هذا العالم وقد أخبر الله تعالى أنه خلقه فى ستة أيام فكان حين خلقه زمن يقدر به خلقه ينفصل إلى أيام فعلم أن الزمان كان موجودا قبل أن يخلق الله الشمس والقمر ويخلق فى هذا العالم الليل والنهار وفى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال فى خطبته عام حجة الوداع إن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق السموات والأرض اثنا عشر شهرا ومنها أربعة حرم ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان وفى الصحيح عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبة فذكر بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة منازلهم وأهل النار منازلهم هذا وفى التوراة ما يوافق خبر الله تعالى فى القرآن وأن الأرض كانت مغمورة بالماء والهواء يهب فوق الماء وأن فى أول الأمر خلق الله السموات والأرض وأنه خلق ذلك فى أيام ولهذا قال من قال من علماء أهل الكتاب ما ذكره الله تعالى فى التوراة يدل على أنه خلق هذا العالم من مادة أخرى وأنه خلق ذلك فى أزمان قبل أن يخلق الشمس والقمر وليس فيما أخبر الله تعالى به فى القرآن وغيره أنه خلق السموات والأرض من غير مادة ولا أنه خلق الإنسان أو الجن أو الملائكة من غير مادة بل يخبر أنه خلق ذلك من مادة وإن كانت المادة مخلوقة من مادة أخرى كما خلق الإنسان من آدم وخلق آدم من طين وفى صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال خلقت الملائكة من نور وخلقت الجان من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم فقد أخبر أنه خلق السموات والأرض فى مدة ومن مادة ولم يذكر القرآن خلق شيء من لا شيء بل ذكر أنه خلق المخلوق بعد أن لم يكن شيئا كما قال { وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا } مريم9 مع إخباره أنه خلقه من نطقة والمقصود هنا أن المنقول عن أساطين الفلاسفة القدماء لا يخالف ما أخبرت به الأنبياء من خلق هذا العالم من مادة بل المنقول عنهم أن هذا العالم محدث كائن بعد إن لم يكن وأما قولهم فى تلك المادة هل

هي قديمة الأعيان أو محدثة بعد أن لم تكن أو محدثة من مادة أخرى بعد مادة قد تضطرب النقول عنهم في هذا الباب والله أعلم بحقيقة ما يقوله كل من هؤلاء فإنها أمة عربت كتبهم ونقلت من لسان إلى لسان وفي مثل ذلك قد يدخل من الغلط والكذب ما لا يعلم حقيقته ولكن ما تواطأت به النقول عنهم يبقى مثل المتواتر وليس لنا غرض معين في معرفة قول كل واحد منهم بل { تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ } البقرة 134 لكن الذي لا ريب فيه أن هؤلاء اصحاب التعاليم كأرسطو واتباعه كانوا مشركين يعبدون المخلوقات ولا يعرفون النبوات ولا المعاد البدني وأن اليهود والنصارى خير منهم في الإلهيات والنبوات والمعاد وإذا عرف أن نفس فلسفتهم توجب عليهم أن لا يقولوا بقدوم شيء من العالم علم أنهم مخالفون لصريح المعقول كما أنهم مخالفون لصحيح المنقول وأنهم في تبديل القواعد الصحيحة المعقولة من جنس اليهود والنصارى في تبديل ما جاءت به الرسل وهذا هو المقصود في هذا الباب ثم إنه إذا قدر أنه ليس عندهم من المعقول ما يعرفون به أحد الطرفين فيكفي في ذلك إخبار الرسل باتفاقهم على خلق السماوات والأرض وحدث هذا العالم والفلسفة الصحيحة المبنية على المعقولات المحضة توجب عليهم تصديق الرسل فيما أخبرت به وتبين وتبين أنهم علموا ذلك بطريق يعجزون عنها وأنهم أعلم بالأمور الإلهية والمعاد وما يسعد النفس ويشقيها منهم وتدلهم على أن من اتبع الرسل كان سعيدا في الآخرة ومن كذبهم كان شقيا في الآخرة وأنه لو علم الرجل من الطبيعيات والرياضيات ما عسى أن يعلم وخرج عن دين الرسل كان شقيا وأن من أطاع الله ورسوله بحسب طاقته كان سعيدا في الآخرة وإن لم يعلم شيئا من ذلك ولكن سلفهم اكثروا الكلام في ذلك لأنهم لم يكن عندهم من آثار الرسل ما يهتدون به إلى توحيد الله وعبادته وما ينفع في الآخرة وكان الشرك مستحوذا عليهم بسبب السحر والأحوال الشيطانية وكانوا ينفقون أعمارهم في رصد الكواكب ليستعينوا بذلك على السحر والشرك وكذلك الأمور الطبيعية وكان منتهى عقلهم أمورا عقلية كلية كالعلم بالوجود المطلق وانقسامه إلى علّة ومعلول وجوهر عرض وتقسيم الجواهر ثم تقسيم الأعراض وهذا هو عندهم الحكمة العليا والفلسفة الأولى ومنتهى ذلك العلم بالوجود المطلق الذي لا يوجد إلا في الأذهان دون الأعيان⁴⁸

أول الأيام يقال يوم الأحد

و في أول الأيام يقال يوم الأحد فإن فيه على أصح القولين إبتدأ الله خلق السموات و الأرض و ما بينهما كما دل عليه القرآن و الأحاديث الصحيحة فإن القرآن أخبر في غير موضع أنه { خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ } الفرقان 59 و قد ثبت في الحديث الصحيح المتفق على صحته أن آخر المخلوقات كان آدم خلق يوم الجمعة و إذا كان آخر الخلق كان يوم الجمعة دل على أن أوله كان يوم الأحد لأنها سنة⁴⁹

⁴⁸دقائق التفسير ج: 2 ص: 227-230 و منهاج السنة النبوية ج: 1 ص: 360 مجموع

الفتاوى ج: 18 ص: 212 و درء التعارض ج: 1 ص: 123

⁴⁹مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 238

كل ما سوى الله تعالى مخلوق محدث كائن بعد ان لم يكن

والذى عليه جماهير المسلمين من السلف والخلف ان الخلق غير المخلوق فالخلق فعل الخالق والمخلوق مفعوله ولهذا كان النبي يستعيذ بأفعال الرب وصفاته كما فى قوله أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وبك منك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك فاستعاذ بمعافاته كما استعاذ برضاه وقد استدل أئمة السنة كأحمد وغيره على ان كلام الله غير مخلوق بأنه استعاذ به فقال من نزل منزلا فقال أعوذ بكلمات الله التامة من شر ما خلق لم يضره شيء حتى يرتحل منه فكذلك معافاته ورضاه غير مخلوقة لأنه استعاذ بهما والعافية القائمة ببدن العبد مخلوقة فانها نتيجة معافاته وإذا كان الخلق فعله و المخلوق مفعوله وقد خلق الخلق بمشيئته دل على أن الخلق فعل يحصل بمشيئته ويمتنع قيامه بغيره فدل على ان افعاله قائمة بذاته مع كونها حاصلة بمشيئته وقدرته وقد حكى البخارى اجماع العلماء على الفرق بين الخلق والمخلوق وعلى هذا يدل صريح المعقول فانه قد ثبت بالادلة العقلية والسمعية ان كل ما سوى الله تعالى مخلوق محدث كائن بعد ان لم يكن وان الله انفرده بالقدم والازلية وقد قال تعالى {الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ} {هود7} فهو حين خلق السموات ابتداءا اما أن يحصل منه فعل يكون هو خلقا للسموات والأرض واما أن لا يحصل منه فعل بل وجدت المخلوقات بلا فعل ومعلوم أنه اذا كان الخالق قبل خلقها ومع خلقها سواء وبعده سواء لم يجز تخصيص خلقها بوقت دون وقت بلا سبب يوجب التخصيص و أيضا فحدوث المخلوق بلا سبب حادث ممتنع فى بداية العقل⁵⁰

(فى مجمل رده على الفلاسفة المتكلمه) وأما قوله إن قلت هو فالهاء والواو خلقه فهو كلام فاسد فإنه إن أراد أنه لا يقال هو فهذا خلاف إجماع المسلمين وسائر الأمم وهو فاسد بضرورة العقل والشرع قال تعالى {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} {الحديد3} وقال {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} {هود7} وقال {وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ} {البروج14} { وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ } {الحديد4} وفى القرآن من ذكر هو أكثر من أن يحصر هنا فنفى قول هو من أعظم الباطل وإن أراد أن يقال ما هو لعدم العلم بحقيقته فلا يصلح أن يدل على ذلك بقوله فالهاء والواو خلقه فإن هذا لو كان حجة لصح أن يحتج به فى متى وأين وبتقدير كون الحروف مخلوقة لا يصلح أن يحتج بذلك على نفى الإخبار بها عن الله أو الإستفهام بها عن بعض شؤونه وصفاته وإدخال لفظ هو بين متى وأين يدل على أنه أراد الاستفهام وإن أراد اننا إذا قلنا هو فإنما تكلمنا بحروف مخلوقة وإن ذلك يفيد نفى معرفتنا به فهذا من أبطل الكلام فإن القائلين بأن الحروف مخلوقة والحروف غير مخلوقة متفقون على أن الإخبار عنه بهو لا ينفى معرفته فظهر أن قوله الهاء والواو خلقه كلام ليس فيه هنا فائدة بحال وإذا كان المتكلم بذلك لم يذكر كلاما منتظما مفيدا سواء كان حقا أو باطلا فهو جدير على أن لا يستدل بكلامه على أنه حق أو باطل ثم قال ذلك إن أراد ان نفس أصوات العباد مخلوقة فهذا صحيح وإن أراد أن نفس الحروف حروف القرآن وغيره ما تكلم الله بها وليست من كلامه وهذا خلاف الكتاب والسنة وخلاف سلف الأمة وأئمتها

وفي لفظ الحديث المعروف عند علماء الحديث الذي أخرجه أصحاب الصحيح كان الله ولا شئ معه وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شئ وهذا انما ينفي وجود المخلوقات من السموات والأرض وما فيهما من الملائكة والانس والجن لا ينفي وجود العرش ولهذا ذهب كثير من السلف والخلف الى أن العرش متقدم على القلم واللوح مستدلين بهذا الحديث وحملوا قول أول ما خلق الله القلم فقال له اكتب فقال وما اكتب قال اكتب ما هو كائن الى يوم القيامة على هذا الخلق المذكور في قوله **{ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ } هود7** وهذا نظير حديث أبي رزين العقيلي المشهور في كتب المسانيد والسنن انه سأل النبي فقال يا رسول الله أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه فقال كان في عماء ما فوقه هواء وما تحته هواء ثم خلق عرشه على الماء فالخلق المذكور في هذا الحديث لم يدخل فيه العماء وذكر بعضهم أن هذا هو السحاب المذكور في قوله **{ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْعَمَامِ }** البقرة 210 وفي ذلك آثار معروفة⁵¹

العرش والقلم أيهما خلق قبل الآخر

أنه قد ذكرنا أن للسلف في العرش والقلم أيهما خلق قبل الآخر قولين كما ذكر الحافظ أبو العلاء الهمداني وغيره أحدهما أن القلم خلق أولا كما أطلق ذلك غير واحد وذلك هو الذي يفهم في الظاهر في كتب من صنف في الأوائل كالحافظ أبي عروبة بن أبي معشر الحراني وأبي القاسم الطبراني للحديث الذي رواه أبو داود في سننه عن عبادة بن الصامت أنه قال يا بني إنك لن تجد طعم الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك سمعت رسول الله يقول إن أول ما خلق الله القلم فقال له اكتب فقال يا رب وماذا اكتب قال اكتب مقادير كل شئ حتى تقوم الساعة يا بني سمعت رسول الله يقول من مات على غير هذا فليس مني والثاني أن العرش خلق أولا قال الإمام عثمان بن سعيد الدارمي في مصنفه في الرد على الجهمية حدثنا محمد بن كثير العبدي حدثنا سفيان الثوري حدثنا أبو هاشم عن مجاهد عن ابن عباس قال إن الله كان على عرشه قبل أن يخلق شيئا فكان أول ما خلق الله القلم فأمره أن يكتب ما هو كائن وإنما يجري الناس على أمر قد فرغ منه ورواه أيضا أبو القاسم اللالكائي في كتابه في شرح أصول السنة من حديث يعلى عن سفيان عن أبي هاشم عن مجاهد قال قيل لابن عباس إن أناسا يقولون في القدر قال يكذبون لأن أخذت بشعر أحدهم لا نصونه أي لأخذن بناصيته إن الله كان على عرشه قبل أن يخلق شيئا فخلق القلم فكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة وإنما يجري الناس على أمر قد فرغ منه وكذلك ذكر الحافظ أبو بكر البيهقي في كتاب الأسماء والصفات لما ذكر بدء الخلق فذكر حديث عبد الله بن عمرو وعمران بن حصين وغيرهما وسنذكر هذين الحديثين إن شاء الله تعالى ثم ذكر حديث الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير أنه سئل عن قوله تعالى وكان عرشه على الماء على أي شئ كان الماء قال على متن الريح وروى حديث

القاسم بن أبي بزة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه كان يحدث أن رسول الله قال أن أول شيء خلقه الله القلم وأمره فكتب كل شيء يكون قال البيهقي ويروى ذلك عن عبادة بن الصامت مرفوعا قال البيهقي وإنما أراد والله أعلم أول شيء خلقه بعد خلق الماء والريح والعرش القلم وذلك بين في حديث عمران بن حصين ثم خلق السماوات والأرض وفي حديث أبي ظبيان عن ابن عباس موقوفا عليه ثم خلق النون فدحا الأرض عليها وروى بإسناده الحديث المعروف عن وكيع عن الأعمش عن أبي ظبيان عن ابن عباس قال أول ما خلق الله عز وجل من شيء القلم فقال له اكتب فقال يا رب وما أكتب قال اكتب القدر قال فجرى بما هو كائن من ذلك إلى قيام الساعة قال ثم خلق النون فدحا الأرض عليها فارتفع بخار الماء ففتق منه السماوات واضطرب النون فمادت الأرض فأثبتت بالجبال وأن الجبال لتفخر على الأرض إلى يوم القيامة قلت حديث عمران بن حصين الذي ذكره هو ما رواه البخاري من غير وجه منها ما رواه في كتاب التوحيد في باب وكان عرشه على الماء وهو رب العرش العظيم قال أبو العالية استوى إلى السماء ارتفع وقال مجاهد استوى علا على العرش وذكر من حديث أبي حمزة عن الأعمش عن صفوان بن محرز عن عمران بن حصين قال إني عند النبي إذ جاءه قوم من بني تميم فقال اقبلوا البشرى يا بني تميم فقالوا بشرتنا فأعطنا فدخل ناس من أهل اليمن فقال اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم فقالوا قبلنا جنناك لنتفقه في الدين ولنسألك عن أول هذا الأمر ما كان قال كان الله ولم يكن شيء قبله وكان عرشه على الماء ثم خلق السماوات والأرض وكتب في الذكر كل شيء ثم أتاني رجل فقال يا عمران أدرك ناقتك فقد ذهبت فانطلقت أطلبها فإذا السراب ينقطع دونها وأيم الله لو ددت أنها قد ذهبت ولم أقم ورواه البيهقي كما رواه محمد بن هارون الروياني في مسنده وعثمان بن سعيد الدارمي وغيرهما من حديث الثقات المتفق على ثقتهم عن أبي إسحاق الفزاري عن الأعمش عن جامع بن شداد عن صفوان بن محرز عن عمران بن حصين قال أتيت النبي فعقلت ناقتي بالباب ثم دخلت فأتاه نفر من بني تميم فقال اقبلوا البشرى يا بني تميم قالوا بشرتنا فأعطنا فجاءه نفر من أهل اليمن فقال اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذا لم يقبلها إخوانكم من بني تميم فقالوا قبلنا يا رسول الله أتيناك لنتفقه في الدين ونسألك عن أول هذا الأمر كيف كان قال كان الله ولم يكن شيء غيره وكان عرشه على الماء ثم كتب في الذكر كل شيء ثم خلق السماوات والأرض قال ثم أتاني رجل فقال أدرك ناقتك فقد ذهبت فخرجت فوجدتها ينقطع دونها السراب وأيم الله لو ددت أني كنت تركتها ففي الحديث الصحيح بيان أنه كتب في الذكر ما كتبه بعد أن كان عرشه على الماء وقبل أن يخلق السماوات والأرض وأما حديث عبد الله بن عمرو فقد رواه مسلم في صحيحه من حديث ابن وهب أخبرني أبو هانئ الخولاني عن أبي عبد الرحمن الحبلي عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله يقول كتب الله المقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وعرشه على الماء رواه مسلم أيضا من حديث حيوة ونافع بن يزيد كلاهما عن أبي هانئ الخولاني مثله غير أنهما لم يذكرنا وعرشه على الماء وقد رواه البيهقي من حديث حيوة بن شريح أخبرني أبو هانئ الخولاني أنه سمع أبا عبد الرحمن الحبلي أنه سمع عبد الله بن عمرو بن العاص يقول إنه سمع رسول الله يقول قدر الله المقادير قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ورواه البيهقي أيضا من حديث ابن أبي مريم حدثنا الليث

ونافع بن يزيد قال حدثنا أبو هانئ عن أبي عبد الرحمن الحبلي عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال قال رسول الله فرغ الله من المقادير وأمور الدنيا قبل أن يخلق السماوات والأرض وعرشه على الماء بخمسين ألف سنة ففي هذا الحديث الصحيح ما في ذلك من أنه قدر المقادير وعرشه على الماء قبل أن يخلق السماوات والأرض وقد ضبط هذه الزيادة الإمامان الفقيهان الليث بن سعد وعبد الله بن وهب فقولهم في الحديث فرغ الله من المقادير وأمور الدنيا قبل أن يخلق السماوات والأرض وعرشه على الماء بخمسين ألف سنة يوافق حديث عبادة الذي في السنن أنه لما خلق الله القلم قال له اكتب قال وما أكتب قال ما هو كائن إلى يوم القيامة وكذلك في حديث ابن عباس

وغيره وهذا يبين إنما أمره حينئذ أن يكتب مقدار هذا الخلق إلى قيام الساعة لم يكتب حينئذ ما يكون بعد ذلك وهذا يؤيد حجة من جعله أول المخلوقات من هذا الخلق الذي أمره بكتابته فإنه سبحانه كتبه وقدره قبل أن يخلقه بخمسين ألف سنة⁵²

يقبل الله العمل الخالص الصواب

قال الامام احمد وغيره إن أصول الاسلام تدور على ثلاثة أحاديث قوله الحلال بين و الحرام بين وقوله إنما الاعمال بالنيات وقوله من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد فان الأعمال إما مأمورات وإما محظورات والأول فيه ذكر المحظورات والمأمورات اما قصد القلب وهو النية واما العمل الظاهر وهو المشروع الموافق للسنة كما قال الفضيل بن عياض في قوله تعالى { لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا } هود7 قال اخلصه و أصوبه قالوا يا أبا علي ما اخلصه و أصوبه قال ان العمل اذا كان خالصا و لم يكن صوابا لم يقبل و ان كان صوابا و لم يكن خالصا لم يقبل حتى يكون خالصا صوابا و الخالص ان يكون لله و الصواب أن يكون على السنة وهذا الذي قاله الفضيل متفق عليه بين المسلمين فإنه لا بد له في العمل أن يكون مشروعا مأمورا به وهو العمل الصالح ولا بد أن يقصد به وجه الله كما قال تعالى { فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا } الكهف110 قال تعالى { وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } 111 { بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } 112 { البقرة 111-112 وقال تعالى { وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا } النساء125 قال المفسرون وأهل اللغة معنى الآية أخلص دينه وعمله لله وهو محسن في عمله وقال الفراء في قوله { فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ } آل عمران20 أخلصت عملي وقال الزجاج قصدت بعبادتي إلى الله وهو كما قالوا كما قد ذكر توجيهه في موضع آخر وهذا المعنى يدور عليه القرآن فإن الله تعالى أمر أن لا يعبد إلا إياه وعبادته فعل ما أمر وترك ما حظر والأول هو إخلاص الدين والعمل لله والثاني هو الإحسان وهو العمل الصالح ولهذا كان عمر يقول في دعائه اللهم أجعل عملي كله صالحا واجعله لوجهك خالصا ولا تجعل لأحد فيه شيئا وقال تعالى { أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءَ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ } الشورى21 وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال يقول الله تعالى أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه غيري فاني منه بريء وهو كله للذي أشرك به وفي السنن عن العرياض بن سارية قال وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب فقال قائل يا رسول الله كأنها موعظة مودع فماذا تعهد إلينا فقال أوصيكم بالسمع والطاعة فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة وفي الصحيحين عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد وفي لفظ من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد وفي صحيح مسلم ولهذا قال الفقهاء العبادات مبناها على التوقيف كما في الصحيحين عن عمر بن الخطاب أنه قبل الحجر الأسود وقال والله انى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أنى رأيت رسول الله يقبلك لما قبلناك والله سبحانه امرنا باتباع الرسول وطاعته وموالاته ومحبته وأن يكون الله ورسوله أحب إلينا مما سواهما وضمن لنا بطاعته ومحبته محبة الله وكرامته فقال تعالى { قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ } آل عمران31 وقال تعالى { وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا }

{النور 54 وقال تعالى {تَلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} النساء 13 وأمثال ذلك في القرآن كثير ولا ينبغي لأحد أن يخرج في هذا عما مضت به السنة وجاءت به الشريعة ودل عليه الكتاب والسنة وكان عليه سلف الأمة وما علمه قال به وما لم يعلمه امسك عنه ولا يقفو ما ليس له به علم ولا يقول على الله ما لم يعلم فان الله تعالى قد حرم ذلك كله⁵³

فإن إخلاص الدين لله واجب في جميع العبادات البدنية والمالية كالصلاة والصدقة والصيام والحج فلا يصلح الركوع والسجود إلا لله ولا الصيام إلا لله ولا الحج إلا إلى بيت الله ولا الدعاء إلا لله قال تعالى {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ} الأنفال 39 وقال تعالى {وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ} الزخرف 45 وقال تعالى {تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} 1 {إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ} 2 {الزمر 1-2 وهذا هو اصل الإسلام وهو أن لا نعبد إلا الله ولا نعبد إلا بما شرع لا نعبد بالبدع كما قال تعالى {فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} الكهف 110 وقال تعالى {لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} هود 7 قال الفضيل بن عياض أخلصه وأصوبه قالوا يا ابا على ما أخلصه وأصوبه قال إن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل حتى يكون خالصا صوابا والخالص أن يكون لله والصواب أن يكون على السنة والكتاب⁵⁴

التقرب إلى الله إنما يكون بالإخلاص في الدين لله

فالعبادة لله والاستعانة به وكان النبي يقول عند الأضحية اللهم منك ولك فما لم يكن بالله لا يكون فانه لا حول ولا قوة إلا بالله وما لم يكن لله فلا ينفع ولا يدوم⁵⁵

وقوله إنما الأعمال بالنيات إلخ يبين العمل الباطن وإن التقرب إلى الله إنما يكون بالإخلاص في الدين لله ولهذا كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول في دعائه اللهم اجعل عملي كله صالحا واجعله لوجهك خالصا ولا تجعل لأحد فيه شيئا وكما قال الفضيل في قوله تعالى {لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} هود 7 قال أخلصه وأصوبه قال فإن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل وإذا كان صوابا لم يكن خالصا لم يقبل حتى يكون خالصا صوابا

⁵³مجموع الفتاوى ج: 29 ص: 328 و الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 48-49 و مجموع الفتاوى ج: 22 ص: 188 و مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 333-335 منهاج السنة النبوية ج: 5 ص:

253

⁵⁴مجموع الفتاوى ج: 27 ص: 148

⁵⁵مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 124

والخالص أن يكون لله والصواب أن يكون على السنة وعلى هذا دل قوله تعالى { فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا } {الكهف} 110 فالعمل الصالح هو ما أمر الله به ورسوله أمر إيجاب أو أمر استحباب وأن لا يشرك العبد بعبادة ربه أحدا وهو إخلاص الدين لله وكذلك قوله تعالى { بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } {البقرة} 112 الآية وقوله { وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا } النساء 125

وقوله { وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى } لقمان 22 فإن إسلام الوجه لله يتضمن إخلاص العمل لله والإحسان هو إحسان العمل لله وهو فعل ما أمر به فيه كما قال تعالى { إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا } {الكهف} 30 فإن الإساءة في العمل الصالح تتضمن الإستهانة بالأمر به والإستهانة بنفس العمل والإستهانة بما وعده الله من الثواب فإذا اخلص العبد دينه لله وأحسن العمل له كان ممن أسلم وجهه لله وهو محسن فكان من الذين لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون⁵⁶

فمن عمل لغير الله كأهل الرياء لم يقبل منه ذلك كما في الحديث الصحيح يقول الله عز وجل أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري فأنا بريء منه وهو كله للذي أشركه وقال في الحديث الصحيح لا يقبل الله صلاة بغير طهور ولا صدقة من غلول وقال لا يقبل الله صلاة حائض إلا بخمار وقال في الحديث الصحيح من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد أي فهو مردود غير مقبول فمن إتقى الكفر وعمل عملاً ليس عليه أمر النبي صلى الله عليه وسلم لم يقبل منه وإن صلي بغير وضوء لم يقبل منه لأنه ليس متقياً في ذلك العمل وإن كان متقياً للشرك وقد قال تعالى { وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ } {المؤمنون} 60 وفي حديث عائشة عن النبي أنها قالت يا رسول الله أهو الرجل يزني ويسرق ويشرب الخمر ويخاف أن يعذب قال لا يا ابنة الصديق ولكنه الرجل يصلى ويصوم ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه وخوف من خاف من السلف أن لا يتقبل منه لخوفه أن لا يكون أتى بالعمل على وجهه المأمور وهذا أظهر الوجوه في إستثناء من إستثنى منهم في الإيمان وفي أعمال الإيمان كقول أحدهم أنا مؤمن إن شاء الله وصليت إن شاء الله لخوف أن لا يكون أتى بالواجب على الوجه المأمور به لا على جهة الشك فيما بقلبه من التصديق⁵⁷

ان الامر بالمعروف والنهي عن المنكر هو من اوجب الاعمال وافضلها واحسنها وقد قال تعالى { لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا } هود 7 وهو كما قال الفضيل بن عياض رحمه الله خلصه واصوبه فإن العمل اذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل واذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل حتى يكون خالصا صوابا والخالص ان يكون لله والصواب ان يكون على السنة فالعمل الصالح لا بد ان يراد به وجه الله تعالى فإن الله تعالى لا يقبل من العمل الا ما اريد به وجهه وحده كما في

⁵⁶مجموع الفتاوى ج: 18 ص: 250

⁵⁷مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 498

الحديث الصحيح عن ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال يقول الله تعالى انا اغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً اشرك فيه غيري فأنا منه بريء وهو كله للذي اشرك وهذا هو التوحيد الذي هو اصل الاسلام وهو دين الله الذي بعث به جميع رسله وله خلق الخلق وهو حقه على عباده ان يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ولا بد مع ذلك ان يكون العمل صالحاً وهو ما امر الله به ورسوله وهو الطاعة فكل طاعة عمل صالح وكل عمل صالح طاعة وهو العمل المشروع المسنون اذ المشروع المسنون هو المأمور به امر ايجاب او استحباب وهو العمل الصالح وهو الحسن وهو البر وهو الخير وضده المعصية والعمل الفاسد والسيئة والفجور والشر والظلم والبيغي ولما كان العمل لا بد فيه من شيئين النية والحركة كما قال النبي صلى الله عليه وسلم اصدق الاسماء حارث وهمام فكل احد حارث وهمام له عمل ونية لكن النية المحموده التي يتقبلها الله ويثيب عليها هي ان يراد الله وحده بذلك العمل والعمل المحمود هو الصالح وهو المأمور به ولهذا كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول في دعائه اللهم اجعل عملي كله صالحاً واجعله لوجهك خالصاً ولا تجعل لأحد فيه شيئاً وهذا هو دين الاسلام الذي ارسل الله به رسله وأنزل به كتبه وهو الاستسلام لله وحده فمن لم يستسلم له كان مستكبراً عن عبادته وقد قال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ } غافر 60 ومن استسلم لله ولغيره كان مشركاً فقد قال تعالى { إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ } النساء 48 ولهذا كان الله حق لا يشركه فيه احد من المخلوقين فلا يعبد الا الله ولا يخاف الا الله ولا يتقى الا الله ولا يتوكل الا على الله ولا يدعى الا الله كما قال تعالى { فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ } {7} وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ } {8} الشرح 7-8⁵⁸

علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة

وجماع الدين أن لا نعبد إلا الله ولا نعبد إلا بما شرع ولا نعبد بالبدع كما قال تعالى { لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا } الملك 2 قال الفضيل بن عياض أخلصه وأصوبه قالوا يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه قال إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً ولم يقبل حتى يكون خالصاً صواباً والخالص أن يكون لله والصواب أن يكون على السنة وهذا الذي ذكره الفضيل مما اتفق عليه أئمة المشائخ كما قال أبو سليمان الداراني إنه لتمر بقلبي والنكته من نكت القوم فلا أقبلها إلا بشاهدين اثنين الكتاب والسنة وقال الشيخ أبو سليمان أيضاً ليس لمن ألهم شيئاً من الخير أن يفعله حتى يسمع فيه بأثر فإذا سمع بأثر كان نورا على نور وقال الجنيد علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة فمن لم يقرأ القرآن ولم يكتب الحديث لم يصح له أن يتكلم في علمنا هذا وقال سهل ابن عبد الله التستري كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل وقال كل عمل على ابتدع فانه عذاب على النفس وكل عمل بلا اقتداء هو غش النفس وقال أبو عثمان النيسابوري من أمر السنة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة ومن أمر الهوى على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالبدعة لأن الله يقول { وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا } النور 54 مثل هذا كثير في كلامهم وإذا كان كذلك فليس لأحد أن يسلك إلى الله إلا بما شرعه الرسول لأمته فهو الداعي إلى الله بأذنه الهادي إلى صراطه الذي من أطاعه دخل الجنة ومن عصاه دخل النار فهو الذي فرق الله به بين

⁵⁸الاستقامة ج: 2 ص: 226-229 و مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 138 و مجموع الفتاوى ج:

الحق والباطل والهدى والضلال والرشاد والغى آخره والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وصحبه وسلم⁵⁹

والله تعالى أمر الخلق أن يعبدوه وحده لا يشركون به شيئاً ويعبدوه بما شرع وأمر أن لا يعبدوه بغير ذلك قال تعالى { فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا } الكهف 110 وقال تعالى { لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا } هود 7 فالسالك طريق الزهادة والعبادة إذا كان متبعاً للشريعة في الظاهر وقصد الرياء والسمعة وتعظيم الناس له كان عمله باطلا لا يقبله الله كما ثبت في الصحيح أن الله يقول أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه غيري فأنا منه بريء وهو كله للذي أشرك وفي الصحيح عنه أنه قال من سمع سمع الله به ومن رأى رأى الله به وان كان خالصاً في نيته لكنه يتعبد بغير العبادات المشروعة مثل الذى يصمت دائماً أو يقوم فى الشمس أو على السطح دائماً أو يتعرى من الثياب دائماً ويلتزم لبس الصوف أو ليس الليف ونحوه أو يغطى وجهه أو يمتنع من أكل الخبز أو اللحم أو شرب الماء ونحو ذلك كانت هذه العبادات باطلة ومردودة كما ثبت فى الصحيح عن عائشة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد وفى رواية من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد وفى الصحيح البخارى عن ابن عباس أن النبى رأى رجلاً قائماً فى الشمس فقال ما هذا قالوا هذا أبو اسرائيل نذر الصمت والقيام والبروز للشمس مع الصوم فأمره النبى بالصوم وحده لأنه عبادة يحبها الله تعالى وما عداه ليس بعبادة وان ظنها الظان تقربه إلى الله تعالى وثبت عنه أنه كان يقول فى خطبته إن خير الكلام كلام الله وخير الهدى هدى محمد وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة وثبت عنه فى الصحيح أن قوماً من أصحابه قال أحدهم أما أنا فأصوم ولا أفطر وقال الآخر أما أنا فأقوم ولا أنام وقال الآخر أما أنا فلا أتزوج النساء وقال الآخر أما أنا فلا أكل اللحم فقال النبى ما بال رجال يقول أحدهم كيت وكيت لكنى أصوم وأفطر وأنام وأتزوج النساء وأكل اللحم فمن رغب عن سنتى فليس منى فإذا كان هذا فيما هو جنسه عبادة فإن الصوم والصلاة جنسها عبادة وترك اللحم والتزويج جائز لكن لما خرج فى ذلك من السنة فالترجم القدر الزائد على المشروع والتزم هذا ترك المباح كما يفعل الرهبان تبرأ النبى ممن فعل ذلك حيث رغب عن سنته الى خلافها وقال لا رهبانية فى الاسلام⁶⁰

⁵⁹مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 509 ومجموع الفتاوى ج: 11 ص: 585

⁶⁰مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 613

الاعتصام بالسنة نجاة

وانما ينجو العبد بملازمة امر الله الذي بعث به رسوله في كل وقت كما قال الزهري كان من مضى من سلفنا يقولون الاعتصام بالسنة نجاة وذلك ان السنة كما قال مالك رحمه الله مثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق والعبادة والطاعة والاستقامة ولزوم الصراط المستقيم ونحو ذلك الاسماء مقصودها واحد ولها اصلان احدهما الا يعبد الا الله و الثاني ان يعبد بما امر وشرع لا بغير ذلك من البدع قال تعالى { فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا } الكهف110 وقال تعالى { بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } البقرة112 وقال تعالى { وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا } النساء125 فالعمل الصالح هو الاحسان وهو فعل الحسنات و الحسنات هي ما احبه الله ورسوله وهو ما امر به امر ايجاب او استحباب فما كان من البدع في الدين التي ليست مشروعة فان الله لا يحبها ولا رسوله فلا تكون من الحسنات ولا من العمل الصالح كما ان يعمل مالا يجوز كالفواحش والظلم ليس من الحسنات ولا من العمل الصالح واما قوله { وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا } الكهف110 وقوله { أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ } فهو اخلاص الدين لله وحده وكان عمر بن الخطاب يقول اللهم اجعل عملي كله صالحا واجعله لوجهك خالصا ولا تجعل لاحد فيه شيئا وقال الفضيل بن عياض في قوله { لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا } هود7 قال اخلصه واصوبه قالوا يا ابا علي ما اخلصه واصوبه قال ان العمل اذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل واذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل حتى يكون خالصا صوابا والخالص ان يكون لله والصواب ان يكون على السنة وقد قال الله تعالى { أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ } الشورى21 والمقصود بجميع العبادات ان يكون الدين كله لله وحده فانه هو المعبود والمسئول الذي يخاف ويرجى ويسأل ويعبد فله الدين خالصا { وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا } آل عمران83⁶¹

فالسعادة مشروطة بشرطين بالإيمان والعمل الصالح بعلم نافع وعمل صالح بكلم طيب وعمل صالح وكلاهما مشروط بأن يكون على موافقة الرسل كما قال أبي بن كعب رضي الله عنه عليكم بالسبيل والسنة فإنه ما من عبد على السبيل والسنة ذكر الله خاليا فاقشعر جلده من خشية الله إلا تحانت عنه خطاياه كما يتحات الورق اليابس عن الشجر وما من عبد على السبيل والسنة ذكر الله خاليا ففاضت عيناه من خشية الله إلا لم تمسه النار أبدا وإن اقتصادا في سبيل وسنة خير عن اجتهاد في خلاف سبيل وسنة فاحرصوا أن تكون أعمالكم إن كانت اجتهادا أو اقتصادا على منهاج الأنبياء وسننهم ولهذا قال الفضيل بن عياض في قوله تعالى { لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا } هود7 قال اخلصه واصوبه قالوا يا ابا علي ما اخلصه واصوبه قال إن العمل إذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل وإذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل حتى يكون خالصا صوابا والخالص أن يكون لله والصواب أن يكون على السنة فالسعيد يخاف في أعماله أن لا يكون

⁶¹الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 375 و مجموع الفتاوى ج: 26 ص: 152 و مجموع الفتاوى ج:

صادقا في إخلاصه الدين لله أو أن لا تكون موافقة لما أمر الله به على لسان رسوله ولهذا كان السلف يخافون النفاق على أنفسهم فذكر البخاري عن أبي عالية قال أدركت ثلاثين من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كلهم يخاف النفاق على نفسه ولهذا كانوا يستثنون فيقول أحدهم أنا مؤمن إن شاء الله ومثل هؤلاء يستغفرون الله مما علموه أو لم يعلموه من التقصير والتعدي ويتوبون من ذلك⁶²

الفضل بنفس العمل وجودته لا بقدره وكثرته

فاذا كان العبد قصده ومراده وتوجهه الى الله فهذا اصلاح ارادته وقصده فاذا كان مع ذلك محسنا فقد اجتمع أن يكون عمله صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا وهو قول عمر رضى الله عنه اللهم اجعل عملي كله صالحا واجعله لوجهك خالصا ولا تجعل لأحد فيه شيئا والعمل الصالح هو الإحسان وهو فعل الحسنات وهو ما أمر الله به والذي أمر الله به هو الذى شرعه الله وهو الموافق لسنة الله وسنة رسوله فقد أخبر الله تعالى انه من أخلص قصده لله وكان محسنا فى عمله فانه مستحق للثواب سالم من العقاب ولهذا كان أئمة السلف يجمعون هذين الأصلين كقول الفضيل ابن عياض فى قوله تعالى **{لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} هود7** قال أخلصه وأصوبه فقبل يا أبا على ما أخلصه وأصوبه فقال ان العمل اذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل واذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل حتى يكون خالصا صوابا والخالص أن يكون لله والصواب أن يكون على السنة وقد روى ابن شاهين واللالكائى عن سعيد بن جبير قال لا يقبل قول وعمل الا بنية ولا يقبل قول وعمل ونية الا بموافقة السنة ورويا عن الحسن البصرى مثله ولفظه لا يصلح مكان يقبل وهذا فيه رد على المرجئة الذين يجعلون مجرد القول كافيا فأخبر أنه لا بد من قول وعمل اذ الايمان قول وعمل لا بد من هذين كما قد بسطناه فى غير هذا الموضوع وبيننا أن مجرد تصديق القلب واللسان مع البغض والاستكبار لا يكون ايمانا باتفاق المؤمنين حتى يقترن بالتصديق عمل وأصل العمل عمل القلب وهو الحب والتعظيم المنفى للبغض والاستكبار ثم قالوا ولا يقبل قول وعمل الا بنية وهذا ظاهر فان القول والعمل اذا لم يكن خالصا لله تعالى لم يقبله الله تعالى ثم قالوا ولا يقبل قول وعمل ونية الا بموافقة السنة وهى الشريعة وهى ما أمر الله به ورسوله لأن القول والعمل والنية الذى لا يكون مسنونا مشروعا قد أمر الله به يكون بدعة ليس مما يحبه الله فلا يقبله الله ولا يصلح مثل أعمال المشركين وأهل الكتاب ولفظ السنة فى كلام السلف يتناول السنة فى العبادات وفى الإعتقادات وان كان كثير ممن صنف فى السنة يقصدون الكلام فى الاعتقادات وهذا كقول ابن مسعود وأبى بن كعب وأبى بن كعب وأبى الدرداء رضى الله عنهم اقتصاد فى سنة خير من اجتهاد من اجتهاد فى بدعة وأمثال ذلك والحمد لله رب العالمين وصلواته على محمد وآله الطاهرين وأصحابه أجمعين⁶³

⁶²الصفدية ج: 2 ص: 248 ورسالة فى التوبة ج: 1 ص: 257 و مجموع الفتاوى ج: 1 ص:

ان الفضل بنفس العمل وجودته لا بقدره وكثرته كما قال تعالى { إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا } الكهف 7 وقال { إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا } الكهف 30 ورب تسبيحه من انسان افضل من ملء الارض من عمل غيره وكان ادريس يرفع له فى اليوم مثل عمل جميع أهل الأرض وان الرجلين ليكونان فى الصف وأجر ما بين صلاتهما كما بين السماء والأرض وقد روى ان انين المذنبين أحب الى من زجل المسبحين⁶⁴

صاحب الكبائر إذا اتقى الله فى عمل من الأعمال تقبل الله منه

العمل الذى يمحو الله به الخطايا ويكفر به السيئات هو العمل المقبول والله تعالى إنما يتقبل من المتقين والناس لهم فى هذه الآية وهى قوله تعالى { إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ } المائدة 27 ثلاثة أقوال طرفان ووسط فالخوارج والمعتزلة يقولون لا يتقبل الله إلا ممن اتقى الكبائر وعندهم صاحب الكبيرة لا يقبل منه حسنة بحال والمرجئة يقولون من اتقى الشرك والسلف والأئمة يقولون لا يتقبل إلا ممن اتقاه فى ذلك العمل ففعله كما أمر به خالصا لوجه الله تعالى قال الفضيل بن عياض فى قوله تعالى { لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا } هود 7 قال أخلصه وأصوبه قيل يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه قال إن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل حتى يكون خالصا صوابا والخالص أن يكون لله والصواب أن يكون على السنة فصاحب الكبائر إذا اتقى الله فى عمل من الأعمال تقبل الله منه ومن هو أفضل منه إذا لم يتق الله فى عمل لم يتقبله منه وإن تقبل منه عملا آخر وإذا كان الله يتقبل ممن يعمل العمل على الوجه المأمور به فى السنن عن عمار عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إن العبد لينصرف عن صلاته ولم يكتب له منها إلا نصفها إلا ثلثها إلا ربعها حتى قال إلا عشرها وقال ابن عباس ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها وفى الحديث رب صائم حظه من صيامه العطش ورب قائم حظه من قيامه السهر وكذلك الحج والجهاد وغيرهما

وفى حديث معاذ موقوفا ومرفوعا وهو فى السنن الغزو غزوان فغزو بيتغى به وجه الله ويطاع فيه الأمير وتنفق فيه كرائم الأموال وبياسر فيه الشريك ويجتنب فيه الفساد ويتقى فيه الغلول فذلك الذى لا يعدله شىء وغزو لا بيتغى به وجه الله ولا يطاع فيه الأمير ولا تنفق فيه كرائم الأموال ولا يياسر فيه الشريك ولا يجتنب فيه الفساد ولا يتقى فيه الغلول فذاك حسب صاحبه أن يرجع كفافا وقيل لبعض السلف الحاج كثير فقال الداج كثير والحاج قليل ومثل هذا كثير فالمحو والتكفير يقع بما يتقبل من الأعمال وأكثر الناس يقصرون فى الحسنات حتى فى نفس صلاتهم فالسعيد منهم من يكتب له نصفها وهم يفعلون السيئات كثيرا فلهذا يكفر بما يقبل من الصلوات الخمس شىء وبما يقبل من الجمعة شىء وبما يقبل من صيام رمضان شىء آخر وكذلك سائر الأعمال وليس كل حسنة تمحو كل سيئة بل المحو يكون للصغائر تارة ويكون للكبائر تارة باعتبار الموازنة والنوع الواحد من العمل قد يفعله الإنسان على وجه يكمل فيه إخلاصه وعبوديته لله فيغفر الله له به كبائر كما فى الترمذي وابن ماجه وغيرهما عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال يصاح برجل من أمتي يوم القيامة على رؤوس الخلائق فينشر عليه تسعة وتسعون سجلا كل سجل منها مد البصر فيقال هل تنكر من هذا شىئا فيقول لا يا رب فيقول لا ظلم عليك فتخرج له بطاقة قدر الكف فيها شهادة أن لا إله إلا الله فيقول

أين تقع هذه البطاقة مع هذه السجلات فتوضع هذه البطاقة في كفيه والسجلات في كفة فتقلت البطاقة وطاشت السجلات فهذه حال من قالها بإخلاص وصدق كما قالها هذا الشخص وإلا فأهل الكبائر الذين دخلوا النار كلهم كانوا يقولون لا إله إلا الله ولم يترجح قولهم على سيئاتهم كما ترجح قول صاحب البطاقة وكذلك في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه فيها العطش فوجد بئرا فنزل فيها فشرب ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش فقال الرجل لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني فنزل البئر فملأ خفه ثم أمسكه بفيه حتى رقى فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له وفي لفظ في الصحيحين إن امرأة بغيا رأت كلبا في يوم حار يطيف ببئر قد أدلع لسانه من العطش فنزعت له موقها فسقته به فغفر لها وفي لفظ في الصحيحين أنها كانت بغيا من بغايا بني إسرائيل وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بينما رجل يمشي في طريق وجد غصن شوك على الطريق فأخره فشكر الله له فغفر له وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال دخلت امرأة النار في هرة ربطتها لا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت فهذه سقت الكلب بإيمان خالص كان في قلبها فغفر لها وإلا فليس كل ما بغى سقت كلبا يغفر لها وكذلك هذا الذي نحى غصن الشوك عن الطريق فعلة إذ ذاك بإيمان خالص وإخلاص قائم بقلبه فغفر له بذلك فإن الأعمال تتفاضل بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والإخلاص وإن الرجلين ليكون مقامهما في الصف واحدا وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض وليس كل من نحى غصن شوك عن الطريق يغفر له قال الله تعالى {لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَاؤها وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ} الحج37 فالناس يشتركون في الهدايا والضحايا والله لا يناله الدم المهراق ولا اللحم المأكول والتصدق به لكن يناله تقوى القلوب وفي الأثر أن الرجلين ليكون مقامهما في الصف واحدا وبين صلاتيهما كما بين المشرق والمغرب فإذا عرف أن الأعمال الظاهرة يعظم قدرها ويصغر قدرها بما في القلوب وما في القلوب يتفاضل لا يعرف مقادير ما في القلوب من الإيمان إلا الله عرف الإنسان أن ما قاله الرسول كله حق ولم يضرب بعضه ببعض وقد قال تعالى {وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ} المؤمنون60 وفي الترمذي وغيره عن عائشة رضي الله عنها قالت يا رسول الله أهو الرجل يزني ويسرق ويشرب الخمر ويخاف أن يعاقب قال لا يا ابنه الصديق بل هو الرجل يصوم ويصلى ويتصدق ويخاف أن لا يتقبل منه وقد ثبت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو انفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه وذلك أن الإيمان الذي كان في قلوبهم حين الإنفاق في أول الإسلام وقله أهله وكثرة الصوارف عنه وضعف الدواعي إليه لا يمكن أحدا أن يحصل له مثله ممن بعدهم وهذا يعرف بعضه من ذاق الأمور وعرف المحن والابتلاء الذي يحصل للناس وما يحصل للقلوب من الأحوال المختلفة وهذا مما يعرف به أن أبا بكر رضي الله عنه لن يكون أحد مثله فإن اليقين والإيمان الذي كان في قلبه لا يساويه فيه أحد قال أبو بكر بن عياش ما سبقهم أبو بكر بكثرة صلاة ولا صيام ولكن بشيء وقر في قلبه وهكذا سائر الصحابة حصل لهم بصحبتهم للرسول مؤمنين به مجاهدين معه إيمان ويقين لم يشركهم فيه من بعدهم

لفظ الذوق مستعمل في الإحساس بالملائم والمنافر

ولفظ الذوق وإن كان قد يظن أنه في الأصل مختص بذوق اللسان فاستعماله في الكتاب والسنة يدل على أنه أعم من ذلك مستعمل في الإحساس بالملائم والمنافر كما أن لفظ الإحساس في عرف الاستعمال عام فيما يحس بالحواس الخمس بل وبالباطن وأما في اللغة فأصله الرؤيا كما قال { هَلْ نُحِسُّ مِنْهُمْ مَنْ أَحَدٍ } مريم 98 والمقصود لفظ الذوق قال تعالى { فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ } النحل 112 فجعل الخوف والجوع مذوقا وأضاف إليهما اللباس ليشعر أنه لبس الجائع والخائف فشملة وأحاط به إحاطة اللباس باللباس بخلاف من كان الألم لا يستوعب مشاعره بل يختص ببعض المواضع وقال تعالى { فَذُوقُوا الْعَذَابَ } آل عمران 106 وقال تعالى { ذُوقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ } الدخان 49 وقال تعالى { يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ } القمر 48 وقال { لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ } الدخان 56 وقال تعالى { لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا } {24} { إِلَّا حَمِيمًا وَعَسَاقًا } {25} النبأ 24-25 وقال { وَلَنذِيقَنَّهِمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَذْيِ نُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } السجدة 21 وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم ذاق طعم الإيمان من رضي ب الله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً فاستعمل لفظ الذوق في إدراك الملائم والمنافر كثير⁶⁶

حال الإنسان عند السراء والضراء

حال الإنسان عند السراء والضراء وذلك أن الإنسان هو كما وصفه الله بقوله تعالى { وَلَئِن أَدَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ } {9} { وَلَئِن أَدَقْنَا نَعْمَاءً بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَّنَتْهُ لَيَفْوَرٌ } {10} { وَفَخَرَّ فَوْقَ } {10} هود 9-10 وقال تعالى { إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ } هود 11 فأخبر أنه عند الضراء بعد السراء يبأس من زوالها في المستقبل ويكفر بما أنعم الله به عليه قبلها وعند النعماء بعد الضراء يأمن من عود الضراء في المستقبل وينسى ما كان فيه بقوله { ذَهَبَ السَّيِّئَاتِ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ } هود 10 علي غيره يفخر عليهم بنعمة الله عليه وقال تعالى { إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا } {19} إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا } {20} وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا } {21} المعارج 19-21 فأخبر أنه جزوع عند الشر لا يصبر عليه منوع عند الخير يبخل به وقال تعالى { إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ } إبراهيم 34 وقال تعالى { إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ } العاديات 6 وقال تعالى { إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا } الأحزاب 72 وقال تعالى { وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَنُورًا } الإسراء 100 وقال { وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ } فصلت 49 وقال تعالى { فَلَمَّا تَجَاكُمُ إِلَيَّ أَلْبَسْتُكُمْ وَالْإِنْسَانُ كَفُورًا } الإسراء 67 وقد وصف المؤمنين بأنهم صابرون في البأس والضراء وحين البأس والصابرون في النعماء أيضا بقوله تعالى { إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ } هود 11 والصبر في السراء قد يكون أشد ولهذا قال من قال من الصحابة ابتلينا بالضراء فصبرنا وابتلينا

بالسراء فلم نصبر وكان النبي يستعيز بالله من فتنة القبر وشر فتنة الغني وقال لأصحابه والله ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخاف أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت علي من كان قبلكم فتتنافسوا فيها كما تنافسوا فيها وتهلككم كم أهلكتهم فمن لم يتصف بحقيقة الإيمان هو إما قادر وإما عاجز فإن كان قادرا أظهر ما في نفسه بحسب قدرته من الفواحش والإثم والبغي والإشراك بالله والقول عليه بغير علم ومن ترك القسط وترك إقامة الوجه عند كل مسجد ودعاء الله مخلصا له الدين ثم يكون شرهم بحسب كل منهم من حيث نفوسهم وقدرتهم فإن العبد لا يفعل إلا بقدره وإرادة فمن كان أقدر وأفجر كان أمره أشد كفر عون وأمثاله من الجبارين المتكبرين لا يصبرون عن أهوائهم ولا يتقون الله وأما المؤمن فإنه مع قدرته يفعل ما أمر الله به من البر والتقوى دون ما نهى عنه من الإثم والعدوان ثم أولئك الذين لم يتصفوا بحقيقة الإيمان بل فيهم من الفجور كفر أو نفاق أو فسوق ما فيهم إذا كانوا عاجزين عن إرادتهم لا يقدرون علي أهوائهم بنوع من أنواع القدرة تجدهم أذل الناس وأطوع الناس لمن يستعملهم في أغراضهم وأجزع الناس لما أصابهم ذلك أنه ليس في قلوبهم من الإيمان ما يعتاضون به وتستغني به نفوسهم ويصبرون به عما لا يصلح لهم وهذه حال الأمم البعيدة عن العلم والإيمان كالترك التتار والعرب في جاهليتهم فإنهم أعز الناس إذا قدروا وأذل الناس إذا قهروا وأما المؤمنون فكما قال تعالي لهم وقد غلبوا {وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} آل عمران 139 فهم الأعلون إذا كانوا مؤمنين ولو غلبوا وقال كعب بن زهير في صفة الصحابة ليسوا مفاريح إن نالت رماحهم يوما وليسوا مجازيعا إذا نيلوا ولهذا كان المشروع في حق كل ذي إرادة فاسدة من الفواحش والظلم والشرك والقول بلا علم أحد أمرين إما إصلاح إرادته وإما منع قدرته فإنه إذا اجتمعت القدرة مع إرادته الفاسدة حصل الشر وأما ذو الإرادة الصالحة فتؤيد قدرته حتى يتمكن من فعل الصالحات وذو القدرة الذي لا يمكن سلب قدرته يسعي في إصلاح إرادته بحسب الإمكان فالمقصود تقوية الإرادة الصالحة والقدرة عليها بحسب الإمكان وتضعيف الإرادة الفاسدة والقدرة معها بحسب الإمكان ولا حول ولا قوة إلا بالله المؤمن أرجح في النعيم واللذة من الكافر في الدنيا قبل الآخرة وإن كانت الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر وهذا مما يظهر به حسن حال المؤمن وترجحه في النعيم واللذة علي الكافر في الدنيا قبل الآخرة وإن كانت الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر

فأما ما وعد به المؤمن بعد الموت من كرامة الله فإنه تكون الدنيا بالنسبة إليه سجنا وما للكافر بعد الموت من عذاب الله فإنه تكون الدنيا جنة بالنسبة إليه ذلك وذلك أن الكافر صاحب الإرادة الفاسدة إما عاجز وإما قادر فإن كان عاجزا تعارضت إرادته وقدرته حتى لا يمكنه الجمع بينهما وإن كان قادرا أقبل علي الشهوات وأسرف في التذاهد بها ولا يمكنه تركها ولهذا تجد القوم من الظالمين أعظم الناس فجورا وفسادا وطلبيا لما يروحون به أنفسهم من مسموع ومنظور ومشوم ومأكول ومشروب ومع هذا فلا تطمئن قلوبهم بشيء من ذلك هذا فيما ينالونه من اللذة وأما ما يخافونه من الأعداء فهو أعظم الناس خوفا ولا عيشة لخائف وأما العاجز منهم فهو في عذاب عظيم لا يزال في أسف علي ما فاتته وعلي ما أصابه وأما المؤمن فهو مع مقدرته له من الإرادة الصالحة والعلوم النافعة ما يوجب طمأنينة قلبه وانسراح صدره بما يفعله من الأعمال الصالحة وله من الطمأنينة وقرّة العين ما لا يمكن وصفه وهو مع عجزه أيضا له من أنواع الإيرادات الصالحة والعلوم النافعة التي يتنعم بها ما لا يمكن وصفه لذات أهل البر أعظم من لذات أهل الفجور وكل هذا محسوس مجرب وإنما يقع غلط أكثر الناس أنه قد أحس بظاهر من لذات أهل الفجور وذاقها ولم يذق لذات أهل البر ولم يخبرها ولكن أكثر الناس جهال كما لا يسمعون ولا يعقلون وهذا الجهل لعدم شهود حقيقة الإيمان ووجود حلاوته وذوق طعمه انضم إليه أيضا جهل كثير من المتكلمين في العلم بحقيقة ما في أمر الله من المصلحة والمنفعة وما في خلقه أيضا لعبد المؤمن من المنفعة والمصلحة فاجتمع الجهل بما أخبر الله به من خلقه وأمره وما

أشهدته عبادته من حقيقة الإيمان ووجود حلاوته مع ما في النفوس من الظلم مانعا للنفوس من عظيم نعمة الله وكرامته ورضوانه موقعا لها في بأسه وعذابه وسخطه⁶⁷

فإن الله ذم الإنسان بكونه كفورا غير شكور إذ يقول { إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ } العاديات 6 وقال تعالى { وَلَئِن أَدَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكُفُورٌ } 9 { وَلَئِن أَدَقْنَا نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسْتَه لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ } 10 { هود 9-10 }⁶⁸

العبد مأمور بالصبر في السراء أعظم من الصبر في الضراء

والعبد مأمور بالصبر في السراء أعظم من الصبر في الضراء قال تعالى { وَلَئِن أَدَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكُفُورٌ } 9 { وَلَئِن أَدَقْنَا نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسْتَه لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ } 10 { إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ } 11 { هود 9-11 }⁶⁹

والشجاعة ليست هي قوة البدن فقد يكون الرجل قوي البدن ضعيف القلب وانما هي قوة القلب وثباته فإن القتال مداره على قوة البدن وصنعه للقتال وعلى قوة القلب وخبرته به والمحمود منهما ما كان بعلم ومعرفة دون التهور الذي لا يفكر صاحبه ولا يميز بين المحمود والمذموم ولهذا كان القوي الشديد هو الذي يملك نفسه عند الغضب حتى يفعل ما يصلح دون ما لا يصلح فأما المغلوب حين غضبه فليس هو بشجاع ولا شديد وقد تقدم ان جماع ذلك هو الصبر فإنه لا بد منه والصبر صبران صبر عند الغضب وصبر عند المصيبة كما قال الحسن ما تجرع عبد جرعة أعظم من جرعة حلم عند الغضب وجرعة صبر عند المصيبة وذلك لأن أصل ذلك هو الصبر على المؤلم وهذا هو الشجاع الشديد الذي يصبر على المؤلم والمؤلم ان كان مما يمكن دفعه أثار الغضب وان كان مما لا يمكن دفعه أثار الحزن ولهذا يحمر الوجه عند الغضب لثوران الدم عند استنشاع القدرة ويصفر عند الحزن لغور الدم عند استنشاع العجز ولهذا جمع النبي في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم عن ابن مسعود قال قال النبي ما تعدون الرقوب فيكم قالوا الرقوب الذي لا يولد له قال ليس ذلك بالرقوب ولكن الرقوب الرجل الذي لم يقدم من ولده شيئا ثم قال ما تعدون الصرعة فيكم قلنا الذي لا تصرعه الرجال فقال ليس بذلك ولكن الصرعة الذي يملك نفسه عند الغضب فذكر ما يتضمن الصبر عند المصيبة والصبر عند الغضب قال الله تعالى في المصيبة { وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ } 155 { الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ

⁶⁷قاعدة في المحبة ج: 1 ص: 172-177

⁶⁸قاعدة في المحبة ج: 1 ص: 159

⁶⁹مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 50

رَاجِعُونَ {156} البقرة 155-156 الآية وقال تعالى في الغضب {وَمَا يُلَاقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَاقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ} فصلت 35 وهذا الجمع بين صبر المصيبة وصبر الغضب نظير الجمع بين صبر النعمة وصبر المصيبة كما في قوله تعالى {وَلَمَّا أَدْفَنَّا الْإِنْسَانَ مِمَّا رَحِمْنَا ثُمَّ نَزَّ عَنَّا مِنْهُ إِنَّهُ لَيُؤُوسٌ كَفُورٌ} {9} وَلَمَّا أَدْفَنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضِرَاءٍ مَسْنَهُ لَيَقُولُنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ} {10} إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ} {11} هود 9-11 و في قوله تعالى {لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ} الحديد 23 وبهذا وصف كعب بن زهير من وصفه من الصحابة المهاجرين حيث قال لا يفرحون اذا نالت سيوفهم قوما وليسوا مجازيعا اذا نيلوا وكذلك قال حسان بن ثابت في صفة الانصار لا فخر ان هم أصابوا من عدوهم وان أصيبوا فلا خور ولا هلع وقال بعض العرب في صفة النبي يغلب فلا يبطر ويغلب فلا يضجر⁷⁰

فأفضل النعم الإيمان وكل مخلوق من المخلوقات فهو الآيات التي يحصل بها ما يحصل من هذه النعمة قال تعالى {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ} يوسف 111 وقال تعالى {تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ} ق 8 وما يصيب الإنسان إن كان يسره فهو نعمة بينة و إن كان يسوءه فهو نعمة لأنه يكفر خطاياة و يثاب عليه بالصبر و من جهة أن فيه حكمة و رحمة لا يعلمها العبد {وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} البقرة 216 الآية و كلتا النعمتين تحتاج مع الشكر الى الصبر أما الضراء فظاهر و أما نعمة السراء فتحتاج الى الصبر على الطاعة فيها كما قال بعض السلف إبتلينا بالضراء فصبرنا و ابتلينا بالسراء فلم نصبر فلماذا كان أكثر من يدخل الجنة المساكين لكن لما كان السراء اللذة و في الضراء الألم إشتهر ذكر الشكر في السراء و الصبر في الضراء قال تعالى {وَلَمَّا أَدْفَنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضِرَاءٍ مَسْنَهُ لَيَقُولُنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ} {10} إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ} {11} هود 9-11 الآية وأيضا صاحب السراء أحوج الى الشكر و صاحب الضراء أحوج الى الصبر فإن صبر هذا و شكر هذا و اوجب و أما صبر السراء فقد يكون مستحبا و صاحب الضراء قد يكون الشكر في حقه مستحبا و إجتماع الشكر و الصبر يكون مع تألم النفس و تلذذها و هذا يعسر على كثير و بسطه له موضع آخر و المقصود أن الله تعالى منعم بهذا كله و إن كان لا يظهر في الإبتداء لأكثر الناس فإن الله يعلم و أنتم لا تعلمون فكل ما يفعله الله فهو نعمة منه و أما ذنوب الإنسان فهي من نفسه و مع هذا فهي مع حسن العاقبة نعمة و هي نعمة على غيره لما يحصل له بها من الإعتبار و من هذا قوله اللهم لا تجعلني عبرة لغيري و لا تجعل غيري أسعد بما علمتني مني و في دعاء القرآن {فَقَالُوا عَلَىٰ اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} يونس 85 و كما فيه {وَأَجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا} الفرقان 74 و اجعلنا أئمة لمن يقتدي بنا و لا تجعلنا فتنة لمن يضل بنا

⁷⁰مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 159- و 160 الاستقامة ج: 2 ص: 274

⁷¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 209-210 و الحسنة والسيئة ج: 1 ص: 73

"يا أم سلمة ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة"

وأعظم عون لولى الأمر خاصة ولغيره عامة ثلاثة أمور أحدها الاخلاص لله والتوكل عليه بالدعاء وغيره وأصل ذلك المحافظة على الصلوات بالقلب والبدن الثانى الاحسان الى الخلق بالنفع والمال الذى هو الزكاة الثالث الصبر على أذى الخلق وغيره من النوائب ولهذا يجمع الله بين الصلاة والصبر كثيرا كقوله تعالى {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ} البقرة 45 وكقوله تعالى { وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذَكَرَى لِلذَّاكِرِينَ } {114} { وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } {115} هو 114-115 وقوله تعالى { فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا } طه 130 وكذلك فى سورة ق { فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ } ق 39 وقال تعالى { وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَنكَ يَضِيقُ صَدْرَكَ بِمَا يَقُولُونَ } {97} { فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ } {98} الحجر 97-98 وأما قرنه بين الصلاة والزكاة فى القرآن فكثير جدا فبالقيام بالصلاة والزكاة والصبر يصلح حال الراعى والرعية إذا عرف الانسان ما يدخل فى هذه الاسماء الجامعة يدخل فى الصلاة ذكر الله تعالى ودعاؤه وتلاوه كتابه واخلاص الدين له والتوكل عليه وفى الزكاة الاحسان الى الخلق بالمال والنفع من نصر المظلوم وإغاثة الملهوف وقضاء حاجة المحتاج فى الصحيحين عن النبى انه قال كل معروف صدقة فيدخل فيه كل إحسان ولو ببسط الوجه والكلمة الطيبة فى الصحيحين عن عدى بن حاتم رضى الله عنه قال قال النبى صلى الله عليه وسلم مامنكم من احد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه حاجب ولا ترجمان فينظر أيمن منه فلا يرى إلا شيئا قدمه وينظر أشأم منه فلا يرى إلا شيئا قدمه فينظر أمامه فتستقبله النار فمن استطاع منكم ان يتقى النار ولو بشق تمره فليفعل فان لم يجد فبكلمة طيبة وفى السنن عن النبى قال لا تحقرن من المعروف شيئا ولو ان تلقى أخاك ووجهك اليه منبسط ولو ان تفرغ من دلوك فى إناء المستقى وفى السنن عن النبى ان أنقل ما يوضع فى الميزان الخلق الحسن وروى عنه انه قال لأم سلمة يا أم سلمة ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة وفى الصبر احتمال الأذى وكظم الغيظ والعفو عن الناس ومخالفة الهوى وترك الأشر والبطر كما قال تعالى { وَلَئِن أَدْقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيُؤْوِسُ كَفُورٌ } {9} { وَلَئِن أَدْقْنَا نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرْبَاءٍ مَسْتَهْتَهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتِ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ } {10} { إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ } {11} هو 9-11 وقال لنبىه { خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ } الأعراف 199 وقال تعالى { وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ } {133} { الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } {134} آل عمران 133-134 وقال تعالى { وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ } {34} { وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ } {35} { وَإِنَّمَا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } {36} فصلت 34-36 وقال تعالى { وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ } الشورى 40 قال الحسن البصرى رحمة الله عليه إذا كان يوم القيامة نادى مناد من بطنان العرش ألا ليقم من وجب أجره على الله فلا يقوم إلا من عفا وأصلح⁷²

⁷²مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 362-364 و دقائق التفسير ج: 2 ص: 179 و السياسة

الشرعية ج: 1 ص: 112 رسالة فى قوله تعالى واستعينوا بالصبر والصلاة ج: 1 ص: 83

مساعي القلوب وأعمالها

إن المحبة التامة لله ورسوله تستلزم وجود محبوباته ولهذا جاء في الحديث الذي في الترمذي من أحب لله وأبغض لله وأعطى الله ومنع الله فقد استكمل الإيمان فإنه إذا كان حبه لله وبغضه الله وهما عمل قلبه وعطاؤه الله ومنعه الله وهما عمل بدنه دل على كمال محبته لله و دل ذلك على كمال الإيمان وذلك ان كمال الإيمان أن يكون الدين كله لله وذلك عبادة الله وحده لا شريك له والعبادة تتضمن كمال الحب وكمال الذل والحب مبدأ جميع الحركات الإرادية ولا بد لكل حى من حب وبغض فإذا كانت محبته لمن يحبه الله وبغضه لمن يبغضه الله دل ذلك على صحة الإيمان فى قلبه لكن قد يقوى ذلك وقد يضعف بما يعارضه من شهوات النفس واهوائها الذى يظهر فى بذل المال الذى هو مادة النفس فإذا كان حبه لله وعطاؤه الله ومنعه الله دل على كمال الإيمان باطنا وظاهرا واصل الشرك فى المشركين الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا إنما هو إتخاذ أنداد يحبونهم كحب الله كما قال تعالى { وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ } البقرة 165 ومن كان حبه لله وبغضه الله لا يحب إلا الله ولا يبغض إلا الله ولا يمنع إلا الله فهذه حال السابقين من أولياء الله كما روى البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال يقول الله من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلى عبدى بمثل أداء ما إفترضته عليه ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها فبى يسمع وبى يبصر وبى يبطش وبى يمشى ولئن سألتنى لأعطينه ولئن استعاذنى لأعيذنه وما ترددت عن شىء أنا فاعله ترددى عن قبض نفس عبدى المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه فهؤلاء الذين أحبوا الله محبة كاملة تقربوا بما يحبه من النوافل بعد تقربهم بما يحبه من الفرائض أحبهم الله محبة كاملة حتى بلغوا ما بلغوه وصار أحدهم يدرك بالله ويتحرك بالله بحيث أن الله يجيب مسألته ويعيذه مما استعاذ منه وقد ذم فى كتابه من أحب أندادا من دونه قال تعالى { وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ } البقرة 93 و ذم من إتخذ الهه هواه وهو أن يتأله ما يهواه ويحبه وهذا قد يكون فعل القلب فقط وقد مدح تعالى و ذم فى كتابه فى غير موضع على المحبة والإرادة والبغض والسخط والفرح والغم ونحو ذلك من أفعال القلوب كقوله { وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ } البقرة 165 وقال { وَلَئِن أَدَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَا مِنْهُ إِنِّه لَيُؤْسِسُ كُفُورًا } {9} **وَلَئِن أَدَقْنَا نَعْمَاءً بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسْنَةٍ لَيَقُولُنَّ دَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ } {10} إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا } {11} هود 9 - 11** ومثل هذا كثير فى كتاب الله وسنة رسوله واتفاق المؤمنين يحمى ويذم على ما شاء الله من مساعي القلوب وأعمالها بل قول القلب وعمله هو الأصل مثل تصديقه وتكذيبه وحبه وبغضه من ذلك ما يحصل به مدح و ذم وثواب وعقاب بدون فعل الجوارح الظاهرة ومنه ما لا يقترب به ذلك الامع الفعل بالجوارح الظاهرة اذا كانت مقدورة وأما ما ترك فيه فعل الجوارح الظاهرة للعجز عنه فهذا حكم صاحبه حكم الفاعل⁷³

الأعمال الصالحة لازمة لإيمان القلب

أن الإيمان إذا أطلق أدخل الله ورسوله فيه الأعمال المأمور بها وقد يقرب به الأعمال وذكرنا نظائر لذلك كثيرة وذلك لأن اصل الإيمان هو ما فى القلب والأعمال الظاهرة لذلك لا يتصور

وجود إيمان القلب الواجب مع عدم جميع أعمال الجوارح بل متى نقصت الأعمال الظاهرة كان لنقص الإيمان الذى فى القلب فصار الإيمان متناولا للملزوم واللازم وإن كان أصله ما فى القلب وحيث عطف عليه الأعمال فإنه أريد أنه لا يكتفى بإيمان القلب بل لابد معه من الأعمال الصالحة ثم للناس فى مثل هذا قولان منهم من يقول المعطوف دخل فى المعطوف عليه أولا ثم ذكر بإسمة الخاص تخصيصا له لئلا يظن أنه لم يدخل فى الأول وقالوا هذا فى كل ما عطف فيه خاص على عام كقوله {مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ} البقرة 98 وقوله {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ} الأحزاب 7 وقوله {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ} محمد 2 مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 199

فخص الإيمان بما نزل على محمد بعد قوله {وَالَّذِينَ آمَنُوا} محمد 2 وهذه نزلت فى الصحابة وغيرهم من المؤمنين وقوله {حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ} البقرة 238 وقوله {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ} البينة 5 والصلاة والزكاة من العبادة فقوله {آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} البقرة 277 كقوله {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ} البينة 5 فإنه قصد أولا أن تكون العبادة لله وحده لا لغيره ثم أمر بالصلاة والزكاة ليعلم أنهما عبادتان واجبتان فلا يكتفى بمطلق العبادة الخالصة دونهما وكذلك يذكر الإيمان أولا لأنه الأصل الذى لابد منه ثم يذكر العمل الصالح فإنه أيضا من تمام الدين لا بد منه فلا يظن الظان اكتفاءه بمجرد إيمان ليس معه العمل الصالح فعلى قول هؤلاء يقال الأعمال الصالحة المعطوفة على الإيمان دخلت فى الإيمان وعطف عليه عطف الخاص على العام إما لذكره خصوصا بعد عموم وإما لكونه إذا عطف كان دليلا على أنه لم يدخل فى العام وقيل بل الأعمال فى الأصل ليست من الإيمان فإن أصل الإيمان هو ما فى القلب ولكن هى لازمة له فمن لم يفعلها كان إيمانه منتفيا لأن إنتفاء اللازم يقتضى إنتفاء الملزوم لكن صارت بعرف الشارع داخلة فى إسم الإيمان إذا أطلق كما تقدم فى كلام النبى فإذا عطف عليه ذكرت لئلا يظن الظان أن مجرد إيمانه بدون الأعمال الصالحة اللازمة للإيمان يوجب الوعد فكان ذكرها تخصيصا وتنصيحا ليعلم أن الثواب الموعود به فى الآخرة وهو الجنة بلا عذاب لا يكون إلا لمن آمن وعمل صالحا لا يكون لمن ادعى الإيمان ولم يعمل وقد بين سبحانه فى غير موضع أن الصادق فى قوله آمنت لابد أن يقوم بالواجب وحصر الإيمان فى هؤلاء يدل على إنتفائه عن سواهم⁷⁴

الحسنات والسيئات فى الآية المراد بها المسار والمضار

قال تعالى {وَلَيْنِ أَدْقَنَاءُ نِعْمَاءٍ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسْتَهْ لِيُقُولَنْ دَهَبَ السَّيِّئَاتِ عَنِّي إِنَّهُ أفرح فخور} {هود 10} فقوله تعالى { وَإِنْ تُصِيبُهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلُّ مَنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَا لَهُؤْلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا} {78} { مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ} {79} النساء 78-79 ليس المراد بالحسنات والسيئات فى هذه الآية الطاعة والمعاصي وذلك أن الحسنات والسيئات فى الآية المراد بها المسار والمضار

دون الطاعات والمعاصي كما في قوله تعالى { وَيَلُونَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } الأعراف 168 وهو الشر والخير في قوله { وَنَبِّئُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً } الأنبياء 35 وكذلك قوله { إِنْ تَمَسَسْتُمْ حَسَنَةً تَسُوهُمُ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا } آل عمران 120 وقوله تعالى { وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضِرَاءٍ مَسَّاهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتِ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ } هود 10 وقوله تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبِئْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّ عُونٌ } 94 { ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَاءُ وَالسَّرَاءُ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ } 95 { الأعراف 94-95 ⁷⁵

تحدى الله الخلق بأن يأتوا بمثله

وأما نبوة نبينا محمد عليه أفضل الصلاة وأكمل السلام فإنها تعرف بطرق كثيرة منها المعجزات ومعجزاته منها القرآن ومنها غير القرآن والقرآن معجز بلفظه ونظمه ومعناه وإعجازه يعلم بطريقتين جملي وتفصيلي أما الجملي فهو أنه قد علم بالتواتر أن محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ادعى النبوة وجاء بهذا القرآن وأن في القرآن آيات التحدي والتعجيز كقوله تعالى { فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ } هود 13 وقد علم أيضا بالتواتر أنه دعا قريشا خاصة والعرب عامة وأن جمهورهم في أول الأمر كذبوه وأذوه وأذوا الصحابة وقالوا فيه أنواع القول مثل قولهم هو ساحر وشاعر وكاهن ومعلم ومجنون وأمثال ذلك وعلم أنهم كانوا يعارضونه ولم يأتوا بسورة من مثله وذلك يدل على عجزهم عن معارضته لأن الإرادة الجازمة لا يتخلف عنها الفعل مع القدرة ومعلوم أن إرادتهم كانت من أشد الإرادات على تكذيبه وإبطال حجته وأنهم كانوا أحرص الناس على ذلك حتى قالوا فيه ما يعلم أنه باطل بأدنى نظر وفيلسوفهم الكبير الوحيد فكر وقدر ثم نظر ثم عيس وبسر ثم أدير واستكبر فقال إن هذا إلا سحر يؤثر إن هذا إلا قول البشر وليس هذا موضع ذكر جزئيات القصص إذ المقصود ذكر ما علم بالتواتر من أنهم كانوا من أشد الناس حرصا ورغبة على إقامة حجة يكذبونه بها ثم انتشرت دعوته في أرض العرب ثم في سائر الأرض إلى هذا الوقت وآيات التحدي قائمة متلوة وما قدر أحد أن يعارضه بما يظن أنه مثل ⁷⁶ (ناقص)

و كون محمد كان نبيا أميا هو من تمام كون ما أتى به معجزا خارقا للعادة و من تمام بيان أن تعليمه أعظم من كل تعليم كما قال تعالى { وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّ بِبِيَمِينِكَ إِذًا لِأَنَّكَ الْمُبْطِلُونَ } العنكبوت 48 فغيره يعلم ما كتبه غيره وهو علم الناس ما يكتبونه و علمه الله ذلك بما أوحاه إليه و هذا الكلام الذي أنزل عليه هو آية و برهان على نبوته فإنه لا يقدر عليه الإنس و الجن { قُلْ لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا } الإسراء 88 { أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } يونس 38 و في الآية الأخرى { أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ

⁷⁵الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 442 و مجموع الفتاوى ج: 18 ص: 208

⁷⁶العقيدة الأصفهانية ج: 1 ص: 208-209

فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ {13} فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ {14} هود-13-14⁷⁷

وقال تعالى {وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ} الحجر 87 وسواء كان المراد بذلك الفاتحة أو القرآن كله فإنه يدل على أن القرآن العظيم له إختصاص بهذا الوصف على ما ليس كذلك وقد سمى الله القرآن كله مجيدا و كريما وعريزا وقد تحدى الخلق بأن يأتوا بمثله أو بمثل عشر سور منه أو بمثل سورة منه فقال {فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ} الطور 34 وقال {فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ} هود 13 وقال {فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ} البقرة 23⁷⁸

أنه تفرق أهل الكتاب في النبي صلى الله عليه وسلم كل يقول فيه قولاً هو نظير تفرق سائر الكفار فإن الكفار بالأنبياء من عاداتهم أن تقول كل طائفة فيه قولاً يناقض قول الطائفة الأخرى وكذلك قولهم في الكتاب الذي أنزل عليه وأقوالهم كلها أقوال مختلفة باطلة وهذا هو الاختلاف المذموم الذي ذكره الله تعالى {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} {13} فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} {14} هود 13 14⁷⁹

القرآن معجز بلفظه ونظمه ومعناه

والقرآن كلام الله وفيه الدعوة والحجة فله به إختصاص على غيره كما ثبت عنه في الصحيح أنه قال ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة والقرآن يظهر كونه آية وبرهانا له من وجوه جملة وتفصيلا أما الجملة فإنه قد علمت الخاصة والعامة من عامة الأمم علما متواترا أنه هو الذي أتى بهذا القرآن وتواترت بذلك الأخبار أعظم من تواترها بخبر كل أحد من الأنبياء والملوك والفلاسفة وغيرهم والقرآن نفسه فيه تحدي الأمم بالمعارضة والتحدي هو أن يحدهم أي يدعوهم فيبعثهم إلى أن يعارضوه فيقال فيه حداني على هذا الأمر أي بعثني عليه ومنه سمي حادي العيس لأنه بحدها يبعثها على السير وقد يريد بعض الناس بالتحدي دعوى النبوة ولكنه أصله الأول قال تعالى في سورة الطور {أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ} {33} فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ} {34} الطور 33-34 فهنا قال {فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ} الطور 34 في أنه تقوله فإنه إذا كان محمد قادرا على أن يتقوله كما يقدر الإنسان على أن يتكلم بما يتكلم به من نظم ونثر كان هذا ممكنا للناس الذين هم من جنسه فأمكن الناس أن يأتوا بمثله ثم إنه تحداهم بعشر سور مثله فقال تعالى {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا

⁷⁷مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 267

⁷⁸مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 14

⁷⁹الجواب الصحيح ج: 1 ص: 160

بِعَشْرِ سُورٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ {هود 13} ثم
تحداهم بسورة واحدة منه فقال تعالى { وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ
تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ } {37} أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ
فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ {38} يونس 37-38 فطلب
منهم أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات هم وكل من استطاعوا من دون الله ثم تحداهم بسورة
واحدة هم ومن استطاعوا قال { فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ
إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } هود 14 وهذا أصل دعوته وهو الشهادة بأنه لا إله إلا الله والشهادة
بأن محمدا رسول الله وقال تعالى { فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا
إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } هود 14 كما قال { لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ
وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا } النساء 166 أي هو يعلم أنه منزل لا يعلم أنه مفترى كما
قال { وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ
لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ } يونس 37

أي ما كان لأن يفترى يقول ما كان ليفعل هذا فلم ينف مجرد فعله بل نفي احتمال فعله وأخبر بأن
مثل هذا لا يقع بل يمتنع وقوعه فيكون المعنى ما يمكن ولا يحتمل ولا يجوز أن يفترى هذا القرآن
من دون الله فإن الذي يفتريه من دون الله مخلوق والمخلوق لا يقدر على ذلك وهذا التحدي كان
بمكة فإن هذه السور مكية سورة يونس وهود والطور ثم أعاد التحدي في المدينة بعد الهجرة
فقال في البقرة وهي سورة مدنية { وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ
مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } البقرة 23⁸⁰

فعجز جميع الخلق أن يعارضوا ما جاء به ثم سجل على جميع الخلق العجز إلى يوم القيامة بقوله
{ قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ
لِبَعْضٍ ظَهِيرًا } الإسراء 88 فأخبر من ذلك الزمان أن الإنس والجن إذا اجتمعوا لا يقدر
على معارضة القرآن بمثله فعجز لفظه ومعناه ومعارفه وعلومه أكمل معجزة وأعظم شأنها
والأمر كذلك فإنه لم يقدر أحد من العرب وغيرهم مع قوة عداوتهم وحرصهم على إبطال أمره
بكل طريق وقدرتهم على أنواع الكلام أن يأتوا بمثله وأنزل الله إذ ذاك آيات بين فيها أنه رسول
إليهم ولم يذكر فيها أنه لم يرسل إلى غيرهم⁸¹

⁸⁰الجواب الصحيح ج: 5 ص: 423-425 و الجواب الصحيح ج: 1 ص: 427 و مجموع

الفتاوى ج: 14 ص: 199

⁸¹الجواب الصحيح ج: 1 ص: 427 و مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 199

القرآن متضمن لعلم الله

أن ما جاء به الرسول هو من علم الله فما أخبر به عن الله فالله أخبر به و هو سبحانه يخبر بعلمه يمتنع أن يخبر بنقيض علمه و ما أمر به فهو من حكم الله و الله عليم حكيم قال تعالى {لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا} النساء 166 و قال تعالى {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَبْطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} {13} فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنَّ لِلَّهِ إِلَهًا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} {14} {هود 13- 14} و قوله {أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ} النساء 166 قال الزجاج أنزله و فيه علمه و قال أبو سليمان الدمشقي أنزله من علمه و هكذا ذكر غيرهما و هذا المعنى مأثور عن السلف كما روى ابن أبي حاتم عن عطاء ابن السائب قال أقرأني أبو عبد الرحمن القرآن و كان إذا أقرأ أحدنا القرآن قال قد أخذت علم الله فليس أحد اليوم أفضل منك إلا بعمل ثم يقرأ {أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا} النساء 166 و كذلك قالوا في قوله تعالى {فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ بِعِلْمِ اللَّهِ} {هود 14} قالوا أنزله و فيه علمه قلت الباء قد تكون للمصاحبة تقول جاء بأسياده و أولاده فقد أنزله متضمنا لعلمه مستصحباً لعلمه فما فيه من الخبر هو خبر بعلم الله و ما فيه من الأمر فهو أمر بعلم الله بخلاف الكلام المنزل من عند غير الله فإن ذلك قد يكون كذبا و ظلماً كقرآن مسيمة و قد يكون صدقاً لكن إنما فيه علم المخلوق الذي قاله فقط لم يدل على علم الله تعالى إلا من جهة اللزوم و هو أن الحق يعلمه الله و أما القرآن فهو متضمن لعلم الله ابتداءً فإنما أنزل بعلمه لا بعلم غيره و لا هو كلام بلا علم و إذا كان قد أنزل بعلمه فهو يقتضى أنه حق من الله و يقتضى أن الرسول رسول من الله الذي بين فيه علمه قال الزجاج الشاهد المبين لما شهد به و الله يبين ذلك و يعلم مع ذلك أنه حق قلت قوله {لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ} {النساء 166} شهادته هو بيانه و إظهاره دلالته و إخباره فالآيات البينات التي بين بها صدق الرسول تدل عليه و منها القرآن هو شهادة بالقول و هو في نفسه آية و معجزة تدل على الصدق كما تدل سائر الآيات و الآيات كلها شهادة من الله كشهادة بالقول و قد تكون أبلغ و لهذا ذكر هذا في سورة هود لما تحداهم بالإتيان بالمثل فقال {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَبْطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} {13} فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنَّ لِلَّهِ إِلَهًا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} {14} {هود 13-14} فإن عجز أولئك عن المعارضة دل على عجز غيرهم بطريق الأولى و تبين أن جميع الخلق عاجزون عن معارضته و أنه آية بينة تدل على الرسالة و على التوحيد و كذلك قوله {لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ} {النساء 166} بعد قوله {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ} {النساء 163} إلى قوله {لِيَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ} {النساء 165} و قد ذكروا أن من الكفار من قال لا نشهد لمحمد بالرسالة فقال تعالى {لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ} {النساء 166} و أحسن من هذا أنه لما قال {لِيَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ} {النساء 165} نفي حجة الخلق على الخالق فقال لكن حجة الله على الخلق قائمة بشهادته بالرسالة فإنه يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه فما للخلق على الله حجة بل له الحجة البالغة و هو الذي هدى عباده بما أنزله و على ما تقدم فقوله {أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ} {النساء 166} أي فيه علمه بما كان و سيكون و ما أخبر به و هو أيضا مما يدل على أنه حق فإنه إذا أخبر بالغيب الذي لا يعلمه إلا الله دل على أن الله أخبره به كقوله {عَالِمِ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا} {26} إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ} {27} {الجن 26- 27} الآية و قد قيل أنزله و هو عالم به و بك قال ابن جرير الطبري في آية النساء أنزله إليك بعلم منه أنك خيرته من خلقه و ذكر الزجاج في آية هود قولين أحدهما أنزله و هو عالم بإنزاله و عالم أنه حق من عنده و الثاني أنه أنزله بما أخبر فيه من الغيوب و دل على ما سيكون و ما سلف قلت هذا الوجه هو الذي تقدم و أما الأول فهو من جنس قول ابن جرير فإنه عالم به و بمن أنزل إليه و عالم بأنه حق و أن الذي أنزل عليه أهل لما اصطفاه الله له و يكون هذا كقوله {وَلَقَدْ اخْتَرْنَا هُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ} {الدخان 32} و قول من قال {إِنَّمَا أُوتِيْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ} {القصص 78} أي على

علم من الله بإستحقاقي قلت و هذا الوجه يدخل في معنى الأول فإنه إذا نزل الكلام بعلم الرب تضمن أن كل ما فيه فهو من علمه و فيه الإخبار بحاله و حال الرسول و هذا الوجه هو الصواب و عليه الأكثرون و منهم من لم يذكر غيره و الأول و إن كان معناه صحيحا فهو جزء من هذا الوجه و أما كون الثاني هو المراد بالآية فغلط لأن كون الرب سبحانه يعلم الشيء لا يدل على أنه محمود و لا مذموم و هو سبحانه بكل شيء عليم فلا يقول أحد إنه أنزله و هو لا يعلمه لكن قد يظن أنه أنزل بغير علمه أي و ليس فيه علمه و أنه من تنزيل الشيطان كما قال تعالى { هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ {221} تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ {222} الشعراء 221-222 و الشياطين هو يرسلهم و ينزلهم لكن الكلام الذي يأتون به ليس منزلا منه و لا هو منزل بعلم الله بل منزل بما تقوله الشياطين من كذب و غيره ولهذا هو سبحانه إذا ذكر نزول القرآن قيده بأن نزوله منه كقوله { تَنَزَّلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ { الزمر 1 } وَالَّذِينَ أَنْبَأَهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ { الأنعام 114 } قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ { النحل 102 } و هذا مما إستدل به الإمام أحمد و غيره من أئمة السنة على أن القرآن كلام الله ليس بمخلوق خلقه في محل غيره فإنه كان يكون منزلا من ذلك المحل لا من الله و قال إنه نزل بعلم الله و إنه من علم الله و علم الله غير مخلوق و قال أحمد كلام الله من الله ليس شيئا منه ولهذا قال السلف القرآن كلام الله منزل غير مخلوق منه بدأ و إليه يعود فقالوا منه بدأ لم يبدأ من غيره كما تقوله الجهمية يقولون بدأ من المحل الذي خلق فيه و هذا مبسوط في مواضع والمقصود أنه إذا كان فيه علمه فهو حق و الكلام الذي يعارضه به خلاف علم الله فهو باطل كالشرك الذي قال الله تعالى فيه { وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أُنَبِّئُكُمْ أَنَّ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ { يونس 18 } و هذا الذي ذكرته من أنه يجب الرجوع في أصول الدين إلى الكتاب و السنة كما بينته من أن الكتاب بين الأدلة العقلية التي بها تعرف المطالب الإلهية و بين ما يدل على صدق الرسول في كل ما يقوله هو يظهر الحق بأدلته السمعية و العقلية ⁸²

الخلق كلهم عاجزين عن الاتيان بسورة مثله لانه خبر عن علم الله

قال تعالى { لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا { النساء 166 } فان شهادته بما أنزل اليه هي شهادته بأن الله أنزله منه و أنه أنزله بعلمه فما فيه من الخبر هو خبر عن علم الله ليس خبرا عن دونه و هذا كقوله { فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَنْزَلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَآن لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ { هود 14 } و ليس معنى مجرد كونه أنزله أنه هو معلوم له فان جميع الأشياء معلومه له و ليس في ذلك ما يدل على أنها حق لكن المعنى أنزله فيه علمه كما يقال فلان يتكلم بعلم و يقول بعلم فهو سبحانه أنزله بعلمه كما قال { قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ { الفرقان 6 } و لم يقل تكلم به بعلمه لأن ذلك لا يتضمن نزوله إلى الأرض اذا قال { أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ { النساء 166 } تضمن أن القرآن المنزل الى الأرض فيه علم الله كما قال { فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ { آل عمران 61 } وذلك يتضمن أنه كلام الله نفسه منه نزل و لم ينزل من عند غيره لأن غير الله لا يعلم ما في نفس الله من العلم ونفسه هي ذاته المقدسة إلا أن يعلمه الله بذلك كما قال المسيح عليه السلام { تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ { المائدة 116 } وقالت الملائكة { لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا { البقرة 32 } وقال { وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ { البقرة 255 } قال { فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا { 26 } إِلَّا مَن ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ { 27 } { الجن 26-27 } فغيبه الذي

اختص به لا يظهر عليه أحدا إلا من ارتضى من رسول و الملائكة لا يعلمون غيب الرب الذي اختص به وأما ما أظهره لعباده فانه يعلمه من شاء وما تتحدث به الملائكة فقد تسترق الشياطين بعضه لكن هذا ليس من غيبه و علم نفسه الذي يختص به بل هذا قد أظهر عليه من شاء من خلقه وهو سبحانه قال {لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ} النساء 166 فشهد أنه أنزله بعلمه بالآيات و البراهين التي تدل على أنه كلامه و أن الرسول صادق وكذلك قال في هود {فَأْتُوا **بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَاذْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} هود 13** لما تحداهم بالآتيان بمثله في قوله {فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ} الطور 34 ثم تحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله فعجزوا عن ذلك ثم تحداهم أن يأتوا بسورة مثله فعجزوا فان الخلائق لا يمكنهم أن يأتوا بمثله ولا بسورة مثله وإذا كان الخلق كلهم عاجزين عن الاتيان بسورة مثله ومحمد منهم علم أنه منزل من الله نزله بعلمه لم ينزله بعلم مخلوق فما فيه من الخبر فهو خبر عن علم الله وقوله {قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} الفرقان 6 لأن فيه من الأسرار التي لا يعلمها الا الله ما يدل على أن الله أنزله فذكره ذلك يستدل به تارة على أنه حق منزل من الله لكن تضمن من الاخبار عن أسرار السموات والأرض والدينا والأولين والآخرين وسر الغيب ما لا يعلمه الا الله فمن هنا نستدل بعلمنا بصدق أخباره أنه من الله و إذا ثبت أنه أنزله بعلمه تعالى استدللنا بذلك على أن خبره حق و إذا كان خيرا بعلم الله فما فيه من الخبر يستدل به عن الأنبياء وأمهم وتارة عن يوم القيامة وما فيها و الخبر الذي يستدل به لا بد أن نعلم صحته من غير جهته و ذلك كإخباره بالمستقبلات فوعدت كما أخبر و كأخباره بالأمم الماضية بما يوافق ما عند أهل الكتاب من غير تعلم منهم و إخباره بأمور هي سر عند أصحابها كما قال {وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا} التحريم 3 الي قوله {تَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ} التحريم 3 فقوله {قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} الفرقان 6 استدلال بإخباره و لهذا ذكره تكديبا لمن قال هو {إِن كُنْتُمْ تَرْضَوْنَ اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَرَضْتُمْ أَنْ يُضِلَّكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَرَضَ لَكُمْ تَحْرِيمَ غَيْرِ الْمَرْبُوعِ} الفرقان 4 وقوله {أَنْزَلَهُ} النساء 166 استدلال على أنه حق وأن الخبر الذي فيه عن الله حق ولهذا ذكر ذلك بعد ثبوت التحدي وظهور عجز الخلق عن الاتيان بمثله ومن شهادته ما يجعله في القلوب من العلم و ما تنطق به الألسن من ذلك كما في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم مر عليه بجنزة فأتوا عليها خيرا فقال وجبت وجبت و مر عليه بجنزة فأتوا عليها شرا فقال وجبت وجبت قالوا يا رسول الله ما قولك وجبت وجبت قال هذه الجنزة أتنيقم عليها خيرا فقلت وجبت لها الجنة وهذه الجنزة أتنيقم عليها شرا فقلت وجبت لها النار أنتم شهداء الله في الأرض فقوله شهداء الله أضافهم الى الله تعالى و الشهادة تضاف تارة الى من يشهد له والى من يشهد عنده فتقبل شهادته كما يقال شهود القاضي وشهود السلطان ونحو ذلك من الذين تقبل شهادتهم وقد يدخل في ذلك من يشهد عليه بما تحمله من الشهادة ليؤديها عند غيره كالذين يشهد الناس عليهم بعقودهم أو أقاربهم فشهداء الله الذين يشهدون له بما جعله و فعله و يؤدون الشهادة عنه فانهم إذا رأوا من جعله الله برا تقيا يشهدون أن الله جعله كذلك و يؤدون عنه الشهادة فهم شهداء الله في الأرض وهو سبحانه الذي أشهدهم بأن جعلهم يعلمون ما يشهدون به و ينطقون به وإعلامه لهم بذلك هو شهادة منه بذلك فهذا أيضا من شهادته وقد قال تعالى {لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ} يونس 64 وفسر النبي صلى الله عليه وسلم البشرى بالرؤيا الصالحة وفسرها ببناء الناس وحمدهم والبشرى خبر بما يسر والخير شهادة بالبشرى من شهادة الله تعالى والله سبحانه أعلم⁸³

ذكر براهين التوحيد والنبوه قبل ذكر الفرق بين أهل الحق والباطل

وقد ذكر براهين التوحيد والنبوه قبل ذكر الفرق بين أهل الحق والباطل فقال { **أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَاذْعُوا مِنْ اسْتِطْعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** } {13} **فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ** } {14} {هود 13-14}

فلما تحداهم بالاثني عشر سور مثله مفتريات هم و جميع من يستطيعون من دونه كان في مضمون تحديه ان هذا لا يقدر أحد على الاتيان بمثله من دون الله كما قال { **قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْحِجْنُ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً** } {الإسراء 88} و حينئذ فعلم ان ذلك من خصائص من أرسله الله و ما كان مختصاً بنوع فهو دليل عليه فإنه مستلزم له وكل ملزوم دليل على لازمه كآيات الأنبياء كلها فإنها مختصة بجنسهم وهذا القرآن مختص بجنسهم ومن بين الجنس خاتمهم لا يمكن أن يأتي به غيره و كان ذلك برهاننا بينا على أن الله أنزله و أنه نزل بعلم الله هو الذي أخبر بخبره و أمر بما أمر به كما قال { **لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ** } {النساء 166} الآية و ثبوت الرسالة ملزوم لثبوت التوحيد و أنه لا إله إلا الله من جهة أن الرسول أخبر بذلك و من جهة أنه لا يقدر احد على الاتيان بهذا القرآن إلا الله فإن من العلم ما لا يعلمه إلا الله إلى غير ذلك من وجوه البيان فيه كما قد بسط ونبه عليه في غير هذا الموضوع ولا سيما هذه السورة فإن فيها من البيان والتعجيز والترهيب ما لا يقدر قدرة إلا الله و المقصود هنا هو الكلام على قوله { **أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ** } {هود 17} حيث سأله السائل عن تفسيرها وذكر مافي التفسير من كثرة الإختلاف فيها وإن ذلك الإختلاف يزيد الطالب عمى عن معرفة المراد الذي يحصل به الهدى والرشاد فإن الله تعال إنما نزل القرآن ليهتدى به لا ليختلف فيه والهدى إنما يكون إذا عرفت معانيه فإذا خصل الإختلاف المضاد لتلك المعاني التي لا يمكن الجمع بينه وبينها لم يعرف الحق ولم تفهم الآية ومعناها ولم يحصل به الهدى والعلم الذي هو المراد بإنزال الكتاب قال أبو عبد الرحمن السلمى حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن عثمان بن عفان و عبدالله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل قالوا فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً وقال الحسن البصري ما أنزل الله آية إلا وهو يحب أن يعلم فيها ذا نزلت وماذا عني بها وقد قال تعالى { **أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ** } {النساء 82} وتدبر الكلام إنما ينتفع به إذا فهم وقال { **إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** } {الزخرف 3} فالرسل تبين للناس ما أنزل إليهم من ربهم وعليهم أن يبلغوا الناس البلاغ المبين والمطلوب من الناس ان يعقلوا ما بلغه الرسل والعقل يتضمن العلم والعمل فمن عرف الخير والشر فلم يتبع الخير ويحذر الشر لم يكن عاقلاً ولهذا لا يعد عاقلاً إلا من فعل ما ينفعه واجتنب ما يضره فالمجنون الذي لا يفرق بين هذا وهذا قد يلقي نفسه في المهالك وقد يفر مما ينفعه⁸⁴

الأمران المانعان للخلق من اتباع الرسول

علينا أن نؤمن له ونؤمن بما جاء به والله تعالى ذكر هذين فذكر أولاً ما يثبت نبوته وصدقه بقوله { **أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَاذْعُوا مِنْ اسْتِطْعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** } {13} **فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ** } {14} {هود 13-14} كما تقدم التنبيه على ذلك ولما كان الذي يمنع الإنسان من اتباع الرسول شيئان أما

الجهل وأما فساد القصد ذكر ما يزيل الجهل وهو الآيات الدالة على صدقه ثم ذكر أهل فساد القصد بقوله {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهَا نُوفَّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ} {15} {أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} {16} هود 15-17 فهؤلاء أهل الفساد القصد فهذان الأمران هما المانعان للخلق من اتباع هذا الرسول كما أنه في البقرة ذكر ما يوجب العلم وحسن القصد فقال {وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّمَّنْ لَمِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} {البقرة 23} ثم قال {فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ} {البقرة 24} ⁸⁵

لفظ الإسلام يتضمن الاستسلام والانقياد ويتضمن الإخلاص

أن الإسلام دين و الدين مصدر دان يدين ديننا اذا خضع وذل و دين الاسلام الذي ارتضاه الله وبعث به رسله هو الاستسلام لله وحده فاصله في القلب هو الخضوع لله وحده بعبادته وحده دون ما سواه فمن عبده و عبد معه الها آخر لم يكن مسلما ومن لم يعبده بل استكبر عن عبادته لم يكن مسلما والاسلام هو الإستسلام لله وهو الخضوع له والعبودية له هكذا قال اهل اللغة اسلم الرجل اذا استسلم فالاسلام في الاصل من باب العمل عمل القلب والجوارح ⁸⁶

قال تعالى { فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } هود 14 ولفظ الإسلام يتضمن الاستسلام والانقياد ويتضمن الإخلاص مأخوذ من قوله تعالى {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} {الزمر 29} فلا بد في الإسلام من الاستسلام لله وحده وترك الاستسلام لما سواه وهذا حقيقة قولنا لا إله إلا الله فمن استسلم لله ولغير الله فهو مشرك والله لا يغفر أن يشرك به ومن لم يستسلم له فهو مستكبر عن عبادته وقد قال تعالى { وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ } غافر 60 وثبت عنه صلى الله عليه وسلم في الصحيح أنه قال لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر ولا يدخل النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان فقبل له يا رسول الله الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنا أفمن الكبر ذلك قال لا إن الله جميل يحب الجمال الكبر بطر الحق وغمط الناس بطر الحق جرده ودفعه وغمط الناس از دراؤهم واحتقارهم ⁸⁷

يجب الإيمان بما أوجب الله الإيمان به

قال تعالى { فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } هود 14 فما أوجب الله فيه العلم واليقين وجب فيه ما أوجبه الله من ذلك كقوله {اعْلَمُوا

⁸⁵مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 93

⁸⁶مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 271

⁸⁷اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 454

أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ {المائدة 98} وَقَوْلِ {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ} {محمد 19} ولذلك يجب الإيمان بما أوجب الله الإيمان به⁸⁸

أصل الإيمان توحيد الله والإيمان برسله

قال تعالى { فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } {هود 14} و أصل الإيمان توحيد الله بعبادته وحده لا شريك له والإيمان برسله كما قال تعالى {فَوَرَبِّكَ لَنَسَأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ} {92} {عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} {93} {الحجر 92-93} قال أبو العالية خلتان تسأل العباد يوم القيامة عنهما عما كانوا يعملون وعما اجابوا الرسل ولهذا يقرر الله هذين الأصلين في غير موضع من القرآن بل يقدمهما على كل ما سواهما لأنهما أصل الأصول ومن هذا قوله تعالى {فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} {هود 14}⁸⁹

أساس الطريق الارادة

فان الله تعالى لا يقبل من العمل الا ما اريد به وجهه واما بترك المنهى عنه الذي يسميه بعض الناس ورعا فانه اذا ترك السيئات لغير وجه الله لم يثب عليها وان لم يعاقب عليها وان تركها لوجه الله اثيب عليها ولا يكون ذلك الا بما يقوم بقلبه من رجاء رحمة الله أو خشية عذابه ورجاء رحمته وخشية عذابه من الامور الوجودية المأمور بها فتبين ان الورع لا يكون عملا صالحا الا بفعل المأمور به من الرجاء والخشية والا فمجرد الترك العدمي لا ثواب فيه واما الزهد الذي هو ضد الرغبة فانما يحمد حمدا مطلقا وتذم الرغبة لترك العمل للآخرة قال تعالى {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ} {15} {أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} {16} {هود 15-16} وقال {مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ} {الشورى 20} وقال {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَدْمُومًا مَذْحُورًا} {الإسراء 18} فمن لم يرد الدار الآخرة قولا وعملا وابتارا ومحبة ورغبة وانابة فلا خلاق له في الآخرة ولا فائدة له في الدار الدنيا بل هو كافر ملعون مشتت معذب لكن قد ينتفع بزهد في الدنيا بنوع من الراحة العاجلة وهو زهد غير مشروع وقد يستضر بما يفوته من لذات الدنيا وان كان غير زاهد فلا راحة له في هذا فمن زهد لطلب راحة الدنيا او رغب لطلب لذاتها لم يكن واحد منهما في عمل صالح ولا هو محمود في الشرع على ذلك ولكن قد يترجح هذا تارة وهذا تارة في مصلحة الدنيا كما تترجح صناعة على صناعة وتجارة على تجارة وذلك ان لذات الدنيا لا تنال غالبا الا بنوع من التعب فقد تترجح تارة لذة الترك على تعب الطلب وقد يترجح تعب الطلب على لذة الترك فلا حمد على ترك الدنيا لغير

⁸⁸الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 456

⁸⁹مجموع الفتاوى ج: 27 ص: 278

عمل الآخرة كما لا حمد لطلبها لغير عمل الآخرة فثبت ان مجرد الزهد في الدنيا لا حمد فيه كما لا حمد على الرغبة فيها وانما الحمد على ارادة الله والدار الآخرة والذم على ارادة الدنيا المانعة من ارادة ذلك كما تقدم وكما في قوله تعالى {إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُمْ وَأَسْرَحْكُمْ سَرَاحاً جَمِيلاً} {28} وَإِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْدارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُمْ أَجْراً عَظِيماً} {29} الأحزاب 28-29 ولهذا جرت عادة اهل المعرفة بتسمية هذا الطالب المرید فان أول الخير ارادة الله ورسوله والدار الآخرة ولهذا قال النبي انما الاعمال بالنيات⁹⁰

الانسان مامورا بمخالفة هواه

واما كون الانسان مریدا لما امر به او كارهها له فهذا لا تلتفت اليه الشرائع بل ولا امر عاقل بل الانسان مامورا بمخالفة هواه و الإرادة هي الفارقة بين اهل الجنة واهل النار كما قال تعالى {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَدْمُوماً مَذْحُوراً} {18} وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً} {19} الإسراء 18-19 وقال تعالى {تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً} {القصص 83} وقال تعالى {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ} {15} أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} {16} هود 15-16 وقال تعالى {وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ} {الأنعام 91}

قول القلب وعمله هو الأصل

فإن الإرادة الجازمة هي التي يقترب بها المقذور من الفعل وإلا فمتى لم يقترب بها المقذور من الفعل لم تكن جازمة فالمرید الزنا و السرقة و شرب الخمر العازم على ذلك متى كانت إرادته جازمة عازمة فلا بد أن يقترب بها من الفعل ما يقدر عليه ولو أنه يقربه إلى جهة المعصية مثل تقرب السارق إلى مكان المال المسروق ومثل نظر الزاني وإستماعه إلى المزني به وتكلمه معه ومثل طلب الخمر والتماسها ونحو ذلك فلا بد مع الإرادة الجازمة من شيء من مقدمات الفعل المقذور بل مقدمات الفعل توجد بدون الإرادة الجازمة عليه كما قال النبي في الحديث المتفق عليه العينان تزنيان وزناهما النظر واللسان يزني وزناه النطق واليد تزني وزناها البطش والرجل تزني وزناها المشى والقلب يتمنى ويشتهى والفرج يصدق ذلك او يكذبه وكذلك حديث أبي بكر المتفق عليه إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار قيل يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول قال أنه أراد قتل صاحبه وفي رواية في الصحيحين أنه كان حريصا على قتل صاحبه فإنه اراد ذلك إرادة جازمة فعل معها مقوره منعه منها من قتل صاحبه العجز وليست مجرد هم ولا مجرد عزم على فعل مستقبل فإستحق حينئذ النار كما قدمنا من ان الإرادة الجازمة التي أتى معها بالممكن يجري صاحبها مجرى الفاعل التام و الإرادة التامة قد ذكرنا انه لا بد أن يأتي معها بالمقدور أو بعضه وحيث ترك الفعل المقذور فليست

⁹⁰مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 145

⁹¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 347

جازمة بل قد تكون جازمة فيما فعل دون ما ترك مع القدرة مثل الذى يأتى بمقدمات الزنا من اللبس والنظر والقبلة ويمتنع عن الفاحشة الكبرى ولهذا قال فى حديث أبى هريرة الصحيح العين تزنى والأذن تزنى واللسان يزنى إلى أن قال والقلب يتمنى ويشتهى أى يتمنى الوطء ويشتهيه ولم يقل يريد ومجرد الشهوة والتمنى ليس إرادة جازمة ولا يستلزم وجود الفعل فلا يعاقب على ذلك وإنما يعاقب إذا أراد إرادة جازمة مع القدرة والإرادة الجازمة التى يصدقها الفرج ومن هذا الحديث الذى فى الصحيحين عن ابن مسعود أن رجلا اصاب من امرأة قبلة فأتى رسول الله فذكر ذلك له فأنزل الله تعالى { وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ } هود 114 الآية فقال الرجل إلى هذه فقال لمن عمل بها من أمتى فمثل هذا الرجل وأمثاله لا بد فى الغالب أن يهيم بما هو أكبر من ذلك كما قال والقلب يتمنى ويشتهى والفرج يصدق ذلك أو يكذبه لكن إرادته القلبية للقبلة كانت إرادة جازمة فإقترن بها فعل القبلة القدرية وأما إرادته للجماع فقد تكون غير جازمة وقد تكون جازمة لكن لم يكن قادرا والأشبه فى الذى نزلت فيه الآية انه كان متمكنا لكنه لم يفعل فتفرق احمد وغيره بين هم الخطرات وهم الإصرار هو الذى عليه الجواب فمن لم يمنعه من الفعل إلا العجز فلا بد أن يفعل ما يقدر عليه من مقدماته وإن فعله وهو عازم على العود متى قدر فهو مصر ولهذا قال ابن المبارك المصر الذى يشرب الخمر اليوم ثم لا يشربها إلى شهر وفى رواية إلى ثلاثين سنة ومن نيته أنه إذا قدر على شربها شربها وقد يكون مصرا إذا عزم على الفعل فى وقت دون وقت كمن يعزم على ترك المعاصى فى شهر رمضان دون غيره فليس هذا بتائب مطلقا ولكنه تارك للفعل فى شهر رمضان ويثاب إذا كان ذلك التارك لله وتعظيم شعائر الله وإجتنب محارمه فى ذلك الوقت ولكنه ليس من التائبين الذين يغفر لهم بالتوبة مغفرة مطلقا ولا هو مصر مطلقا وأما الذى وصفه ابن المبارك فهو مصر إذا كان من نيته العود إلى شربها قلت والذى قد ترك المعاصى فى شهر رمضان من نيته العود إليها فى غير شهر رمضان مصر أيضا لكن نيته أن يشربها إذا قدر عليها غير النية مع وجود القدرة فإذا قدر قد تبقى نيته وقد لا تبقى ولكن متى كان مريدا إرادة جازمة لا يمنعه إلا العجز فهو معاقب على ذلك كما تقدم وتقدم ان مثل هذا لا بد ان يقترن بإرادته ما يتمكن من الفعل معه وبهذا يظهر ما يذكر عن الحارث المحاسبى أنه حكى الإجماع على ان النوى للفعل ليس بمنزلة الفاعل له فهذا الإجماع صحيح مع القدرة فإن النوى للفعل القادر عليه ليس بمنزلة الفاعل وأما النوى الجازم الآتى بما يمكن فإنه بمنزلة الفاعل التام كما تقدم ومما يوضح هذا أن الله سبحانه فى القرآن رتب الثواب والعقاب على مجرد الإرادة كقوله تعالى { مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصَلُّهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا } الإسراء 18 وقال { مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهَا نُوْفٌ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُخْسِرُونَ } 15 { أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ } 16 { هود 15-16 } وقال { مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن تَصِيبٍ } الشورى 20 فرتب الثواب والعقاب على كونه يريد العاجلة ويريد الحياة الدنيا ويريد حرث الدنيا وقال فى آية هود { نُوْفٌ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا } هود 15 إلى أن قال { وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ } هود 16 فدل على أنه كان لهم أعمال بطلت ووقوفوا على أعمال أخرى عملوها وإن الإرادة هنا مستلزمة للعمل ولما ذكر إرادة الآخرة قال { وَمَن أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ } الإسراء 19 وذلك لأن إرادة الآخرة وإن استلزمت عملها فالثواب إنما هو على العمل المأمور به لا كل سعى ولا بد مع ذلك من الإيمان ومنه قوله { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَرْوَاجِكُمْ إِن كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهَا } الأحزاب 28 الآية { وَإِن كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ } الأحزاب 29 فهذا نظير تلك الآية التى فى سورة هود وهذا يطابق قوله إذا التقى المسلمان بسيفيهما إلا أنه قال فإنه أراد قتل صاحبه أو أنه كان حريصا على قتل صاحبه فذكر الحرص والإرادة على القتل وهذا لا بد ان يقترن به فعل وليس هذا مما دخل فى حديث العفو إن الله عفا لأمتى عما حدثت به أنفسها ومما يبني على هذا مسألة معروفة بين أهل السنة وأكثر

العلماء وبين بعض القدرية هي توبة العاجز عن الفعل كتوبة المجرى عن الزنا وتوبة الأقطع العاجز عن السرقة ونحوه من العجز فإنها توبة صحيحة عند جماهير العلماء من أهل السنة وغيرهم وخالف في ذلك بعض القدرية بناء على أن العاجز عن الفعل لا يصح أن يثاب على تركه الفعل بل يعاقب على تركه وليس كذلك بل إرادة العاجز عليها الثواب والعقاب كما بينا وبيننا أن الإرادة الجازمة مع القدرة تجرى مجرى الفاعل التام فهذا العاجز إذا أتى بما يقدر عليه من مباحة أسباب المعصية بقوله وعمله وهجرانها وتركها بقلبه كالتائب القادر عليها سواء فتوبة هذا العاجز عن كمال الفعل كإصرار العاجز عن كمال الفعل ومما بينى على هذا المسألة المشهورة في الطلاق وهو أنه لو طلق في نفسه وجزم بذلك ولم يتكلم به فإنه يقع به الطلاق عند جمهور العلماء وعند مالك في إحدى الروايتين يقع وقد استدل أحمد وغيره من الأئمة على ترك الوقوع بقوله إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها فقال المنازع هذا المتجاوز عنه إنما هو حديث النفس والجازم بذلك في النفس ليس من حديث النفس فقال المنازع لهم قد قال ما لم تكلم به أو تعمل به فأخبر أن التجاوز عن حديث النفس إمتد إلى هذه الغاية التي هي الكلام به والعمل به كما ذكر ذلك في صدر السؤال من استدلال بعض الناس وهو استدلال حسن فإنه لو كان حديث النفس إذا صار عزمًا ولم يتكلم به أو يعمل يؤخذ به لكان خلاف النص لكن يقال هذا في المأمور صاحب المقدرة التي يمكن فيها الكلام والعمل إذا لم يتكلم ولم يعمل وأما الإرادة الجازمة المأتى فيها بالمقدور فتجربى مجرى التي أتى معها بكمال العمل بدليل الأخرس لما كان عاجزًا عن الكلام وقد يكون عاجزًا عن العمل باليدين ونحوهما لكنه إذا أتى بمبلغ طاقته من الإشارة جرى ذلك مجرى الكلام من غيره والأحكام والثواب والعقاب وغير ذلك وأما الوجه الآخر الذي احتج به وهو أن العزم والهيم داخل في حديث النفس المعفو عنه مطلقا فليس كذلك بل إذا قيل إن الإرادة الجازمة مستلزمة لوجود فعل ما يتعلق به الذم والعقاب وغير ذلك يصح ذلك فإن المراد إن كان مقدورا مع الإرادة الجازمة وجب وجوده وإن كان ممتنعا فلا بد مع الإرادة الجازمة من فعل بعض مقدماته وحيث لم يوجد فعل أصلا فهو هم وحديث النفس ليس إرادة جازمة ولهذا لم يجيء في النصوص المعفو عن مسمى الإرادة والحب والبغض والحسد والكبر والعجب وغير ذلك من أعمال القلوب إذ كانت هذه الأعمال حيث وقع عليهم ذم وعقاب فلأنها تمت حتى صارت قولًا وفعلاً وحينئذ قوله إن الله تجاوز لأمتي الحديث حق والمواخذة بالإرادات المستلزمة لأعمال الجوارح حق ولكن طائفة من الناس قالوا إن الإرادة الجازمة قد تخلو عن فعل أو قول ثم تنازعوا في العقاب عليها فكان القاضي أبو بكر ومن تبعه كابى حامد وأبى الفرج وابن الجوزى يرون العقوبة على ذلك وليس معهم دليل على أنه يؤخذ إذا لم يكن هناك قول أو عمل والقاضي بناها على أصله في الإيمان الذي إتبع فيه جهما والصالحى وهو المشهور عن أبى الحسن الأشعري وهو أن الإيمان مجرد تصديق القلب ولو كذب بلسانه وسب الله ورسوله بلسانه وإن سب الله ورسوله إنما هو كفر في الظاهر وأن كلما كان كفرا في نفس الأمر فإنه يمتنع أن يكون معه شيء من تصديق القلب وهذا أصل فاسد في الشرع والعقل حتى أن الأئمة كوكيع بن الجراح وأحمد بن حنبل وأبى عبيدة وغيرهم كفروا من قال في الإيمان بهذا القول بخلاف المرجئة من الفقهاء الذين يقولون هو تصديق القلب واللسان فإن هؤلاء لم يكفروهم أحد من الأئمة وإنما بدعواهم وقد بسط الكلام في الإيمان وما يتعلق بذلك في غير هذا الموضع وبين أن من الناس من يعتقد وجود الأشياء بدون لوازمها فيقدر مالا وجود له وأصل جهم في الإيمان تضمن غلطا من وجوه منها ظنه انه مجرد تصديق القلب ومعرفة بدون أعمال القلب كحب الله وخشيته ونحو ذلك ومنها ظنه أن من حكم الشرع بكفره وخلوده في النار فإنه يمتنع أن يكون في قلبه شيء من التصديق وجزموا بأن إبليس وفرعون واليهود ونحوهم لم يكن في قلوبهم شيء من ذلك وهذا كلامهم في الإرادة والكرهية والحب والبغض ونحو ذلك فإن هذه الأمور إذا كانت هما وحديث نفس فإنه معفو عنها وإذا صارت إرادة جازمة وحبا وبغضا لزم وجود الفعل ووقوعه وحينئذ فليس لأحد أن يقدر وجودها مجردة ثم يقول ليس فيها إثم وبهذا يظهر الجواب عن حجة السائل فإن الأمة مجمعة

على أن الله يثيب على محبته ومحبة رسوله والحب فيه والبغض فيه ويعاقب على بغضه وبغض رسوله وبغض أوليائه وعلى محبة الأنداد من دونه وما يدخل في هذه المحبة من الإرادات والعزوم فإن المحبة سواء كانت نوعاً من الإرادة أو نوعاً آخر مستلزمًا للإرادة فلا بد معها من إرادة وعزم فلا يقال هذا من حديث النفس المعفو عنه بل كما جاء في الحديث الذي رواه الترمذي أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله وفي الصحيحين عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين وفي صحيح البخاري عن عبدالله بن هشام قال كنا مع رسول الله وهو أخذ بيد عمر بن الخطاب فقال عمر لأنت يا رسول الله أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي فقال النبي لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك فقال عمر فإنك الآن أحب إلي من نفسي فقال النبي الآن يا عمر بل قد قال تعالى {قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تُرَضُّونَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} التوبة 24 فإنظر إلى هذا الوعيد الشديد الذي قد توعد الله به من كان أهله وماله أحب إليه من الله ورسوله وجهاد في سبيله فعلم أنه يجب أن يكون الله ورسوله والجهاد في سبيله أحب إلى المؤمن من الأهل والمال والمسكن والمتاجر والأصحاب والأخوان وإلا لم يكن مؤمنًا حقًا ومثل هذا ما في الصحيحين عن أنس قال قال رسول الله لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى يحب المرء لا يحبه إلا الله وحتى يقذف في النار أحب إليه من أن يرجع في الكفر وحتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وهذا لفظ البخاري فأخبر أنه لا يجد حلاوة الإيمان إلا بهذه المحبات الثلاث أحدها أن يكون الله ورسوله أحب إليه من سواهما وهذا من أصول الإيمان المفروضة التي لا يكون العبد مؤمنًا بدونها الثاني أن يحب العبد لا يحبه إلا الله وهذا من لوازم الأول والثالث أن يكون القأوه في النار أحب إليه من الرجوع إلى الكفر وكذلك التائب من الذنوب من أقوى علامات صدقة في التوبة هذه الخصال محبة الله ورسوله ومحبة المؤمنين فيه وإن كانت متعلقة بالأعيان ليست من أفعالنا كالإرادة المتعلقة بأفعالنا فهي مستلزمة لذلك فإن من كان الله ورسوله أحب إليه من نفسه وأهله وماله لا بد والمواد من أعمال القلوب فإن الإيمان بالله يستلزم مودته ومودة رسوله وذلك يناقض مادة من حاد الله ورسوله وما ناقض الإيمان فإنه يستلزم العزم والعقاب لأجل عدم الإيمان فإن ما ناقض الإيمان كالشك والاعراض وردة القلب وبغض الله ورسوله يستلزم الذم والعقاب لكونه تضمن ترك المأمور مما أمر الله به ورسوله فاستحق تاركة الذم والعقاب وأعظم الواجبات إيمان القلب فما ناقضه يستلزم الذم والعقاب لتركه هذا الواجب بخلاف ما يستحق الذم لكونه منهيا عنه كالفواحش والظلم فإن هذا هو الذي يتكلم في الهم به وقصده إذا كان هذا لا يناقض أصل الإيمان وإن كان يناقض كماله بل نفس فعل الطاعات يتضمن ترك المعاصي ونفس ترك المعاصي يتضمن فعل الطاعات ولهذا كانت الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر فالصلاة تضمنت شيئين أحدهما نهيها عن الذنوب والثاني تضمنها ذكر الله وهو أكبر الأمرين فما فيها من ذكر الله أكبر من كونها ناهية عن الفحشاء والمنكر ولبس هذا موضع آخر والمقصود هنا إن المحبة التامة لله ورسوله تستلزم وجود محبوباته ولهذا جاء في الحديث الذي في الترمذي من أحب لله وأبغض لله وأعطى الله ومنع الله فقد استكمل الإيمان فإنه إذا كان حبه لله وبغضه لله وهما عمل قلبه وعطاؤه لله ومنعه لله وهما عمل بدنه دل على كمال محبته لله و دل ذلك على كمال الإيمان وذلك أن كمال الإيمان أن يكون الدين كله لله وذلك عبادة الله وحده لا شريك له والعبادة تتضمن كمال الحب وكمال الذل والحب مبدأ جميع الحركات الإرادية ولا بد لكل حي من حب وبغض فإذا كانت محبته لمن يحبه الله وبغضه لمن يبغضه الله دل ذلك على صحة الإيمان في قلبه لكن قد يقوى ذلك وقد يضعف بما يعارضه من شهوات النفس وهوائها الذي يظهر في بذل المال الذي هو مادة النفس فإذا كان حبه لله وعطاؤه لله ومنعه لله دل على كمال الإيمان باطنا وظاهرا واصل الشرك في المشركين الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا إنما هو إتخاذ أنداد يحبونهم كحب الله

كما قال تعالى { وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ } البقرة 165 ومن كان حبه لله وبغضه لله لا يحب إلا لله ولا يبغض إلا لله ولا يعطى إلا لله ولا يمنع إلا لله فهذه حال السابقين من أولياء الله كما روى البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال يقول الله من عادى لى وليا فقد أذنته بالحرب وما تقرب إلى عبدى بمثل أداء ما افترضته عليه ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها فبى يسمع وبى يبصر وبى يبطش وبى يمشى ولئن سألتنى لأعطينه ولئن استعادنى لأعيذنه وما ترددت عن شىء أنا فاعله ترددى عن قبض نفس عبدى المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه فهؤلاء الذين أحبوا الله محبة كاملة تقربوا بما يحبه من النوافل بعد تقربهم بما يحبه من الفرائض أحبهم الله محبة كاملة حتى بلغوا ما بلغوه وصار أحدهم يدرك بالله ويتحرك بالله بحيث أن الله يجيب مسأله ويعيذه مما استعاذ منه وقد ذم فى كتابه من أحب أندادا من دونه قال تعالى { وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ } البقرة 93 و ذم من اتخذ الهه هواه وهو أن يتأله ما يهواه ويحبه وهذا قد يكون فعل القلب فقط وقد مدح تعالى و ذم فى كتابه فى غير موضع على المحبة والإرادة والبغض والسخط والفرح والغم ونحو ذلك من أفعال القلوب كقوله { وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ } البقرة 165 وقوله { كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ } {20} { وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ } {21} القيامة 20-21 وقوله { يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا } الإنسان 27 وقوله { إِنْ تَمَسَسَكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا } آل عمران 120 وقوله { وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ } الزمر 45 وقوله { وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا } الحج 72 وقوله { وَذَكَرْنَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُّونَكُمْ مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفْرًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ } البقرة 109 وقوله { مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ } البقرة 105 وقوله { وَتَوَدُّونَ أَنْ غَيْرَ ذَاتِ الشُّكَّةِ تَكُونَ لَكُمْ } الأنفال 7 وقوله { وَمَا مَعَهُمْ أَنْ تُقَبَّلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ } التوبة 54 وقوله { ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ } محمد 9 وقوله { وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا } التوبة 124 الآية وقوله { وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا } الأحراب 11 وقوله { الْقُلُوبُ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا } يونس 58 وقال { إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ } القصص 76 وقال { ذَلِكَ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ } غافر 75 وقال { إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ } لقمان 18 وقال { وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا } الشورى 48 وقال {8} { وَلَئِن آذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكُوفِرُ } {9} { وَلَئِن آذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضِرَاءٍ مَسْتَهْتَه لَيَقُولُنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ } {10} { إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا } {11} { هود 9-11 } وقال { وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا } الفجر 20 وقال { إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ } {6} { وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ } {7} { وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ } {8} { العاديات 6-8 } وقال { وَمَنْ يَقْنُتْ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ } الحجر 56 وقال { وَذَلِكَ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَأَيْتُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِّنَ الْخَاسِرِينَ } فصلت 23 وقال { بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَّن يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَرَبِّئِنَّ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ ظَنَ السَّوِّءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا } الفتح 12 وقال { أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ } النساء 54 وقال { وَمَنْ شَرَّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ } الفلق 5 وقال { وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا } الحشر 9 وقال { لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خِيَالًا وَدُوا مَا عَنْتُمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ } {118} { هَأَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ } {119} آل عمران 118-119 وقال { إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبَخَّلُوا وَخَرَجَ أَصْغَانَكُمْ } محمد 37 وقال { إِذَا بُعِثَ مَا فِي

{9} { وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ {10} { العاديات 9-10 وقال { فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا } {البقرة 10} وقال { فَيَطْمَعُ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ } {الأحزاب 32} وقال { إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ { الأنفال 49} وقال { أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْتَرِ قُلُوبَهُمْ } {المائدة 41} وقال { قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ } {يونس 57} ومثل هذا كثير في كتاب الله وسنة رسوله وإتفاق المؤمنين يحمد ويذم على ما شاء الله من مساعي القلوب واعمالها مثل قوله في الحديث الصحيح المتفق عليه لا تباغضوا ولا تحاسدوا وقوله لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه من الخير ما يحب لنفسه وقوله مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر وقوله لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر و لا يدخل النار من في قلبه مثقال ذرة من الإيمان وقوله لا تسماوا العنب الكرم وإنما الكرم قلب المؤمن وأمثال هذا كثير بل قول القلب وعمله هو الأصل مثل تصديقه وتكذيبه وحبه وبغضه من ذلك ما يحصل به مدح وذم وثواب وعقاب بدون فعل الجوارح الظاهرة ومنه ما لا يقتزن به ذلك إلا مع الفعل بالجوارح الظاهرة إذا كانت مقدورة وأما ما ترك فيه فعل الجوارح الظاهرة للعجز عنه فهذا حكم صاحبه حكم الفاعل فأقوال القلب وأفعاله ثلاثة أقسام أحدها ما هو حسنة وسيئة بنفسه و ثانيها ما ليس سيئة بنفسه حتى يفعل وهو السيئة المقدورة كما تقدم و ثالثها ما هو مع العجز كالحسنة والسيئة المفعولة وليس هو مع القدرة كالحسنة والسيئة المفعولة كما تقدم فالقسم الأول هو ما يتعلق بأصول الإيمان من التصديق والتكذيب والحب والبغض وتوابع ذلك فإن هذه الأمور يحصل فيها الثواب والعقاب وعلو الدرجات وأسفل الدرجات بما يكون في القلوب من هذه الأمور وإن لم يظهر على الجوارح بل المنافقون يظهرون بجوارحهم الأقوال والأعمال الصالحة وإنما عقابهم وكونهم في الدرك الأسفل من النار على ما في قلوبهم من الأمراض وإن كان ذلك قد يقتزن به أحيانا بغض القول والفعل لكن ليست العقوبة مقصورة على ذلك البغض اليسير وإنما ذلك البغض دلالة كما قال تعالى {وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَنَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ } {محمد 30} فأخبر أنهم لا بد أن يعرفوا في لحن القول وأما القسم الثاني و الثالث فمظنة الأفعال التي لا تنافي أصول الإيمان مثل المعاصي الطبيعية مثل الزنا والسرقه وشرب الخمر كما ثبت في الصحاح عن النبي انه قال من مات يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله دخل الجنة وإن زنا وإن سرق وإن شرب الخمر وكما شهد النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح للرجل كان يكثر شرب الخمر وكان يجلده كلما جىء به فلغنه رجل فقال لا تلغنه فإنه يحب الله ورسوله وفي رواية قال بعضهم أخزاه الله ما أكثر ما يؤتى به في شرب الخمر فقال النبي صلى الله عليه وسلم لا تكونوا أعرانا للشيطان على أخيك وهذا في صحيح البخارى من حديث أبى هريرة ولهذا قال إن الله تجاوز لأمتى عما حدثت به أنفسها ما لم تكلم به أو تعمل به والعفو عن حديث النفس إنما وقع لأمة محمد المؤمنين بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فعلم أن هذا العفو هو فيما يكون من الأمور التي لا تقدر في الإيمان فأما ما نافي الإيمان فذلك لا يتناوله لفظ الحديث لأنه إذا نافي الإيمان لم يكن صاحبه من أمة محمد في الحقيقة ويكون بمنزلة المنافقين فلا يجب أن يعفى عما في نفسه من كلامه أو عمله وهذا فرق بين يدل عليه الحديث وبه تأتلف الأدلة الشرعية وهذا كما عفا الله لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان كما دل عليه الكتاب والسنة فمن صح إيمانه عفى له عن الخطأ والنسيان وحديث النفس كما يخرجون من النار بخلاف من ليس معه الإيمان فإن هذا لم تدل النصوص على ترك مؤاخذته بما في نفسه وخطئه ونسيانه ولهذا جاء نية المؤمن خير من عمله هذا الأثر رواه أبو الشيخ الأصبهاني في كتاب الأمثال من مراسيل ثابت البناني وقد ذكره ابن القيم في النية من طريق عن النبي ثم ضعفها فانه أعلم فإن النية يثاب عليها المؤمن بمجرد ما تجرى مجرى العمل إذا لم يمنع من العمل بها إلا العجز ويمكنه ذلك في عامة أفعال الخير وأما عمل البدن فهو مقيد بالقدرة وذلك لا يكون إلا قليلا ولهذا قال بعض السلف قوة المؤمن في قلبه وضعفه في بدنه وقوة المنافق في

بدنه وضعفه في قلبه وقد دل على هذا الأصل قوله تعالى { وَإِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ } وَإِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ { البقرة 284 } وَإِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وهذه الآية وإن كان قد قال طائفة من السلف أنها منسوخة كما روى البخارى في صحيحه عن مروان الأصغر عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وهو ابن عمر أنها نسخت فالتسخ في لسان السلف أعم مما هو في لسان المتأخرين يريدون به رفع الدلالة مطلقا وإن كان تخصيصا للعام أو تقييدا للمطلق وغير ذلك كما هو معروف في عرفهم وقد أنكر آخرون نسخها لعدم دليل ذلك وزعم قوم ان ذلك خبر والخبر لا ينسخ ورد آخرون بأن هذا خبر عن حكم شرعى كالخبر الذى بمعنى الأمر والنهى والقائلون بنسخها يجعلون النسخ لها الآية التى بعدها وهى قوله { لَا يَكْفُرُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا } البقرة 286 كما روى مسلم فى صحيحه من حديث أنس فى هذه الآية فيكون المرفوع عنهم ما فسرت به الأحاديث وهو ما هموا به وحدثوا به أنفسهم من الأمور المقدورة ما لم يتكلم به أو يعملوا به ورفع عنهم الخطأ والنسيان وما استكروها عليه كما روى ابن ماجه وغيره بإسناد حسن إن الله تجاوز لأمتى عن الخطأ والنسيان وما استكروها عليه و حقيقة الأمر أن قوله سبحانه { وَإِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ } البقرة 284 لم يدل على المؤاخذه بذلك بل دل على المحاسبة به ولا يلزم من كونه يحاسب أن يعاقب ولهذا قال { فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ } البقرة 284 لا يستلزم أنه قد يغفر ويعذب بلا سبب ولا ترتيب ولا أنه يغفر كل شىء أو يعذب كل شىء مع العلم بأنه لا يعذب المؤمنين وأنه لا يغفر أن يشرك به إلا مع التوبة ونحو ذلك والأصل ان يفرق بين ما كان مجامعا لأصل الإيمان وما كان منافيا له ويفرق أيضا بين ما كان مقدورا عليه فلم يفعل وبين ما لم يترك إلا لعجز عنه فهذان الفرقان هما فصل فى هذه المواضيع المشتبهة وقد ظهر بهذا التفصيل أم أصل النزاع فى المسألة إنما وقع لكونهم رأوا عزا جازما لا يقترن به فعل قط وهذا لا يكون إلا إذا كان الفعل مقارنا للعزم وإن كان العجز مقارنا للإرادة إمتنع وجود المراد لكن لا تكون تلك إرادة جازمة فإن الإرادة الجازمة لما هو عاجز عنه ممتنعة أيضا فمع الإرادة الجازمة يوجد ما يقدر عليه من مقدمات الفعل ولوازمه وإن لم يوجد الفعل بنفسه والإنسان يجد من نفسه إن مع قدرته على الفعل يقوى طلبه والطمع فيه وإرادته ومع العجز عنه يضعف وهو لا يعجز عما يقوله ويفعله على السواء ولا عما يظهر على صفحات وجهه وقلبات لسانه مثل بسط الوجه وتعبسه وإقباله على الشىء والإعراض عنه وهذه ما يشبهها من أعمال الجوارح التى يترتب عليها الذم والعقاب كما يترتب عليها الحمد والثواب وبعض الناس يقدر عزا جازما لا يقترن به فعل قط وهذا لا يكون إلا لعجز يحدث بعد ذلك من موت أو غيره فسموا التصميم على الفعل فى المستقبل عزا وجزما ولا نزاع فى إطلاق الألفاظ فإن من الناس من يفرق بين العزم والقصد فيقول ما قارن الفعل فهو قصد وما كان قبله فهو عزم ومنهم من يجعل الجميع سواء وقد تنازعا هل تسمى إرادة الله لما يفعله فى المستقبل عزا وهو نزاع لفظى لكن ما عزم الإنسان عليه أن يفعله فى المستقبل فلا بد حين فعله من تجدد إرادة غير العزم المتقدم وهى الإرادة المستلزمة لوجود الفعل مع القدرة وتنازعا أيضا هل يجب وجود الفعل مع القدرة والداعى وقد ذكروا أيضا فى ذلك قولان والأظهر ان القدرة مع الداعى التام تستلزم وجود المقدور والإرادة مع القدرة تستلزم وجود المراد والمتنازعون فى هذه أراد أحدهم إثبات العقاب مطلقا على كل عزم على فعل مستقبل وإن لم يقترن به فعل وأراد الآخر رفع العقاب مطلقا عن كل ما فى النفس من الإرادات الجازمة ونحوها مع ظن الإثنين أن ذلك الواحد لم يظهر بقول ولا عمل وكل من هذين إنحراف عن الوسط فإذا عرف أن الإرادة الجازمة لا يتخلف عنها الفعل مع القدرة إلا لعجز يجرى صاحبها مجرى الفاعل التام فى الثواب والعقاب وأما إذا تخلف عنها ما يقدر عليها فذلك المتخلف لا يكون مرادا إرادة جازمة بل هو الهم الذى وقع العفو عنه وبه إنتلفت النصوص والأصول ثم هنا مسائل كثيرة فيما يجتمع فى القلب من الإرادات المتعارضة كالإعتقادات المتعارضة وإرادة الشىء وضده مثل شهوة النفس للمعصية وبغض القلب لها ومثل حديث النفس الذى يتضمن الكفر إذا

قارنه بعض ذلك والتعوذ منه كما شكوا أصحاب رسول الله إليه فقالوا أن أحدنا يجد في نفسه ما لأن يحترق حتى يصير حممة أو يخز من السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يتكلم به فقال أو قد وجدتموه فقالوا نعم قال ذلك صريح الإيمان رواه مسلم من حديث ابن مسعود وابي هريرة وفيه الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة وحين كتبت هذا الجواب لم يكن عندي من الكتب ما يستعان به على الجواب فإن له موارد واسعة فهنا لما إقترن بالوسواس هذا البغض وهذه الكراهة كان هو صريح الإيمان وهو خالصه ومحضه لأن المنافق والكافر لا يجد هذا البغض وهذه الكراهة مع الوسوسة بذلك بل إن كان في الكفر البسيط وهو الإعراض عما جاء به الرسول وترك الإيمان به وإن لم يعتقد تكذيبه فهذا قد لا يوسوس له الشيطان بذلك إذ الوسوسة بالمعارض المنافى للإيمان إنما يحتاج إليها عند وجود مقتضيه فإذا لم يكن معه ما يقتضي الإيمان لم يحتاج إلى معارض يدفعه وإن كان في الكفر المركب وهو التكذيب فالكفر فوق الوسوسة وليس معه إيمان يكره به ذلك ولهذا لما كانت هذه الوسوسة عارضة لعامة المؤمنين كما قال تعالى { أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ } الرعد 17 الآيات فضرب الله المثل لما ينزله من الإيمان والقرآن بالماء الذى ينزل في أودية الأرض وجعل القلوب كالأودية منها الكبير ومنها الصغير كما فى الصحيحين عن أبى وسى عن النبى أنه قال مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث أصاب أرضا فكانت منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكانت منها طائفة أمسكت الماء فسقى الناس وشربوا وكانت منها طائفة إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه الله بما بعثنى به من الهدى والعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به فهذا أحد المثلين و المثل الآخر ما يوقد عليه لطلب الحلية والمتاع من معادن الذهب والفضة والحديد ونحوه وأخبر ان السيل يحتمل زبدا رابيا ومما يوقدون عليه فى النار زيد مثله ثم قال { كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ } الرعد 17 الرابى على الماء وعلى الموقد عليه فهو نظير ما يقع فى قلوب المؤمنين من الشك والشبهات فى العقائد والأرادات الفاسدة كما شكاه الصحابة إلى النبى قال تعالى { فَيَذَهَبُ جُفَاءً } الرعد 17 يجفوه القلب فيرميه ويقذفه كما يقذف الماء الزبد ويجفوه { وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُتُ فِي الْأَرْضِ } الرعد 17 وهو مثل ما ثبت فى القلوب من اليقين والإيمان كما قال تعالى { أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ { إبراهيم 24 إلى قوله } يُنْبِتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ } إبراهيم 27 فكل ما وقع فى قلب المؤمن من خواطر الكفر والنفاق فكرهه وألقاه ازداد إيمانا ويقينا كما أن كل من حدثته نفسه بذنب فكرهه ونفاه عن نفسه وتركه لله ازداد صلاحا وبراً وتقوى وأما المنافق فإذا وقعت له الأهواء والآراء المتعلقة بالنفاق لم يكرهها ولم ينفها فإنه قد وجدت منه سيئه الكفر من غير حسنة إيمانية تدفعها أو تنفيها والقلوب يعرض لها الإيمان والنفاق فتارة يغلب هذا وتارة يغلب هذا وقوله إن الله تجاوز لأمتى عما وسوست أو حدثت به انفسها كما فى بعض ألفاظه فى الصحيح هو مقيد بالتجاوز للمؤمنين دون من كان مسلما فى الظاهر وهو منافق فى الباطن وهم كثيرون فى المتظاهرين بالإسلام قديما وحديثا وهم فى هذه الأزمان المتأخرون فى بعض الأماكن أكثر منهم فى حال ظهور الإيمان فى أول الأمر فمن أظهر الإيمان وكان صادقا مجتنبيا ما يضاده أو يضعفه يتجاوز له عما يمكنه التكلم به والعمل به دون ما ليس كذلك كما دل عليه لفظ الحديث فالقسمان اللذان بينا أن العبد يثاب فيهما ويعاقب على أعمال القلوب خارجة من هذا الحديث وكذلك قوله من هم بحسنة و من هم بسيئة إنما هو فى المؤمن الذى يهم بسيئة أو حسنة يمكنه فعلها فربما تركها لأنه أخبر أن الحسنة تضاعف بسمعائة ضعف إلى أضعاف كثيرة وهذا إنما هو لمن يفعل الحسنات لله كما قال تعالى { مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ } البقرة 261 و { ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ } البقرة 265 و { ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى } الليل 20 وهذا للمؤمنين فإن الكافر وإن كان الله يطعمه بحسناته فى الدنيا وقد يخفف عنه بها فى الآخرة كما خفف عن أبى طالب لإحسانه إلى

النبي وبشافة النبي فلم يوعد لكافر على حسناته بهذا التضعيف وقد جاء ذلك مقيدا في حديث آخر أنه في المسلم الذي هو حسن الإسلام والله سبحانه أعلم والحمد لله رب العالمين وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم⁹²

الزهد الشرعي

الزهد خلاف الرغبة يقال فلان زاهد في كذا وفلان راغب فيه و الرغبة هي من جنس الإرادة فالزهد في الشيء إنتقاء الإرادة له أما مع وجود كراهته وإما مع عدم الإرادة والكراهة بحيث لا يكون لا مريدا له ولا كارها له وكل من لم يرغب في الشيء ويريده فهو زاهد فيه وكما أن سبيل الله يحمد فيه الزهد فيما زهد الله فيه من فضول الدنيا فتحمد فيه الرغبة والإرادة لما حمد الله إرادته والرغبة فيه ولهذا كان أساس الطريق الإرادة كما قال تعالى {وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ} {الأنعام} 52 وقال تعالى {وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً} {الإسراء} 19 ونظائره متعددة كما رغب في الزهد ودم ضده في قوله تعالى {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهَا نُوفَّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ} {15} {أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} {16} {هود} 15-16 وقال تعالى { أَلْهَأَكُمُ التَّكَاثُرُ} {1} التكاثر 1 السورة وقال تعالى {وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا} {19} {وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا} {20} {الفجر} 19 وقال { إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ} {6} {وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ} {7} {وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ} {8} {العاديات} 6-8 وقال تعالى {اعْمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوٌّ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ} {الحديد} 20 الآية وهذا باب واسع وإنما المقصود هنا تمييز الزهد الشرعي من غيره وهو الزهد المحمود وتميز الرغبة الشرعية من غيرها وهي الرغبة المحموده فإنه كثيرا ما يشتبه الزهد بالكسل والعجز والبطالة عن الأوامر الشرعية وكثيرا ما تشبه الرغبة الشرعية بالحرص والطمع والعمل الذي ضل سعي صاحبه⁹³

ما قد يفضي الى حبوط العمل يجب تركه غاية الوجوب

قال تعالى {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهَا نُوفَّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ} {15} {أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} {16} {هود} 15-16 وما قد يفضي الى حبوط العمل يجب تركه غاية الوجوب والعمل يحبط بالكفر قاله سبحانه {وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ} {البقرة} 217 وقال تعالى {وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ} {المائدة} 5 وقال {وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} {الأنعام} 88 وقال {لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ

⁹²مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 742-744 و الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 172-174

⁹³مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 616 و الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 51

عَمَّاكَ { الزمر 65 } وقال { ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنزِلَ اللَّهُ فَاحْبَطُوا أَعْمَالَهُمْ } محمد9 وقال { ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَاحْبَطُوا أَعْمَالَهُمْ } محمد28 كما ان الكفر اذا قارنه عمل لم يقبل لقوله تعالى { إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ } المائدة27 وقوله { الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ أَصْلًا أَعْمَالَهُمْ } محمد1 وقوله { وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ } التوبة54 وهذا ظاهر ولا تحبط الاعمال بغير الكفر لان من مات على الايمان فانه لا بد من ان يدخل الجنة ويخرج من النار ان دخلها ولو حبط عمله كله لم يدخل الجنة قط ولان الاعمال انما يحبطها ما ينافيها ولا ينافي الاعمال مطلقا الا الكفر وهذا معروف من اصول اهل السنة نعم قد يبطل بعض الاعمال بوجود ما يفسده كما قال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صِدْقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَدَى } البقرة264 ولهذا لم يحبط الله الاعمال في كتابه الا بالكفر⁹⁴

البينة هي السبيل البينة

قال تعالى { أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابٌ مُّوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ } هود17 ان الله علم الانسان البيان كما قال تعالى { الرَّحْمَنُ } {1} عِلْمُ الْقُرْآنِ {2} { خَلَقَ الْإِنْسَانَ } {3} عِلْمُهُ الْبَيَانَ {4} { الرَّحْمَنُ } {1-4} وقال تعالى { وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا } البقرة31 وقال { عِلْمُ الْإِنْسَانِ مَا لَمْ يَعْلَمْ } العلق5 والبيان بيان القلب واللسان كما أن العمى والبكم يكون في القلب واللسان كما قال تعالى { صُمُّ بَكْمٌ عُمِّي فَهَمْ لَا يَرْجِعُونَ } البقرة18 وقال { صُمُّ بَكْمٌ عُمِّي فَهَمْ لَا يَعْقِلُونَ } البقرة171 وقال النبي هلا سألوا إذا لم يعلموا إنما شفاء العي السؤال وفي الاثر العي عي القلب لا عي اللسان أو قال شر العي عي القلب وكان مسعود يقول إنكم في زمان كثير فقهاؤه قليل خطباؤه وسيأتي عليكم زمان قليل فقهاؤه كثير خطباؤه وتبين الأشياء للقلب ضد اشتباهم عليه كما قال الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات الحديث وقد قرىء قوله { وَكَذَلِكَ نَفَصَلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ } الأنعام55 بالرفع والنصب أي ولتتبين أنت سبيلهم فالانسان يستبين الأشياء وهم يقولون قد بان الشيء وبينته وتبين الشيء وتبينته واستبان الشيء واستبينته كل هذا يستعمل لازما ومتعديا ومنه قوله تعالى { إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا } الحجرات6 هو هنا معتد ومنه قوله { بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ } النساء19 أي متبينة فهنا هو لازم والبيان كالكلام يكون مصدر بان الشيء بيانا ويكون اسم مصدر لبين كالكلام والسلام لسلم وبين فيكون البيان بمعنى تبين الشيء ويكون بمعنى بينت الشيء أي اوضحته وهذا هو الغالب عليه ومنه قوله ان من البيان لسحرا والمقصود ببيان الكلام حصول البيان لقلب المستمع حتى يتبين له الشيء ويستبين كما قال تعالى { هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ } آل عمران138 الآية ومع هذا فالذي لا يستبين له كما قال تعالى { قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ } فصلت44 وقال { وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ } النحل44 وقال { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِتُبَيِّنَ لَهُمْ } إبراهيم4 وقال { وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ } النور54 وقال { وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ } التوبة115 وقال { يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } النساء176

وقال { قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي } { الأنعام 57 الآية وقال { أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ } { هود 17 } وقال { وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ } البقرة 99 وقال { يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } { النور 61 } فأما الأشياء المعلومة التي ليس في زيادة وصفها إلا كثرة كلام وتفهيق وتشويق وتكبر والافصاح بذكر الأشياء التي يستفتح ذكرها فهذا مما ينهى عنه كما جاء في الحديث أن الله يبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه كما تتخلل البقرة بلسانها وفي الحديث الحياء والعي شعبتان من الايمان والبذاء والبيان شعبتان من النفاق ولهذا قال إن طول صلاة الرجل وقصر خطبته منته من فقهه وفي حديث سعد لما سمع ابنه أو لما وجد ابنه يدعو وهو يقول اللهم أني أسألك الجنة ونعيمها وبهجتها وكذا وكذا وأعوذ بك من النار وسلاسلها واغلالها وكذا وكذا قال يا بني اني سمعت رسول الله يقول سيكون قوم يعتدون في الدعاء فايك ان تكون منهم إنك ان أعطيت الجنة اعطيتها وما فيها من الخير وان اعذت من النار أعذت منها وما فيها من الشر ⁹⁵

الرسول ومن اتبعه على بينة من ربه وبصيرة

في هذه السورة من البيان والتعجيز ما لا يعلمه إلا الله وفيها من المواعظ والحكم والترغيب والترهيب ما لا يقدر قدره إلا الله والمقصود هنا هو الكلام على قوله { أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ } { هود 17 } حيث سأل السائل عن تفسيرها وذكر ما في التفاسير من كثرة الاختلاف فيها وأن ذلك الاختلاف يزيد الطالب عمى عن معرفة المراد الذي يحصل به الهدى والرشاد فإن الله تعالى إنما نزل القرآن ليهتدي به لا ليختلف فيه والهدى إنما يكون إذا عرفت معانيه فإذا حصل الاختلاف المضاد لتلك المعاني التي لا يمكن الجمع بينه وبينها ولم يعرف الحق ولم تفهم الآية ومعناها ولم يحصل به الهدى والعلم الذي هو المراد بإنزال الكتاب قال أبو عبد الرحمن السلمي حدثنا الذين كانوا يقرئونا القرآن عثمان بن عثمان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل قالوا فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا وقال الحسن البصري ما أنزل الله آية إلا وهو يحب أن يعلم في ماذا نزلت وماذا عنى بها وقد قال تعالى { أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ } { القرآن } أم على قلوب أقفالها { محمد 24 } وتدبر الكلام إنما ينتفع به إذا فهم وقال { إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } { الزخرف 3 } فالرسل تبين للناس ما أنزل إليهم من ربه وعليهم أن يبلغوا الناس البلاغ المبين والمطلوب من الناس أن يعقلوا ما بلغه الرسل والعقل يتضمن العلم والعمل فمن عرف الخير والشر فلم يتبع الخير ويحذر الشر لم يكن عاقلا ولهذا لا يعد عاقلا إلا من فعل ما ينفعه واجتنب ما يضره فالمجنون الذي لا يفرق بين هذا وهذا قد يلقي نفسه في المهالك وقد يفر مما ينفع ⁹⁶ (فيه نقص الرجوع الى نفس المرجع)

وقوله تعالى { أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ } { هود 17 } وهذا يعم جميع من هو على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه فالبينة العلم النافع والشاهد الذي يتلوه العمل الصالح وذلك يتناول الرسول ومن اتبعه إلى يوم القيامة فإن الرسول على بينة من ربه ومتبعيه على بينة من ربه وقال في حق الرسول { قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي } { الأنعام 57 } وقال في حق

⁹⁵مجموع الفتاوى ج: 9 ص: 63- 65

⁹⁶دقائق التفسير ج: 2 ص: 227

المؤمنين {أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ} محمد14
فذكر هذا بعد أن ذكر الصنفين في أول السورة فقال { الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ}1 { وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَيَّ مُحَمَّدٌ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ}2 { ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ}3 { محمد 1-3 الآيات إلى قوله {أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ} محمد14 وقال أبو الدرداء لا تهلك أمة حتى يتبعوا أهواءهم ويتركوا ما جاءتهم به أنبيأؤهم من البينات والهدى وقال تعالى {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي} يوسف108 فمن اتبعه يدعو إلى الله على بصيرة والبصيرة هي بينة وقال {أَوْ مَن كَانَ مِنِّي فَأُحْيِيَنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ} الأنعام122 الآية فالنور الذي يمشي به في الناس هو البينة والبصيرة وقال {اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} النور35 الآية قال أبي بن كعب وغيره هو مثل نور المؤمن وهو نوره الذي في قلبه عبده المؤمن الناشي عن العلم النافع والعمل الصالح وذلك بينة من ربه وقال {أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ} الزمر22 فهذا النور الذي هو عليه وشرح الصدر للإسلام هو البينة من ربه وهو الهدى المذكور في قوله {أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ} البقرة5 واستعمل في هذا حرف الإستعلاء لأن القلب لا يستقر ولا يثبت إلا إذا كان عالما موقنا بالحق فيكون العلم والإيمان صبغة له ينصبغ بها كما قال {صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً} البقرة138 ويصير مكانة له كما قال {قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ} الأنعام135 والمكان والمكانة قد يراد به ما يستقر الشيء عليه وإن لم يكن محيطا به كالسقف مثلا قد يراد به ما يحيط به فالمهتدون لما كانوا على هدى من ربهم ونور وبينة وبصيرة صار مكانة لهم استقروا عليها وقد تحيط بهم بخلاف الذين قال فيهم {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ} الحج11 فإن هذا ليس ثابتا مستقرا مطمئنا بل هو كالواقف على حرف الوادي وهو جانبه فقد يطمئن إذا أصابه خير وقد ينقلب على وجهه ساقطا في الوادي وكذلك فرق بين من {أَسَسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ} التوبة109 وبين {مَنْ أَسَسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا حُرْفٍ حَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ} التوبة109 وكذلك الذين كانوا {عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ} آل عمران103 فأنقذهم منها وشواهد هذا كثير فقد تبين أن الرسول ومن اتبعه على بينة من ربهم وبصيرة وهدى ونور وهو الإيمان الذي في قلوبهم والعلم والعمل الصالح ثم قال {وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مُِّنْهُ} هود17 والضمير في منه عائد إلى الله تعالى أي ويتلو هذا الذي هو على بينة من ربه شاهد من الله والشاهد من الله كما أن البينة التي هو عليها المذكور من الله أيضا وأما قول من قال الشاهد من نفس المذكور وفسره بلسانه أو بعلي بن أبي طالب فهذا ضعيف لأن كون شاهد الإنسان منه لا يقتضى أن يكون الشاهد صادقا فإنه مثل شهادة الإنسان لنفسه بخلاف ما إذا كان الشاهد من الله فإن الله يكون هو الشاهد وهذا كما قيل في قوله {قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ} الرعد43 أنه علي فهذا ضعيف لأن شهادته قريب له قد اتبعه على دينه ولم يهتد إلا به لا تكون برهانا للصدق ولا حجة على الكفر بخلاف شهادة من عنده علم الكتاب الأول فإن هؤلاء شهادتهم برهان ورحمة كما قال في هذه السورة {وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً} هود17 وقال {وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ} الأحقاف10 وقال {فَإِن كُنْتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ} يونس94 الآية وقال {وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ} الأنعام114 وهذا الشاهد من الله هو القرآن ومن قال أنه جبريل فجبريل لم يقل شيئا من تلقاء نفسه بل هو الذي بلغ القرآن عن الله وجبريل يشهد أن القرآن منزل من الله وأنه حق كما قال {لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا} النساء166 والذي قال هو جبريل قال يتلوه أي يقرأه كما قال {فَإِذَا قَرَأْتَ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ} القيامة18 أي إذا قرأه جبريل فاتبع ما قرأه وقال {عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى} النجم5 ومن قال

الشاهد لسانه وجعل الضمير المذكور عائدا على القرآن ولم يذكر لأنه جعل البينة هي القرآن ولو كانت البينة هي القرآن

لما احتاج إلى ذلك وقد قال **{ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ } هود17** فقد ذكر ان القرآن من الله وقد علم أنه نزل به جبريل على محمد وكلاهما بلغه وقرأه فقولهُ **{ وَيَتْلُوهُ } هود17** جبريل أو محمد تكرير لا فائدة فيه ولهذا لم يذكر مثل ذلك في القرآن وأيضا فكونه على القرآن لم نجد لذلك نظيرا في القرآن فإن القرآن كلام الله واحد لا يكون عليه وإذا كان المراد على الإيمان بالقرآن والعمل به فهذا الذي ذكرناه ان البينة هي الإيمان بما جاء به الرسول وهو اخباره أنه رسول الله وأن الله أنزل القرآن عليه ولما أنزلت هذه السورة وهي مكية لم يكن قد نزل من القرآن قبلها إلا بعضه وكان المأمور به حينئذ هو الإيمان بما نزل منه فمن آمن حينئذ بذلك ومات على ذلك كان من أهل الجنة وأيضا فتسمية جبريل شاهدا لا نظير له في القرآن وكذلك تسمية لسان الرسول شاهدا وتسمية علي شاهدا لا يوجد مثل ذلك في الكتاب والسنة بخلاف شهادة الله فإن الله أخبر بشهادته لرسوله في غير موضع وسمى ما أنزله شهادة منه في قوله **{ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةَ عِنْدَهُ } البقرة140** فدل على أن كلام الله الذي أنزله وأخبر فيه بما أخبر شهادة منه وهو سبحانه يحكم ويشهد ويفتى ويقص ويبشر ويهدى بكلامه ويصف كلامه بأنه يحكم ويفتى ويقص ويهدى ويبشر وينذر كما قال **{ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ } النساء127** **{ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ } النساء176** وقال **{ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنُ يَفْصُلُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ } النمل76** وقال **{ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ } يوسف3** وقال **{ قُلِ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ يَقْضِي الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ } الأنعام57** وقال **{ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنُ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ } الإسراء9** وكذلك سمي الرسول هاديا فقال **{ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } الشورى52** كما سماه بشيرا ونذيرا وسمى القرآن بشيرا ونذيرا فكذلك لما كان هو يشهد للرسول وكان والمؤمنين بكلامه الذي أنزله وكان كلامه شهادة منه كان كلامه شاهدا منه كما كان يحكم ويفتى ويقص ويبشر وينذر ولا قيل لعلي بن أبي طالب حكمت مخلوقا قال ما حكمت مخلوقا وإنما حكمت القرآن فإن الذي يحكم به القرآن هو حكم الله والذي يشهد به القرآن هو شهادة الله عز وجل قال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم وقد كان إماما وأخذ التفسير عن أبيه زيد وكان زيد إماما فيه ومالك وغيره أخذوا عنه التفسير وأخذه عنه عبد الله

ابن وهب صاحب مالك واصبغ بن الفرج الفقيه قال في قوله تعالى **{ أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ } هود17** قال رسول الله كان على بينة من ربه والقرآن يتلوه شاهد أيضا لأنه من الله وقد ذكر الزجاج فيما ذكره من الأقوال ويتلو رسول الله القرآن وهو شاهد من الله وقال أبو العالية **{ أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ } هود17** هو محمد **{ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ } هود17** القرآن قال ابن أبي حاتم وروى عن ابن عباس ومحمد بن الحنفية ومجاهد وأبي صالح وإبراهيم وعكرة والضحاك وقتادة والسدي وخصيف وابن عيينة نحو ذلك وهذا الذي قالوه صحيح ولكن لا يقتضي ذلك أن المتبعين له ليسوا على بينة من ربهم بل هم على بينة من ربهم وقد قال الحسن البصري **{ أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ } هود17** قال المؤمن على بينة من ربه ورواه ابن أبي حاتم وروى عن الحسين بن علي **{ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ } هود17** يعني محمدا شاهد من الله وهي تقتضي أن يكون الذي على البينة من شهد له وقول القائل من قال هو محمد كقوله من قال هو جبريل فإن كلاهما بلغ القرآن والله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس فاصطفى جبريل من الملائكة واصطفى محمدا من الناس وقال في جبريل **{ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ } التكويد19** وقال في محمد **{ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ } الحاقة40** وكلاهما رسول من الله كما قال **{ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ } 1** **{ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً } 2** **{ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ } 3** البينة 1-3 فكلاهما رسول من الله بلغ ما أرسل به وهو يشهد أن ما جاء به هو كلام الله وأما شهادتهم بما شهد به القرآن فهذا قدر مشترك بين كل من آمن بالقرآن فإنه يشهد بكل ما شهد به

القرآن لكونه آمن به سواء كان قد بلغه أو لم يبلغه ولهذا كان إيمان الرسول بما جاء به غير تبليغه له وهو مأمور بهذا وبهذا وله أجر على هذا وهذا كما قال { آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ } البقرة 285 ولهذا كان يقول أشهد إني عبد الله ورسوله فشهادته جبريل ومحمد بما شهد به القرآن من جهة إيمانهم به لا من جهة كونهم مرسلين به فإن الإرسال به يتضمن شهادتهما أن الله قاله وقد يرسل غير رسول بشيء فيشهد الرسول أن هذا كلام المرسل وإن لم يكن المرسل صادقاً ولا حكيماً ولكن علم ان جبريل ومحمد يعلمان أن الله صادق حكيماً فهما يشهدان بما شهد الله به وكذلك الملائكة والمؤمنون يشهدون بأن ما قاله الله فهو حق وإن الله صادق حكيماً لا يخير إلا بصدق ولا يأمر إلا بعقل { وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا } الأنعام 115 فقد تبين ان شهادة جبريل ومحمد هي شهادة القرآن وشهادة القرآن هي شهادة الله تعالى والقرآن شاهد من الله وهذا الشاهد يوافق ويتبع ذلك الذي على بينة من ربه فإن البينة والبصيرة والنور والهدى الذي عليه النبي والمؤمنون قد شهد القرآن المنزل من الله بأن ذلك حق { **وَيَتْلُوهُ** } هود 17 معناه يتبعه كما قال { الَّذِينَ آمَنُوا بِالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلْنَا بِهِ تِلَاوَةً } البقرة 121 أي يتبعونه حق اتباعه وقال { وَالْقَمَرَ إِذَا تَلَاهَا } الشمس 2 أي تبعها وهذا قفاه إذا تبعه وقد قال { وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ } الإسراء 36 فهذا الشاهد يتبع الذي على بينة من ربه فيصدقه ويؤيده ويؤيده وببنته كما قال { قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا } النحل 102 وقال { وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ } هود 120 وقال { أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ } المجادلة 22 وقد سمي الله القرآن سلطاناً في غير موضع فإذا كان السلطان المنزل من الله يتبع هذا المؤمن كان ذلك مما يوجب قوته وتسلمته علماً وعملاً وقال { وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ } الإسراء 82 وإذا ما أنزلت سورة هم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً الآية وقال جندب بن عبدالله وعبدالله بن عمر تعلمنا الإيمان ثم تعلمنا القرآن فزادنا إيماناً فهم كانوا يتعلمون الإيمان ثم يتعلمون القرآن وقال بعضهم في قوله { نُورٌ عَلَى نُورٍ } النور 35 قال نور القرآن على نور الإيمان كما قال { وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا } الشورى 52 وقال السدي في قوله { نُورٌ عَلَى نُورٍ } النور 35 نور القرآن ونور الإيمان حين إجتماعهما فلا يكون واحد منهما إلا بصاحبه فتبين أن قوله { **أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ** } هود 17 يعنى هدى الإيمان { **وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ** } هود 17 أي من الله يعنى القرآن شاهد من الله يوافق الإيمان ويتبعه وقال { **وَيَتْلُوهُ** } هود 17 لأن الإيمان هو المقصود لأنه إنما يراد بإنزال القرآن الإيمان وزيادته ولهذا كان الإيمان بدون قراءة القرآن ينفع صاحبه ويدخل به الجنة والقرآن بلا إيمان لا ينفع في الآخرة بل صاحبه منافق كما في الصحيحين عن أبي موسى عن النبي أنه قال مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة طعمها طيب وريحها طيب ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر ومثل المنافق الذي لا يقرأ كمثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها ولهذا جعل الإيمان { **بَيِّنَةً** } هود 17 وجعل القرآن شاهداً لأن البينة من البيان والبينة هي السبيل البينة وهي الطريق البينة الواضحة وهي أيضاً ما تبين بها الحق فهي بينة في نفسها مبينة لغيرها وقد تفسر بالبيان وهي الدلالة والإرشاد فتكون كالهدى كما يقال فلان على هدى وعلى علم فيفسر بمعنى المصدر والصفة والفاعل ومنه قوله { **أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى** } طه 133 أي بيان ما فيها أو يبين ما فيها أو الأمر البين فيها وقد سمي الرسول بينة كما قال { **حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ** } {1} { **رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ** } {2} { **الْبَيِّنَةُ** } 1-2 فإنه يبين الحق والمؤمن على سبيل بينة ونور من ربه والشاهد المقصود به شهادته للمشهود له فهو يشهد للمؤمن بما أنزل الإيمان في جذر قلوب الرجال كما في الصحيحين عن حذيفة عن النبي قال ان الله أنزل الإيمان في جذر قلوب الرجال فعلموا من القرآن وعلموا من السنة وأيضاً فالإيمان ما قد أمر الله به وأيضاً فالإيمان إنما هو ما أخبر به الرسول وهذا أخبر به الرسول لكن الرسول له وحيان وحي تكلم الله به يتلى ووحى لا يتلى فقال { **وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا** } الشورى 52 الآية وهو يتناول القرآن والإيمان وقيل الضمير في قوله { **وَ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ**

مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا { الشورى 52 } يعود إلى الإيمان ذكر ذلك عن ابن عباس وقيل لإلى القرآن وهو قول السدي وهو يتناولهما وهو في اللفظ يعود إلى الروح الذي أوحاه وهو الوحي جاء بالإيمان والقرآن فقد تبين ان كلاهما من الله نور وهدى منه هذا يعقل بالقلب لما قد يشاهد من دلائل الإيمان مثل دلائل الربوبية والنبوة وهذا يسمع بالأذان والإيمان الذي جعل للمؤمن هو مثل ما وعد الله به في قوله { سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ } فصلت 53 أي أن القرآن حق فهذه الآيات متأخرة عن نزول القرآن وهو مثل ما فعل من نصر رسوله والمؤمنين يوم بدر وغير يوم بدر فإنه آيات مشاهدة صدقت ما أخبر به القرآن ولكن المؤمنون كانوا قد آمنوا قبل هذا وقيل نزول أكثر القرآن الذي ثبت الله به لنبيه وللمؤمنين ولهذا قال { أَوْلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ } فصلت 53 فهو يشهد لرسوله بأنه صادق بالآيات الدالة على نبوته وتلك آمن بها المؤمنون ثم أنزل من القرآن شاهدا له ثم أظهر آيات معانية تبين لهم أن القرآن حق فالقرآن وافق الإيمان والآيات المستقبلة وافقت القرآن والإيمان ولهذا قال { وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً } هود 17 فقوله { وَمِن قَبْلِهِ } هود 17 يعود الضمير إلى الشاهد الذي هو القرآن كما قال تعالى قل أرأيتم ان كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله الآية ثم قال { وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً } هود 17 الآية فقوله { وَمِن قَبْلِهِ } هود 17 الضمير يعود إلى القرآن أي من قبل القرآن كما قاله ابن زيد وقيل يعود إلى الرسول كما قاله مجاهد وهما متلازمان وقوله { وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ } هود 17 فيه وجهان قيل هو عطف مفرد وقيل عطف جملة قيل المعنى { وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ } هود 17 ويتلوه أيضا من قبله كتاب موسى فإنه شاهد بمثل ما شهد به القرآن وهو شاهد من الله وقيل { وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ } هود 17 جملة ولكن مضمون الجملة فيها تصديق القرآن كما قال في الأحقاق وقوله تعالى { أَوْلَيْكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ } هود 17 يدل على أن قوله { أَقْمَنَ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ } هود 17 تتناول المؤمنين فإنهم آمنوا بالكتاب الأول والآخر كما تتناول النبي صلى الله عليه وسلم وأولئك يعود إليه الضمير فإنهم مؤمنون به بالشاهد من الله فالإيمان به إيمان بالرسول والكتاب والسنة الذي قبله ثم قال { وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ } هود 17 وروى الإمام أحمد وابن أبي حاتم وغيرها عن أيوب عن سعيد بن حبيب قال ما بلغني حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم على وجه إلا وجدت تصديقه في كتاب الله حتى بلغني أنه قال لا يسمع بي أحد من هذه الأمة لا يهودي ولا نصراني ثم لم يؤمن بما أرسلت به إلا دخل النار قال سعيد فقلت أين هذا في كتاب الله حتى أتيت على هذه الآية { وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ } هود 17 قال الأحزاب هي الملل كلها وقوله تعالى { أَوْلَيْكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ } هود 17 أي كل من كان على بينة من ربه فإنه يؤمن بالشاهد من الله والإيمان به إيمان بما جاء به موسى قال { أَوْلَيْكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ } هود 17 وهم المتبعون لمحمد من أصحابه وغيرهم إلى قيام الساعة ثم قال { وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ } هود 17 والأحزاب هم أصناف الأمم الذين تحزبوا وصاروا أحزابا كما قال تعالى { كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ } غافر 5 وقد ذكر الله طوائف الأحزاب في مثل هذه السورة وغيرها وقد قال تعالى عن مكذبي محمد { جُنْدٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ } ص 11 وهم الذين قال فيهم { فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } 30 { مُبَيِّنِينَ إِلَيْهِ وَآتَوْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } 31 { مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ جَزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ } 32 { الروم 30-32 } وقال عن أحزاب النصارى { فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ } مريم 37 الآيات وأما من قال الضمير في قوله { أَوْلَيْكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ } هود 17 يعود على أهل الحق قال أنه موسى وعيسى ومحمد فإنه إن أراد بهم من كان مؤمنا بالكتابين قبل نزول القرآن فلم يتقدم لهم ذكر والضمير في قوله به مفرد ولو آمن مؤمن بكتاب موسى دون الإنجيل بعد نزوله وقيام الحجة عليه به لم يكن مؤمنا وهذا القولان حكاها أبو الفرج لم يسم قائلهما البغوي وغيره لم يذكروا نزاعا في أنهم من آمن

بمحمد ولكن ذكروا قولاً أنهم من آمن به من أهل الكتاب وهذا قريب ولعل الذي حكى قولهم أبو الفرج أرادوا هذا وإلا فلا وجه لقولهم ومن العجب ان أبا الفرج بعد هذا في الأحزاب أربعة أقوال أحدها أنهم جميع المل قاله سعيد بن حبيب والثاني اليهود والنصارى قاله قتادة والثالث قريش قاله ال والرابع بنوا أمية وبنوا المغيرة قال أي أبي طلحة بن عبد العزى قاله مقاتل وهذه الآية تقضى أن الضمير يعود إلى القرآن في قوله **{ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ } هود17** وكذلك **{ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ } هود17** أنه القرآن ودليله قوله تعالى **{ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ } هود17** وهذا هو القرآن بلا ريب وقد قيل هو الخبر المذكور وهو أنه من يكفر به من الأحزاب وهذا أيضاً هو القرآن فعلم ان المراد هو الإيمان بالقرآن والكفر به باتفاقهم وأنه من قال في أولئك أنهم غير من آمن بمحمد لم يتصور ما قال وقد تقدم في قوله **{ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى } هود17** وجهان هل هو عطف جملة أو مفرد لكن الأكثر على أنه مفرد وقال الزجاج المعنى وكان من قبل هذا كتاب موسى دليل على أمر محمد فيتلون كتاب موسى عطفاً على قوله **{ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ } هود17** أي ويتلو كتاب موسى لأن موسى وعيسى بشرا بمحمد في التوراة والإنجيل ونصب إما ما على الحال قلت قد تقدم أن الشاهد يتلو على من كان على بينة من ربه أي يتبعه شاهداً له بما هو عليه من البينة وقوله **{ أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ } هود17** كمن لم يكن قال الزجاج وترك المعادلة لأن فيما بعده دليلاً عليه وهو قوله **{ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ } هود24** قال ابن قتيبة لما ذكر قبل هذه الآية قوما ركنوا إلى الدنيا وأرادوا جاء بهذه الآية وتقدير الكلام أفمن كانت هذه حاله كمن يريد الدنيا فاكتفى من الجواب بما تقدم إذ كان دليلاً عليه وقال ابن الأنباري إنما حذف لإكتشاف المعنى وهذا كثير في القرآن قلت نظير هذه الآية من المحذوف **{ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا } فاطر8** كمن ليس كذلك وقد قال بعد هذا **{ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ } هود17** وهذا هو القسم الآخر المعادل لهذا الذي هو على بينة من ربه وعلى هذا يكون معناها **{ أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ } محمد14** ويكون أيضاً معناها **{ أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ } هود17** أي بصيرة في دينه كمن يريد الحياة الدنيا وزينتها وهذا كقوله **{ أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ } الأنعام122** الآية وكقوله **{ أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ } محمد14** وقوله **{ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ } بونس35** الآية والمحذوف في مثل هذا النظم قد يكون غير ذلك كقوله **{ أَوْ مَنْ يُنشَأُ فِي الْحُلِيِّةِ } الزخرف18** أي تجعلون له من ينشأ في الحلية ولا بد من دليل على المحذوف وقد يكون المحذوف مثل أن يقال أفمن هذه حاله يذم أو يطعن عليه أو يعرض عن متابعتة أو يفتن أو يعذب كما قال **{ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ } فاطر8** وقد قيل في هذه الآية أن المحذوف **{ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا } فاطر8** فرأى الباطل حقا والقيح حسنا كمن هداه الله فرأى الحق حقا والباطل باطلا والقيح قبيحا والحسن حسنا وقيل جوابه تحت قوله **{ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ } فاطر8** لكن يرد عليه أن يقال الإستفهام ما معناه إلا أن تقدر أي هذا تقدر أن تهديه أو ربك أو تقدر أن تجزيه كما قال **{ أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا } الفرقان43** ولهذا قال **{ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ } فاطر8** وكما قال **{ أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ } الجاثية23** الآية وعلى هذا يكون معناها كمعنى قوله **{ أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ } محمد14** وعلى هذا فالمعنى هنا **{ أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى } هود17** يذم ويخالف ويكذب ونحو ذلك كقوله **{ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ } الأنعام57** وحذف جواب الشرط وكقوله **{ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ } {11} أَوْ أَمَرَ بِالْتَّقْوَىٰ } {12} أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى } {13} العلق11-13** فقد تبين ان معنى الآية من أشرف المعانى وهذا هو الذى ينتفع به كل أحد وإن الآية ذكرت من كان على بينة من ربه من الإيمان الذي شهد له القرآن فصار على نور من ربه وبرهان من ربه على ما دلت عليه البراهين العقلية والسمعية كما قال **{ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا } النساء174** فالنور المبين

المنزل يتناول القرآن قال قتادة بينة من ربكم وقال الثوري هو النبي وقال البغوي هذا قول المفسرين ولم أجد منقولا عن غير الثاني ولا ذكره ابن الجوزي عن غيره وذكر في البرهان ثلاثة أقوال أحدهما أنه الحجة والثاني أنه الرسول وذكر أنه القرآن عن قتادة والذي رواه ابن أبي حاتم عن قتادة بالإسناد الثابت أنه بينة من الله والبينة والحجة تتناول آيات الأنبياء التي بعثوا بها فكل ما دل على نبوة محمد فهو برهان قال تعالى { فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ } القصص 32 وقال لمن قال لا يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى { قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ } البقرة 111 ومحمد هو الصادق المصدوق قد أقام الله على صدقه براهين كثيرة وصار محمد نفسه برهانا فأقام من البراهين على صدقه فدليل الدليل وبرهان البرهان برهان وكل آية له برهان والبرهان إسم جنس لا يراد واحد كما في قوله { قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } البقرة 111 ولو جاءوا بعده ببراهين كانوا ممتثلين و المقصود أن ذلك البرهان يعلم بالعقل أنه دال على صدقه وهو بينة من الله كما قال قتادة وحجة من الله كما قال مجاهد والسدى المؤمن على تلك البينة ويتلوه شاهد من الله وهو النور الذي أنزله مع البرهان والله أعلم فصل وأما من قال { **أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ** } هود 17 إنه محمد صلى الله عليه وسلم كما قاله طائفة من السلف فقد يريدون بذلك التمثيل لا التخصيص فإن المفسرين كثيرا ما يريدون ذلك ومحمد هو أول من كان بينة من ربه وتلاه شاهد منه وكذلك الأنبياء وهو أفضلهم وإمامهم والمؤمنين تبع له وبه صاروا على بينة من ربهم والخطاب قد يكون لفظه له ومعناه عام كقوله { **فَإِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ** } يونس 94 { **لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ** } الزمر 65 { **فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ** } الشرح 7 { **قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي** } سبأ 50 ونحو ذلك وذلك أن الأصل فيما خوطب به النبي في كل ما أمر به ونهى عنه وأبيح له سار في حق أمته كمشاركة أمته له في الأحكام وغيرها حتى يقوم دليل التخصيص فما ثبت في حقه من الأحكام ثبت في حق الأمة إذا لم يخص هذا مذهب السلف والفقهاء ودلائل ذلك كثيرة كقوله { **فَلَمَّا قُضِيَ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا** } الأحزاب 37 الآية ولما أباح له الموهوبة قال { **خَالِصَةً لَّكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ** } الأحزاب 50 الآية فإذا كان هذا مع كون الصيغة خاصة فكيف تجعل الصيغة العامة له وللمؤمنين مختصة به ولفظ من أبلغ صيغ العموم لا سيما إذا كانت شرطا أو إستفهاما كقوله { **فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ** } 7 { **وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ** } 8-7 الزلزلة 8-7 وقوله { **أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا** } فاطر 8 وقوله { **أَوْ مَنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ** } الأنعام 122 وقوله { **أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ** } محمد 14 و أيضا فقد ذكر بعد ذلك قولاه { **أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ قَالُوا مَوْعِدُهُ** } هود 17 وذكر بعد هذا { **مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ** } هود 24 وقد تقدم قبل هذا ذكر الفريقين وقوله { **أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ** } هود 17 إشارة إلى جماعة ولم يقدم قبل هذا ما يصلح أن يكون مشارا إليه إلا من والضمير يعود تارة إلى لفظ من وتارة إلى معناها كقوله { **وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ** } الأنعام 25 { **وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ** } يونس 42 { **وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ** } النساء 124 { **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً** } وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } النحل 97 الآية وأما الإشارة إلى معناها فهو أظهر من الضمير فقوله { **أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ** } هود 17 دليل على أن الذي على بينة من ربه كثيرون لا واحد قال ابن أبي حاتم ثنا عامر بن صالح عن أبيه عن الحسن البصري { **أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ** } هود 17 قال المؤمن على بينة من ربه وهذا الذي قاله الحسن البصري هو الصواب والرسول هو أول المؤمنين كما قال وأمرت أن أكون أول المؤمنين { **قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أكونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ** } الأنعام 14 { **وَأُمِرْتُ أَنْ أَكونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** } يونس 104 ومن قال ان الشاهد من الله هو محمد كما رواه ابن أبي حاتم ثنا الأشج ثنا أبو أسامة عن عوف عن سليمان الفلاني عن الحسين ابن علي { **وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ** } هود 17 يعني محمدا شاهدا من الله فهنا معنى كونه شاهدا من الله هو معنى كونه رسول الله وهو يشهد للمؤمنين بأنهم على حق وإن كان يشهد لنفسه بأنه رسول الله فشهادته لنفسه معلومة قد علم أنه صادق فيها بالبراهين الداله على

نبوته وأما شهادته للمؤمنين فهو أنها إنما تعلم من جهته بما بلغه من القرآن ويخبر به عن ربه فهو إذا شهد كان شاهداً من الله وأما شهادته عليهم بالإيمان والتصديق وغير ذلك فكما في قوله {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا} النساء 41 {وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا} البقرة 143 لكن من قال هذا فقد يريد بالبينه القرآن فإن المؤمن متبع للقرآن ومحمد شاهد من الله يتلوه كما تلاه جبريل ومن قال ان الشاهد محمد فهو إنما أراد بهذا القول التلاوة أي أن لسان محمد يقرأ القرآن وهو شاهد منه أي من نفسه فإن لسانه جزء منه وهذا القول ونحوه ضعيف والله أعلم هذا إن ثبت ذلك عن نقل عنه فإن هذا وضده ينقلان عن علي بن أبي طالب وذلك أن طائفة من جهال الشيعة ظنوا أن علياً هو الشاهد منه أي من النبي كما قال له أنت مني وأنا منك وهذا قاله لغيره أيضاً فقد ثبت في الصحيحين أنه قال الأشعريون هم مني وأنا منهم وقال عن جليبيب هذا مني وأنا منه وكل مؤمن هو من النبي كما قال الخليل {فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي} إبراهيم 36 وقال {وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي} البقرة 249 ورووا هذا القول عن علي نفسه وروى عنه بإسناد أجود منه أنه قال كذب من قال هذا قال ابن أبي حاتم ذكر عن حسين بن زيد الطحان ثنا إسحاق بن منصور ثنا سفيان عن الأعمش عن المنهال عن عباد بن عباد بن عبدالله قال قال علي ما من قريش أحد إلا نزلت فيه آية قيل فما أنزل فيك قال {وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ} هود 17 وهذا كذب على علي قطعاً وإن ثبت النقل عن عباد هذا فإنه له منكرات عنه كقوله أنا الصديق الأكبر أسلمت قبل الناس بسبع سنين وقد رووا عن علي ما يعارض ذلك قال ابن أبي حاتم ثنا أبي ثنا عمرو بن علي الباهلي ثنا محمد بن شواص ثنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن عروة عن محمد بن علي يعني ابن الحنفية قال قلت لأبي يا أبة {وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ} هود 17 أن الناس يقولون أنك أنت هو قال وددت لو أني أنا هو ولكنه لسانه قال ابن أبي حاتم وروى عن الحسن وقاتدة نحو ذلك قلت وقد تقدم عن الحسين ابنه أن الشاهد منه هو محمد صلى الله عليه وسلم وإنما تكلم علماء أهل البيت في أنه محمد رداً على من قال من الجهلة أنه علي فإن هذه السورة نزلت بمكة وعلي كان إذ ذاك صغيراً لم يبلغ وكان ممن اتبع الرسول ولو كان ابن رسول الله ليس ابن عمه لم تكن شهادته تنفع لا عند المسلمين ولا عند الكفار بل مثل هذه الشهادة فيها تهمة القرابة ولهذا كان أكثر العلماء على أن شهادة الوالد وشهادة الولد لو الده لا تقبل فكيف يجعل مثل هذا حجة لنبوة محمد مؤكداً لها ولذلك قالوا في قوله تعالى {وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ} الرعد 43 أنه علي وهم مع كذبهم هم أجهل الناس فإنهم نسبوا الله والرسول إلى الإحتجاج بما لا يحتج به إلا جاهل فأرادوا تعظيم علي فنسبوا الله والرسول إلى الجهل وعلي إنما فضيلته باتباعه للرسول فإذا قدح في الأصل بطل الفرع وأما قول من قال من المفسرين أن الشاهد جبريل عليه السلام فقد روى ذلك عكرمة عن ابن عباس ذكره ابن أبي حاتم عنه وعن أبي العالية وأبي صالح ومجاهد في إحدى الروايات عنه وإبراهيم وعكرمة والضحاك وعطاء الخراساني نحو ذلك وهؤلاء جعلوا {وَيَتْلُوهُ} هود 17 بمعنى يقرأه أي ويتلو القرآن الذي هو البينة شاهد من الله هو وقيل بل معنى قولهم إن القرآن يتلوه جبريل هو الشاهد محمد أي الذي يتلوه جاء من عند الله وقد تقدم بيان ضعف هذا القول فإن كل من فسر يتلوه بمعنى يقرأه جعل الضمير فيه عائداً إلى القرآن وجعل الشاهد غير القرآن والقرآن لم يتقدم له ذكر إنما قال {أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ} هود 17 والبينة لا يجوز أن يكون تفسيرها بحفظ القرآن فإن المؤمنين كلهم على بينة من ربهم وإن لم يحفظوا القرآن بخلاف البصيرة في الدين فإنه من لم يكن على بصيرة من ربه لم يكن مؤمناً حقاً بل من القائلين لمنكر ونكير آه آه لا أدرى سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته والقرآن إنما مدح من كان على بينة من ربه فهو على هدى ونور وبصيرة سواء حفظ القرآن أو لم يحفظه وإن أريد إتباع القرآن فهو الإيمان وأكثر القرآن لم يكن نزل حين نزول هذه الآية وقد تقدم إنما يختص به جبريل ومحمد فهو تبلغ رسالة عن الله وصدقهما في ذلك وأما كون رسالة الله حقاً فهذا هو المشهود به من كل رسول وهما لا يختصان بذلك بل يؤمنان به كما يؤمن بذلك كل ملك وكل مؤمن وشهادته بأن النبي والمؤمنين على حق من هذا الوجه الثاني المشترك ولو قال ويبلغه وينزل به رسول من الله لكان

ما قالوه متوجها كما قال { قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ } النحل 102 { نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ } الشعراء 193 { فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ } البقرة 97 أما كونه شاهدا يقرأه فهذا لا نظير له في القرآن و أيضا فالشاهد الذي هو من الله هو الكلام فإن الكلام نزل منه كما يعلمون أنه منزل من ربك بالحق ويقال في الرسول أنه منه كما قال رسول من الله ويقال في الشخص الشاهد فيقال فيه هو من شهداء الله وأما كونه يقال فيه شاهد من الله أنها برهان من الله وآيات من الله في الآيات التي يخلقها الله تصديقا لرسوله فهذا يحتاج إستعماله إلى شاهد والقرآن نزل بلغة قريش الموجودة في القرآن فإنها تفسر بلغته المعروفة فيه إذا وجدت لا يعدل عن لغته المعروفة مع وجودها وإنما يحتاج إلى غير لغته في لفظ لم يوجد له نظير في القرآن كقوله { وَيَكُنَّ اللَّهُ } القصص 82 { وَلَاتِ حِينَ مَنَاصٍ } ص 3 { وَكَأْسًا دِهَاقًا } النبأ 34 { وَفَاكِهَةً وَأَبًّا } عبس 31 { تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى } النجم 22 ونحو ذلك من الألفاظ الغريبة في القرآن والذين قالوا هذه الأقوال إنما أتوا من جهة قوله { وَيَتْلُوهُ } هود 17 فظنوا أن تلاوته هي قراءته ولم يتقدم للقرآن ذكر ثم جعل هذا يقول جبريل تلاه وهذا يقول محمد وهذا يقول لسانه والتلاوه قد وجدت في القرآن واللغة المشهورة بمعنى الإتيان وكثير من المفسرين لا يذكر في هذه الآية القول الصحيح فيبقى الناظر الفطن حائرا ولم يذكر في الذي على بيينة من ربه إلا أنه الرسول ويذكر في الشاهد عدة أقوال ثم من العجب أنه يقول { أَوْلَيْكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ } هود 17 أولئك أصحاب محمد وقيل المراد الذين أسلموا من أهل الكتاب وهو على ما فسر لم يتقدم لهم ذكر فكيف يشار إليهم بقوله { يُؤْمِنُونَ بِهِ } هود 17 وأبو الفرج ذكر قولاً أنهم المسلمون ولم يذكر أن الآية نعم النبي والمؤمنين ولما ذكر قول من قال أنهم المسلمون قال وهذا يخرج على قول الضحاك في البيينة أنها رسول الله وقد ذكر في البيينة أربعة أقوال أنها الدين ذكره أبو صالح عن ابن عباس وأنها رسول الله قاله الضحاك وأنها القرآن قاله ابن زيد وأنها البيان قاله مقاتل ثم قال فإن قلنا المراد من كان بيينة من ربه المسلمون فالمعنى أنهم يتبعون الرسول وهو البيينة ويتبع هذا النبي شاهد منه يصدقه والمسلمون إذا كانوا على بيينة فهي الإيمان بالرسول ليست البيينة ذات الرسول والرسول ليس هو مذكورا في كلامه فقوله { وَيَتْلُوهُ } هود 17 لا بد أن يعود إلى من لكن إعادته إلى البيينة أولى

وفسر البيينة بالرسول وجعل الشاهد يشهد له بصدقه ثم الشاهد جبريل أو غيره فلو قال هو القرآن يشهد للمؤمنين فإنه يتبعهم كما يتبعونه كان قد ذكر الصواب وهو قد ذكر أقوالا كثيرة لك يذكرها غيره وذكر في يتلوه قولين أحدهما يتبعه و الثاني يقرأه وهما قولان مشهور أن وذكر في ه يتلوه قولين أنها ترجع إلى النبي و الثاني أنها ترجع إلى القرآن والتحقيق أنها ترجع إلى من أو ترجع إلى البيينة والبيينة يراد بها القرآن فيكون المعنى أن الشاهد من القرآن وإذا رجع الضمير إلى من فإن جعل مختصا بالنبي وهو القول الذي تقدم بيان فساده عاد الضمير إلى البيينة وإن كان من تتناول كل من كان على بيينة من ربه من المؤمنين ورسول الله أولى المؤمنين تناول الجميع ومما يوضح ذلك أن رسول الله جاء بالرسالة من الله وهذا يختص به وتصديق هذه الرسالة والإيمان بها واجب على الثقلين والرسول هو أول من يجب عليه الإيمان بهذه الرسالة التي أرسله الله بها ولهذا قال في سورة يونس { قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِّنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَقَّأَكُمُ وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } يونس 104 وقال { قُلْ إِنِّي أَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ } الأنعام 14 إلى غير ذلك من الآيات فهو يتعلق به أمران عظيمان أحدهما إثبات نبوته وصدقه فيما بلغه عن الله وهذا مختص به وال تصديقه فيما جاء به وأن ما جاء به من عند الله حق يجب اتباعه وهذا يجب عليه وعلى كل أحد فإنه قد يوجد فيمن يرسله المخلوق من يصدق في رسالته لكنه لا يتبعها إما لطعنه في المرسل وإما لكونه يعصيه وإن كان قد أرسل بحق فالملوك كثيرا ما يرسلون رسولا بكتب وغيرها ببلغ الرسل رسالتهم فيصدقون بها ثم قد يكون الرسول أكثر مخالفة لمرسله من غيره من المرسل إليهم ولهذا ظن طائفة منهم القاضي أبو

بكر أن مجرد كونه رسولا لله لا يستلزم المدح ثم قال إن هذا قد يقال فيمن قبل الرسالة وبلغها وفيمن لم يقبل لكن هذا غلط فإن الله لا يرسل رسولا إلا وقد إصطفاه فيبلغ رسالات ربه ورسول الله هم أطوع الخلق لله وأعظم إيمانا بما بعثوا به بخلاف المخلوق فإنه يرسل من يكذب عليه ومن يعصيه ومن لا يعتقد وجوب طاعته والخالق منزه عن ذلك لكن هؤلاء الذين قالوا هذا يجوزون على الرب أن الرسل كل أحد بكل شيء ليس في العقل عندهم إلا ينع ذلك وإنما ينزهون الرسل عما أجمع (ملاحظة هنا يوجد خطأ في الطباعة التاكيد منه) المسلمون على تنزيههم عنه عندهم ما ثبت بالسمع لا من جهة كونه رسولا كما قد بسط هذا في غير هذا الموضوع وبين أن هذا الأصل خطأ ولما كان هو يتعلق به الأمران في الأول يقال آمنت له كما قال تعالى {فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّنْ قَوْمِهِ} {يونس 83} وقوله {يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ} {التوبة 61} {وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا} {يوسف 17} وفي الثاني يقال آمنت بالله فعلمنا أن نؤمن له ونؤمن بما جاء به والله تعالى ذكر هذين فذكر أولا ما يثبت نبوته وصدقه بقوله {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَن اسْتَدْعَيْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ} {13} {فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} {14} هود 13-14 كما تقدم التنبيه على ذلك ولما كان الذي يمنع الإنسان من اتباع الرسول شيان أما الجهل وأما فساد القصد ذكر ما يزيل الجهل وهو الآيات الدالة على صدقه ثم ذكر أهل فساد القصد بقوله {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّهَا نُوْفَّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ} {15} {أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} {16} هود 15-17 فهؤلاء أهل الفساد القصد فهذان الأمران هما المانعان للخلق من اتباع هذا الرسول كما أنه في البقرة ذكر ما يوجب العلم وحسن القصد فقال {وَإِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} {البقرة 23} ثم قال {فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ} {البقرة 24} فلما أثبت هذين الأصلين أخذ بعد هذا في بيان الإيمان به وحال من آمن ومن كفر فقال {أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ} هود 17 الآية ثم قال {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَّبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ} {هود 18} وهذا يتناول كل كافر من كذب على الله بادعاء الرسالة كاذبا ويتناول كل من كذب رسولا صادقا فقال إن الله لم يرسل هذا ولم يأمر بهذا فكذب على الله وهذا إنما يقع ممن فسد قصده بحب الدنيا وإرادتها وممن أحب الرئاسة وأراد العلو في الأرض من أهل الجهل وفي الصحيحين عن ابن عمر عن النبي أنه قال إن الله يذني المؤمن منه يوم القيامة حتى يلقي عليه كنفه ويقول فعلت يوم كذا وكذا ويوم كذا وكذا وكذا فيقول نعم فيقول إني قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ثم يعطى كتاب حسناته بيمينه وأما الكفار والمنافقون {وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَّبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ إِلَّا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ} هود 18 ثم ذكر تعالى {الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} هود 23 ثم ذكر {مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ} هود 24 فمن تدبر القرآن وتدبر ما قبل الآية وما بعدها وعرف مقصود القرآن تبين له المراد وعرف الهدى والرسالة وعرف السداد من الإنحراف والإعوجاج وأما تفسير بمجرد ما يحتمله اللفظ المجرد عن سائر ما يبين معناه فهذا منشأ الغلط من الغالطين لاسيا كثير ممن يتكلم فيه بالإحتمالات اللغوية فإن هؤلاء أكثر غلطا من المفسرين المشهورين فإنهم لا يقصدون معرفة معناه كما يقصد ذلك المفسرين وأعظم غلطا من هؤلاء وهؤلاء من لا يكون قصده معرفة مراد الله بل قصده تأويل الآية بما يدفع خصمه عن الإجتاج بها وهؤلاء يفعلون في أنواع من التحريف ولهذا جوز من جوز منهم أن تتأول الآية بخلاف تأويل السلف وقالوا إذا اختلف الناس في تأويل الآية على قولين جاز لمن بعدهم إحداث قول ثالث بخلاف ما إذا اختلفوا في الأحكام على قولين وهذا خطأ فإنهم إذا أجمعوا على أن المراد بالآية إما هذا كان القول بأن المراد غير هذين القولين خلافا لاجماعهم ولكن هذه طريق من يقصد الدفع لا يقصد معرفة المراد وإلا كيف يجوز أن تضل الأمة عن فهم القرآن ويفهمون منه كلهم غير المراد متأخرون يفهمون المراد فهذا هذا والله أعلم وقوله {أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ

مَنْ رَبِّهِ { هود 17 كما تقدم هو كقوله { قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي { الأنعام 57 وقوله { أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ { محمد 14 وقوله { أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ { الزمر 22 وقوله { أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ { البقرة 5 فإن هذا النوع يبين أن المؤمن على أمر من الله فاجتمع في هذا اللفظ حرف الاستعلاء وحرف من لإبتداء الغاية وما يستعمل فيه حرف ابتداء الغاية فيقال هو من الله على نوعين فإنه أما أن يكون من الصفات التي لا تقوم بنفسها ولا بمخلوق فهذا يكون صفة له وما كان عينا قائمة بنفسها أو بمخلوق فهي مخلوقة فالأول كقوله { وَلَكِنَّ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي { السجدة 13 وقوله { يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ { الأنعام 114 كما قال السلف القرآن كلام الله غير مخلوق منه بدا وإليه يعود والنوع الثاني كقوله { وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ { الجاثية 13 وقوله { وَمَا بِكُمْ مِّن نُّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ { النحل 53 و { مَا أَصَابَكُم مِّن حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ { النساء 79 وكما يقال إلهام الخير وإيحاءه من الله وإلهام الشر وإيحاءه من الشيطان والوسوسة من الشيطان فهذا نوعان تارة باعتبار السبب وتارة باعتبار العاقبة والغاية فالחסنات هي النعم والسيئات هي المصائب كلها من عند الله لكن تلك الحسنات أنعم الله بها على العبد فهي منه إحسانا وتفضلا وهذه عقوبة ذنب من نفس العبد فهي من نفسه باعتبار أن عمله السيء كان سببها وهي عقوبة له لأن النفس أرادت تلك الذنوب ووسوست بها وتارة يقال باعتبار حسنات العمل وسيئاته وما يلقي في القلب من التصورات والإرادات فيقال للحق هو من الله ألهمه العبد ويقال للباطل أنه من الشيطان وسوس به ومن النفس أيضا لأنها أرادت كما قال عمر وابن عمر وابن مسعود فيما قالوه بإجتهادهم إن يكن صوابا فمن الله وإن يكن خطأ فمننا ومن الشيطان والله ورسوله بريئان منه وهذا لفظ ابن مسعود في حديث بروح بنت واشق قال إن يكن صوابا فمن الله وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان لأنه حكم بحكم فإن كان موقفا لحكم الله فهو من الله لأنه موافق لعلمه وحكمه فهو منه بإعتبار أنه سبحانه ألهمه عبده لم يحصل بتوسيط الشيطان والنفس وإن كان خطأ فالشيطان وسوس به والنفس أرادت ووسوست به وأن كان ذلك مخلوقا فيه والله خلقه فيه لكن الله لم يحكم به وأن لم يكن ما وقع لي من إلهام الملك كما قال ابن مسعود أن للملك بقلب ابن آدم لمة وللشيطان لمة فلمة الملك إيعاد بالخير وتصديق بالحق ولمة الشيطان إيعاد بالشر وتكذيب بالحق فالتصديق من باب الخبر والإيعاد بالخير والشر من باب الطلب والإرادة قال تعالى { الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ { البقرة 268 فهذه حسنات العمل من الله عز وجل بهذين الاعتبارين أحدهما أنه يأمر بها ويحبها إذا كانت خيرا فهو يصدقها ويخبر بها فهي من علمه وحكمه وهي أيضا من إلهامه لعبده وإنعامه عليه لم تكن بواسطة النفس والشيطان فاخترت باضافتها إلى الله من جهة أنها من علمه وحكمه وإن النازل بها إلى العبد ملك كما إختص القرآن بأنه منه كلام وقرآن مسيلمة بأنه من الشيطان فإن ما يلقيه الله في قلوب المؤمنين من الإلهامات الصادقة العادلة هي من وحي الله وكذلك ما يريهم إياه في المنام قال عبادة بن الصامت روى المؤمن كلام يكلم به الرب عبده في منامه وقال عمر اقتربوا من أفواه المطيعين واسمعوا منهم ما يقولون فإنهم يتجلى لهم أمور صادقه وقد قال تعالى { وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي { المائدة 111 { وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ { القصص 7 { وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِ هِم هَذَا { يوسف 15 وقال { قَالَهُمْهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا { الشمس 8 على قول الأكثرين وهو أن المراد أنه ألهم الفاجرة فجورها والتقية تقواها فالإلهام عنده هو البيان بالادلة السمعية والعقلية وأهل السنة يقولون كلا النوعين من الله هذا الهدى المشترك وذلك الهدى المختص وإن كان قد سماه إلهاما كما سماه هدى كما في قوله { وَأَمَّا تُمُودٌ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ { فصلت 17 وكذلك قد قيل في قوله { وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ { البلد 10 أي بيناه له طريق الخير والشر وهو هدى البيان العام المشترك وقيل هدينا المؤمن لطريق الخير والكافر لطريق الشر فعلى هذا يكون قد جعل الفجور هدى كما جعل أولئك البيان إلهاما وكذلك قوله { إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا { الإنسان 3 قيل هو الهدى المشترك وهو أنه بين له الطريق التي يجب سلوكها

والطريق التي لا يجب سلوكها وقيل بل هدى كلا من الطائفتين إلى ما سلكه من السبيل إما شاكرا وإما كفورا لكن تسمية هذا هدى قد يعتذر عنه بأنه هدى مقيد لا مطلق كما قال { قَبَسْرُهُمْ بَعْدَابِ أَلِيمٍ } الانشقاق 24 وكما قال { يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ } النساء 51 وأنه { يَقُولُ الْحَقُّ } الأحزاب 4 و { يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ } النحل 90 فهو موافق لقوله وأمره لعلمه وحكمه كما أن القرآن وسائر كلامه كذلك وباعتبار أنه أنعم على العبد بواسطة جنده بالملائكة ويقال لصد هذا وهو الخطأ هذا من الشيطان والنفس لأن الله لا يقوله ولا يأمر به ولأنه إنما ينكته في قلب الإنسان الشيطان ونفسه تقبله من الشيطان فإنه يزين لها الشيء فتطيعه فيه وليس كل ما كان من الشيطان يعاقب عليه العبد ولكن يفوته به نوع من الحسنات كالنسيان فإنه من الشيطان والاحتلام من الشيطان والنعاس عند الذكر والصلاة من الشيطان والصعق عند الذكر من الشيطان ولا إثم على العبد فيما غلب عليه إذا لم يكن ذلك بقصد منه أو بذنب فقوله { إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي } الأنعام 57 وشبهها مما تقدم ذكره من هذا الباب وكذلك قوله { ذَلِكَ بِأَنَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ } محمد 3 فإن المؤمنين على تصديق ما أخبر الله به وفعل ما أمر الله ابتداء وتبليغا كالقرآن وقد قال أن الله أنزل الأمانة في جذر قلوب الرجال فهي تنزل في قلوب المؤمنين من نوره وهداه وهذه حسنات دينية وعلوم دينية حق نافعة في الدنيا والآخرة وهو الإيمان الذي هو أفضل المنعم وهو أفضل النعم وأما قوله { مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ } النساء 79 فقد دخل في ذلك نعم الدنيا كلها كالعافية والرزق والنصر وتلك حسنات يبثيها الله العبد بها كما يبثيها بالمصائب هل شكر أم لا وهل يصبر أم لا كما قال تعالى { وَبَلَّوْنَاَهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ } الأعراف 168 وقال { وَنَبَلَّوْكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً } الأنبياء 35 { فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ } 15 { وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ } الفجر 15- 16 الآيات وقد يقال في الشيء من الله وإن كان مخلوقا إذا كان مختصا بالله كآيات الأنبياء كما قال لموسى { فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ } القصص 32 وقلب العصا حية وإخراج اليد بيضاء من غير سوء مخلوق لله لكنه منه لأنه دل به وارشده إلى صدق نبيه موسى وهو تصديق منه وشهادة منه له بالرسالة والصدق فصار ذلك من الله بمنزلة البينة من الله والشهادة من الله وليست هذه الآيات مما تفعله الشياطين والكهان كما يقال هذه علامة من فلان وهذا دليل من فلان وإن لم يكن ذلك كلاما منه قد سمى موسى ذلك بيينة من الله فقال { قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ } الأعراف 105 فقوله { بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ } الأعراف 105 كقوله { فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ } القصص 32 وهذه البينة هنا حجة وآية ودلالة مخلوقة تجرى مجرى شهادة الله وأخباره بكلامه كالعلامة التي يرسل بها الرجل إلى أهله وكنيته قال سعيد بن جبير في الآية هي كالخاتم تبعث به فيكون هذا بمنزلة قوله صدقوه فيما قال أو أعطوه ما طلب فالقرآن والهدى منه وهو من كلامه وعلمه وحكمه الذي هو قائم به غير مخلوق وهذه الآيات دليل على ذلك كما يكتب كلامه في المصحف فيكون المراد المكتوب به كلام يعرف به الكلام قال تعالى { قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا } الكهف 109 ولهذا يكون لهذه الآيات المعجزات حرمة كالناقة وكالماء النابع بين أصابع النبي ونحو ذلك والله سبحانه أعلم في قوله تعالى { أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابٌ مُّوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مَرِيَّةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ } 17 { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ } 18 { الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ } 19 { أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ } 20 { أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ } 21 { لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ } 22 { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } 23 { مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا

أَفَلَا تَذَكَّرُونَ {24} هود 21-24 ذكر سبحانه الفرق بين أهل الحق والباطل وما بينهما من التباين والإختلاف مرة بعد مرة ترغيباً في السعادة وترهيباً من الشقاوة وقد افتتح السورة بذلك فقال {الرَّ كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَبِيرٍ {1} أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ {2} هود 1-2 فذكر أنه نذير وبشير نذير ينذر بالعذاب لأهل النار وبشير يبشر بالسعادة لأهل الحق ثم ذكر حال الفريقين في السراء والضراء فقال {وَلَئِن أَدْقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ رَحْمَةٍ نَزَعْنَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيُؤْسُ كَفُورٌ {9} وَلَئِن أَدْقْنَا نَعْمَاءً بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَّنَتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ {10} إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ {11} هود 9-11-97

اتقوا فإسرة المؤمن فانه ينظر بنور الله

في الصحيحين عن النبي أنه قال قد كان في الأمم قبلكم محدثون فان يكن في أمتي أحد فعمر وكان عمر يقول اقتربوا من أفواه المطيعين واسمعوا منهم ما يقولون فانها تجلى لهم أمور صادقة وفي الترمذي عن أبي سعيد عن النبي أنه قال اتقوا فإسرة المؤمن فانه ينظر بنور الله ثم قرأ قوله {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ} الحجر 75 وقال بعض الصحابة أظنه والله للحق يقذفه الله على قلوبهم وأسماعهم وفي صحيح البخارى عن أبى هريرة عن النبي أنه قال ولا يزال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها وفى رواية فى يسمع وبى يبصر وبى يبطش وبى يمشى فقد أخبر أنه يسمع بالحق ويبصر به وكانوا يقولون ان السكينة تنطق على لسان عمر رضى الله عنه وقال من سأل القضاء واستعان عليه وكل اليه ومن لم يسأله ولم يستعن عليه أنزل الله عليه ملكا يسدده وقال الله تعالى {نُورٌ عَلَى نُورٍ} النور 35 نور الايمان مع نور القرآن وقال تعالى {أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ} هود 17 وهو المؤمن على بينة من ربه ويتبعه شاهد من الله وهو القرآن شهد الله فى القرآن بمثل ما عليه المؤمن من بينة الايمان⁹⁸

⁹⁷مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 103-62

⁹⁸مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 69-68

القرآن والتوراة كل منهما أصل مستقل

ومعلوم أن موسى أخبر بما أخبر به قبل أن يبعث محمد وقبل أن يبعث المسيح ومعلوم أيضا لكل من كان عالما بحال محمد أنه نشأ بين قوم أميين لا يقرءون كتابا ولا يعلمون علوم الانبياء وأنه لم يكن عندهم من يعلم ما في التوراة والانجيل ونبوة الأنبياء وقد أخبر محمد من توحيد الله وصفاته وأسمائه وملائكته وعرشه وكرسيه وأنبياؤه ورسله وأخبارهم وأخبار مكذبيهم بنظير ما يوجد في كتب الأنبياء من التوراة وغيرهما فمن تدبر التوراة والقرآن علم أنهما جميعا يخرجان من مشكاة واحدة كما ذكر ذلك النجاشي وكما قال ورقة بن نوفل هذا هو الناموس الذي كان يأتي موسى ولهذا قرن الله تعالى بين التوراة والقرآن في مثل هذا قال تعالى { **أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَاَلْحَزَابُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ } هود 17** فهذه الطريقة كل من علم ما جاء به موسى والنبليون قبله وبعده وما جاء به محمد علم علما يقينا أنهم كلهم مخبرون عن الله صادقون في الأخبار وأنه يمتنع والعياذ بالله خلاف الصدق من خطأ وكذب⁹⁹

قال تعالى { **أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَاَلْحَزَابُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ } هود 17** محمد صلى الله عليه وسلم وموسى عليه السلام هما اللذان جاء بكتاب فيه الحلال والحرام كما قال تعالى { **قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ } القصص 49** وقال تعالى { **وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً } هود 17** وقال تعالى { **قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ } الأنعام 91** الى قوله { **وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ } الأنعام 92** وقالت الجن لما سمعت القرآن { **إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ } الأحقاف 30** وقال ورقة بن نوفل ان هذا والذي جاء به موسى ليخرجان من مشكاة واحدة وكذلك قال النجاشي فالقرآن والتوراة هما كتابان جاء من عند الله لم يأت من عنده كتاب أهدى منهما كل منهما أصل مستقل والذي فيهما دين واحد وكل منهما يتضمن اثبات صفات الله تعالى والأمر بعبادته وحده لا شريك له ففيه التوحيد قولا وعملا كما في سورتي الاخلاص قل يا أيها الكافرون و قل هو الله احد وأما الزبور فان داود لم يأت بغير شريعة التوراة وانما في الزبور ثناء على الله ودعاء وأمر ونهى بدينه وطاعته وعبادته مطلقا وأما المسيح فانه قال { **وَلَأَجَلٌ لَّكُمْ بَعْضُ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ } آل عمران 50** فاحل لهم بعض المحرمات وهو في الاكثر متبع لشريعة التوراة ولهذا لم يكن بد لمن اتبع المسيح من ان يقرأ التوراة ويتبع ما فيها اذ كان الانجيل تبعا لها وأما القرآن فانه مستقل بنفسه لم يحوج أصحابه الى كتاب آخر بل اشتمل على جميع ما في الكتب من المحاسن وعلى زيادات كثيرة لا توجد في الكتب فلهذا كان مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيما عليه يقرر ما فيها من الحق ويبطل ما حرف منها وينسخ

ما نسخه الله فيقرر الدين الحق وهو جمهور ما فيها ويبطل الدين المبدل الذي لم يكن فيها والقليل الذي نسخ فيها فان المنسوخ قليل جدا بالنسبة الى المحكم المقرر¹⁰⁰

{ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ }

وهذا القرآن الذي يعرف كل أحد أنه الكتاب الذي جاء به مملوء من دعوة أهل الكتاب إلى اتباعه ويكفر من لم يتبعه منهم ويذمه ويلعنه والوعيد له كما في تكفير من لم يتبعه من المشركين وذمه والوعيد كما قال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَلْزَمْنَا مَوْعِدًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعْنَا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا } النساء 47 وفي القرآن من قوله يا أهل الكتاب يا بني إسرائيل ما لا يحصى إلا بكلفة وقال تعالى { لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ } البينة 1 إلى قوله { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ } البينة 7 ومثل هذا في القرآن كثير جدا وقد قال تعالى { قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } الأعراف 158 وقال تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ } سبأ 28 واستفاض عنه فضلت على الأنبياء بخمس ذكر فيها أنه قال كان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة بل تواتر عنه أنه بعث إلى الجن والإنسان فإذا علم بالإضطرار بالنقل المتواتر الذي تواتر كما تواتر ظهور دعوته أنه دعا أهل الكتاب إلى الإيمان به وأنه حكم بكفر من لم يؤمن به منهم وأنه أمر بقتالهم حتى يسلموا أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون وأنه قاتلهم بنفسه وسراياه وأنه ضرب الجزية عليهم وقتل مقاتلتهم وسبى ذراريهم وغنم أموالهم فحاصر بني قينقاع ثم أجلاهم إلى أذرعاء وحاصر بني النضير ثم أجلاهم إلى خيبر وفي ذلك أنزل الله سورة الحشر ثم حاصر بني قريظة لما نقضوا العهد وقتل رجالهم وسبى حريمهم وأخذ أموالهم وقد ذكره الله تعالى في سورة الأحزاب وقاتل أهل خيبر حتى فتحها وقتل من رجالهم وسبى من سبى من حريمهم وقسم أرضهم بين المؤمنين وقد ذكرها الله تعالى في سورة الفتح وضرب الجزية على النصارى وفيهم أنزل الله سورة آل عمران وغزا النصارى عام تبوك وفيها أنزل الله سورة براءة وفي عامة السور المدنية مثل البقرة وآل عمران والنساء والمائدة وغير ذلك من السور المدنية من دعوة أهل الكتاب وخطابهم ما لا تتسع هذه الفتوى لعشره ثم خلفاؤه بعده أبو بكر وعمر ومن معهما من المهاجرين والأنصار الذي يعلم أنهم كانوا أتبع الناس له وأطوعهم لأمره وأحفظهم لعهدده وقد غزوا الروم كما غزوا فارس وقاتلوا أهل الكتاب كما قاتلوا المجوس فقاتلوا من قاتلهم وضربوا الجزية على من أداها منهم عن يد وهم صاغرون ومن الأحاديث الصحيحة عنه قوله والذي نفسي بيده لا يسمع بي من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار قال سعيد بن جبير وغيره والأحزاب هي الملل كلها قال وهذا تصديق قول النبي والذي نفسي بيده لا يسمع بي من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار وقرأ هذه الآية { وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ } هود 17 ومعنى الحديث متواتر عنه معلوم بالإضطرار فإذا كان الأمر كذلك لزم بأنه رسول الله إلى كل الطوائف فإنه يقرر بأنه رسول الله لا يكذب ولا يقاتل الناس على طاعته بغير أمر الله ولا يستحل دماءهم وأموالهم وديارهم بغير إذن الله¹⁰¹

¹⁰⁰مجموع الفتاوى ج: 19 ص: 183- 185 و الجواب الصحيح ج: 5 ص: 351

¹⁰¹مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 206

اهمية معرفة مراتب الأديان

فالكفار بعضهم دون بعض ولهذا يذكر الفقهاء في باب الردة والإسلام انتقال الرجل كأحد الزوجين من دين إلى دين آخر انتقال إلى دين خير من دينه أو دون دينه أو مثل دينه فيقولون إذا صار الكتابي مجوسيا أو مشركا فقد انتقل إلى شر من دينه وإذا صار المشرك أو المجوسي كتابيا فقد انتقل إلى خير من دينه وإذا تهود النصراني أو بالعكس فقد انتقل إلى نظير دينه والتمجس يقر عليه بالاتفاق وأما الإشراف فلا يقر عليه إلا بعض الناس عند بعض العلماء والصابئة نوعان عند المحققين وعلى قولين عند آخرين ومعرفة مراتب الأديان محتاج إليها في مواضع كثيرة لمعرفة مراتب الحسنات والفقهاء يذكرون ذلك لأجل معرفة أحكامهم وتناكحهم وذبائحهم وفي دمائهم و قتالهم وإقرارهم بالجزية المضروبة عليهم ونحو ذلك من الأحكام التي جاء بها الكتاب والسنة في أهل الملل والأحزاب الذين قال الله فيهم قال تعالى { وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ } هود 17 (فيه نقص نفس المرجع)¹⁰²

لا معصوم إلا الأنبياء

فإنه لا معصوم إلا الأنبياء ولهذا لم يجب الإيمان بكل ما يقوله بشر إلا أن يكون نبيا فإن الإيمان واجب بكل ما يأتي به النبي وإذا كان الأمر كذلك فمعلوم بالتواتر أن محمدا ذكر أنه رسول كإبراهيم وموسى وعيسى بل أخبر أنه سيد ولد آدم وأن آدم فمن دونه تحت لوائه يوم القيامة وأنه لما أسرى به وعرج إلى ربه علا على الأنبياء كلهم على إبراهيم وموسى وهرون ويحيى وعيسى وغيرهم وأخبر أنه لا نبي بعده وأن أمته هم الآخرون في الخلق السابقون يوم القيامة وأن الكتاب الذي أنزل إليه أحسن الحديث وأنه مهيمن على ما بين يديه من الكتب مع تصديقه لذلك وحينئذ فإن كان عالما بصدق نفسه فهو نبي رسول ومن قال هذا القول وهو يعلم أنه كاذب فهو من أظلم الناس وأفجرهم { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَّبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ } هود 18¹⁰³

الفرق بين من لعنه الله لعنة مؤبدة عامة ومن لعنه لعنا مطلقا

فلعنة الفاسق لمعين ليست مأمورا بها إنما جاءت السنة بلعنة الأنواع كقول النبي صلى الله عليه وسلم لعن الله السارق يسرق البيضة فتقطع يده وقوله لعن الله من أحدث حدثا أو أوى محدثا وقوله لعن الله اكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه وقوله لعن الله المحلل والمحلل له لعن الله الخمر وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه وساقياها وشاربها واكل ثمنها وقد تنازع الناس في لعنة الفاسق المعين فقل إنه جائز كما قال ذلك طائفة من أصحاب أحمد وغيرهم كأبي

¹⁰² الاستقامة ج: 1 ص: 464

¹⁰³ الجواب الصحيح ج: 6 ص: 50

الفرج بن الجوزي وغيره وقيل إنه لا يجوز كما قال ذلك طائفة أخرى من أصحاب أحمد وغيرهم كأبي بكر عبد العزيز وغيره والمعروف عن أحمد كراهة لعن المعين كالحجاج بن يوسف وأمثاله وأن يقول كما قال الله تعالى **{ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ } هود18** وقد ثبت في صحيح البخاري أن رجلاً كان يدعى حماراً وكان يشرب الخمر وكان يؤتى به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيضربه فأتى به إليه مرة فقال رجل لعنة الله ما أكثر ما يؤتى به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم لا تلغنه فإنه يجب الله ورسوله فقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن لعنة هذا المعين الذي كان يكثر شرب الخمر معللاً ذلك بأنه يجب الله ورسوله مع أنه صلى الله عليه وسلم لعن شارب الخمر مطلقاً فدل ذلك على أنه يجوز أن يلعن المطلق ولا تجوز لعنة المعين الذي يجب الله ورسوله ومن المعلوم أن كل مؤمن فلا بد أن يحب الله ورسوله ولكن في المظهرين للإسلام من هم منافقون فأولئك ملعونون لا يحبون الله ورسوله ومن علم حال الواحد من هؤلاء لم يصل عليه إذا مات لقوله تعالى **{ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ } التوبة84** ومن جوز من أهل السنة والجماعة لعنة الفاسق المعين فإنه يقول يجوز أن أصلي عليه وأن ألعنه فإنه مستحق للثواب مستحق للعقاب فالصلاة عليه لاستحقاقه الثواب واللعنة له لاستحقاقه العقاب واللعنة البعد عن الرحمة والصلاة عليه سبب لرحمة فيرحم من وجه ويبعد عنها من وجه وهذا كله على مذهب الصحابة والتابعين لهم بإحسان وسائر أهل السنة والجماعة ومن يدخل فيهم من الكرامية والمرجئة والشيعة ومذهب كثير من الشيعة الإمامية وغيرهم الذين يقولون إن الفاسق لا يخلد في النار وأما من يقول بتخليده في النار كالخوارج والمعتزلة وبعض الشيعة فهؤلاء عندهم لا يجتمع في حق الشخص الواحد ثواب وعقاب وقد استفاضت السنن النبوية بأنه يخرج من النار قوم بالشفاعة ويخرج منها من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان فأما قول الله تعالى **{ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ } هود18** فهي آية عامة كآيات الوعيد بمنزلة قوله **{ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا } النساء10** وهذا يقتضي أن هذا الذنب سبب اللعن والعذاب لكن قد يرتفع موجبة لمعارض راجح إما توبة وإما حسنات ماحية وإما مصائب مكفرة¹⁰⁴

(يبدو انه فيه نقص نفس المرجع) قيل واللعن انما يستوجبه من هو كافر لكن ليس هذا جيداً على الإطلاق ويؤيده ايضاً قوله تعالى **{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا } 51** { أَوْلَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا } النساء51-52 ولو كان معصوم الدم يجب على المسلمين نصره لكان له نصير ويوضح ذلك انه قد نزل في شان ابن الاشرف وكان من لعنته ان قتل لانه كان يؤذي الله ورسوله واعلم انه لا يرد على هذا انه قد لعن من لا يجوز قتله لوجوه احدها ان هذا قيل فيه لعنه الله في الدنيا والاخرة فبين انه سبحانه اقصاه عن رحمته في الدارين وسائر الملعونين انما قيل فيهم لعنه الله او عليه لعنة الله وذلك يحصل باقصائه عن الرحمة في وقت من الاوقات وفرق بين من لعنه الله لعنة مؤبدة عامة ومن لعنه لعناً مطلقاً الثاني ان سائر الذين لعنهم الله في كتابه مثل الذين يكتمون ما انزل الله من الكتاب ومثل الظالمين الذين

يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً ومثل من يقتل مؤمناً متعمداً أما كافر أو مباح الدم بخلاف بعض من لعن في السنة¹⁰⁵

من ادعى النبوة وهو كاذب فهو من أكفر الكفار وأظلم الظالمين

كانت سنة الله وعادته نصر المؤمنين بالأنبياء الصادقين على الكافرين والمنافقين كما أن سنته تأييدهم بالآيات البينات ومن ادعى النبوة وهو كاذب فهو من أكفر الكفار وأظلم الظالمين قال تعالى { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ } هود 18 ومن كان كذلك كان الله يمقته ويبغضه ويعاقبه ولا يدوم أمره بل هو كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح عن أبي هريرة قال إن الله يملي للظالم فإذا أخذه لم يفلته ثم قرأ { وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ } هود 102 وقال أيضاً في الحديث الصحيح عن أبي موسى أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع تفيئها الرياح تقومها تارة وتمليها أخرى ومثل المنافق مثل شجرة الأرز لا تزال ثابتة على أصلها حتى كون انجعافها مرة واحدة فالكاذب الفاجر وإن أعطي دولة فلا بد من زوالها بالكلية وبقاء ذمه ولسان السوء له في العالم وهو يظهر سريعاً ويزول سريعاً كدولة الأسود العنسي ومسيلمة الكذاب والحارث الدمشقي وبابا الرومي ونحوهم وأما الأنبياء فإنهم يبتلون كثيراً ليمحصوا بالبلاء فإن الله إنما يمكن العبد إذا ابتلاه ويظهر أمرهم شيئاً فشيئاً كالزرع قال تعالى { مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا } الفتح 29 ولهذا كان أول ما يتبعهم ضعفاء الناس فاعتبار هذه الأمور وسنة الله في أوليائه وأنبيائه الصادقين وفي أعداء الله والمتنبيين الكذابين مما يوجب الفرق بين النوعين وبين دلائل النبي الصادق ودلائل المتنبي الكذاب وقد ذكر ابتلاء النبي والمؤمنين ثم كون العاقبة لهم في غير موضع¹⁰⁶

يقع الكذب على الله ممن فسد قصده

قال تعالى { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ } {18} الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ } {19} أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا

¹⁰⁵ الصارم المسلول ج: 2 ص: 89-90

¹⁰⁶ الجواب الصحيح ج: 6 ص: 423-424

**يُبْصِرُونَ} 20} أَوْلَيْكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} 21} لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي
الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ} 22} هود 18- 22 وهذا يتناول كل كافر من كذب على الله بادعاء
الرسالة كاذبا ويتناول كل من كذب رسولا صادقا فقال إن الله لم يرسل هذا ولم يأمر بهذا فكذب
على الله وهذا إنما يقع ممن فسد قصده بحب الدنيا وإرادتها وممن أحب الرئاسة وأراد العلو في
الأرض من أهل الجهل وفي الصحيحين عن ابن عمر عن النبي أنه قال إن الله يذني
المؤمن منه يوم القيامة حتى يلقي عليه كنفه ويقول فعلت يوم كذا وكذا ويوم كذا وكذا وكذا
فيقول نعم فيقول إني قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ثم يعطى كتاب حسناته
بيمينه وأما الكفار والمنافقون **{ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ
عَلَى الظَّالِمِينَ } هود 18**¹⁰⁷**

أن المحرمات جميعها من الكفر و الفسوق و العصيان إنما يفعلها العبد لجهله أو لحاجته فإنه إذا
كان عالما بمضرتها و هو غني عنها امتنع أن يفعلها و الجهل أصله عدم و الحاجة أصلها العدم
فأصل وقوع السيئات منه عدم العلم و الغنى و لهذا يقول في القرآن **{ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ
السَّمْعَ} هود 20 { أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ } يس 62 { إِنَّهُمْ أَلْفَا أَبَاءَهُمْ ضَالِّينَ } 69} فَهُمْ عَلَى
آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ} 70} الصافات 69-70 إلى نحو هذه المعاني¹⁰⁸**

وأما الموجود الذي هو سبب الشر الموجود الذي هو خاص كالآلام مثل الأفعال المحرمة من
الكفر الذي هو تكذيب أو استكبار و الفسوق الذي هو فعل المحرمات و نحو ذلك فإن ذلك سبب
الذم والعقاب وكذلك تناول الأغذية الضارة و كذلك الحركات الشديدة المورثة للألم فهذا الوجود
لا يكون وجودا تاما محضا إذ الوجود التام المحض لا يورث إلا خيرا كما قلنا إن العدم المحض لا
يقتضي وجودا بل يكون وجودا ناقصا إما في السبب وإما في المحل كما يكون سبب التكذيب عدم
معرفة الحق و الاقرار به و سبب عدم هذا العلم والقول عدم أسبابه من النظر التام والاستماع
التام لآيات الحق و أعلامه و سبب عدم النظر والاستماع إما عدم المقتضى فيكون عدما محضا
و إما وجود مانع من الكبر أو الحسد في النفس **{ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ } الحديد 23**
وهو تصور باطل و سببه عدم غنى النفس بالحق فتعتاض عنه بالخيال الباطل¹⁰⁹

وقال تعالى **{ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ
هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ } 18} الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ
وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ} 19} أَوْلَيْكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ**

¹⁰⁷مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 93-94

¹⁰⁸مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 23

¹⁰⁹مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 26

لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءٍ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ {20} أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ {21} لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ {22} هود 18- 22 (قيه نقص هنا نفس المرجع) لكن عدم هذه الإستطاعة كان بتفريطه وعدوانه المكذب للرسول صلى الله عليه وسلم والكافر به فإنه لم يصدق بالحق ولم يستسلم له لا جملة ولا تفصيلا لكن قد يكون ما اتبعه من ظنه وهواه موجبا لبعض ما جاء به الرسول ومانعا له من النظر فيه بحيث لا يستطيع مع ذلك أن يسمع به¹¹⁰

الإستطاعة جاءت في كتاب الله على نوعين

أن الإستطاعة جاءت في كتاب الله على نوعين الإستطاعة المشترطة للفعل و هي مناط الأمر و النهي كقوله تعالى { وَبَلَّغْ عَلَى النَّاسِ حُجَّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا } آل عمران 97 و قوله { فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ } التغابن 16 و قوله { وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكَحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ } النساء 25 الآية { فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا } المجادلة 4 و قوله { وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ } البقرة 184 و قول النبي صلى الله عليه وسلم لعمران بن حصين صل قائما فإن لم تستطع فقاعدا فإن لم تستطع فعلى جنب فإن الإستطاعة في هذه النصوص لو كانت لا توجد إلا مع الفعل لوجب ألا يجب الحج إلا على من حج و لا يجب صيام شهرين إلا على من صام و لا القيام في الصلاة إلا على من قام و كان المعنى على الذين يصومون الشهر طعام مسكين و الآية إنما أنزلت لما كانوا مخيرين بين الصيام و الإطعام في شهر رمضان و الإستطاعة التي يكون معها الفعل قد يقال هي المقترنة بالفعل الموجبة له و هي النوع الثاني و قد ذكروا فيها قوله تعالى { الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنِ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا } الكهف 101 و قوله تعالى { يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ } هود 20 و نحو ذلك قوله { إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ } {8} وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ {9} يس 8- 9 فإن الإستطاعة المنفية هنا سواء كان نفيها خبرا أو ابتداء ليست هي الإستطاعة المشروطة في الأمر و النهي فإن تلك إذا إنتفت إنتفى الأمر و النهي و الوعد و الوعيد و الحمد و الذم و الثواب و العقاب و معلوم أن هؤلاء في هذه الحال مأمورون منهيون موعودون متوعدون فعلم أن المنفية هنا ليست المشروطة في الأمر و النهي المذكورة في قوله { فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ } {التغابن 16} لكن قد يقال الإستطاعة هنا كالإستطاعة المنفية في قول الخضر لموسى { إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا } {الكهف 67} فإن هذه الإستطاعة المنفية لو كان المراد بها مجرد المقارنة في الفاعل و التارك لم يكن فرق بين هؤلاء المذمومين و بين المؤمنين و لا بين الخضر و موسى فإن كل أحد فعل أو لم يفعل لا تكون المقارنة موجودة قبل فعله و القرآن يدل على أن هذه الإستطاعة إنما نفيت عن التارك لا عن الفاعل فعلم أنها مضادة لما يقوم بالعبد من الموانع التي تصد قلبه عن إرادة الفعل و

عمله و بكل حال فهذه الإستطاعة منتفية في حق من كتب عليه أنه لا يفعل بل و قضى عليه بذلك وإذا عرف هذا التقسيم أن إطلاق القول بأن العبد لا يستطيع غير ما فعل و لا يستطيع خلاف المعلوم المقدر و إطلاق القول بأن إستطاعة الفاعل و التارك سواء و أن الفاعل لا يختص عن التارك بإستطاعة خاصة عرف أن كلا الإطلاقين خطأ و بدعة و لهذا إتفق سلف الأمة و أئمتها و جمهور طوائف أهل الكلام على أن الله قادر على ما علم و أخبر أنه لا يكون و على ما يمتنع صدوره عنه لعدم إرادته لالعدم قدرته عليه¹¹¹

الاستطاعة إستطاعتان إحداهما قبل الفعل وهي الإستطاعة المشروطة في التكليف كما قال تعالى { وَ لِلّٰهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً } آل عمران 97 وقال النبي لعمران بن حصين صل قائماً فإن لم تستطع فقاعدا فإن لم تستطع فعلى جنب و هذه الإستطاعة يقترن بها الفعل تارة و التارك أخرى وهي الإستطاعة التي لم تعرف القدرية غيرها كما أن أولئك المخالفين لهم من أهل الإثبات لم يعرفوا إلا المقارنة و أما الذي عليه المحققون من أئمة الفقه و الحديث و الكلام و غيرهم فاثبات النوعين جميعاً كما قد بسطناه في غير هذا الموضوع فإن الأدلة الشرعية و العقلية تثبت النوعين جميعاً و الثانية المقارنة للفعل وهي الموجبة له وهي المنفية عن لم يفعل في مثل قوله { مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ } هود 20 و في قوله { لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا } الكهف 101¹¹²

و الصواب الذي دل عليه الكتاب و السنة أن الإستطاعة متقدمة على الفعل و مقارنة له أيضا و تقارنه أيضا إستطاعة أخرى لا تصلح لغيره فالإستطاعة نوعان متقدمة صالحة للضدين و مقارنة لا تكون إلا مع الفعل فتلك هي المصححة للفعل المجوزة له و هذه هي الموجبة للفعل المحققة له قال الله تعالى في الأولى { وَ لِلّٰهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً } آل عمران 97 و لو كانت هذه الإستطاعة لا تكون إلا مع الفعل لما و جب الحج إلا على من حج و لما عصى أحد بترك الحج و لا كان الحج و اجبا على أحد قبل الإحرام به بل قبل فراغه و قال تعالى { فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ } التغابن 16 فأمر بالتقوى بمقدار الإستطاعة و لو أراد الإستطاعة المقارنة لما و جب على أحد من التقوى إلا ما فعل فقط إذ هو الذي قارنته تلك الإستطاعة و قال تعالى { لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا } البقرة 286 و الوسع الموسوع و هو الذي تسعه و تطبيقه فلو أريد به المقارن لما كلف أحد إلا الفعل الذي أتى به فقط دون ما تركه من الواجبات و قال تعالى { فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا فَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ فإِطْعَامَ سِتِّينَ مِسْكِينًا } المجادلة 4 و المراد به الإستطاعة المتقدمة و إلا كان المعنى فمن لم يفعل الصيام فإطعام ستين فيجوز حينئذ الإطعام لكل من لم يصم و لا يكون الصوم و اجبا على أحد حتى يفعله و قال النبي صلى الله عليه و سلم إذا أمرتكم بأمر فاتوا منه ما استطعتم و لو أريد به المقارنة فقط لكان المعنى فاتوا منه ما فعلتم فلا يكونون مأمورين إلا بما فعلوه و كذلك قال النبي صلى الله عليه و سلم لعمران بن حصين صل قائماً فإن لم تستطع فقاعدا فإن لم

¹¹¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 291-292

¹¹²مجموع الفتاوى ج: 18 ص: 173

تستطع فعلى جنب و لو أريد المقارن لكان المعنى فإن لم تفعل فتكون مخيرا و نظائر هذا متعددة فإن كل أمر علق في الكتاب و السنة و جوبه بالإستطاعة و عدمه بعدمها لم يرد به المقارنة و إلا لما كان الله قد أوجب الواجبات إلا على من فعلها و قد أسقطها عن من لم يفعلها فلا يأثم أحد بترك الواجب المذكور و أما الإستطاعة المقارنة الموجبة فمثل قوله تعالى **{ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ } هود20** و قوله **{ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنِ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا } الكهف101** فهذه الإستطاعة هي المقارنة الموجبة إذ الأخرى لا بد منها في التكليف فالألى هي الشرعية التي هي مناط الأمر و النهي و الثواب و العقاب و عليها يتكلم الفقهاء و هي الغالبة في عرف الناس و الثانية هي الكونية التي هي مناط القضاء و القدر و بها يتحقق وجود الفعل فالأولى للكلمات الأمريات الشرعيات و الثانية للكلمات الخلقيات الكونيات كما قال **{ وَصَدَقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا إِتْقَانُ الْإِسْلَامِ وَذِكْرُ اللَّهِ عَالَمِينَ } الأعراف10** وقد اختلف الناس في قدره العبد على خلاف معلوم الحق أو مراده و التحقيق أنه قد يكون قادرا بالقدرة الأولى الشرعية المتقدمة على الفعل فإن الله قادرا أيضا على خلاف المعلوم و المراد و إلا لم يكن قادرا إلا على ما فعله و ليس العبد قادرا على ذلك بالقدرة المقارنة للفعل فإنه لا يكون إلا ما علم الله كونه و أراد كونه فإنه ما شاء الله كان و ما لم يشأ لم يكن و كذلك قول الحواريين **{ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ } المائدة112** إنما إستفهموا عن هذه القدرة وكذلك ظن يونس **{ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ } الأنبياء87** أي فسر بالقدرة كما يقال للرجل هل تقدر أن تفعل كذا أي هل تفعله و هو مشهور في كلام الناس و لما إعتقدت القدرية أن الأولى كافية في حصول الفعل و أن العبد يحدث مشيئته جعله مستغنيا عن الله حين الفعل كما أن الجبرية لما إعتقدت أن الثانية موجبة للفعل و هي من غيره راوه مجبورا على الفعل و كلاهما خطأ قبيح فإن العبد له مشيئة و هي تابعة لمشيئة الله كما ذكر الله ذلك في عدة مواضع من كتابه **{ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ } 55** **{ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ } المدثر55-56** **{ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا } 29** **{ وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا } 30** **{ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ } 28** **{ وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ } 29** **{ التكوير 28-29** فإذا كان الله قد جعل العبد مريدا مختارا شائيا إمتنع أن يقال هو مجبور مقهور مع كونه قد جعل مريدا و إمتنع أن يكون هو الذي إبتدع لنفسه المشيئة فإذا قيل هو مجبور على أن يختار مضطر إلى أن يشاء فهذا لا نظير له و ليس هو المفهوم من الجبر بالإضطرار و لا يقدر على ذلك إلا الله ولهذا إفتقر القدرية و الجبرية على طرفي نقيض و كلاهما مصيب فيما أثبتته دون ما نفاه فأبو الحسين البصري و من و افقه من القدرية يزعمون أن العلم بأن العبد يحدث أفعاله و تصرفاته علم ضروري و إن جحد ذلك سفسطة وابن الخطيب و نحوه من الجبرية يزعمون أن العلم بإفتقار رجحان فعل العبد على تركه الى مرجح من غير العبد ضروري لأن الممكن المتساوي الطرفين لا يترجح أحد طرفيه على الآخر إلا بمرجح و كلا القولين صحيح لكن دعوى إستلزام أحدهما نفي الآخر ليس بصحيح فإن العبد يحدث لأفعاله كاسب لها و هذا الإحداث مفتقر الى محدث فالعبد فاعل صانع محدث و كونه فاعلا صانعا محدثا بعد أن لم يكن لا بد له من فاعل كما قال **{ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ } 28** **{ التكوير 28** فإذا شاء الإستقامة صار مستقيما ثم قال **{ وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ } 29** **{ التكوير 29** فما علم بالإضطرار و ما دلت عليه الأدلة السمعية و العقلية كله حق و لهذا كان لا حول و لا قوة إلا بالله و العبد فقير إلى الله فقرا ذاتيا له في ذاته و صفاته و أفعاله مع أن له ذاتا و صفات و أفعالا فنفي أفعاله كنفى صفاته و ذاته و هو جحد للحق شبيهه بغلو غالبية الصوفية الذين يجعلونه هو الحق أو جعل شيء منه مستغنيا عن الله أو كائنا بدونه جحد للحق شبيهه بغلو الذي قال **{ أَنَا رَبُّكُمْ**

الأعلى { النازعات 24 } و قال إنه خلق نفسه و إنما الحق ما عليه أهل السنة و الجماعة و إنما الغلط في إعتقاد تناقضه بطريق التلازم و أن ثبوت أحدهما مستلزم لنفي الآخر فهذا ليس بحق و سببه كون العقل يزيد على المعلوم المدلول عليه ما ليس كذلك و تلك الزيادة تناقض ما علم و دل عليه 113

نفوسهم لا تستطيع إرادته وإن كانوا قادرين على فعله لو أرادوه

فما تنازع المتكلمين من مثبتة القدر ونفاته في استطاعة العبد وهي قدرته وطاقته هل يجب أن تكون مع الفعل لا قبله أو يجب أن تكون متقدمة على الفعل أو يجب أن تكون معه وإن كانت متقدمة عليه فمن قال بالأول لزمه أن يكون كل عبد لم يفعل ما أمر به قد كلف ما لا يطيقه إذا لم يكن عنده قدرة إلا مع الفعل ولهذا كان الصواب الذي عليه محققوا المتكلمين وأهل الفقه والحديث والتصوف وغيرهم ما دل عليه القرآن وهو أن الاستطاعة التي هي مناط الأمر والنهي وهي المصححة للفعل لا يجب أن تقارن الفعل وأما الاستطاعة التي يجب معها وجود الفعل فهي مقارنة له فالأولى كقوله { وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا } آل عمران 97 وقول النبي لعمران بن حصين صل قائماً فإن لم تستطع فقاعداً فإن لم تستطع فعلى جنب ومعلوم أن الحج والصلاة تجب على المستطيع سواء فعل أو لم يفعل فعلم أن هذه الاستطاعة لا تجب أن تكون مع الفعل والثانية كقوله تعالى { **مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ** } هود 20 وقوله تعالى { **وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا** } 100 { الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنِ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا } الكهف 100-101 على قول من يفسر الاستطاعة بهذه وأما على تفسير السلف والجمهور فالمراد بعدم الاستطاعة مشقة ذلك عليهم وصعوبته على نفوسهم فنفسهم لا يستطيع إرادته وإن كانوا قادرين على فعله لو أرادوه وهذه حال من صده هواه ورأيه الفاسد عن استماع كتب الله المنزلة واتباعها فقد أخبر أنه لا يستطيع ذلك وهذه الاستطاعة هي المقارنة للفعل الموجبة له وأما الأولى فلولا وجودها لم يثبت التكليف بقوله { **فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ** } التغابن 16 وقوله تعالى { **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا** } الأعراف 42 وأمثال ذلك فهو لاء المفرطون والمعتدون في أصول الدين إذا لم يستطيعوا سمع ما أنزل إلى الرسول فهم من هذا القسم¹¹⁴

قال ابن الأنباري في قوله { **وَلَا تُحْمَلُونَ مَا لَأَبْقَاءِ لَنَا بِهِ** } البقرة 286 أي لا تحملنا ما يتقل علينا أداؤه و إن كنا مطيقين له على تجشم وتحمل مكروهه قال فخطب العرب على حسب ما تعقل فإن الرجل منهم يقول للرجل ما أطيق النظر اليك و هو مطيق لذلك لكنه ثقيل عليه النظر اليه قال ومثله قوله { **مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ** } هود 20 قلت ليست هذه لغة العرب وحدهم بل هذا مما اتفق عليه العقلاء و الاستطاعة في الشرع هي ما لا يحصل معه للمكلف ضرر راجح

¹¹³مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 372-376

¹¹⁴مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 318-322 الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 460

كاستطاعة الصيام و القيام فمتى كان يزيد فى المرض أو يؤخر البرء لم يكن مستطيعا لأن فى ذلك مضرة راجحة بخلاف هؤلاء فإنهم كانوا لا يستطيعون السمع لبعض الحق و ثقله عليهم اما حسدا لقاتله و اما اتباعا للهوى و رين الكفر و المعاصي على القلوب و ليس هذا عنرا فلو لم يأمر العباد الا بما يهونه { لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ } المؤمنون 71 و المقصود أن السلف لم يكن فيهم من يقول أن العبد لا يكون مستطيعا إلا فى حال فعله و أنه قبل الفعل لم يكن مستطيعا فهذا لم يأت الشرع به قط و لا اللغة و لا دل عليه عقل بل العقل يدل على نقيضه كما قد بسط فى غير هذا الموضع ¹¹⁵

الفرق فى السمع والبصر من الإيمان وآثاره والكفر وآثاره

أن المسمع وإن كان أصله نفس السمع الذى يشبه الإدراك لكن اذا كان المسموع طلبا ففائدته و موجه الاستجابة و القبول و اذا كان المسموع خبرا ففائدته التصديق و الاعتقاد فصار يدخل مقصوده و فائدته فى مسماه نفيا و إثباتا فيقال فلان يسمع فلان أى يطيعه فى أمره أو يصدقه فى خبره و فلان لا يسمع ما يقال له أى لا يصدق الخبر و لا يطيع الأمر كما بين الله السمع عن الكفار فى غير موضع كقوله { وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءَ وَنِدَاءَ } البقرة 171 وقوله { وَلَا يَسْمَعُ الصَّمُ الدُّعَاءَ } الأنبياء 45 وذلك لأن سمع الحق يوجب قبوله ايجاب الاحساس الحركة و ايجاب علم القلب حركة القلب فان الشعور بالملائم يوجب الحركة اليه و الشعور بالمنافر يوجب النفرة عنه فحيث انتفى موجب ذلك دل على إنتفاء مبدئه ولهذا قال تعالى { إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ } الأنعام 36 ولهذا جعل سمع الكفار بمنزلة سمع البهائم لأصوات الرعاة أى يسمعون مجرد الأصوات سمع الحيوان لا يسمعون ما فيها من تأليف الحروف المتضمنة للمعاني السمع الذى لا بد أن يكون بالقلب مع الجسم ¹¹⁶

ومن هنا يظهر الفرق فى السمع والبصر من الإيمان وآثاره والكفر وآثاره والفرق بين المؤمن البر و بين الكافر و الفاجر فإن المؤمنين يسمعون اخبار أهل الإيمان فيشهدون رؤيتهم على وجه العلم و المعرفة و المحبة و التعظيم لهم و لاخبارهم و آثارهم كروية الصحابة النبى و سمعهم لما بلغه عن الله و الكافر و المنافق يسمع و يرى على وجه البغض و الجهل كما قال تعالى { وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ } القلم 51 وقال { فَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ } محمد 20 وقال { مَا كَانُوا يَسْتَبْطِئُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ } هود 20 وقال { فَعَمُوا وَصَمُوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ } المائدة 71 وقال تعالى فى حق المؤمنين { وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخْرُوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا } الفرقان 73 وقال فى حق الكفار { فَمَا لَهُمْ عَنِ الذِّكْرِ مَعْرِضِينَ } المدثر 49 والآيات فى هذا كثيرة جدا ¹¹⁷

¹¹⁵مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 140

¹¹⁶مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 194-195

¹¹⁷مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 342

أحرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن

{أَوْلَيْكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ} {هود20} فروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير أحرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا وكذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان وفي سنن أبي داود أن رجلين اختصما إلى النبي صلى الله عليه وسلم ففضى على أحدهما فقال المقضي عليه حسبي الله ونعم الوكيل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله يلوم على العجز ولكن عليك بالكيس فإذا غلبك أمر فقل حسبي الله ونعم الوكيل فأمر النبي صلى الله عليه وسلم المؤمن أن يحرص على ما ينفعه وأن يستعين بالله وهذا مطابق لقوله إياك نعبد وإياك نستعين وقوله {فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ} {هود123} فإن الحرص على ما ينفع العبد هو طاعة الله وعبادته إذ النافع له هو طاعة الله ولا شيء أنفع له من ذلك وكل ما يستعان به على الطاعة فهو طاعة وإن كان من جنس المباح قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح لسعد إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا ازددت بها درجة ورفعة حتى اللقمة تضعها في في امرأتك فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن الله يلوم على العجز الذي هو ضد الكيس وهو التفريط فيما يؤمر بفعله فإن ذلك ينافي القدرة المقارنة للفعل وإن كان لا ينافي القدرة المقدمة التي هي مناط الأمر والنهي فإن الاستطاعة التي توجب الفعل وتكون مقارنة له لا تصلح إلا لمقدورها كما ذكرها في قوله {أَوْلَيْكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ} {هود20} وأما الاستطاعة التي يتعلق بها الأمر والنهي فتلك قد يقتزن بها الفعل وقد لا يقتزن كما في قوله آل عمران والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا وقوله صلى الله عليه وسلم لعمر أن صل قائما فإن لم تستطع فقاعدا فإن لم تستطع فعلى جنبك¹¹⁸

يأمر الله ويمدح أنواع العلم واسبابه وكماله

قال تعالى { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ } {18} الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ } {19} أَوْلَيْكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ } {20} أَوْلَيْكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ } {21} لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ } {22} إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } {23} مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ } {24} هود18-24} قد مدح الله العلم والعقل والفقه وهذا كثير في القرآن يأمر ويمدح التفكير والتدبر والتذكر والنظر والاعتبار والفقه والعلم والعقل والسمع والبصر والنطق ونحو ذلك من أنواع العلم واسبابه وكماله ويذم اضداد ذلك¹¹⁹

¹¹⁸أمراض القلوب ج: 1 ص: 50 و التحفة العراقية ج: 1 ص: 50

¹¹⁹الاستقامة ج: 2 ص: 158

الأعمال الصالحة لازمة للإيمان

قال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } هود 23 أن الإيمان إذا أطلق أدخل الله ورسوله فيه الأعمال المأمور بها وقد يقرب به الأعمال وذكرنا نظائر لذلك كثيرة وذلك لأن أصل الإيمان هو ما في القلب والأعمال الظاهرة لازمة لذلك لا يتصور وجود إيمان القلب الواجب مع عدم جميع أعمال الجوارح بل متى نقصت الأعمال الظاهرة كان لنقص الإيمان الذي في القلب فصار الإيمان متناولا للملزوم واللازم وإن كان أصله ما في القلب وحيث عطف عليه الأعمال فإنه أريد أنه لا يكتفى بإيمان القلب بل لابد معه من الأعمال الصالحة ثم للناس في مثل هذا قولان منهم من يقول المعطوف دخل في المعطوف عليه أولا ثم ذكر بإسمة الخاص تخصيصا له لنلا يظن أنه لم يدخل في الأول وقالوا هذا في كل ما عطف فيه خاص على عام كقوله { مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ } البقرة 98 وقوله { وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمَنْكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ } الأحزاب 7 وقوله { وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ } محمد 2 فخص الإيمان بما نزل على محمد بعد قوله { وَالَّذِينَ آمَنُوا } محمد 2 وهذه نزلت في الصحابة وغيرهم من المؤمنين وقوله { حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ } البقرة 238 وقوله { وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ } البينة 5 والصلاة والزكاة من العبادة فقوله { آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ } البقرة 277 كقوله { وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ } البينة 5 فإنه قصد أولا أن تكون العبادة لله وحده لا غيره ثم أمر بالصلاة والزكاة ليعلم أنهما عبادتان واجبتان فلا يكتفى بمطلق العبادة الخالصة دونهما وكذلك يذكر الإيمان أولا لأنه الأصل الذي لابد منه ثم يذكر العمل الصالح فإنه أيضا من تمام الدين لابد منه فلا يظن الظان اكتفائه بمجرد إيمان ليس معه العمل الصالح فعلى قول هؤلاء يقال الأعمال الصالحة المعطوفة على الإيمان دخلت في الإيمان وعطف عليه عطف الخاص على العام إما لذكره خصوصا بعد عموم وإما لكونه إذا عطف كان دليلا على أنه لم يدخل في العام وقيل بل الأعمال في الأصل ليست من الإيمان فإن أصل الإيمان هو ما في القلب ولكن هي لازمة له فمن لم يفعلها كان إيمانه منتفيا لأن إنتفاء اللازم يقتضى إنتفاء الملزوم لكن صارت بعرف الشارع داخلة في إسم الإيمان إذا أطلق كما تقدم في كلام النبي فإذا عطف عليه ذكرت لنلا يظن الظان أن مجرد إيمانه بدون الأعمال الصالحة اللازمة للإيمان يوجب الوعد فكان ذكرها تخصيصا وتنصيحا ليعلم أن الثواب الموعود به في الآخرة وهو الجنة بلا عذاب لا يكون إلا لمن آمن وعمل صالحا لا يكون لمن ادعى الإيمان ولم يعمل وقد بين سبحانه في غير موضع أن الصادق في قوله آمنت لابد أن يقوم بالواجب وحصر الإيمان في هؤلاء يدل على إنتفائه عن سواهم¹²⁰

أن القلب له عمل مع التصديق والظاهر قول ظاهر وعمل ظاهر وكلاهما مستلزم للباطن و المرجئة أخرجوا العمل الظاهر عن الايمان فمن قصد منهم إخراج أعمال القلوب أيضا وجعلها هي التصديق فهذا ضلال بين ومن قصد إخراج العمل الظاهر قيل لهم العمل الظاهر لازم للعمل الباطن لا ينفك عنه وإنتفاء الظاهر دليل إنتفاء الباطن فبقى النزاع في أن العمل الظاهر هل هو جزء من مسمى الايمان يدل عليه بالتضمن أو لازم لمسمى الإيمان و التحقيق أنه تارة يدخل في الاسم وتارة يكون لازما للمسمى بحسب افراد الاسم واقتارانه فإذا قرن الإيمان بالإسلام كان مسمى الاسلام خارجا عنه كما في حديث جبريل وان كان لازما له وكذلك إذا قرن الإيمان بالعمل كما في قوله {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} البقرة 82 فقد يقال إسم الإيمان لم يدخل فيه العمل وإن كان لازما له وقد يقال بل دخل فيه وعطف عليه عطف الخاص على العام وبكل حال فالعمل تحقيق لمسمى الإيمان وتصديق له ولهذا قال طائفة من العلماء كالشيخ أبي إسماعيل الأنصاري وغيره الإيمان كله تصديق فالقلب يصدق ما جاءت به الرسل واللسان يصدق ما في القلب والعمل يصدق القول كما يقال صدق عمله قوله ومنه قول النبي العينا تزيان وزناها النظر والاذنان تزيان وزناها السمع واليد تزيان وزناها البطش والرجل تزيان وزناها المشي والقلب يتمنى ويشتهي والفرج يصدق ذلك أو يكذبه¹²¹

قال تعالى {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ} التوبة 33 فالهدى كمال العلم ودين الحق كمال العمل كقوله {إِنَّ الدِّينَ أَمْنًا وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ} هود 23¹²²

علق الوعد بالجنة باسم الايمان المطلق والمقيد بالعمل الصالح

فان الله لم يعلق وعد الجنة الا باسم الايمان لم يعلقه باسم الإسلام مع إيجابه الإسلام واخباره أنه دينه الذي ارتضاه وأنه لا يقبل دينا غيره ومع هذا فما قال ان الجنة أعدت للمسلمين ولا قال وعد الله المسلمين بالجنة بل انما ذكر ذلك باسم الايمان كقوله {وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} التوبة 72 فهو يعلقها باسم الايمان المطلق أو المقيد بالعمل الصالح كقوله {إِنَّ الدِّينَ أَمْنًا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأُخْبِتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} هود 23

الآيات في هذا المعنى كثيرة فالوعد بالجنة والرحمة في الآخرة وبالسلامة من العذاب علق باسم الايمان المطلق والمقيد بالعمل الصالح ونحو ذلك وهذا كما تقدم أن المطلق يدخل فيه فعل ما أمر الله به ورسوله ولم يعلق باسم الإسلام فلو كان من اتى من الايمان بما يقدر عليه وعجز عن معرفة تفاصيله قد يسمى مسلما لا مؤمنا لكان من اهل الجنة وكانت الجنة يستحقها من يسمى مسلما وان لم يسم مؤمنا وليس الأمر كذلك بل الجنة لم تعلق الا باسم الايمان وهذا أيضا مما

¹²¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 556

¹²²مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 59

إستدل به من قال إنه ليس كل مسلم من المؤمنين الموعودين بالجنة اذ لو كان الأمر كذلك لكان وعد الجنة معلقا باسم الإسلام كما علق باسم الايمان وكما علق باسم التقوى واسم البر في مثل قوله {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ} المرسلات 41 وقوله {إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ} المطففين 22 وباسم أولياء الله كقوله {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} {62} الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} {63} لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} {64} يونس 62-64 فلما لم يجر اسم الإسلام هذا المجرى علم أن مسماه ليس ملازما لمسمى الايمان كما يلزمه اسم البر والتقوى وأولياء الله وأن اسم الإسلام يتناول من هو من أهل الوعيد وان كان الله يثيبه على طاعته مثل أن يكون في قلبه ايمان ونفاق يستحق به العذاب فهذا يعاقبه الله ولا يخلده في النار لأن في قلبه مثقال ذرة أو أكثر من مثقال ذرة من ايمان

123

"إن النور إذا دخل القلب إنشرح وإنفسح"

قال أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كل من عمل سوءا فهو جاهل وسبب ذلك أن العلم الحقيقي الراسخ في القلب يمتنع أن يصدر معه ما يخالفه من قول أو فعل فمتى صدر خلافه فلا بد من غفلة القلب عنه أو ضعف القلب عن مقاومة ما يعارضه وتلك أحوال تناقض حقيقة العلم فيصير جهلا بهذا الاعتبار ومن هنا تعرف دخول الأعمال في مسمى الإيمان حقيقة لا مجازا وإن لم يكن كل من ترك شيئا من الأعمال كافرا أو خارجا عن أصل مسمى الإيمان وكذلك اسم العقل ونحو ذلك من الأسماء ولهذا يسمى الله تعالى أصحاب هذه الأحوال موتى وعميا وصما وبكما وضالين وجاهلين ويصفهم بأنهم لا يعقلون ولا يسمعون ويصف المؤمنين بأولي الألباب والنهي وأنهم مهتدون وأن لهم نورا وأنهم يسمعون ويعقلون¹²⁴

وقد روى أبو هريرة عن النبي أنه قال إن العبد إذا أذنب نكتت في قلبه نكتة سوداء فان تاب ونزع واستغفر صقل قلبه وإن زاد زيد فيها حتى يعلو قلبه فذلك الران الذي ذكر الله {كَأَلَّا بِلَّ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} المطففين 14 رواه الترمذى وصححه وفي الصحيح انه قال انه ليغان على قلبي وإنى لأستغفر الله في اليوم مائة مرة والغين حجاب رقيق أرق من الغيم فأخبر أنه يستغفر الله استغفاراً يزيل الغين عن القلب فلا يصير نكتة سوداء كما أن النكتة السوداء إذا أزيلت لاتصير رينا وقال حذيفة إن الإيمان يبدو في القلب لمطة بيضاء فكلما إزداد العبد إيمانا إزداد قلبه بيضاء فلو كشفتم عن قلب المؤمن لرأيتموه أبيض مشرقا وإن النفاق يبدو منه لمطة سوداء فكلما إزداد العبد نفاقا إزداد قلبه سوادا فلو كشفتم عن قلب المنافق لوجدتموه أسود مربدا وقال صلى الله عليه وسلم إن النور إذا دخل القلب إنشرح وإنفسح قيل فهل لذلك من علامة يا رسول الله قال نعم التجافى عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والإستعداد للموت قبل نزوله وفي خطبة الإمام أحمد التي كتبها في كتابه في الرد على الجهمية والزنادقة قال الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلى الهدى ويصبرون منهم

¹²³مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 348

¹²⁴اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 78

على الأذى يحيون بكتاب الله الموتى ويبصرون بنور الله أهل العمى فكم من قتيل لأبليس قد أحيوه وكم من ضال تائه حيران قد هدوه فما أحسن أثرهم على الناس وأقبح أثر الناس عليهم ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين الذين عقدوا ألوية البدعة وأطلقوا عنان الفتنة فهم مختلفون في الكتاب مخالفون للكتاب مجمعون على مفارقة الكتاب يقولون على الله وفي الله وفي كتاب الله بغير علم يتكلمون بالمتشابه من الكلام ويخدعون جهال الناس بما يشبهون عليهم نعوذ بالله من شبه المضلين قلت وقد قرن الله سبحانه في كتابه في غير موضع بين أهل الهدى والضلال وبين أهل الطاعة والمعصية بما يشبه هذا كقوله تعالى { وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ {19} وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ {20} وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحَرُورُ {21} وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ {22} } فاطر 19-22 وقال { **مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ** } هود 24 وقال في المنافقين { **مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ** } 17 { **صُمُّكُمْ كُمِّي فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ** } 18 { البقرة 17-18 وقال { **اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ** } البقرة 257 الآية وقال { **الرَّ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ** } إبراهيم 1 والآيات في ذلك كثيرة

125

نفى المساواة بين الذي يعلم والذي لا يعلم مطلقا

ومن الفرقان أنه فرق بين أهل الحق المهتدين المؤمنين المصلحين أهل الحسنات وبين أهل الباطل الكفار الضالين المفسدين أهل السيئات

126

وقوله { **مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ** } هود 24 فنفي المساواة بين الذي يعلم والذي لا يعلم مطلقا لم يستثن المعذور كما استثنى في تفضيل المجاهد على القاعد المعذور وكذلك سائر ما في القرآن من نحو هذا كقوله تعالى { **وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ {19} وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ {20} وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحَرُورُ {21} وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ {22} } فاطر 19-22 ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق عليه إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر لم يجعل أجر العاجز على إصابة الصواب مع اجتهاده كأجر القادر عليه كما جعل للمريض والمسافر مثل ثواب الصحيح المقيم كما جعل المعذور من القاعدين عن الجهاد الذي تمت رغبته بمنزلة المجاهد فإن الأصل هو القلب والبدن تابع فالمستويان في عمل القلب إذا فعل كل منهما بقدر بدنه متماثلان بخلاف المتفاضلين في عمل القلب علمه وإرادته وما يتبع ذلك فإنهما لا يتماثلان ولهذا يعاقب العبد على ما تركه من الإيمان بقلبه وإن قيل إن ذلك تكليف ما لا يطاق ولا يعاقب على ما عجز عنه بدنه باتفاق المسلمين فهو يعاقب على ترك ما أمر بإرادته وفعله وإن كانت نفسه لا تريده ولا تحبه وليس هو معاقبا على ترك ما عجز عنه بدنه كجهاد المقعد والأعمى ونحوهما ونفسه إنما لا تعلم الحق الذي بعث الله به رسله ولا تريده لتقريطه وتعديه إذ آيات ذلك الحق**

25مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 284

26مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 13

ظاهره وهو محبوب وقد خلق الله كل مولود على الفطرة التي تتضمن القوة على معرفة هذا الحق وعلى محبته ولكن غير فطرته بما يقلده عن غيره كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق عليه كل مولود يولد على الفطرة فأبوه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء وإذا كان قد خلق على الصحة والسلامة فهو يستحق العقوبة على ما غيره من خلق الله بتفريطه وعدوانه لاتباعه الظن وما تهوى الأنفس¹²⁷

لطائف لغوية

1- قال تعالى {الر كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَبِيرٍ} {1} أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ} {2} هود 1-2 حكيم منزله عن السفه¹²⁸

2- وقال تعالى { وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ} هود 3 قال تعالى { لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى {15} الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى} {16} { الليل 15-16 أى كذب بالخبر وتولى عن طاعة الأمر وانما على الخلق أن يصدقوا الرسل فيما أخبروا ويطيعوهم فيما أمروا وكذلك قال فى فرعون {فَكَذَّبَ وَعَصَى} {النازعات 21} وقال عن جنس الكافر { فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى} {31} وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى} {32} القيامة 31-32 فالتكذيب للخبر والتولى عن الأمر وانما الايمان تصديق الرسل فيما أخبروا وطاعتهم فيما أمروا ومنه قوله { إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا} {15} {فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً} {16} {المزمل 15-16} ولفظ التولى بمعنى التولى عن الطاعة مذكور فى مواضع من القرآن كقوله { سُدُّوْا إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُوهُمْ أَوْ يُسَلِّمُوا أَوْ يُسَلِّمُوا فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمْ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} {الفتح 16} ودمه فى غير موضع من القرآن من تولى دليل على وجوب طاعة الله ورسوله وان الأمر المطلق يقتضى وجوب الطاعة ودم المتولى عن الطاعة كما علق بـمطلق المعصية فى مثل قوله {فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ} {16} {المزمل 16}¹²⁹

3- قال تعالى {إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} هود 4 فإن ما تعلقت به المشيئة تعلقت به القدرة فإن ما شاء الله كان ولا يكون شيء إلا بقدرته وما تعلقت به القدرة من الموجودات تعلقت به المشيئة فإنه لا يكون شيء إلا بقدرته ومشيئته وما جاز أن تتعلق به القدرة

¹²⁷رسالة فى التوبة ج: 1 ص: 242-244

¹²⁸الجواب الصحيح ج: 4 ص: 407

¹²⁹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 60

جاز أن تتعلق به المشيئة وكذلك بالعكس ومالا فلا و لهذا قال {إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} البقرة 20 والشيء في الأصل مصدر شاء يشاء شيئاً كنال ينال نيلاً ثم وضعوا المصدر موضع المفعول فسموا المشيء شيئاً كما يسمى المنيل نيلاً فقالوا نيل المعدن و كما يسمى المقذور قدرة والمخلوق خلقاً فقلوه {عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} البقرة 20 أي على كل ما يشاء فمنه ما قد شيء فوجد و منه ما لم يشأ لكنه شيء في العلم بمعنى أنه قابل لأن يشاء و قوله {عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ} البقرة 20 يتناول ما كان شيئاً في الخارج والعلم أو ما كان شيئاً في العلم فقط بخلاف مالا يجوز أن تتناوله المشيئة وهو الحق تعالى و صفاته أو الممتنع لنفسه فإنه غير داخل في العموم ولهذا إتفق الناس على أن الممتنع لنفسه ليس بشيء¹³⁰

4- قال تعالى {إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} هود 4 قدير منزه عن العجز والضعف¹³¹

5- قال تعالى {أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتُونِ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينٍ يَسْتَعْشُونَ تِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} هود 5 وفي الصحيح عن النبي أنه قال ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله الحديث إلى آخره فذكر أربعة غشيان الرحمة وهي أن تغشاهم كما يغشى اللباس لابسها كما يغشى الرجل المرأة والليل النهار ثم قال ونزلت عليهم السكينة وهو انزالها في قلوبهم وحفتهم الملائكة أي جلست حولهم وذكرهم الله فيمن عنده من الملائكة وذكر الله الغشيان في مواضع مثل قوله تعالى {يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ} الأعراف 54 وقوله {فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمَلًا خَفِيًّا} الأعراف 189 وقوله {وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى} {53} {فَغَشَّاهَا مَا عَشَى} {54} {النجم 53-54} وقوله {أَلَا حِينٍ يَسْتَعْشُونَ تِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ} هود 5 هذا كله فيه احاطة من كل وجه¹³²

6- قال تعالى {أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتُونِ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينٍ يَسْتَعْشُونَ تِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} هود 5 وأما لفظ الذات فانها في اللغة تأنيث ذو فإذا كان الموصوف مذكرا قيل ذو كذا وإن كان مؤنثا قيل ذات كذا كما يقال ذات سوار وهذا اللفظ يستعمل مضافا الى اسماء الاجناس يتوصلون به الى الوصف بذلك فيقال شخص ذو علم وذو مال وشرف ويعنى حقيقته أو عين أو نفس ذات علم وقدرة وسلطان ونحو ذلك وقد يضاف الى الاعلام كقولهم ذو عمرو وذو الكلاع وقول عمر الغنى بلال وذووه قال تعالى {فَاتَّقُوا}

¹³⁰مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 383

¹³¹الجواب الصحيح ج: 4 ص: 407

¹³²مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 250

اللَّهُ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ { الأنفال 1 } وقوله { عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ } هود 5 أى الخصلة والجهة التى هى صاحبة بينكم و عليم بالخواطر ونحوها التى هى صاحبة الصدور¹³³

7- قال تعالى { وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ } هود 6 والرزق يراد به شئان أحدهما ما ينتفع به العبد و الثانى ما يملكه العبد فهذا الثانى هو المذكور في قوله { وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ } البقرة 3 و قوله { أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ } البقرة 254 و هذا هو الحلال الذي ملكه الله إياه و أما الأول فهو المذكور في قوله { وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا } هود 6 و قوله إن نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها و نحو ذلك و العبد قد يأكل الحلال و الحرام فهو رزق بهذا الإعتبار لا بالإعتبار الثانى و ما اكتسبه و لم ينتفع به هو رزق بالإعتبار الثانى دون الأول فإن هذا فى الحقيقة مال و ارثه لاماله و الله أعلم¹³⁴

8- قال تعالى { وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ } هود 7 في آيات ذكر الله سبحانه وتعالى السموات والارض وما بينهما و لم يذكر وما بينهما في آيات اخر فالسموات والارض قد يراد بهما العلو والسفل مطلقا فيدخل في ذلك الهواء وغيره فإنه عال بالنسبة إلى ما تحته وسافل بالنسبة إلى ما فوقه فقد يجعل من السماء كما يجعل السحاب سماء والسقف سماء كما قال تعالى { وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ } هود 7 و لم يقل وما بينهما كما يقول { الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا } الفرقان 59 فتارة يذكر قوله وما بينهما فيما خلقه في ستة ايام وتارة لا يذكره وهو مراد فإن ذكره كان إيضاحا وبيانا وإن لم يذكره دخل في لفظ السموات والارض¹³⁵

9- قال تعالى { وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا

¹³³مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 341 والصفدية ج: 1 ص: 109 و مجموع الفتاوى ج: 3 ص:

¹³⁴مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 541

¹³⁵الحسنة والسيئة ج: 1 ص: 156

سِحْرٌ مُّبِينٌ {هود7} وهذه اللام الأولى تسمى اللام الموطئة للقسم واللام الثانية تسمى لام جواب القسم والكلام إذا اجتمع فيه شرط وقسم وقدم القسم سد جواب القسم مسد جواب الشرط والقسم

136

10- قال تعالى { وَلَئِن أَخَّرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَّا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } {8} وَلَئِن أَدَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيُؤُوسٌ كَفُورٌ {9} وَلَئِن أَدَقْنَا نَعْمَاءً بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسْنَهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ {10} هود8-10 وهذه اللام الأولى تسمى اللام الموطئة للقسم واللام الثانية تسمى لام جواب القسم والكلام إذا اجتمع فيه شرط وقسم وقدم القسم سد جواب القسم مسد جواب الشرط والقسم جميعا وادخلت اللام الموطئة على اداة الشرط ونظير اللام الموطئة في قوله { وَلَئِن أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ } البقرة145 ونظير هذه الآية قوله { وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ } العنكبوت10 وقوله { وَلَئِن شِئْنَا لَنذَهِبَنَّ بِالَّذِي أُوحِيَآ إِلَيْكَ } الإسراء86¹³⁷

11- قال تعالى { وَلَئِن أَدَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيُؤُوسٌ كَفُورٌ } {9} وَلَئِن أَدَقْنَا نَعْمَاءً بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسْنَهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ {10} إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا } {11} هود9-11 ورحمته اسم جامع لكل خير ودار الرحمة الخالصة هي الجنة¹³⁸

12- قال تعالى { فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ } هود14 لفظ العلم يضاف تارة إلى العلم وتارة إلى المعلوم فالأول كقوله { بِعِلْمِ اللَّهِ }¹³⁹

136 الجواب الصحيح ج: 2 ص: 121

137 الرد على المنطقيين ج: 1 ص: 453 و الجواب الصحيح ج: 2 ص: 121

138 مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 65

139 الحسنة والسيئة ج: 1 ص: 137

13- قال تعالى { فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } هود14 أن الاسلام دين و الدين مصدر دان يدين ديننا اذا خضع وذل و دين الاسلام الذى ارتضاه الله وبعث به رسله هو الاستسلام لله وحده فاصله فى القلب هو الخضوع لله وحده بعبادته وحده دون ما سواه فمن عبده و عبد معه الها آخر لم يكن مسلما ومن لم يعبده بل استكبر عن عبادته لم يكن مسلما والاسلام هو الإستسلام لله وهو الخضوع له والعبودية له هكذا قال اهل اللغة اسلم الرجل اذا استسلم فالاسلام فى الاصل من باب العمل عمل القلب والجوارح

140

14- قال تعالى { أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِن أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ } هود17 ورحمته اسم جامع لكل خير ودار الرحمة الخالصة هى الجنة¹⁴¹

15- قال تعالى { أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِن أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ } هود17 وذكر كتاب موسى بهذه الإضافة لا بلفظ التوراة في غير موضع¹⁴²

16- قال تعالى { الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ } هود19 يستعمل لازما يقال صد صدودا اي اعرض كما قال تعالى { وَإِذَا قِيلَ لَهُم تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا } النساء61 ويقال صد غيره يصده والوصفان يجتمعان فيهم¹⁴³

140مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 271

141مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 65

142الجواب الصحيح ج: 5 ص: 243

143مجموع الفتاوى ج: 9 ص: 42 و مجموع الفتاوى ج: 18 ص: 61

17- قال تعالى { أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ } هود 20

وأما لفظ المعجز فإنما يدل على أنه أعجز غيره¹⁴⁴

19- قال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } هود 23 ان الجنة هي الدار الجامعة لكل نعيم واعلى ما فيها النظر الى وجه الله وهو من النعيم الذي ينالونه فى الجنة كما اخبرت به النصوص وكذلك اهل النار فانهم محجوبون عن ربهم يدخلون النار¹⁴⁵

20- قال تعالى { مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ } هود 24 التسوية جعل الشينين سواء كما قال { وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ } فاطر 19¹⁴⁶

¹⁴⁴الجواب الصحيح ج: 5 ص: 418

¹⁴⁵مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 65

¹⁴⁶مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 136

هود 25-49

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ} {25} {أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ} {26} {فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادْنَا بِآدِي الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ} {27} {قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمْوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ} {28} {وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ} {29} {وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} {30} {وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ} {31} {قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ} {32} {قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ} {33} {وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} {34} {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلِيَ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرَمُونَ} {35} {وَأَوْحِي إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} {36} {وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ} {37} {وَيَصْنَعِ الْفُلْكَ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ} {38} {فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ} {39} {حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ} {40} {وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنْ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ} {41} {وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ} {42} {قَالَ سَاوِيَ إِلَىٰ جِبَلٍ يَْعَصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ} {43} {وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَفْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} {44} {وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ} {45} {قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ} {46} {قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا

تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ {47} قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا
وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَّةٍ مِّمَّن مَعَكَ وَأُمَّةٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ
أَلِيمٌ {48} تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ
مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ {49}

الدعوة الى توحيد الله عز وجل

قال تعالى {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ {25} أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ
عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ أَلِيمٍ {26} هود 25-26 ان الناس كانوا بعد آدم عليه السلام وقبل نوح عليه
السلام على التوحيد والاخلاص كما كان عليه ابوهم آدم ابو البشر عليه السلام حتى ابتدعوا
الشرك وعبادة الأوثان بدعة من تلقاء انفسهم لم ينزل الله بها كتابا ولا ارسل بها رسولا بشبهات
زينها الشيطان من جهة المقاييس الفاسدة والفلسفة الحائذة قوم منهم زعموا ان التماثيل طلاس
الكواكب السماوية والدرجات الفلكية والأرواح العلوية وقوم اتخذوها على صورة من كان فيهم
من الانبياء والصالحين وقوم جعلوها لأجل الارواح السفلية من الجن والشياطين وقوم على
مذاهب أخر واكثرهم لرؤسائهم مقلدون وعن سبيل الهدى ناكبون فابتعث الله نبيه نوحا عليه
السلام يدعوهم الى عبادة الله وحده لا شريك له وينهاهم عن عبادة ما سواه وان زعموا انهم
يعبدونهم ليتقربوا بهم الى الله زلفى ويتخذوهم شفعاء فمكث فيهم الف سنة الا خمسين عاما فلما
اعلمه الله انه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن دعا عليهم فاغرق الله تعالى اهل الارض بدعوته
وجاءت الرسل بعده تترى¹⁴⁷

الغاية التي فيها صلاح للنفس

قال تعالى {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ {25} أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ
عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ أَلِيمٍ {26} هود 25-26 ومحبته الله وتوحيده هو الغاية التي فيها صلاح للنفس
وهو عبادة الله وحده لا شريك له فلا صلاح للنفس ولا كمال لها إلا في ذلك وبدون ذلك تكون
فاسدة لا صلاح لها ولهذا كان هذا هو دين الإسلام الذي اتفقت عليه الرسل قال الله تعالى
{وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} آل عمران 85 وقد قال
تعالى {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} الذاريات 56 فالغاية الحميدة التي بها يحصل
كمال بني آدم وسعادتهم ونجاتهم عبادة الله وحده وهي حقيقة قول القائل لا إله إلا الله ولهذا بعث
الله جميع الرسل وأنزل جميع الكتب ولا تصلح النفس وتزكو وتكمل إلا بهذا ولفظ العبادة
يتضمن كمال الذل بكمال الحب فلا بد أن يكون العابد محبا للإله المعبود كمال الحب ولا بد أن
يكون ذليلا له كمال الذل فمن احب شيئا ولم يذل له لم يعبده ومن خضع له ولم يحبه لم يعبده
وكمال الحب والذل لا يصلح إلا لله وحده فهو الإله المستحق للعبادة التي لا يستحقها إلا هو وذلك
يتضمن كمال الحب والذل والإجلال والإكرام والتوكل والعبادة فالنفوس محتاجة إلى الله من حيث
هو معبودها ومنتهى مرادها وبغيتها ومن حيث هو ربها وخالقها فمن آمن بالله رب كل شيء
وخالقه ولم يعبد إلا الله وحده بحيث يكون الله أحب إليه من كل ما سواه وأخشى عنده من كل ما

سواه وأعظم عنده من كل ما سواه وأرجى عنده من كل ما سواه بل من سوى بين الله وبين بعض المخلوقات في الحب بحيث يحبه مثل ما يحب الله ويخشاه مثل ما يخشى الله ويرجوه مثل ما يرجو الله ويدعوه مثل ما يدعوه فهو مشرك الشرك الذي لا يغفره الله ولو كان مع ذلك عفيفا في طعامه ونكاحه وكان حكيما شجاعا¹⁴⁸

"ضعفوا هم أتباع الرسل"

قال تعالى { فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَاكَ إِلَّا بَشْرًا مَثَلًا وَمَا تَرَاكَ إِلَّا تَتَّبِعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادْنَا بِأَدْبَارِ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ } 27 { قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ فَعَمَّيْتُ عَلَيْكُمْ أَنْلَزْتُ مَكْمُومَهَا وَآتَانِي لَهَا كَارِهُونَ } 28 { وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ } 29 { وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ } 30 { هود 27-30

كان سعد وابن مسعود وصهيب وبلال وغيرهم من المستضعفين وطلب المشركون من النبي صلى الله عليه وسلم طردهم فنهاه الله عن ذلك وأنزل { وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِّن شَيْءٍ } الأنعام 52 إلى قوله { أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ } الأنعام 53 وقوله { وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا } الكهف 28 وقال في المستضعفين من المؤمنين { إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ } 29 { وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَرُونَ } 30 { وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ } 31 { وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُونَ } 32 { وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ } 33 { فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ } 34 { عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ } 35 { المطففين 29-34 وقال { زَيْنٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ } البقرة 212 وقال { وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تُسْتَكْبِرُونَ } 48 { أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ } 49 { الأعراف 48-49 وقال { وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِّنَ الْأَشْرَارِ } 62 { اتَّخَذْنَا هُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ } 63 { ص 62-63 وقال عن قوم نوح { قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ } الشعراء 111 وقال تعالى { فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَاكَ إِلَّا بَشْرًا مَثَلًا وَمَا تَرَاكَ إِلَّا تَتَّبِعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادْنَا بِأَدْبَارِ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ } هود 27 وقال عن قوم صالح { قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ } 75 { قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ } 76 { الأعراف 75-76 وفي الصحيحين أن هرقل سأل أبا سفيان بن حرب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال أشرف الناس اتبعوه أم ضعفوا هم قال بل ضعفوا هم قال هم أتباع الرسل¹⁴⁹

¹⁴⁸الجواب الصحيح ج: 6 ص: 32

¹⁴⁹منهاج السنة النبوية ج: 8 ص: 544-545

الكفار بالرسول يزعمون أن لهم العقل والرأي والقياس العقلي

{ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّئَابِ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ } هود 27

والكفار بالرسول من قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وشعيب وقوم إبراهيم وموسى ومشركي العرب والهند والروم والبربر والترك واليونان والكشديانيين وسائر الأمم المتقدمين والمستأخرين يتبعون ظنونهم واهواءهم ويعرضون عن ذكر الله الذي آتاهم من عنده كما قال لهم لما اهبط آدم من الجنة { فَأَمَّا يَا تِيبُكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } {38} وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } {39} البقرة 38-39 وفي موضع آخر { فَأَمَّا يَا تِيبُكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى } {123} وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى } {124} طه 123-124 الآية وفي أخرى { إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي } {الأعراف 35} ثم إنهم مع أنهم ما نزل الله بما هم عليه من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الانفس يزعمون أن لهم العقل والرأي والقياس العقلي والأمثال المضروبة ويسمون أنفسهم الحكماء والفلاسفة ويدعون الجدل والكلام والقوة والسلطان والمال ويصفون اتباع المرسلين بأنهم سفهاء وراذل وضلال ويسخرون منهم قال الله تعالى عن قوم نوح { فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّئَابِ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ } هود 27 { قَالُوا أَنْوْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْدَلُونَ } الشعراء 111¹⁵⁰

المسلك الشخصي استدل به هرقل ملك الروم

والمسلك الشخصي استدل به هرقل ملك الروم فإن النبي صلى الله عليه وسلم لما كتب إليه كتابا يدعوه فيه إلى الإسلام طلب هرقل من كان هنا من العرب وكان أبو سفيان قد قدم في طائفة من قريش في تجارة إلى غزة فطلبهم وسألهم عن أحوال النبي صلى الله عليه وسلم فسأل أبا سفيان وأمر الباقيين إن كذب أن يكذبوه فصار يجدهم موافقين له في الأخبار فسألهم ثم أردف ذلك بالسؤال عن علامات الصدق فقال وسألتكم أضعفاء الناس يتبعونه أم أشرافهم فقلتم ضعفاؤهم وهم اتباع الرسل قال فهذه علامات من علامات الرسل وهو اتباع الضعفاء له ابتداء قال الله تعالى حكاية عن قوم نوح { فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّئَابِ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ } {27} قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْتَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِي فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنْزِلْ كُفُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ } {28} وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَأُوا رُبَّهُمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ } {29} وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ } {30} هود 27-30 { قَالُوا أَنْوْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْدَلُونَ } الشعراء 111¹⁵¹

¹⁵⁰مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 11

¹⁵¹العقيدة الأصفهانية ج: 1 ص: 126-127

أخبر انه لم ينج من العذاب الا المؤمنين

وقد صار الناس فى مسمى الاسلام على ثلاثة أقوال قيل هو الإيمان وهما إسمان لمسمى واحد وقيل هو الكلمة وهذان القولان لهما وجه سنذكره لكن التحقيق ابتداء هو ما بينه النبي صلى الله عليه وسلم لما سئل عن الاسلام والايمان ففسر الاسلام بالاعمال الظاهرة والايمان بالإيمان بالاصول الخمسة فليس لنا اذا جمعنا بين الاسلام والايمان أن نجيب بغير ما أجاب به النبي وأما اذا أفرد اسم الايمان فانه يتضمن الاسلام واذا أفرد الاسلام فقد يكون مع الاسلام مؤمنا بلا نزاع وهذا هو الواجب وهل يكون مسلما ولا يقال له مؤمن قد تقدم الكلام فيه وكذلك هل يستلزم الاسلام للايمان هذا فيه النزاع المذكور وسنبينه والوعد الذى فى القرآن بالجنة وبالنجاة من العذاب إنما هو معلق باسم الايمان وأما اسم الاسلام مجردا فما علق به فى القرآن دخول الجنة لكنه فرضه واخبر أنه دينه الذى لا يقبل من أحد سواه وبالاسلام بعث الله جميع النبيين قال تعالى {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ} آل عمران 19 وقال نوح { يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } هود 22 وقال هود { وَمَا أَمْرٌ إِلَّا لَدُنِّي وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ } هود 36 وقال نوح { وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَأَقُوا رَبَّهُمْ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ } هود 29 { وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ } هود 29-30¹⁵²

تعليم القرآن والعلم بغير أجره فهو أفضل الأعمال وأحبها إلى الله

قال تعالى { وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَأَقُوا رَبَّهُمْ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ } هود 29 أما تعليم القرآن والعلم بغير أجره فهو أفضل الأعمال وأحبها إلى الله وهذا مما يعلم بالإضطرار من دين الإسلام ليس هذا مما يخفى على أحد ممن نشأ بديار الإسلام والصحابة والتابعون وتابعوا التابعين وغيرهم من العلماء المشهورين عند الأمة بالقرآن والحديث والفقهاء إنما كانوا يعلمون بغير أجره ولم يكن فيهم من يعلم بأجرة أصلا فإن العلماء ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما وإنما ورثوا العلم فمن أخذه فقد أخذ بحظ وافر والأنبياء صلوات الله عليهم إنما كانوا يعلمون العلم بغير أجره كما قال نوح عليه السلام { وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ } الشعراء 109 وكذلك قال هود وصالح وشعيب ولوط وغيرهم وكذلك قال خاتم الرسل { قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ } ص 86 وقال { قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا } الفرقان 57 وتعليم القرآن والحديث والفقهاء وغير ذلك بغير أجره لم يتنازع العلماء فى أنه عمل صالح فضلا عن أن يكون جائزا بل هو من فروض الكفاية فإن تعليم العلم الذى بينه فرض على الكفاية كما قال النبي فى الحديث الصحيح بلغوا عنى ولو آية وقال ليبلغ الشاهد الغائب¹⁵³

¹⁵²مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 259-260

¹⁵³مجموع الفتاوى ج: 30 ص: 205

توسط البشر بالرسالة

وقال تعالى {وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ} {الزخرف 45} وقال {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ} {النحل 36} وقال تعالى وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ {الأنبياء 25} وقد اخبر الله عن اول الرسل نوح عليه السلام ومن بعده من الرسل انهم قالوا لقومهم {اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} {الأعراف 59} وقال نوح {وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ} {هود 31} وكذلك قال لخاتم الرسل {قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ} {الأنعام 50} فتوسط البشر بالرسالة مثل توسط الملك بالرسالة كما قال تعالى {اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} {الحج 75} ¹⁵⁴

من يزعم ان نبي او شخص ما ينطبق علمه على علم الله تعالى فهذا كفر

صريح وجهل قبيح

قال تعالى {وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ} {هود 31} فإن الأمر كله لله ¹⁵⁵

فمن يزعم ان نبي او شخص ما ينطبق علمه على علم الله تعالى وقدرته على قدرة الله تعالى فيعلم ما يعلمه الله ويقدر على ما يقدر عليه الله وزعم ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان كذلك وأن هذا انتقل عنه إلى الحسن وتسلسل إلى شيخه فبينت أن هذا كفر صريح وجهل قبيح وأن دعوى هذا في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كفر دع ما سواه وقد قال الله تعالى {وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ} {هود 31} ¹⁵⁶

صفات الكمال ترجع إلى ثلاثة العلم والقدرة والغنى وان شئت ان تقول العلم والقدرة والقدرة إما على الفعل وهو التأثير وإما على الترك وهو الغنى والأول اجود وهذه الثلاثة لا تصلح على وجه الكمال الا لله وحده فانه الذي احاط بكل شيء علما وهو على كل شيء قدير وهو غنى عن العالمين وقد امر الرسول ان يبرأ من دعوى هذه الثلاثة بقوله {قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ} {الأنعام 50}

¹⁵⁴الرد على المنطقيين ج: 1 ص: 538

¹⁵⁵الجواب الصحيح ج: 5 ص: 307

¹⁵⁶زيارة القبور ج: 1 ص: 75

وكذلك قال نوح عليه السلام **{وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ}** **{هود 31}** فهذا أول أولى العزم وأول رسول بعثه الله تعالى إلى أهل الأرض وهذا خاتم الرسل وخاتم أولى العزم كلاهما يتبرأ من ذلك وهذا لأنهم يطالبون الرسول تارة بعلم الغيب كقوله **{وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}** {الأنبياء 38} و **{يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي}** {الأعراف 187} وتارة بالتأثير كقوله **{وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً}** {90} أو **{أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا}** {91} أو **{تُسْقِطُ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِي بِلِقَاءِ رَبِّنَا وَمَا تَكُن لَّكَ بَيِّنَةٌ مِّنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا}** {93} {الإسراء 90-93} وتارة يعيبون عليه الحاجة البشرية كقوله **{وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا}** {7} أو **{يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا}** {8} {الفرقان 7-8} فأمره ان يخبر انه لا يعلم الغيب ولا يملك خزائن الله ولا هو ملك غنى عن الاكل والمال ان هو الا متبع لما اوحى اليه واتباع ما اوحى اليه هو الدين وهو طاعة الله وعبادته علما وعملا بالباطن والظاهر وانما ينال من تلك الثلاثة بقدر ما يعطيه الله تعالى فيعلم منه ما علمه اياه ويقدر منه على ما اقدره الله عليه ويستغنى عما اغناه الله عنه من الامور المخالفة للعادة المطردة او لعادة غالب الناس ¹⁵⁷

أن يقال الخوارق ثلاثة أنواع منها ما هو من جنس الغناء عن الحاجات البشرية ومنها ما هو من جنس العلم الخارج عن قوى البشر ومنها ما هو من جنس المقدرات الخارجة عن قدرة البشر ولهذا قال نوح عليه السلام وهو أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض **{وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ}** **{هود 31}** فالغناء من جنس الاستغناء عن الأكل والشرب مدة والعلم من جنس الإخبار عن الغيوب والقدرة من جنس الأفعال الشاقة ببذنه والتصرف في العناصر بالاستحالة والزلزلة ونحو ذلك ¹⁵⁸

دعاء الميت والغائب والاستغاثة به من افعال المشركين وعبادات الضالين

والشيوخ الذين يقتدى بهم يدلون عليه ويرشدون اليه بمنزلة الأئمة في الصلاة يصلون ويصلى الناس خلفهم وبمنزلة الدليل الذي للحاج هو يدلهم على البيت وهو وهم جميعا يحجون إليه ليس لهم من الالهية نصيب بل من جعل لهم شيئا من ذلك فهو من جنس النصارى المشركين الذين قال الله في حقهم **{اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ}** {التوبة 31} وقد قال نوح عليه السلام **{وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ}** **{هود 31}** وهكذا امر الله محمدا ان يقول فليس لأحد ان يدعو شيئا ميتا أو غائبا بل ولا يدعو ميتا ولا غائبا لا من الأنبياء ولا غيرهم فلا يقول لأحدهم يا سيدى فلان أنا فى حسبك او فى جوارك ولا يقول بك استغيث وبك

¹⁵⁷مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 312

¹⁵⁸الصفدية ج: 1 ص: 183

استجير ولا يقول إذا عثر يافلان ولا يقول محمد وعلى ولا الست نفيسة ولا سيدي الشيخ احمد ولا الشيخ عدى ولا الشيخ عبدالقادر ولا غير ذلك ولا نحو ذلك مما فيه دعاء الميت والغائب ومساأته والاستغاثة به والاستنصار به بل ذلك من افعال المشركين وعبادات الضالين ومن المعلوم ان سيد الخلق محمد وقد ثبت في صحيح البخارى ان الناس لما اجدبوا استسقى عمر بالعباس وقال اللهم انا إذا اجدبنا توسلنا اليك بنبينا فتسقينا وانا نتوسل بعم نبينا فاسقنا فيسقون فكانوا في حياة النبي يتوسلون بدعائه وشفاعته لهم كما يتوسل به الناس يوم القيامة ويستشفعون به إلى ربهم فيأذن الله له في الشفاعة فيشفع لهم الا ترى الله يقول {مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ} البقرة 255 وقال تعالى {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ رَزَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِنَّ مِنْ شَرِكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مَنْ ظَهِيرٌ} {22} وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ} {23} سبأ 22- 23 فبين سبحانه ان المخلوقات كلها ليس لأحد منها شيء في الملك ولا له شريك فيه ولا له ظهير اى معين الله تعالى كما تعاون الملوك وبين ان الشفاعة عنده لا تنفع الا لمن اذن له واذا كان يوم القيامة يجيء الناس إلى آدم ثم نوح ثم ابراهيم ثم موسى ثم عيسى فيطلبون الشفاعة منهم فلا يشفع لهم احد من هؤلاء الذين هم سادة الخلق حتى يأتوا محمدا صلى الله عليه وسلم فيأتى ربه فيحمده بمحامد ويسجد له فاذا اذن له في الشفاعة شفّع لهم فهذه حال هؤلاء الذين هم أفضل الخلق فكيف غيرهم فلما مات النبي لم يكونوا يدعون ولا يستغيثون به ولا يطلبون منه شيئا لا عند قبره ولا بعيدا من قبره بل ولا يصلون عند قبره ولا قبر غيره لكن يصلون ويسلمون عليه ويطيعون امره ويتبعون شريعته ويقومون بما احبه الله تعالى من حق نفسه وحق رسوله وحق عباده المؤمنين فانه قال لا تطرونى كما اطرت النصارى عيسى بن مريم فانما انا عبد فقولوا عبدالله ورسوله وقال اللهم لا تجعل قبرى وثنا يعبد

159

الرد على الذين يقولون ان الملائكة افضل من البشر

وها نحن نذكر ما احتجوا به قوله تعالى لنبيه {قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ} الأنعام 50 ومثله هود {وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ} هود 31 فالإحتجاج في هذا من وجوه أحدها أنه قرن استقرار خزائنه وعلم الغيب بنفى القول بأنه ملك وسلبها عن نفسه في نسق واحد فإذا كان حال من يعلم الغيب ويقدر على الخزائن أفضل من حال من لا يكون كذلك وجب أن يكون حال الملك أفضل من حال من ليس بملك وإن كان نبينا كما في الآية وثانيها أنه نفى عن نفسه حالا أعظم من حاله الثابتة ولم ينف حالا دون حاله لأن من اتصف بالأعلى فهو على ما دونه أقدر على أن حال الملك أفضل من حاله أن يكون ملكا وهو المطلوب وثالثها ما ذكر القاضى أنه لولا ما استقر في نفوس المخاطبين من أن الملك أعظم لما حسن مواجعتهم بسلب شيء هو دون مرتبته وهذا الإعتقاد الذي كان في نفوس المخاطبين أمر قرروا عليه ولم ينكره عليهم فنبت أنه حق والجواب من وجوه أحدها أنه نفى أن يكون عالما بالغيب وعنده خزائن الله ونفى أن يكون ملكا لا يأكل ولا يشرب ولا يتمتع واذا نفى ذلك عن نفسه لم يجب ان يكون الملك افضل منه الا ترى انه لو قال ولا أنا كاتب ولا أنا قارىء لم يدل على ان الكاتب والقارىء افضل ممن ليس بكاتب ولا قارىء فلم يكن في الآية حجة وأيضا ما قال القاضى أنهم طلبوا صفات الألوهية وهي العلم والقدرة والغنا وهي ان يكون عالما بكل شيء قديرا على كل شيء غنيا عن كل شيء فسلب عن نفسه صفات الألوهية ولهذا قالوا {مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي

الأسواق {الفرقان 7} وقال تعالى محتجا عنه {وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ} {الفرقان 20} فكانهم أرادوا منه صفة الملائكة أن يكون متلبسا بها فإن الملائكة لا يأكلون ولا يشربون والبشر لهم أجواف يأكلون ويشربون فكان الأمر الى هذه الصفة وهذا بين ان شاء الله وثانيها أن الآخر اكمل في امر من الامور فنفي عن نفسه حال الملك في ذلك ولم يلزم ان يكون له فضيلة يمتاز بها وقد تقدم مثل هذا فيما ذكر من حال الملك وعظمته وانه ليس للبشر من نوعه مثله ولكن لم لا قلت من غير نوعه للبشر ما هو افضل منه ولهذا اذا سئل الإنسان عما يعجز عنه قد يقول لست بملك وان كان المؤمن افضل من حال الجن والملك من الملوك وثالثها ان أقصى ما فيه تفضيل الملك في تلك الحال ولو سلم ذلك لم ينف أن يكون فيما بعد أفضل من الملك ولهذا تزيد قدرته وعلمه وغناه في الآخرة وهذا كما لو قال الصبي لا اقول انى شيخ ولا اقول انى عالم ومن الممكن ترقيه الى ذلك وأكمل منه¹⁶⁰

ذكر أقوال الكفار وحججهم وجوابها

ما في القرآن من ذكر أقوال الكفار وحججهم وجوابها فهذا كثير جدا فإنه يجادلهم تارة في التوحيد وتارة في النبوات وتارة في المعاد وتارة في الشرائع بأحسن الحجج وأكملها كما أخبر الله تبارك وتعالى عن أولي العزم من الرسل بمجادلة الكفار فقال تعالى عن قوم نوح {قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ} {32} قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ} {33} هود 32-33¹⁶¹

وأما لفظ المعجز فإنما يدل على أنه أعجز غيره¹⁶²

¹⁶⁰مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 382-384

¹⁶¹الجواب الصحيح ج: 1 ص: 230

¹⁶²الجواب الصحيح ج: 5 ص: 418

الإرادة في كتاب الله نوعان

إن الله سبحانه قد فرق بالقرآن وبالإيمان بين أمره الديني وخلق الكوني فإن الله سبحانه خالق كل شيء ورب كل شيء ومليكه سواء في ذلك الذوات وصفاتها وأفعالها وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن لا يخرج عن مشيئته شيء ولا يكون شيء إلا بمشيئته وقد ذكر الله في كتابه الفرق بين الإرادة والأمر والقضاء والاذن والتحريم والبعث والارسال والكلام والجعل بين الكوني الذي خلقه وقدره وقضاه وإن كان لم يأمر به ولا يحبه ولا يثبت أصحابه ولا يجعلهم من أوليائه المتقين وبين الديني الذي أمر به وشرعه واثاب عليه واکرمهم وجعلهم من أوليائه المتقين وحزبه المفلحين وجنده الغالبين وهذا من أعظم الفروق التي يفرق بها بين أولياء الله واعدائه فمن استعمله الرب سبحانه وتعالى فيما يحبه ويرضاه ومات على ذلك كان من أوليائه ومن كان عمله فيما يبغضه الرب ويكرهه ومات على ذلك كان من اعدائه فالإرادة الكونية هي مشيئته لما خلقه وجميع المخلوقات داخله في مشيئته وأرادته الكونية والإرادة الدينية هي المتضمنة لمحبهه ورضاه المتناولة لما أمر به وجعله شرعاً وديناً وهذه مختصة بالإيمان والعمل الصالح قال الله تعالى في الإرادة الكونية {فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ} الأنعام 125 وقال نوح عليه السلام لقومه **{وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ} هود 34** وقال تعالى **{ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ} الرعد 11** **{ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلُوا وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ} البقرة 253** وقال تعالى **{ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} يس 82** وقال تعالى في الإرادة الدينية **{ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ} البقرة 185** وقال في آية الطهارة **{ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} المائدة 6** وقال **{ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا} الأحزاب 33** ولما ذكر ما احله وما حرمه من النكاح قال **{ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} 26** **{ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا} 27** **{ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا} 28** النساء 26-28 وبهذا الجمع والتفريق تزول الشبهة في مسألة الأمر الشرعي هل هو مستلزم للإرادة الكونية أم لا فان التحقيق أنه غير مستلزم للإرادة الكونية القدرية وإن كان مستلزمًا للإرادة الدينية الشرعية¹⁶³

¹⁶³مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 266 و مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 25 و مجموع الفتاوى ج:

2 ص: 412 و منهاج السنة النبوية ج: 3 ص: 157 و الجواب الصحيح ج: 1 ص: 150 و أمراض القلوب ج: 1 ص: 46 و مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 582 و الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 23 و التحفة العراقية ج: 1 ص: 46 و رسالة في معنى كون الرب عادلاً ج: 1 ص:

127 و مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 440

أهل الكفر والمعصية لم يرد الله أن يخلق طاعتهم لكنه أمرهم بها

أن الإرادة نوعان إرادة أن يخلق وإرادة لما أمر به فأما المأمور به فهو مراد إرادة شرعية دينية متضمنة أنه يحب ما أمر به ويرضاه وهذا معنى قولنا يريد من عبده فهو يريد له كما يريد الأمر الناصح للمأمور المنصوح يقول هذا خير لك وأنفع لك وهو إذا فعله أحبه الله ورضيه والمخلوقات مرادة إرادة خلقية كونية وهذه الإرادة متضمنة لما وقع دون ما لم يقع وقد يكون الشيء مرادا له غير محبوب بل أراده لإفضائه إلى وجود ما هو محبوب له أو لكونه شرطا في وجود ما هو محبوب له

فهذه الإرادة الخلقية هي المذكورة في قوله تعالى {فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا} الأنعام 125 وفي قوله {وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ} هود 34 وفي قول المسلمين ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن وفي قوله {وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا} السجدة 13 وأمثال ذلك والإرادة الأمرية هي المذكورة في قوله {يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ} البقرة 185 وفي قوله {يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} 26 {وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا} 27 {يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا} 28 {النساء 26-28} وفي قوله {مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ} المائدة 6 وأمثال ذلك

وإذا قيل الأمر هل يستلزم الإرادة أم يأمر بما لا يريد قيل هو لا يستلزم الإرادة الأولى وهي إرادة الخلق فليس كل ما أمر الله به أراد أن يخلقه وأن يجعل العبد المأمور فاعلا له والقدرية تنفي أن يريد ذلك لأنه عندهم لا يجعل أحدا فاعلا ولا يخلق فعل أحد وأما أهل السنة فعندهم هو الذي جعل الأبرار أبرارا والمسلمين مسلمين وعندهم من أمره وجعله فاعلا للمأمور صار فاعلا له وإن لم يجعله فاعلا له لم يصير فاعلا له فأهل الإيمان والطاعة أراد منهم إيمانهم وطاعتهم أمرا وخلقاً فأمرهم بذلك وأعانهم عليه وجعلهم فاعلين لذلك ولولا إعانتهم على طاعته لما أطاعوه وأهل الكفر والمعصية أمرهم ولم يجعلهم مطيعين فلم يرد أن يخلق طاعتهم لكنه أمرهم بها وأرادها منهم إرادة شرعية دينية لكونها منفعة لهم ومصالحة إذا فعلوها ولم يرد هو أن يخلقها لما في ذلك من الحكمة وإذا كان يحبها بتقدير وجودها فقد يكون ذلك مستلزما لأمر يكرهه أو لفوات ما هو أحب إليه منه ودفعه أحب إليه من حصول ذلك المحبوب فيكون ترك هذا المحبوب لدفع المكروه أحب إليه من وجوده كما أن وجود المكروه المستلزم لوجود المحبوب يجعله مرادا لأجله إذا كان محبته له أعظم من محبته لعدم المكروه الذي هو الوسيلة وليس كل من نصحته بقولك عليك أن تعينه على الفعل الذي أمرته به فالأنبياء والصالحون دائما ينصحون الناس ويأمرونهم ويدلونهم على ما إذا فعلوه كان صلاحا لهم ولم يعاونونهم على أفعالهم وقد يكونون قادرين لكن مقتضى حكمتهم أن لا يفعلوا ذلك لأسباب متعددة والرب تعالى على كل شيء قدير لكن ما من شيء إلا وله ضد ينافيه وله لازم لا بد منه فيمتنع وجود الضدين معا أو وجود الملزوم بدون اللازم كل من الضدين مقدور لله والله قادر على أن يخلقه لكن بشرط عدم الآخر فأما وجود الضدين معا فممتنع لذاته فلا يلزم من كونه قادرا على كل منهما وجود أحدهما مع الآخر والعباد قد لا يعلمون التنافي أو التلازم فلا يكونون عالمين بالامتناع فيظنونهم ممكن الوجود مع حصول المحبوب المطلوب للرب وفرق بين العلم بالإمكان وعدم العلم بالامتناع وإنما عندهم عدم العلم بالامتناع لا العلم بالإمكان والعدم لا فاعل له فأتوا من عدم علمهم وهو الجهل

الذي هو أصل الكفر وهو سبحانه إذا اقتضت حكمته خلق شيء فلا بد من خلق لوازمه ونفي أصداده فإذا قال القائل لم يجعل معه الضد المنافي أو لم وجد اللازم كان لعدم علمه بالحقائق وهذا مثل أن يقول القائل هلا خلق زيدا قبل أبيه فيقال له يمتنع أن يكون ابنه ويخلق قبله أو يخلق حتى يخلق أبوه والناس تظهر لهم الحكمة في كثير من تفاصيل الأمور التي يتدبرونها كما تظهر لهم الحكمة في ملوحة ماء العين وعذوبة ماء الفم ومرارة ماء الأذن وملوحة ماء البحر وذلك يدلهم على الحكمة فيما لم يعلموا حكمته فإن من رأى إنسانا بارعا في النحو أو الطب أو الحساب أو الفقه وعلم أنه أعلم منه بذلك إذا أشكل عليه بعض كلامه فلم يفهمه سلم ذلك إليه فرب العالمين الذي بهرت العقول حكمته ورحمته الذي أحاط بكل شيء علما وأحصى كل شيء عددا وهو أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين وأرحم بعباده من الوالدة بولدها كيف لا يجب على العبد أن يسلم ما جهله من حكمته إلى ما علمه منها¹⁶⁴

الاعتلال بالقدر ذنب

قد أحاط ربنا سبحانه وتعالى بكل شيء علما وقدرة وحكما ووسع كل شيء رحمة وعلما فما من ذرة في السموات والأرض ولا معنى من المعاني إلا وهو شاهد لله تعالى بتمام العلم والرحمة وكمال القدرة والحكمة وما خلق الخلق باطلا ولا فعل شيئا عبثا بل هو الحكيم في أفعاله وأقواله سبحانه وتعالى ثم من حكمته ما أطلع خلقه بعضهم ومنه ما استأثر سبحانه بعلمه وإرادته قسما إرادة أمر وتشريع وإرادة قضاء وتقدير فالقسم الأول إنما يتعلق بالطاعات دون المعاصي سواء وقعت أو لم تقع كما في قوله { يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } النساء 26 وقوله { يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ } البقرة 185 وأما القسم الثاني وهو إرادة التقدير فهي شاملة لجميع الكائنات محيطة بجميع الحادثات وقد أراد من العالم ما هم فاعلوه بهذا المعنى لا بالمعنى الأول كما في قوله تعالى { فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا } الأنعام 125 وفي قوله { وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } هود 34 وفي قول المسلمين ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ونظائره كثيرة وهذه الإرادة تتناول ما حدث من الطاعات والمعاصي دون ما لم يحدث كما أن الأولى تتناول الطاعات حدثت أو لم تحدث والسعيد من أراد منه تشريعا ما أراد به تقديرا والعبد الشقي من أراد به تقديرا ما أراد به تشريعا والحكم يجري على وفق هاتين الإرادتين فمن نظر إلى الأعمال بهاتين العينين كان بصيرا ومن نظر إلى القدر دون الشرع أو الشرع دون القدر كان أعور مثل قريش الذين قالوا { لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ } الأنعام 148 قال الله تعالى { كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى دَاقُوا بِأَسْنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ } الأنعام 148 فإن هؤلاء اعتقدوا أن كل ما شاء الله وجوده وكونه وهي الإرادة القدرية فقد أمر به ورضيه دون الإرادة الشرعية ثم رأوا أن شركهم بغير شرع مما قد شاء الله وجوده قالوا فيكون قد رضيه وأمر به قال الله هكذا كذب الذين من قبلهم بالشرائع من الأمر والنهي حتى ذاقوا بأسنا { قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ

فَتُخْرِجُوهُ لَنَا { الأنعام148 بأن الله شرع الشرك وتحريم ما حرمته إن تتبعون في هذا إلا الظن وهو توهمكم أن كل ما قدره فقد شرعه { وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ { الأنعام148 أي تكذبون وتفرون بإبطال شريعته { قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ { الأنعام149 على خلقه حين أرسل الرسل إليهم فدعوهم إلى توحيده وشريعته ومع هذا فلو شاء هدى الخلق أجمعين إلى متابعة شريعته لكنه يمن على من يشاء فيهديه فضلا منه وإحسانا ويحرم من يشاء لأن المتفضل له أن يتفضل وله أن لا يتفضل فترك تفضله على من حرمه عدل منه وقسط وله في ذلك حكمة بالغة وهو يعاقب الخلق على مخالفة أمره وإرادته الشرعية وإن كان ذلك بإرادته القدرية فإن القدر كما جرى بالمعصية جرى أيضا بعقابها كما أنه سبحانه قد يقدر على العبد أمراضا تعقبه ألا ما فالمرض بقدره والألم بقدره فإذا قال العبد قد تقدمت الإرادة بالذنب فلا أعاقب كان بمنزلة قول المريض قد تقدمت الإرادة بالمرض فلا أتألم أو قد تقدمت الإرادة بأكل الحار فلا يحم مزاجي أو قد تقدمت بالضرب فلا يتألم المضروب وهذا مع أنه جهل فإنه لا ينفع صاحبه بل اعتلله بالقدر ذنب ثان يعاقب عليه أيضا وإنما اعتل بالقدر إبليس حيث قال { بِمَا أَغْوَيْتَنِي لِأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ { الحجر39 وأما آدم فقال { رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ { الأعراف23 فمن أراد الله سعادته ألهمه أن يقول كما قال آدم عليه السلام أو نحوه ومن أراد شقاوته اعتل بعلة إبليس أو نحوها فيكون كالمستجير من الرمضاء بالنار ومثله مثل رجل طار إلى داره شرارة نار فقال له العقلاء أطفئها لئلا تحرق المنزل فأخذ يقول من أين كانت هذه ريح ألقنتها وأنا لا ذنب لي في هذه النار فما زال يتعلل حتى انتشرت وانتشرت الدار وما فيها هذه حال من شرع يحيل الذنوب على المقادير ولا يردّها بالاستغفار والمعاذير بل حاله أسوأ من زلات الذنوب وكان الله بخلاف الشررة فإنه لا فعل له فيها و الله سبحانه يوقفنا وإياكم وسائر إخواننا لما يحبه ويرضاه ولا تتال طاعته إلا بمعونة وتترك معصيته إلا بعصمته و الله أعلم¹⁶⁵

حال من لم يميز بين الإرادة الخلقية والإرادة الأمرية

فالخبر يتضمن العلم بالمخبر به والأمر يتضمن طلبا وإرادة للمأمور به و إن لم يكن ذلك إرادة فعل الأمر والله تعالى أمر العباد بما أمرهم به ولكن أعان أهل الطاعة فصار مريدا لأن يخلق أفعالهم ولم يعن أهل المعصية فلم يرد أن يخلق فعالهم فهذه الإرادة الخلقية القدرية لا تستلزم الأمر واما الإرادة بمعنى أنه يجب فعل ما أمر به ويرضاه إذا فعل ويريد من المأمور أن يفعله من حيث هو مأمور فهذه لا بد منها في الأمر ولهذا أثبت الله هذه الإرادة في الأمر دون الأولى ولكن في الناس من غلط فنفي الإرادة مطلقا وكلا الفريقين لم يميز بين الإرادة الخلقية والإرادة الأمرية والقرآن فرق بين الإرادتين فقال في الأولى { فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا { الأنعام125 وقال نوح و { وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ { هود34 وقال { وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلْتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ { البقرة253 وقال { وَلَوْ لَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ { الكهف39 ولهذا قال المسلمون ما شاء الله كان و ما لم يشا لم يكن وقال في الثانية { يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ { البقرة185 وقال { إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا { الأحزاب33 وقال { مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ

وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ {المائدة6} وقال {يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا} {27} يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا {28} النساء26- 28 وهذا مبسوط في موضع آخر والمقصود هنا أنه لا بد في الأمر من طلب وإستدعاء وإقتضاء سواء قبل إن هناك إرادة شرعية و أنه لا إرادة للرب متعلقة بأفعال لعباد سواها كما تقوله المعتزلة و نحوهم من القدرية أو قيل لا إرادة للرب إلا الإرادة الخلقية القدرية التي يقال فيها ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن وأن إرادته عين نفس محبته ورضاه وأن إرادته ومحبته ورضاه متعلقة بكل ما يوجد من إيمان وكفر ولا تتعلق بما لا يوجد سواء كن إيمانا أو كفرا وأنه ليس للعبد قدرة لها أثر في وجود مقدوره وليس في المخلوقات قوى وأسباب يخلق بها ولا الله حكمة يخلق ويامر لأجلها كما يقول هذا وما يشبهه جهم بن صفوان رأس لجبرية هو ومن وافقه على ذلك أو بعضه من طوائف أهل الكلام وبعض متأخري الفقهاء وغيرهم المثبتين للقدر على هذه الطريقة لا على طريقة السلف والأئمة كأبي الحسن ويره فإن هؤلاء ناقضوا القدرية المعتزلة مناقضة أجاتهم إلى إنكار حقيقة الأمر و النهي و الوعد و الوعيد و إن كان من يقول ببعض ذلك يتناقض وقد يثبت أحدهم من ذلك مما لا حقيقة له في المعنى وأما السلف وأئمة الفقهاء وجمهور المسلمين فيثبتون الخلق والأمر والإرادة الخلقية القدرية الشاملة لكل حادث و الإرادة الأمرية الشرعية المتناولة لكل ما يحبه الله و يرضاه لعباده وهو ما أمرت به الرسل وهو ما ينفع العباد و يصلحهم و يكون له العاقبة الحميدة النافعة في المعاد الدافعة للفساد فهذه الإرادة الأمرية الشرعية متعلقة بالهيته المتضمنة لربوبيته كما أن تلك الإرادة الخلقية القدرية متعلقة بربوبيته ولهذا كان من نظر على هذه فقط وراعى هذه الخلقية الكونية القدرية دون تلك يكون له بداية بلا نهاية فيكون من الأخسرين أعمالا يحصل لهم بعض مطالبهم في الدنيا لإستعانتهم بالله إذ شهدوا ربوبيته ولا خلاق لهم في الآخرة إذ لم يعبدوا الله مخلصين له الدين و قد وقع في هذا طوائف من أهل التصوف و الكلام و من نظر إلى الحقيقة الشرعية الأمرية دون ذلك فإنه قد يكون له عاقبة حميدة و قد يراعى الأمر لكنه يكون عاجز مخذولا حيث لم يشهد ربوبية الله و فقره إليه ليكون متوكلا عليه برياً من الحول و القوة إلا به فهذا قد يقصد أن يعبده و لا يقصد حقيقة الإستعانة به و هي حال القدرية من المعتزلة و نحوهم الذين يقرون أن الله ليس خالفاً لأفعال العباد و لا مريداً للكائنات و لهذا قال أبو سليمان الداراني إنما يعجب بفعله القدري لأنه لا يرى أنه هو الخالق لفعله فأما أهل السنة الذين يقرون أن الله خالق أفعالهم وأن الله المنة عليهم في ذلك فكيف يعجبون بها أو كما قال والأول قد يقصد أن يستعينه و يسأله و يتوكل عليه و يبرأ من الحول و القوة إلا به و لكن لا يقصد أن يعبد بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه على ألسن رسله ولا يشهد أن الله يحب أن يعبد و يطاع و أنه يفرح بتوبة التائبين و يحب المتقين و يغضب على الكفار و المنافقين بل ينسلخ من الدين أو بعضه لا سيما في نهاية أمره وهذه الحال إن طردها صاحبها كان شرا من حال المعتزلة القدرية بل إن طردها طرد حقيقيا أخرجته من الدين خروج الشعرة من العجين وهي حال المشركين وأما من هداه الله فإنه يحقق قوله {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} الفاتحة5 و يعلم أن كل عمل لا يراد به وجه الله ولا يوافق أمره فهو مردود على صاحبه وكل قاصد لم يعنه الله فهو مصدود من مآربه فإنه يشهد أن لا إله إلا الله فيعبد الله مخلصا له الدين مستعينا بالله على ذلك مؤمنا بخلقه وأمره بقدره وشرعه فيستعين الله على طاعته ويشكره عليه ويعلم أنها منة من الله عليه ويستعيز بالله من شر نفسه وسيئات عمله ويعلم أن ما أصابه من سيئة فمن نفسه مع علمه بأن كل شيء بقضاء الله وقدره وأن لله الحجة

البالغة على خلقه وأن له في خلقه وأمره حكمة بالغة ورحمة سابغة وهذه الأمور أصول عظيمة
لبسطها موضع آخر¹⁶⁶

هل أراد الله تعالى المعصية من خلقه أم لا ؟

لفظ الإرادة مجمل له معنيان فيقصد به المشيئة لما خلقه ويقصد به المحبة والرضا لما أمر به فإن كان مقصود السائل أنه أحب المعاصي ورضيها وأمر بها فلم يرد بها بهذا المعنى فإن الله لا يحب الفساد ولا يرضى لعباده الكفر ولا يأمر بالفحشاء بل قال لما نهى عنه {كُلْ ذَلِكَ كَمَا كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا} الإسراء 38 وإن أراد أنها من جملة ما شاءه وخلقها فإله خالق كل شيء وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ولا يكون في الوجود إلا ما شاء وقد ذكر الله في موضع أنه يريد بها وفي موضع أنه لا يريد بها والمراد بالأول أنه شاءها خلقاً والثاني أنه لا يحبها ولا يرضاها أمراً كما قال تعالى {فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا} الأنعام 125 وقال نوح {وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ} هود 34 وقال في الثاني {يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ} البقرة 185 وقال تعالى {يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا} 27 {يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا} 28 {النساء 26-28} وقال {مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُنِيمَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} المائدة 6 وقال {إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمْ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا} الأحزاب 33¹⁶⁷

وتنازع الناس في الأمر والإرادة هل يأمر بما لا يريد أو لا يأمر إلا بما يريد فإن الإرادة لفظ فيه إجمال يراد بالإرادة الكونية الشاملة لجميع الحوادث كقول المسلمين ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن وكقوله تعالى {فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعْدُ فِي السَّمَاءِ} الأنعام 125 وقول نوح عليه السلام {وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ} هود 34 ولا ريب أن الله يأمر العباد بما لا يريد به هذا التفسير والمعنى كما قال تعالى {وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا} السجدة 13 فدل على أنه لم يؤت كل نفس هداها مع أنه قد أمر كل نفس بهداها وكما إنفق

¹⁶⁶مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 62-65

¹⁶⁷مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 160

العلماء على أن من حلف بالله ليقضين دين غريمه غدا إن شاء الله أوليردن وديعته أو غصبه أو ليصلين الظهر أو العصر إن شاء الله أو ليصومن رمضان إن شاء الله ونحو ذلك مما أمره الله به فإنه إذا لم يفعل المحلوف عليه لا يحنت مع أن الله أمره به لقوله إن شاء الله فعلم أن الله لم يشأه مع أمره به وأما الإرادة الدينية فهي بمعنى المحبة والرضى وهى ملازمة للأمر كقوله تعالى {يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ} النساء 26 ومنه قول المسلمين هذا يفعل شيئاً لا يريد الله إذا كان يفعل بعض الفواحش أى أنه لا يحبه ولا يرضاه بل ينهى عنه ويكرهه وكذلك لفظ الجبر فيه إجمال يراد به إكراه الفاعل على الفعل بدون رضاه كما رضاه كما يقال أن الأب يجبر المرأة على النكاح والله تعالى أجل وأعظم من أن يكون مجبراً بهذا التفسير فإنه يخلق للعبد الرضاء والإختيار بما يفعله وليس ذلك جبراً بهذا الإعتبار ويراد بالجبر خلق مافى النفوس من الإعتقادات والإرادات كقول محمد بن كعب القرظي الجبار الذى جبر العباد على ما أراد وكما في الدعاء المأثور عن علي رضي الله عنه جبار القلوب على فطرتها شقيها وسعيدها والجبر ثابت بهذا التفسير فلما كان لفظ الجبر مجملاً نهى الأئمة الإعلام عن إطلاق إثباته أو نفيه¹⁶⁸

الإلتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد ومحو الأسباب أن تكون أسباباً تغيير في وجه العقل والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع

ومن قال أن قدرة العبد وغيرها من الأسباب التى خلق الله تعالى بها المخلوقات ليست أسباباً أو وجودها كعدمها وليس هناك إلا مجرد إقتران عادي كإقتران الدليل بالمدلول فقد جحد ما في خلق الله وشرعه من الأسباب والحكم والعلل ولم يجعل في العين قوة تمتاز بها عن الخد تبصر بها ولا في القلب قوة يمتاز بها عن الرجل يعقل بها ولا في النار قوة تمتاز بها عن التراب تحرق بها وهؤلاء ينكرون ما في الأجسام المطبوعة من الطبائع والغرائز قال بعض الفضلاء تكلم قوم من الناس في إبطال الأسباب والقوى والطبائع فأضحكوا العقلاء على عقولهم ثم أن هؤلاء لا ينبغى للإنسان أن يقول أنه شبع بالخبز وروى بالماء بل يقول شبعته عنده ورويت عنده فإن الله يخلق الشبع والري ونحو ذلك من الحوادث عند هذه المقترنات بها عادة لا بها وهذا خلاف الكتاب والسنة فإن الله تعالى يقول {وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا نَقَالاً سُفْنَاهُ لِيُنْزِلَ بِيئْتٍ فَانزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} الأعراف 57 الآية وقال تعالى { وَمَا أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ } البقرة 164 وقال تعالى { قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ } التوبة 14 وقال { قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا } التوبة 52 وقال { وَنَزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ } ق 9 وقال تعالى { وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ } الأنعام 99 وقال تعالى { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا } فاطر 27 وقال تعالى { هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ } 10 { يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ } 11 { النحل 10-11 وقال تعالى { إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا } البقرة 26 إلى قوله { يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا } البقرة 26 وقال { قَدْ

جَاءَكُمْ مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ {15} يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ {16} المائدة 15-16 ومثل هذا في القرآن كثير وكذلك في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم كقوله لا يموتن أحد منكم إلا أدنتموني به حتى أصلي عليه فإن الله جعل بصلاتي عليه بركة ورحمة وقال صلى الله عليه وسلم إن هذه القبور مملوءة على أهلها ظلمة وإن الله جاعل بصلاتي عليهم نورا ومثل هذا كثير ونظير هؤلاء الذين أبطلوا الأسباب المقدره في خلق الله من أبطل الأسباب المشروعة في أمر الله كالذين يظنون أن ما يحصل بالدعاء والأعمال الصالحة وغير ذلك من الخيرات إن كان مقدرًا حصل بدون ذلك وإن لم يكن مقدرًا لم يحصل بذلك وهؤلاء كالذين قالوا للنبي أفلا ندع العمل ونتكل على الكتاب فقال لا تعملوا فكل ميسر لما خلق له وفي السنن أنه قيل يارسول الله رأيت أدوية تتداوى بها ورقى نسترقى وتقاة نتقيها هل ترد من قدر الله شيئاً فقال هي من قدر الله ولهذا قال من قال من العلماء الإلتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد ومحو الأسباب أن تكون أسباباً تغيير في وجه العقل والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع والله سبحانه خلق الأسباب والمسببات وجعل هذا سبباً لهذا فإذا قال القائل إن كان هذا مقدرًا حصل بدون السبب وإلا لم يحصل جوابه أنه مقدر بالسبب وليس مقدرًا بدون السبب كما قال النبي إن الله خلق للجنة أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم وخلق للنار أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم وقال اعملوا فكل ميسر لما خلق له أما من كان من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل الشقاوة وفي الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه قال حدثنا رسول الله وهو الصادق المصدوق إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يرسل إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات فيقال أكتب رزقه وعمله وأجله وشقي أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح قال فولدني نفسي بيده إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها فبين أن هذا يدخل الجنة بالعمل الذي يعمل ويختم له به وهذا يدخل النار بالعمل الذي يعمل ويختم له به كما قال صلى الله عليه وسلم إنما الأعمال بالخواتيم وذلك لأن جميع الحسنات تحبط بالردة وجميع السيئات تغفر بالتوبة ونظير ذلك من صام ثم أفطر قبل الغروب أو صلى وأحدث عمداً قبل كمال الصلاة بطل عمله وبالجملة فالذي عليه سلف الأمة وأتمتها ما بعث الله به رسله وأنزل كتبه فيؤمنون بخلق الله وأمره بقدره وشرعه بحكمه الكوني وحكمه الديني وإرادته الكونية والدينية كما قال في الآية الأولى {فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعْدُ فِي السَّمَاءِ {الأنعام 125} وقال نوح عليه السلام {وَلَا تَفْعَلُوا نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ {هود 34} وقال تعالى في الإرادة الدينية {يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ {البقرة 185} وقال {يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبينَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ {النساء 26} وقال {مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُنمِّعَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ {المائدة 6} وهم مع إقرارهم بأن الله خالق كل شيء وربهم ومليكه وأنه خلق الأشياء بقدرته ومشيئته يقرون بأنه لا إله إلا هو لا يستحق العبادة غيره ويطيعونه ويطيعون رسله ويحبونه ويرجونه ويخشونه ويتكلمون عليه وينيبون اليه ويوالون أوليائه ويعادون أعداءه ويقرون بمحبته لما أمر به ولعباده المؤمنين ورضاه بذلك وبغضه لما أنهى عنه وللكافرين وسخطه لذلك ومقته له ويقرون بما إستفاض عن النبي صلى الله عليه وسلم من أن الله أشد فرحاً بتوبة عبده التائب من رجل أضل راحلته بأرض دوية مهلكة عليها طعامه وشرابه فطلبها فلم يجدها فقال تحت شجرة فلما إستيقظ إذا بدابته عليها طعامه وشرابه فإله أشد فرحاً بتوبة عبده من

هذا براحلته فهو إلههم الذي يعبدونه وربهم الذي يسألونه كما قال تعالى { أَحَدُ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } {2} الفاتحة إلى قوله { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } {5} الفاتحة 5 فهو المعبود المستعان والعبادة تجمع كمال الحب مع كمال الذل فهم يحبونه أعظم مما يحب كل محب محبوبه¹⁶⁹

القرآن نفسه فيه تحدي الأمم بالمعارضة والتحدي

قال تعالى { أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرَمُونَ } هود 35

والقرآن كلام الله وفيه الدعوة والحجة فله به اختصاص على غيره كما ثبت عنه في الصحيح أنه قال ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة والقرآن يظهر كونه آية وبرهانا له من وجوه جملة وتفصيلا أما الجملة فإنه قد علمت الخاصة والعامة من عامة الأمم علما متواترا أنه هو الذي أتى بهذا القرآن وتواترت بذلك الأخبار أعظم من تواترها بخبر كل أحد من الأنبياء والملوك والفلاسفة وغيرهم والقرآن نفسه فيه تحدي الأمم بالمعارضة والتحدي هو أن يدعوهم في دعوتهم إلى أن يعارضوه فيقال فيه حداني على هذا الأمر أي بعثني عليه ومنه سمي حادي العيس لأنه بحداه يبعثها على السير وقد يريد بعض الناس بالتحدي دعوى النبوة ولكنه أصله الأول قال تعالى في سورة الطور { أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ } {33} فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ } {34} الطور 33-34 فهنا قال { فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ } الطور 34 في أنه تقوله فإنه إذا كان محمد قادرا على أن يتقوله كما يقدر الإنسان على أن يتكلم بما يتكلم به من نظم ونثر كان هذا ممكنا للناس الذين هم من جنسه فأمكن الناس أن يأتوا بمثله ثم إنه تحداهم بعشر سور مثله فقال تعالى { أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } هود 13 ثم تحداهم بسورة واحدة منه فقال تعالى { وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ } {37} { أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } {38} يونس 37-38 فطلب منهم أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات هم وكل من استطاعوا من دون الله ثم تحداهم بسورة واحدة هم ومن استطاعوا قال { فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } هود 14 وهذا أصل دعوته وهو الشهادة بأنه لا إله إلا الله والشهادة بأن محمدا رسول الله وقال تعالى { فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } هود 14 كما قال { لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً } النساء 166 أي هو يعلم أنه منزل لا يعلم أنه مفترى كما قال { وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ } يونس 37¹⁷⁰

¹⁶⁹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 137-140

¹⁷⁰الجواب الصحيح ج: 5 ص: 424

الفرق بين مشيئة الله وبين محبته ورضاه

قال تعالى { وَأَوْحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ } {هود-36} والذين زعموا و فروع التكليف بالمتنع لذاته كالرازي و غيره إحتجوا بأن الله كلف أبا لهب بالإيمان مع علمه بأنه لا يؤمن وإخباره بأنه لا يؤمن فكلفه بالجمع بين النقيضين بأن يفعل الشيء وبأن يصدق أنه لا يكون مصدقا بذلك وهو صادق في تصديقه إذا لم يكن وإحتجوا بأنه كلف خلاف المعلوم وخلاف المعلوم محال فيكون حقيقة التكليف أنه يجعل علم الله جهلا وهذا ممتنع لذاته وهؤلاء جعلوا لفظ مالا يطاق لفظا عاما يدخل فيه كل فعل لكون القدرة عندهم لا تكون إلا مع الفعل ويدخل فيه خلاف المعلوم ويدخل فيه المعجوز عنه ويدخل فيه الممتنع لذاته ثم ذكروا نحو عشر حجج يستدلون بها على جواز هذا الجنس فإذا فصل الأمر عليهم ثبت أن دعواهم جواز ما لا يطاق للعجز عنه سواء كان ممتنعا لذاته أو ممكنا باطلا لادليل عليها وأما جواز تكليف ما يقدر العبد عليه من العبادة ويقولون هم أنه لا يكون قادرا عليه إلا حين الفعل فهذا مما إتفق الناس على جواز التكليف به لكن ثم نزاع لفظي ومعنوي في كونه يدخل فيما لا يطاق فصار ما أدخلوه في هذا الأسم أنواعا مختلفة منها ما ينازعون في جوازه أو وقوعه ومنها ما ينازعون في إسمه وصفته لا في وقوعه أما تكليف أبي لهب و غيره بالإيمان فهذا حق وهو إذا أمر أن يصدق الرسول في كل ما يقوله وأخير مع ذلك أنه لا يصدق بل يموت كافرا لم يكن هذا متناقضا و لا هو مأمور أن يجمع بين النقيضين فإنه مأمور بتصديق الرسول في كل ما بلغ و هذا التصديق لا يصدر منه فإذا قيل له أمرناك بأمر ونحن نعلم أنك لا تفعله لم يكن هذا تكليفا للجمع بين النقيضين فإن قال تصديقكم في كل ما تقولون يقتضى أن أكون مؤمنا إذا صدقتكم و إذا صدقتكم لم أكن مؤمنا لأنكم أخبرتم أنى لا أؤمن بكل ما أخبر به قيل له لو وقع منك لم يكن فيه هذا الخبر ولم يكن يخبر أنك لا تؤمن فأنت قادر على تصديقنا وبتقدير وجوده لا يحصل هذا الخبر وإنما وقع لأنك أنت لم تفعل ما قدرت عليه من تصديقنا بهذا الخبر فوقع بعد تكذيبك و تركك ما كنت قادرا عليه لم نقل لك حين أمرناك بالتصديق العام وأنت قادر عليه ولو قيل لك آمن و نحن نعلم أنك لا تؤمن بهذا الخبر فالذي أمرت أن تؤمن به هو الإخبار بأن محمدا رسول الله وهذا أنت قادر عليه ولا تفعله و إذا صدقتنا فى خبرنا أنك لا تؤمن لم يكن هنا تناقض لكن لايمكن الجمع بين الإيمان والتصديق فإنه لم يقع و نحن لم نأمرك بهذا بل أمرناك بإيمان مطلق تقدر عليه و أخبرنا مع ذلك أنك لا تفعل ذلك المقدر عليه و لم نقل لك صدقتنا فى هذا وهذا فى حال و احدة لكن الواجب عليك هو التصديق المطلق و التصديق بهذا لا يجب عليك حينئذ ولو وقع منك التصديق المطلق إمتنع منا هذا الخبر بل هذا الخبر إنما وقع لما علمنا أنه لا يقع منك التصديق المطلق وهذا كله لو قدر أن أبا لهب أسمع هذه الآية و أمر بالتصديق بها و ليس الأمر كذلك لكن لما أنزل الله قوله { سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ } {المسد3} لم يسلم لهم أن الله أمر نبيه بإسماع هذا الخطاب لأبي لهب و أمر أبا لهب بتصديقه بل لا يقدر أحد أن ينقل أن النبى صلى عليه و سلم أمر أبا لهب أن يصدق بنزول هذه السورة فقوله أنه أمر أن يصدق بأنه لا يؤمن قول باطل لم ينقله أحد من علماء المسلمين فنقله عن النبى صلى الله عليه و سلم قول بلا علم بل كذب عليه فإن قيل فقد كان الإيمان واجبا على أبي لهب ومن الإيمان أن يؤمن بهذا قيل له لانسلم أنه بعد نزول هذه السورة وجب على الرسول أن يبلغه إياها بل ولا غيرها بل حقت عليه كلمة العذاب كما حقت على قوم نوح إذ قيل له { أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ } {هود-36} و بعد ذلك لا يبقى الرسول مأمور بتبليغهم الرسالة فإنه قد بلغهم فكفروا حتى حقت عليهم كلمة العذاب باعيانهم وقد يخبر الله الرسول عن معين أنه لا يؤمن لكن لا يأمره أن يعلمه بذلك بل هو مأمور بتبليغه وإن كان الرسول يعلم أنه لا يؤمن كالذين قال الله فيهم {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ} {96} {وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ} {97} {يونس-96-97} وقوله {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} {البقرة-6} فهؤلاء قد يعلم بعض الملائكة وبعض البشر من الأنبياء و غيرهم فى معين منهم أنه

لا يؤمن وإن كانوا مأمورين بتبليغه أمر الله ونهيه و ليس فى ذلك تكليفه بالجمع بين النقيضين وذلك خلاف المعلوم فإن الله يفعل ما يشاء بقوته وما لا يشاء يعلم أنه لا يفعله وأنه قادر عليه لو شاء لفعله و علمه أنه لا يفعله لا يمنع أن يكون قادرا عليه والعباد الذين علم الله أنهم يطيعونه بإرادتهم ومشيتهم وقدرتهم وإن كان خالقا لذلك فخلقه لذلك أبلغ فى علمه به قبل أن يكون كما قال تعالى {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} الملك 14 وما لم يفعلوه فما أمرهم به يعلم أنه لا يكون لعدم إرادتهم له لالعدم قدرتهم عليه وليس الأمر به أمرا بما يعجزون عنه بل هو أمر بما لو أرادوه لقدروا على فعله لكنهم لا يفعلونه لعدم إرادتهم له و جهم ومن وافقه من المعتزلة إشتروا فى أن مشيئة الله ومحبته ورضاه بمعنى واحد ثم قالت المعتزلة وهو لا يحب الكفر والفسوق والعصيان فلا يشاؤه فقالوا إنه يكون بلا مشيئة وقالت الجهمية بل هو يشاء ذلك فهو يحبه ويرضاه وأبو الحسن وأكثر أصحابه و افقوا هؤلاء فذكر أبو المعالي الجويني أن أبا الحسن أول من خالف السلف فى هذه المسألة ولم يفرق بين المشيئة والمحبة والرضا وأما سلف الأمة وأئمتها وأكابر أهل الفقه والحديث والتصوف وكثير من طوائف النظار كالكلابية والكرامية وغيرهم فيفرون بين هذا وهذا ويقولون أن الله يحب الإيمان والعمل الصالح ويرضى به كما لا يأمر ولا يرضى بالكفر والفسوق والعصيان ولا يحبه كما لا يأمر به وإن كان قد شاءه ولهذا كان حملة الشريعة من الخلف والسلف متفقين على أنه لو حلف ليفعلن أو اجبا أو مستحبا كقضاء دين يضيق وقته أو عبادة يضيق وقتها وقال إن شاء الله ثم لم يفعله لم يحنث وهذا يبطل قول القدرية ولو قال إن كان الله يحب ذلك و يرضاه فإنه يحنث كما لو قال إن كان يندب الى ذلك و يرغب فيه أو يأمر به أمر إيجاب أو إستحباب و هذا يرد على الجهمية و من إتبعهم كأبى الحسن الأشعري و من وافقه من المتأخرين و بسط هذه الأمور له موضع آخر والمقصود هنا جواب هذه المسألة فإن هذه الإشكالات المذكورة إنما ترد على قول جهم و من وافقه من المتأخرين من أصحاب أبى الحسن الأشعري و غيرهم و طائفة من متأخري أصحاب مالك و الشافعي و أحمد وأما أئمة أصحاب مالك و الشافعي و أحمد و عامة اصحاب ابى حنيفة فانهم لا يقولون بقول هؤلاء بل يقولون بما اتفق عليه السلف من انه سبحانه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن و يثبتون الفرق بين مشيئته وبين محبته ورضاه فيقولون ان الكفر والفسوق والعصيان وان وقع بمشئته فهو لا يحبه ولا يرضاه بل يسخطه ويبغضه ويقولون ارادة الله فى كتابه نوعان نوع بمعنى المشيئة لما خلق كقوله {فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ} الأنعام 125 ونوع بمعنى محبته ورضاه لما امر به وإن لم يخلقه كقوله { يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ } البقرة 185 ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون { يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } 26 { وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا } 27 { يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا } 28 { النساء 26-28 وبهذا يفضّل النزاع في مسألة الامر هل هو مستلزم للارادة ام لا فان القدرية تزعم انه مستلزم للمشيئة فيكون قد شاء المأمور به ولم يكن والجهمية قالوا انه غير مستلزم لشيء من الإرادة لا لحيه له ولا رضاه به الا اذا وقع فانه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وكذلك عندهم ما احبه ورضيه كان وما يحبه لم يرضه لم يكن وتأولوا قوله { وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ } الزمر 7 على ان المراد ممن لم يقع منه الكفر او لا يرضاه ديننا كما يقولون لم يشاه ممن لم يقع منه او لا يشاءه ديننا اذا كانوا موافقين للجهمية والقدرية فى انه لا فرق بين المحبة والمشيئة وقد قال الله تعالى { إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ } الزمر 7 فاخبر انه اذا وقع الكفر من عباده لم يرضه لعباده كما قال { إِذْ يَبْيُحُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ } النساء 108 وقال { وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ } البقرة 205 مع قوله { وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا } الأنعام 125 وفصل الخطاب ان الأمر ليس مستلزم لمشيئة ان يخلق الرب الأمر الفعل المأمور به ولا ارادة ان يفعله بل قد يأمر بما لا يخلقه وذلك مستلزم لمحبه الرب ورضاه من العبد ان يفعله بمعنى انه اذا فعل ذلك احبه ورضيه وهو

يريد منه ارادة الأمر من المأمور بما امره به لمصلحته وان لم يريد ان يخلقه وان يعينه عليه لما له في ترك ذلك من الحكمة فان له حكمه بالغة فيما خلقه وفيما لم يخلقه و الفرق بين ان يريد ان يخلق هو الفعل ويجعل غيره فاعلا يحسن اليه ويتفضل عليه بالإعانة له على مصلحته وبين ان يأمر غيره بما يصلح ويبيّن له ماينفعة اذا فعله وان كان لا يريد هو نفسه ان يعينه لما في ترك اعانته من الحكمة لكون الاعانة قد تستلزم مايناقض حكمة والمنهى عنه الذي خلقه هو يبغضه ويمقتة كما يمقت ما خلقه من الاعيان الخبيثة كالشياطين والخبائث ولكنه خلقها لحكمه يحبها ويرضاها ونحن نعلم ان العبد يريد ان يفعل ما لا يحبه لافضائه الى ما يحبه كما يشرب المريض الدواء الكريه لافضائه الى ما يحبه من العافية ويفعل ما يكرهه من الاعمال لافضائه الى مطلوبه المحبوب له ولا منافاة بين كون الشيء بغیضا اليه مع كونه مخلوقا له لحكمه يحبها وكذلك لا منافاة بين ان يحبه اذا كان ولا يفعله لان فعله قد يستلزم تفويت ما هو احب اليه منه او وجود ما هو ابغض اليه من عدمه¹⁷¹

قدرة الرب والعبد

قد تنازع الناس في قدرة الرب والعبد فقالت طائفة كلا النوعين يتناول الفعل القائم بالفاعل ويتناول مقدوره وهذا أصح الأقوال وبه نطق الكتاب والسنة وهو أن كل نوع من القدرتين يتناول الفعل القائم بالقادر ومقدوره المبين له وقد تبين بعض ما دل على ذلك في قدرة الرب وأما قدرة العبد فذكر قدرته على الأفعال القائمة به كثيرة وهذا متفق عليه بين الناس الذين يثبتون للعبد قدرة مثل قوله { فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ } التغابن 16 { فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَاِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا } المجادلة 4 { وَسَيَخْلُقُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ } التوبة 42 وقول النبي صلى الله عليه وسلم صل قائما فإن لم تستطع فقاعدا فإن لم تستطع فعلى جنبك وأيضا فالقرآن دل على أن المفعولات الخارجة مصنوعة لهم وما كان مصنوعا لهم فهو مقدور بالضرورة والإتفاق والمنازع يقول ليس شئ خارجا عن محل قدرتهم مصنوعا لهم وهذا خلاف القرآن قال تعالى لنوح { **وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا** } هود 37 وقال { **وَيَصْنَعِ الْفُلْكَ** } هود 38 وقد أخبر أن الفلك مخلوقة مع كونها مصنوعة لبنى آدم وجعلها من آياته فقال { **وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ** } يس 41 { **سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ** } الحج 65 { **وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ** } الزخرف 12 وقال { **أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ** } 95 { **وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ** } 96 { الصافات 95-96 }¹⁷²

¹⁷¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 471

¹⁷²مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 16

كل ما في الوجود فهو مخلوق لله خلقه بمشيئته وقدرته

إن كل ما في الوجود فهو مخلوق له خلقه بمشيئته وقدرته وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وهو الذي يعطي ويمنع ويخفض ويرفع ويعز ويذل ويغني ويفقر ويضل ويهدي ويسعد ويشقى ويولى الملك من يشاء و ينزعه ممن يشاء ويشرح صدر من يشاء للإسلام ويجعل صدر من يشاء ضيقاً كأنما يصعد في السماء وهو يقلب القلوب ما من قلب من قلوب العباد إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن إن شاء أن يقيمه أقامه وإن شاء أن يزيغه أزاعه وهو الذي حبب إلى المؤمنين الإيمان وزينه في قلوبهم وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون وهو الذي جعل المسلم مسلماً والمصلي مصلياً قال الخليل { رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ } البقرة 128 وقال { رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي } إبراهيم 40 وقال تعالى { وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا } السجدة 24 وقال عن آل فرعون { وَجَعَلْنَا هُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ } القصص 41 وقال تعالى { إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً } 19 { إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً } 20 { وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً } 21 { الماعراج 19-21 } وقال { **وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا } هود 37** وقال { **وَاصْنَعِ الْفُلْكَ } هود 38** والفلك مصنوعة لبني آدم وقد أخبر الله تبارك وتعالى أنه خلقها بقوله { **وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ } يس 42** وقال { **وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاتًا وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ } النحل 80** والآيات وهذه كلها مصنوعة لبني آدم وقال تعالى { **أَتَعْبُدُونَ مَا تَحْنُونَ } 95** { **وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ } 96** { **الصافات 95-96** فما بمعنى الذي ومن جعلها مصدرية فقد غلط لكن إذا خلق المنحوت كما خلق المصنوع والملبوس والمبنى دل على أنه خالق كل صانع وصنعه وقال تعالى { **مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُرْشِداً } الكهف 17** وقال { **فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً } الأنعام 125** وهو سبحانه خالق كل شيء وربّه ومليكه وله فيما خلقه حكمة بالغة ونعمة سابغة ورحمة عامة وخاصة وهو لا يسأل عما يفعل وهم يسألون لا لمجرد قدرته وقهره بل لكمال علمه وقدرته ورحمته وحكمته فإنه سبحانه وتعالى أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها وقد أحسن كل شيء خلقه وقال تعالى { **وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِداً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَقَ كُلَّ شَيْءٍ } النمل 88** وقد خلق الأشياء بأسباب كما قال تعالى { **وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا } البقرة 164** وقال { **فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ } الأعراف 57** وقال تعالى { **يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ } المائدة 16** ¹⁷³

من الإيمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه

ومن الإيمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه وبما وصفه به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل بل يؤمنون بأن الله سبحانه ليس كمثل شيء وهو السميع البصير فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه ولا يحرفون الكلم عن مواضعه ولا يلدنون في أسماء الله وآياته ولا يكييفون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه لأنه سبحانه لا سمي له ولا كفو له ولا ند له ولا يقاس بخلقه سبحانه وتعالى فإنه أعلم بنفسه وبغيره وأصدق قبيلاً وأحسن حديثاً من خلقه وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي

والإثبات وقد دخل في هذه الجملة قوله سبحانه {وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخَاطِبُنِي فِي
الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُخْرَقُونَ} هود 37¹⁷⁴

وأما لفظ العينين فليس هو في القرآن ولكن جاء في حديث وذكر الأشعري عن أهل السنة
والحديث أنهم يقولون إن الله عينين ولكن الذي جاء في القرآن {وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا
وَوَحِّينَا وَلَا تَخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُخْرَقُونَ} هود 37¹⁷⁵

وقال أبو عبدالله محمد بن أبي زمنين الإمام المشهور من أئمة المالكية في كتابه الذي
صنّفه في أصول السنة قال فيه في الإيمان بصفات الله تعالى وأسمائه قال وأعلم بأن
أهل العلم بالله وبما جاءت به انبيأؤه ورسله يرون الجهل بما لم يخبر به عن نفسه علما والعجز
عن ما لم يدع إليه إيماننا وأنهم انما ينتهون من وصفه بصفاته وأسمائه الى حيث انتهى في كتابه
على لسان نبيه وقد قال وهو اصدق القائلين {وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا} هود 37 ومثل هذا
في القرآن كثير فهو تبارك وتعالى نور السموات والأرض كما أخبر عن نفسه وله وجه ونفس
وغير ذلك مما وصف به نفسه ويسمع ويرى ويتكلم هو الأول لا شيء قبله والآخر الباقي الى
غير نهاية ولا شيء بعده والظاهر العالی فوق كل شيء والباطن بطن علمه بخلقه فقال { وَهُوَ
بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } البقرة 29 قیوم حی لا تأخذه سنة ولا نوم وذكر أحاديث الصفات وذكر
أحاديث الصفات ثم قال فهذه صفات ربنا التي وصف بها نفسه في كتابه ووصفه بها نبيه
وليس في شيء منها تحديد ولا تشبيه ولا تقدير { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ
الشورى 11 لم تره العيون فتحده كيف هو ولكن رآته القلوب في حقائق الايمان¹⁷⁶

الكفار بالرسول يسمون أنفسهم الحكماء والفلاسفة ويسخرون من اتباع

المرسلين

قال تعالى {وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مَنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ
مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ} 38 { فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ
مُقِيمٌ } 39 { هود 38-39 والكفار بالرسول من قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وشعيب وقوم إبراهيم
وموسى ومشركى العرب والهند والروم والبربر والترك واليونان والكشدايين وسائر الأمم
المتقدمين والمستأخرين يتبعون ظنونهم واهواءهم ويعرضون عن ذكر الله الذى آتاهم من عنده
كما قال لهم لما اهبط آدم من الجنة { فَأَمَّا يَا تِيبُكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا
هُمْ يَحْزَنُونَ } 38 { وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } 39 { البقرة
38-39 وفى موضع آخر { فَأَمَّا يَا تِيبُكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا

¹⁷⁴العقيدة الواسطية ج: 1 ص: 11

¹⁷⁵الجواب الصحيح ج: 4 ص: 413

¹⁷⁶مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 57

يَشْقَى {123} وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى {124} طه 124-123 الآية وفي أخرى { إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي } الأعراف 35 ثم إنهم مع أنهم ما نزل الله بما هم عليه من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الانفس يزعمون أن لهم العقل والرأي والقياس العقلي والأمثال المضروبة ويسمون أنفسهم الحكماء والفلاسفة ويدعون الجدل والكلام والقوة والسلطان والمال ويصفون إتباع المرسلين بأنهم سفهاء واراذل وضلال ويسخرون منهم قال الله تعالى { كَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ } هود 38 بل هم يصفون الأنبياء بالجنون والسفه والضللال وغير ذلك كما قالوا عن نوح { مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ } القمر 9 وقالوا { إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ } الأعراف 60 ولهود { إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ } الأعراف 66¹⁷⁷

الرد على زعم الرافضة أن امرأة نوح كانت بغيا

قال تعالى { حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ } 40 { وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ } 41 { وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ } 42 { قَالَ سَأُوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ } 43 { وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَّمَاءِ أَفْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } 44 { وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ } 45 { قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ } 46 { قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ } 47 { قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَعَكَ وَأُمَّمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ } 48 { تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ } 49 { هود 40-49 فمن جهل الرافضة فإنهم يرمون عائشة بالعظائم ثم منهم من يرميها بالفاحشة التي برأها الله منها وأنزل القرآن في ذلك ثم إنهم لفرط جهلهم يدعون ذلك في غيرها من نساء الأنبياء فيزعمون أن امرأة نوح كانت بغيا وأن الابن الذي دعاه نوح لم يكن منه وإنما كان منها وإن معنى قوله { إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ } هود 46 أن هذا الولد من عمل غير صالح ومنهم من يقأ { وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ } هود 42 يريدون ابنها ويحتجون بقوله { إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ } هود 46 ويتأولون قوله تعالى { ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةٌ نُوحٍ وَامْرَأَةٌ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا } التحريم 10 على أن امرأة نوح خانته في فراشه وأنها كانت قحبة وضاهوا في ذلك المنافقين والفاسقين أهل الإفك الذين رموا عائشة بالإفك والفاحشة ولم يتوبوا وفيهم خطب النبي صلى الله عليه وسلم فقال أيها الناس من يعذرني من رجل بلغني أذاه في أهلي والله ما علمت على أهلي إلا خيرا ولقد ذكروا رجلا والله ما علمت عليه إلا خيرا ومن المعلوم أنه من أعظم أنواع الأذى للإنسان أن يكذب على امرأته

رجل ويقول إنها بغى ويجعل الزوج زوج قحبة فإن هذا من أعظم ما يشتم به الناس بعضهم بعضا حتى أنهم يقولون في المبالغة شتمه بالزاي والقاف مبالغة في شتمه والرمى بالفاحشة دون سائر المعاصي جعل الله فيه حد القذف لأن الأذى الذي يحصل به للمرمى لا يحصل مثله بغيره فإنه لو رمى بالكفر أمكنه تكذيب الرامي بما يظهره من الإسلام بخلاف الرمي بالفاحشة فإنه لا يمكنه تكذيب المفترى بما يصاد ذلك فإن الفاحشة تخفى وتكتم مع تظاهر الإنسان بخلاف ذلك والله تعالى قد ذم من يحب إشاعتها في المؤمنين لما في إشاعتها من أذى الناس وظلمهم ولما في ذلك من إغراء النفوس بها لما فيها من التشبه والافتداء فإذا رأى الإنسان أن غيره فعلها تشبه به ففي القذف بها من الظلم والفواحش ما ليس في القذف بغيرها لأن النفوس تشتهيها بخلاف الكفر والقتل ولأن إظهار الكفر والقتل فيه التحذير للنفوس من مضره ذلك فمصلحة إظهار فعل فاعله في الجملة راحة على مصلحة كتمان ذلك ولهذا يقبل فيه شاهدان ويقام الحد فيه بإقراره مرة واحدة بخلاف الفاحشة فإنها لا تثبت إلا بأربعة شهداء بالاتفاق ولا تثبت بالإقرار إلا بإقرار أربع مرات عند كثير من العلماء والرجل يتأذى برمي امرأته بالفاحشة كما يتأذى بفعل امرأته للفاحشة ولهذا شرع له الشارع اللعان إذا قذف امرأته وأن يدفع عنه حد القذف باللعان دون غيره فإنه إذا قذف محصنة لم يكن بد من إقامة الشهادة وإما الحد إن طلب ذلك المقذوف ولهذا لو قذفت امرأة غير محصنة ولها زوج محصن وجب حد القذف على القاذف في أحد قولى العلماء وهو إحدى الروايتين عن أحمد وأما أهل السنة فعندهم أنه ما بغت امرأة نبي قط وأن ابن نوح كان ابنه كما قال تعالى وهو أصدق القائلين **{ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ } هود42** وكما قال نوح **{ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَعَنَا } هود42** وقال **{ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي } هود45** فالله ورسوله يقولان إنه ابنه وهؤلاء الكذابون المفترورن المؤذون للأنبياء يقولون إنه ليس ابنه والله تعالى لم يقل إنه ليس ابنك ولكن قال **{ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ } هود46** وهو سبحانه وتعالى قال **{ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ } هود40** ثم قال **{ وَمَنْ أَمَنَ } هود40** أي واحمل من امن فلم يأمره بحمل أهله كلهم بل استثنى من سبق عليه القول منهم وكان ابنه قد سبق عليه القول ولم يكن نوح يعلم ذلك فلذلك قال **{ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي } هود45** ظانا أنه دخل في جملة من وعد بنجاتهم ولهذا قال من قال من العلماء إنه ليس من أهلك الذين وعدت بانجائهم وهو وإن كان من الأهل نسبا فليس هو منهم ديناً والكفر قطع الموالاة بين المؤمنين والكافرين كما نقول إن أبا لهب ليس من آل محمد ولا من أهل بيته وإن كان من أقاربه فلا يدخل في قولنا اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد وخيانة امرأة نوح لزوجها كانت في الدين فإنها كانت تقول إنه مجنون وخيانة امرأة لوط أيضا كانت في الدين فإنها كانت تدل قومها على الأضياف وقومها كانوا يأتون الذكران لم تكن معصيتهم الزنا بالنساء حتى يزن أنها أتت فاحشة بل كانت تعينهم على المعصية وترضى عملهم ثم من جهل الرافضة أنهم يعظمون أنساب الأنبياء آباءهم وأبناءهم ويقدمون في أزواجهم كل ذلك عصبية واتباع هوى حتى يعظمون فاطمة والحسن والحسين ويقدمون في عائشة أم المؤمنين فيقولون أو من يقول منهم إن أزر أبا إبراهيم كان مؤمناً وإن أبوي النبي صلى الله عليه وسلم كانا مؤمنين حتى لا يقولون إن النبي يكون أبوه كافراً فإذا كان أبوه كافراً أمكن أن يكون ابنه كافراً فلا يكون في مجرد النسب فصيلة وهذا مما يدفعون به أن ابن نوح كان كافراً لكونه ابن نبي فلا يجعلونه كافراً مع كونه ابنه ويقولون أيضاً إن أبا طالب كان مؤمناً ومنهم من يقول كان اسمه عمران وهو المذكور في قوله تعالى **{ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ } آل عمران33** وهذا الذي فعلوه مع ما فيه من الافتراء والبهتان ففيه من التناقض وعدم حصول حقدودهم ما لا يخفى وذلك أن كون الرجل أبيه أو ابنه كافراً لا ينقصه ذلك عند الله شيئاً فإن الله يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن المعلوم أن الصحابة أفضل من آباءهم وكان آباؤهم كافراً بخلاف من كونه زوج بغى قحبة فإن هذا من أعظم ما يذم به ويعاب لأن مضره ذلك تدخل عليه بخلاف كفر أبيه أو ابنه وأيضاً فلو كان المؤمن لا يلد إلا مؤمناً لكان بنو آدم كلهم مؤمنين وقد قال تعالى **{ وَآتَىٰ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنِي آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ }**

قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ { المائدة: 27 إلى آخر القصة وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لا تقتل نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه أول من سن القتل¹⁷⁸

{ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ }

قال تعالى { حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَؤَلْنَا أَحْمِلَ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ } هود: 40 فليس في الوجود واحد يفعل وحده إلا الله وحده قال تعالى { وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } الذاريات: 49 قال مجاهد وغيره تذكرون فتعلمون ان خالق الأزواج واحد قال تعالى { أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } { بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } الأنعام: 101 فنفى التولد عنه لامتناع التولد من شئ واحد وأن التولد إنما يكون بين اثنين وهو سبحانه لا صاحبة له وأيضا فانه خلق كل شئ و خلقه لكل شئ يناقض ان يتولد عنه شئ وهو بكل شئ عليم وعلمه بكل شئ يستلزم ان يكون فاعلا بارادته فان الشعور فارق بين الفاعل بالارادة والفاعل بالطبع فيمتنع مع كونه عالما ان يكون كالامور الطبيعية التي يتولد عنها الاشياء بلا شعور كالحر والبارد فلا يجوز إضافة الولد اليه بوجه سبحانه قال تعالى { وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُصِفُونَ } 100 { بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } 101 { الأنعام: 100-101 } والذين قالوا إن العقول والنفوس صدرت عنه خر قوا له بنين وبنات بغير علم فان اولئك لم يكونوا يجعلون شيئا من البنين والبنات مبدعة لكل ما سواه وهؤلاء يجعلون احد البنين وهو العقل ابدع كل ما سواه ويجعلون العقل كالذكر والنفس كالانثى وهذا مما صرحوا به وكانت العرب تفر بأنه خلق السموات والارض وأحدثهما بعد أن لم تكونا ولم يكونوا يقولون إنها قديمة أزلية معه لم تزل معه وهذا مبسوط في موضع آخر¹⁷⁹

المشروع في ذكر الله سبحانه هو ذكره بجملة تامة

و ما ذكره سبويه وغيره من ائمة النحو ان العرب يحكون بالقول ما كان كلاما لا يحكون به ما كان قولاً فالقول لا يحكى به الا كلام تام او جملة اسمية او فعلية ولهذا يكسرون ان جاءت بعد القول فالقول لا يحكى به اسم والله تعالى لا يأمر احدا بذكر اسم مفرد ولا شرع للمسلمين اسما مفردا مجردا والاسم المجرد لا يفيد الايمان باتفاق اهل الاسلام ولا يؤمر به في شئ من العبادات ولا في شئ من المخاطبات ونظير من اقتصر على الاسم المفرد ما يذكر ان بعض الأعراب مر بمؤذن يقول اشهد ان محمدا رسول الله بالنصب فقال ماذا يقول هذا هذا الاسم فاين الخبر عنه الذى يتم به الكلام وما فى القرآن من قوله { وَادْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا

¹⁷⁸ منهاج السنة النبوية ج: 4 ص: 345- 351

¹⁷⁹ الرد على المنطقيين ج: 1 ص: 219

{المزمّل 8} وقوله {سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى} {الأعلى 1} وقوله {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى} {14} وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى} {15} {الأعلى 14-15} وقوله {فَسَبَّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ} الواقعة 74 ونحو ذلك لا يقتضى ذكره مفردا بل فى السنن انه لما نزل قوله {فَسَبَّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ} الواقعة 74 قال اجعلوها فى ركوعكم ولما نزل قوله {سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى} {الأعلى 1} قال اجعلوها فى سجودكم فشرع لهم ان يقولوا فى الركوع سبحان ربي العظيم وفى السجود سبحان ربي الأعلى وفى الصحيح انه كان يقول فى ركوعه سبحان ربي العظيم وفى سجوده سبحان ربي الأعلى وهذا هو معنى قوله اجعلوها فى ركوعكم وسجودكم باتفاق المسلمين فتسبيح اسم ربه الأعلى وذكر اسم ربه ونحو ذلك هو بالكلام التام المفيد كما فى الصحيح عنه انه قال افضل الكلام بعد القرآن اربع وهن من القرآن سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله اكبر وفى الصحيح عنه انه قال كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان فى الميزان حبيبتان الى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم وفى الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم انه قال من قال فى يومه مائة مره لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير كتب الله له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي ولم يأت احد بأفضل مما جاء به الا رجل قال مثل ما قال او زاد عليه ومن قال فى يومه مائة مره سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم حطت عنه خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر وفى الموطأ وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال افضل ما قلته انا والنبيون من قبلى لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير وفى سنن ابن ماجه وغيره عنه انه قال افضل الذكر لا اله الا الله وافضل الدعاء الحمد لله ومثل هذه الأحاديث كثيرة فى انواع ما يقال من الذكر والدعاء وكذلك ما فى القرآن من قوله تعالى {وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ} {الأنعام 121} وقوله {فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ} {المائدة 4} انما هو قوله بسم الله وهذا جملة تامة اما اسمية على اظهر قولى النحاة او فعلية والتقدير ذبحى باسم الله او اذبح باسم الله وكذلك قول القارىء بسم الله الرحمن الرحيم فتقديره قراءتى بسم الله او اقرأ بسم الله ومن الناس من يضم فى مثل هذا ابتدائى بسم الله او ابتدأت بسم الله والأول احسن لأن الفعل كله مفعول بسم الله ليس مجرد ابتدائه كما اظهر المضمرة فى قوله {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ} {العلق 1} وفى قوله {بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا} {هود 41} وفى قول النبي من كان ذبح قبل الصلاة فليذبح مكانها اخرى ومن لم يكن ذبح فليذبح بسم الله ومن هذا الباب قول النبي فى الحديث الصحيح لربيبة عمر بن ابي سلمة سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك فالمراد ان يقول بسم الله ليس المراد ان يذكر الاسم مجردا وكذلك قوله فى الحديث الصحيح لعدي بن حاتم اذا ارسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله فكل وكذلك قوله اذا دخل الرجل منزله فذكر اسم الله عند دخوله وعند خروجه وعند طعامه قال الشيطان لا مبيت لكم ولا عشاء وامثال ذلك كثير وكذلك ما شرع للمسلمين فى صلاتهم واذانهم وحجهم واعبادهم من ذكر الله تعالى انما هو بالحملة التامة كقول المؤذن الله اكبر الله اكبر اشهد ان لا اله الا الله اشهد ان محمدا رسول الله وقول المصلى الله اكبر سبحان ربي العظيم سبحان ربي الاعلى سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد التحيات لله وقول الملبي لبنيك اللهم لبنيك وامثال ذلك فجميع ما شرعه الله من الذكر انما هو كلام تام لا اسم مفرد لا مظهر ولا مضمرة وهذا هو الذى يسمى فى اللغة كلمة كقوله كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان فى الميزان حبيبتان الى الرحمن سبحان الله العظيم وقوله افضل كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد الا كل شىء ما خلا الله باطل ومنه قوله تعالى {كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ} {الكهف 5} الآية وقوله {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا} {الأنعام 115} وامثال ذلك مما استعمل فيه لفظ الكلمة فى الكتاب والسنة بل وسائر كلام العرب فانما يراد به الجملة التامة كما كانوا يستعملون الحرف فى الاسم فيقولون هذا حرف غريب اى لفظ الاسم غريب وقسم سيبويه الكلام الى اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ليس باسم وفعل وكل من هذه الأقسام يسمى حرفا لكن خاصة الثالث انه حرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل وسمى حروف الهجاء باسم الحرف وهى اسماء ولفظ الحرف يتناول هذه الأسماء وغيرها كما قال النبي من قرأ القرآن فأعرب به فله بكل حرف عشر حسنات اما انى لا اقول الم حرف ولكن الف

حرف ولام حرف وميم حرف وقد سأل الخليل اصحابه عن النطق بحرف الزاي من زيد فقالوا زاي فقال جئتم بالاسم وانما الحرف ز ثم ان النحاة اصطالحوا على ان هذا المسمى في اللغة بالحرف يسمى كلمة وان لفظ الحرف يخص لما جاء المعنى ليس باسم ولا فعل كحروف الجر ونحوها واما الفاظ حروف الهجاء فيعبر تارة بالحرف عن نفس الحرف من اللفظ وتارة باسم ذلك الحرف ولما غلب هذا الاصطلاح صار يتوهم من اعتاده انه هكذا في لغة العرب ومنهم من يجعل لفظ الكلمة في اللغة لفظا مشتركا بين الاسم مثلا وبين الجملة ولا يعرف في صريح اللغة من لفظ الكلمة الا الجملة التامة والمقصود هنا ان المشروع في ذكر الله سبحانه هو ذكره بجملة تامة وهو المسمى بالكلام والواحد منه بالكلمة وهو الذي ينفع القلوب ويحصل به الثواب والأجر والقرب الى الله ومعرفة ومحبة وخشيته وغير ذلك من المطالب العالية والمقاصد السامية واما الاقتصار على الاسم المفرد مظهرا او مضمرا فلا اصل له (كما يقول بعض المتصوفة وغيرهم قول (الله) فقط على اعتبار انه ذكر) فضلا عن ان يكون من ذكر الخاصة والعارفين بل هو وسيلة الى انواع من البدع والضلالات وذريعة الى تصورات احوال فاسدة من احوال اهل الالحاد واهل الاتحاد كما قد بسط الكلام عليه في غير هذا الموضع¹⁸⁰

أهل الاسلام والسنة الذين يذكرون أسماء الله يعرفونه ويحبونه

ويظهرون ذكره

فالاسم يظهر به المسمى ويعلو فيقال للمسمى سمة اى اظهره واعله اى اعل ذكره بالاسم الذي يذكر به لكن يذكر تارة بما يحمده ويذكر تارة بما يذمه كما قال تعالى {وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ} الشعراء 84 وقال في النوع المذموم {وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِمَّنْ الْمَقْبُوحِينَ} القصص 42 وقال تعالى {تَنَلُّوا عَلَيْنِكَ مِنْ نَبِيٍّ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} القصص 3 فكلاهما ظهر ذكره لكن هذا امام في الخير وهذا امام في الشر وما ليس له اسم فانه لا يذكر ولا يظهر ولا يعلو ذكره بل هو كالشيء الخفي الذي لا يعرف ولهذا يقال الاسم دليل على المسمى وعلم على المسمى ونحو ذلك ولهذا كان أهل الاسلام والسنة الذين يذكرون أسماء الله يعرفونه ويعبدونه ويحبونه ويذكرونه ويظهرون ذكره والملاحدة الذين ينكرون اسماءه وتعرض قلوبهم عن معرفته وعبادته ومحبته وذكره حتى ينسوا ذكره {نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ} التوبة 67 {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ} الحشر 19 {وَادْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ} الأعراف 205 والاسم يتناول اللفظ والمعنى المتصور في القلب وقد يراد به مجرد اللفظ وقد يراد به مجرد المعنى فانه من الكلام والكلام اسم لفظ والمعنى وقد يراد به أحدهما ولهذا كان من ذكر الله بقلبه أو لسانه فقد ذكره لكن ذكره بهما أتم والله تعالى قد أمر بتسبيح اسمه وامر بالتسبيح باسمه كما أمر بدعائه بأسمائه الحسنى فيدعى بأسمائه الحسنى ويسبح اسمه وتسبيح اسمه هو تسبيح له اذ المقصود بالاسم المسمى كما أن دعاء هو دعاء المسمى قال تعالى {قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} الإسراء 110 والله تعالى يأمر بذكره تارة ويذكر اسمه تارة كما يأمر بتسبيحه تارة وتسبيح اسمه تارة فقال {ادْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا} الأحزاب 41 {وَادْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ} الأعراف 205 وهذا كثير وقال {وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَيَّنْ لِيهِ تَبْيِيلًا} المزمّل 8 كما قال {فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ} الأنعام 118 {وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ}

{الأنعام121} فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ {المائدة4} لكن هنا يقال بسم الله فيذكر نفس الاسم الذى هو ألف سين ميم واما فى قوله {وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ} {المزمل8} فيقال سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله وهذا أيضا مما يبين فساد قول من جعل الاسم هو المسمى قوله فى الذبيحة {فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ} {الأنعام118} كقوله {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ} {العلق1} وقوله **{بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا} {هود41}** فقوله {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ} {العلق1} هو قراءة بسم الله فى أول السور وقد بسط الكلام على هذا فى غير هذا الموضوع وبين ان هذه الآية تدل على أن القارىء مأمور ان يقرأ بسم الله وانها ليست كسائر القرآن بل هى تابعة لغيرها وهنا يقول {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} {النمل30} كما كتب سليمان وكما جاءت به السنة المتواترة واجمع المسلمون بالله الرحمن الرحيم فى قوله {وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ} {الإنسان25} فانه يقول سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله ونحو ذلك وهنا قال {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ} {العلق1} لم يقل اقرأ اسم ربك وقوله {وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ} {الإنسان25} يقتضى أن يذكره بلسانه وأما قوله {وَأَذْكُرْ رَبَّكَ} {آل عمران41} فقد يتناول ذكر القلب وقوله {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ} {العلق1} هو كقول الأكل باسم الله والذابح باسم الله كما قال النبى ومن لم يكن ذبح فليذبح بسم الله وأما التسبيح فقد قال {وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا} {الأحزاب42} وقال {سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى} {الأعلى1} وقال {فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ} {الواقعة74} وفى الدعاء {قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} {الإسراء110} فقوله {أَيًّا مَا تَدْعُوا} {الإسراء110} يقتضى تعدد المدعو لقوله ايا ما وقوله {قُلْ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} {الإسراء110} يقتضى ان المدعو واحد له الاسماء الحسنى وقوله {ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ} {الإسراء110} ولم يقل ادعوا باسم الله او باسم الرحمن يتضمن ان المدعو هو الرب الواحد بذلك الاسم فقد جعل الاسم تارة مدعوا وتارة مدعوا به فى قوله {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا} {الأعراف180} فهو مدعو به باعتبار ان المدعو هو المسمى وانما يدعى باسمه وجعل الاسم مدعوا باعتبار ان المقصود به هو المسمى وان كان فى اللفظ هو المدعو المنادى كما قال {قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ} {الإسراء110} أى ادعوا هذا الاسم أو هذا الاسم والمراد اذا دعوته هو المسمى أى الاسمين دعوت ومرادك هو المسمى {قُلْ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} {الإسراء110} فمن تدبر هذه المعانى اللطيفة تبين له بعض حكم القرآن واسراره ف{تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ} {الفرقان1} فانه كتاب مبارك تنزىل من حكيم حميد لا تتقضى عجائبه ولا يشبع منه العلماء من ابتغى الهدى فى غيره اضله الله ومن تركه من جبار قصمه الله وهو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم وهو قرآن عجب يهدى الى الرشده انزله الله هدى ورحمة وشفاء وبيانا وبصائر وتذكرة فالحمد لله رب العالمين حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه كما يحب ربنا ويرضى وكما ينبغى لكرم وجهه وعز جلاله آخره والله الحمد والمنة صلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم¹⁸¹

لفظ الأمر يراد به المصدر والمفعول

قال تعالى { قَالَ سَأُوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ } هود43 ولفظ الأمر يراد به المصدر والمفعول فالمفعول مخلوق كما قال { أَمْرُ اللَّهِ } النحل1 وقال { وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدْرًا مَقْدُورًا } الأحزاب38 فهنا المراد به المأمور به ليس المراد به أمره الذي هو كلامه وهذه الآية التي إحتج بها هؤلاء تضمنت الشرع وهو الأمر والقدر وقد ضل في هذا الموضع فريقان الجهمية الذين يقولون كلام الله مخلوق و يحتجون بقوله { وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدْرًا مَقْدُورًا } الأحزاب38 ويقولون ما كان مقدورا فهو مخلوق وهؤلاء الحلولية الضالون الذين يجعلون فعل العباد قديما بأنه أمر الله وقدره وأمره وقدره غير مخلوق ومثار الشبهة أن إسم القدر والأمر والشرع يراد به المصدر ويراد به المفعول ففي قوله { وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدْرًا مَقْدُورًا } الأحزاب38 المراد به المأمور به المقذور وهذا مخلوق وأما في قوله { ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ } الطلاق5 فأمره كلامه إذا لم ينزل إلينا الأفعال التي أمرنا بها وإنما أنزل القرآن وهذا كقوله { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا } النساء58 فهذا الأمر هو كلامه¹⁸²

قال تعالى { قَالَ سَأُوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ } هود43 والمضاف إلى الله نوعان فإن المضاف إما أن يكون صفة لا تقوم بنفسها كالعلم والقدرة والكلام والحياة وإما أن يكون عينا قائمة بنفسها فالأول إضافة صفة كقوله { قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ } هود43 فالمضاف في الأول صفة الله قائمة به ليست مخلوقة له بانئة عنه والمضاف في الثاني مملوك لله مخلوق له بائن عنه لكنه مفضل مشرف لما خصه الله به من الصفات التي اقتضت إضافته إلى الله تبارك وتعالى كما خص ناقة صالح من بين النوق وكما خص بيته بمكة من البيوت وكما خص عباده الصالحين من بين الخلق¹⁸³

لم يلزم من اتفاق الاسمين اتفاقهما ولا تماثل المسمى

سمى الله نفسه باسماء وسمى صفاته بأسماء وكانت تلك الاسماء مختصة به اذا اضيفت اليه لا يشركه فيها غيره وسمى بعض مخلوقاته بأسماء مختصة بهم مضافة اليهم توافق تلك الاسماء اذا قطعت عن الاضافة والتخصيص ولم يلزم من اتفاق الاسمين وتماثل مساهما واتحاده عند الاطلاق والتجريد عن الاضافة والتخصيص اتفاقهما ولا تماثل المسمى عند الاضافة والتخصيص فضلا عن ان يتحد مساهما عند الاضافة والتخصيص فقد سمي الله نفسه حيا فقال { اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ } البقرة255 وسمى بعض عباده حيا فقال { يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ نُخْرِجُكَ مِنَ الرُّومِ } الروم19 وليس هذا الحي مثل هذا الحي لأن قوله الحي إسم الله مختص به وقوله { يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ } الروم19

¹⁸²مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 413

¹⁸³الجواب الصحيح ج: 2 ص: 157

اسم للحي المخلوق مختص به وإنما يتفقان اذا اطلقا وجردا عن التخصيص ولكن ليس للمطلق مسمى موجود في الخارج ولكن العقل يفهم من المطلق قدرا مشتركا بين المسميين وعند الاختصاص يقيد ذلك بما يتميز به الخالق عن المخلوق والمخلوق عن الخالق ولا بد من هذا في جميع أسماء الله وصفاته يفهم منها ما دل عليه الاسم بالمواطأة والإتفاق وما دل عليه بالإضافة والاختصاص المانعة من مشاركة المخلوق للخالق في شيء من خصائصه سبحانه وتعالى وكذلك سمي صفاته بأسماء وسمى صفات عباده بنظير ذلك فوصف نفسه بأنه استوى على عرشه فذكر ذلك في سبع مواضع من كتابه أنه استوى على العرش فقال {اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ} الرعد2 ووصف بعض خلقه بالاستواء على غيره في مثل قوله {وَاسْتَوَىٰ عَلَى الْجُودِي} هود44 وليس الاستواء كالإستواء

الله سبحانه أحكم الحاكمين

قال تعالى { وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ } هود45 وأنه سبحانه لا يظلم مثقال ذرة بل مع غاية عدله فهو أرحم الراحمين وهو أرحم من الوالدة بولدها كما أخبر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح وهو سبحانه أحكم الحاكمين كما قال نوح في مناجاته قال تعالى { وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ } هود45

184

فنفس ما يعد الله به الأنبياء والمؤمنين حقا لا يمترون فيه كما قال تعالى في قصة نوح { وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ } هود45¹⁸⁵

الدعاء سبب يقضى الله به ما علم الله أنه سيكون

أن ما أخبر الله أن يكون فلا بد أن يكون ولو سأله أهل السموات والأرض أن لا يكون لم يجبهم مثل إقامة القيامة وأن لا يملأ جهنم من الجنة والناس أجمعين وغير ذلك بل كل ما علم الله أنه يكون فلا يقبل الله دعاء أحد في أن لا يكون لكن الدعاء سبب يقضى الله به ما علم الله أنه سيكون بهذا السبب كما يقضى بسائر الأسباب ما علم أنه سيكون بها وقد سأل الله تعالى من هو أفضل ما هو دون هذا فلم يجابوا لما سبق الحكم بخلاف ذلك كما سأله نوح عليه السلام نجاة ابنه { وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ }

¹⁸⁴مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 195

¹⁸⁵مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 195

{هود45 فقيل له { قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ } هود46¹⁸⁶

فالشفاعة مقصودها قبول المشفوع اليه و هي الشفاعة التامة فهذه هي التي لا تكون الا باذنه و اما اذا شفع شفيع فلم تقبل شفاعته كانت كعدمها و كان على صاحبها التوبة و الاستغفار منها كما قال نوح { رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ } هود47 و كما نهى الله النبي صلى الله عليه و سلم عن الصلاة على المنافقين و قال له { وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَّ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ } التوبة84 و قال له { سِوَاءَ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ } المنافقون6 و لهذا قال على لسان المشركين { فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ } 100 { وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ } 101 { الشعراء 100-101¹⁸⁷

فهو سبحانه قد نفى ما من الملائكة والأنبياء الا من الشفاعة باذنه والشفاعة هي الدعاء ولا ريب أن دعاء الخلق بعضهم لبعض نافع والله قد أمر بذلك لكن الداعي الشافع ليس له أن يدعو ويشفع إلا بإذن الله له في ذلك فلا يشفع شفاعة نهى عنها كالشفاعة للمشركين والدعاء لهم بالمغفرة قال تعالى { مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ } 113 { وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأبيه إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ } 114 { التوبة113-114 وقد ثبت في الصحيح أن الله نهى نبيه عن الاستغفار للمشركين والمنافقين وأخبر أنه لا يغفر لهم كما في قوله { إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا } النساء48 وقوله { ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ } الأعراف55 في الدعاء ومن الإعتداء في الدعاء أن يسأل العبد ما لم يكن الرب ليفعله مثل أن يسأله منازل الأنبياء وليس منهم أو المغفرة للمشركين ونحو ذلك أو يسأله ما فيه معصية الله كإعانتة على الكفر والفسوق والعصيان فالشفيع الذي أذن الله له في الشفاعة شفاعته في الدعاء الذي ليس فيه عدوان ولو سأل أحدهم دعاء لا يصلح له لا يقر عليه فإنهم معصومون أن يقرؤا على ذلك كما قال نوح { رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ } هود45 قال تعالى { يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ } 46 { قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ } 47 { هود46-47 وكل داع شافع دعا الله سبحانه وتعالى وشفع فلا يكون دعاؤه وشفاعته إلا بقضاء الله وقدره ومشيتته وهو الذي يجيب الدعاء ويقبل الشفاعة فهو الذي خلق السبب والمسبب والدعاء من جملة الأسباب التي قدرها الله سبحانه وتعالى وإذا كان كذلك فالإلتفات الى الأسباب شرك في التوحيد ومحو الأسباب أن تكون أسبابا نقص في

¹⁸⁶الحسنة والسيئة ج: 1 ص: 118

¹⁸⁷الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 134 مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 415

العقل والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع بل العبد يجب أن يكون توكله ودعاؤه وسؤاله ورغبته الى الله سبحانه وتعالى والله يقدر له من الأسباب من دعاء الخلق وغيرهم ما شاء والدعاء مشروع أن يدعو الأعلى للأدنى والأدنى للأعلى فطلب الشفاعة والدعاء من الأنبياء كما كان المسلمون يستشفعون بالنبي في الإستسقاء ويطلبون منه الدعاء بل وكذلك بعده استسقى عمر والمسلمون بالعباس عمه والناس يطلبون الشفاعة يوم القيامة من الأنبياء¹⁸⁸

السؤال كثيرا ما يجيء باسم الرب

وحال العبد المحض لله الذي يعبد ويستعينه فيعمل له ويستعينه ويحقق قوله {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} الفاتحة 5 توحيد الالهية وتوحيد الربوبية وان كانت الالهية تتضمن الربوبية تستلزم الالهية فان احدهما اذا تضمن الآخر عند الافراد لم يمنع ان يختص بمعناه عند الاقتران كما في قوله { قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ } 1 { مَلِكِ النَّاسِ } 2 { إِلَهِ النَّاسِ } 3 { النَّاسِ } 1-3 وفي قوله { الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } الفاتحة 2 فجميع بين الاسمين اسم الاله واسم الرب فان الاله هو المعبود الذي يستحق ان يعبد والرب هو الذي يرب عبده فيدبره ولهذا كانت العبادة متعلقة باسمه الله والسؤال متعلقا باسمه الرب فان العبادة هي الغاية التي لها خلق الخلق والالهية هي الغاية والربوبية تتضمن خلق الخلق وانشاءهم فهو متضمن ابتداء حالهم والمصلى اذا قال {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} الفاتحة 5 فبدأ بالمقصود الذي هو الغاية على الوسيلة التي هي البداية فالعبادة غاية مقصوده والاستعانة وسيلة اليها تلك حكمة وهذا سبب والفرق بين العلة الغائية والعلة الفاعلية معروف ولهذا يقال اول الفكرة آخر العمل واول البيغية آخر الدرك فالعلة الغائية متقدمة في التصور والارادة وهي متأخرة في الوجود فالمؤمن يقصد عباده الله ابتداء وهو يعلم ان ذلك لا يحصل الا باعانتهم فيقول {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} الفاتحة 5 ولما كانت العبادة متعلقة باسمه الله تعالى جاءت الأذكار المشروعة بهذا الاسم مثل كلمات الأذان الله اكبر الله اكبر ومثل الشهادتين اشهد ان لا اله الا الله اشهد ان محمدا رسول الله ومثل التشهد التحيات لله ومثل التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله اكبر واما السؤال فكثيرا ما يجيء باسم الرب كقول آدم وحواء { رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ } الأعراف 23 وقول نوح { رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ } هود 47 وقول موسى { رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي } القصص 16 وقول الخليل { رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ دُرِّيِّ بَوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ } إبراهيم 37 الآية وقوله مع اسماعيل { رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } البقرة 127 وكذلك قول الذين قالوا { رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ } البقرة 201 ومثل هذا كثير وقد نقل عن مالك انه قال اكره للرجل ان يقول في دعائه ياسيدى ياسيدى يا حنان يا حنان ولكن يدعو بما دعت به الأنبياء ربنا ربنا ربنا نقله عنه العتبي في العتبية وقال تعالى عن اولي الألباب { الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ قَفْنَا عَذَابَ النَّارِ } آل عمران 191 الآيات فإذا سبق الى قلب العبد قصد السؤال ناسب ان يسأله باسمه الرب وان سأله باسمه الله لتضمنه اسم الرب كان حسنا واما اذا سبق الى قلبه قصد العبادة فاسم الله اولي بذلك اذا بدأ بالثناء ذكر اسم الله واذا قصد الدعاء دعا باسم الرب¹⁸⁹

¹⁸⁸مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 131

¹⁸⁹الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 331 و مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 286

حسن الأدب في السؤال والدعاء

لفظ الدعاء والدعوة في القرآن يتناول معنيين دعاء العبادة ودعاء المسألة قال الله تعالى { فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ } الشعراء 213 قال الله تعالى { وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } يونس 10 وفي الحديث أفضل الذكر لا اله الا الله وأفضل الدعاء الحمد لله رواه ابن ماجة وابن ابي الدنيا وقال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه الترمذي وغيره دعوة أخي ذي النون { لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ } الأنبياء 87 ما دعا بها مكروب الا فرج الله كربته سماها دعوة لانها تتضمن نوعي الدعاء فقوله لا اله الا انت اعتراف بتوحيد الالهية وتوحيد الالهية يتضمن احد نوعي الدعاء فان الاله هو المستحق لان يدعى دعاء عبادة ودعاء مسألة وهو الله لا اله الا هو وقوله { إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ } الأنبياء 87 اعتراف بالذنب وهو يتضمن طلب المغفرة فان الطالب السائل تارة يسأل بصيغة الطلب وتارة يسأل بصيغة الخبر اما بوصف حاله واما بوصف حال المسؤول واما بوصف الحاليين كقول نوح عليه السلام { قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنَ مِنَ الْخَاسِرِينَ } هود 47 فهذا ليس بصيغة طلب وانما هو إخبار عن الله انه ان لم يغفر له ويرحمه خسر ولكن هذا الخبر يتضمن سؤال المغفرة وكذلك قول آدم عليه السلام { رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ } الأعراف 23 هو من هذا الباب ومن ذلك قول موسى عليه السلام { رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ } القصص 24 فان هذا وصف لحاله بانه فقير الى ما انزل الله اليه من الخير وهو يتضمن لسؤال الله انزال الخير اليه وقد روى الترمذي وغيره عن النبي انه قال من شغله قراءة القرآن عن ذكرى ومسألتى اعطيته افضل ما اعطى السائلين رواه الترمذي وقال حديث حسن ورواه مالك بن الحويرث وقال من شغله ذكرى عن مسألتى اعطيته افضل ما اعطى السائلين وأظن البيهقي رواه مرفوعا بهذا اللفظ وقد سئل سفيان بن عيينة عن قوله أفضل الدعاء يوم عرفة لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير فذكر هذا الحديث وأنشد قول أمية بن ابي الصلت يمدح ابن جدعان أذكر حاجتى ام قد كفانى حباؤك ان شيمتك الحياء اذا اتى عليك المرء يوما كفاه من تعرضه الثناء قال فهذا مخلوق يخاطب مخلوقا فكيف بالخالق تعالى ومن هذا الباب الدعاء المأثور عن موسى عليه السلام اللهم لك الحمد وإليك المشتكى وانت المستعان وبك المستغاث وعليك التكلان فهذا خبر يتضمن السؤال ومن هذا الباب قول ايوب عليه السلام { أَنِّي مَسْتَبِي الضَّرِّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ } الأنبياء 83 فوصف نفسه ووصف ربه بوصف يتضمن سؤال رحمته بكشف ضره وهى صيغة خبر تضمنت السؤال وهذا من باب حسن الأدب فى السؤال والدعاء فقوله القائل لمن يعظمه ويرغب إليه انا جائع انا مريض حسن ادب فى السؤال وان كان فى قوله اطعمنى وداونى ونحو ذلك مما هو بصيغة الطلب حازم من المسؤول فذاك فيه اظهار حاله وإخباره على وجه النذل والافتقار المتضمن لسؤال الحال وهذا فيه الرغبة التامة والسؤال المحض بصيغة الطلب وهذه الصيغة صيغة الطلب والاستدعاء إذا كانت لمن يحتاج اليه الطالب او ممن يقدر على قهر المطلوب منه ونحو ذلك فإنها تقال على وجه الأمر إما لما فى ذلك من حاجة الطالب واما لما فيه من نفع المطلوب فاما اذا كانت منة الفقير من كل وجه للغنى من كل وجه فانها سؤال محض بتذلل وافتقار واطهار الحال ووصف الحاجة والافتقار هو سؤال بالحال وهو ابلغ من جهة العلم والبيان وذلك اظهر من جهة القصد والارادة فلهذا كان غالب الدعاء من القسم الثانى لأن الطالب السائل يتصور ومقصوده ومراده فيطلبه ويسأله فهو سؤال بالمطلوب والقصد الأول وتصريح به باللفظ وان لم يكن فيه وصف لحال السائل والمسؤل فان تضمن وصف حالهما كان اكمل من النوعين فانه يتضمن الخبر والعلم المقضى للسؤال والإجابة

ويتضمن القصد والطلب الذي هو نفس السؤال فيتضمن السؤال والمقتضى له والاجابة كقول
النبى صلى الله عليه وسلم لأنى بكر الصديق رضى الله عنه لما قال له علمنى دعاء ادعوه به
فى صلاتى فقال قل اللهم انى ظلمت نفسى ظلما كثيرا ولا يغفر الذنوب الا انت فاغفر لى
مغفرة من عندك وارحمنى انك انت الغفور الرحيم اخرجاه فى الصحيحين فهذا فيه
وصف العبد لحال نفسه المقتضى حاجته الى المغفرة فيه وصف ربه الذى يوجب انه لا يقدر على
هذا المطلوب غيره وفيه التصريح بسؤال العبد لمطلوبه وفيه بيان المقتضى للاجابة وهو وصف
الرب بالمغفرة والرحمة فهذا ونحوه اكمل انواع الطلب وكثير من الادعية يتضمن بعض ذلك
كقول موسى عليه السلام { أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْعَافِرِينَ } الأعراف 155
فهذا طلب ووصف للمولى بما يقتضى الاجابه وقوله { رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي
} القصص 16 فيه وصف حال النفس والطلب وقوله { إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ
} القصص 24 فيه الوصف المتضمن للسؤال بالحال فهذه انواع لكل نوع منها خاصة بيقى ان
يقال فصاحب الحوت ومن اشبهه ومن اشبهه لماذا ناسب حالهم صيغة الوصف والخبر دون
صيغة الطلب فيقال لان المقام مقام اعتراف بان ما اصابنى من الشر كان بذنبى فأصل الشر هو
الذنب والمقصود دفع الضر والاستغفار جاء بالقصد الثاني فلم يذكر صيغة طلب كشف الضر
لاستشعاره انه مسيء ظالم وهو الذي ادخل الضر على نفسه فناسب حاله ان يذكر ما يرفع سببه
من الاعتراف بظلمه ولم يذكر صيغة طلب المغفرة لانه مقصود للعبد المكروب بالقصد الثاني
بخلاف كشف الكرب فانه مقصود له فى حال وجوه بالقصد الاول اذ النفس بطبعها تطلب ما هي
محتاجة اليه من زوال الضرر الحاصل من الحال قبل طلبها زوال ما تخاف وجوده من الضرر
فى المستقبل بالقصد الثاني والمقصود الاول فى هذه المقام هو المغفرة وطلب كشف الضر فهذا
مقدم فى قصده وارادته وابلغ ما ينال به رفع سببه فجاء بما يحصل مقصوده وهذا يتبين
بالكلام على قول { سُبْحَانَكَ } الأنبياء 87 فانه هذا اللفظ يتضمن تعظيم الرب وتنزيهه والمقام
يقتضى تنزيهه عن الظلم والعقوبة بغير ذنب يقول انت مقدس ومنزه عن ظلمى وعقوبتى بغير
ذنب بل انا الظالم الذي ظلمت نفسى قال تعالى { وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ
} النحل 118 وقال تعالى { وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ } هود 101 وقال { وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ
وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ } الزخرف 76 وقال آدم عليه السلام { رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ
لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ } الأعراف 23 وكذلك قال النبى فى الحديث الصحيح الذي فى
مسلم فى دعاء الاستفتاح لا اللهم انت الملك لا اله الا انت انت ربي وانا عبدك ظلمت نفسى
واعترفت بذنبى فاغفر لى ذنوبى جميعا فانه لا يغفر الذنوب الا انت وفى صحيح البخارى
سيد الاستغفار ان يقول العبد اللهم انت ربي لا اله الا انت خلقتنى وانا عبدك وانا على عهدك
ووعدك ما استطعت اعوذ بك من شر ما صنعت ابوء لك بنعمتك علي وابوء بذنبى فاغفر لى فانه
لا يغفر الذنوب الا انت من قالها اذا اصبح موقنا بها فمات من يومه دخل الجنة ومن قالها اذا
امسى موقنا بها فمات من ليلته دخل الجنة فالعبد عليه ان يعترف بعدل الله واحسانه فانه لا
يظلم الناس شيئا فلا يعاقب احدا الا بذنبه وهو يحسن اليهم فكل نعمة منه عدل وكل نعمة منه
فضل¹⁹⁰

¹⁹⁰الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 308- 314 و مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 244-249 و دقائق

إذا سألت فاسئَل الله وإذا استعنت فاستعن بالله

وتوحيد الله وإخلاص الدين له في عبادته وإستعانته في القرآن كثير جدا بل هو قلب الإيمان وأول الإسلام وآخره كما قال النبي صلى الله عليه وسلم أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وقال إني لأعلم كلمة لا يقولها عند الموت أحد إلا وجد روحه لها روحا وقال من كان آخر كلامه لا إله إلا الله وجبت له الجنة وهو قلب الدين والإيمان وسائر الأعمال كالجوارح له وقول النبي إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل أمرى ما نوى فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر اليه فبين بهذا أن النية عمل القلب وهى أصل العمل وإخلاص الدين لله وعبادة الله وحده ومتابعة الرسول فيما جاء به هو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وهو دين الإسلام العام الذي بعث الله به جميع الرسل كما قال تعالى {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} النحل36 وقال النبي لمعاذ بن جبل يا معاذ أتدرى ما حق الله على عباده قلت الله ورسوله أعلم قال حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك أن لا يعذبهم وقال لابن عباس إذا سألت فاسئَل الله وإذا استعنت فاستعن بالله وقال تعالى {قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ} هود47¹⁹¹

إثبات العصمة من الإقرار على الذنوب مطلقا

وأما العصمة في غير ما يتعلق بتبليغ الرسالة فللناس فيه نزاع هل هو ثابت بالعقل أو بالسمع ومنتازعون في العصمة من الكبار والصغائر أو من بعضها أم هل العصمة إنما هي في الإقرار عليها لا في فعلها أم لا يجب القول بالعصمة إلا في التبليغ فقط وهل تجب العصمة من الكفر والذنوب قبل المبعث أم لا والكلام على هذا مبسوط في غير هذا الموضوع والقول الذي عليه جمهور الناس وهو الموافق للأثر المنقولة عن السلف إثبات العصمة من الإقرار على الذنوب مطلقا والرد على من يقول أنه يجوز إقرارهم عليها وحجج القائلين بالعصمة إذا حررت إنما تدل على هذا القول وحجج النفاة لا تدل على وقوع ذنب أقر عليه الأنبياء فإن القائلين بالعصمة احتجوا بأن الناسي بهم مشروع وذلك لا يجوز إلا مع تجويز كون الأفعال ذنوبا ومعلوم أن الناسي بهم إنما هو مشروع فيما أقروا عليه دون ما نهوا عنه ورجعوا عنه كما أن الأمر والنهي إنما تجب طاعتهم فيما لم ينسخ منه فأما ما نسخ من الأمر والنهي فلا يجوز جعله مأمورا به ولا منهيًا عنه فضلا عن وجوب اتباعه والطاعة فيه وكذلك ما احتجوا به من أن الذنوب تنافي الكمال أو أنها ممن عظمت عليه النعمة أقبح أو أنها توجب التنفير أو نحو ذلك من الحجج العقلية فهذا إنما يكون مع البقاء على ذلك وعدم الرجوع وإلا فالتوبة النصوح التي يقبلها الله يرفع بها صاحبها إلى أعظم مما كان عليه كما قال بعض السلف كان داود عليه السلام بعد التوبة خيرا منه قبل الخطيئة وقال آخر لو لم تكن التوبة أحب الأشياء إليه لما ابتلى بالذنب أكرم الخلق عليه وقد ثبت في الصحاح حديث التوبة أفرح بتوبة عبده من رجل نزل منزلا إلخ وقد قال تعالى { إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ } البقرة222 وقال تعالى {إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ} الفرقان70 وقد ثبت في الصحيح حديث

الذي يعرض الله صغار ذنوبه ويخبا عنه كبارها وهو مشفق من كبارها أن تظهر فيقول الله له إنني قد غفرتها لك وأبدلتك مكان كل سيئة حسنة فيقول أي رب إن لي سيئات لم أرها إذا رأى تبديل السيئات بالحسنات طلب رؤية الذنوب الكبار التي كان مشفقا منها أن تظهر ومعلوم أن حاله هذه مع هذا التبديل أعظم من حاله لو لم تقع السيئات ولا التبديل وقال طائفة من السلف منهم سعيد بن جبير إن العبد ليعمل الحسنة فيدخل بها النار وإن العبد ليعمل السيئة فيدخل بها الجنة يعمل الحسنة فيعجب بها ويفتخر بها حتى تدخله النار ويعمل السيئة فلا يزال خوفه منها وتوبته منها حتى تدخله الجنة وقد قال تعالى { وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا } {72} لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا } {73} الأحزاب 72- 73 فغاية كل إنسان أن يكون من المؤمنين والمؤمنات الذين تاب الله عليهم وفي الكتاب والسنة الصحيحة والكتب التي أنزلت قبل القرآن مما يوافق هذا القول ما يتعذر إحصاؤه والرادون لذلك تأولوا ذلك بمثل تأويلات الجهمية والقدرية والذهرية لنصوص الأسماء والصفات ونصوص القدر ونصوص المعاد وهي من جنس تأويلات القرامطة الباطنية التي يعلم بالاضطرار أنها باطلة وأنها من باب تحريف الكلم عن مواضعه وهؤلاء يقصد أحدهم تعظيم الأنبياء فيقع في تكذيبهم ويريد الإيمان بهم فيقع في الكفر بهم ثم أن العصمة المعلومة بدليل الشرع والعقل والإجماع وهي العصمة في التبليغ لم ينتفعوا بها إذ كانوا لا يقرون بموجب ما بلغته الأنبياء وإنما يقرون بلفظ حرفوا معناه أو كانوا فيه كالأميين الذين لا يعلمون الكتاب إلا أماني والعصمة التي كانوا ادعوا لو كانت ثابتة لم ينتفعوا بها ولا حاجة بهم إليها عندهم فإنها متعلقة بغيرهم لا بما أمروا بالإيمان به فيتكلم أحدهم فيها على الأنبياء بغير سلطان من الله ويدع ما يجب عليه من تصديق الأنبياء وطاعتهم وهو الذي تحصل به السعادة وبضده تحصل الشقاوة قال تعالى { فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ } النور 54 الآية و الله تعالى لم يذكر في القرآن شيئا من ذلك عن نبي من الأنبياء إلا مقرونا بالتوبة والاستغفار كقول آدم وزوجته { رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ } الأعراف 23 وقول نوح { رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ } هود 47 وقول الخليل عليه السلام { رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ } إبراهيم 41 وقوله { وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ } الشعراء 82 وقول موسى { أَنْتَ وَلِيِّنا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ } {155} وَكَتَبْنَا لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا إِلَيْكَ } الأعراف 155-156 وقوله { قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي } القصص 16 وقوله { فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ } الأعراف 143 وقوله تعالى عن داود { فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ } {24} فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ } {25} ص 24- 25 وقوله تعالى عن سليمان { رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ } ص 35¹⁹²

وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها ومن اتبعهم على ما أخبر الله به في كتابه وما ثبت عن رسوله من توبة الأنبياء عليهم السلام من الذنوب التي تابوا منها وهذه التوبة رفع الله بها درجاتهم فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين وعصمتهم هي من أن يقروا على الذنوب والخطأ فإن من سوى الأنبياء يجوز عليهم الذنوب الخطأ من غير توبة والأنبياء عليهم السلام يستدرکهم الله فيتوب عليهم

ويبين لهم كقول نوح { رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي }¹⁹³
أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ {هود47

التوبة من أفضل الكمالات وهي واجبة على جميع الخلق

فإن كل بنى آدم خطاء وخير الخاطئين التوابون وقد قال تعالى { وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا } {72} لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا {73} الأحزاب 72-73 فغاية المؤمنين الأنبياء فمن دونهم هي التوبة قال الله تعالى { فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } البقرة 37 وقال نوح { رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ } {هود47} وقال إبراهيم وإسماعيل { رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } البقرة 128 وقال موسى { أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ } الأعراف 155 ودعاء نبينا بمثل ذلك كثير معروف¹⁹⁴

قوله تعالى { لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ } التوبة 117 الآية الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم معصومون من الإقرار على الذنوب كبارها وصغارها وهم بما أخبر الله به عنهم من التوبة يرفع درجاتهم ويعظم حسناتهم فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين وليست التوبة نقصا بل هي من أفضل الكمالات وهي واجبة على جميع الخلق كما قال تعالى { وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا } {72} لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا {73} الأحزاب 72-73 فغاية كل مؤمن هي التوبة ثم التوبة تنتوع كما يقال حسنات الأبرار سيئات المقربين والله تعالى قد أخبر عن عامة الأنبياء بالتوبة والإستغفار عن آدم ونوح وإبراهيم وموسى وغيرهم فقال آدم { قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ } الأعراف 23 وقال نوح { رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ } {هود47} وقال الخليل { رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ } إبراهيم 41 وقد قال الله تعالى { وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ } محمد 19 فتوبة المؤمنين واسغفارهم هو من أعظم حسناتهم وأكبر طاعاتهم وأجل عباداتهم التي ينالوا بها أجل الثواب ويندفع بها عنهم ما يدفعه من العقاب فإذا قال القائل أي حاجة بالأنبياء إلى العبادات والطاعات كان جاهلا لأنهم إنما نالوا ما نالوه بعبادتهم وطاعتهم فكيف يقال إنهم لا يحتاجون إليها فهي أفضل عبادتهم وطاعتهم وإذا قال القائل فالتوبة لا تكون إلا عن ذنب والإستغفار كذلك قيل له الذنب الذي يضر صاحبه هو ما لم يحصل منه توبة فأما ما حصل منه توبة فقد يكون صاحبه بعد التوبة أفضل منه قبل الخطيئة كما قال بعض السلف كان داود بعد التوبة أحسن منه حالا قبل الخطيئة¹⁹⁵

¹⁹³رسالة في التوبة ج: 1 ص: 269

¹⁹⁴مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 520

¹⁹⁵مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 51-54

أقسام الكلام وأنواعه الله موصوف بها كلها

أن الكلام معانيه وحروفه تنقسم إلى خبر وإنشاء والإنشاء منه الطلب والطلب ينقسم إلى أمر ونهي وحقيقة الطلب غير حقيقة الخبر فكيف لا تكون هذه أقسام الكلام وأنواعه بل هو موصوف بها كلها وأيضاً فالله تعالى يخبر أنه لما أتى موسى الشجرة ناداه فناداه في ذلك الوقت لم يناده في الأزل وكذلك قال {وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ} الأعراف 11 وقال {إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} آل عمران 59 وقال {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ} البقرة 30 إلى مواضع كثيرة من القرآن تبين أنه تكلم بالكلام المذكور في ذلك الوقت فكيف يكون أزلياً أبدياً ما زال ولا يزال وكيف يكون لم يزل ولا يزال قائلاً {يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا} هود 48 {يَا عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ صَلِّ عَلَيْنَا مِمَّا فِي سَمَاءِ} آل عمران 55 {يَا مُوسَىٰ} طه 11 إلى قوله {إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا} طه 14 {يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ} 1 {فَمِ اللَّيْلِ إِلَّا قَلِيلًا} 2 {المزمل 1-2} 196

المؤمن يطلب نعيم الدنيا والنعيم التام في الآخرة

قال تعالى {قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَّتٍ مِّمَّن مَعَكَ وَأُمَّم سَأَلْتَهُمْ ثُمَّ يَمْسُهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ} 48 {تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْعَالَمِينَ نَحْيِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ} 49 {هود 48-49} وقال تعالى {إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ} 13 {وَأَنَّ الْفَجَارَ لَفِي جَحِيمٍ} 14 {الانفطار 13-14} وعد الله أهل الإيمان والعمل الصالح بالنعيم التام في الدار الآخرة ووعد الكفار بالعذاب التام في الدار الآخرة أعظم من أن يذكر هنا وهذا مما لم ينازع فيه أحد من أهل الإسلام من الخطأ الظن بأن نعيم الدنيا لا يكون إلا لأهل الكفر والفجور ولكن تذكر هنا نكتة نافعة وهو أن الإنسان قد يسمع ويرى ما يصيب كثيراً من أهل الإيمان والإسلام في الدنيا من المصائب وما يصيب كثيراً من الكفار والفجار في الدنيا من الرياسة والمال وغير ذلك فيعتقد أن النعيم في الدنيا لا يكون إلا لأهل الكفر والفجور وأن المؤمنين ليس لهم في الدنيا ما يتنعمون به إلا قليلاً وكذلك قد يعتقد أن العزة والنصرة قد تستقر للكفار والمنافقين علي المؤمنين وإذا سمع ما جاء في القرآن من أن العزة لله ورسوله وللمؤمنين وأن العاقبة للتقوى وقول الله تعالى {وَأِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْعَالِيُونَ} {الصافات 173} وهو ممن يصدق بالقرآن حمل هذه الآيات علي الدار الآخرة فقط وقال أما الدنيا فما نرى بأعيننا إلا أن الكفار والمنافقين فيها يظهرون ويغلبون المؤمنين ولهم العزة والنصرة والقرآن لا يرد بخلاف المحسوس ويعتمد علي هذا فيما إذا أديل عليه عدو من جنس الكفار والمنافقين أو الظالمين وهو عند نفسه من أهل الإيمان والتقوى فيرى أن صاحب الباطل قد علا علي صاحب الحق فيقول أنا علي الحق وأنا مغلوب وإذا ذكره إنسان بما وعده الله من حسن العاقبة للمتقين قال هذا في الآخرة فقط وإذا قيل له كيف يفعل الله بأوليائه مثل هذه الأمور قال يفعل ما يشاء وربما قال بقلبه أو لسانه أو كان حاله يقتضى أن هذا نوع من الظلم وربما ذكر قول بعضهم ما علي الخلق أضر من الخالق لكن يقول يفعل الله ما يشاء وإذا ذكر برحمة الله وحكمته لم يقل إلا أنه يفعل ما يشاء فلا يعتقدون أن صاحب

الحق والتقوى منصور مؤيد بل يعتقدون أن الله يفعل ما يشاء وهذه الأقوال مبنية علي مقدمتين إحداهما حسن ظنه بدين نفسه نوعا أو شخصا واعتقاد أنه قائم بما يجب عليه وتارك ما نهي عنه في الدين الحق واعتقاده في خصمه ونظيره خلاف ذلك أن دينه باطل نوعا أو شخصا لأنه ترك المأمور وفعل المحذور والمقدمة الثانية أن الله قد لا يؤيد صاحب الدين الحق وينصره وقد لا يجعل له العقاب في الدنيا فلا ينبغي الاعتراض بهذا المؤمن يطلب نعيم الدنيا والنعيم التام في الآخرة ومن المعلوم أن العبد وإن أقر بالآخرة فهو يطلب حسن عاقبة الدنيا فقد يطلب ما لا بد منه من دفع الضرر وجلب المنفعة وقد يطلب من زيادة النفع ودفع الضرر ما يظن أنه مباح فإذا اعتقد أن الدين الحق قد ينافي ذلك لزم من ذلك إعراض القلب عن الرغبة في كمال الدين الحق وفي حال السابقين والمقربين بل قد يعرض عن حال المقتصدین أصحاب اليمين فيدخل مع الظالمين بل قد يكفر ويصير من المرتدين المنافقين أو المعلنين بالكفر وإن لم يكن هذا في أصل الدين كان في كثير من أصوله وفروعه كما قال النبي يصبح الرجل مؤمنا ويمسى كافرا أو يمسى مؤمنا ويصبح كافرا يبيع دينه بعرض من الدنيا وذلك إذا اعتقد أن الدين لا يحصل إلا بفساد دنياه ولذلك فإنه يفرح بحصول الضرر له ويرجو ثواب ضياع ما لا بد له من المنفعة وهذه الفتنة التي صدمت أكثر بنى آدم عن تحقيق الدين وأصلها الجهل بحقيقة الدين وبحقيقة النعيم الذي هو مطلوب النفوس في كل وقت إذ قد ذكرنا أن كل عمل فلا بد فيه من إرادة به لطلب ما ينعم فهناك عمل يطلب به النعيم ولا بد أن يكون المرء عارفا بالعمل الذي يعمل به والنعيم الذي يطلبه ثم إذا علم هذين الأصلين فلا بد أن تكون فيه إرادة جازمة علي العمل بذلك وإلا فالعلم بالمطلوب وبطريقه لا يحصلان المقصود إلا مع الإرادة الجازمة والارادة الجازمة لا تكون إلا مع الصبر ولهذا قال سبحانه وتعالى { وَالْعَصْرُ {1} إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ {2} إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَّوْا بِالصَّبْرِ {3} العصر 1-3 وَقَالَ تَعَالَى { وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ {السجدة 24} فاليقين هو العلم الثابت المستقر والصبر لا بد منه لتحقيق الإرادة الجازمة والمقدمتان اللتان التي بنيت عليهما هذه البلية مبناهما على الجهل بأمر الله ونهيه وبوعده ووعيده فإن صاحبهما إذا اعتقد أنه قائم بالدين الحق فقد اعتقد أنه فاعل للمأمور تارك للمحذور وهو على العكس من ذلك وهذا يكون من جهله بالدين الحق وإذا اعتقد أن صاحب الحق لا ينصره الله في الدنيا بل قد تكون العقاب في الدنيا للكفار على المؤمنين ولأهل الفجور علي أهل البر فهذا من جهله بوعد الله تعالى من الخطأ الاعتقاد أن الله ينصر الكفار في الدنيا ولا ينصر المؤمنين أما الأول فما أكثر من يترك واجبات لا يعلم بها ولا بوجوبها وما أكثر من يفعل محرّمات لا يعلم بتحريمها بل ما أكثر من يعبد الله بما حرم ويترك ما أوجب وما أكثر من يعتقد أنه هو المظلوم المحق من كل وجه وأنه خصمه هو الظالم المبطل من كل وجه ولا يكون الأمر كذلك بل يكون معه نوع من الباطل والظلم ومع خصمه نوع من الحق والعدل وحبك الشيء يعمي ويصم والإنسان مجبول على محبة نفسه فهو لا يرى إلا محاسنها ومبغض لخصمه فلا يرى إلا مساوئه وهذا الجهل غالبه مقررون بالهوى والظلم فإن الإنسان ظلوم جهول وأكثر ديانات الخلق إنما هي عادات أخذوها عن آبائهم وأسلافهم وتقليدهم في التصديق والتكذيب والحب والبغض والموالات والمعاداة كما قال تعالى { وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا آبَاءَنَا أُولَئِكَ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى الْعَذَابِ السَّعِيرِ {لقمان 21} وقال تعالى { يَوْمَ نُقَلِّبُ وُجُوهَهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ {66} وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا {67} الأحزاب 66-67 وقال تعالى { وَمَا تَقَرَّفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيَا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَفُضِّي بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أَوْرَثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ {الشورى 14} وأما الثاني فما أكثر من يظن أن أهل الدين الحق في الدنيا يكونون أدلاء معذبين بما فيه بخلاف من فارقهم إلي طاعة أخري وسبيل آخر ويكذب بوعد الله بنصرهم والله سبحانه قد بين بكتابه كلا المقدمتين فقال تعالى { إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ {غافر 51} وقال تعالى في كتابه { وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ {171} إِنَّهُمْ لَهُمُ

الْمُنصُورُونَ {172} وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ {173} {الصفات 171- 173} وقال تعالى في كتابه {إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كَثَبُوا وَكَبُتُوا كَمَا كُتِبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} {المجادلة 5} وقال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ} {20} {كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ} {21} {المجادلة 20- 21} وقال تعالى في كتابه {إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ} {55} {وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ} {56} {المائدة 55- 56} واذم من يطلب النصرة بولاء غير هؤلاء فقال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} {51} {فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَحْسَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ} {52} {وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهْوَءَاءَ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ} {53} {المائدة 51- 53} وقال تعالى في كتابه {بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} {138} {الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَلِيبْتِغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا} {139} {النساء 138- 139} وقال تعالى في كتابه {يَقُولُونَ لِنَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعْرَابُ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِلَّهِ الْغَنَاءُ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ} {المنافقون 8} وقال تعالى في كتابه {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ} {فاطر 10} وقال في كتابه {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا} {الفتح 28} وقال تعالى في كتابه {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} {9} {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ} {10} {تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} {11} {يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} {12} {وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ الْمُؤْمِنِينَ} {13} {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ} {14} {الصف 9- 14} وقال تعالى في كتابه {يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ إِنِّي فَتَوَقَّيْتُكَ وَرَافَعْتُكَ إِلَى وَمُطَهَّرْتُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ} {آل عمران 55} وقال تعالى في كتابه {وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلُوا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُجِدُونَ وِلْيَاءً وَلَا نَصِيرًا} {22} {سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا} {23} {الفتح 22- 23} وقال تعالى في كتابه {هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ} {الحشر 2} {إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} {الحشر 4} وقال تعالى {وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} {آل عمران 139} وقال تعالى لما قص قصة نوح وهي نصرة علي قومه في الدنيا فقال تعالى {تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ} {هود 49} وقال تعالى {وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى} {طه 132} وقال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا} {آل عمران 118} {إِلَى قَوْلِهِ {وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ} {آل عمران 120} وقال تعالى {بَلَى إِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِّنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ} {آل عمران 125} وقال يوسف وقد نصره الله في الدنيا لما دخل عليه إخوته {قَالُوا إِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} {يوسف 90} وقال تعالى في كتابه {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} {الأنفال 29} وقال تعالى {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا} {2} {وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ

شَيْءٍ قَدْرًا {3} الطلاق 2-3 وقد روي عن أبي ذر عن النبي أنه قال لو عمل الناس كلهم بهذه الآية لوسعتهم ولهذا أمر الله رسوله والمؤمنين باتباع ما أنزل إليهم وهو طاعته وهو المقدمة الأولى وأمرهم بانتظار وعده وهي المقدمة الثانية وأمرنا بالاستغفار والصبر لأنهم لا بد أن يحصل لهم تقصير وذنوب فيزيله الاستغفار ولا بد مع انتظار الوعد من الصبر فبالاستغفار تتم الطاعة وبالصبر يتم اليقين بالوعد إن كان هذا كله يدخل في مسمى الطاعة والإيمان قال تعالى {وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ} {يونس 109} وقال تعالى {وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولًا مِّن قَبْلِكَ فَاصْبِرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْذُوا حَتَّىٰ أَنهَابَهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبِيِّ الْمُرْسَلِينَ {الأنعام 34} وقال تعالى { فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ } {هود 49} وأمرهم أيضا بالصبر إذا أصابتهم مصيبة بذنوبهم مثل ظهور العدو وكما قال تعالى في قصة أحد {وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ} {139} { إِنْ يَمَسُّكُمْ فَرَحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَرَحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ } {140} { وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ } {141} آل عمران 139-141 وأيضا فقد قص سبحانه في كتابه نصره لرسوله ولعباده المؤمنين على الكفار في قصة نوح وهود وصالح وشعيب ولوط وفرعون وغير ذلك وقال تعالى {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ} {يوسف 111} وقال تعالى {وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ} {النور 34}

ملاحظة (تكلمة الموضوع موجود في تفسير غافر 51 وتفسير الصافات 171-173 نفس المرجع))¹⁹⁷

العاقبة للمتقين

التقوى كما فسرها الاولون والآخرين فعل ما امرت به وترك ما نهيت عنه كما قال طلق بن حبيب لما وقعت الفتنة اتقوها بالتقوى قالوا وما التقوى قال ان تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله وان تترك معصية الله على نور من الله تخاف عذاب الله¹⁹⁸

ففي وجود الشجاعة والسماحة تحصيل مقاصد النفوس على الاطلاق لكن العاقبة في ذلك للمتقين وأما غير المتقين فلهم عاجلة لا عاقبة والعاقبة وان كانت في الآخرة فتكون في الدنيا ايضا كما قال تعالى لما ذكر قصة نوح ونجاته بالسفينة { قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَّمٍ مِّمَّن مَعَكَ وَأُمَّمٌ سَنُنْتَعِبُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ } {48} { تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا

¹⁹⁷قاعدة في المحبة ج: 1 ص: 138-157

¹⁹⁸مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 135

كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ {49} هود 48-49 وقال { فَمَنْ
اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ
199 {البقرة 194

نفى علم قومه بما أخبره فيه بيانا لآلاء الله

فإن الذي اتفقت عليه الكتب والرسول هو الذي لا بد للخلق منه في كل زمان ومكان وهو الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح كما قال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمَلْ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } البقرة 62 وعامة السورة المكية كالأنعام والأعراف وآل حم وآل طس وآل آلر هي من الأصول الكلية التي اتفقت عليها شرائع المرسلين كالأمر بعبادة الله وحده لا شريك له والصدق والعدل والإخلاص وتحريم الظلم والفواحش والشرك والقول على الله بلا علم وعامة ما عند أهل الكتاب من النقل الصحيحة عن الأنبياء من التوراة والإنجيل والزيور ونبوات الأنبياء توافق المنقول عن محمد شهد هذا لهذا وهذا لهذا وذلك من دلائل نبوة أولئك الأنبياء ومن دلائل نبوة محمد ولهذا يذكر الله ذلك بيانا لإنعامه بمحمد ودلالة لنبوته كقوله تعالى لما قص قصة نوح { تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ } هود 49 فذكر الإلاه نعمته وآيته بكونه لم يكن يعلمها هو ولا قومه أيضا كانوا يعلمونها لئلا يظن أنه تعلم ذلك من قومه فإن قومه لم يكونوا يعلمون ذلك وقد علم بالنقل المتواتر أن محمدا ولد بمكة وبها نشأ بعد أن كان مسترضعا في بادية سعد بن بكر قريبا من الطائف شرقي مكة وهو صغير ثم حملته مرضعته حليلة السعدية إلى أمه بمكة لا يعلم شيئا من ذلك ولا هناك من يتعلم منه شيء من ذلك وأهل مكة يعلمون حاله وأنه لم يتعلم ذلك من أحد ثم أخبرهم بالغيب الذي لا يعلمه أحد إلا بتعليم الله له فكان هذا من أعلام رسالته ودلائل نبوته عليهم أولا وعلى غيرهم آخرا فإنهم كانوا مشاهدين له يعلمون أنه لم يتعلم ذلك من أحد وغيرهم يعلم ذلك بالأخبار المتواترة ويعلم أن قومه المكذبين له مع حرصهم على الطعن فيه ومع علمهم بحاله لو كان قد تعلم من أهل الكتاب لقالوا هذا قد تعلمه منهم قال تعالى { قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ } يونس 16 والمقصود أنه نفى علم قومه بما أخبره فيه بيانا لآلاء الله التي هي آياته ونعمه فإن ذلك يدل على أنه لم يتعلم ذلك من قومه وفيه إنعام الله على الخلق بذلك فنفى سبحانه شهادته لهذه الأمور الغائبة وحضوره لها تنبيها للناس على أنه أخبر بالغيب الذي لم يشهده ولم يعرفه من جهة أخبار الناس فإن قومه لم يكونوا يعلمون ذلك ولا عاشر غير قومه وكل من عرف حاله يعلم أنه لم يتعلم شيئا من ذلك لا من أهل الكتاب ولا ممن نقل عن أهل الكتاب

فإذا كان محمد أخبر بمثل ما أخبرت به الأنبياء قبله في باب أسماء الله وصفاته وتوحيده وملائكته وأوليائه وأعدائه مع العلم بأن في هذه الأمور من التفاصيل الكثيرة ما يمتنع اتفاق اثنين عليه إلا عن مواطاة بينهما ومحمد وموسى صلوات الله عليهما وسلامه لم يتواطأ بل لم يواطىء محمد أحدا من الرسل قبله ولا واطؤه والخبر الكذب إما أن يعتمد صاحبه الكذب وإما أن يغلط فالكاذبان المتعمدان للكذب لا يتفقان في القصص الطويلة والتفاصيل العظيمة وكذلك الغالطان

لا يتفق غلطهما في مثل ذلك بل الاثنان من آحاد الناس إذا أخبر كل منهما عن حال بلدة وأخبر الآخر بمثل خبره من غير مواطأة عرف صدقهما فكيف بالأمر الغائبة التي لا يمكن العلم بها إلا من جهة الله تعالى فهذا من دلائل نبوة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم وأما القدر الذي يخالف ما جاء به محمد مما ينقلونه عن الأنبياء فهو نوعان أحدهما ما وقع فيه النسخ من الشرائع وهذا لا يمنعه لكن لمنسوخ مثل هذا بالنسبة إلى ما لم ينسخ من الكتاب نظير المنسوخ من القرآن والأحاديث النبوية فإنه قليل جدا بالنسبة إلى ما لم ينسخ وكذلك عامة ما أمر به موسى وداود والمسيح وغيرهم من الأنبياء إذا اعتبر بما أمر به محمد وجد عامة ذلك متققا لم ينسخ منه إلا القليل والثاني الخبريات وهذه قد ادعى بعض أهل الكتاب أن محمدا خالف بعض ما أخبرت به الأنبياء قبله وهذا باطل فإن أخبار الأنبياء لا يجوز أن تتناقض إذ هم كلهم صادقون ومصدقون ومن علم أن محمدا رسول الله وأن موسى رسول الله وأن المسيح رسول الله علم أن أخبارهم لا تتناقض لكن قد يخبر هذا بما لم يخبر به هذا فيكون في أخبار أحدهم زيادات على أخبار غيره لا ما يناقض خبر غيره وما يذكره أهل الكتاب مما يناقض خبر محمد فهو عامته مما حرفوا معناه وتأويله وقليل منه حرف لفظه وأهل الكتاب اليهود والنصارى مع المسلمين متفقون على أن الكتب المتقدمة وقع التحريف بها إما عمدا وإما خطأ في ترجمتها وفي تفسيرها وشرحها وتأويلها وإنما تنازع الناس هل وقع التحريف في بعض ألفاظها²⁰⁰

(فيه نقص نفس المرجع) وأشار بتلك إلى ما تلاه قبل هذه الآية فقال لما ذكر آيات يخبر فيها عن نوح
{تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْعَلِيِّ نُوحِيهَا إِلَيْكَ} هود 49²⁰¹

(فيه نقص نفس المرجع) فطريق واخبار من تقدم من الأنبياء فلا بد من اخبار الله تعالى عنها
كما قال {تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْعَلِيِّ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ} هود 49²⁰²

القصص في القرآن من آيات الأنبياء

ومن آيات الأنبياء إهلاك الله لمكذبيهم ونصره للمؤمنين بهم فهذا من أعلام نبوتهم ودلائل صدقهم كإغراق الله قوم نوح لما كذبوه وكإهلاكه قوم عاد بالريح الصرصر وإهلاك قوم صالح بالصيحة وإهلاك قوم شعيب بالظلة وإهلاك قوم لوط بإقلاب مداينهم ورجمهم بالحجارة وإهلاك قوم فرعون بالغرق وقد ذكر الله القصص في القرآن في غير موضع وبين أنها من آيات الأنبياء الدالة

²⁰⁰الجواب الصحيح ج: 5 ص: 118-123

²⁰¹الجواب الصحيح ج: 2 ص: 274

²⁰²الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 22 و مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 582

على صدقهم كما يذكره في سورة الشعراء لما ذكر قصة موسى قال { إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ } الشعراء 67 ثم ذكر قصة إبراهيم وقال في آخرها { إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ } الشعراء 103 وكذلك ذكر مثل ذلك في قصة نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وقال في قصة فرعون { وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمِ الْبَالِغُونَ } فَأَخَذْنَا هَارُونَ وَشَارُونَ فَجَنَدْنَا لِهَارُونَ مِائَةَ أَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ أُولِي الْقُوَّةِ يَأْتُونَ السَّاعَةَ وَاللَّهُ مَعَ الصَّادِقِينَ } القصص 39-42 ومن ذلك ما جعله من اللعنة الشائعة لمن كذبهم والقيامة هم من المقبوحين {42} { القصص 39-42 ومن ذلك ما جعله من اللعنة الشائعة لمن كذبهم ومن لسان الصدق والثناء والدعاء لهم ولمن آمن بهم ولهذا قال تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم { فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ } هود 49 فأخبر أن العاقبة للمتقين²⁰³

أن آيات الأنبياء ودلائل صدقهم متنوعة قبل المبعث وحين المبعث في حياتهم وبعد موتهم فقبل المبعث مثل إخبار من تقدم من الأنبياء به ومثل الإرهاصات الدالة عليه وأما حين المبعث فظاهر وأما في حياته فمثل نصره وإنجائه وإهلاك أعدائه وأما بعد موته فمثل نصر أتباعه وإهلاك أعدائه كما قال تعالى { إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ } غافر 51 ومحمد صلى الله عليه وسلم جعلت له الآيات البيّنات قبل مبعثه وحين مبعثه وفي حياته وبعد موته إلى الساعة وإلى قيام الساعة فإن ذكره وذكر كتابه والبشارة بذلك موجود في الكتب المتقدمة كما قد بسط في موضعه والخليل دعا به فقال في دعائه لذريته { رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } البقرة 129 ولما ولد اقترن بمولده من الآيات ما هو معروف وجرى ذلك العام قصة أصحاب الفيل المشهورة وكان يحصل له في مدة نشأته من الآيات والدلائل أمور كثيرة قد ذكر طرف منها في كتب دلائل النبوة والسيرة وغيرها مثل الآيات التي حصلت لمرضعته لما صار عندها ومثل ما شوهد من أحواله في صغره وأما انتصار الله له ولأتباعه وإعلاء ذكره ونشر لسان الصدق له وإهلاك أعدائه وإذلال من يحاده ويشاقيه وإظهار دينه على كل دين باليد واللسان والدليل والبرهان فهذا مما يطول وصف تفصيله قال تعالى { هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَّتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ } الحشر 2 والأنبياء صلوات الله عليهم وأتباعهم المؤمنون وإن كانوا يبتلون في أول الأمر فالعاقبة لهم كما قال تعالى لما قص قصة نوح { تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ } هود 49 وفي الحديث المتفق على صحته لما أرسل النبي صلى الله عليه وسلم رسولا إلى ملك الروم فطلب من يخبره بسيرته وكان المسؤولون حينئذ أعداءه لم يكونوا آمنوا به فقال كيف الحرب بينكم وبينه قالوا الحرب بيننا وبينه سجال يدال علينا المرة وندال عليه الأخرى فقال كذلك الرسل تبتلى وتكون لها العاقبة فإنه كان يوم بدر نصر الله المؤمنين ثم يوم أحد ابتلى المؤمنين ثم لم ينصر الكفار بعدها حتى أظهر الله الإسلام²⁰⁴

²⁰³الجواب الصحيح ج: 6 ص: 389

²⁰⁴الجواب الصحيح ج: 6 ص: 412

والقرآن نفسه قد بين من آيات نبوته وبراهين رسالته أنواعا متعددة مع اشتغال كل نوع على عدد من الآيات والبراهين مثال ذلك إخباره لقومه بالغيب الماضي الذي لا يمكن بشرا أن يعلمه إلا أن يكون نبيا أو يكون ممن تلقاه عن نبي وقومه يعلمون أنه لم يتعلم ذلك من بشر ولا من أهل الكتاب ولا غيرهم وهذا نوعان منه ما كان يسأله عنه المشركون وأهل الكتاب لينظر هل هو نبي أم لا وكان قومه يرسلون إلى أهل الكتاب البعيدين عنهم مثل من كان بالمدينة وغيرها من أهل الكتاب يطلبون منهم ما يسألونه عنه فيرسلون إليهم ليسألوه عن ذلك ويمتحنون بذلك هل هو نبي أم لا ومنه ما كان الله يخبره به ابتداء ويجعله علما وآية لنبوته وبرهانا لرسالته مع ما في ذكر هذه القصص من الاعتبار لأمر أخرى فكان كل من هذين النوعين دليلا وعبرة على نبوته من طريقين فكان دليلا وعبرة على نبوته من جهة إخبار بالغيب الذي لا يعلمه إلا نبي وكانت عبرة بما فيها من أحوال المؤمنين والكافرين التي توجب اتباع سبيل المؤمنين الذين اتبعوا مثله وتجنب سبيل الكافرين الذين خالفوا مثله وحكم الشيء حكم نظيره فإذا كان من كان مثله ومثل من اتبعه سعيدا وحال من خالف مثله ومثل من اتبعه شقيا كان في هذا دلالة وعبرة توجب اتباعه وتنتهي عن مخالفته وهذا أيضا دليلا على نبوة من قبله من الأنبياء من وجهين من جهة أنه أخبر بمثل ما أخبروا به من غير مواطاة بينهم وبينه ولا تشاعر لم يأخذوا عنه ولم يأخذ عنهم وكل منهما أخبر عن الله بأخبار مفصلة يمتنع الاتفاق عليها عادة إلا بتواطؤ وإذا لم يكن تواطؤ وتشاعر وامتنع اتفاق ذلك من غير مواطاة علم أن كلا من المخبرين صادق وقال تعالى لما قص قصة نوح من سورة هود وهي أطول ما قصه في قصة نوح **كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ { هود 49}** فذكر سبحانه أن هذا الذي أوحاه إليه من أنباء الغيب ما كان يعلمه هو ولا قومه من قبل هذا فإذا لم يكن قومه يعلمون ذلك لا من أهل الكتاب ولا من غيرهم وهو لم يعاشر إلا قومه وقومه يعلمون ذلك منه ويعلمون أنهم لم يكونوا يعلمون ذلك ويعلمون أيضا أنه هو لم يكن تعلم ذلك وأنه لم يكن يعاشر غيرهم وهم لا يعلمون ذلك صار هذا حجة على قومه وعلى من بلغه خبر قومه ومثل ما أخبرهم عن قصة آدم وسجود الملائكة له وتزيين إبليس له حتى أكل من الشجرة وهبط هو وزوجه وأخبرهم عن قصة نوح ومكثه فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما وهذا في التوراة الموجودة بأيدي أهل الكتاب مقدار لبثه في قومه قبل الغرق وبعده وأخبرهم عن قصة الخليل وما جرى له مع قومه وإلقائه في النار وذبح ولده ومجيء الملائكة إليه في صورة ضيفان وتبشيريه بإسحاق ويعقوب وذهاب الملائكة إلى لوط وما جرى للوط مع قومه وإهلاك الله مدائن قوم لوط وقصة إسرائيل مع بنيه كقصة يوسف وما جرى له بمصر وقصة موسى مع فرعون وتكليم الله إياه مرة بعد مرة وآياته كالعصا واليد البيضاء والقمل والضفادع والدم وخلق البحر وتظليل الغمام على بني إسرائيل وإطعامهم المن والسلوى وانفجار الماء من الحجر اثني عشر عينا لسقيهم وعبادتهم العجل وقتل بعضهم بعضا لما تاب الله عليهم وقصة البقرة ونتاج الجبل فوقهم وقصة داود وقتله لجالوت وقصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم وقصة الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه وغير ذلك من أحوال بني إسرائيل إلى أن ذكر قصة زكريا وابنه يحيى وعيسى بن مريم وأحوال المسيح وآياته ودعائه لقومه والآيات التي بعث بها وتفصيل ذلك وذكر قصة أصحاب الكهف وقصة ذي القرنين وغير ذلك من قصص الأنبياء والصالحين والكفار مفصلة مبينة بأحسن بيان وأتم معرفة مع علم قومه الذين يعرفون أحواله من صغره إلى أن ادعى النبوة أنه لم يتعلم هذا من بشر بل لم يجتمع هو بأحد من البشر يعرف ذلك ولا كان عندهم بمكة من يعرف ذلك لا يهودي ولا نصراني ولا غيرهم فكان هذا من أعظم الآيات والبراهين لقومه بأن هذا إنما أعلمه به وأنبأه به الله ومثل هذا الغيب لا يعلمه إلا نبي أو من أخذ عن نبي فإذا لم يكن هو أخذه عن نبي تعين أن يكون نبيا ثم سائر أهل الأرض يعلمون أنه لم يتعلم ذلك من بشر من طرق أحدها أن قومه المعادين له الذين هم من أحرص

الناس على القدر في نبوته مع كمال علمهم لو علموا أنه تعلم ذلك من بشر لطعنوا عليه بذلك وأظهروه فإنهم مع علمهم بحاله يمتنع أن لا يعلموا ذلك لو كان ومع حرصهم على القدر فيه يمتنع أن لا يقدحوا فيه ويمتنع أن لا يظهر ذلك الثاني أنه قد تواتر عن قومه أنهم كانوا يقولون أنه لم يكن يجتمع به من يعلمه ذلك الثالث أنه لو كانت هذه القصص المتنوعة قد تعلمها من أهل الكتاب مع عداوته لهم لكانوا يخبرون بذلك ويظهرونه ولو أظهروا ذلك لنقل ذلك وعرف فإن هذا من الحوادث التي تتوفر الهمم والدواعي على نقله الرابع أنه حيث بعث كان الناس إما مشركا وإما كتابيا فلم يكن هناك أحد على الدين الذي دعا إليه وقد علم الناس بالتواتر أن المشركين من قريش وغيرهم لم يكونوا يعرفون هذه القصص ولو قدر أنهم كانوا يعرفونها فهم أول من دعاهم إلى دينه فعادوه وكذبوه فلو كان فيهم من علمه أو يعلم أنه تعلم من غيره لأظهر ذلك الخامس أن مثل هذا لو كان فلا بد أن يعرفه ولو خواص الناس وكان في أصحابه الذين آمنوا به من يعرف ذلك وكان ذلك ومع فرط عداوتهم له آية بينة لجميع الأمم أنه لم يكن هو ولا هم يعلمون ذلك فأخبر عن ذلك وهم يعلمون أن هذا من أظهر الكذب

فذكر سبحانه أن هذا الذي أوحاه إليه من أنباء الغيب ما كان يعلمه هو ولا قومه من قبل هذا فإذا لم يكن قومه يعلمون ذلك لا من أهل الكتاب ولا من غيرهم وهو لم يعاشر إلا قومه وقومه يعلمون ذلك منه ويعلمون أنهم لم يكونوا يعلمون ذلك ويعلمون أيضا أنه هو لم يكن تعلم ذلك وأنه لم يكن يعاشر غيرهم وهم لا يعلمون ذلك صار هذا حجة على قومه وعلى من بلغه خبر قومه فكان هذا من أعظم الآيات والبراهين لقومه بأن هذا إنما أعلمه به وأنبأه به الله ومثل هذا الغيب لا يعلمه إلا نبي أو من أخذ عن نبي فإذا لم يكن هو أخذه عن نبي تعين أن يكون نبيا فإن هذه القصص المذكورة في القرآن لم يكن بمكة من يعرفها فضلا عن أن يملئها كما قال { وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِأَنَّكَ الْمُبْطِلُونَ } العنكبوت 48 وقال { **تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ** } هود 49²⁰⁵

أنه كان يخبرهم بالأمر الماضي خيرا مفعلا لا يعلمه أحد إلا أن يكون نبيا أو من أخبره نبي وقومه يعلمون أنه لم يخبره بذلك أحد من البشر وهذا مما قامت به الحجة عليهم وهم مع قوة عداوتهم له وحصرهم على ما يطعنون به عليه لم يمكنهم أن يطعنوا طعنا يقبل منهم وكان علم سائر الأمم بأن قومه المعادين له المجتهدين في الطعن عليه لم يمكنهم أن يقولوا إن هذه الغيوب علمها إياه بشر فوجب على جميع الخلق أن هذا لم يعلمه إياها بشر ولهذا قال تعالى { **تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ** } هود 49 فأخبر أنه لم يكن يعلم ذلك هو ولا قومه وقومه تقر بذلك ولم يتعلم من أحد غير قومه ولهذا زعم بعضهم أنه تعلم من بشر ظهر كذبه لكل أحد كما قال تعالى { **فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ** } 98 { **إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** } 99 { **إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ** } 100 { **وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ** } 101 { **قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ**

الذِينَ آمَنُوا وَهَدَىٰ وَبَشَّرَ لِلْمُؤْمِنِينَ {102} وَقَدْ نَعَلِمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي
يُجِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ {103} النحل 98-103²⁰⁶

التقوى سبب لحفظ الحسنات ومنع السيئات

ان اكثر بنى آدم قد يفعل بعض المأمور به ولا يترك المنهى عنه الا الصديقون كما قال سهل لان المأمور به له مقتضى فى النفس واما ترك المنهى عنه الى خلاف الهوى ومجاهدة النفس فهو أصعب وأشق فقل أهله ولا يمكن أحدا أن يفعله الا مع فعل المأمور به لا تتصور تقوى وهى فعل ترك قط فان من ترك الشرك واتباع الهوى المضل واتباع الشهوات المحرمات فلا بد أن يفعل من المأمور به أمورا كثيرة تصده عن ذلك فتقواهم تحفظ لهم حسناتهم التى امروا بها وتمنعهم من السيئات التى تضرهم بخلاف من فعل ما أمر به وما نهى عنه مثلا فان وجود المنهى عنه يفسد عليه من المأمور به ما يفسد فلا يسلم له ولهذا كانت العاقبة للتقوى كما قال تعالى { وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى } طه 132 { وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ } الأعراف 128 { وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَ يَضْرِكْكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً } آل عمران 120 وذلك لأن المتقين بمنزلة من أكل الطعام النافع واتقى الاطعمة المؤذية فصح جسمه وكانت عاقبته سليمة وغير المتقى بمنزلة من خلط من الاطعمة فانه وان اغتذى بها لكن تلك التخاليط قد تورثه أمراضا اما مؤذية واما مهلكة²⁰⁷

وقد ذكر الله الصبر والتقوى جميعا في غير موضع من كتابه وبين أنه ينصر العبد على عدوه من الكفار المحاربين المعاندين والمنافقين وعلى من ظلمه من المسلمين ولصاحبه تكون العاقبة وقد قرن الصبر بالأعمال الصالحة عموما وخصوصا وقال تعالى { تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ } هود 49²⁰⁸

لطائف لغوية

1- قال تعالى { قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَأَتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ فَعَمَّيْتُ عَلَيْكُمْ أَنْزِلُكُمْ مَعَهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ } هود 28 البينة من البيان و البينة هي السبيل البينة وهي الطريق البينة الواضحة وهي أيضا ما تبين بها الحق فهي بينة فى نفسها مبينة لغيرها وقد تفسر بالبيان وهى الدلالة والإرشاد فتكون كالهدى كما يقال فلان على هدى وعلى علم فيفسر بمعنى

²⁰⁶الجواب الصحيح ج: 1 ص: 403-404 و العقيدة الأصفهانية ج: 1 ص: 193

²⁰⁷مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 137

²⁰⁸الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 109

المصدر والصفة والفاعل ومنه قوله { أَوْلَمْ تَأْتِيَهُمْ بَيِّنَةٌ مَّا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى } طه 133 أي بيان ما فيها أو يبين ما فيها أو الأمر البين فيها وقد سمي الرسول بيينة كما قال { حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ } {1} {رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ} {2} البيينة 1- 2 فإنه يبين الحق والمؤمن على سبيل بيينة ونور من ربه²⁰⁹

2- قال تعالى {قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَأَتَانِي رَحْمَةً مِّن عِنْدِهِ فَعَمَّيْتُ عَلَيْكُمُ نَزْلُ مَكْمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ} هود 28 ورحمته اسم جامع لكل خير ودار الرحمة الخالصة هي الجنة²¹⁰

3- قال تعالى {قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ} {32} قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ} {33} هود 32- 33

وأما لفظ المعجز فإنما يدل على أنه أعجز غيره²¹¹

4- قال تعالى {حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلِي فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ} هود 40 وزوج الشيء نظيره وسمى الصنف زوجا لتشابه افراده كقوله {فَأَنْبِئْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ} لقمان 10 وقال {وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} الذاريات 49 قال غير واحد من المفسرين صنفين ونوعين مختلفين السماء والأرض والشمس والقمر والليل والنهار والبر والبحر والسهل والجبل والشتاء والصيف والجن والانس والكفر والايمان والسعادة والشقاوة والحق والباطل والذكر والانثى والنور والظلمة والحلو والمر وأشباه ذلك²¹²

²⁰⁹مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 75

²¹⁰مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 65

²¹¹الجواب الصحيح ج: 5 ص: 418

²¹²مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 64

5- قال تعالى {حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ} هود40 أن لفظ مع في لغة العرب إنما تدل على المصاحبة والموافقة والاقتران ولا تدل على أن الأول مختلط بالثاني في عامة موارد الإستعمال كقوله تعالى {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ} الفتح29 لم يرد أن ذواتهم مختلطة بذاته²¹³

6- قال تعالى {حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ} هود40 والزوج يراد به النظير المماثل والضد المخالف وهو الند²¹⁴

7- قال تعالى {قَالَ سَأُوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَجِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ} هود43 ولفظ الأمر يراد به المصدر والمفعول فالمفعول مخلوق كما قال {أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ} النحل1 وقال {وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدْرًا مَّقْدُورًا} الأحزاب38 فهنا المراد به المأمور به ليس المراد به أمره الذي هو كلامه وهذه الآية التي إحتج بها هؤلاء تضمنت الشرع وهو الأمر والقدر وقد ضل في هذا الموضوع فريقان الجهمية الذين يقولون كلام الله مخلوق و يحتجون بقوله {وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدْرًا مَّقْدُورًا} الأحزاب38 ويقولون ما كان مقدورا فهو مخلوق وهؤلاء الحلولية الضالون الذين يجعلون فعل العباد قديما بأنه أمر الله وقدره وأمره وقدره غير مخلوق ومثار الشبهة أن إسم القدر والأمر والشرع يراد به المصدر ويراد به المفعول ففي قوله {وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدْرًا مَّقْدُورًا} الأحزاب38 المراد به المأمور به المقدر وهذا مخلوق وأما في قوله {ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ} الطلاق5 فأمره كلامه إذا لم ينزل إلينا الأفعال التي أمرنا بها وإنما أنزل القرآن وهذا كقوله {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا} النساء58 فهذا الأمر هو كلامه²¹⁵

8- قال تعالى {قَالَ سَأُوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَجِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ} هود43 والمضاف إلى الله نوعان فإن المضاف إما أن يكون صفة لا تقوم بنفسها كالعلم والقدرة والكلام والحياة وإما أن يكون عينا قائمة بنفسها فالأول إضافة صفة كقوله {قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ} هود43 فالمضاف في الأول صفة لله

²¹³منهاج السنة النبوية ج: 8 ص: 390

²¹⁴مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 35

²¹⁵مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 413

قائمة به ليست مخلوقة له بائنة عنه والمضاف في الثاني مملوك لله مخلوق له بائن عنه لكنه
مفضل مشرف لما خصه الله به من الصفات التي اقتضت إضافته إلى الله تبارك وتعالى كما خص
ناقة صالح من بين النوق وكما خص بيته بمكة من البيوت وكما خص عباده الصالحين من بين
الخلق²¹⁶

9- قال { وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءِ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى
الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } هود44 استوى على كذا فليس في القرآن و لغة العرب
المعروفة إلا بمعنى واحد قال تعالى { فَازْرُرْهُ فَاسْتَعْلَظْ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ } الفتح29 و قال {
وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ} هود44 و قال {لِنَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذَكَّرُوا نِعْمَةً رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ
عَلَيْهِ} الزخرف13 و قال {فَإِذَا اسْتَوَيْتِ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ} المؤمنون28 و قد أتى
النبي صلى الله عليه وسلم بدابة ليركبها فلما وضع رجله في الغرز قال بسم الله فلما استوى
على ظهرها قال الحمد لله وقال ابن عمر أهل رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحج لما استوى
على بغيره وهذا المعنى يتضمن شيئين علوه على ما استوى عليه وإعتداله أيضا فلا يسمون
المائل على الشيء مستويا عليه²¹⁷

10- قال { وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءِ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى
الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } هود44 قال ابو عبيدة معمر بن المثنى استوى بمعنى علا
وتقول العرب استويت على ظهر الفرس بمعنى علوت عليه واستويت على سقف البيت بمعنى
علوت عليه ويقال استويت على السطح بمعناه وقال الله تعالى {فَإِذَا اسْتَوَيْتِ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى
الْفُلْكِ} المؤمنون28 و قال {لِنَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ} الزخرف13²¹⁸

11- قوله { يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءِ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ } هود44 قيل اراد بالسماء
المطر اى يا مطر انقطع وليس كذلك بل الاقلاع الامساك اى يا سماء امسكي عن الامطار²¹⁹

²¹⁶ الجواب الصحيح ج: 2 ص: 157

²¹⁷مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 379

²¹⁸مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 520

²¹⁹مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 472

12- فان السؤال والطلب قد يكون بصيغة الشرط كما تقول لو نزلت عندنا لأكرمناك وان بت الليلة عندنا أحسنت الينا ومنه قول آدم { رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ } الأعراف 23 وقول نوح { رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ } هود 47 ومثله كثير²²⁰

13- أن لفظ مع في لغة العرب إنما تدل على المصاحبة والموافقة والاقتران ولا تدل على أن الأول مختلط بالثاني في عامة موارد الإستعمال كقوله تعالى { مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ } الفتح 29 لم يرد أن ذواتهم مختلطة بذاته وقوله عن نوح { اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَّمٌ سَنُتَّبِعُهُمْ } هود 48²²¹

²²⁰مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 176

²²¹منهاج السنة النبوية ج: 8 ص: 390

هود 50-60

{وَالْيَ عَادَ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ
الْمُفْتَرُونَ} {50} يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي
فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ} {51} وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ
السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ} {52}
قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ
بِمُؤْمِنِينَ} {53} إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ
وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ} {54} مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا
تَنْظُرُونَ} {55} إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ
بِنَاصِيَتِهَا إِنْ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} {56} فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا
أُرْسَلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنْ رَبِّي
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ} {57} وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ
بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ} {58} وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ
وَكَفَرُوا بِرُسُلِهِ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ} {59} وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً
وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بَعْدَ لَعَادٍ قَوْمٌ هُودٌ} {60}

خلق الله الخلق لتكون كلمة الله هي العليا

التوحيد هو أصل الدين الذي لا يقبل الله من الأولين والآخرين ديناً غيره وبه أرسل الله الرسل وأنزل الكتب وقد ذكر الله عز وجل عن كل من الرسل أنه افتتح دعوته بأن قال لقومه {اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} هود 50 وفي المسند عن ابن عمر عن النبي أنه قال بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له وجعل رزقي تحت ظل رمحي وجعل الذل والصغار على من خالف أمري ومن تشبه بقوم فهو منهم²²²

أن الله تعالى خلق الخلق لعبادته كما قال تعالى {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} {الذاريات} 56 وذلك هو أصل ما أمرهم به على السن الرسل كما قال نوح وهود وصالح وإبراهيم وشعيب {اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} هود 50 وقال {وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ} البقرة 130 إلى قوله {إِلَيْهَا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} البقرة 133 لموسى {إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي} طه 14 وقال المسيح {مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ} المائدة 117 والاسلام هو الاستسلام لله وحده وهو أصل عبادته وحده وذلك يجمع معرفته ومحبته والخضوع له وهذا المعنى الذي خلق الله له الخلق هو أمر وجودي من باب المأمور به ثم الأمر بعد ذلك بما هو كمال ما خلق له واما المنهى عنه فاما مانع من أصل ما

خلق له واما من كمال ما خلق له نهوا عن الاشرار لأنه مانع من الاصل وهو ظلم في الربوبية كما قال تعالى { إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } لقمان 13 ومنعوا عن ظلم بعضهم في النفوس والاموال والابضاع والاعراض لأنه مانع من كمال ما خلق له فظهر ان فعل المأمور به أصل وهو المقصود وان ترك المنهى عنه فرع وهو التابع وقال تعالى { إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ } النساء 48 لان الشرك منع الاصل فلم يك في النفس استعداد للفلاح في الآخرة بخلاف ما دونه فان مع المغفور له أصل الايمان الذي هو سبب السعادة²²³

فان الله سبحانه وتعالى انما خلق الخلق لتكون كلمة الله هي العليا ويكون الدين كله لله وبه انزل الكتب وبه أرسل الرسل وعليه جاهد الرسول والمؤمنون قال الله تعالى { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } الذاريات 56 وقال تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ } الانبياء 25 وقال { وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ } النحل 36 وقد أخبر عن جميع المرسلين ان كلا منهم يقول لقومه { اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ } الأعراف 59 وعباداته تكون بطاعته وطاعة رسوله وذلك هو الخير والبر والتقوى والحسنات والقربات والباقيات والصالحات والعمل الصالح وان كانت هذه الاسماء بينها فروق لطيفة ليس هذا موضعها وهذا الذي يقاتل عليه الخلق كما قال تعالى { وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ } الأنفال 39 وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضى الله عنه قال سئل النبي عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاقل حمية ويقاقل رياء فأى ذلك فى سبيل الله فقال من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو فى سبيل الله²²⁴

وأما المقاصد فالقرآن أخبر بالعلم بالله والعمل له فجمع بين قوتى الإنسان العلمية والعملية الحسية والحركية الإرادية الإدراكية والإعتمادية القولية والعملية حيث قال { اعْبُدُوا اللَّهَ } هود 50 فالعبادة لا بد فيها من معرفته والإنابة اليه والتذلل له والإفتقار اليه وهذا هو المقصود وإذا حصل الاعتراف بالرب والاقرار به من غير عبادة وانابة كان وبالاً على صاحبه وشقاء له كما جاء فى الحديث أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه كإبليس اللعين فإنه معترف بربه مقر بوجوده لكن لما لم يعبد الله كان رأس الأشقياء وكل من شقى فباتباعه له كما قال { قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْذُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ } الأعراف 18 فلا بد أن يملأ جهنم منه ومن أتباعه مع أنه معترف بالرب مقر بوجوده وانما أبى واستكبر عن الطاعة والعبادة والقوة العلمية مع العملية بمنزلة الفاعل والغاية ولهذا قيل العلم بلا عمل كالشجر بلا ثمر والمراد بالعمل هنا عمل القلب الذى هو انابته الى الله وخشيته له حتى يكون عابداً له فالرسل والكتب المنزلة أمرت بهذا وأوجبته بل هو رأس الدعوة ومقصودها وأصلها والطريقة النبوية القرآنية السننية الجماعية فيها العلم والعمل كاملين ففاتحة دعوة الرسل الأمر بالعبادة قال تعالى { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } البقرة 21 وقال أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وذلك يتضمن الإقرار به وعبادته وحده فإن

²²³مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 115

²²⁴مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 61

الإله هو المعبود ولم يقل حتى يشهدوا أن لا رب إلا الله فإن اسم الله أدل على مقصود العبادة له التي لها خلق الخلق وبها أمروا وكذلك قوله لمعاذ إنك تأتي قوما من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وقال نوح عليه السلام { أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا } نوح 3 وكذلك الرسل في سورة الأعراف وغيرها²²⁵

وقد تنازع الناس فيمن تقدم من أمة موسى وعيسى هل هم مسلمون أم لا وهو نزاع لفظي فإن الإسلام الخاص الذي بعث الله به محمداً صلى الله عليه وسلم المتضمن لشريعة القرآن ليس عليه إلا أمة محمد صلى الله عليه وسلم والإسلام اليوم عند الإطلاق يتناول هذا وأما الإسلام العام المتناول لكل شريعة بعث الله بها نبيا فإنه يتناول إسلام كل أمة متبعة لنبي من الأنبياء ورأس الإسلام مطلقاً شهادة أن لا إله إلا الله وبها بعث جميع الرسل كما قال تعالى وذكر عن رسله كنوح وهود وصالح وغيرهم أنهم قالوا لقومهم { **اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ** } هود 50²²⁶

العبادة هي اسم جامع لكل ما أمر الله به

عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد ومن هذا الباب لفظ العبادة فإذا أمر بعبادة الله مطلقاً دخل في عبادته كل ما أمر الله به فالتوكل عليه مما أمر به والاستعانة به مما أمر به فيدخل ذلك في مثل قوله { **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** } الذاريات 56 وفي قوله { **وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً** } النساء 36 وقوله { **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ** } البقرة 21 وقوله { **إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ** } الزمر 2 { **قُلِ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي** } الزمر 14 وقوله { **أَفَعَبِّرَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ** } الزمر 64 ثم قد يقرن بها اسم آخر كما في قوله { **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** } الفاتحة 5 وقوله { **فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ** } هود 123 وقول نوح { **اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا** } نوح 3²²⁷

أن جميع الأفعال مشتقة سواء كانت هي مشتقة من المصدر أو كان المصدر مشتقاً منها أو كان كل واحد منهما مشتقاً من الآخر بمعنى أن بينهما مناسبة في اللفظ والمعنى لا بمعنى أن أحدهما أصل والآخر فرع بمنزلة المعاني المتضايقة كأبوة والبنوة أو كالأخوة من الجانبين ونحو ذلك فعلى كل حال إذا أمر بفعل كان نفس مصدر الفعل أمراً مطلوباً للأمر مقصوداً له كما في قوله { **اعْبُدُوا اللَّهَ** } هود 50 وفي قوله { **وَآتَقُوا اللَّهَ** } البقرة 189 وفي قوله { **وَأَحْسِنُوا** } والله يُجِبُّ

²²⁵مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 10

²²⁶مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 95

²²⁷مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 163

{ الْمُحْسِنِينَ } المائدة 93 وفي قوله { فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ } التغابن 8 وفي قوله { فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا } يونس 84 فإن نفس التقوى والإحسان والإيمان والعبادة والتوكل أمور مطلوبة مقصودة بل هي نفس الأمور به²²⁸

العبادة هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة فالصلاة والزكاة والصيام والحج وصدق الحديث وأداء الأمانة وبر الوالدين وصلة الأرحام والوفاء بالعهود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد للكفار والمنافقين والإحسان إلى الجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك من الأدميين والبهائم والدعاء والذكر والقراءة وأمثال ذلك من العبادة وكذلك حب الله ورسوله وخشية الله والإنابة إليه وإخلاص الدين له والصبر لحكمه والشكر لنعمه والرضا بقضائه والتوكل عليه والرجاء لرحمته والخوف لعذابه وأمثال ذلك هي من العبادة لله وذلك أن العبادة هي الغاية المحبوبة له والمرضية له التي خلق الخلق لها كما قال تعالى { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } الذاريات 56 وبها أرسل جميع الرسل كما قال نوح لقومه { اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ } الأعراف 59 وكذلك قال هود وصالح وشعيب وغيرهم لقومهم وقال تعالى { وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ } النحل 36²²⁹

التقوى كما فسرها الاولون والآخرين فعل ما امرت به وترك ما نهيت عنه كما قال طلق بن حبيب لما وقعت الفتنة اتقوها بالتقوى قالوا وما التقوى قال ان تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله وان تترك معصية الله على نور من الله تخاف عذاب الله وأيضاً فالرسل مثل نوح وهود وصالح وشعيب فاتحة دعواهم في هود { **اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ** } هود 50 وفي الشعراء { **أَلَا تَتَّقُونَ** } الشعراء 106 { **فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا** } الشعراء 108 وقال تعالى { **وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى** } البقرة 189²³⁰

العبادة متضمنة لغاية الحب بغاية الذل

²²⁸ اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 51

²²⁹ الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 362

²³⁰ مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 135

قال تعالى {اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} {هود50} المحبة التي أمر الله بها هي عبادته وحده لا شريك له وإذا كان كذلك فأصل المحبة المحمودة التي أمر الله بها وخلق خلقه لأجلها هي ما في عبادته وحده لا شريك له إذ العبادة متضمنة لغاية الحب بغاية الذل والمحبة لما كانت جنسا لأنواع متفاوتة في القدر والوصف كان أغلب ما يذكر منها في حق الله ما يختص به ويليق به مثل العبادة والإنابة ونحوهما فإن العبادة لا تصلح إلا لله وحده وكذلك الإنابة وقد تذكر المحبة المطلقة لكن تقع فيها الشراكة كما قال تعالى {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ} {البقرة165} ولهذا كان هذا الحب أعظم الأقسام المذمومة في المحبة كما أن حب الله أعظم الأنواع المحمودة بل عبادة الله وحده لا شريك له هي أصل السعادة ورأسها التي لا ينجو أحد من العذاب إلا بها وعبادة إله آخر من دونه هو أصل الشقاء ورأسه الذي لا يبقى في العذاب إلا أهله فأهل التوحيد الذين أحبوا الله وعبده وحده لا شريك له لا يبقى منهم في العذاب أحد والذين اتخذوا من دونه أندادا يحبونهم كحبه وعبدوا غيره هم أهل الشرك الذين قال الله تعالى فيهم {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ} {النساء48} وجماع القرآن هو الأمر بتلك المحبة ولوازمها والنهي عن هذه المحبات ولوازمها وضرب الأمثال والمقاييس للنوعين وذكر قصص أهل النوعين وأصل دعوة جميع المرسلين قولهم {اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} {الأعراف59} وعلي ذلك قاتل من قاتل منهم المشركين كما قال خاتم الرسل أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله قال الله تعالى {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ} {الشورى13} ولهذا قال في الحديث المتفق عليه في الصحيحين عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان وفي رواية في الصحيح لا يجد طعم الإيمان إلا من كان فيه ثلاث أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله وأن يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله كما يكره أن يلقى في النار²³¹

كمال المخلوق في تحقيق عبوديته لله

فإن الله تعالى أرسل الرسل ليدعوا الخلق إلى عبادته وحده لا شريك له كما قال تعالى وأخبر عن كل نبي أنه دعا قومه إلى ذلك فقال عن هود {وَأِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ} {هود50} وكذلك سائرهم وأمثال ذلك فكمال الإنسان وصلاحه وسعادته في أن يعبد الله وحده لا شريك له وهذا هو الإسلام العام الذي بعث الله به جميع الرسل وهو الذي لا يقبل من أحد دينا غيره لا من المتقدمين ولا من المتأخرين²³²

²³¹قاعدة في المحبة ج: 1 ص: 11

²³²الصفدية ج: 2 ص: 242

محبة الله وتوحيده هو الغاية التي فيها صلاح للنفس وهو عبادة الله وحده لا شريك له فلا صلاح للنفس ولا كمال لها إلا في ذلك وبدون ذلك تكون فاسدة لا صلاح لها ولهذا كان هذا هو دين الإسلام الذي اتفقت عليه الرسل قال الله تعالى {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} النحل36 وقد قال تعالى {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} {الذاريات56 فالغاية الحميدة التي بها يحصل كمال بني آدم وسعادتهم ونجاتهم عبادة الله وحده وهي حقيقة قول القائل لا إله إلا الله ولهذا بعث الله جميع الرسل وأنزل جميع الكتب ولا تصلح النفس وتزكو وتكمل إلا بهذا ولفظ العبادة يتضمن كمال الذل بكمال الحب فلا بد أن يكون العابد محبا للإله المعبود كمال الحب ولا بد أن يكون ذليلا له كمال الذل فمن أحب شيئا ولم يذل له لم يعبهه ومن خضع له ولم يحبه لم يعبهه وكمال الحب والذل لا يصلح إلا لله وحده فهو الإله المستحق للعبادة التي لا يستحقها إلا هو وذلك يتضمن كمال الحب والذل والإجلال والإكرام والتوكل والعبادة فالنفوس محتاجة إلى الله من حيث هو معبودها ومنتهى مرادها وبغيتها ومن حيث هو ربها وخالقها فمن آمن بالله رب كل شيء وخالفه ولم يعبد إلا الله وحده بحيث يكون الله أحب إليه من كل ما سواه وأخشى عنده من كل ما سواه وأعظم عنده من كل ما سواه وأرجى عنده من كل ما سواه بل من سوى بين الله وبين بعض المخلوقات في الحب بحيث يحبه مثل ما يحب الله ويخشاه مثل ما يخشى الله ويرجوه مثل ما يرجو الله ويدعوه مثل ما يدعو الله فهو مشرك الشرك الذي لا يغفره الله ولو كان مع ذلك عفيفا في طعامه ونكاحه وكان حكيما شجاعا²³³

فكمال المخلوق في تحقيق عبوديته لله وكلما ازداد العبد تحقيقا للعبودية ازداد كماله وعلت درجته ومن توهم ان المخلوق يخرج من العبودية بوجه من الوجوه او ان الخروج عنها اكمل فهو من اجهل الخلق واضلهم وقال تعالى {وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ} {19} {يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ} {20} {الأنبياء19-20} وقال تعالى {لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا} النساء172 الى قوله { وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِّنْ نُّونٍ لِلَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا} {النساء173} وهذا ونحوه مما فيه وصف اكابر المخلوقات بالعبادة ودم من خرج عن ذلك متعدد في القرآن وقد اخبر انه ارسل جميع الرسل بذلك فقال تعالى {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} {النحل36} وقال {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} {الذاريات56} وكل رسول من الرسل افتتح دعوته بالدعاء الى عبادة الله كقول نوح ومن بعده عليهم السلام {اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} {الأعراف59} وفي المسند عن ابن عمر عن النبي انه قال بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له وجعل رزقي تحت ظل رمحي وجعل الذلة والصغار على من خالف امرى²³⁴

²³³الجواب الصحيح ج: 6 ص: 27

²³⁴مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 178

اخلاص الدين كله لله هو تحقيق قول لا اله الا الله

وكلما حقق العبد الاخلاص فى قول لا اله الا الله خرج من قلبه تأله ما يهواه وتصرف عنه المعاصى والذنوب كما قال تعالى { كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ } يوسف 24 فعمل صرف السوء والفحشاء عنه بأنه من عباد الله المخلصين وهؤلاء هم الذين قال فيهم { إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ } الحجر 42 وقال الشيطان { قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ } 82 { إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ } 83 { ص 82-83 وقد ثبت فى الصحيح عن النبي انه قال من قال لا اله الا الله مخلصا من قلبه حرمه الله على النار فإن الاخلاص ينفى اسباب دخول النار فمن دخل النار من القائلين لا اله الا الله لم يحقق اخلاصها المحرم له على النار بل كان فى قلبه نوع من الشرك الذى اوقعه فيما ادخله النار والشرك فى هذه الأمة اخفى من ديبب النمل ولهذا كان العبد مأمورا فى كل صلاة ان يقول { اِيَّاكَ نَعْبُدُ وَاِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } الفاتحة 5 والشيطان يأمر بالشرك والنفس تطيعه فى ذلك فلا تزال النفس تلتفت الى غير الله اما خوفا منه واما رجاء له فلا يزال العبد مفتقرا الى تخليص توحيده من شوائب الشرك وفى الحديث الذى رواه ابن ابي عاصم وغيره عن النبي انه قال يقول الشيطان اهلكت الناس بالذنوب واهلكونى بلا اله الا الله والاستغفار فلما رأيت ذلك بنثت فيهم الأهواء فهم يذنبون ولا يستغفرون لأنهم يحسبون انهم يحسنون صنعا فصاحب الهوى الذى اتبع هواه بغير هدى من الله له نصيب ممن اتخذ الهه هواه فصار فيه شرك منعه من الاستغفار واما من حقق التوحيد والاستغفار فلا بد ان يرفع عنه الشر فلماذا قال ذو النون { لا اِلهَ اِلاَّ اَنْتَ سُبْحَانَكَ اِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ } الأنبياء 87 ولهذا يقرن الله بين التوحيد والاستغفار فى غير موضع كقوله تعالى { فَاَعْلَمُ اَنْهَ لاَ اِلهَ اِلاَّ اللهُ وَاسْتَغْفِرُ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ } محمد 19 وقوله { اَلَا تَعْبُدُوا اِلاَّ اللهَ اِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ } 2 { وَاَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا اِلَيْهِ } 3 { هود 2-3 } وقوله { وَاِلَى عَادَ اَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ اِلهَ غَيْرُهُ اِنْ اَنْتُمْ اِلاَّ مُفْتَرُونَ } 50 { يَا قَوْمِ لاَ اَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ اَجْرًا اِنْ اَجْرِي اِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي اَفَلَا تَعْقِلُونَ } 51 { وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا اِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً اِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ } 52 { هود 50-52 } وقوله { فَاسْتَقِيمُوا اِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ } فصلت 6 وخاتمة المجلس سبحانك اللهم وبحمدك اشهد ان لا اله الا انت استغفرك واتوب اليك كان مجلس رحمه كانت كالطابع عليه وان كان مجلس لغو كانت كفارة له وقد روى ايضا انها تقال فى آخر الضوء بعد ان يقال اشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له واشهد ان محمدا عبده ورسوله اللهم اجعلنى من التوابين واجعلنى من المتطهرين وهذا الذكر يتضمن التوحيد والاستغفار فان صدره الشهادتان اللتان هما اصلا الدين وجماعة فان جميع الذين داخل فى الشهادتين اذ مضمونها ان لا نعبد الا الله وان نطيع رسوله والدين كله داخل فى هذا فى عبادة الله بطاعة الله وطاعة رسوله وكل ما يجب او يستحب داخل فى طاعة الله ورسوله وقد روى انه يقول سبحانك اللهم وبحمدك اشهد ان لا اله الا انت استغفرك واتوب اليك وهكذا كفارة المجلس فقد شرع فى آخر المجلس وفى آخر الوضوء وكذلك كان النبي يختم الصلاة كما فى الحديث الصحيح انه كان يقول فى آخر صلاته اللهم اغفر لى ما قدمت وما اخرت وما اسررت وما اعلمت وما انت اعلم به منى انت المقدم وانت المؤخر لا اله الا انت وهنا قدم الدعاء وختمه بالتوحيد لأن الدعاء مأمور به فى آخر الصلاة وختم بالتوحيد ليختم الصلاة بأفضل الأمور وهو التوحيد بخلاف ما لم يقصد فيه هذا فان تقديم التوحيد افضل فإن جنس الدعاء الذى هو ثناء وعبادة افضل من جنس الدعاء الذى هو سؤال وطلب وان كان المفضل قد يفضل على الفاضل فى موضعه الخاص بسبب وبأشياء اخر كما ان الصلاة افضل من القراءة والقراءة افضل من الذكر الذى هو ثناء والذكر افضل من الدعاء الذى هو سؤال ومع هذا فالمفضل له امكنة وازمنة واحوال يكون فيها أفضل من الفاضل لكن اول

ففي صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ذاق طعم الايمان من رضى بالله ربا وبالاسلام ديناً وبمحمد نبياً وفي الصحيحين عن النبي انه قال ثلاث من كن فيه وجد بهن حلوة الايمان أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما ومن كان يحب المرء لا يحبه الا الله ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره ان يلقى في النار وهذا مما يبين من الكلام على المحبة فنقول محبة الله بل محبة الله ورسوله من أعظم واجبات الايمان وأكبر اصوله وأجل قواعده بل هي اصل كل عمل من اعمال الايمان والدين وكما ان التصديق به اصل كل قول من أقوال الايمان والدين فان كل حركة في الوجود انما تصدر عن محبة إما عن محبة محمودة أو عن محبة مذمومة كما قد بسطنا ذلك في قاعدة المحبة من القواعد الكبار فجميع الاعمال الايمانية الدينية لاتصدر الا عن المحبة المحمودة وأصل المحبة المحمودة هي محبة الله سبحانه وتعالى إذ العمل الصادر عن محبة مذمومة عند الله لا يكون عملاً صالحاً بل جميع الاعمال الايمانية الدينية لا تصدر إلا عن محبة الله فإن الله تعالى لا يقبل من العمل الا ما اريد به وجهه كما ثبت في الصحيح عن النبي انه قال يقول الله تعالى أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل عملاً فأشرك فيه غيري فانا منه برئ وهو كله للذي أشرك وثبت في الصحيح في حديث الثلاثة الذين هم اول من تسعر بهم النار القارئ المرائى والمجاهد المرائى والمتصدق المرائى بل اخلاص الدين لله هو الدين الذي لايقبل الله سواء وهو الذي بعث به الأولين والأخريين من الرسل وأنزل به جميع الكتب واتفق عليه أئمة اهل الايمان وهذا هو خلاصة الدعوة النبوية وهو قطب القرآن الذي تدور عليه رحاه وقال تعالى فيما قصه من قصة آدم وابليس انه قال { فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ } 82 { إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ } 83 { وقال تعالى { إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ } الحجر 42 وقال { إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } 99 { إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ } النحل 99-100 فبين ان سلطان الشيطان واغواؤه انما هو لغير المخلصين ولهذا قال في قصة يوسف { كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ } يوسف 24

واتباع الشيطان هم اصحاب النار كما قال تعالى { لأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ } ص 85 وقد قال سبحانه { إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ } النساء 48 وهذه الآية في حق من لم يتب ولهذا خصص الشرك وقيد ما سواه بالمشيئة فأخبر انه لا يغفر الشرك لمن لم يتب منه ومادونه يغفره لمن يشاء واما قوله { قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً } الزمر 53 فتلك في حق التائبين ولهذا عم واطلق وسياق الآية يبين ذلك مع سبب نزولها وقد اخبر سبحانه ان الأولين والأخريين انما امروا بذلك في غير موضع كالسورة التي قرأها النبي علي ابى لما امره الله تعالى ان يقرأ عليه قراءة إبلاغ وإسماع بخصوصه فقال { وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ } 4 { وَمَا أَمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ } 5 { البينة 4-5 الآية

وهذا حقيقة قول لا اله إلا الله وبذلك بعث جميع الرسل قال الله تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ } الأنبياء 25 وقال { وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ } الزخرف 45 وقال تعالى { وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ } النحل 36 وجميع الرسل افتتحو دعوتهم بهذا الاصل كما قال نوح عليه السلام { اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ } الأعراف 59 وكذلك هود وصالح وشعيب عليهم السلام وغيرهم كل يقول { اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ } لاسيما افضل الرسل الذين اتخذ الله كلاهما خليلا ابراهيم ومحمدا عليهما السلام فان هذا الاصل بينه الله بهما وأيدهما فيه ونشره بهما فابراهيم هو الامام الذي قال الله فيه { إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا } البقرة 124 وفي ذريته جعل النبوة والكتاب والرسل فأهل هذه النبوة والرسالة هم من آله الذين بارك الله عليهم قال سبحانه { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ } 26 { إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ } 27 { وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِمْ لَعَلَّهُمْ يُرْجَعُونَ } 28 { الزخرف 26-28 فهذه الكلمة هي كلمة الاخلاص لله وهي البراءة من كل معبود الا من الخالق الذي فطرنا كما قال صاحب يس { وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } 22 { أَلَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرَدِّنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُقَدِّرُونَ } 23 { إِنِّي إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ } 24 { إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ } 25 { يس 22-25 }²³⁶

إلهية ما سوى الله ليس لها أساس ثابت ولا فرع ثابت بل هي أعظم

الكذب والإفتراء

لفظ الإله يراد به المستحق للإلهية ويراد به ما إتخذته الناس إلهًا وإن لم يكن إلهًا في نفس الأمر بل هي أسماء سموها هم وأباؤهم فتلك ليست في نفسها إلهة وإنما هي إلهة في أنفس العابدين فالهيتها أمر قدره المشركون وجعلوه في أنفسهم من غير أن يكون مطابقًا للخارج كالذي يجعل من ليس بعالم عالما ومن ليس بحي حيا ومن ليس بصادق ولا عدل صادقًا وعدلا فيقال هذا عندك صادق وعادل وعالم وتلك إعتقادات غير مطابقة وأقوال كاذبة غير لائقة ولهذا يجعل سبحانه ذلك من باب الإفتراء والكذب كما قال أصحاب الكهف { هَؤُلَاءِ قَوْمًا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا } الكهف 15 وقال الخليل { إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا } العنكبوت 17 وقال { وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ } يونس 66 أي أي شيء يتبع الذين يشركون وإنما يتبعون الظن والخرص وهو الحزر هذا صواب وإن ما إستفهامية وقد قيل أنها نافية وبعضهم لم يذكر غيره كأبي الفرج وهو ضعيف كما قد بين ذلك في غير هذا الموضوع وقال هود { اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ } هود 50 وإذا كانت إلهية ما سوى الله أمرا مختلفا يوجد في الذهن واللسان لا وجود له في الأعيان وهو من باب الكذب والإعتقاد الباطل الذي ليس بمطابق وما عند عابديها من الحب والخوف والرجاء لها تابع لذلك الإعتقاد الباطل كمن إعتقد في شخص أنه صادق فصدقه فيما يقول وبنى على إخباره أعمالا كثيرة فلما تبين كذبه ظهر فساد تلك الأعمال كأتباع مسلمة والأسود وغيرهما من أصحاب الزوايا والترهات وما يشرعونه لأتباعهم مما لم يأذن به الله بخلاف الصادق والصدق ولهذا

كانت كلمة التوحيد { كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ } إبراهيم 24 وقال في كلمة الشرك { كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ } إبراهيم 26 فليس لها أساس ثابت ولا فرع ثابت إذ كانت باطلة كأقوال الكاذبين وأعمالهم بل هي أعظم الكذب والإفتراء مع الحب لها والشرك أعظم الظلم قال ابن مسعود قلت يا رسول الله أي الذنب أعظم قال أن تجعل لله ندا وهو خلقك فنفس تألهم لها وعبادتهم إياها وتعظيمها وحبها ودعائها وإعتقادها آلهة والخبر عنها بأنها آلهة موجود كما كان إعتقاد الكاذبين موجودا وأما نفس إتصافها بالإلهية فمفقود كإتصاف مسيئة بالنبوة فهنا حالان حال للعابد وحال للمعبود فأما العابدون فكلهم في قلوبهم عبادة وتألهم لمن عبده وأما المعبدون فالرحمن له الإلهية وما سواه لا الهية له بل هو ميت لا يملك لعبديه ضرا ولا نفعاً { قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَأَبْتَعُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا } الإسراء 42 وهو في أصح القولين سبيلا بالتقرب بعبادته وذكره ولهذا قال بعدها { تَسْبِحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ } الإسراء 44 فأخبر عن الخلائق كلها أنها تسبح بحمده وقد بسط هذا في موضع آخر ²³⁷

يصف القرآن أهل الشرك بالفرية

كما قرن الله بين الشرك والكذب في غير موضع كقوله { وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ } 30 { حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ } الحج 30-31 وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال عدلت شهادة الزور الإشراف بالله مرتين ثم قرأ هذه الآية وقال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيِّئًا لَهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ } الأعراف 152 وقال تعالى { وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ } 74 { وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ } 75 { القصص 74-75 وهذا الحق لله كما ثبت عنه في الصحيح أنه قال لمعاد بن جبل يا معاذ أتدرى ما حق الله على عباده قال الله ورسوله أعلم قال حقه على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا يا معاذ أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك قال الله ورسوله أعلم قال حقه عليه أن لا يعذبهم وقال تعالى { وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ } هود 50 ومثل هذا في القرآن متعدد يصف أهل الشرك بالفرية ولهذا طالبهم بالبرهان والسلطان كما في قوله { وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ } المؤمنون 117 ²³⁸

وقد أخبر الله تعالى عن قبح أعمال الكفار قبل أن يأتيهم الرسول كقوله لموسى { إِنْ فِرْعَوْنُ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ مِنْهُ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يُدَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ } 4 { وَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ

²³⁷مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 575-581

²³⁸مجموع الفتاوى ج: 27 ص: 162-163

الْوَارِثِينَ {5} وَنَمَكَّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ {6} القصص 4-6 فهذا خبر عن حاله قبل أن يولد موسى وحين كان صغيراً قبل أن يأتيه برسالة انه كان طاغياً مفسداً و ايضاً أمر الله الناس أن يتوبوا ويستغفروا مما فعلوه فلو كان كالمباح المستوى الطرفين والمعفو عنه وكفعل الصبيان والمجانين ما أمر بالاستغفار والتوبة فعلم أنه كان من السيئات القبيحة لكن الله لا يعاقب الا بعد إقامة الحجة وهذا كقوله تعالى وقال عن هود { وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ } {50} يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ } {51} وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ } {52} هود 50-52 فأخبر في أول خطابه أنهم مفترون بأكثر الذي كانوا عليه كما قال لهم في الآية الأخرى { أَنْجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءِ سَمَيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ } الأعراف 71²³⁹

الأفعال تكون قبيحة مذمومة قبل مجيء الرسول اليهم (بحاجة الى مرجع)

آخر لتوضيحه ونفس المرجع

وقد فرق الله بين ما قبل الرسالة وما بعدها في أسماء وأحكام وجمع بينهما في أسماء وأحكام وذلك حجة على الطائفتين على من قال ان الافعال ليس فيها حسن وقبيح ومن قال انهم يستحقون العذاب على القولين اما الاول فانه سماهم ظالمين وطاغين ومفسدين لقوله { اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ } طه 24 وقوله { وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَنْتَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } {10} قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ } {11} الشعراء 10- 11 وقوله { إِنْ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْ أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يُدْبِحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ } القصص 4 فأخبر انه ظالما وطاغيا ومفسدا هو وقومه وهذه اسماء ذم الافعال والذم انما يكون في الافعال السيئة القبيحة فدل ذلك على ان الافعال تكون قبيحة مذمومة قبل مجيء الرسول اليهم لا يستحقون العذاب الا بعد اتيان الرسول اليهم لقوله { وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا } الإسراء 15 وكذلك أخبر عن هود انه قال لقومه { اَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ } هود 50 فجعلهم مفترين قبل أن يحكم بحكم يخالفونه لكونهم جعلوا مع الله الها آخر فاسم المشرك ثبت قبل الرسالة فانه يشرك بربه ويعدل به ويجعل معه آلهة أخرى ويجعل له أندادا قبل الرسول ويثبت أن هذه الاسماء مقدم عليها وكذلك اسم الجهل والجاهلية يقال جاهلية وجاهلا قبل مجيء الرسول واما التعذيب فلا والتولى عن الطاعة كقوله { فَلَا صِدْقَ وَلَا صَلَىٰ } {31} وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ } {32} القيامة 31-32 فهذا لا يكون الا بعد الرسول مثل قوله عن فرعون { فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ } النازعات 21 كان هذا بعد مجيء الرسول اليه كما قال تعالى { فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ } {20} فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ } {21} النازعات 20-21 وقال { فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ } المزملة 16 هذا آخر ما وجد (هذه عبارة لمن جمع مجموع الفتاوى لابن تيمية)²⁴⁰

²³⁹مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 680

²⁴⁰مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 38

العقل فى القرآن يتضمن ما يجلب به المنفعة وما يدفع به المضرة

الناس يدركون بعقولهم الامور الدنيا فيعرفون ما يجلب لهم منفعة فى الدنيا وما يجلب لهم مضرة وهذا من العقل الذى ميز به الانسان فانه يدرك من عواقب الافعال ما لا يدركه الحس ولفظ العقل فى القرآن يتضمن ما يجلب به المنفعة وما يدفع به المضرة ²⁴¹

قال تعالى {وَالِىٰٓ عَادِ اٰخَاهُمْ هُوْدًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللّٰهَ مَا لَكُمْ مِّنْ اِلٰهٍ غَيْرُهُ اِنْ اَنْتُمْ اِلَّا مُفْتَرُوْنَ} {50} يَا قَوْمِ لَا اَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ اَجْرًا اِنْ اَجْرِيْ اِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِيْ اَفَلَا

تَعْقِلُوْنَ} {51} هود 50-51 ان اسم العقل عند المسلمين وجمهور العقلاء إنما هو صفة وهو الذى يسمى عرضاً قائماً بالعاقل وعلى هذا دل القرآن فى قوله تعالى لعلمكم تعقلون وقوله {اَفَلَمْ يَسْبِرُوْا فِى الْاَرْضِ فَتَنْكُوْنَ لَهُمْ قُلُوْبٌ يَّعْقِلُوْنَ بِهَا} {الحج 46} وقوله {قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْاٰتِىَاتِ اِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُوْنَ} آل عمران 118 ونحو ذلك مما يدل على ان العقل مصدر عقل يعقل عقلاً وإذا كان كذلك فالعقل لا يسمى به مجرد العلم الذى لم يعمل به صاحبه ولا العمل بلا علم بل إنما يسمى به العلم الذى يعمل به والعمل بالعلم ولهذا قال أهل النار {لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ اَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىْ اَصْحَابِ السَّعِيْرِ} {الملك 10} وقال تعالى {اَفَلَمْ يَسْبِرُوْا فِى الْاَرْضِ فَتَنْكُوْنَ لَهُمْ قُلُوْبٌ يَّعْقِلُوْنَ بِهَا} {الحج 46} والعقل المشروط فى التكليف لا بد أن يكون علوماً يميز بها الانسان بين ما ينفعه وما يضره فالمجنون الذى لا يميز بين الدراهم والفلوس ولا بين أيام الاسبوع ولا يفقه ما يقال له من الكلام ليس بعاقل أما من فهم الكلام ويميز بين ما ينفعه وما يضره فهو عاقل ثم من الناس من يقول العقل هو علوم ضرورية ومنهم من يقول العقل هو العمل بموجب تلك العلوم والصحيح أن اسم العقل يتناول هذا وهذا وقد يراد بالعقل نفس الغريزة التى فى الانسان التى بها يعلم ويميز ويقصد المنافع دون المضار كما قال أحمد بن حنبل والحارث المحاسبى وغيرهما ان العقل غريزة وهذه الغريزة ثابتة عند جمهور العقلاء كما أن فى العين قوة بها يبصر وفى اللسان قوة بها يذوق وفى الجلد قوة بها يلمس عند جمهور العقلاء ²⁴²

قال تعالى { اِنَّ فِىْ ذٰلِكَ لٰآيٰتٍ لِّاُولِي النُّهٰى } طه 54 أى العقول وقال تعالى { هَلْ فِىْ ذٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ } الفجر 5 أى لذى عقل وقال تعالى { وَاَنْتَقُوْنَ يَا اُولِي الْاَلْبَابِ } البقرة 197 وقال { اِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللّٰهِ الصَّمُّ الْبُكْمُ الَّذِيْنَ لَا يَعْقِلُوْنَ } الأنفال 22 وقال تعالى { اِنَّا اَنْزَلْنَاهُ فَرٰنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُوْنَ } يوسف 2 فإنما مدح الله وأثنى على من كان له عقل فأما من لا يعقل فإن الله لم يحمده ولم يثن عليه ولم يذكره بخير قط بل قال تعالى عن أهل النار { وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ اَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىْ اَصْحَابِ السَّعِيْرِ } {الملك 10} وقال تعالى { وَلَقَدْ دَرٰرْنَا لِحَبَّتُمْ كَثِيْرًا مِّنَ الْجِنَّ وَالْاِنْسِ لَهُمْ قُلُوْبٌ لَا يَفْقَهُوْنَ بِهَا وَلَهُمْ اَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُوْنَ بِهَا وَلَهُمْ اَادَانٌ لَا يَسْمَعُوْنَ بِهَا اُولٰٓئِكَ

²⁴¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 311

²⁴²مجموع الفتاوى ج: 9 ص: 286

الأعمال بالنيات وإنما لكل أمرى ما نوى فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر اليه فبين بهذا أن النية عمل القلب وهي أصل العمل وإخلاص الدين لله وعبادة الله وحده ومتابعة الرسول فيما جاء به هو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وهو دين الإسلام العام الذي بعث الله به جميع الرسل كما قال تعالى {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنْ اْعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} النحل36 وقال النبي لمعاذ بن جبل يا معاذ أتدرى ما حق الله على عباده قلت الله ورسوله أعلم قال حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك أن لا يعذبهم وقال لابن عباس إذا سألت فاسئل الله وإذا استعنت فاستعن بالله وقال تعالى وقال {وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ} هود52²⁴⁵

التوبة فرض على العباد دائما

قال تعالى {وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ} هود52 أن التوبة فرض على العباد دائما واقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم حيث يقول في الحديث الصحيح أيها الناس توبوا إلى ربكم فالذى نفسى بيده انى لاستغفر الله وأتوب اليه فى اليوم مائة مرة وفى رواية أكثر من سبعين مرة وأخر سورة نزلت عليه (إذا جاء نصرُ الله والفتحُ {1} ورأيتُ الناسَ يدخلونَ في دينِ الله أفواجا {2} فسبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا {3}) النصر 1-3²⁴⁶

والمؤمن مأمور بأن يفعل المأمور ويترك المحظور ويصبر على المقدور كما قال تعالى فى قصة يوسف { إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } يوسف90 فالتقوى فعل ما أمر الله به وترك ما نهى الله عنه ولهذا قال الله تعالى {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ} غافر55 فأمره مع الاستغفار بالصبر فإن العباد لا بد لهم من الاستغفار أولهم وآخرهم قال النبي فى الحديث الصحيح يا أيها الناس توبوا الى ربكم فالذى نفسى بيده انى لاستغفر الله وأتوب اليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة وقال انه ليغان على قلبى وانى لاستغفر الله وأتوب اليه فى اليوم مائة مرة وكان يقول اللهم اغفر لى خطيئتى وجهلى واسرافى فى أمرى وما أنت أعلم به منى اللهم اغفر لى خطيئى وعمدى وهزلى وجدى وكل ذلك عندى اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أنت أعلم به منى أنت المقدم وأنت المؤخر وقد ذكر عن آدم أبى البشر انه استغفر ربه وتاب اليه فاجتباها ربه فتاب عليه وهدها وعن ابليس أبى الجن لعنه الله انه أصر متعلقا بالقدر فلعنه وأقصاه فمن أذنب وتاب وندم فقد أشبهه أباه ومن أشبهه أباه فما ظلم ولهذا قرن الله سبحانه بين التوحيد والاستغفار فى غير آية كما قال تعالى {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ} محمد19 وفى الحديث الذى رواه ابن ابي عاصم وغيره يقول الشيطان أهلك

²⁴⁵مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 72

²⁴⁶مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 280

الناس بالذنوب وأهلكوني بلا إله إلا الله والاستغفار فلما رأيت ذلك بثنت فيهم الأهواء فهم يذنبون ولا يتوبون لأنهم يحسبون انهم يحسنون صنعا²⁴⁷

القوة والعزة لأهل الطاعة التائبين إلى الله

وقد دل القرآن على أن القوة والعزة لأهل الطاعة التائبين إلى الله في مواضع كثيرة كقوله في سورة هود {وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ} هود52 وقوله {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ} المنافقون8 {وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} آل عمران139 وإذا كان الذي قد يهجر السيئات يغض بصره ويحفظ فرجه وغير ذلك مما نهى الله عنه يجعل الله له من النور والعلم والقوة والعزة ومحبة الله ورسوله فما ظنك بالذي لم يحلم حول السيئات ولم يعرها طرفه قط ولم تحدثه نفسه بها بل هو يجاهد في سبيل الله أهلها ليتركوا السيئات فهل هذا وذلك سواء بل هذا له النور والايمن والعزة والقوة والمحبة والسلطان والنجاة في الدنيا والآخرة أضعاف أضعاف ذلك وحاله أعظم وأعلى ونوره اتم واقوى فان السيئات تهواها النفوس ويزنها الشيطان فتجتمع فيها الشبهات والشهوات فإذا كان المؤمن قد حيب الله اليه الايمان وزينه في قلبه وكره اليه الكفر والفسوق والعصيان حتى يعوض عن شهوات الغي بحب الله ورسوله وما يتبع ذلك وعن الشهوات والشبهات بالنور والهدى وأعطاه الله من القوة والقدرة ما أيده به حيث دفع بالعلم الجهل وبارادة الحسنات ارادة السيئات وبالقوة على الخير القوة على الشر في نفسه فقط والمجاهد في سبيل الله يطلب فعل ذلك في نفسه وغيره أيضا حتى يدفع جهله بالظلم وارادته السيئات بارادة الحسنات ونحوذلك والجهاد تمام الايمان وسنام العمل كما قال تعالى {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} الحجرات15 وقال {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} آل عمران110²⁴⁸

في قوله تعالى {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ} الأنفال33 والكلام عليها من وجهين أحدهما في الاستغفار الدافع للعذاب والثاني في العذاب المدفوع بالاستغفار أما الأول فإن العذاب إنما يكون على الذنوب والاستغفار يوجب مغفرة الذنوب التي هي سبب العذاب فيندفع العذاب كما قال تعالى {الرَّ كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنِّي حَكِيمٌ خَبِيرٌ}1 {أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ}2 {وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعاً حَسَناً إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ}3 {هود 1-3 فبين سبحانه أنهم إذا

²⁴⁷مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 121

²⁴⁸مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 400

فعلوا ذلك متعوا متاعا حسنا إلى أجل مسمى ويؤتي كل ذي فضل فضله فبين سبحانه أنهم إذا فعلوا ذلك متعوا متاعا حسنا إلى أجل مسمى ثم إن كان لهم فضل اوتوا الفضل وقال تعالى عن نوح { يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ } 2 { أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا أَمْرًا } 3 { يَغْفِرْ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى } 4 { نوح 2-4 إلى قوله { اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا } 10 { يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا } 11 { نوح 10-11 الآية وقال تعالى { اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ } هود 52 وذلك أنه قد قال تعالى { وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ } الشورى 30 وقال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا } آل عمران 155²⁴⁹

العقل يفهم من المطلق قدرا مشتركا وعند الاختصاص يقيد ذلك

سمى الله نفسه بأسماء وسمى صفاته بأسماء وكانت تلك الاسماء مختصة به اذا اضيفت اليه لا يشركه فيها غيره وسمى بعض مخلوقاته بأسماء مختصة بهم مضافة اليهم توافق تلك الاسماء اذا قطعت عن الاضافة والتخصيص ولم يلزم من اتفاق الاسمين وتمائل مساهما واتحاده عند الاطلاق والتجريد عن الاضافة والتخصيص اتفاقهما ولا تماثل المسمى عند الاضافة والتخصيص فضلا عن ان يتحد مساهما عند الاضافة والتخصيص فقد سمي الله نفسه حيا فقال { اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ } البقرة 255 وسمى بعض عباده حيا فقال { يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ } الروم 19 وليس هذا الحي مثل هذا الحي لأن قوله الحي اسم الله مختص به وقوله { يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ } الروم 19 اسم للحي المخلوق مختص به وإنما يتفقان اذا اطلقا وجردا عن التخصيص ولكن ليس للمطلق مسمى موجود في الخارج ولكن العقل يفهم من المطلق قدرا مشتركا بين المسميين وعند الاختصاص يقيد ذلك بما يتميز به الخالق عن المخلوق والمخلوق عن الخالق ولا بد من هذا في جميع أسماء الله وصفاته يفهم منها ما دل عليه الاسم بالمواطأة والإتفاق وما دل عليه بالإضافة والاختصاص المانعة من مشاركة المخلوق للخالق في شيء من خصائصه سبحانه وتعالى وكذلك سمي صفاته بأسماء وسمى صفات عباده بنظير ذلك فقال { إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ } الذاريات 58 وسمى صفة المخلوق قوة فقال { وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ } هود 52²⁵⁰

لسان الشرك لا يكون له لسان التوحيد

فانه قد علم بالاضطرار من دين الإسلام أن لسان الشرك لا يكون له لسان التوحيد وأن أقوال المشركين الذين قالوا { لَا تَدْرُنَّ إِلَهَتَكُمْ وَلَا تَدْرُنَّ وِدَاً وَلَا سُوَاعاً وَلَا يَعْوَتُ وَيَعُوقُ وَنَسْرًا } نوح 23 والذين قالوا { مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى } الزمر 3 والذين قالوا { وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ } هود 53 وقالوا { إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ }

²⁴⁹مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 42-45

²⁵⁰مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 13

آلِهَتِنَا بِسُوءٍ {هود54} والذين قالوا {حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ} {الأنبياء68} ونحو هؤلاء ليس هذا هو لسان التوحيد²⁵¹

بتوكله على الله يعجزهم عما تحداهم به

قال تعالى { إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } {56} فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ } {57} وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ } {58} هود56-58 ويرى أنه ما من دابة إلا ربي آخذ بناصيتها وأنه على كل شيء وكيل وانه رب العالمين وان قلوب العباد ونواصيهم بيده لا خالق غيره ولا نافع ولا ضار ولا معطى ولا مانع ولا حافظ ولا معز ولا مذل سواه²⁵²

فالتوكل فله وحده لا شريك له كما قال { إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ } {هود56} ²⁵³

قال عن هود لما قال لقومه { إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ } {54} مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ } {55} إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } {56} فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ } {57} وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ } {58} هود 54-58 فهذا من كلام المرسلين مما يبين أنه بتوكله على الله يدفع شرهم عنه فدعاهم إذا استعظموا ما يفعله كارهين له أن يجتمعوا ثم يفعلوا به ما يريدونه من الإهلاك وقال تعالى { إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } {هود56} فلو لا أن تحقيقه هذه الكلمة وهو توكله على الله يدفع ما تحداهم به ودعاهم إليه تعجيزا لهم من مناجزته لكان قد طلب منهم أن يهلكوه وهذا لا يجوز وهذا طلب تعجيز لهم فدل على أنه بتوكله على الله يعجزهم عما تحداهم به وكذلك هو يشهد الله وإياهم أنه بريء مما يشركونه بالله ثم يتحداهم ويعجزهم بقوله { فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ } {55} إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } {56} هود 55-56 بين أنه توكل على من أخذ بنواصي الأنفس وبسائر الدواب فهو يدفعكم عني لأنني متوكل عليه ولو كان وجود التوكل كعدمه في هذا لكان قد أغراهم بالإيقاع به ولم يكن لذكر توكله فائدة إذ كان حقيقة الأمر عند هؤلاء أنه لا فرق بين من توكل ومن لم يتوكل في وصول العذاب عليه وهم كانوا أكثر وأقوى منه فكانوا يهلكونه لولا قوته

²⁵¹مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 349

²⁵²مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 459

²⁵³مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 69

بتوكله عليه فإن التوكل إن لم يعطه قوة فهم أقوى منه وهو لو قال بأن الله مولاي وناصرى ونحو ذلك لعلم أنه قاله مخبراً فالله يدفعهم عنه وإنما يدفعهم لإيمانه وتقواه ولأنه عبده ورسوله والله تعالى مع رسله وأوليائه فإذا كان بسبب الإيمان والتقوى يدفع الله عن المؤمنين التيقن كما قال تعالى { إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ } الحج38 علم أن العبد تقوم به أعمال باطنة وظاهرة يجلب بها المنفعة ويدفع بها المضرة فالتوكل من أعظم ذلك وعلم أن من ظن أن المقدور من المنافع والمضار ليس معلقاً بالأسباب بل يحصل بدونها فلو غلط وكذلك قول من جعل ذلك مجرد أمانة وعلامة لاقتران هذا بهذا في غير موضع من القرآن في خلقه وأمره كقوله تعالى { فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } الأعراف57 وقوله تعالى { كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ } الحاقة24 وقوله تعالى { جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } السجدة17 وأنكر تعالى على من ظن وجود الأسباب كعدمها في قوله تعالى { أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ } القلم35 وقوله تعالى { أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ } ص28 وأمثال ذلك وهؤلاء الذين يقولون بالجبر قالوا بالأمر والنهي حقيقته أنه إعلام بوقوع العذاب بالمعاصي ومحض المشيئة لا لسبب ولا لحكمة فقلوبوا حقيقة الأمر والنهي إلى الجبر كما أبطلوا الأسباب والحكم وأبطلوا قدر العباد وهم وإن كانوا يردون على القدرية ويذكرون من تناقضهم ما يبين به فساد قول القدرية فردوا باطلاً بباطل وقابلوا بدعة ببدعة كرد اليهود على النصارى والنصارى على اليهود مقاتلهم في المسيح وكلا المقاتلين باطلة وكذلك تقابل الخوارج والشيعة في علي كلاهما باطل على باطل ونظائر متعددة²⁵⁴

(ناقص هنا) مدبراً مصرفاً تحت مشيئة الرب من غير امتناع منه بوجه من الوجوه وهذا شامل للجمادات والحيوانات وكل شيء قال تعالى { مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَّتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } هود56

المشركون يخشون ألهم ويرجونها

المشركون يخشون ألهم ويرجونها ولهذا لما قالوا لهود عليه السلام { إِنَّ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ } 54 { مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ } 55 { إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَّتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } 56 { هود54-55 ولما حاجوا إبراهيم عليه السلام قال لهم { أَنَحَاجُونَ فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ } 80 { وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } 81 { الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ } 82 { الاتعام80-82²⁵⁵

²⁵⁴رسالة في تحقيق التوكل ج: 1 ص: 96-98

²⁵⁵رسالة في فنوت الأشياء ج: 1 ص: 25 و مجموع الفتاوى ج: 27 ص: 257

الرب سبحانه على صراط مستقيم

قال تعالى {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنْ رِزْقِ اللَّهِ حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} {75} وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} {76} النحل 75-76 والمثلان ضربهما الله سبحانه لنفسه المقدسة ولما يعبد من دونه فان الأوثان لا تقدر لا على عمل ينفع ولا على كلام ينفع فاذا قدر عبد مملوك لا يقدر على شئ وآخر قد رزقه الله رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا هل يستوي هذا المملوك العاجز عن الاحسان وهذا القادر على الاحسان المحسن إلى الناس سرا وجهرا وهو سبحانه قادر على الاحسان إلى عباده وهو محسن إليهم دائما فكيف يشبه به العاجز المملوك الذي لا يقدر على شئ حتى يشرك به معه و المثل الثاني إذا قدر شخصان أحدهما ابكم لا يعقل ولا يتكلم ولا يقدر على شئ وهو مع هذا كل على مولاة اينما يوجهه لا يأت بخير فليس فيه من نفع قط بل هو كل على من يتولى أمره وآخر عالم عادل يأمر بالعدل ويعمل بالعدل فهو على صراط مستقيم وقد ضرب ذلك مثلا لنفسه فانه سبحانه عالم عادل قادر يأمر بالعدل وهو قائم بالقسط على صراط مستقيم كما قال تعالى {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} آل عمران 18 وقال هود {إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} هود 56²⁵⁶

أن الله سبحانه وتعالى يقول الصدق و يعمل بالعدل كما قال {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا} الأنعام 115 و قال هود {إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} هود 56 فأخبر أن الله على صراط مستقيم وهو العدل الذي لا عوج فيه وقال {هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} النحل 76 و هو مثل ضربه الله لنفسه ولما يشرك به من الأوثان كما ذكر ذلك في قوله {قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ} يونس 35 الآية و قال {أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ} النحل 17 الآيات الى قوله {وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ} النحل 21 فأخبر أنه خالق منعم عالم و ما يدعون من دونه لا تخلق شيئا و لا تنعم بشيء و لا تعلم شيئا و أخبر أنها ميتة فهل يستوي هذا وهذا فكيف يعبدونها من دون الله مع هذا الفرق الذي لا فرق أعظم منه و لهذا كان هذا أعظم الظلم و الافك و من هذا الباب قوله تعالى {قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا يَشْرِكُونَ} النمل 59 فقله تعالى {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنْ رِزْقِ اللَّهِ حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} {75} وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} {76} النحل 75-76 كلاهما مثل بين الله فيه أنه لا يستوي هو و ما يشركون به كما ذكر نظير ذلك في غير موضع و إن كان هذا الفرق معلوما بالضرورة لكل أحد لكن المشركون مع

اعترافهم بأن آلهتهم مخلوقة مملوكة له يسوون بينه وبينها في المحبة و الدعاء و العبادة و
نحو ذلك و المقصود هنا أن الرب سبحانه على صراط مستقيم²⁵⁷

الكفار الذين جحدوا ما علموا أنه الحق

(ناقص هنا نفس المرجع) قال تعالى {وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ
كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ} {59} وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ
قَوْمٍ هُودٍ} {60} هود 59-60 فالكفار الذين جحدوا ما علموا أنه الحق فإن في العالم من يكذب
فيخبر بخلاف ما يعلم في كثير من الأمور ليس في العالم من يكذب في كل ما يقول وكذلك في
العالم من كذب بكثير من الحق الذي يعلمه لكن لا يكذب بكل ما يقال له من الحسيات وغيرها فمن
نفى الحقائق مع علمه بها ونفى العلم مع ثبوته فهو من الكاذبين ومن تجاهل وقال لا أدري فهو
من الكاتمين ما معه من الحق مثل كاتم الشهادة²⁵⁸

بالرسول يحصل الفرق بين السعداء والأشقياء وبين الحق والباطل

والحكم بين الشيين بالتمائل أو التفاضل يستدعي معرفة كل منهما ومعرفة ما اتصف به من
الصفات التي يقع بها التماثل والتفاضل كمن يريد أن يعرف أن البخاري أعلم من مسلم وكتابه
أصح أو أن سيبويه أعلم من الأخفش ونحو ذلك وقد فضل الله بعض النبيين على بعض كما
قال تعالى {وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ
وَأَتَيْنَا دَاوُودَ رَبُّورًا} {الإسراء 55} والكلام في شيين أحدهما في كون المفضول يستحق
تلك المنزلة دون الفاضل وهذا غاية الجهل والظلم كقول الرافضة الذين يقولون إن عليا كان إماما
عالما عادلا والثلاثة لم يكونوا كذلك وكذلك اليهود والنصارى الذين يقولون إن موسى كان
رسولا ومحمد لم يكن كذلك فإن هذا في غاية الجهل والظلم بخلاف من اعترف باستحقاق الاثنين
للمنزلة ولكن فضل المفضول فهذا أقل جهلا وظلما ومعلوم أن المرسلين يتفاضلون تارة في
الكتب المنزلة عليهم وتارة في الآيات والمعجزات الدالة على صدقهم وتارة في الشرائع وما
جاءوا به من العلم والعمل وتارة في أممهم فمن عنده علم وعدل فينظر في القرآن وفي غيره
من الكتب كالنوراة والإنجيل أو في معجزات محمد ومعجزات غيره أو في شريعته وشريعة
غيره أو في أمته وأمة غيره وجد له من التفضيل على غيره ما لا يخفى إلا على مفرط في الجهل
أو الظلم فكيف يمكن مع هذا أن يقال هو كاذب مقتر وغيره هو النبي الصادق نعم كثير من
أهل الكتاب لم يعرفوا من أخباره ما يبين لهم ذلك كما أن كثيرا من الرافضة لم يعرفوا من أخبار
الثلاثة ما يبين لهم فضيلتهم عن علي رضي الله عنه فهؤلاء في الجهل وطلب العلم عليهم فرض
خصوصا أمر النبوة فإن النظر في أمر من قال {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا
الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ
الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} {الأعراف 158} مقدم على كل شيء إذ كان

²⁵⁷مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 177-179

²⁵⁸الصفدية ج: 2 ص: 324

التصديق بهذا مستلزم لغاية السعادة والتكذيب به مقتضيا لغاية الشقاوة فبالرسول يحصل الفرق بين السعداء والأشقياء وبين الحق والباطل والهدى والضلال والفرق بين أولياء الله وأعدائه وكما يسلك هذه الطريق العقلية في القياس والاعتبار بأن يعتبر حال محمد وكتابه وشرعه وأمته بحال غيره وكتابه وشرعه وينظر هل هما متماثلان أو متفاضلان وأيها أفضل وإذا تبين أن حاله أفضل كان تصديقه أولى وامتنع أن يكون غيره صادقا وهو كاذب بل لو كانا متماثلين وجب كونه صادقا بل وكذلك لو كانا متقاربين وغيره أفضل فإن المتنبي الكذاب لا يقارب الصادق بل بينهما من التباين ما لا يخفى إلا على أعمى الناس وكذلك نسلك هذه الطريق في جنس الأنبياء عليهم السلام مطلقا وأمهم بأن تعرف أخبار من مضى من الأنبياء وأمهم وترى آثار هؤلاء وهؤلاء كما قال تعالى عن عاد **﴿وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾** هود²⁵⁹ 60

عاد عصوا هودا معصية تكذيب لجنس الرسل

قال تعالى **﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾** 59 **﴿وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾** 60 هود 59-60 وكذلك لفظ المعصية و الفسوق و الكفر فاذا أطلقت المعصية لله ورسوله دخل فيها الكفر والفسوق كقوله **﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾** هود 59 فأطلق معصيتهم للرسل بأنهم عصوا هودا معصية تكذيب لجنس الرسل فكانت المعصية لجنس الرسل كمعصية من قال **﴿فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾** الملك 9 ومعصية من كذب وتولى قال تعالى **﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى﴾** 15 **﴿الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾** 16 الليل 16-15 أى كذب بالخير وتولى عن طاعة الأمر وإنما على الخلق أن يصدقوا الرسل فيما أخبروا ويطيعوهم فيما أمروا وكذلك قال فى فرعون **﴿فَكَذَّبَ وَعَصَى﴾** النازعات 21 وقال عن جنس الكافر **﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى﴾** 31 **﴿وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾** 32 {القيامة 31-32} فالتكذيب للخير والتولى عن الأمر وإنما الايمان بتصديق الرسل فيما أخبروا وطاعتهم فيما أمروا²⁶⁰

لطائف لغوية

1- قال تعالى **﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾** هود 52 وقال تعالى **﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾** 57 **﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابِ غَلِيظٍ﴾** هود 57-58 قال تعالى

²⁵⁹الجواب الصحيح ج: 5 ص: 136

²⁶⁰مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 59

{ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى {15} الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى {16} } الليل 15-16 أى كذب بالخبر وتولى عن طاعة الأمر وانما على الخلق أن يصدقوا الرسل فيما أخبروا ويطيعوهم فيما أمروا وكذلك قال فى فرعون { فَكَذَّبَ وَعَصَى } { النازعات 21 } وقال عن جنس الكافر { فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى } {31} وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى {32} {القيامة 31-32} فالتكذيب للخبر والتولى عن الأمر وانما الايمان تصديق الرسل فيما أخبروا وطاعتهم فيما أمروا ومنه قوله { إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا } {15} { فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً } {16} {المزمل 15-16} ولفظ التولى بمعنى التولى عن الطاعة مذكور فى مواضع من القرآن كقوله { سَنُدْعُوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُوهُمْ أَوْ يُسْلِمُوْنَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا } {الفتح 16} ودمه فى غير موضع من القرآن من تولى دليل على وجوب طاعة الله ورسوله وان الأمر المطلق يقتضى وجوب الطاعة ودم المتولى عن الطاعة كما علق الذم بمطلق المعصية فى مثل قوله { فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً } {المزمل 16} ²⁶¹

2- وقال تعالى { فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا إِنْ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ } {57} {وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ} {58} {هود 57-58} الخليفة هو الذي خلف غيره وإن كان لم يستخلفه ذلك الغير كما يقوله الجمهور لم يحتج فى هذا الإسم إلى الإستخلاف والإستعمال الموجود فى الكتاب والسنة يدل على أن هذا الإسم يتناول كل من خلف غيره سواء استخلفه أو لم يستخلفه كقوله تعالى { ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ } {يونس 14} وقوله تعالى { وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ } {الأنعام 165} وقال { وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ } {الزخرف 60} وقوله { وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَا خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ } {الأعراف 69} وفي القصة الأخرى { وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَا خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ } {الأعراف 74} { وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي } {الأعراف 142} فهذا استخلاف وقال تعالى { وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خُلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا } {الفرقان 62} وقال { إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ } {يونس 6} أي هذا يخلف هذا وهذا يخلف هذا فهما يتعاقبان وقال موسى { عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عُدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ } {الأعراف 129} ²⁶²

والخليفة هو من كان خلفا عن غيره فعيلة بمعنى فاعلة كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا سافر يقول اللهم أنت صاحب فى السفر والخليفة فى الأهل وقال صلى الله عليه وسلم من جهر غازيا فقد غزا ومن خلفه فى أهله بخير فقد غزا وقال أو كلما خرجنا فى الغزو خلف أحدهم وله نبيب كنيب التيس يمنح احداهن اللبنة من اللبنة لئن أظفرتنى الله بأحد منهم لأجعلنه نكالا وفى القرآن { سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ } {الفتح 11} وقوله { فَرَحَ }

المُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ {التوبة 81 والمراد بالخليفة أنه خلف من كان قبله من الخلق و الخلف فيه مناسبة كما كان أبو بكر الصديق خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه خلفه على أمته بعد موته و كما كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا سافر لحج أو عمرة أو غزوة يستخلف على المدينة من يكون خليفة له مدة معينة فيستخلف تارة ابن أم مكتوم و تارة غيره و استخلف على بن أبي طالب في غزوة تبوك و تسمى الأمكنة التي يستخلف فيها الامام مخاليف مثل مخاليف اليمن و مخاليف أرض الحجاز و منه الحديث حيث خرج من مخاليف الى مخاليف و منه قوله تعالى { وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيُبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ } الأنعام 165 و قوله تعالى { وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا } يونس 13 الى قوله تعالى { ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ } يونس 14 و منه قوله تعالى { وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَ {النور 55 الآية²⁶³

3- قال تعالى { وَتِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الَّتِي كُنَّا نُزِّلُ بِهَا عَلَى الَّذِينَ هُمْ أَنْبِيَاؤُنَا وَمَا كُنَّا نُلْقِيهَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَالْحَقِّ وَالْحَقِّ وَتِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الَّتِي كُنَّا نُزِّلُ بِهَا عَلَى الَّذِينَ هُمْ أَنْبِيَاؤُنَا وَمَا كُنَّا نُلْقِيهَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَالْحَقِّ وَالْحَقِّ } وقال تعالى { وَتِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الَّتِي كُنَّا نُزِّلُ بِهَا عَلَى الَّذِينَ هُمْ أَنْبِيَاؤُنَا وَمَا كُنَّا نُلْقِيهَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَالْحَقِّ وَالْحَقِّ }
 59-60 وكذلك لفظ المعصية و الفسوق و الكفر فاذا أطلقت المعصية لله ورسوله دخل فيها الكفر و الفسوق كقوله { وَتِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الَّتِي كُنَّا نُزِّلُ بِهَا عَلَى الَّذِينَ هُمْ أَنْبِيَاؤُنَا وَمَا كُنَّا نُلْقِيهَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَالْحَقِّ وَالْحَقِّ }
 أمر كل جبار عنيد {هود 59} فأطلق معصيتهم للرسول بأنهم عصوا هودا معصية تكذيب لجنس الرسل فكانت المعصية لجنس الرسل كمعصية من قال { فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ } {الملك 9} ومعصية من كذب وتولى قال تعالى { لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى {15} الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى } {16} الليل 15-16 أي كذب بالخبر وتولى عن طاعة الأمر وانما علي الخلق أن يصدقوا الرسل فيما أخبروا ويطيعوهم فيما أمروا وكذلك قال في فرعون { فَكَذَّبَ وَعَصَى } {النازعات 21} وقال عن جنس الكافر { فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى } {31} وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى } {32} القيامة 31-32 فالتكذيب للخبر والتولى عن الأمر وانما الايمان تصديق الرسل فيما أخبروا وطاعتهم فيما أمروا²⁶⁴

²⁶³مجموع الفتاوى ج: 35 ص: 43-44

²⁶⁴مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 59

هود 61-68

{وَالِي تَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ
أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي
قَرِيبٌ مُجِيبٌ {61} قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ
نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ {62} قَالَ يَا قَوْمِ
أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ
إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ {63} وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ
فَعَقَرُوهَا فَتَمَثَّلُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدَّ غَيْرُ مَكْدُوبٍ {65} فَلَمَّا
جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِن خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ
رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ {66} وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي
دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ {67} كَأَن لَّمْ يَعْنُوا فِيهَا آلَا إِنَّ تَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ آلَا بُعْدًا
لِّتَمُودَ {68}

رأس الإسلام مطلقاً شهادة أن لا إله إلا الله

التوحيد هو أصل الدين الذي لا يقبل الله من الأولين والآخرين ديناً غيره وبه أرسل الله الرسل وأنزل الكتب وقد ذكر الله عز وجل عن كل من الرسل أنه افتتح دعوته بأن قال لقومه {اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} {هود 61} وفي المسند عن بن عمر عن النبي أنه قال بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له وجعل رزقي تحت ظل رمحي وجعل الذل والصغار على من خالف أمري ومن تشبه بقوم فهو منهم²⁶⁵

وتوحيد الله وإخلاص الدين له في عبادته وإستعانته في القرآن كثير جداً بل هو قلب الإيمان وأول الإسلام وآخره كما قال النبي صلى الله عليه وسلم أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وقال إني لأعلم كلمة لا يقولها عند الموت أحد إلا وجد روحه لها روحاً وقال من كان آخر كلامه لا إله إلا الله وجبت له الجنة وهو قلب الدين والإيمان وسائر الأعمال كالجوارح له وقول النبي إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل أمرى ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه فبين بهذا أن النية عمل القلب وهي أصل العمل وإخلاص الدين لله وعبادة الله وحده ومتابعة الرسول فيما جاء به هو شهادة أن لا إله إلا الله

وأن محمدا عبده ورسوله وهو دين الإسلام العام الذي بعث الله به جميع الرسل كما قال تعالى {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} النحل36 وقال النبي لمعاذ بن جبل يا معاذ أتدرى ما حق الله على عباده قلت الله ورسوله أعلم قال حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك أن لا يعذبهم وقال لابن عباس إذا سألت فاسئل الله وإذا استعنت فاستعن بالله وقال تعالى وقال {فَاسْتَغْفِرُوا لَهُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ} هود61²⁶⁶

إخلاص الدين لله هو الدين الذي لا يقبل الله سواه فهو الذي بعث به الأولين والآخرين من الرسل وانزل به جميع الكتب واتفق عليه أئمة أهل الإيمان وهذا هو خلاصة الدعوة النبوية وهو قطب القرآن الذي تدور عليه رحاه وهذا حقيقة قول لا إله إلا الله وبذلك بعث جميع الرسل وجميع الرسل افتتحوا دعوتهم بهذا الأصل كما قال صالح عليه السلام {وَالْيَ تَمُودُ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} هود61²⁶⁷

فكمال الإنسان وصلاحه وسعادته في أن يعبد الله وحده لا شريك له وهذا هو الإسلام العام الذي بعث الله به جميع الرسل وهو الذي لا يقبل من أحد دينا غيره لا من المتقدمين ولا من المتأخرين²⁶⁸

فان الله سبحانه وتعالى انما خلق الخلق لتكون كلمة الله هي العليا ويكون الدين كله لله وبه انزل الكتب وبه أرسل الرسل وعليه جاهد الرسول والمؤمنون قال الله تعالى {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} الذاريات56 وقال تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} الأنبياء25 وقال {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} النحل36 وقد أخبر عن جميع المرسلين ان كلا منهم يقول لقومه {اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} الأعراف59 وعبادته تكون بطاعته وطاعة رسوله وذلك هو الخير والبر والتقوى والحسنات والقربات والباقيات والصالحات والعمل الصالح وان كانت هذه الاسماء بينها فروق لطيفة ليس هذا موضعها وهذا الذي يقاتل عليه الخلق كما قال تعالى {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ} الأنفال39 وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضى الله

²⁶⁶مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 72

²⁶⁷أمراض القلوب ج: 1 ص: 60

²⁶⁸الصفدية ج: 2 ص: 242

وقال تعالى { إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ } الحجر 42 وقال { إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } 99 { إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ } 100 { النحل 99-100 فبين ان سلطان الشيطان واغواؤه انما هو لغير المخلصين ولهذا قال في قصة يوسف { كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ } يوسف 24

واتباع الشيطان هم اصحاب النار كما قال تعالى { لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ } ص 85 وقد قال سبحانه { إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ } النساء 48 وهذه الآية في حق من لم يتب ولهذا خصص الشرك وقيد ما سواه بالمشيئة فأخبر انه لا يغفر الشرك لمن لم يتب منه ومادونه يغفره لمن يشاء واما قوله { قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا } الزمر 53 فتلك في حق التائبين ولهذا عم واطلق وسياق الآية يبين ذلك مع سبب نزولها وقد اخبر سبحانه ان الأولين والآخرين انما امروا بذلك في غير موضع كالسورة التي قرأها النبي علي ابي لما امره الله تعالى ان يقرأ عليه قراءة إبلاغ وإسماع بخصوصه فقال { وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ } 4 { وَمَا أَمُرُوا إِلَّا لِیَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ } 5 { البيئ 4-5 الآية وهذا حقيقة قول لا اله الا الله وبذلك بعث جميع الرسل قال الله تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ } الأنبياء 25 وقال { وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ } الزخرف 45 وقال تعالى { وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ } النحل 36 وجميع الرسل افتتحو دعوتهم بهذا الاصل كما قال نوح عليه السلام { اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ } الأعراف 59 وكذلك هود وصالح وشعيب عليهم السلام وغيرهم كل يقول { اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ } لاسيما افضل الرسل الذين اتخذ الله كلاهما خليلا ابراهيم ومحمدا عليهما السلام فان هذا الاصل بينه الله بهما وأيدهما فيه ونشره بهما فابراهيم هو الامام الذي قال الله فيه { إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا } البقرة 124 وفي ذريته جعل النبوة والكتاب والرسل فاهل هذه النبوة والرسالة هم من اله الذين بارك الله عليهم قال سبحانه { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ } 26 { إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدُنِي } 27 { وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } الزخرف 26-28 فهذه الكلمة هي كلمة الاخلاص لله وهي البراءة من كل معبود الا من الخالق الذي فطرنا كما قال صاحب يس { وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } 22 { أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرَدِّدِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَّا تُعْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ } 23 { إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ } 24 { إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ } 25 { يس 22-25 }²⁷¹

فكمال المخلوق في تحقيق عبوديته لله وكلما ازداد العبد تحقيقا للعبودية ازداد كماله وعلت درجته ومن توهم ان المخلوق يخرج من العبودية بوجه من الوجوه او ان الخروج عنها اكمل فهو من اجهل الخلق واضلهم وقال تعالى { وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ } 19 { يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ } 20 { الأنبياء 19-20 } وقال تعالى { لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ

وَيَسْتَكْبِرُ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً { النساء 172 الى قوله } وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا { النساء 173 وهذا ونحوه مما فيه وصف اكابر المخلوقات بالعبادة وذم من خرج عن ذلك متعدد في القرآن وقد اخبر انه ارسل جميع الرسل بذلك فقال تعالى {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ { النحل 36 وقال {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ { الذاريات 56 وكل رسول من الرسل افتتح دعوته بالدعاء الى عبادة الله كقول نوح ومن بعده عليهم السلام { اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ { الأعراف 59 وفي المسند عن ابن عمر عن النبي انه قال بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له وجعل رزقي تحت ظل رمحي وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري²⁷²

أخبر الله تعالى عن قبح أعمال الكفار قبل أن يأتيهم الرسول

(ناقص نفس المرجع) وقد أخبر الله تعالى عن قبح أعمال الكفار قبل أن يأتيهم الرسول كقوله لموسى { إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يُدَّبِحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ {4} وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعَفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ {5} وَنَمَكَّنْ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ {6} {القصص 4-6 فهذا خبر عن حاله قبل أن يولد موسى وحين كان صغيرا قبل أن يأتيه برسالة انه كان طاغيا مفسدا و ايضا أمر الله الناس أن يتوبوا ويستغفروا مما فعلوه فلو كان كالمباح المستوى الطرفين والمعفو عنه وكفعل الصبيان والمجانين ما أمر بالاستغفار والتوبة فعلم أنه كان من السيئات القبيحة لكن الله لا يعاقب الا بعد إقامة الحجة وهذا كقوله تعالى وقال عن صالح { يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ { هود 61²⁷³

التوبة فرض على العباد دائما

والمؤمن مأمور بأن يفعل المأمور ويترك المحذور ويصبر على المقدور كما قال تعالى في قصة يوسف { إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ { يوسف 90 فالتقوى فعل ما أمر الله به وترك ما نهى الله عنه ولهذا قال الله تعالى { فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ { غافر 55 فأمره مع الاستغفار بالصبر فإن العباد لا يبد لهم من الاستغفار أولهم وآخرهم قال النبي في الحديث الصحيح يا أيها الناس توبوا الى ربكم فولدى نفسى بيده إنى لأستغفر الله وأتوب اليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة وقال انه ليغان على قلبى وإنى لأستغفر الله وأتوب اليه فى اليوم مائة مرة وكان يقول اللهم اغفر لى خطيئتى وجهلى واسرافى فى أمرى وما أنت أعلم به منى اللهم اغفر لى خطيئى وعمدى وهزلى وجدى وكل ذلك عندى اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أنت أعلم به منى أنت المقدم وأنت المؤخر وقد ذكر عن آدم أبى البشر انه استغفر ربه وتاب اليه فاجتباه ربه فتاب عليه وهداه وعن ابليس أبى الجن لعنه الله أنه أصر متعلقا بالفدر فلعنه وأقصاه فمن أذنب وتاب وندم فقد أشبهه أباه ومن أشبهه أباه فما ظلم ولهذا قرن الله سبحانه بين

²⁷²مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 178

²⁷³مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 680

لا بد فيها من معرفته والإنابة اليه والتذلل له والإفتقار اليه وهذا هو المقصود وإذا حصل الاعتراف بالرب والاقرار به من غير عبادة واناية كان وبالاً على صاحبه وشقاء له كما جاء في الحديث أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه كإبليس اللعين فإنه معترف بربه مقر بوجوده لكن لما لم يعبد الله كان رأس الأشقياء وكل من شقى فباتباعه له كما قال { قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْذُومًا مَّدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ } الأعراف 18 فلا بد أن يملأ جهنم منه ومن أتباعه مع أنه معترف بالرب مقر بوجوده وانما أبي واستكبر عن الطاعة والعبادة والقوة العلمية مع العملية بمنزلة الفاعل والغاية ولهذا قيل العلم بلا عمل كالشجر بلا ثمر والمراد بالعمل هنا عمل القلب الذي هو انابته الى الله وخشيته له حتى يكون عابداً له فالرسل والكتب المنزلة أمرت بهذا وأوجبته بل هو رأس الدعوة ومقصودها وأصلها والطريقة النبوية القرآنية السننية الجماعية فيها العلم والعمل كاملين ففاتحة دعوة الرسل الأمر بالعبادة قال تعالى { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } البقرة 21 وقال أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وذلك يتضمن الإقرار به وعبادته وحده فإن الإله هو المعبود ولم يقل حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله فإن اسم الله أدل على مقصود العبادة له التي لها خلق الخلق وبها أمروا وكذلك قوله لمعاذ إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وقال نوح عليه السلام { أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَانْقُوهُ وَأَطِيعُوا } نوح 3 وكذلك الرسل في سورة الأعراف وغيرها²⁷⁷

ولفظ العبادة يتضمن كمال الذل بكمال الحب

ومحبة الله وتوحيده هو الغاية التي فيها صلاح للنفس وهو عبادة الله وحده لا شريك له فلا صلاح للنفس ولا كمال لها إلا في ذلك وبدون ذلك تكون فاسدة لا صلاح لها ولهذا كان هذا هو دين الإسلام الذي اتفقت عليه الرسل قال الله تعالى { وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ } النحل 36 وقد قال تعالى { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } الذاريات 56 فالغاية الحميدة التي بها يحصل كمال بني آدم وسعادتهم ونجاتهم عبادة الله وحده وهي حقيقة قول القائل لا إله إلا الله ولهذا بعث الله جميع الرسل وأنزل جميع الكتب ولا تصلح النفس وتزكو وتكمل إلا بهذا ولفظ العبادة يتضمن كمال الذل بكمال الحب فلا بد أن يكون العابد محباً للإله المعبود كمال الحب ولا بد أن يكون ذليلاً له كمال الذل فمن أحب شيئاً ولم يذل له لم يعبده ومن خضع له ولم يحبه لم يعبده وكمال الحب والذل لا يصلح إلا لله وحده فهو الإله المستحق للعبادة التي لا يستحقها إلا هو وذلك يتضمن كمال الحب والذل والإجلال والإكرام والتوكل والعبادة فالنفس محتاجة إلى الله من حيث هو معبودها ومنتهى مرادها وبغيثها ومن حيث هو ربها وخالقها فمن آمن بالله رب كل شيء وخالقه ولم يعبد إلا الله وحده بحيث يكون الله أحب إليه من كل ما سواه وأخشى عنده من كل ما سواه وأعظم عنده من كل ما سواه وأرجى

عنده من كل ما سواه بل من سوى بين الله وبين بعض المخلوقات في الحب بحيث يحبه مثل ما يحب الله ويخشاه مثل ما يخشى الله ويرجوه مثل ما يرجو الله ويدعوه مثل ما يدعو الله فهو مشرك الشرك الذي لا يغفره الله ولو كان مع ذلك عفيفا في طعامه ونكاحه وكان حكيما شجاعا²⁷⁸

قرب الله الذي في القرآن خاص لا عام

وليس في القرآن وصف الرب تعالى بالقرب من كل شيء أصلا بل قربه الذي في القرآن خاص لا عام كقوله تعالى {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ} البقرة 186 وقوله تعالى {وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ} هود 61 فهو سبحانه قريب ممن دعاه وكذلك ما في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري أنهم كانوا مع النبي في سفر فكانوا يرفعون أصواتهم بالتكبير فقال يا أيها الناس أربعوا على أنفسكم فانكم لا تدعون أصم ولا غائبا انما تدعون سميعة قريبا ان الذي تدعونه اقرب الى أحدكم من عنق راحلته فقال ان الذي تدعونه أقرب الى أحدكم لم يقل أنه قريب الى كل موجود وكذلك قول صالح عليه السلام {فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ} هود 61 هو كقول شعيب {وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ} هود 90 ومعلوم أن قوله {قَرِيبٌ مُجِيبٌ} هود 61 مقرون بالتوبة والاستغفار أراد به قريب مجيب لاستغفار المستغفرين التائبين اليه كما أنه رحيم ودود بهم وقد قرن القريب بالمجيب ومعلوم أنه لا يقال انه مجيب لكل موجود وانما الاجابة لمن سأله ودعاه فكذلك قربه سبحانه وأسماء الله المطلقة كاسمه السميع والبصير والغفور والشكور والمجيب والقريب لا يجب أن تتعلق بكل موجود بل يتعلق كل اسم بما يناسبه واسمه العليم لما كان كل شيء يصلح أن يكون معلوما تعلق بكل شيء وأما قوله {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْنَاهُ مَأْثُورًا بِه نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ} 16 {إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ} 17 {مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ} 18 {ق 16-18} وقوله {قُلْ لَئِنِ إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ} 83 {وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ} 84 {وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ} 85 {الواقعة 83-85} فالمراد به قربه اليه بالملائكة وهذا هو المعروف عن المفسرين المتقدمين من السلف قالوا ملك الموت أدنى اليه من اهله ولكن لا تبصرون الملائكة وقد قال طائفة ونحن أقرب اليه بالعلم وقال بعضهم بالعلم والقدرة ولفظ بعضهم بالقدرة والرؤية وهذه الأقوال ضعيفة فانه ليس في الكتاب والسنة وصفه بقرب عام من كل موجود حتى يحتاجوا ان يقولوا بالعلم والقدرة والرؤية ولكن بعض الناس لما ظنوا أنه يوصف بالقرب من كل شيء تأولوا ذلك بأنه عالم بكل شيء قادر على كل شيء وكأنهم ظنوا أن لفظ القرب مثل لفظ المعية فان لفظ المعية في سورة الحديد والمجادلة في قوله تعالى {هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَرْجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} الحديد 4 وقوله تعالى

{ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةَ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةَ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيَّنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } {المجادلة} 7
وقد ثبت عن السلف أنهم قالوا هو معهم بعلمه وقد ذكر ابن عبد البر وغيره أن هذا إجماع من الصحابة والتابعين لهم باحسان ولم يخالفهم فيه أحد يعتد بقوله وهو مأثور عن ابن عباس والضحاك ومقاتل بن حيان وسفيان الثوري وأحمد بن حنبل وغيرهم²⁷⁹

فإن قربه من عباده وتقريبه لهم عند سلف الأمة وأمتها وعمامة المشايخ الأجلاء ليس مجرد الإنعام والكرامة بل يقرب من خلقه كيف شاء ويقرب إليه منهم من يشاء كما قد بينا ذلك في موضعه وقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم قال أقرب ما يكون العبد من ربه في جوف الليل الآخر وثبت في الصحيح أنه قال أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد وقال تعالى { وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ } {العلق} 19 وليس في أسماء الله البعيد ولا وصفه بذلك أحد من سلف الأمة وأمتها بل هو موصوف بالقراب دون البعد { وَإِلَىٰ تَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوا لَهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ } {هود} 61 وفي الحديث المشهور في التفسير أن المسلمين قالوا يا رسول الله أقرب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه فأنزل الله وإذا سألك عبادي عني فإني قريب وهذا يقتضي وصفه بالقراب دون البعد وفي الصحيحين عن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لأصحابه لما جعلوا يرفعون أصواتهم بالتكبير أيها الناس اربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا إنما تدعون سميعا قريبا إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته²⁸⁰

الرحمة تحصل بالقرآن

وقال النبي ص في الحديث الصحيح ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله و يتدارسونه بينهم إلا غشيتهم الرحمة و تنزلت عليهم السكينة و حفتهم الملائكة و ذكرهم الله فيمن عنده و قد ذكر الله في غير موضع من كتابه أن الرحمة تحصل بالقرآن كقوله تعالى { قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ } {هود} 63²⁸¹

²⁷⁹مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 493 و زيارة القبور ج: 1 ص: 21

²⁸⁰الاستقامة ج: 1 ص: 139

²⁸¹الاستقامة ج: 1 ص: 396

المضاف إلى الله نوعان

المضاف إلى الله سبحانه في الكتاب والسنة كان منه إضافة المخلوقات كقوله { **نَاقَةٌ** } **الله** { **هود 64** } وقوله { **وَطَهَّرْ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ** } الحج 26 وقوله { **رَسُولَ اللَّهِ** } النساء 157 و { **عِبَادَ اللَّهِ** } الصافات 40 وقوله { **ذُو الْعَرْشِ** } غافر 15 وقوله { **وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ** } البقرة 255 فهذا القسم لا خلاف بين المسلمين في انه مخلوق²⁸²

والمضاف إلى الله نوعان فإن المضاف إما أن يكون صفة لا تقوم بنفسها كالعلم والقدرة والكلام والحياة وإما أن يكون عيناً قائمة بنفسها فالأول إضافة صفة كقوله { **وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ** } البقرة 255 فالمضاف في الأول صفة لله قائمة به ليست مخلوقة له بانته عنه والمضاف في الثاني مملوك لله مخلوق له بائن عنه لكنه مفضل مشرف لما خصه الله به من الصفات التي اقتضت إضافته إلى الله تبارك وتعالى كما خص ناقة صالح من بين النوق وكما خص بيته بمكة من البيوت وكما خص عباده الصالحين من بين الخلق والثاني إضافة عين كقوله تعالى { **وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ** } هود 64²⁸³

والمضاف إلى الله إن كان صفة لم تقم بمخلوق كالعلم والقدرة والكلام والحياة كان صفة له وإن كان عيناً قائمة بنفسها أو صفة لغيره كالبيت والناقة والعبد والروح كان مخلوقاً مملوكاً مضافاً إلى خالقه ومالكه ولكن الإضافة تقتضي اختصاص المضاف بصفات تميز بها عن غيره حتى استحق الإضافة كما اختصت الكعبة والناقة والعباد الصالحون بأن يقال فيهم بيت الله وناقة الله وعباد الله كذلك اختصت الروح المصطفاة بأن يقال لها روح الله بخلاف الأرواح الخبيثة كأرواح الشياطين والكفار فإنها مخلوقة لله ولا تضاف إليه إضافة الأرواح المقدسة كما لا تضاف إليه الجمادات كما تضاف الكعبة ولا نوق الناس كما تضاف ناقة صالح التي كانت آية من آياته كما قال تعالى { **وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ** } هود 64²⁸⁴

معجزات الأنبياء خارجة عن القوانين الطبيعية

قال تعالى { **وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ** } { **64** } **فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدُّ غَيْرُ مَكْنُوبٍ** } { **65** } **فَلَمَّا**

²⁸²مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 144

²⁸³الجواب الصحيح ج: 2 ص: 156

²⁸⁴الجواب الصحيح ج: 3 ص: 249

جاء أمرنا نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ إن ربك هو القوي العزيز {66} وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين {67} كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعداً لثمود {68} هود 64-68 ومعلوم أن معجزات الأنبياء خارجة عن القوانين الطبيعية مثال ذلك إخراج صالح الناقة من هضبة من الهضاب فإن هذا خارج عن قوى النفس والطبيعية لأن الهضبة لا يمكن أن تخرج ناقة حية تاكل وتشرب منها منها ولا يمكن في القوى الطبيعية أن تخرجها لا بقوى نفس ولا بسحر ولا غير ذلك بل الساحر غاية أن يتصرف في الأعراض بفعل ما يحدث عنه الأمراض والقتل ونحو ذلك مما يقدر عليه سائر الأدميين فإن الإنسان يمكنه أن يضرب غيره حتى يمرضه أو يقتله فالساحر والعائن وغيرهما ممن يتصرف بقوى الأنفس يفعل في المنفصل ما يفعله القادر في المتصل فهذا من أفعال العباد المعروفة المقدرة وأما قلب الأعيان إلى ما ليس في طبعها الانقلاب إليه فإخراج صالح الناقة من هضبة من الهضاب فليس هذا من جنس مقدور البشر لا معتاداً ولا نادراً ولا يحصل بقوى نفس أصلاً وهذه الحادثة الخارقة للعادة فيها إثبات الصانع وإثبات نبوة أنبيائه فإن حدوث هذا الحادث على هذا الوجه في مثل ذلك المقام يوجب علماً ضرورياً أنه من القادر المختار لتصديق صالح عليه السلام²⁸⁵

والآيات والبراهين الدالة على نبوة محمد كثيرة متنوعة وهي أكثر وأعظم من آيات غيره من الأنبياء ويسميتها من يسميها من النظائر معجزات وتسمى دلائل النبوة وأعلام النبوة وهذه الألفاظ إذا سميت بها آيات الأنبياء كانت أدل على المقصود من لفظ المعجزات ولهذا لم يكن لفظ المعجزات موجوداً في الكتاب والسنة وإنما فيه لفظ الآية والبينة والبرهان وأما لفظ الآيات فكثير في القرآن كما قال صالح لقومه {وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ} هود 64²⁸⁶

آيات الأنبياء لم يأت منها شيء إلا بأسباب تقدمته

فإن الله سبحانه وتعالى لا يحدث شيئاً إلا بإحداث أسباب ودفع موانع مثال ذلك غرق قوم نوح لم يكن ماء وجد بلا سبب بل أنزل الله ماء السماء وأنبع ماء الأرض كما قال تعالى {كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنوناً وازدجراً} {9} فدعا ربه أني مغلوب فانتصر {10} ففتحن أبواب السماء بماء منهمر {11} وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمرٍ قد قدر {12} وحملناه على ذات ألواح ودسر {13} تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر {14} ولقد تركناها آيةً فهل من مدكر {15} القمر 9-15 وكذلك ثمود قال لهم صالح {وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب} {64} فعفروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب {65} فلما جاء أمرنا نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ إن ربك هو القوي العزيز {66} وأخذ الذين ظلموا الصيحة

²⁸⁵الصفدية ج: 1 ص: 138

²⁸⁶الجواب الصحيح ج: 5 ص: 415

فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ {67} كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ تَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّتَمُودَ {68} هود 64-68 وكل ما وجد في العالم من خوارق العادات آيات الأنبياء وغيرها لم يأت منها شيء إلا بأسباب تقدمته كآيات موسى من مثل مصير العصى حية كانت بعد أن ألقاها إما عند أمر الله بذلك لما ناداه من الشجرة ورأى النار الخارقة للعادة وإما عند مطالبة فرعون له بالآية وإما عند معارضة السحرة لتبتلع حبالهم وعصيهم وكذلك سائر آياته حتى إغراق فرعون كان بعد مسير الجيش وضربه البحر بالعصا وكذلك تفجر الماء من الحجر كان بعد أن ضرب الحجر بعصاه واستسقاء قومه إياه وهم في بركة لا ماء عندهم وكذلك آيات نبينا صلى الله عليه وسلم مثل تكثير الماء كان بوضع يده فيه حتى نبع الماء من بين الأصابع أي تفجر الماء من بين الأصابع لم يخرج من نفس الأصابع وكذلك البئر كان ماؤها يكثر إما بإلقائه سهما من كنانته فيها وإما بصبه الماء الذي بصق فيه فيها وكذلك المسيح كان يأخذ من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله إلى أمثال ذلك²⁸⁷

لطائف لغوية

1- قال تعالى {وَالِي تَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوا لَهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ} هود 61 عامة الأسماء يتنوع مسماهم بالاطلاق والتقييد ومن هذا الباب لفظ العبادة فإذا أمر بعبادة الله مطلقا دخل في عبادته كل ما أمر الله به فالتوكل عليه مما أمر به والاستعانة به مما أمر به فيدخل ذلك في مثل قوله {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} الذاريات 56 وفي قوله {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا} النساء 36 وقوله {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ} البقرة 21 وقوله {إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ} الزمر 2 {قُلِ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي} الزمر 14 وقوله {أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ} الزمر 64 ثم قد يقرن بها اسم آخر كما في قوله {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} الفاتحة 5 وقوله {فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ} هود 123 وقول نوح {اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا} نوح 3²⁸⁸

2- قال تعالى {وَالِي تَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوا لَهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ} هود 61 أن جميع الأفعال مشتقة سواء كانت هي مشتقة من المصدر أو كان المصدر مشتقا منها أو كان كل واحد منهما مشتقا من الآخر بمعنى أن بينهما مناسبة في اللفظ والمعنى لا بمعنى أن أحدهما أصل والآخر فرع بمنزلة المعاني المتضايقة كالأبوة والبنوة أو كالأخوة من الجانبين ونحو ذلك فعلى كل حال إذا أمر بفعل كان نفس مصدر الفعل أمرا مطلوبا للأمر مقصودا له كما في قوله {اعْبُدُوا اللَّهَ} هود 61 وفي قوله {وَاتَّقُوا اللَّهَ} البقرة 189 وفي قوله {وَأَحْسِنُوا} وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ {المائدة 93 وفي قوله {فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ} التغابن 8 وفي قوله {فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا} يونس 84

²⁸⁷الجواب الصحيح ج: 6 ص: 404

²⁸⁸مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 163

فإن نفس التقوى والإحسان والإيمان والعبادة والتوكل أمور مطلوبة مقصودة بل هي نفس
المأمور به²⁸⁹

3- قال تعالى { قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ } هود63 ورحمته اسم جامع لكل خير ودار الرحمة الخالصة هي الجنة²⁹⁰

4- قال تعالى { قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ } هود63 البينة من البيان و البينة هي السبيل البينة وهي الطريق البينة الواضحة وهي أيضا ما تبين بها الحق فهي بيته في نفسها مبينة لغيرها وقد تفسر بالبيان وهي الدلالة والإرشاد فتكون كالهدى كما يقال فلان على هدى وعلى علم فيفسر بمعنى المصدر والصفة والفاعل ومنه قوله { أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةٌ مَّا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ } طه133 أي بيان ما فيها أو يبين ما فيها أو الأمر البين فيها وقد سمى الرسول بيته كما قال { حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ } {1} رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ {2} البينة 1- 2 فإنه يبين الحق والمؤمن على سبيل بيته ونور من ربه²⁹¹

5- قال تعالى { فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِن خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ } هود66 قوي عزيز منزه عن العجز والضعف والذل واللغوب²⁹²

²⁸⁹ اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 51

²⁹⁰ مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 65

²⁹¹ مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 75

²⁹² الجواب الصحيح ج: 4 ص: 407

هود 69-83

{ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلْنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعَجَلٍ حَنِيدٍ {69} فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ لُوطٍ {70} وَامْرَأَتُهُ قَانِمَةٌ فَضَحَكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ {71} قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ {72} قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ {73} فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبَشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ {74} إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ {75} يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ {76} وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذُرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ {77} وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمَنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ {78} قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكُمْ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ {79} قَالَ لَوْ أَنْ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ {80} قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ {81} فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ {82} مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَبِيعِدٍ {83}

إثبات الملائكة وأنهم أحياء ناطقون

قال تعالى { وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلْنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعَجَلٍ حَنِيدٍ {69} فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ لُوطٍ {70} وَامْرَأَتُهُ قَانِمَةٌ فَضَحَكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ {71} قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ {72} قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ {73} } هود 69-73 من المعلوم بالاضطرار أن الرسل أخبرت بالملائكة والجن وأنها أحياء ناطقة قائمة بأنفسها ليست إعراضا قائمة بغيرها وأخبروا بأنهم يأتون بأخبار الأمور الغائبة وأنهم يفعلون أفعالا خارجة عن قدرة البشر كما أخبر الله تعالى عن الملائكة أنهم أتوا إبراهيم الخليل عليه السلام ثم ذهبوا منه إلى لوط وهذه القصة المذكورة في التوراة وغيرها من كتب أهل الكتاب كما هي مذكورة في القرآن مع العلم بأن كلا من النبيين موسى ومحمد لم يأخذها عن الآخر وهذا مما يوجب العلم بصحتها قبل ثبوت نبوتها فإن الاتفاق على مثل هذه الحكاية من غير تواطؤ يمتنع في العادة فإذا اتفق إخبار المخبرين بمثل هذه القصة الطويلة التي يمتنع في العادة إتفاق الإثنين فيها على الكذب من غير تواطؤ علم أنها حق فكان إخبار كل منهما بها دليلا على نبوته فهذه القصة فيها إثبات الملائكة وأنهم أحياء ناطقون منفصلون عن الأدميين يخاطبونهم ويرونهم في صور الأدميين الأنبياء وغير الأنبياء كما

رأتهم سارة امرأة الخليل عليه السلام وكما كان الصحابة يرون جبريل إذا جاء لما جاء في صورة أعرابي وتارة في صورة دحية الكلبي²⁹³

البشارة باسحق كانت معجزة

قال تعالى { وَلَقَدْ جَاءتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعَجَلٍ حَنِينٍ {69} فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَيْ قَوْمٍ لُوطٍ {70} وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ {71} قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ {72} قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ {73} هود 69-73 ان البشارة باسحق كانت معجزة لان العجوز عقيم ولهذا قال الخليل عليه السلام { قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ يُبَشِّرُونِ } الحجر 54 وقالت امرأته { أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا } هود 72 وقد سبق ان البشارة باسحق في حال الكبر وكانت البشارة مشتركة بين ابراهيم وامرأته²⁹⁴

والبشارة بيعقوب تقتضى ان اسحق يعيش ويولد له يعقوب²⁹⁵

المضاف إلى الله نوعان

والمضاف إلى الله نوعان فإن المضاف إما أن يكون صفة لا تقوم بنفسها كالعلم والقدرة والكلام والحياة وإما أن يكون عيناً قائمة بنفسها فالأول إضافة صفة كقوله { قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ } هود 73 فالمضاف في الأول صفة لله قائمة به ليست مخلوقة له بآئنة عنه والمضاف في الثاني مملوك لله مخلوق له بائن عنه لكنه مفضل مشرف لما خصه الله به من الصفات التي اقتضت إضافته إلى الله تبارك وتعالى كما خص ناقة صالح من بين النوق وكما خص بيته بمكة من البيوت وكما خص عباده الصالحين من بين الخلق²⁹⁶

²⁹³الصفدية ج: 1 ص: 194

²⁹⁴مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 334

²⁹⁵مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 335

²⁹⁶الجواب الصحيح ج: 2 ص: 157

قالت الملائكة { رَحِمْتُ اللَّهَ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ } هود 73 وإبراهيم داخل فيهم
وكما قال اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم آل إبراهيم وإبراهيم
داخل فيهم وكما في قوله تعالى { إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَخَرٍ } القمر 34 فإن لوطا دخل فيهم
وكذلك قوله { إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ } آل عمران 33
فقد دخل إبراهيم في الاصطفاء وكذلك قوله { سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ } الصافات 130 فقد دخل
ياسين في السلام وكذلك قول النبي اللهم صل على آل أبي أوفى دخل في ذلك أبو أوفى وكذلك
قوله لقد أوتى هذا مزمارا من مزامير آل داود²⁹⁷

لفظ الأمر يراد به المصدر و المفعول

قال تعالى { قَالُوا أَنْتَجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهَ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ } 73
فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ {74} إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ
مُنِيبٌ {75} يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ {76}
هود 73- 76 وقوله تعالى { فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّنْ سَجِيلٍ
مَّنْضُودٍ {82} مُّسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ {83} هود 82- 83 و لفظ الأمر
يراد به المصدر و المفعول فالمفعول مخلوق كما قال { أَتَى أَمْرُ اللَّهِ } النحل 1 و قال { وَكَانَ أَمْرُ
اللَّهِ قَدْرًا مَّقْدُورًا } الأحزاب 38 فهنا المراد به المأمور به ليس المراد به أمره الذي هو كلامه و
هذه الآية التي إحتج بها هؤلاء تضمنت الشرع و هو الأمر و القدر و قد ضل في هذا الموضوع
فريقان الجهمية الذين يقولون كلام الله مخلوق و يحتجون بقوله { وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدْرًا مَّقْدُورًا
} الأحزاب 38 و يقولون ما كان مقدورا فهو مخلوق و هؤلاء الحلولية الضالون الذين يجعلون
فعل العباد قديما بأنه أمر الله و قدره و أمره و قدره غير مخلوق و مثار الشبهة أن إسم القدر و
الأمر و الشرع يراد به المصدر و يراد به المفعول ففي قوله { وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدْرًا مَّقْدُورًا
} الأحزاب 38 المراد به المأمور به المقدور و هذا مخلوق و أما في قوله { ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ
} الطلاق 5 فأمره كلامه إذا لم ينزل إلينا الأفعال التي أمرنا بها و إنما أنزل القرآن و هذا كقوله
{ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا } النساء 58 فهذا الأمر هو كلامه²⁹⁸

²⁹⁷ منهاج السنة النبوية ج: 7 ص: 241-242

²⁹⁸ مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 413

ألفاظ المصادر يعبر بها عن المفعول فيسمى المأمور به أمرا و المقذور قدرة و المرحوم به رحمة و المخلوق بالكلمة كلمة فإذا قيل في المسيح أنه كلمة الله فالمراد به أنه خلق بكلمة قوله كن و لم يخلق على الوجه المعتاد من البشر و إلا فعيسى بشر قائم بنفسه ليس هو كلاما صفة للمتكلم يقوم به و كذلك إذا قيل عن المخلوق أنه أمر الله فالمراد أن الله كونه بأمره كقوله { أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ } النحل 1 و قوله { فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّن سِجِّيلٍ مَّنصُودٍ } هود 82²⁹⁹

الله هو المستحق للمحامد الكاملة

قال تعالى { قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ } هود 73 اخبر ان له الحمد وانه حميد مجيد وان له الحمد في الاولى والاخرة وله الحكم ونحو ذلك من انواع المحامد و الحمد نوعان حمد على احسانه الى عباده وهو من الشكر وحمد لما يستحقه هو بنفسه من نعوت كماله وهذا الحمد لا يكون الا على ما هو في نفسه مستحق للحمد وانما يستحق ذلك من هو متصف بصفات الكمال وهي امور وجودية فان الامور العدمية المحضة لا حمد فيها ولا خير ولا كمال و معلوم ان كل ما يحمد فانما يحمد على ماله من صفات الكمال فكل ما يحمد به الخلق فهو من الخالق والذي منه ما يحمد عليه هو أحق بالحمد فثبت انه المستحق للمحامد الكاملة وهو احق من كل محمود بالحمد والكمال من كل كامل وهو المطلوب³⁰⁰

"أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله يبتغي بها وجه

الله "

وقد ثبت في الصحيح أن أبا هريرة قال يا رسول الله أي الناس أسعد بشفاعتك يوم القيامة قال يا ابا هريرة لقد ظننت أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أولى منك لما رأيت من حرصك على الحديث أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله يبتغي بها وجه الله فكلما كان الرجل أتم إخلاصا لله كان أحق بالشفاعة وأما من علق قلبه بأحد من المخلوقين يرجوه ويخافه فهذا من أبعد الناس عن الشفاعة فشفاعة المخلوق عند المخلوق تكون بإعانة الشافع للمشفوع له بغير إذن المشفوع عنده بل يشفع إما لحاجة المشفوع عنده إليه وإما لخوفه منه فيحتاج أن يقبل شفاعته عنده والله تعالى غني عن العالمين وهو وحده سبحانه يدبر العالمين كلهم فما من شفيع إلا من بعد إذنه فهو الذي يأذن للشفيع في الشفاعة وهو يقبل شفاعته كما يلهم الداعي الدعاء ثم يجيب دعاءه فالأمر كله له فإذا كان العبد يرجو شفيعا من المخلوقين فقد لا يختار ذلك الشفيع أن يشفع له وإن اختار فقد لا يأذن الله له في الشفاعة ولا يقبل شفاعته وأفضل

²⁹⁹مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 285

³⁰⁰مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 84

الخلق محمد صلى الله عليه وسلم ثم إبراهيم وقد امتنع النبي صلى الله عليه وسلم أن يستغفر لعمه أبي طالب بعد أن قال لأستغفرن لك ما لم أنه عنك وقد صلى على المنافقين ودعا لهم فقيل له {وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَّ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ} التوبة 84 وقال الله له أولا {إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ} التوبة 80 فقال لو أعلم اني لو زدت على السبعين يغفر لهم لزدت فأنزل الله {سِوَاءَ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} المنافقون 6 وقال تعالى {فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ} {74} إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ {75} يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ {76} هود 76-74³⁰¹

{إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ}

قال تعالى {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ} هود 75 وقد مدح الله إبراهيم بأنه أواه وقد فسر بالذى يتأوه من خشية الله³⁰²

قال تعالى {فَبَشِّرْ نَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ} الصافات 101 وقد انطوت البشارة على ثلاث على ان الولد غلام ذكر وانه يبلغ الحلم وانه يكون حلِيمًا وأي حلم أعظم من حلمه حين عرض عليه ابوه الذبح فقال {سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ} {102} الصافات 102 وقيل لم ينعت الله الانبياء بأقل من الحلم وذلك لعزة وجوده ولقد نعت ابراهيم به في قوله تعالى {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ} التوبة 114 {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ} هود 75 لان الحادثة شهدت بحلمهما³⁰³

الله سبحانه يحب الحسن الجميل ويبغض السيئ الفاحش

قوله صلى الله عليه وسلم إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم فعلم أن مجرد الجمال الظاهر في الصور والثياب لا ينظر الله إليه وإنما ينظر إلى القلوب والأعمال فإن كان الظاهر مزيّنا مجملا بحال الباطن أحبه الله وإن كان مقبحا مدنسا بقبح الباطن أبغضه الله فإنه سبحانه يحب الحسن الجميل ويبغض السيئ الفاحش وأهل جمال

³⁰¹ اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 446

³⁰² مجموع الفتاوى ج: 22 ص: 623

³⁰³ مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 331

الصورة يبتلون بالفاحشة كثيرا واسمها ضد الجمال فإن الله سماه فاحشة وسوءا وفسادا وخبيثا قال تعالى {وَلَوْطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ} الأعراف 80 وقال {وَلَوْطاً أَتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَوَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقُرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمٍ سَوِيًّا فَاسْقِينَ} الأنبياء 74 وقال {وَلَوْطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ} النمل 54 وقال {وَلَوْطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ} العنكبوت 28 وقال {وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمَنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَحْزُنُوا فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ} هود 78 والفاحش والخبيث ضد الطيب والجميل فإذا كان كذلك أبغضه الله ولم يحبه ولم يكن مندرجا في الجميل ونظير ذلك قوله صلى الله عليه وسلم إن الله لا يحب الفحش ولا التفحش وقوله إن الله يبغض الفاحش البذئ³⁰⁴

عقوبة أهل الفواحش طمس الأبصار

قال تعالى {وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرُ} القمر 37 واخبر تعالى عن اللوطية أنه طمس أبصارهم فكانت عقوبة أهل الفواحش طمس الأبصار كما قد عرف ذلك فيهم وشوهد منهم وكان ثواب المعتدين بهم التاركين لأفعالهم إعطاء الأنوار وهذا مناسب لذكر آية النور عقيب غض الأبصار وأما القدرة والقوة التي يعطيها الله لمن اتقاه وخالف هواه فذلك حاصل معروف كما جاء إن الذي يترك هواه يفرق الشيطان من ظله وفي الصحيح أن النبي قال ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب وفي رواية أنه مر بقوم يخدقون حجرا فقال ليس الشدة في هذا وإنما الشدة في أن يمتلىء أحدكم غيظا ثم يكظمه الله أو كما قال وهذا ذكره في الغضب لأنه معتاد لبني آدم كثيرا ويظهر للناس وسلطان الشهوة يكون في الغالب مستورا عن أعين الناس وشيطانها خاف ويمكن في كثير من الأوقات الإعتياض بالحلال عن الحرام وإلا فالشهوة إذا استغلت واستولت قد تكون أقوى من الغضب وقد قال تعالى {وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا} النساء 28 أى ضعيفا عن النساء لا يصبر عنهن وفي قوله {رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ} البقرة 286 ذكروا منه العشق والعشق يفضى بأهله إلى الأمراض والإهلاك وإن كان الغضب قد يبلغ ذلك أيضا وقد دل القرآن على أن القوة والعزة لأهل الطاعة التائبين إلى الله في مواضع كثيرة كقوله في سورة هود {وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ} هود 52 وقوله {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ} المنافقون 8 {وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} آل عمران 139 وإذا كان الذي قد يهجر السيئات يبغض بصره ويحفظ فرجه وغير ذلك مما نهى الله عنه يجعل الله له من النور والعلم والقوة والعزة ومحبة الله ورسوله فما ظنك بالذى لم يحلم حول السيئات ولم يعرها طرفه قط ولم تحدثه نفسه بها بل هو يجاهد في سبيل الله أهلها ليرتكوا السيئات فهل هذا وذاك سواء بل هذا له النور والايمن والعزة والقوة والمحبة والسلطان والنجاة في الدنيا والآخرة أضعاف أضعاف ذاك وحاله أعظم وأعلى ونوره اتم وأقوى فان السيئات تهواها النفوس ويزنها

الشیطان فتجتمع فيها الشبهات والشهوات فإذا كان المؤمن قد حبب الله اليه الايمان وزينه في قلبه وكرهه إليه الكفر والفسوق والعصيان حتى يعوض عن شهوات الغى بحب الله ورسوله وما يتبع ذلك وعن الشهوات والشبهات بالنور والهدى وأعطاه الله من القوة والقدرة ما أيده به حيث دفع بالعلم الجهل وبارادة الحسنات ارادة السيئات وبالقوة على الخير القوة على الشر في نفسه فقط والمجاهد في سبيل الله يطلب فعل ذلك في نفسه وغيره أيضا حتى يدفع جهله بالظلم و ارادته السيئات بارادة الحسنات ونحو ذلك والجهاد تمام الايمان وسنام العمل كما قال تعالى { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ } الحجرات 15 وقال { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ } آل عمران 110 الآية وقال { أَجَعَلْتُمْ سَفَايَةَ الْحَاجِّ } التوبة 19 الآية فكذلك يكون هذا الجزاء في حق المجاهدين كما قال تعالى { وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا } العنكبوت 69 فهذا في العلم والنور وقال { وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ } النساء 66 الى قوله { وَلَهْدِيَنَّا هُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا } النساء 68 فقتل النفوس هو قتل بعضهم بعضا وهو من الجهاد والخروج من ديارهم هو الهجرة ثم اخبر أنهم اذا فعلوا ما يوعظون به من الهجرة والجهاد كان خيرا لهم واشد تنبيها ففي الآية أربعة أمور الخير المطلق والتنبيات المتضمن للقوة والمكنة والاجر العظيم وهداية الصراط المستقيم وقال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصَرُوا لِلَّهِ يَنصُرْكُمُ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ } محمد 7 وقال { وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنصُرُهُ } الحج 40 الى قوله { وَبَلَّغْ عَاقِبَةَ الْأُمُورِ } الحج 41 وقال { يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ } المائدة 54 وأما أهل الفواحش الذين لا يغضون أبصارهم ولا يحفظون فروجهم فقد وصفهم الله بصد ذلك من السكرة والعمه والجهالة وعدم العقل وعدم الرشد والبغض وطمس الأبصار هذا مع ما وصفهم به من الخبث والفسوق والعدوان والإسراف والسوء والفحش والفساد والإجرام فقال عن قوم لوط { أَلَمْ يَأْتِكُمْ قَوْمٌ فَجَعَلْتُمْ سَبِيلَهُمْ غُرُبًا فَهَاجًا وَمَا تَشْعُرُونَ } النمل 55 فيصفهم بالجهل وقال { لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ } الحجر 72 وقال { أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ } هود 78 وقال { فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ } القمر 37 وقال { بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ } الأعراف 81 وقال { فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ } الأعراف 84 وقال { إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ } الأنبياء 74 وقال { أَيْنُكُمْ لَمَّا لَأْنَا لِرِجَالٍ وَتَقَطَّعُوا السَّبِيلَ وَتَأْتُوا فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ } العنكبوت 29 الى قوله { قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ } العنكبوت 30 الى قوله { بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ } العنكبوت 34 وقوله { مُسْوَمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ } الذاريات 34³⁰⁵

الطهارة في كتاب الله على قسمين

الطهارة في كتاب الله على قسمين طهارة حسية من الاعيان النجسة و من اسباب الحدث المعلومة و طهارة عقلية من الاعمال الخبيثة فالاول كقوله تعالى { فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَهَّرُوا } وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ } التوبة 108 نزلت في اهل قباء لما كانوا يستنجون من البول والغائط و قوله تعالى { وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ } البقرة 222 و الثاني كقوله سبحانه { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ } المجادلة 12 و قوله تعالى { خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا } التوبة 103 و قوله تعالى { وَجَاءَهُ قَوْمُهُ

يُهِرَّعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ
أَطْهَرُ لَكُمْ { هود 78 }³⁰⁶

التقوى ان تعمل بطاعة الله وأن تترك معصية الله تخاف عذاب الله

قال تعالى { وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهَرَّعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ } هود 78 عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد وكذلك اذا أفرد اسم طاعة الله دخل في طاعته كل ما أمر به وكانت طاعة الرسول داخلة في طاعته وكذا اسم التقوى اذا افرد دخل فيه فعل كل أمور به وترك كل محظور قال طلق بن حبيب التقوى ان تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو رحمة الله وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عذاب الله وهذا كما في قوله { إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ } {54} فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ } {55} القمر 54- 55 وقد يقرن بها اسم آخر كقوله { وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا } {2} وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ } {3} الطلاق 2- 3 وقوله { إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ } يوسف 90 وقوله { وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ } النساء 1³⁰⁷

وتوحيد الله وإخلاص الدين له في عبادته وإستعانته في القرآن كثير جدا بل هو قلب الإيمان وأول الإسلام وآخره كما قال النبي صلى الله عليه وسلم أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وقال إني لأعلم كلمة لا يقولها عند الموت أحد إلا وجد روحه لها روحا وقال من كان آخر كلامه لا إله إلا الله وجبت له الجنة وهو قلب الدين والإيمان وسائر الأعمال كالجوارح له وقول النبي إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل أمرى ما نوى فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر اليه فبين بهذا أن النية عمل القلب وهي أصل العمل وإخلاص الدين لله وعبادة الله وحده ومتابعة الرسول فيما جاء به هو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وهو دين الإسلام العام الذي بعث الله به جميع الرسل كما قال تعالى { وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ } النحل 36 وقال النبي لمعاد بن جبل يا معاذ أتدرى ما حق الله على عباده قلت الله ورسوله أعلم قال حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك أن لا يعذبهم وقال لابن عباس إذا سألت فاسئل الله وإذا استعنت فاستعن بالله وقال تعالى { فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا } الزخرف 63 فجعل العبادة والتقوى لله وجعل له أن يطاع وكذلك في مواضع كثيرة جدا من القرآن اتقوا الله اتقوا الله { فَاتَّقُوا اللَّهَ } { هود 78 }³⁰⁸

³⁰⁶ شرح العمدة ج: 4 ص: 406

³⁰⁷ مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 164

³⁰⁸ مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 72

أن اسم تقوى الله يجمع فعل كل ما أمر الله به ايجابا واستحبابا وما نهى عنه تحريما وتنزيها وهذا يجمع حقوق الله وحقوق العباد³⁰⁹

عذب الله عجوز السوء القوادة بمثل ما عذب الذين كانوا يعملون الخبائث

عجوز السوء امرأة لوط كانت تدل الفجار على ضيفه التي قال الله تعالى فيها {فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ} الأعراف 83 وقال تعالى { **فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ** **وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ** } هود 81 فعذب الله عجوز السوء القوادة بمثل ما عذب قوم السوء الذين كانوا يعملون الخبائث³¹⁰

يكون في هذه الأمة من يمسح قردة وخنازير

قد حرم الله سبحانه وتعالى الفواحش ما ظهر منها وما بطن وان اتى هذه الفواحش معتقدا تحريمها فهو من المسلمين الذين قال فيهم النبي صلى الله عليه وسلم في حديث ابي ذر من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة وان زنا وان سرق فإن المسلم الذي يأتي بفاحشة اما ان يتوب الى الله ويستغفره فيدخل في قوله {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ} هود 114 وفي الصحيحين عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم ان رجلا اصاب من امرأة قبله فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له فأنزل عليه {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ} هود 114 قال الرجل الى هذه الآية قال لمن عمل بها من امتي والمسلم اذا اتى الفاحشة لا يكفر وان كان كمال الايمان الواجب قد زال عنه كما في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع الناس اليه فيها ابصارهم وهو مؤمن فأصل الايمان معه وهو قد يعود الى المعصية ولكنه يكون مؤمنا اذا فارق الدنيا كما في الصحيح عن عمر ان رجلا كان يدعي حمارا وكان يشرب الخمر وكان كلما اتى به الى النبي صلى الله عليه وسلم امر بجلده فقال رجل لعنه الله ما اكثر ما يؤتى به الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم لا تلعه فإنه يحب الله ورسوله فشهد له بأنه يحب الله ورسوله ونهى عن لعنته كما تقدم في الحديث الاخر الصحيح وان سرق وذلك ان معه اصل الاعتقاد ان الله حرم ذلك ومعه خشية عقاب الله ورجاء رحمة الله وايمانه بأن الله يغفر الذنب ويأخذ به فيغفر الله له به كما في الصحيح عن ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم وقال اذنب عبد ذنبا فقال أي رب اني اذنبت ذنبا فاغفر لي فقال ربه علم عبدي ان له ربا يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدي ثم اذنب ذنبا اخر فقال أي رب اذنبت ذنبا فاغفره لي فقال ربه علم عبدي ان له ربا يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدي ثم اذنب ذنبا اخر فقال أي رب قد اذنبت ذنبا فاغفره لي فقال علم عبدي ان له ربا يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدي فليفعل ما شاء وكذلك في الصحاح من غير وجه حديث الذي لم يعمل خيرا قط وقال لأهله اذا

³⁰⁹الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 90

³¹⁰مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 306 و السياسة الشرعية ج: 1 ص: 63

انا مت فاحرقوني ثم اسحقوني ثم ذروني في يوم ريح الحديث فقال الله له ما حملك على ما فعلت قال خشيتك يا رب فغفر الله له بتلك الخشية وكذلك من افضل اعمال المؤمن التوبة كما قال النبي صلى الله عليه وسلم للغامرية التي اقرت بالزنا حتى رجمها لقد ابنت توبة لو تابها مكس لغفر له وهل وجدت توبة افضل من ان جادت بنفسها لله وحديث صلاة التوبة محفوظ في السنن عن علي عن ابي بكر الصديق عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ما من مسلم يذنب ذنبا فيتوضأ ويحسن الوضوء ثم يصلي ركعتين ويستغفر الله الا غفر له وقرأ هذه الآية {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ وَاللَّهُ وَكَلَّمَ الْمُؤْمِنِينَ آخِذِينَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَذِي السُّجُودِ عَلَيْهِمْ سِتْرٌ مِنْ اللَّهِ فَذَلِكُمْ اللَّهُ يَخْتَارُ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا نَبِيًّا} وهذا باب واسع فان الذنوب التي يبتلى بها العباد يسقط عنهم وهو مؤمن ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع الناس اليه فيها ابصارهم وهو مؤمن فأصل الايمان معه وهو قد يعود الى المعصية ولكنه يكون مؤمنا اذا فارق الدنيا كما في الصحيح عن عمر ان رجلا كان يدعي حمارا وكان يشرب الخمر وكان كلما اتى به الى النبي صلى الله عليه وسلم امر بجلده فقال رجل لعنه الله ما اكثر ما يؤتى به الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله فشهد له بأنه يحب الله ورسوله ونهى عن لعنته كما تقدم في الحديث الاخر الصحيح وان سرق وذلك ان معه اصل الاعتقاد ان الله حرم ذلك ومعه خشية عقاب الله ورجاء رحمة الله وايمانه بأن الله يغفر الذنوب ويأخذ به فيغفر الله له به كما في الصحيح عن ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم الذنوب كما يقوله الخوارج ولا انه يخرج من الايمان بالكلية كما يقوله المعتزلة لكن ينقص الايمان ويمنع كماله الواجب وان كانت المرجئة تزعم ان الايمان لا ينقص ايضا فمذهب اهل السنة المتبعون للسلف الصالح ان الايمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية فأما استحلال ما حرم الله ورسوله من الفواحش وغيرها فهو كفر وبمثله اهلك الله قوم لوط الذين استحلوا الفاحشة وفعلوها

معلمين بها مستحلين لها قال تعالى {فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّن سَحَابٍ مِّن ذُرٍّ عَذِيبٍ} {82} {مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنْ

الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ} {83} هود 82- 83 وقد روى عن قتادة من الظالمين من هذه الامة وقد روى انه يكون فيها خسف وقذف ومسح وقد شرع الله سبحانه في شريعة اهل التوراة وشريعة اهل القرآن رجم الزاني المحصن بالحجارة كما رجم الله اهل الفاحشة واما اهل الفاحشة واللوطية فيرجمان سواء كانا بكرين او ثيبين عند جمهور العلماء كما رجم الله قوم لوط وليس في الذنوب ما يعاقب اهله بالرجم الا اهل هذه الفاحشة وقد رجم النبي صلى الله عليه وسلم غير واحد رجم اليهوديين ورجم ماعز بن مالك ورجم الغامدية ورجم اخر وكذلك رجم خلفاؤه الراشدون ايضا وكذلك ما يعاقب الله به اهل ذلك كما روى البخاري في صحيحه تعليقا مجزوما به وهو داخل في الصحيح الذي شرطه عن عبد الرحمن بن غنم الاشعري انه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول ليكونن من امتي اقوام يستحلون الحر والحرير والخمر والمعازف ولينزلن اقوام الى جنب علم يروح عليها بسارحة لهم يأتيهم لحاجتهم فيقولون ارجع الينا غدا فيبييتهم الله ويضع العلم ويمسخ اخرين قرده وخنازير الى يوم القيامة فالعقوبة بما عوقبت به الامم المتقدمة من قذف ومسح وخسف انما يكون لمن شاركهم فاستحل ما حرمه الله ورسوله كما قال النبي صلى الله عليه وسلم ليكونن من امتي اقوام يستحلون ثم قد يستحل بعضهم بعض انواع الخمر بتأويل كما استحل ذلك اهل الكوفة كما روى في الحديث ليكونن من امتي اقوام يستحلون الخمر يسمونها باسم غير اسمها³¹¹

ثبت في الصحيح أنه يكون في هذه الأمة من يمسخ قرده وخنازير وكما روى أنه سيكون فيها خسف وقذف وفسخ وقال بعض السلف في قوله تعالى **{ مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَبَعِيدٍ } هود 83** أي من ظالمي هذه الأمة وفي ذلك من الأحاديث ما يضيق هذا الموضوع عن ذكره³¹²

لطائف لغوية

1- قال تعالى **{ رَحِمْتُ اللَّهَ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ } هود 73** ورحمته اسم جامع لكل خير ودار الرحمة الخاصة هي الجنة³¹³

2- لفظ آل فلان إذا أطلق في الكتاب والسنة دخل فيه فلان كما في قوله **{ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ } آل عمران 33** وقوله **{ إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحْرِ الْقَمَرِ } القمر 34** وقوله **{ ادْخُلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ } غافر 46** وقوله **{ سَلَامٌ عَلَىٰ آلِ يَأْسِينَ } الصافات 130** فقول النبي قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم وكذلك قوله كما باركت على آل إبراهيم فأبراهيم داخل في ذلك وكذلك قوله للحسن ان الصدقة لا تحل لآل محمد وفي الصحيح عن عبد الله بن أبي أوفى قال كان القوم إذا أتوا رسول الله بصدقة يصلى عليهم فاتا أبي بصدقة فقال اللهم صل على آل أبي أوفى وأبو أوفى هو صاحب الصدقة وكذلك لفظ أهل البيت كقوله تعالى **{ رَحِمْتُ اللَّهَ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ } هود 73** فإن إبراهيم داخل فيهم وقوله تعالى **{ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا } الأحزاب 33** وقول النبي سلمان منا أهل البيت وذلك لأن آل الرجل من يؤول إليه ونفسه ممن يؤول إليه وأهل بيته هم من يأهله وهو ممن يأهل أهل بيته وكذلك قوله من سره ان يكتال بالمكيال الأوفى إذا صلى علينا أهل البيت فليقل الله صل على محمد النبي الحديث وسبب ذلك أن لفظ آل أصله أول تحركت الواو وافتتح ما قبلها فقلبت ألفا فقلب آل ومثله باب وناب وفي الأفعال قال وعاد ونحو ذلك ومن قال أصله أهل فقلبت الهاء الفا فقد غلط فإنه قال مالا دليل عليه وإدعى القلب الشاذ بغير حجة مع مخالفته للأصل وأيضا فإن لفظ أهل يضيفونه إلى الجماد وإلى غير المعظم كما يقولون أهل البيت وأهل المدينة وأهل الفقير وأهل المسكين وإما آل فإنما يضاف إلى معظم من شأنه أن يؤول غيره أو يسوسه فيكون مآله إليه ومنه الإيالة وهي السياسة فال شخص هم من يؤوله ويؤول إليه

³¹²الاستقامة ج: 1 ص: 456

³¹³مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 65

ويرجع إليه ونفسه هي أول وأولى من يسوسه ويؤول إليه فهذا كان لفظ آل فلان متناولا له ولا يقال هو مختص به بل يتناوله ويتناول من يؤوله فهذا جاء في أكثر الألفاظ كما صليت على آل إبراهيم وكما باركت على آل إبراهيم وجاء في بعضها إبراهيم نفسه لأنه هو الأصل في الصلاة والزكاة وسائر أهل بيته إنما يحصل لهم ذلك تبعاً وجاء في بعضها ذكر هذا وهذا تنبيهاً على هذين³¹⁴

3- قال تعالى { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ } هود 75 وقد مدح الله إبراهيم بأنه أواه وقد فسر بالذى يتأوه من خشية الله³¹⁵

4- قال تعالى { وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هُوَ لَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ } هود 78 عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد وكذلك إذا أفرد اسم طاعة الله دخل في طاعته كل ما أمر به وكانت طاعة الرسول داخلة في طاعته وكذا اسم التقوى إذا أفرد دخل فيه فعل كل مأمور به وترك كل محذور قال طلق بن حبيب التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو رحمة الله وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عذاب الله وهذا كما في قوله { إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ } {54} فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ {55} القمر 54-55 وقد يقرن بها اسم آخر كقوله { وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً } {2} وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ } {3} الطلاق 2-3 وقوله { إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ } يوسف 90 وقوله { وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ } النساء³¹⁶

5- قال تعالى { وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هُوَ لَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ } هود 78 أن اسم تقوى الله يجمع فعل كل ما أمر الله به إيجاباً واستحباباً وما نهى عنه تحريماً وتنزيهاً وهذا يجمع حقوق الله وحقوق العباد³¹⁷

³¹⁴مجموع الفتاوى ج: 22 ص: 463 و الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 197 و مجموع الفتاوى ج:

2 ص: 282

³¹⁵مجموع الفتاوى ج: 22 ص: 623

³¹⁶مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 164

³¹⁷الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 90

هود 84-95

{وَالِي مَدِينٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ} {84} وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ {85} بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ} {86} قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَاتِكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ} {87} قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَأَكُم عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَنْطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} {88} وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنْكُمْ بِبَعِيدٍ} {89} وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ} {90} قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بَعِزٌّ} {91} قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ} {92} وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ} {93} وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ} {94} كَانَتْ لَمْ يَغْنُوا فِيهَا إِلَّا بُعْدًا لِّمَدِينٍ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودٌ} {95}.

خلق الله الخلق لتكون كلمة الله هي العليا ويكون الدين كله لله

قال تعالى { وَالِي مَدِينٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ} {84} وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ} {85} بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ} {86} {هود 84-86} فان الله سبحانه وتعالى انما خلق الخلق لتكون كلمة الله هي العليا ويكون الدين كله لله وبه انزل الكتب وبه ارسل الرسل وعليه جاهد الرسول والمؤمنون قال الله تعالى { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } {الذاريات 56} وقال تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ } {الأنبياء 25} وقال { وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ } {النحل 36} وقد أخبر عن جميع المرسلين ان كلا منهم يقول لقومه { اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ } {الأعراف 59} وعباداته تكون بطاعته وطاعة رسوله وذلك هو الخير والبر والتقوى والحسنات والقربات والباقيات والصالحات والعمل الصالح وان كانت هذه الاسماء بينها فروق لطيفة ليس هذا موضعها وهذا الذي يقاتل عليه الخلق كما قال تعالى { وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ } {الأنفال 39} وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضى الله عنه

قال سئل النبي عن الرجل يقاتل شجاعة ويقا تل حمية ويقا تل رياء فأى ذلك فى سبيل الله فقال
من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله ³¹⁸

فكمال المخلوق فى تحقيق عبوديته لله وكلما ازداد العبد تحقيقا للعبودية ازداد كماله وعلت درجته
ومن توهم ان المخلوق يخرج من العبودية بوجه من الوجوه او ان الخروج عنها اكمل فهو من
اجهل الخلق واضلهم وقال تعالى {وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَن عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ
عَن عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ} 19 {يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ} 20 {الأنبياء 19- 20} وقال
تعالى {لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَن عِبَادَتِهِ
وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا} النساء 172 الى قوله { وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا
نَصِيرًا} النساء 173 وهذا ونحوه مما فيه وصف اكابر المخلوقات بالعبادة وذم من خرج عن
ذلك متعدد فى القرآن وقد اخبر انه ارسل جميع الرسل بذلك فقال تعالى {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ
أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} النحل 36 وقال {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا
لِيَعْبُدُونِ} الذاريات 56 وكل رسول من الرسل افتتح دعوته بالدعاء الى عبادة الله كقول نوح
ومن بعده عليهم السلام { اَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} الأعراف 59 وفى المسند عن ابن
عمر عن النبي انه قال بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له وجعل
رزقى تحت ظل رمحى وجعل الذلة والصغار على من خالف امرى ³¹⁹

وقد تنازع الناس فيمن تقدم من أمة موسى وعيسى هل هم مسلمون أم لا وهو نزاع لفظى
فإن الإسلام الخاص الذى بعث الله به محمدا صلى الله عليه وسلم المتضمن لشريعة القرآن ليس
عليه إلا أمة محمد صلى الله عليه وسلم والإسلام اليوم عند الإطلاق يتناول هذا وأما الإسلام العام
المتناول لكل شريعة بعث الله بها نبيا فإنه يتناول إسلام كل أمة متبعة لنبي من الأنبياء ورأس
الإسلام مطلقا شهادة أن لا إله إلا الله وبها بعث جميع الرسل كما قال تعالى وذكر عن رسله
كنوح وهود وصالح وغيرهم انهم قالوا ³²⁰

قطب القرآن

والتوحيد هو أصل الدين الذى لا يقبل الله من الأولين والآخرين ديناً غيره وبه أرسل الله الرسل
وأنزل الكتب وقد ذكر الله عز وجل عن كل من الرسل أنه افتتح دعوته بأن قال لقومه
{ اَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} هود 84 وفى المسند عن بن عمر عن النبي أنه قال بعثت

³¹⁸مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 61

³¹⁹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 176-178

³²⁰مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 95

بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له وجعل رزقي تحت ظل رمحي وجعل
الذل والصغار على من خالف أمري ومن تشبه بقوم فهو منهم³²¹

التقوى كما فسرها الاولون والآخرين فعل ما امرت به وترك ما نهيت عنه كما قال طلق بن
حبيب لما وقعت الفتنة اتقوها بالتقوى قالوا وما التقوى قال ان تعمل بطاعة الله على نور من الله
ترجو ثواب الله وان تترك معصية الله على نور من الله تخاف عذاب الله وأيضا فالرسل مثل
نوح وهود وصالح وشعيب فاتحة دعواهم في هود {اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} هود 50
وفي الشعراء {أَلَا تَتَّقُونَ} الشعراء 106 {فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا} الشعراء 108 وقال تعالى
{وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى} البقرة 189³²²

ففي صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ذاق طعم الايمان من رضى بالله ربا
وبالاسلام ديناً وبمحمد نبياً وفي الصحيحين عن النبي انه قال ثلاث من كن فيه وجد بهن
حلاوة الايمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ومن كان يحب المرء لا يحبه الا الله
ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره ان يلقي في النار وهذا مما يبين
من الكلام على المحبة فنقول محبة الله بل محبة الله ورسوله من أعظم واجبات الايمان وأكبر
اصوله وأجل قواعده بل هي اصل كل عمل من اعمال الايمان والدين وكما ان التصديق به اصل
كل قول من أقوال الايمان والدين فان كل حركة في الوجود انما تصدر عن محبة إما عن محبة
محمودة أو عن محبة مذمومة كما قد بسطنا ذلك في قاعدة المحبة من القواعد الكبار
فجميع الاعمال الايمانية الدينية لا تصدر الا عن المحبة المحموده وأصل المحبة المحموده هي
محبة الله سبحانه وتعالى إذ العمل الصادر عن محبة مذمومة عند الله لا يكون عملاً صالحاً بل
جميع الاعمال الايمانية الدينية لا تصدر إلا عن محبة الله فإن الله تعالى لا يقبل من العمل الا ما
اريد به وجهه كما ثبت في الصحيح عن النبي انه قال يقول الله تعالى أنا أغنى الشركاء عن
الشرك فمن عمل عملاً فأشرك فيه غيري فانا منه برئ وهو كله للذي أشرك وثبت في
الصحيح في حديث الثلاثة الذين هم اول من تسعر بهم النار القارئ المرأى والمجاهد المرأى
والمصدق المرأى بل اخلاص الدين لله هو الدين الذي لا يقبل الله سواه وهو الذي بعث به
الأولين والآخرين من الرسل وأنزل به جميع الكتب واتفق عليه اهل الايمان وهذا هو
خلاصة الدعوة النبوية وهو قطب القرآن الذي تدور عليه رحاه وقال تعالى فيما قصه من
قصة آدم وابليس انه قال {فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ} 82 {إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ
المُخْلِصِينَ} 83- 82 وقال تعالى {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ
الْعَاوِينَ} الحجر 42 وقال {إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} 99
إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ} النحل 99-100 فبين ان سلطان

³²¹مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 155

³²²مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 135

الشیطان و اغواؤه انما هو لغير المخلصین ولهذا قال فی قصة یوسف { كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ } یوسف 24

واتباع الشیطان هم اصحاب النار كما قال تعالی { لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ } ص 85 وقد قال سبحانه { إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ } النساء 48 وهذه الآية فی حق من لم يتب ولهذا خصص الشرك وقيد ما سواه بالمشيئة فأخبر انه لا يغفر الشرك لمن لم يتب منه وما دونه يغفره لمن يشاء واما قوله { قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا } الزمر 53 فتلك فی حق التائبين ولهذا عم واطلق وسياق الآية يبين ذلك مع سبب نزولها وقد اخبر سبحانه ان الأولين والأخرين انما امروا بذلك فی غير موضع كالسورة التي قرأها النبي علي ابی لما امره الله تعالی ان یقرأ علیه قراءة إبلاغ وإسماع بخصوصه فقال { وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ } 4 { وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ } 5 { البينة 4-5 الآية وهذا حقيقة قول لا اله الا الله وبذلك بعث جميع الرسل قال الله تعالی { وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ } الأنبياء 25 وقال { وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ } الزخرف 45 وقال تعالی { وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ } النحل 36 وجميع الرسل افتتحو دعوتهم بهذا الاصل كما قال نوح عليه السلام { اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ } الأعراف 59 وكذلك هود وصالح وشعيب عليهم السلام وغيرهم كل يقول { اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ } لاسيما افضل الرسل الذين اتخذ الله كلاهما خليلا ابراهيم ومحمدا عليهما السلام فان هذا الاصل بينه الله بهما وأيدهما فيه ونشره بهما فابراهيم هو الامام الذي قال الله فيه { إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا } البقرة 124 وفي ذريته جعل النبوة والكتاب والرسل فاهل هذه النبوة والرسالة هم من اله الذين بارك الله عليهم قال سبحانه { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ } 26 { إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ } 27 { وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } 28 { الزخرف 26-28 فهذه الكلمة هي كلمة الاخلاص لله وهي البراءة من كل معبود الا من الخالق الذي فطرنا كما قال صاحب يس { وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } 22 { أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرَدَّنِي الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ } 23 { إِنِّي إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ } 24 { إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ } 25 { يس 22-25 }³²³

الغاية التي فيها صلاح للنفس

فان الله تعالی أرسل الرسل ليدعوا الخلق إلى عبادته وحده لا شريك له كما قال تعالی وأخبر عن كل نبي أنه دعا قومه إلى ذلك فقال عن شعيب { وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ } هود 84 وكذلك سائرهم وأمثال ذلك فكمال الإنسان وصلاحه وسعادته في أن يعبد الله وحده لا شريك له وهذا هو الإسلام العام الذي بعث الله به جميع الرسل وهو الذي لا يقبل من أحد دينا غيره لا من المتقدمين ولا من المتأخرين³²⁴

³²³ شرح العمدة ج: 10 ص: 52 و أمراض القلوب ج: 1 ص: 60

³²⁴ الصلفية ج: 2 ص: 242

ومحبة الله وتوحيده هو الغاية التي فيها صلاح للنفس وهو عبادة الله وحده لا شريك له فلا صلاح للنفس ولا كمال لها إلا في ذلك وبدون ذلك تكون فاسدة لا صلاح لها ولهذا كان هذا هو دين الإسلام الذي اتفقت عليه الرسل قال الله تعالى {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} النحل36 وقد قال تعالى {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} {الذاريات56} فالغاية الحميدة التي بها يحصل كمال بني آدم وسعادتهم ونجاتهم عبادة الله وحده وهي حقيقة قول القائل لا إله إلا الله ولهذا بعث الله جميع الرسل وأنزل جميع الكتب ولا تصلح النفس وتزكو وتكمل إلا بهذا ولفظ العبادة يتضمن كمال الذل بكمال الحب فلا بد أن يكون العابد محبا للإله المعبود كمال الحب ولا بد أن يكون ذليلا له كمال الذل فمن أحب شيئا ولم يذل له لم يعبهه ومن خضع له ولم يحبه لم يعبهه وكمال الحب والذل لا يصلح إلا لله وحده فهو الإله المستحق للعبادة التي لا يستحقها إلا هو وذلك يتضمن كمال الحب والذل والإجلال والإكرام والتوكل والعبادة فالنفوس محتاجة إلى الله من حيث هو معبودها ومنتهى مرادها وبغيتها ومن حيث هو ربها وخالقها فمن آمن بالله رب كل شيء وخالفه ولم يعبد إلا الله وحده بحيث يكون الله أحب إليه من كل ما سواه وأخشى عنده من كل ما سواه وأعظم عنده من كل ما سواه وأرجى عنده من كل ما سواه بل من سوى بين الله وبين بعض المخلوقات في الحب بحيث يحبه مثل ما يحب الله ويخشاه مثل ما يخشى الله ويرجوه مثل ما يرجو الله ويدعوه مثل ما يدعو الله فهو مشرك الشرك الذي لا يغفره الله ولو كان مع ذلك عفيفا في طعامه ونكاحه وكان حكيما شجاعا³²⁵

العلم بلا عمل كالشجر بلا ثمر

وأما المقاصد فالقرآن أخبر بالعلم بالله والعمل له فجمع بين قوتى الإنسان العلمية والعملية الحسية والحركية الإرادية الإدراكية والإعتمادية القولية والعملية حيث قال {اعْبُدُوا اللَّهَ} {هود84} فالعبادة لا بد فيها من معرفته والإنابة إليه والتذلل له والإفتقار إليه وهذا هو المقصود وإذا حصل الاعتراف بالرب والاقرار به من غير عبادة وإنابة كان وبالاً على صاحبه وشقاء له كما جاء فى الحديث أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه كإبليس اللعين فإنه معترف بربه مقرر بوجوده لكن لما لم يعبهه كان رأس الأشقياء وكل من شقى فباتباعه له كما قال {قَالَ أَخْرَجْ مِنْهَا مَذُومًا مَذْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ} الأعراف18 فلا بد أن يملأ جهنم منه ومن أتباعه مع أنه معترف بالرب مقرر بوجوده وإنما أبى واستكبر عن الطاعة والعبادة والقوة العلمية مع العملية بمنزلة الفاعل والغاية ولهذا قيل العلم بلا عمل كالشجر بلا ثمر والمراد بالعمل هنا عمل القلب الذى هو انابته الى الله وخشيته له حتى يكون عابداً له فالرسل والكتب المنزلة أمرت بهذا وأوجبته بل هو رأس الدعوة ومقصودها وأصلها والطريقة النبوية القرآنية السننية الجماعية فيها العلم والعمل كاملين ففاتحة دعوة الرسل الأمر بالعبادة قال تعالى {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} البقرة21 وقال أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وذلك يتضمن الإقرار به وعبادته وحده فإن الإله هو المعبود ولم يقل حتى يشهدوا أن لارب إلا الله فإن اسم الله أدل على مقصود العبادة له التى لها خلق الخلق وبها أمروا وكذلك قوله لمعاد إنك تأتى قوماً من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وقال نوح

عليه السلام {أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَانْقُوهُ وَأَطِيعُوا} نوح 3 وكذلك الرسل في سورة الأعراف
وغيرها³²⁶

الله تعالى أرسل الرسل ليقوم الناس بالقسط

قال تعالى { وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَّ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا
الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ } 84 { وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا
الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ } 85 { بِقِيَّةِ اللَّهِ
خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ } 86 { هو 84-86 والعدل واجب لكل أحد على كل
أحد في كل حال وإنما أرسل الله الرسل وأنزل الكتب ليقوم الناس بالقسط³²⁷

أن العدل محمود محبوب باتفاق أهل الأرض وهو محبوب في النفوس مركز حبه في القلوب
تحبه القلوب وتحمده وهو من المعروف الذي تعرفه القلوب والظلم من المنكر الذي تنكره القلوب
فتبغضه وتذمه والله تعالى أرسل الرسل ليقوم الناس بالقسط قال الله تعالى { لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا
بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ } الحديد 25 وقال تعالى { اللَّهُ الَّذِي
أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ } الشورى 17 وقال تعالى { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ
أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ } النساء 58 وقال { فَإِنْ جَاؤُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ
أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ
الْمُقْسِطِينَ } المائدة 42 وقال { فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ
} المائدة 48 فأمره أن يحكم بالقسط وأن يحكم بما أنزل الله فدل ذلك على أن القسط هو ما أنزل الله
فما أنزل الله هو القسط والقسط هو ما أنزل الله ولهذا وجب على كل من حكم بين اثنين أن
يحكم بالعدل لقوله تعالى { وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ } النساء 58 فليس لحاكم أن
يحكم بظلم أبدا والشرع الذي يجب على حكام المسلمين الحكم به عدل كله ليس في الشرع ظلم
أصلا بل حكم الله أحسن الأحكام والشرع هو ما أنزل الله فكل من حكم بما أنزل الله فقد حكم
بالعدل³²⁸

³²⁶مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 10

³²⁷الصفدية ج: 2 ص: 327

³²⁸منهاج السنة النبوية ج: 5 ص: 130

بخس المكيال و الميزان من الأعمال التي أهلك الله بها قوم شعيب

قال تعالى { وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ {84} وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ {85} بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِخَفِيظٍ {86} } هود 84-86 أما بخس المكيال و الميزان فهو من الأعمال التي أهلك الله بها قوم شعيب و قص علينا قصتهم في غير موضع من القرآن لنعبر بذلك و الاصرار على ذلك من أعظم الكبائر و صاحبه مستوجب تغليظ العقوبة و ينبغي أن يؤخذ منه ما بخسه من أموال المسلمين على طول الزمان و يصرف في مصالح المسلمين اذا لم يمكن إعادته الى أصحابه و الكيال و الوزان الذي يبخس الغير هو ضامن محروم مأثوم و هو من أخسر الناس صفقة اذ باع آخرته بدنيا غيره و لا يحل أن يجعل بين الناس كيالا أو و زانا يبخس أو يحابي كما لا يحل أن يكون بينهم مقوم يحابي بحيث يكيل أو يزن أو يقوم لمن يرجوه أو يخاف من شره أو يكون له جاه و نحوه بخلاف ما يكيل أو يزن أو يقوم لغيرهم أو يظلم من يبغضه و يزيد من يحبه قال الله تعالى { وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَفُّ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا {الأنعام152} و قال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلَوُوا أَوْ نَعَرْتُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا {النساء135} و الله أعلم ³²⁹

اخبر عن اعمال قوم شعيب انها من السيئات القبيحة قبل ان ينهاهم

وقد أخبر الله تعالى عن قبح أعمال الكفار قبل أن يأتيهم الرسول كقوله لموسى { إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُدَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ {4} } وتريد أن نمنَّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين {5} } ونمكن لهم في الأرض {6} القصص 4-6 فهذا خبر عن حاله قبل أن يولد موسى وحين كان صغيرا قبل أن يأتيه برسالة انه كان طاغيا مفسدا و ايضا أمر الله الناس أن يتوبوا ويستغفروا مما فعلوه فلو كان كالمباح المستوى الطرفين والمعفو عنه وكفعل الصديان والمجانين ما أمر بالاستغفار والتوبة فعلم أنه كان من السيئات القبيحة لكن الله لا يعاقب الا بعد إقامة الحجة وهذا وكذلك قول شعيب { **أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ { هود85}** } بين أن ما فعلوه كان بخسا لهم أشياءهم وأنهم كانوا عاثين في الأرض مفسدين قبل أن ينهاهم بخلاف قول المجبرة أن ظلمهم ما كان سيئة إلا لما نهاهم وانه قبل النهي كان بمنزلة سائر الأفعال من الأكل والشرب وغير ذلك كما يقولون في سائر ما نهت عنه الرسل من الشرك والظلم والفواحش **(ناقص)** ³³⁰

³²⁹مجموع الفتاوى ج: 29 ص: 474

³³⁰مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 680-681

عامة من كذب الرسل علموا أن الحق معهم لكن إما لحسدكم وإما لإرادتهم

العلو والرياسة يكذبونهم

وما أجمع عليه طوائف بنى آدم السليمة الفطرة وجماهير النظار فإن الإنسان قد يعرف أن الحق مع غيره ومع هذا يجحد ذلك لحسده إياه أو لطلب علوه عليه أو لهوى النفس ويحمله ذلك الهوى على أن يعتدى عليه ويرد ما يقول بكل طريق وهو في قلبه يعلم أن الحق معه وعامة من كذب الرسل علموا أن الحق معهم وأنهم صادقون لكن إما لحسدكم وإما لإرادتهم العلو والرياسة وإما لحبهم دينهم الذي كانوا عليه وما يحصل لهم به من الأغراض كأموال ورياسة وصدقة أقوام وغير ذلك فيرون في اتباع الرسل ترك الأهواء المحبوبة إليهم أو حصول أمور مكروهة إليهم فيكذبونهم ويعادونهم فيكونون من أكفر الناس كإبليس وفرعون مع علمهم بأنهم على الباطل والرسل على الحق ولهذا لا يذكر الكفار حجة صحيحة تقدر في صدق الرسل إنما يعتمدون على مخالفة أهوائهم كقولهم لنوح { **أَتُؤْمِنُ لَكَ وَتَتَّبَعَكَ الْأَرْذَالُونَ** } الشعراء 111 ومعلوم أن إتباع الأذليين له لا يقدر في صدقه لكن كرهوا مشاركة أولئك كما طلب المشركون من النبي صلى الله عليه وسلم إبعاد الضعفاء كسعد بن أبي وقاص وإبن مسعود وخباب بن الارت وعمار بن ياسر وبلال ونحوهم وكان ذلك بمكة قبل أن يكون في الصحابة أهل الصفة فأنزل الله تبارك وتعالى { **وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ** } 52 { **وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ** } 53 { **الأنعام 52-53** } ومثل قول قوم شعيب له { **أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ** } هود 87 وهذه الأمور وأمثالها ليست حججا تقدر في صدق الرسل بل تبين أنها تخالف إرادتهم وأهوائهم وعاداتهم فلذلك لم يتبعوهم وهؤلاء كلهم كفار بل أبو طالب وغيره كانوا يحبون النبي ويحبون علو كلمته وليس عندهم حسد له وكانوا يعلمون صدقه ولكن كانوا يعلمون أن في متابعتهم فراق دين آبائهم وذم قريش لهم فما احتملت نفوسهم ترك تلك العادة وإحتمال هذا الذم فلم يتركوا الإيمان لعدم العلم بصدق الإيمان به بل لهوى النفس فكيف يقال إن كل كافر إنما كفر لعدم علمه بالله³³¹

توحيد الإلهية هو الذي يحبه الله ويرضاه ويأمر به

قال تعالى { **قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَآكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتِطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أَنِيبُ** } 88 { **وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمٌ لَّوِطٌ مِّنْكُمْ بِبَعِيدٍ** } 89 { **وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ** } 90 { **هود 88-90** } توحيد الإلهية الذي يحبه الله ويرضاه ويأمر به وهو أن لا يعبد إلا إياه ولا يعبد إلا بطاعته وطاعة رسوله فمن استشعر هذا في قوله { **لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ** } الأنبياء 87 كان عبدا متوكلا عليه وكان ممثلا قوله { **وَأَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ** } هود 123 وقوله { **عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ**

أُنِيبُ {هود88} وقوله {وَأَذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً} {8} رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا} {9} المزمّل 8-9-332

كما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم في الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول ربنا و لك الحمد ملء السماء و ملء الأرض و ملء ما بينهما و ملء ما شئت من شيء بعد أهل الثناء و المجد أحق ما قال العبد و كلنا لك عبد فهذا حمد و هو شكر الله تعالى و بيان أن حمده أحق ما قاله العبد ثم يقول بعد ذلك اللهم لا مانع لما أعطيت و لا معطي لما منعت و لا ينفع ذا الجد منك الجد وهذا تحقيق لوحدانيتها لتوحيد الربوبية خلقا و قدرا و بداية و هداية هو المعطي المانع لا مانع لما أعطى و لا معطى لما منع و لتوحيد الالهية شرعا و أمرا و نهيا و هو أن العباد و إن كانوا يعطون ملكا و عظمة و بختا و رياسة في الظاهر أو في الباطن كأصحاب المكاشفات و التصرفات الخارقة فلا ينفع ذا الجد منك الجد أي لا ينجيه و لا يخلصه من سؤالك و حسابك حظه و عظمته و غناه ولهذا قال لا ينفعه منك و لم يقل لا ينفعه عندك فإنه لو قيل ذلك أو هم أنه لا يتقرب به اليك لكن قد لا يضره فيقول صاحب الجد إذا سلمت من العذاب في الآخرة فما أبالي كالذين أوتوا النبوة و الملك لهم ملك في الدنيا و هم من السعداء فقد يظن ذو الجد الذي لم يعمل بطاعة الله من بعده أنه كذلك فقال ولا ينفع ذا الجد منك ضمن ينفع معنى ينجى و يخلص فبين أن جده لا ينجيه من العذاب بل يستحق بذنوبه ما يستحقه أمثاله و لا ينفعه جده منك فلا ينجيه و لا يخلصه فتضمن هذا الكلام تحقيق التوحيد و تحقيق قوله {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} الفاتحة5 و قوله {فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ} {هود123} و قوله {عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} {هود88} و قوله {وَأَذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً} {8} رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا} {9} المزمّل 8-9 فقله لا مانع لما أعطيت و لا معطى لما منعت توحيد الربوبية الذي يقتضى أنه سبحانه هو الذي يسأل و يدعى و يتوكل عليه و هو سبب لتوحيد الالهية و دليل عليه كما يحتج به فى القرآن على المشركين فان المشركين كانوا يقرون بهذا التوحيد توحيد الربوبية و مع هذا يشركون بالله فيجعلون له أندادا يحبونهم كحب الله و يقولون إنهم شفعاؤنا عنده و إنهم يتقربون بهم اليه فيتخذونهم شفعا و قربانا كما قال تعالى {وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ} {يونس18} و قال تعالى {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى} {الزمر3} و قال تعالى {وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} {27} قُلُوبًا نَّصَرَ هُمْ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} {الأحقاف27-28} وهذا التوحيد هو عبادة الله و حده لا شريك له و أن لا نعبده إلا بما أحبه و ما رضىه و هو ما أمر به و شرعه على ألسن رسله صلوات الله عليهم فهو متضمن لطاعته و طاعة رسوله و موالاته أوليائه و معاداة أعدائه و أن يكون الله و رسوله أحب الى العبد من كل ما سواهما و هو يتضمن أن يحب الله حبا لا يماثله و لا يساويه فيه غيره بل يقتضى أن يكون رسوله صلى الله عليه وسلم أحب اليه من نفسه فإذا كان الرسول لأجل أنه رسول الله يجب أن يكون أحب الى المؤمن من نفسه فكيف بربه سبحانه و تعالى و فى صحيح البخاري أن عمر قال يارسول الله و الله إنك لأحب إلي من كل شيء إلا من نفسي فقال لا يا عمر حتى أكون أحب اليك من نفسك قال فو الذي بعثك بالحق إنك لأحب إلي من نفسي قال الآن

يا عمر وقد قال تعالى {النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ} {الأحزاب 6} وقال تعالى {قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تُرَضُّونَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} {التوبة 24} فان لم يكن الله ورسوله و الجهاد في سبيله أحب إلى العبد من الأهل و المال على اختلاف أنواعه فانه داخل تحت هذا الوعيد فهذا التوحيد توحيد الالهية يتضمن فعل المأمور و ترك المحظور و من ذلك الصبر على المقدر كما أن الأول يتضمن الاقرار بأنه لا خالق و لا رازق معطي و لا مانع إلا الله و حده فيقتضى أن لا يسأل العبد غيره و لا يتوكل إلا عليه و لا يستعين إلا به كما قال تعالى في النوعين {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} {الفتح 5} و قال {فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ} {هود 123}

و هذا التوحيد هو الفارق بين الموحدين و المشركين و عليه يقع الجزاء و الثواب في الأولى و الآخرة فمن لم يأت به كان من المشركين الخالدين فان الله لا يغفر أن يشرك به و يغفر ما دون ذلك لمن يشاء أما توحيد الربوبية فقد أقر به المشركون و كانوا يعبدون مع الله غيره و يحبونهم كما يحبونه فكان ذلك التوحيد الذي هو توحيد الربوبية حجة عليهم فاذا كان الله هو رب كل شيء و مليكه و لا خالق و لا رازق إلا هو فلماذا يعبدون غيره معه و ليس له عليهم خلق و لا رزق و لا بيده لهم منع و لا عطاء بل هو عبد مثلهم لا يملك لنفسه ضرا و لانفعا و لا موتا و لا حياة و لا تشورا فان قالوا ليشفع فقد قال الله {مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ} {البقرة 255} فلا يشفع من له شفاعة من الملائكة و النبيين إلا باذنه و أما قبورهم و ما نصب عليها من قباب و أنصاب أو تماثيلهم التي مثلت على صورهم مجسدة أو مرقومة فجعل الاستشفاع بها استشفاعا بهم فهذا باطل عقلا و شرعا فانها لاشفاعة لها بحال و لا لسائر الأصنام التي عملت للكواكب و الجن و الصالحين و غيرهم³³³

قدر الله الأشياء بأسبابها كما قدر السعادة والشقاوة بأسبابها

قال تعالى { قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ } {88} وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمٌ لَّوِطٌ مِّنْكُمْ بِبَعِيدٍ } {89} وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ } {90}

هود 88-90 وهناك طائفة هم مستمسكون بالدين في اداء الفرائض المشهوره واجتناب المحرمات المشهوره لكن يغلطون في ترك ما امروا به من الاسباب التي هي عبادة ظانين ان العارف اذا شهد القدر اعرض عن ذلك مثل من يجعل التوكل منهم او الدعاء ونحو ذلك من مقامات العامة دون الخاصة بناء على ان من شهد القدر علم ان ما قدر سيكون فلا حاجة الى ذلك وهذا غلط عظيم فان الله قدر الاشياء باسبابها كما قدر السعادة والشقاوة باسبابها كما قال النبي صلى الله عليه وسلم ان الله خلق للجنة اهلا خلقها لهم وهم في اصلاب آبائهم وبعمل اهل الجنة يعملون وكما قال النبي لما أخبرهم بان الله كتب المقادير فقالوا يا رسول الله افلا ندع العمل ونتكل على الكتاب فقال لا اعملوا فكل ميسر لما خلق له اما من كان من اهل السعادة فسييسر لعمل اهل السعادة واما من كان من اهل الشقاوة فسييسر لعمل اهل الشقاوة فما امر الله به

عباده من الأسباب فهو عبادة والتوكل مقرون بالعبادة كما في قوله تعالى { فَأَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ } هود 123 وفي قوله { قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ } الرعد 30 وقول شعيب عليه السلام { عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ } هود 88 ومنهم طائفة قد تترك المستحبات من الاعمال دون الواجبات فتتقص بقدر ذلك ومنهم طائفة يفترون بما يحصل لهم من خرق عادة مثل مكاشفة او استجابة دعوة مخالفة للعادة العامة ونحو ذلك فيشتغل احدهم عما امر به من العبادة والشكر ونحو ذلك فهذه الأمور ونحوها كثيرا ما تعرض لاهل السلوك والتوجه وانما ينجو العبد منها بملازمة امر الله الذي بعث به رسوله في كل وقت كما قال الزهري كان من مضى من سلفنا يقولون الاعتصام بالسنة نجاة وذلك ان السنة كما قال مالك رحمه الله مثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق³³⁴

{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }

قال تعالى { قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ } 88 { وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنْكُمْ بِبَعِيدٍ } 89 { وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ } 90 هود 88-90 والمؤمن يجد نفسه محتاجة إلى الله في تحصيل مطالبه ويجد في قلبه محبة الله غير هذا فهو محتاج إلى الله من جهة أنه ربه ومن جهة أنه إلهه قال تعالى { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } الفاتحة 5 فلا بد أن يكون العبد عابدا لله ولا بد أن يكون مستعينا به ولهذا كان هذا فرضا على كل مسلم أن يقوله في صلاته وهذه الكلمة بين العبد وبين الرب وقد روي عن الحسن البصري رحمه الله أن الله أنزل مائة كتاب وأربعة كتب جمع سرها في الأربعة وجمع سر الأربعة في القرآن وجمع سر القرآن في الفاتحة وجمع سر الفاتحة في هاتين الكلمتين {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } الفاتحة 5 ولهذا ثناها الله في كتابه في غير موضع من القرآن كقوله { فَأَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ } هود 123 وقوله { عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ } هود 88 وقوله { عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ } الرعد 30³³⁵

وقال الله تعالى { وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا } 2 { وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا } 3 { الطلاق 2-3 } قد روى عن أبي ذر عن النبي أنه قال لو أخذ الناس كلهم بهذه الآية لكفنتهم وقوله { مَخْرَجًا } الطلاق 2 عن بعض السلف أي من كل ما ضاق على الناس وهذه الآية مطابقة لقوله {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } الفاتحة 5 الجامعة لعلم الكتب الإلهية كلها وذلك أن التقوى هي العبادة المأمور بها فإن تقوى الله وعبادته وطاعته أسماء متقاربة متكافئة متلازمة والتوكل عليه هو الإستعانة به فمن يتقى الله

³³⁴الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 375 و مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 171-172

³³⁵منهاج السنة النبوية ج: 5 ص: 394

مثال {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} الفاتحة 5 ومن يتوكل على الله مثال {وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} الفاتحة 5 كما قال {فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ} هود 123 وقال {عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنبْنَا} الممتحنة 4 وقال {عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أَنِيبُ} هود 88³³⁶

وإذا كان الله قد فرض علينا أن نناجيه و ندعوه بهاتين الكلمتين {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} و{إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} {الفاتحة 5} في كل صلاة فمعلوم أن ذلك يقتضي أنه فرض علينا أن نعبده و أن نستعينه إذ إيجاب القول الذي هو إقرار و اعتراف و دعاء و سؤال هو إيجاب لمعناه ليس إيجاباً لمجرد لفظ لا معنى له فإن هذا لا يجوز أن يقع بل إيجاب ذلك أبلغ من إيجاب مجرد العبادة و الاستعانة فإن ذلك قد يحصل أصله بمجرد القلب أو القلب و البدن بل أوجب دعاء الله عزوجل و مناجاته و تكليمه و مخاطبته بذلك ليكون الواجب من ذلك كاملاً صورة و معنى بالقلب و بسائر الجسد و قد جمع بين هذين الأصلين الجامعين إيجاباً و غير إيجاب في مواضع كقوله في آخر سورة هود {فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ} هود 123 و قول العبد الصالح شعيب {وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أَنِيبُ} هود 88 و قول إبراهيم و الذين معه {رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} الممتحنة 4 و قوله سبحانه إذ أمر رسوله أن يقول {كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَّتَتَلَوْا عَلَيْهِمُ آلِدِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ} الرعد 30 فأمر نبيه بأن يقول على الرحمن توكلت و إليه متاب كما أمره بهما في قوله {فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ} هود 123 والأمر له أمر لأُمَّته و أمره بذلك في أم القرآن و في غيرها لأُمَّته ليكون فعلهم ذلك طاعة لله و امتثالاً لأمره و لا يتقدموا بين يدي الله و رسوله و لهذا كان عامة ما يفعله نبينا صلى الله عليه و سلم و الخالصون من أُمَّته من الأدعية و العبادات و غيرها إنما هو بأمر من الله بخلاف من يفعل ما لم يؤمر به و إن كان حسناً أو عفواً و هذا أحد الأسباب الموجبة لفضله و فضل أُمَّته على من سواهم و فضل الخالصين من أُمَّته على المشوبين الذين شابوا ماجاء به بغيره كالمنحرفين عن الصراط المستقيم و إلى هذين الأصلين كان النبي صلى الله عليه و سلم يقصد في عباداته و أذكاره و مناجاته مثل قوله في الأضحية اللهم هذا منك و لك فإن قوله منك هو معنى التوكل و الاستعانة و قوله لك هو معنى العبادة و مثل قوله في قيامه من الليل لك أسلمت و بك أمنت و عليك توكلت و إليك أنبت و بك خاصمت و إليك حاكمت أعود بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلني أنت الحي الذي لا تموت و الجن و الانس يموتون إلى أمثال ذلك³³⁷

³³⁶مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 56

³³⁷مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 8-9

من ظن الإستغناء بالسبب عن التوكل فقد أخل بواجب التوحيد

قوله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه يا عبادى كلكم جائع إلا من أطعمته فإستطعمونى أطعمكم وكلكم عار إلا من كسوته فإستكسونى أكسكم فيقضتى أصلين عظيمين أحدهما وجوب التوكل على الله فى الرزق المتضمن جلب المنفعة كالطعام ودفع المضرة كاللباس وأنه لا يقدر غير الله على الإطعام والكسوة قدرة مطلقة وإنما القدرة التى تحصل لبعض العباد تكون على بعض أسباب ذلك ولهذا قال { وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ } البقرة 233 وقال { وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ } النساء 5 فالمأمور به هو المقدور للعباد وكذلك قوله { أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْعَبَةٍ } 14 { يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ } 15 { أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ } 16 { الْبِلَادِ - 14 - 16 } وقوله { وَأَطِيعُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ } الحج 36 وقوله { فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ } الحج 28 وقال { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَنْطَعِمَهُ } يس 47 فذم من يترك المأمور به إكتفاء بما يجرى به القدر ومن هنا يعرف أن السبب المأمور به أو المباح لا ينافى وجوب التوكل على الله فى وجوب السبب بل الحاجة والفقر إلى الله ثابتة مع فعل السبب إذ ليس فى المخلوقات ما هو وحده سبب تام لحصول المطلوب ولهذا لا يجب أن تقترن الحوادث بما قد يجعل سببا إلا بمشيئة الله تعالى فإنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن فمن ظن الإستغناء بالسبب عن التوكل فقد ترك ما أوجب الله عليه من التوكل وأخل بواجب التوحيد ولهذا يخذل أمثال هؤلاء إذا اعتمدوا على الأسباب فمن رجا نصرا أو رزقا من غير الله خذله الله كما قال على رضى الله عنه لا يرجون عبد إلا ربه ولا يخافن إلا ذنبه وقد قال تعالى { مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } فاطر 2 وقال تعالى { وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بَضْرًا فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ } يونس 107 وقال { قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِيَ بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ } الزمر 38 وهذا كما أن من أخذ يدخل فى التوكل تاركا لما أمر به من الأسباب فهو أيضا جاهل ظالم عاص لله بترك ما أمره فإن فعل المأمور به عبادة لله وقد قال تعالى { فَأَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ } هود 123 وقال { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } الفاتحة 5 وقال { قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابُ } الرعد 30 وقال شعيب عليه السلام { **عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ** } هود 88 وقال { وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ } الشورى 10 وقال { قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لَقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَعِينَنَّكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنُوبْنَا } الممتحنة 4 فليس من فعل شيئا أمر به من التوكل بأعظم ذنبا ممن فعل توكلا أمر به وترك فعل ما أمر به من السبب إذ كلاهما مخل ببعض ما وجب عليه وهما مع إشتراكهما فى جنس الذنب فقد يكون هذا ألوم وقد يكون الآخر مع أن التوكل فى الحقيقة من جملة الأسباب وقد روى أبو داود فى سننه أن النبى قضى بين رجلين فقال المقضى عليه حسبى الله ونعم الوكيل فقال النبى إن الله يلوم على العجز ولكن عليك بالكيس فإن غلبك أمر فقل حسبى الله ونعم الوكيل وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى أنه قال المؤمن القوى خير واحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفى كل خير إحرص على ما ينفعك وإستعن بالله ولا تعجز فإن أصابك شىء فلا تقل لو أنى فعلت لكان كذا وكذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان ففى قوله صلى الله عليه وسلم إحرص على ما ينفعك وإستعن بالله ولا تعجز أمر بالتسبب المأمور به وهو الإحرص على المنافع وأمر مع ذلك بالتوكل وهو الإستعانة بالله فمن إكتفى بأحدهما فقد عصى أحد الأمرين ونهى عن العجز الذى هو ضد الكيس

كما قال في الحديث الآخر إن الله يلوم على العجز ولكن عليك بالكيس وكما في الحديث الشامي الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من إتبع نفسه هواها وتمنى على الله فالعاجز في الحديث مقابل الكيس ومن قال العاجز هو مقابل البر فقد حرف الحديث ولم يفهم معناه ومنه الحديث كل شيء بقدر حتى العجز والكيس ومن ذلك ما روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس قال كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون يقولون نحن المتوكلون فإذا قدموا سألو الناس فقال الله تعالى { وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى } البقرة 197 فمن فعل ما أمر به من التزود فإستعان به على طاعة الله وأحسن منه إلى من يكون محتاجا كان مطيعا لله في هذين الأمرين بخلاف من ترك ذلك ملتفتا إلى ازواد الحجيج كلا على الناس وإن كان مع هذا قلبه غير ملتفت إلى معين فهو ملتفت إلى الجملة لكن إن كان المتزود غير قائم بما يجب عليه من التوكل على الله ومواساة المحتاج فقد يكون في تركه لما أمر به من جنس هذا التارك للتزود المأمور به وفي هذه النصوص بيان غلط طوائف طائفة تضعف أمر السبب المأمور به فتعده نقصا أو قدحا في التوحيد والتوكل وإن تركه من كمال التوكل والتوحيد وهم في ذلك ملبوس عليهم وقد يقترن بالغلط إتباع الهوى في إخلاد النفس إلى البطالة ولهذا تجد عامة هذا الضرب التاركين لما أمروا به من الأسباب يتعلقون بأسباب دون ذلك فأما إن يعلقوا قلوبهم بالخلق رغبة ورهبة وإما أن يتركوا لأجل ما تبتلوا له من الغلو في التوكل واجبات أو مستحبات أنفع لهم من ذلك كمن يصرف همته في توكله إلى شفاء مرضه بلا دواء أو نيل رزقه بلا سعي فقد يحصل ذلك لكن كان مباشرة الدواء الخفيف والسعي اليسير وصرف تلك الهمة والتوجه في عمل صالح أنفع له بل قد يكون أوجب عليه من تبتله لهذا الأمر اليسير الذي قدره درهم أو نحوه وفوق هؤلاء من يجعل التوكل والدعاء أيضا نقصا وإنقطاعا عن الخاصة ظنا أن ملاحظة ما فرغ منه في القدر هو حال الخاصة وقد قال في الحديث كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم وقال فاستنسوني أكسكم وفي الطبراني أو غيره عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى شسع نعله إذا انقطع فإنه إن لم يبسره لم يتيسر وهذا قد يلزمه أن يجعل أيضا استهداء الله وعمله بطاعته من ذلك وقولهم يوجب دفع المأمور به مطلقا بل دفع المخلوق والمأمور وإنما غلطوا من حيث ظنوا سبق التقدير يمنع أن يعون بالسبب المأمور به كمن يتزندق فيترك الأعمال الواجبة بناء على أن القدر قد سبق بأهل السعادة وأهل الشقاوة ولم يعلم أن القدر سبق بالأمر على ما هي عليه فمن قدره الله من أهل السعادة كان مما قدره الله يتيسر لعمل أهل السعادة ومن قدره من أهل الشقاء كان مما قدره أنه يبسره لعمل أهل الشقاء كما قد أجاب النبي صلى الله عليه وسلم عن هذا السؤال في حديث علي بن أبي طالب وعمران بن حصين وسراقة بن جعشم وغيرهم ومنه حديث الترمذي حدثنا ابن أبي عمير حدثنا سفيان عن الزهري عن أبي خزيمة عن أبيه قال سألت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله أرأيت أدوية نتداوى بها ورقى نسترقى بها ونقاة نتقيها هل ترد من قدر الله شيئا فقال هي من قدر الله وطائفة تظن أن التوكل إنما هو من مقامات الخاصة المتقربين إلى الله بالنوافل كذلك قولهم في أعمال القلوب وتوابعها كالحب والرجاء والخوف والشكر ونحو ذلك وهذا ضلال مبين بل جميع هذه الأمور فروض على الأعيان باتفاق أهل الإيمان ومن تركها بالكلية فهو إما كافر وإما منافق لكن الناس هم فيها كما هم في الأعمال الظاهرة فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات ونصوص الكتاب والسنة طافحة بذلك وليس هؤلاء المعرضون عن هذه الأمور علما وعملا بأقل لوما من التاركين لما أمروا به من أعمال ظاهرة مع تلبسهم ببعض هذه الأعمال بل استحقاق الذم والعقاب يتوجه إلى من ترك المأمور من الأمور الباطنة والظاهرة إن كانت الأمور الباطنة مبدأ الأمور الظاهرة وأصولها والأمور الظاهرة كما لها وفروعها التي لا تتم إلا بها³³⁸

الإخلاص والتوكل جماع صلاح الخاصة والعامة

قال تعالى { قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ
أُخَالِفَكُم إِلَىٰ مَا أَنهَآكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ
أُنِيبُ } {88} وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ
صَالِحٍ وَمَا قَوْمَ لُوطٍ مِّنكُمْ بِبَعِيدٍ } {89} وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ ثَابَرُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ } {90}
هود 88-90 فإن الله أمر بالصلاح ونهى عن الفساد وبعث رسله بتحصيل المصالح وتكميلها
وتعطيل المفاسد وتقليلها { وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ
الْمُفْسِدِينَ } الأعراف 142 وقال شعيب { إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ } هود 88 وقال تعالى { فَمَنْ اتَّقَىٰ
وَأَصْلَحْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } الأعراف 35 وقال تعالى { وَإِذَا قِيلَ
لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ } {11} أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ } {12} البقرة 11-

12

في حديث أبي هريرة رضى الله عنهما الذى رواه الترمذى وصححه قيل يا رسول الله ما أكثر
ما يدخل الناس الجنة قال تقوى الله وحسن الخلق قيل وما أكثر ما يدخل الناس النار قال الأجوفا
الفم والفرج وفى الصحيح عن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله
أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا فجعل كمال الإيمان فى كمال حسن الخلق ومعلوم أن
الإيمان كله تقوى الله شمول التقوى وتفصيل أصول التقوى وفروعها لا يحتمله هذا الموضوع
فإنها الدين كله لكن ينبوع الخير وأصله إخلاص العبد لربه عبادة وإستعانة كما فى قوله {إِيَّاكَ
نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} الفاتحة 5 وفى قوله {فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ} هود 123 وفى قوله {
عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} هود 88 وفى قوله {فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ
} العنكبوت 17 بحيث يقطع العبد تعلق قلبه من المخلوقين إنتفاعا بهم أو عملا لأجلهم ويجعل
همته ربه تعالى وذلك بملازمة الدعاء له فى كل مطلوب من فاقة وحاجة ومخافة وغير ذلك
والعمل لله بكل محبوب³⁴⁰

ومتى اهتمت الولاية باصلاح دين الناس صلح للطائفتين دينهم وديناهم وإلا اضطربت الأمور
عليهم وملاك ذلك كله صلاح النية للرعية وإخلاص الدين كله لله والتوكل عليه فان الاخلاص
والتوكل جماع صلاح الخاصة والعامة قال تعالى { قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي
وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُم إِلَىٰ مَا أَنهَآكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ
وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ } هود 88 كما أمرنا ان نقول فى صلاتنا {إِيَّاكَ نَعْبُدُ

³³⁹مجموع الفتاوى ج: 31 ص: 266

³⁴⁰مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 659 و الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 91

وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ { الفاتحة 5 } فان هاتين الكلمتين قد قيل انهما يجمعان معانى الكتب المنزلة من السماء وقد روى أن النبي كان مرة في بعض مغازبه فقال **يامالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين** فجعلت الرءوس تنذر عن كواهلها وقد ذكر ذلك في غير موضع من كتابه كقوله { فاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ { هود 123 وقوله تعالى { **عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ { هود 88** وكان صلى الله عليه وسلم إذا ذبح أضحيته يقول اللهم منك ولك ³⁴¹

من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله

ومعلوم أنه لا يكون شيء الا بمشيئة الله وقدرته وأن الخلق ليس منهم شيء الا ما أحدثه الله فيهم فاذا انقطع طلب القلب للمعونة منهم وطلبها من الله فقد طلبها من خالقها الذى لا يأتي بها الا هو قال تعالى { مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ { فاطر 2 } وقال تعالى { وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِيدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ { يونس 107 } وقال تعالى { وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِيدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ { قل أفرأيتُمْ ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضرٍ هل هن كاشفاتُ ضرِّه أو أرادني برحمةٍ هل هن ممسكاتُ رحمته { الزمر 38 } وقال صاحب يس { أَلَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِي عَنْهُمْ شِفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلَا يُنْقِذُونَ { 23 } إني إذا لفي ضلالٍ مُبينٍ { 24 } يس 23-24 ولهذا يأمر الله بالتوكل عليه وحده في غير موضع وفي الأثر من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله ومن سره أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله أوثق منه بما في يده قال تعالى { وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبيراً { الفرقان 58 } والله تعالى أمر بعبادته والتوكل عليه قال تعالى { فاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ { هود 123 } وقال تعالى { قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ { الرعد 30 } وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ { يونس 84 } وقال شعيب { وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ { هود 88 } ³⁴²

³⁴¹مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 361 و رسالة في قوله تعالى واستعينوا بالصبر والصلاة ج: 1

ص: 82 و السياسة الشرعية ج: 1 ص: 110

³⁴²مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 323

العبادة والتوكل يجمعان الدين كله

قال تعالى { قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقْنِي مِثْلَ رِزْقِ آدَمَ إِذْ هُوَ آتِي الْكَلْبَةَ مِنَ الْعَذَىٰ قَالَ إِنَّ لِي لَمِنْ آيَاتِهِ مَا لَا تَدْرِي وَإِنِّي أَخَافُكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أَنِيبُ } {88} وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُمْ بِبَعِيدٍ } {89} وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ } {90}

هود 88-90 واما المحبة لله والتوكل عليه والاخلاص له ونحو ذلك فهذه كلها خير محض وهي حسنة محبوبة في حق كل احد من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ومن قال ان هذه المقامات تكون للامة دون الخاصة فقد غلط في ذلك ان اراد خروج الخاصة عنها فان هذه لا يخرج عنها مؤمن قط وانما يخرج عنها كافر او منافق وقد تكلم بعضهم في ذلك بكلام بيانا غلطه فيه وانه تقصير في تحقيق هذه المقامات بكلام مبسوط وليس هذا موضعه ولكن هذه المقامات ينقسم الناس فيها الى خصوص وعموم فالخاصة خاصها وللامة عامها مثال ذلك ان هؤلاء قالوا ان التوكل مناضلة عن النفس في طلب القوت والخاص لا يناضل عن نفسه وقالوا المتوكل يطلب بتوكله امرا من الامور والعارف يشهد الامور بفروعها منها فلا يطلب شيئا فيقال اما الاول فان التوكل اعم من التوكل في مصالح الدنيا فان المتوكل يتوكل على الله في صلاح قلبه ودينه وحفظ لسانه وارادته وهذا اهم الامور اليه ولهذا يناجي ربه في كل صلاة بقوله {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} الفاتحة 5 كما في قوله تعالى {فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ} هود 123 وقوله { عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أَنِيبُ } هود 88 وقوله { قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ } الرعد 30 فهو قد جمع بين العبادة والتوكل في عدة مواضع لان هذين يجمعان الدين كله ولهذا قال من قال من السلف ان الله جمع الكتب المنزلة في القرآن وجمع علم القرآن في المفصل وجمع علم المفصل في فاتحة الكتاب وجمع علم فاتحة الكتاب في قوله {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} الفاتحة 5 وهاتان الكلمتان هما الجامعتان اللتان للرب والعبد كما في الحديث الذي في صحيح مسلم عن ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال يقول الله سبحانه قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين نصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول العبد الحمد لله رب العالمين يقول الله حمدني عبدي يقول العبد الرحمن الرحيم يقول الله اثنى علي عبدي يقول العبد مالك يوم الدين يقول الله مجدني عبدي يقول العبد اياك نعبد و اياك نستعين يقول الله فهذه الآية بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل يقول العبد اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين يقول الله فهو لاء لعبدي ولعبدي ما سأل فالرب سبحانه له نصف الثناء والخير والعبد له نصف الدعاء والطلب وهاتان جامعتان ما للرب سبحانه وما للعبد فايك نعبد و اياك نستعين للعبد وفي الصحيحين عن معاذ رضي الله عنه قال كنت رديفا للنبي صلى الله عليه وسلم على حمار فقال يا معاذ اتدري ما حق الله على العباد قلت الله ورسوله ما حق العباد على الله اذا فعلوا ذلك قلت الله ورسوله اعلم قال حقهم عليه ان لا يعذبهم والعبادة هي الغاية التي خلق الله لها العباد من جهة امر الله ومحبهه ورضاه كما قال تعالى { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } الذاريات 56 وبها ارسل الرسل وانزل الكتب وهي اسم يجمع كمال الحب لله ونهايته وكمال الذل لله ونهايته فالحب الخلي عن ذل والذل الخلي عن حب لا يكون عبادة وانما العبادة ما يجمع كمال الا مريد ولهذا كانت العبادة لا تصلح الا لله وهي وان كانت منفعتها للعبد والله غني عن العالمين فهي له من جهة محبهه لها ورضاه بها ولهذا كان الله اشد فرحا بتوبة العبد من الفاقد لراحته عليها طعامه وشرابه في ارض دوية مهلكة اذا نام ايسا منها ثم استيقظ فوجدها فانه اشد فرحا بتوبة عبده من هذا براحتته وهذا يتعلق به امور جليله قد بسطانها وشرحناها في غير هذا الموضوع والتوكل والاستعانة للعبد لانه هو الوسيلة والطريق الذي ينال به مقصوده ومطلوبه من العبادة فالاستعانة كالدعاء والمسئلة وقد روى الطبراني في كتاب الدعاء عن النبي قال يقول الله عز وجل يا ابن آدم إنما هي أربع واحدة لي وواحدة لك وواحدة بيني وبينك وواحدة بينك وبين خلقي فاما التي لي فتعبدني لا تشرك

بي شيئاً واما التي هي لك فعملك اجازيك به احوج ما تكون اليه واما التي بينى وبينك فمفك الدعاء وعلى الاجابة واما التي بينك وبين خلقى فأت للناس ما تحب ان يأتوا اليك وكون هذا لله وهذا للعبد هو باعتبار تعلق المحبة والرضا ابتداء فان العبد ابتداء يحب ويريد ما يراه ملائماً له والله تعالى يحب ويرضى ما هو الغاية المقصودة فى رضاه ويحب الوسيلة تبعاً لذلك والا فكل أمور به فمفكته عائدة على العبد وكل ذلك يحبه الله ويرضاه وعلى هذا فالذي ظن ان التوكل من المقامات العامة ظن ان التوكل لا يطلب به الا حظوظ الدنيا وهو غلط بل التوكل فى الامور الدينية اعظم وايضا التوكل من الامور الدينية التى لا تتم الواجبات والمستحبات الا بها والزاهد فيها زاهد فيما يحبه الله ويأمر به ويرضاه و الزهد المشروع هو ترك الرغبة فيما لا ينفع فى الدار الآخرة وهو فضول المباح التى لا يستعان بها على طاعة الله كما ان الورع المشروع هو ترك ما قد يضر فى الدار الآخرة وهو ترك المحرمات والشبهات التى لا تستلزم تركها ترك ما فعله ارجح منها كالواجبات فاما ما ينفع فى الدار الآخرة بنفسه او يعين على ما ينفع فى الدار الآخرة فالزهد فيه ليس من الدين بل صاحبه داخل فى قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتٍ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ } المائدة 87 كما ان الاشتغال بفضول المباحات هو ضد الزهد المشروع فان اشتغل بها عن فعل واجب او فعل محرم كان عاصياً والا كان منقوصاً عن درجة المقربين الى درجة المقتصدين و ايضا فان التوكل هو محبوب لله مرضي له مأمور به دائماً وما كان محبوباً لله مرضياً له مأموراً به دائماً لا يكون من فعل المقتصدين دون المقربين فهذه ثلاثة اجوبة عن قولهم المتوكل يطلب حظوظه واما قولهم ان الامور قد فرغ منها فهذا نظير ما قاله بعضهم فى الدعاء انه لا حاجة اليه لان المطلوب ان كان مقدرًا فلا حاجة اليه وان لم يكن مقدرًا لم ينفع الدعاء وهذا القول من افسد الاقوال شرعاً وعقلاً وكذلك قول من قال التوكل والدعاء لا يجلب به منفعة ولا يدفع به مضرة وانما هو عبادة محضة وان حقيقة التوكل بمنزلة حقيقة التوفيق المحض وهذا وان كان قاله طائفة من المشائخ فهو غلط ايضا وكذلك قول من قال ان الدعاء انما هو عبادة محضة فهذه الاقوال وما اشبهها يجمعها اصل واحد وهو ان هؤلاء ظنوا ان كون الامور مقدرًا مقضية يمنع ان تتوقف على اسباب مقدرًا ايضا تكون من العبد ولم يعلموا ان الله سبحانه يقدر الامور ويقضها بالاسباب التى جعلها معلقة بها من افعال العباد وغير افعالهم ولهذا كان طرد قولهم يوجب تعطيل الاعمال بالكلية وقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم وآله وسلم عن هذا الاصل مرات فأجاب عنه كما اخرجنا فى الصحيحين عن عمران بن حصين قال قيل لرسول الله وآله وسلم يا رسول الله أعلم اهل الجنة من اهل النار قال نعم قالوا فقيم العمل قال كل ميسر لما خلق له وفى الصحيحين عن علي بن ابي طالب قال كنا فى جنازة فيها رسول الله فجلس معه مخرصة فجعل ينكت بالمخرصة فى الارض ثم رفع رأسه وقال ما من نفس منفوسة الا وقد كتبت مكانها من النار او الجنة الا وقد كتبت شقية او سعيدة قال فقال رجل من القوم يا نبي الله افلا يمكث على كتابنا وندع العمل فمن كان من اهل السعادة ليكونن الى السعادة واما اهل الشقاوة ليكونن الى الشقاوة قال اعملوا فكل ميسر لما خلق له اما اهل السعادة فييسرون للسعادة واما اهل الشقاوة فييسرون للشقاوة ثم قال نبي الله { فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى } {5} وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى } {6} فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى } {7} وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى } {8} وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى } {9} فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى } {10} الليل 5-6 اخرجه الجماعة فى الصحاح والسنن والمسانيد وروى الترمذى ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم سئل فقيل يا رسول الله ارأيت ادوية ننداوى بها ورقى نسترقه بها وتقى نقيها هل ترد من قدر الله شيئاً فقال هي من قدر الله وقد جاء هذا المعنى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فى عدة احاديث فبين صلى الله عليه وسلم وآله وسلم ان تقدم العلم والكتاب بالسعيد والشقي لا ينافى ان تكون سعادة هذا بالاعمال الصالحة وشقاوة هذا بالاعمال السيئة فانه سبحانه يعلم الامور على ما هي عليه وكذلك يكتبها فهو يعلم ان السعيد يسعد بالاعمال الصالحة والشقي يشقى بالاعمال السيئة فمن كان سعيداً يبسر للاعمال الصالحة التى تقضى السعادة ومن كان شقياً يبسر للاعمال السيئة التى تقضى الشقاوة وكلاهما ميسر لما خلق له وهو ما يصير اليه من مشيئة

الله العامة الكونية التي ذكرها الله سبحانه في كتابه في قوله تعالى { وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ }
{118} {إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ} {119} {هود} 118- 119 واما ما خلقوا له من محبة
الله ورضاه وهو إرادته الدينية التي امروا بموجبها فذلك مذكور في قوله { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ
وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } الذاريات 56 والله سبحانه قد بين في كتابه في كل واحدة من الكلمات
و الامر و الإرادة و الاذن و الكتاب و الحكم و القضاء و
التحريم ونحو ذلك ما هو ديني موافق لمحبة الله ورضاه وامره الشرعي وما هو كوني موافق
لمشيئته الكونية مثال ذلك انه قال في الامر الديني { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ
ذِي الْقُرْبَى } النحل 90 وقال تعالى { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا } النساء 58
ونحو ذلك وقال في الكوني { إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } يس 82 وكذلك
قوله { وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُنْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا
{الإسراء} 16 على إحدى الاقوال في هذه الآية وقال في الإرادة الدينية { يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ
الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ } البقرة 185 { يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنْنَ الذِّينِ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ
عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } النساء 26 { مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ
{المائدة} 6 وقال في الإرادة الكونية { وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلُوا وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ
{البقرة} 253 وقال { فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ
ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ } الأنعام 125 وقال نوح عليه السلام { وَلَا يَتَفَعَّلُكُمْ نَصْحِي
إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ } هود 34 وقال تعالى { إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ
شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } يس 82 وقال تعالى في الاذن الديني { مَا قَطَعْتُمْ مِّن لِّينَةٍ
أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُسُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ } الحشر 5 وقال تعالى في
الكوني { وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ } البقرة 102 وقال تعالى في
القضاء الديني { وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ } الإسراء 23 اي امر وقال تعالى في
الكوني { فَفَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ } فصلت 12 وقال تعالى في الحكم الديني {
أَحَلَّتْ لَكُمْ بِهِمَهُ الْأَنْعَامَ إِلَّا مَا يُنْتَلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحْلِي الصَّيِّدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ
{المائدة} 1 وقال تعالى { ذَلِكَ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ } الممتحنة 10 وقال تعالى في الكوني
عن ابن يعقوب { فَلَنْ أْبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ
{يوسف} 80 وقال تعالى { قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ
{الأنبياء} 112 وقال تعالى في التحريم الديني { حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالِدُ وَالْحُمُ الْأَخْزِيرِ
{المائدة} 3 { حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ } النساء 23 الآية وقال تعالى في التحريم
الكوني { فَإِنَّهَا مُحْرَمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ } المائدة 26 وقال تعالى
{ وَالذِّينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ } {24} { لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ } {25} {المعارج} 24-25 وقال تعالى في
الكلمات الدينية { وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ } البقرة 124 وقال تعالى في الكونية
{ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا } الأعراف 137 ومنه قوله المستفيض
عنه من وجوه في الصحاح والسنن والمسانيد انه كان يقول في استعاذته اعوذ بكلمات الله
التامات التي لا يجاوزهن برولا فاجر ومن المعلوم ان هذا هو الكوني الذي لا يخرج منه شيء
عن مشيئته وتكوينه واما الكلمات الدينية فقد خالفها الفجار بمعصيته والمقصود هنا انه بين ان
العواقب التي خلق لها الناس من سعادة وشقاوة يبسون لها بالاعمال التي يصيرون بها الى ذلك
كما ان سائر المخلوقات كذلك فهو سبحانه يخلق الولد وسائر الحيوان في الارحام بما يقدره من
اجتماع الابوين على النكاح واجتماع المائين في الرحم فلو قال الانسان انا اتوكل ولا أطأ زوجتي
فان كان قد قضي لى بولد وجد والا لم يوجد ولا حاجة الى وطء كان احمق بخلاف ما اذا وطئ
وعزل الماء فان عزل الماء لا يمنع انعقاد الولد اذا شاء الله اذ قد يسبق الماء بغير اختياره
ومن هذا ما ثبت في الصحيحين عن ابي سعيد الخدري قال خرجنا مع رسول الله في غزوة
بنى المصطلق فاصبنا سبيا من العرب فاشتبهنا النساء واشتدت علينا العزبة واحببنا العزل فسألنا
عن ذلك رسول الله فقال ما عليكم الا تفعلوا فان الله قد كتب ما هو خالق الى يوم القيامة وفي

صحيح مسلم عن جابر ان رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال ان لي جارية هي خادمتنا وسانيتنا في النخل وانا اطوف عليها واكره ان تحمل فقال اعزل عنها ان شئت فانه سيأتيها ما قدر لها وهذا مع ان الله سبحانه قادر على ما قد فعله من خلق الانسان من غير ابوين كما خلق آدم ومن خلقه من اب فقط كما خلق حواء من ضلع آدم القصير ومن خلقه من ام فقط كما خلق المسيح بن مريم عليه السلام لكن خلق ذلك بأسباب اخرى غير معتادة وهذا الموضوع وان كان انما يجده الزنادقة المعطلون للشرائع فقد وقع في كثير من دقه كثير من المشايخ المعظمين يسترسل احدهم مع القدر غير محقق لما امر به ونهى عنه ويجعل ذلك من باب التفويض والتوكل والجري مع الحقيقة القدرية ويحسب ان قول القائل ينبغي للعبد ان يكون مع الله كالصبي بين يدي الغاسل يتضمن ترك العمل بالامر والنهي حتى يترك ما امر به ويفعل ما نهى عنه وحتى يضعف عنده النور والفرقان الذي يفرق به بين ما امر الله به واحبه ورضيه وبين ما نهى عنه وابعضه وسخطه فيسوى بين ما فرق الله بينه كما قال تعالى {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ} الجاثية 21 وقال تعالى {أَفَجَعَلْنَا الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ} 35 {مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ} 36 {القم 35-36 وقال تعالى {أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ} ص 28 وقال تعالى {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ} الزمر 9 وقال تعالى {وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ} 19 {وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ} 20 {وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحَرُورُ} 21 {وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ} 22 {فاطر 19-22 وامثال ذلك حتى يفضي الامر بغلاتهم الى عدم التمييز بين الامر بالمأمور النبوي الالهي الفرقاني الشرعي الذي دل عليه الكتاب والسنة وبين ما يكون في الوجود من الاحوال التي تجري على ايدي الكفار والفجار فيشهدون وجه الجمع من جهة كون الجميع بقضاء الله وقدره وربوبيته وارادته العامة وأنه داخل في ملكه ولا يشهدون وجه الفرق الذي فرق الله به بين اوليائه واعدائه والابرار والفجار والمؤمنين والكافرين واهل الطاعة الذين اطاعوا امره الديني واهل المعصية الذين عصوا هذا الامر ويستشهدون في ذلك بكلمات نقلت عن بعض الاشياخ او ببعض غلطات بعضهم وهذا اصل عظيم من اعظم ما يجب الاعتناء به على اهل طريق الله السالكين سبيل الارادة ارادة الذين يريدون وجهه فانه قد دخل بسبب اهمال ذلك على طوائف منهم من الكفر والفسوق والعصيان مالا يعلمه الا الله حتى يصيروا معاونين على البغي والعدوان للمسلطين في الارض من اهل الظلم والعلو كالذين يتوجهون بقلوبهم في معاونة من يهوونه من اهل العلو في الارض والفساد ظانين انهم اذا كانت لهم احوال اثروا بها في ذلك كانوا بذلك من اولياء الله فان القلوب لها من التأثير اعظم مما للابدان لكن ان كانت سالحة كان تأثيرها سالحا وان كانت فاسدة كان تأثيرها فاسدا فالاحوال يكون تأثيرها محبوبا لله تارة ومكروها لله اخرى وقد تكلم الفقهاء على وجوب القود على من يقتل غيره في الباطن حيث يجب القود في ذلك ويستشهدون ببواطنهم وقلوبهم الامر الكوني ويعدون مجرد خرق العادة لاحدهم بكشف يكشف له او تأثير يوافق ارادته هو كرامة من الله له ولا يعلمون انه في الحقيقة اهانة وان الكرامة لزوم الاستقامة وان الله لم يكرم عبده بكرامة اعظم من موافقته فيما يحبه ويرضاه وهو طاعته وطاعة رسوله وموالاته اوليائه ومعاداة اعدائه وهؤلاء هم اولياء الله الذين قال الله فيهم {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} يونس 62 فإن كانوا موافقين له فيما اوجبه عليهم فهم من المقصدين وان كانوا موافقين فيما اوجبه واحبه فهم من المقربين مع ان كل واجب محبوب وليس كل محبوب واجبا واما ما يبئلي الله به عبده من السراء بخرق العادة او بغيرها او بالضراء فليس ذلك لاجل كرامة العبد على ربه ولا هوانه عليه بل قد يسعد بها قوم اذا اطاعوه في ذلك وقد يشقى بها قوم اذا عصوه في ذلك قال الله تعالى {فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ} 15 {وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ} 16 {الفجر 15-16 ولهذا كان الناس في هذه الامور على ثلاثة اقسام قسم ترتفع درجاتهم بخرق العادة اذا

استعملوها في طاعة الله وقوم يتعرضون بها لعذاب الله اذا استعملوها في معصية الله كبلعام وغيره وقوم تكون في حقهم بمنزلة المباحات والقسم الاول هم المؤمنون حقا المتبعون لنبيهم سيد ولد آدم الذي انما كانت خوارقه لحجة يقيم بها دين الله او لحاجة يستعين بها على طاعة الله ولكثرة الغلط في هذا الاصل نهى رسول الله عن الاسترسال مع القدر بدون الحرص على فعل الأمور الذي ينفع العبد فروى مسلم في صحيحه عن ابي هريرة قال قال رسول الله المؤمن القوي خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن وان اصابك شيء فلا تقل لو اني فعلت كان كذا وكذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل فان لو تفتح عمل الشيطان وفي سنن ابي داود ان رجلين اختصما الى النبي صلى الله عليه وسلم فقضى على احدهما فقال المقضى عليه حسبي الله ونعم الوكيل فقال رسول الله ان الله يلوم على العجز ولكن عليك بالكيس فاذا غلبك امر فقل حسبي الله ونعم الوكيل فأمر النبي لقوله تعالى {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} الفاتحة5 وقوله تعالى { فَأَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ } هود123 فان الحرص على ما ينفع العبد هو طاعة الله وعبادته اذ النافع له هو طاعة الله ولا شيء انفع له من ذلك وكل ما يستعان به على الطاعة فهو طاعة وان كان من جنس المباح قال النبي في الحديث الصحيح لسعد انك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله الا ازددت بها درجة ورفعته حتى اللقمة تضعها في في امرأتك فأخبر النبي ان الله يلوم على العجز الذي هو ضد الكيس وهو التقرير فيما يؤمر بفعله فان ذلك ينافى القدرة المقارنة للفعل وان كان لا ينافى القدرة المتقدمة التي هي مناط الامر والنهي فان الاستطاعة التي توجب الفعل تكون مقارنة له ولا تصلح الا لمقدورها كما ذكرها الله تعالى في قوله { مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ } هود20 وفي قوله { وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا } الكهف101 واما الاستطاعة التي يتعلق بها الامر والنهي فتلك قد يقترن بها الفعل وقد لا يقترن كما في قوله تعالى { وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا } آل عمران97 وقول النبي لعمران ابن حصين صل قائما فان لم تستطع فقايدا فان لم تستطع فعلى جنب فهذا الموضوع قد انقسم الناس فيه الى اربعة اقسام قوم ينظرون الى جانب الامر والنهي والعبادة والطاعة شاهدين لالهية الرب سبحانه الذي امروا ان يعبدوه ولا ينظرون الى جانب القضاء والقدر والتوكل والاستعانة وهو حال كثير من المتفكحة والمتعبدة فهم مع حسن قصدهم وتعظيمهم لحرمان الله ولشعائره يغلب عليهم الضعف والعجز والخذلان لان الاستعانة بالله والتوكل عليه واللجأ اليه والدعاء له هي التي تقوى العبد وتيسر عليه الامور ولهذا قال بعض السلف من سره ان يكون اقوى الناس فليتوكل على الله وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمرو ان رسول الله صفته في التوراة انا ارسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وحرزا للاميين انت عبدى ورسولي سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب بالاسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يجزي بالسيئة الحسنة ويعفو ويغفر ولن اقبضه حتى اقيم به الملة العوجاء فأفتح به اعينا عميا وأذانا صما وقلوبا غلفا بان يقولوا لا اله الا الله ولهذا روى ان حملة العرش انما اطاقوا حمل العرش بقولهم لا حول ولا قوة الا بالله وقد ثبت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم انها كنز من كنوز الجنة قال تعالى { وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ } الطلاق3 وقال تعالى { الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ } آل عمران173 الى قوله { فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } آل عمران175 وفي صحيح البخارى عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله { وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ } آل عمران173 قالها ابراهيم الخليل حين القى في النار وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم و قسم ثان يشهدون ربوبية الحق وافتقارهم اليه ويستعينون به لكن على اهوائهم واذواقهم غير ناظرين الى حقيقة امره ونهيه ورضاه وغضبه ومحبته وهذا حال كثير من المنفكرة والمتصوفة ولهذا كثيرا ما يعملون على الاحوال التي يتصرفون بها في الوجود ولا يقصدون ما يرضى الرب ويحبه وكثيرا ما يغلطون فيظنون ان معصيته هي مرضاته فيعودون الى تعطيل الامر والنهي ويسمون هذا حقيقة ويظنون ان هذه الحقيقة القدريية يجب الاسترسال معها دون مراعاة الحقيقة الأمرية الدينية

التي هي تحوى مرضاة الرب ومحبه وامره ونهيه ظاهرا وباطنا وهؤلاء كثيرا ما يسلبون احوالهم وقد يعودون الى نوع من المعاصي والفسوق بل كثير منهم يرتد عن الاسلام لان العقاب للنقوى ومن لم يقف عند امر الله ونهيه فليس من المتقين فهم يقعون فى بعض ما وقع المشركون فيه تارة بدعة يظنونها شرعة وتارة فى الاحتجاج بالقدر على الامر والله تعالى لما ذكر ما ذم به المشركين فى سورة الانعام والاعراف ذكر ما ابتدعه من الدين وجعله شرعه كما قال تعالى {وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَنْتُمْ لَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} الأعراف 28 وقد ذمهم على ان حرموا مالم يحرمه الله وان شرعوا مالم يشرعه الله وذكر احتجاجهم بالقدر فى قوله تعالى {سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ} الأنعام 148 ونظيرها فى النحل ويس والزخرف وهؤلاء يكون فيهم شبهة من هذا وهذا واما القسم الثالث وهو من اعرض عن عبادة الله واستعانته به فهؤلاء شر الاقسام و القسم الرابع هو القسم المحمود وهو حال الذين حققوا {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} الفاتحة 5 وقوله {فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ} هود 123 فاستعانوا به على طاعته وشهدوا انه الههم الذي لا يجوز ان يعبد الا اياه بطاعته وطاعة رسوله وانه ربهم الذي ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع وانه {مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ} فاطر 2 {وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ} يونس 107 {قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِيَ بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ} الزمر 38 ولهذا قال طائفة من العلماء الالتفات الى الاسباب شرك فى التوحيد ومحو الاسباب ان تكون اسبابا نقص فى العقل والاعراض عن الاسباب بالكلية قدح فى الشرع وانما التوكل المأمور به ما اجتمع فيه مقتضى التوحيد والعقل والشرع فقد تبين ان من ظن التوكل من مقامات عامة اهل الطريق فقد غلط غلطا شديدا وان كان من اعيان المشائخ كصاحب علل المقامات وهو من اجل المشائخ واخذ ذلك عنه صاحب محاسن المجالس وظهر ضعف حجة من قال ذلك لظنه ان المطلوب به حظ العامة فقط وظنه انه لا فائدة له فى تحصيل المقصود وهذه حال من جعل الدعاء كذلك وذلك بمنزلة من جعل الاعمال المأمور بها كذلك كمن اشتغل بالتوكل عن ما يجب عليه من الاسباب التى هى عبادة وطاعة مأمور بها فان غلط هذا فى ترك الاسباب المأمور بها التى هى داخله فى قوله تعالى {فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ} هود 123 كغلط الاول فى ترك التوكل المأمور به الذي هو داخل فى قوله تعالى {فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ} هود 123 لكن يقال من كان توكله على الله ودعاؤه له هو فى حصول مباحات فهو من العامة وان كان فى حصول مستحبات وواجبات فهو من الخاصة كما ان من دعاه وتوكل عليه فى حصول محرمات فهو ظالم لنفسه ومن اعرض عن التوكل فهو عاص لله ورسوله بل خارج عن حقيقة الايمان فكيف يكون هذا المقام للخاصة قال الله تعالى {وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ} يونس 84 وقال تعالى {إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} آل عمران 160 وقال تعالى {وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} المائدة 11 وقال تعالى {قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ} الزمر 38 الى قوله {قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ} الزمر 38 وقد ذكر الله هذه الكلمة {حَسْبِيَ اللَّهُ} الزمر 38 فى جلب المنفعة تارة وفى دفع المضرة اخرى فالأولى فى قوله تعالى {وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ} التوبة 59 الآية و الثانية فى قوله {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} آل عمران 173 وفى قوله تعالى {وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَنْتَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ} الأنفال 62 وقوله {وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ} التوبة 59 يتضمن الامر بالرضا والتوكل والرضا والتوكل يكتنفان المقدور فالتوكل قبل وقوعه والرضا بعد وقوعه ولهذا كان

النبى يقول فى الصلاة اللهم بعلمك الغيب وبقدرتك على الخلق احيني ما كانت الحياة خيرا لي وتوفى اذا كانت الوفاة خيرا لي اللهم انى اسألك خشيتك فى الغيب والشهادة واسألك كلمة الحق فى الغضب والرضا واسألك القصد فى الفقر والغنى واسألك نعيما لا ينفد واسألك قرة عين لا تنقطع اللهم انى اسألك قرة عين لا تنقطع اللهم انى اسألك الرضا بعد القضاء واسألك برد العيش بعد الموت واسألك لذة النظر الى وجهك واسألك الشوق الى لقائك من غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة اللهم زينا بزينة الايمان واجعلنا هداة مهتدين رواه احمد والنسائى من حيث عمار بن ياسر واما ما يكون قبل القضاء فهو عزم على الرضا لا حقيقة الرضا ولهذا كان طائفة من المشائخ يعزمون على الرضا قبل وقوع البلاء فاذا وقع انفسخت عزائمهم كما يقع نحو ذلك فى الصبر وغيره كما قال تعالى {وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَتُّونَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ} آل عمران 143 وقال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ } 2 { كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ } 3 { إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَتْهُمْ بُنْيَانًا مَرْصُورًا } 4 { الصف 2-4 نزلت هذه الآية لما قالوا لو علمنا أى الاعمال احب الى الله لعملناه فانزل الله سبحانه وتعالى آية الجهاد فكرهه من كرهه ولهذا كره للمرء ان يتعرض للبلاء بأن يوجب على نفسه مالا يوجبه الشارع عليه بالعهد والنذر ونحو ذلك او يطلب ولاية او يقدم على بلد فيه طاعون كما ثبت فى الصحيحين من غير وجه عن النبى انه نهى عن النذر وقال انه لا ياتى بخير وانما يستخرج به من البخيل وثبت عن فى الصحيحين انه قال لعبد الرحمن بن سمرة لاتسأل الامارة فانك ان اعطيتها عن مسألة وكلت اليها وان اعطيتها من غير مسألة اعنت عليها اذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيرا منها فأت الذى هو خير وكفر عن يمينك وثبت عنه فى الصحيحين انه قال فى الطاعون اذا سمعتم بة بأرض فلا تقدموا عليه واذا وقع بأرض وانتم بها فلا تخرجوا فرارا منه وثبت عنه فى الصحيحين انه قال لاتتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية ولكن اذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا ان الجنة تحت ظلل السيف وامثال ذلك مما يقتضى ان الإنسان لا ينبغى ان يسعى فيما يوجب عليه اشياء ويحرم عليه اشياء فيدخل بالوفاء كما يفعل كثير ممن يعاهد الله عهدا على امور وغالب هؤلاء يبتلون بنقض العهود ويقتضى ان الانسان إذا ابتلى فعليه ان يصبر ويثبت ولا ينكل حتى يكون من الرجال الموقنين القائمين بالواجبات ولا بد فى جميع ذلك من الصبر ولهذا كان الصبر واجبا باتفاق المسلمين على اداء الواجبات وترك المحظورات ويدخل فى ذلك الصبر على المصائب عن ان يجزع فيها والصبر عن اتباع اهواء النفوس فيما نهى الله عنه وقد ذكر الله الصبر فى كتابه فى اكثر من تسعين موضعا وقرنه بالصلاة فى قوله تعالى {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ} البقرة 45 { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ } البقرة 153³⁴³

³⁴³مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 18-39 و أمراض القلوب ج: 1 ص: 43-44 و التحفة

من راعى الأمر والقدر كما ذكر كان عبدا لله متوكلا عليه

قال تعالى { قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ
أَخْلِفُكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَآكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتِطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ
أُنِيبُ } {88} وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ
صَالِحٍ وَمَا قَوْمَ لُوطٍ مِّنكُمْ بِبَعِيدٍ } {89} وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ ثُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ } {90}

هود 88-90 والمؤمن مأمور بأن يفعل المأمور ويترك المحذور ويصبر على المقذور كما قال
تعالى في قصة يوسف { إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } يوسف 90
فالتقوى فعل ما أمر الله به وترك ما نهى الله عنه ولهذا قال الله تعالى { فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ
وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ } غافر 55 فأمره مع الاستغفار بالصبر
فإن العباد لا بد لهم من الاستغفار أولهم وآخرهم قال النبي في الحديث الصحيح يا أيها الناس
توبوا إلى ربكم فولدني نفسي بيده إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة
وقال انه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم مائة مرة وكان يقول
اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي واسرافي في أمري وما أنت أعلم به مني اللهم اغفر لي خطيئتي
وعمدى وهزلي وجمدي وكل ذلك عندي اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما
أعلنت وما أنت أعلم به مني أنت المقدم وأنت المؤخر وقد ذكر عن آدم أبي البشر انه استغفر
ربه وتاب إليه فاجتباه ربه فتاب عليه وهداه وعن ابليس أبي الجن لعنه الله أنه أصر متعلقا بالقدر
فلعنه وأقصاه فمن أذنب وتاب وندم فقد أشبهه أباه ومن أشبهه أباه فما ظلم قال الله تعالى {
وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا } {72} لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ
وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا } {73} الأحزاب 72-73
ولهذا قرن الله سبحانه بين التوحيد والاستغفار في غير آية كما قال تعالى { أَمَّا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ
فَأَسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ } فصلت 6 { فَأَعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرُ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ
وَالْمُؤْمِنَاتِ } محمد 19 وفي الحديث الذي رواه ابن أبي عاصم وغيره يقول الشيطان أهلكت
الناس بالذنوب وأهلكوني بلا إله إلا الله والاستغفار فلما رأيت ذلك بثنت فيهم الأهواء فهم يذنبون
ولا يتوبون لأنهم يحسبون انهم يحسنون صنعا وقد ذكر سبحانه عن ذي النون انه { فَنَادَى فِي
الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ } {87} فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ
وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ } {88} الانبياء 87-88 قال النبي دعوة أخى ذي النون ما دعا بها
مكروب الا فرج الله كربته وجماع ذلك انه لا بد له في الأمر من أصلين ولا بد له في القدر من
أصلين ففي الأمر عليه الإجتهد في الإمتثال علما وعملا فلا تزال تجتهد في العلم بما أمر الله به
والعمل بذلك ثم عليه أن يستغفر ويتوب من تفریطه في المأمور وتعديه الحدود ولهذا كان
من المشروع أن يختم جميع الاعمال بالاستغفار فكان النبي اذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثا
وقد قال الله تعالى { وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ } آل عمران 17 فقاموا بالليل وختموه بالاستغفار
وأخر سورة نزلت قول الله تعالى (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ } {1} وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ
اللَّهِ أَفْوَاجًا } {2} فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا } {3} النصر 1-3 وفي الصحيح انه كان
يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي يتأول القرآن
وأما في القدر فعليه أن يستعين بالله في فعل ما أمر به ويتوكل عليه ويدعوه ويرغب إليه
ويستعيذ به ويكون مفتقرا إليه في طلب الخير وترك الشر وعليه أن يصبر على المقذور
ويعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطاه لم يكن ليصيبه واذا آذاه الناس علم أن ذلك مقدر
عليه وهم مأمورون أن ينظروا إلى القدر في المصائب وأن يستغفروا من المعائب كما قال
تعالى { فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ } غافر 55
فمن راعى الأمر والقدر كما ذكر كان عبدا لله متوكلا عليه مستعينا به متوكلا عليه من الذين أنعم
الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا وقد جمع الله
سبحانه بين هذين الأصلين في مواضع كقوله { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } الفاتحة 5 وقوله {

فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ { هود 123 } وقوله { عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ } الشورى 10 { عَلَيْهِ }
 تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ { هود 88 } وقوله { وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا } 2 { وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا
 يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا } 3 {
 الطلاق 2-3 } فالعبادة لله والاستعانة به وكان النبي يقول عند الأضحية اللهم منك ولك فما لم
 يكن بالله لا يكون فانه لا حول ولا قوة إلا بالله وما لم يكن لله فلا ينفع ولا يدوم ولا يد في
 عبادته من أصلين أحدهما اخلاص الدين له والثاني موافقة أمره الذي بعث
 به رسله ولهذا كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول فى دعائه اللهم اجعل عملى كله صالحا
 واجعله لوجهك خالصا ولا تجعل لأحد فيه شيئا وقال الفضيل بن عياض فى قوله تعالى {
 لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا } الملك 2 قال أخلصه وأصوبه قالوا يا أبا على ما أخلصه وأصوبه قال
 إذا كان العمل خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل حتى يكون
 خالصا صوابا والخالص أن يكون لله والصواب أن يكون على السنة³⁴⁴

"إذا سألت فاسئل الله وإذا استعنت فاستعن بالله"

الدعاء قصد المدعو و التوجه إليه إما على وجه المسألة و إما على وجه العبادة المحضة لأن
 دعاء الشيء هو طلبه و إرادته سواء طلب لذاته أو للأمر منه و من ذلك قوله تعالى { وَقَالَ رَبُّكُمْ
 ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ } غافر 60 فإنه فسر بالمسألة و بالعبادة و قوله تعالى { وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا
 آخَرَ } القصص 88 فان الدعاء فى هذه المواضع يراد به نفس اتخاذ المدعو ربا و إليها بحيث
 يسأل و يعبد و قد فصل معنى الدعاء بقوله { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } الفاتحة 5 و قوله تعالى
 { فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ } هود 123 و فى قوله { عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ } هود 88 و نحو ذلك
 من الآي فهو يعبد من حيث هو اله و يسأل من حيث هو رب و إن كان كل عابد سائلا و طالبا و
 كل سائل عابدا و قاصدا من جهة الإلتزام فسميت العبادات لله المحضة مثل الصلاة و الذكر و
 السؤال و الركوع و السجود و الطواف صلاة أو هي دعاء لله و عبادة لله بلا توسط شيء آخر و
 لهذا قال ابن مسعود ما دمت تذكر الله فأنت فى صلاة و إن كنت فى السوق³⁴⁵

وتوحيد الله وإخلاص الدين له فى عبادته وإستعانته فى القرآن كثير جدا بل هو قلب الإيمان وأول
 الإسلام وأخره كما قال النبي صلى الله عليه وسلم أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله
 إلا الله وأن محمدا رسول الله وقال إني لأعلم كلمة لا يقولها عند الموت أحد إلا وجد روحه
 لها روحا وقال من كان آخر كلامه لا إله إلا الله وجبت له الجنة وهو قلب الدين
 والإيمان وسائر الأعمال كالجوارح له وقول النبي إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل أمرى ما

³⁴⁴مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 121- 123

³⁴⁵شرح العمدة ج: 4 ص: 29

نوى فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر اليه فبين بهذا أن النية عمل القلب وهي أصل العمل وإخلاص الدين لله وعبادة الله وحده ومتابعة الرسول فيما جاء به هو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وهو دين الإسلام العام الذي بعث الله به جميع الرسل كما قال تعالى {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} النحل36 وقال النبي لمعاذ بن جبل يا معاذ أتدرى ما حق الله على عباده قلت الله ورسوله أعلم قال حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك أن لا يعذبهم وقال لابن عباس إذا سألت فاسئل الله وإذا استعنت فاستعن بالله و قال تعالى { قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَأَكُم عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أَنِيبُ } 88 { وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمٌ لَّوِطٌ مِّنكُمْ بِبَعِيدٍ } 89 { وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ } 90 { هود88-90

346

فتوحيد الله وإخلاص الوجه والعمل له عبادة وإستعانة هي قطب رحى الدين وذلك أن العبد بل كل حي بل وكل مخلوق سوى الله هو فقير محتاج الى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره والمنفعة للحي هي من جنس النعيم واللذة والمضرة هي من جنس الألم والعذاب فلايد له من أمرين أحدهما هو المطلوب المقصود المحبوب الذي ينتفع ويلتذ به والثاني هو المعين الموصل المحصل لذلك المقصود والمانع من دفع المكروه وهذان هما الشيطان المنفصلان الفاعل والغاية فهنا أربعة أشياء أحدها أمر هو محبوب مطلوب الوجود والثاني أمر مكروه مبغض مطلوب العدم والثالث الوسيلة الى حصول المطلوب المحبوب والرابع الوسيلة الى دفع المكروه فهذه الأربعة الأمور ضرورية للعبد بل ولكل حي لا يقوم وجوده وصلاحه إلا بها وأما ما ليس بحي فالكلام فيه على وجه آخر إذا تبين ذلك فبيان ما ذكرته من وجوه أحدها أن الله تعالى هو الذي يحب أن يكون هو المقصود المدعو المطلوب وهو المعين على المطلوب وما سواه هو المكروه وهو المعين على دفع المكروه فهو سبحانه الجامع للأمر الأربعة دون ما سواه وهذا معنى قوله {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} الفاتحة5 فإن العبودية تتضمن المقصود المطلوب لكن على أكمل الوجوه والمستعان هو الذي يستعان به على المطلوب فالأول من معنى الألوهية والثاني من معنى الربوبية إذ الاله هو الذي يؤله فيعبد محبة وإنابة وإجلالا وإكراما والرب هو الذي يربي عبده فيعطيه خلقه ثم يهديه الى جميع أحواله من العبادة وغيرها وكذلك قوله تعالى {عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أَنِيبُ} هود88 وقوله { فَأَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ } هود123 وقوله { عَلَيْنِكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ } الممتحنة4 وقوله تعالى { وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ } الفرقان58 وقوله تعالى { عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ } الرعد30 وقوله { وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا } 8 { رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا } 9 { المزملم8-9 فهذه سبعة مواضع تنتظم هذين الأصلين الجامعين³⁴⁷

346مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 72

347مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 20

فالعباداة والإستعانة فله وحده لا شريك له وقد جمع بينهما فى مواضع كقوله { عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ } هود 88³⁴⁸

الاستغفار من أعظم الحسنات

قال تعالى { قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ } {88} وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمٌ لَّوِطٌ مِّنْكُمْ بِبَعِيدٍ {89} وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ {90} هود 88-90 أن التوبة فرض على العباد دائما واقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم حيث يقول فى الحديث الصحيح أيها الناس توبوا إلى ربكم فوالذى نفسى بيده انى لاستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم مائة مرة وفى رواية أكثر من سبعين مرة وأخر سورة نزلت عليه (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ {1} وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا {2} فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا {3} النصر 1-3³⁴⁹

وما رواه البخاري عن شداد بن أوس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم سيد الاستغفار أن يقول العبد اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت من قالها إذا أصبح موقنا بها فمات في يومه دخل الجنة ومن قالها إذا أمسى موقنا بها فمات من ليلته دخل الجنة فالعبد دائما بين نعمة من الله يحتاج فيها إلى شكر وذنوب منه يحتاج فيه إلى أستغفار وكل من هذين من الأمور اللازمة للعبد دائما فإنه لا يزال يتقلب في نعم الله وآلائه ولا يزال محتاجا إلى التوبة والاستغفار ولهذا كان سيد ولد آدم وإمام المتقين يستغفر في جميع الأحوال وقال صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح الذى رواه البخاري أيها الناس توبوا إلى ربكم فإنى أتوب إلى الله فى اليوم مائة مرة وقال عبد الله بن عمر كنا نعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى المجلس الواحد يقول رب أغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الرحيم مائة مرة وقال إنى لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم اثنتين وسبعين مرة وفى صحيح مسلم أنه قال إنه

³⁴⁸مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 69

³⁴⁹مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 280

ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة ولهذا شرع الاستغفار في خواتيم الأعمال وفي الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثا وقال اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام قال الله تعالى { **وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ** } هو 90 ولهذا جاء في الحديث يقول الشيطان أهلك الناس بالذنوب وأهلكوني بلا إله إلا الله والاستغفار وكفارة المجلس التي كان يختم بها المجلس والوضوء سبحانك الله وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك والله أعلم وصلى الله على محمد وسلم³⁵⁰

الاستغفار يخرج العبد من الفعل المكروه إلى الفعل المحبوب من العمل الناقص إلى العمل التام ويرفع العبد من المقام الأدنى إلى الأعلى منه والأكمل فان العابد لله والعارف بالله في كل يوم بل في كل ساعة بل في كل لحظة يزداد علما بالله وبصيرة في دينه وعبوديته بحيث يجد ذلك في طعامه وشرابه ونومه ويقظته وقوله وفعله ويرى تقصيره في حضور قلبه في المقامات العالية واعطائها حقها فهو يحتاج إلى الاستغفار آناء الليل وأطراف النهار بل هو مضطر إليه دائما في الأقوال والأحوال في الغرائب والمشاهد لما فيه من المصالح وجلب الخيرات ودفع المضرات وطلب الزيادة في القوة في الأعمال القلبية والبدنية اليقينية الايمانية وقد ثبتت دائرة الاستغفار بين أهل التوحيد واقترانها بشهادة أن لا إله إلا الله من أولهم إلى آخرهم ومن آخرهم إلى أولهم ومن الأعلى إلى الأدنى وشمول دائرة التوحيد والاستغفار للخلق كلهم وهم فيها درجات عند الله ولكل عامل مقام معلوم فشهادة أن لا إله إلا الله بصدق ويقين تذهب الشرك كله دقه وجله خطاه وعمده أوله وآخره وسره وعلانيته وتأتى على جميع صفاته وخفاياه ودقائقه والاستغفار يمحو ما بقى من عثراته ويمحو الذنب الذى هو من شعب الشرك فان الذنوب كلها من شعب الشرك فالتوحيد يذهب أصل الشرك والاستغفار يمحو فروعه فابلق الثناء قول لا إله إلا الله وأبلغ الدعاء قول أستغفر الله فأمره بالتوحيد والاستغفار لنفسه ولأخوانه من المؤمنين وقال إياك والنظر في كتب أهل الفلسفة الذين يزعمون فيها أنه كلما قوى نور الحق وبرهانه في القلوب خفى عن المعرفة كما يبهر ضوء الشمس عيون الخفافيش بالنهار فاحذر مثل هؤلاء عليك بصحبة أتباع الرسل المؤيدين بنور الهدى وبراهين الايمان أصحاب البصائر في الشبهات والشهوات الفارقين بين الواردات الرحمانية والشيطانية العالمين العاملين { **أُولَئِكَ جِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ جِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** } المجادلة 22 وقال التوبة من أعظم الحسنات والحسنات كلها مشروط فيها الاخلاص لله وموافقة أمره باتتباع رسوله والاستغفار من أكبر الحسنات وبابه واسع فمن أحس بتقصير في قوله أو عمله أو حاله أو رزقه أو تقلب قلب فعلية بالتوحيد والاستغفار ففيهما الشفاء إذا كانا بصدق وإخلاص وكذلك إذا وجد العبد تقصيرا في حقوق القرابة والأهل والأولاد والجيران والاخوان فعليه بالدعاء لهم والاستغفار قال حذيفة بن اليمان للنبي صلى الله عليه وسلم إن لى لسانا ذربا على أهلى فقال له أين أنت من الاستغفار إنى لأستغفر الله فى اليوم أكثر من سبعين مرة³⁵¹

³⁵⁰أمراض القلوب ج: 1 ص: 80

³⁵¹مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 696-698

الرد على انكار الجهمية المجبرة للوازم كرم الله سبحانه ورحمته وحكمته

قال تعالى { قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ
أُخَالِفُكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَآكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتِطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ
أُنِيبُ } {88} وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ
صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُمْ بِبَعِيدٍ } {89} وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ } {90}

هود 88-90 وأن المنكرين لكونه يحب من الجهمية ومن وافقهم حقيقة قولهم أنه لا يستحق أن يعبد كما أن قولهم إنه يفعل بلا حكمة ولا رحمة يقتضي أنه لا يحمد فهم إنما يصفونه بالقدرة والقهر وهذا إنما يقتضي الإجلال فقط لا يقتضي الإكرام والمحبة والحمد وهو سبحانه الأكرم قال تعالى { إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ } {12} إِنَّهُ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ } {13} البروج 12-13 ثم قال { وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ } {14} ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ } {15} فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ } {16} البروج 14-16 وقال شعيب { وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ } هود 90 وفي أول ما نزل وصف نفسه بأنه الذي خلق وبأنه الأكرم والجهمية ليس عندهم إلا كونه خالفا مع تقصيرهم في إثبات كونه خالفا لا يصفونه بالكرم ولا الرحمة ولا الحكمة وإن أطلقوا ألفاظها فلا يعنون بها معناها بل يطلقونها لأجل مجيئها في القرآن ثم يلحدون في أسمائه ويحرفون الكلم عن مواضعه فتارة يقولون الحكمة هي القدرة وتارة يقولون هي المشيئة وتارة يقولون هي العلم وأن الحكمة وإن تضمنت ذلك واستلزمته فهي أمر زائد على ذلك فليس كل من كان قادر أو مريدا كان حكيما ولا كل من كان له علم يكون حكيما حتى يكون عاملا بعلمه قال ابن قتيبة وغيره الحكمة هي العلم والعمل به وهي أيضا القول الصواب فتتناول القول السديد والعمل المستقيم الصالح والرب تعالى أحكم الحاكمين وأحكم الحكماء والأحكام الذي في مخلوقاته دليل على علمه وهم مع سائر الطوائف يستدلون بالأحكام على العلم وإنما يدل إذا كان الفاعل حكيما يفعل لحكمة وهم يقولون إنه لا يفعل لحكمة وإنما يفعل بمشيئة تخص أحد المتماثلين بلا سبب يوجب التخصيص وهذا مناقض للحكمة بل هذا سفه وهو قد نزه نفسه عنه في قوله { لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَا مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ } {17} بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ } {18} الأنبياء 17-18 وقد أخبر أنه إنما خلق السموات والأرض وما بينهما بالحق وأنه لم يخلقها باطلا وأن ذلك ظن الذين كفروا وقال { أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا } {المؤمنون 115} وقال { أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى } {القيامة 36} أي مهملا لا يؤمر ولا ينهى وهذا إستفهام إنكار على من جوز ذلك على الرب والجهمية المجبرة تجوز ذلك عليه ولا تنزهه عن فعله وإن كان من منكرات الأفعال ولا تنعته بلوازم كرمه ورحمته وحكمته و عدله فيعلم أنه يفعل ما هو اللائق بذلك ولا يفعل ما يصاد ذلك بل تجوز كل مقدور أن يكون وأن لا يكون وإنما يجزم بأحدهما لأجل خبر سمعى أو عادة مطردة مع تناقضهم في الاستدلال بالخبر أخبار الرسل وعادات الرب كما بسط هذا في مواضع مثل الكلام على معجزات الأنبياء وعلى إرسال الرسل والأمر والنهي وعلى المعاد ونحو ذلك مما يتعلق بأفعاله وأحكامه الصادرة عن مشيئته فإنها صادرة عن حكمته وعن رحمته ومشيئته مستلزمة لهذا وهذا لا يشاء إلا مشيئة متضمنة للحكمة وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال الله أرحم بعباده من الوالدة بولدها³⁵²

ما ذكره الله عن أعداء الرسل تجد بعض ذلك فيمن أعرض عن ذكر الله و

عن تدبر كتابه

قال تعالى { قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ } هود91 و أما أهل البدع و الضلالة من الجهمية و نحوهم فإنهم جحدوا ما في كتب الله من المعاني و حرفوا الكلم عن مواضعه أو قالوا نحن كالأُميين لا نعلم الكتاب إلا أمانى أو قلوبنا غلف و قالوا لما جاء به الرسول من الكتاب و السنة نظير ما قالته الكفار { وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ } فصلت5 و { قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ } هود91 و هكذا قال هؤلاء لا نفقه كثيرا مما يقول الرسول و قالوا كما قال الذين يستمعون للرسول فإذا خرجوا من عنده { قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنفًا } محمد16 و صاروا كالذين قيل فيهم { وَإِذَا قُرَأَتِ الْقُرْآنُ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا } 45 { وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذُكِّرْتُ بِرَبِّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوْآ عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا } 46 { الإسراء45-46 فتدبر ما ذكره الله عن أعداء الرسل من نفي فقههم و تكذيبهم تجد بعض ذلك فيمن أعرض عن ذكر الله و عن تدبر كتابه و إتبع ما تتلوه الشياطين و ما توحيه إلى أوليائها و الله يهدينا صراطا مستقيما³⁵³

الله قريب مجيب لاستغفار المستغفرين التائبين اليه رحيم ودود بهم

الله سبحانه وتعالى هو العزيز الرحيم الغفور الودود المجيد الودود فعول من الود وقال شعيب { **وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ** } هود90 وقال تعالى { **وَهُوَ الْعَفُورُ** } الودود { البروج14 } ففرنه بالرحيم في موضع وبالغفور في موضع قال أبو بكر ابن الانباري الودود معناه المحب لعباده من قولهم وددت الرجل أوده ودا وودا وودا ويقال وددت الرجل ودادا وودادا وودادة وقال الخطابي هو اسم مأخوذ من الود وفيه وجهان أحدهما أن يكون فعولا في محل مفعول كما قيل رجل هيوب بمعنى مهيب و فرس ركوب بمعنى مركوب والله سبحانه وتعالى مودود في قلوب أوليائه لما يعرفونه من إحسانه اليهم والوجه الآخر أن يكون بمعنى الود أي أنه يود عباده الصالحين بمعنى أنه يرضى عنهم ويتقبل أعمالهم ويكون معناه أن يوددهم إلى خلقه كقوله { **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا** } مريم96 قلت قوله { **سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا** } مريم96 فسروها بأنه يحبهم ويحببهم الى عباده كما في الصحيحين

عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إذا أحب الله العبد نادى يا جبريل إني أحب فلانا فأحبه فيحبه جبريل ثم ينادي في السماء إن الله يحب فلانا فأحبه فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض وقال في البغض مثل ذلك إذ المقصود هنا ذكر اسمه الودود والاكثرون على ما ذكره ابن الأنباري وأنه فعول بمعنى فاعل أي هو الواد كما قرنه بالغفور وهو الذي يغفر وبالرحيم وهو الذي يرحم قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عيسى بن جعفر قاضي الري حدثنا سفيان في قوله **{ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ }** هود90 قال محب وقال قرئ على يونس حدثنا ابن وهب قال وقال ابن زيد قوله الودود قال الرحيم وقد ذكر فيه قولين القول الاول رواه من تفسير الوالبي عن ابن عباس قوله الودود قال الحبيب والثاني قول ابن زيد الرحيم وما ذكره الوالبي أنه الحبيب قد يراد به المعنيان أنه يحب ويحب فان الله يحب من يحبه وأوليأؤه يحبهم ويحبونه والبغوي ذكر الأمرين فقال وللودود معنيان أن يحب المؤمنين وقيل هو بمعنى المودود أي محبوب المؤمنين وقال أيضا في قوله **{ وَهُوَ الْعَفُورُ الْوَدُودُ }** البروج14 أي المحب لهم وقيل معناه المودود كالحلوب والركوب بمعنى المحلوب والمركوب وقيل يغفر ويود أن يغفر وقيل المتودد إلى أوليائه بالمغفرة قلت هذا للفظ معروف في اللغة أنه بمعنى الفاعل كقول النبي صلى الله عليه وسلم تزوجوا الودود الولود وفعول بمعنى فاعل كثير كالصبور والشكور وأما بمعنى مفعول فقليل وأيضا فان سياق القرآن يدل على أنه أراد أنه هو الذي يود عباده كما أنه هو الذي يرحمهم ويغفر لهم فان شعيبا قال **{ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ }** هود90 فذكر رحمته ووده كما قال تعالى **{ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ }** الروم21 وهو أراد وصفا يبين لهم أنه سبحانه يغفر الذنب ويقبل على التائب وهو كونه ودودا كما قال **{ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ }** البقرة222 وقد ثبت في الصحاح من غير وجه عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الله يفرح بتوبة التائب أشد من فرح من فقد راحلته بأرض دوية مهلكة ثم وجدها بعد اليأس فهذا الفرحة منه بتوبة التائب يناسب محبته له ومودته له وكذلك قوله في الآية الأخرى **{ وَهُوَ الْعَفُورُ الْوَدُودُ }** البروج14 فانه مثل قوله وهو الغفور الرحيم وأيضا فان كونه مودودا أي محبوبا يذكر على الوجه الكامل الذي يتبين اختصاصه به مثل اسم الآله فإن الآله المعبود هو مودود بذلك ومثل اسمه الصمد ومثل ذي الجلال والاکرام ونحو ذلك وكونه مودودا ليس بعجيب وإنما العجب جوده واحسانه فانه يتودد إلى عباده كما في الاثر يا عبدي كم أتودد اليك بالنعمة وأنت تتمقت إلي بالمعاصي ولا يزال ملك كريم يصعد إلي منك بعمل سيء وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال يقول الله تعالى من تقرب إلي شبرا تقربت إليه ذراعا ومن تقرب مني ذراعا تقربت إليه باعا ومن أتاني يمشي أتيته هرولة وجاء في تفسير اسمه الحنان المنان أن الحنان الذي يقبل على من أعرض عنه والمنان الذي يجود بالنوال قيل السؤال وأيضا فمبدأ الحب والود منه لكن اسمه الودود يجمع المعنيين كما قال الوالبي عن ابن عباس انه الحبيب وذلك أنه إذا كان يود عباده فهو مستحق لان يوده العباد بالضرورة ولهذا من قال انه يحب المؤمنين قال انهم يحبونه فان كثيرا من الناس يقول انه محبوب وهو لا يحب شيئا مخصوصا لكن محبته بمعنى مشيئته العامة ومن الناس من قال إنه لا يحب مع أنه يثبت محبته للمؤمنين فالقسمة في المحبة رباعية فالسلف وأهل المعرفة أثبتوا النوعين قالوا إنه يحب ويحب والجهمية والمعتزلة تنكر الأمرين ومن الناس من قال إنه يحبه المؤمنون وأما هو فلا يحب شيئا دون شيء ومنهم من عكس فقال بل هو يحب المؤمنين مع أن ذاته لا يحب كما يقولون إنه يرحم ولا يرحم فاذا قيل إن الودود بمعنى الواد لزم أن يكون مودودا بخلاف العكس فالصواب القطع بأن الودود وان كان ذلك متضمنا لأنه يستحق أن يود ليس هو بمعنى المودود فقط ولفظ الوداد بالكسر هو مثل المادة والتواد وذاك يكون من الطرفين كالتحاب وهو سبحانه لما جعل بين الزوجين مودة ورحمة كان كل منهما يود الآخر ويرحمه وهو سبحانه كما ثبت في الحديث الصحيح أرحم بعباده من الوالدة بولدها وقد بين الحديث الصحيح أن فرحه بتوبة التائب أعظم من فرح الفاقد ماله ومركوبه في مهلكة إذا وجدها بعد اليأس وهذا الفرحة يقتضي أنه أعظم مودة

لعبدته المؤمن من المؤمنين بعضهم لبعض كيف وكل ود في الوجود فهو من فعله فالذي جعل الود في القلوب هو أولى بالود كما قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما في قوله { سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا } مريم 96 قال يحبهم وقد دل الحديث الذي في الصحيحين على أن ما يجعله من المحبة في قلوب الناس هو بعد أن يكون هو قد أحبه وأمر جبريل أن ينادي بأن الله يحبه فنادي جبريل في السماء أن الله يحب فلانا فأحبوه³⁵⁴

وليس في القرآن وصف الرب تعالى بالقرب من كل شيء أصلاً بل قربه الذي في القرآن خاص لا عام كقوله تعالى { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ } البقرة 186 فهو سبحانه قريب ممن دعاه وكذلك ما في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري أنهم كانوا مع النبي في سفر فكانوا يرفعون أصواتهم بالتكبير فقال يا أيها الناس أربعوا على أنفسكم فانكم لا تدعون أصم ولا غائبا انما تدعون سميعة قريبا ان الذي تدعونه اقرب الى أحدكم من عنق راحلته فقال ان الذي تدعونه أقرب الى أحدكم لم يقل أنه قريب الى كل موجود وكذلك قول صالح عليه السلام { فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ } هود 61 هو كقول شعيب { **وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ** } هود 90 ومعلوم أن قوله { قَرِيبٌ مُّجِيبٌ } هود 61 مقرون بالتوبة والاستغفار أراد به قريب مجيب لاستغفار المستغفرين التائبين اليه كما أنه رحيم ودود بهم وقد قرن القريب بالمجيب ومعلوم أنه لا يقال انه مجيب لكل موجود وانما الاجابة لمن سألته ودعاه فذلك قربه سبحانه وأسماء الله المطلقة كاسمه السميع والبصير والغفور والشكور والمجيب والقريب لا يجب أن تتعلق بكل موجود بل يتعلق كل اسم بما يناسبه واسمه العليم لما كان كل شيء يصلح أن يكون معلوما تعلق بكل شيء وأما قوله { **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْنَاهُ مِمَّا نُوسِسُ بِهِ نَفْسَهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ** } 16 { **إِذْ يَتَلَفَّى الْمُتَلَفِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ** } 17 { **مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ** } 18 { **ق 16-18** } وقوله { **فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ** } 83 { **وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ** } 84 { **وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ** } 85 { **الواقعة 83-85** } فالمراد به قربه اليه بالملائكة وهذا هو المعروف عن المفسرين المتقدمين من السلف قالوا ملك الموت أدنى اليه من اهله ولكن لا تبصرون الملائكة وقد قال طائفة ونحن أقرب اليه بالعلم وقال بعضهم بالعلم والقدرة ولفظ بعضهم بالقدرة والرؤية وهذه الأقوال ضعيفة فانه ليس في الكتاب والسنة وصفه بقرب عام من كل موجود حتى يحتاجوا ان يقولوا بالعلم والقدرة والرؤية ولكن بعض الناس لما ظنوا أنه يوصف بالقرب من كل شيء تأولوا ذلك بأنه عالم بكل شيء قادر على كل شيء وكأنهم ظنوا أن لفظ القرب مثل لفظ المعية فان لفظ المعية في سورة الحديد والمجادلة في قوله تعالى { **هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** } الحديد 4 وقوله تعالى { **مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** } المجادلة 7 وقد ثبت عن السلف أنهم قالوا هو معهم بعلمه وقد ذكر ابن عبدالبر وغيره أن هذا إجماع من

الصحابة والتابعين لهم باحسان ولم يخالفهم فيه أحد يعتد بقوله وهو مأثور عن ابن عباس
والضحاك ومقاتل بن حيان وسفيان الثوري وأحمد بن حنبل وغيرهم³⁵⁵

الدين مجموع فى التوحيد والاستغفار

فالانسان ظالم جاهل كما قال تعالى { إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْأَحْزَابِ 72 } الى قوله { ظَلَمُوا جَهُولًا } الأحزاب 72 وانما غاية أولياء الله المتقين وحزبه المفلحين وجنده الغالبين التوبة وقد قال تعالى { فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا } النصر 3 وتوبة كل انسان بحسبه وعلى قدر مقامه وحاله ولهذا كان الدين مجموعا فى التوحيد والاستغفار قال تعالى { فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ } محمد 19 وقال تعالى { فَاسْتَغْفِرُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوا لَهُ } فصلت 6 وقال تعالى { قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَأَكُم عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ } { 88 } وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمَ لُوطٍ مِّنكُمْ بِبَعِيدٍ } { 89 } وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ ثَابَرُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ } { 90 } هود 88-90 ففعل جميع المأمورات وترك جميع المخظورات يدخل فى التوحيد فى قول لا اله الا الله فانه من لم يفعل الطاعات لله ويترك المعاصى لله لم يقبل الله عمله قال تعالى { إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ } المائدة 27 قال طلق بن حبيب التقوى ان تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو رحمة الله وان تترك معصية الله على نور من الله تخاف عذاب الله ولا بد لكل عبد من التوبة والاستغفار بحسب حاله والعبد اذا انعم الله عليه بالتوحيد فشهد ان لا اله الا الله مخلصا من قلبه والا له هو المعبود الذى يستحق غاية الحب والعبودية بالأجلال والاکرام والخوف والرجاء يفنى القلب بحب الله تعالى عن حب ما سواه ودعائه والتوكل عليه وسؤاله عما سواه وبطاعته عن طاعة ما سواه حلاه الله بالأمن والسرور والحبور والرحمة للخلق والجهاد فى سبيل الله فهو يجاهد ويرحم له الصبر والرحمة قال الله تعالى { وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ } البلد 17 وكلما قوى التوحيد فى قلب العبد قوى ايمانه وطمأنينته وتوكله ويقينه كقوله عز وجل { فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ } هود 123³⁵⁶

الله سبحانه وتعالى لا يحدث شيئا إلا بإحداث أسباب ودفع موانع

قال تعالى { وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ نَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ } { 93 } وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجِيتَنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ } { 94 } كَانَ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّمَدِينٍ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ } { 95 } هود 93-95 فإن الله سبحانه وتعالى لا يحدث شيئا إلا بإحداث أسباب ودفع موانع مثال ذلك غرق قوم نوح لم يكن ماء وجد بلا سبب بل أنزل الله ماء السماء وأنبع ماء

³⁵⁵مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 493-495

³⁵⁶مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 34

الأرض كما قال تعالى { كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ } {9} فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ } {10} فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ } {11} وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ } {12} وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْأَوْحِ وَدَسَّرَ } {13} تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءَ لِمَنْ كَانَ كُفِرَ } {14} وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ } {15} القمر 9-15 وكذلك قوم شعيب {وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاتِمِينَ } هود 94 وكل ما وجد في العالم من خوارق العادات آيات الأنبياء وغيرها لم يأت منها شيء إلا بأسباب تقدمته كآيات موسى من مثل مصير العصي حية كانت بعد أن ألقاها إما عند أمر الله بذلك لما ناداه من الشجرة ورأى النار الخارقة للعادة وإما عند مطالبة فرعون له بالآية وإما عند معارضة السحرة لتبتلع حبالهم وعصيهم وكذلك سائر آياته حتى إغراق فرعون كان بعد مسير الجيش وضربه البحر بالعصا وكذلك تفجر الماء من الحجر كان بعد أن ضرب الحجر بعصاه واستسقاء قومه إياه وهم في برية لا ماء عندهم وكذلك آيات نبينا صلى الله عليه وسلم مثل تكثير الماء كان بوضع يده فيه حتى ينبع الماء من بين الأصابع أي تفجر الماء من بين الأصابع لم يخرج من نفس الأصابع وكذلك البئر كان ماؤها يكثر إما بإلقائه سهما من كنانته فيها وإما بصبه الماء الذي بصق فيه فيها وكذلك المسيح كان يأخذ من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله إلى أمثال ذلك³⁵⁷

الحكم بين الشيين

والحكم بين الشيين بالتمائل أو التفاضل يستدعي معرفة كل منهما ومعرفة ما اتصف به من الصفات التي يقع بها التماثل والتفاضل كمن يريد أن يعرف أن البخاري أعلم من مسلم وكتابه أصح أو أن سيويه أعلم من الأخفش ونحو ذلك وقد فضل الله بعض النبيين على بعض كما قال تعالى { وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا } الإسراء 55 والكلام في شيين أحدهما في كون المفضل يستحق تلك المنزلة دون الفاضل وهذا غاية الجهل والظلم كقول الرافضة الذين يقولون إن عليا كان إماما عالما عادلا والثلاثة لم يكونوا كذلك وكذلك اليهود والنصارى الذين يقولون إن موسى كان رسولا ومحمد لم يكن كذلك فإن هذا في غاية الجهل والظلم بخلاف من اعترف باستحقاق الاثنين للمنزلة ولكن فضل المفضل فهذا أقل جهلا وظلما ومعلوم أن المرسلين يتفاضلون تارة في الكتب المنزلة عليهم وتارة في الآيات والمعجزات الدالة على صدقهم وتارة في الشرائع وما جاءوا به من العلم والعمل وتارة في أممهم فمن عنده علم وعدل فينظر في القرآن وفي غيره من الكتب كالنوراة والإنجيل أو في معجزات محمد ومعجزات غيره أو في شريعته وشريعة غيره أو في أمته وأمة غيره وجد له من التفضيل على غيره ما لا يخفى إلا على مفرط في الجهل أو الظلم فكيف يمكن مع هذا أن يقال هو كاذب مفتر وغيره هو النبي الصادق نعم كثير من أهل الكتاب لم يعرفوا من أخباره ما يبين لهم ذلك كما أن كثيرا من الرافضة لم يعرفوا من أخبار

الثلاثة ما يبين لهم فضيلتهم عن علي رضي الله عنه فهؤلاء في الجهل وطلب العلم عليهم فرض خصوصاً أمر النبوة فإن النظر في أمر من قال {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} الأعراف 158 مقدم على كل شيء إذ كان التصديق بهذا مستلزماً لغاية السعادة والتكذيب به مقتضياً لغاية الشقاوة فبالرسول يحصل الفرق بين السعداء والأشقياء وبين الحق والباطل والهدى والضلال والفرق بين أولياء الله وأعدائه وكما يسلك هذه الطريق العقلية في القياس والاعتبار بأن يعتبر حال محمد وكتابه وشرعه وأمتة بحال غيره وكتابه وشرعه وينظر هل هما متماثلان أو متفاضلان وأيها أفضل وإذا تبين أن حاله أفضل كان تصديقه أولى وامتنع أن يكون غيره صادقاً وهو كاذب بل لو كانا متماثلين وجب كونه صادقاً بل وكذلك لو كانا متقاربين وغيره أفضل فإن المتنبئ الكذاب لا يقارب الصادق بل بينهما من التباين ما لا يخفى إلا على أعمى الناس وكذلك نسلك هذه الطريق في جنس الأنبياء عليهم السلام مطلقاً وأممهم بأن تعرف أخبار من مضى من الأنبياء وأممهم وترى آثار هؤلاء وهؤلاء كما قال تعالى عن قوم شعيب {كَأَن لَّمْ يَخْتَفُوا فِيهَا إِلَّا بُعْدًا مُّؤَمَّرِينَ كَمَا بَعَدَتْ

ثَمُودٌ} هود 95³⁵⁸

لطائف لغوية

1- قال { وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَأَكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ } هود 84 أن جميع الأفعال مشتقة سواء كانت هي مشتقة من المصدر أو كان المصدر مشتقاً منها أو كان كل واحد منهما مشتقاً من الآخر بمعنى أن بينهما مناسبة في اللفظ والمعنى لا بمعنى أن أحدهما أصل والآخر فرع بمنزلة المعاني المتضايقة كالأبوة والبنوة أو كالأخوة من الجانبين ونحو ذلك فعلى كل حال إذا أمر بفعل كان نفس مصدر الفعل أمراً مطلوباً للأمر مقصوداً له كما في قوله { اعْبُدُوا اللَّهَ } هود 84 وفي قوله { وَاتَّقُوا اللَّهَ } البقرة 189 وفي قوله { وَأَحْسِنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } المائدة 93 وفي قوله { فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ } التغابن 8 وفي قوله { فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا } يونس 84 فإن نفس التقوى والإحسان والإيمان والعبادة والتوكل أمور مطلوبة مقصودة بل هي نفس المأمور به³⁵⁹

2- قال { وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَأَكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ } هود 84 عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد ومن هذا الباب لفظ العبادة فإذا أمر بعبادة الله مطلقاً دخل في عبادته كل ما أمر الله به فالتوكل عليه مما أمر به والاستعانة به مما أمر به فيدخل ذلك في مثل قوله { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } الذاريات 56 وفي قوله { وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا

³⁵⁸الجواب الصحيح ج: 5 ص: 136

³⁵⁹اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 51

تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا { النساء 36 } وقوله { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ } البقرة 21
 وقوله { إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ } الزمر 2 { قُلِ اللَّهُ أَعْبُدُ
 مُخْلِصًا لَهُ دِينِي } الزمر 14 وقوله { أَفَعَبَّرَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ } الزمر 64
 ثم قد يقرن بها اسم آخر كما في قوله { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } الفاتحة 5 وقوله { فَاعْبُدْهُ
 وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ } هود 123 وقول نوح { اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا } نوح 3³⁶⁰

3- قال تعالى { قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ
 أَنْ أُخَالِفَكُمُ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُم عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ
 وَإِلَيْهِ أُنِيبُ } هود 88 البينة من البيان و البينة هي السبيل البينة وهي الطريق البينة الواضحة
 وهي أيضا ما تبين بها الحق فهي بينه في نفسها مبينة لغيرها وقد تفسر بالبيان وهي الدلالة
 والإرشاد فتكون كالهدى كما يقال فلان على هدى وعلى علم فيفسر بمعنى المصدر والصفة
 والفاعل ومنه قوله { أَوْلَمْ تَأْتِيهِمْ بَيِّنَةٌ مَّا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ } طه 133 أي بيان ما فيها أو يبين ما
 فيها أو الأمر البين فيها وقد سمي الرسول بينة كما قال { حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ } {1} رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ
 {2} البينة 1- 2- فإنه يبين الحق والمؤمن على سبيل بينة ونور من ربه³⁶¹

4- قال تعالى { وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا
 الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ } هود 94 ورحمته اسم جامع لكل خير ودار الرحمة
 الخالصة هي الجنة

5- قال تعالى { وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ
 هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ } {93} { وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ
 مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ } {94} { كَان لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا إِلَّا بُعْدًا
 لِّمَدْيِنٍ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ } {95} هود 93-95³⁶²

³⁶⁰مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 65

³⁶¹مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 75

³⁶²مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 65

هود 96-123

{96} وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ {96} إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا
أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ {97} يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ
النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ {98} وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بئس
الرفد المرفود {99} ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَىٰ نَقَّصْنَاهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ
وَحَصِيدٌ {100} وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ
الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ
تَتَّبِيبٍ {101} وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ
شَدِيدٌ {102} إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَه
النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ {103} وَمَا نُوخِرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ {104} يَوْمَ
يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ {105} فَأَمَّا الَّذِينَ شَفَعُوا فِي
النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ {106} خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ
وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لَمَّا يُرِيدُ {107} وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا
فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ
غَيْرَ مَجْدُودٍ {108} فَلَا تَكُ فِي مَرِيَةٍ مِمَّا يَعْذُ هُوَ لَاءُ مَا يَعْذُونَ إِلَّا كَمَا
يَعْذُ آبَاؤُهُمْ مَنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوفُونَ نَصِيبُهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ {109} وَلَقَدْ آتَيْنَا
مُوسَىٰ الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقَضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ
لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ {110} وَإِنْ كَلَّا لَمَا لِيُوفِينَهِمْ رَبُّكَ أَعْمَالُهُمْ إِنَّهُ بِمَا
يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ {111} فَاسْتَقَمْ كَمَا أَمَرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا
تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ {112} وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ
مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ {113} وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ
وَرُفُفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبُنَّ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذَكَرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ {114}
وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ {115} فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ
قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ
وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ {116} وَمَا كَانَ رَبُّكَ
لِيَهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ {117} وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً
وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ {118} إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ
كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ {119} وَكَلَّا نَقُصُّ
عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنَبِّئُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ
وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ {120} وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا
عَامِلُونَ {121} وَانظُرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ {122} وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ

وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ {123}

لم يكفر أحد بالله ويدعي لنفسه الربوبية والإلهية مثل فرعون

قال تعالى {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ {96} إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَأْنَاهُ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ {97} يُقَدِّمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدَ الْمَورُودُ {98} وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بئسَ الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ {99} هود 96- 99 في قوله تعالى { يُقَدِّمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدَ الْمَورُودُ } هود 98 وزعمت طائفة من هؤلاء الاتحادية الذين ألدوا في أسماء الله وآياته أن فرعون كان مؤمنا وأنه لا يدخل النار وزعموا أنه ليس في القرآن ما يدل على عذابه بل فيه ما ينفية كقوله {النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ } غافر 46 قالوا فإنما أدخل آله دونه وقوله { يُقَدِّمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ } هود 98 قالوا إنما أوردهم ولم يدخلها قالوا ولأنه قد آمن أنه لا إله إلا الذي آمن به بنو إسرائيل ووضع جبريل الطين في فمه لا يرد إيمان قلبه وهذا القول كفر معلوم فساده باضطرار من دين الإسلام لم يسبق ابن عربي إليه فيما أعلم أحد من أهل القبلة بل ولا من اليهود ولا من النصارى بل جميع أهل الملل مطبقون على كفر فرعون فهذا عند الخاصة والعامة أبين من أن يستدل عليه بدليل فإنه لم يكفر أحد بالله ويدعي لنفسه الربوبية والإلهية مثل فرعون ولهذا تنى الله قصته في القرآن في مواضع فإن القصص إنما هي أمثال مضرورية للدلالة على الإيمان وليس في الكفار أعظم من كفره والقرآن قد دل على كفره وعذابه في الآخرة في مواضع أحدها قوله تعالى في القصص { فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَأْنَاهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ {32} قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ {33} وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَدِّبُونَ {34} قَالَ سَنُنْشِدُ عُضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْعَالَمُونَ {35} فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرٍ وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولَىٰ {36} وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ {37} وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانَ عَلَى الطَّيْنِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أُطْعَمُ إِلَى إِلَهٍ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ {38} وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ {39} فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانَظَرُ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ {40} وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ {41} وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ {42} القصص 32 - 42 فأخبر سبحانه أنه أرسله إلى فرعون وقومه وأخبر أنهم كانوا قوما فاسقين وأخبر أنهم { قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرٍ } القصص 36

وأخبر أن فرعون قال { مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي } القصص 38 وقال { أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى } النازعات 24 وأنه أمر باتخاذ الصرح ليطلع إلى إله موسى وأنه يظنه كاذبا وأخبر أنه { وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ } {39} فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانَظَرُ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ {40} وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ {41} وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ {42} القصص 39 - 42 فهذا نص في أن فرعون من الفاسقين المكذبين لموسى الظالمين الداعين إلى النار والملعونين في الدنيا بعد غرقهم المقبوحين في الدار الآخرة وهذا نص في أن فرعون بعد غرقه ملعون وهو في الآخرة مقبوح غير منصور وهذا إخبار عن غاية العذاب وهو موافق للموضع الثاني في سورة المؤمن وهو قوله { وَحَاقَ بِالْأَلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ } {45} النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ } {46} غافر 45 - 46 وهذا إخبار عن

فرعون وقومه أنه حاق بهم سوء العذاب في البرزخ وأنهم في القيامة يدخلون أشد العذاب وهذه الآية أحد ما استدل به العلماء على عذاب البرزخ وإنما دخلت الشبهة على هؤلاء الجهال لما سمعوا آل فرعون فظنوا أن فرعون خارج منهم وهذا تحريف للكلم عن مواضعه بل فرعون داخل في آل فرعون بلا نزاع بين أهل العلم بالقرآن واللغة يتبين ذلك بوجوه أحدها أن لفظ آل فلان في الكتاب والسنة يدخل فيها ذلك الشخص مثل قوله {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ} وآلِ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ { آل عمران 33} وقوله {سَلَامٌ عَلَيَّ إِنِّي يَأْسِينُ} {الصافات 130} ومنه قوله تعالى {وَإِذْ نَجَّيْنَاكَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ} {البقرة 49} {كَذَابَ آلِ فِرْعَوْنَ} {آل عمران 11} وقوله في الملائكة الذي ضافوا إبراهيم { إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ مُجْرِمِينَ {58} {إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ} {59} {إِلَّا امْرَأَتَهُ} {60} {الحجر 57-60} ثم قال {فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ} {61} {قَالَ إِنْتُمْ قَوْمٌ مُّكَرُونَ} {62} {الحجر 61-62} قال يعني لوطا إنكم قوم منكرون وكذلك قوله {إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسَخَرٍ} {القمر 34} ثم قال بعد ذلك { وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذْرُ {41} {كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاَهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ} {42} {القمر 41-42} ومعلوم أن لوطا في هذه المواضع وكذلك فرعون داخل في آل فرعون والمكذبين المأخوذين وقوله { أَدْخَلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ } {غافر 46} تناول له ولهم باتفاق المسلمين وبالعلم الضروري من دين المسلمين ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم وكذلك قوله كما باركت على آل إبراهيم فأبراهيم داخل في ذلك وكذلك قوله للحسن إن الصدقة لا تحل لآل محمد وفي الصحيح عن عبد الله بن أبي أوفى قال كان القوم إذا أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بصدقة يصلي عليهم فأتى أبي بصدقة فقال اللهم صل على آل أبي أوفى وأبو أوفى هو صاحب الصدقة وقوله لقد أوتي هذا زممارا من مزامير آل داود ونظير هذا الاسم أهل البيت فإن الرجل يدخل في أهل بيته كقول الملائكة { رَحِمَتْ اللَّهُ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ } هود وقول النبي صلى الله عليه وسلم سلمان منا أهل البيت وقوله تعالى { إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ } {الأحزاب 33} وذلك لأن آل الرجل ممن يؤول إليه ونفسه ممن يؤول إليه وأهل بيته هم من يأهله وهو ممن يأهل أهل بيته فقد تبين أن الآية التي ظنوا أنها حجة لهم هي حجة عليهم في تعذيب فرعون مع سائر آل فرعون في البرزخ وفي يوم القيامة ويبين ذلك أن الخطاب في القصة كلها إخبار عن فرعون وقومه قال تعالى {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ} {23} {إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ} {24} {غافر 23-24} إلى قوله { قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ } {غافر 29} إلى قوله { وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ } {36} {أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ} {37} {غافر 36-37} إلى قوله { وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ } {45} {النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ} {46} {غافر 45-46} إلى قوله { قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدَّ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ } {غافر 48} فأخبر عقب قوله { أَدْخَلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ } {46} {غافر 46} عن محاجتهم في النار وقول الضعفاء للذين استكبروا وقول المستكبرين للضعفاء { إِنَّا كُلٌّ فِيهَا } {غافر 48} ومعلوم أن فرعون هو رأس المستكبرين وهو الذي استخف قومه فأطاعوه ولم يستكبر احد استكبار فرعون فهو أحق بهذا النعت والحكم من جميع قومه الموضوع الثاني وهو حجة عليهم لا لهم قوله تعالى { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ} {96} {إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ} {97} {بِقَدْمِ قَوْمِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأُورِدَهُمُ النَّارَ وَنِيسَ الْوُرْدِ الْمَوْرُودِ} {98} {وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ نِيسَ الرَّفْدِ الْمَرْفُودِ} {99} {هود 96 99} فأخبر أن يقدم قومه ولم يقل يسوقهم وأنه أوردتهم النار ومعلوم أن المتقدم إذا أورد المتأخرين النار كان هو أول من يردها وإلا لم يكن قادما بل كان سابقا يوضح ذلك أنه قال { وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ نِيسَ الرَّفْدِ الْمَرْفُودِ } سورة هود 99 فعلم أنه وهم يردون النار وأنهم

جميعا ملعونون في الدنيا والآخرة وما أخلق المحاج عن فرعون أن يكون بهذه المثابة فإن المرء مع من أحب { وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ } الأنفال73 وأيضا فقد قال الله تعالى { قُلْ لَوْلَا كَانَتْ قَرِيَةً آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ } يونس98 يقول هلا آمن قوم فنفعهم إيمانهم إلا قوم يونس وقال تعالى { أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ } غافر21 إلى قوله { سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ } غافر85 فأخبر عن الأمم المكذبين للرسول أنهم آمنوا عند رؤية البأس وأنه لم يك ينفعهم إيمانهم حينئذ وأن هذه سنة الله الخالية في عبادته وهذا مطابق لما ذكره الله في قوله لفرعون { الْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ } يونس91 فإن هذا الخطاب هو استفهام إنكار أي الآن تؤمن وقد عصيت قبل فأنكر أن يكون هذا الإيمان نافعا أو مقبولا فمن قال إنه نافع مقبول فقد خالف نص القرآن وخالف سنة الله التي قد خلت في عبادته يبين ذلك أنه لو كان إيمانه حينئذ مقبولا لدفع عنه العذاب كما دفع عن قوم يونس فإنهم لما قبل إيمانهم متعوا إلى حين فإن الإغراق هو عذاب على كفره فإذا لم يكن كافرا لما يستحق عذابا وقوله بعد هذا { فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ آيَةً } يونس92 يوجب أن يعتبر من خلفه ولو كان إنما مات مؤمنا لم يكن المؤمن مما يعتبر بإهلاكه وإغراقه وأيضا فإن النبي صلى الله عليه وسلم لما أخبره ابن مسعود بقتل أبي جهل قال هذا فرعون هذه الأمة فضرب النبي صلى الله عليه وسلم المثل في رأس الكفار المكذبين له برأس الكفار المكذبين لموسى فهذا يبين أنه هو الغاية في الكفر فكيف يكون قد مات مؤمنا ومعلوم أن من مات مؤمنا لا يجوز أن يوسم بالكفر ولا يوصف لأن الإسلام يهدم ما كان قبله وفي مسند أحمد وإسحاق وصحيح أبي حاتم عن عوف بن مالك عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم في تارك الصلاة يأتي مع قارون وفرعون وهامان وأبي بن خلف³⁶³

النسخ لا يجوز في الأخبار

وقال الامام أبو عبدالله الحارث بن اسماعيل بن أسد المحاسبى فى كتابه المسمى فهم القرآن قال فى كلامه على الناسخ والمنسوخ وأن النسخ لا يجوز فى الأخبار قال لا يحل لأحد أن يعتقد أن مدح الله وصفاته ولا أسماءه يجوز أن ينسخ منها شيء إلى أن قال وكذلك لا يجوز إذا أخبر أن صفاته حسنة عليا أن يخبر بذلك أنها دنية سفلى فيصف نفسه بأنه جاهل ببعض الغيب بعد أن أخبر أنه عالم بالغيب وأنه لا يبصر ما قد كان ولا يسمع الاصوات ولا قدره له ولا يتكلم ولا كلام كان منه وأنه تحت الأرض لا على العرش جل وعلا عن ذلك فإذا عرفت ذلك واستيقنته علمت ما يجوز عليه النسخ وما لا يجوز فإن تلوت آية فى ظاهر تلاوتها تحسب أنها ناسخة لبعض اخباره كقوله عن فرعون { حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ } يونس90 الآيات وقال قد تأول قوم أن الله عنى أن ينجيه ببذنه من النار لأنه آمن عند العرق وقال انما ذكر الله أن قوم فرعون يدخلون النار دونه وقال { فَأَوْرَدَهُمُ

³⁶³دقائق التفسير ج: 2 ص: 254-257 ورسالة فى الرد على ابن العربي ج: 1 ص: 213-

النَّارِ { هود 98 } وقال { وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ { غافر 45 } ولم يقل بفرعون قال وهكذا الكذب على الله لأن الله تعالى يقول { فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى { النازعات 25 }³⁶⁴

حرم الله على نفسه الظلم

أخبر الله أنه خلق الخلق ليجزى كل نفس بما كسبت و أنه لا يظلم أحدا فينقص من حسناته شيئا بل كما قال { وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلُمُ رَبُّكَ أَحَدًا { الكهف 49 } وقد نزه نفسه في غير موضع من القرآن أن يظلم أحدا من خلقه فلا يؤتیه أجره أو يحمل عليه ذنب غيره فقال تعالى { وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا { طه 112 } وقال تعالى { لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ { 28 } مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ { 29 } ق 28- 29 } وقال تعالى { ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ { 100 } وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتَشَابَهُ { 101 } } { هود 100-101 } وفي الحديث الصحيح الإلهي يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي و جعلته بينكم محرما فلا تظالموا³⁶⁵

كان الصواب في قول من يقول إن الله لا يعذب في الآخرة إلا من عصاه بترك المأمور أو فعل المحذور والمعتزلة في هذا وافقوا الجماعة بخلاف الجهمية ومن اتبعهم من الأشعرية وغيرهم فإنهم قالوا بل يعذب من لا ذنب له أو نحو ذلك ثم هؤلاء يحتجون على المعتزلة في نفس الإيجاب والتحرير العقلي بقوله تعالى { وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا { الإسراء 15 } وهو حجة عليهم أيضا في نفي العذاب مطلقا إلا بعد إرسال الرسل وهم يجوزون التعذيب قبل إرسال الرسل فأولئك يقولون يعذب من لم يبعث إليه رسولا لأنه فعل القبائح العقلية وهؤلاء يقولون بل يعذب من لم يفعل قبيحا قط كالأطفال وهذا مخالف للكتاب والسنة والعقل أيضا قال تعالى { وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا { الإسراء 15 } وقال تعالى عن النار { كُلَّمَا أَلْقِي فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ { 8 } } قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ { 9 } } الملك 8- 9 فقد أخبر سبحانه وتعالى بصيغة العموم أنه كلما ألقى فيها فوج سألهم الخزنة هل جاءهم نذير فيعترفون بأنهم قد جاءهم نذير فلم يبق فوج يدخل النار إلا وقد جاءهم نذير فمن لم يأتته نذير لم يدخل النار وقال تعالى لإبليس { لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ { ص 85 } فقد أقسم سبحانه أنه يملؤها من إبليس وأتباعه وإنما أتباعه من أطاعه فمن لم يعمل ذنبا لم يطعه فلا يكون ممن تملأ به النار وإذا ملئت بأتباعه لم يكن لغيرهم فيها موضع وقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة وأنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لا يزال يلقي في النار وتقول هل من مزيد حتى يضع رب العزة فيها قدمه وفي رواية فيضع قدمه عليها فتقول قط قط وينزوي بعضها إلى بعض أي تقول حسبي حسبي وأما

³⁶⁴مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 66

³⁶⁵مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 175

الجنة فيبقى فيها فضل فينشئ الله لها خلقا فيسكنهم فضول الجنة هكذا روي في الصحاح من غير وجه ووقع في بعض طرق البخاري غلط قال فيه وأما النار فيبقى فيها فضل والبخاري رواه في سائر المواضع على الصواب ليبيّن غلط هذا الراوي كما جرت عادته بمثل ذلك إذا وقع من بعض الرواة غلط في لفظ ذكر ألفاظ سائر الرواة التي يعلم بها الصواب وما علمت وقع فيه غلط إلا وقد بين فيه الصواب بخلاف مسلم فإنه وقع في صحيحه عدة أحاديث غلط أنكرها جماعة من الحفاظ على مسلم والبخاري قد أنكر عليه بعض الناس تخريج أحاديث لكن الصواب فيها مع البخاري والذي أنكر على الشيخين أحاديث قليلة جدا وأما سائر متونها فما اتفق علماء المحدثين على صحتها وتصديقها وتلقيها بالقبول لا يستريبون في ذلك وقد قال تعالى {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ {130} ذَلِكَ أَنْ لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْفَرَىٰ بَظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ {131} {الأنعام 130-131} فقط خاطب الجن والإنس واعترف المخاطبون بأنهم جاءتهم رسل يقصون عليهم آياته وينذرونهم لقاء يوم القيامة ثم قال { ذَلِكَ أَنْ لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْفَرَىٰ بَظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ } {الأنعام 131} أي هذا بهذا السبب فعلم أنه لا يعذب من كان غافلا ما لم يأته نذير فكيف الطفل الذي لا عقل له ودل أيضا على أن ذلك ظلم تنزه سبحانه عنه وإلا فلو كان الظلم هو الممتنع لم يتصور أن يهلكهم بظلم بل كيفما أهلكهم فإنه ليس بظلم عند الجهمية الجبرية وقد قال تعالى { وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْفَرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمَّهَاتِكُمْ رَسُولًا يَقُولُ عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْفَرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ } {القصص 59} وقال تعالى { وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ } {هود 117} وقال تعالى { وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا } {طه 112} قال المفسرون الظلم أن يحمل عليه سيئات غيره والهضم أن ينقص من حسناته فجعل سبحانه عقوبته بذنب غيره ظلما ونزه نفسه عنه ومثل هذا كثير كقوله { لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ } {البقرة 286} وقوله { وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ } {الأنعام 164} وكذلك قوله { لَا تَخْتَصِمُوا أَدْبَىٰ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ } {28} ما يبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد {29} ق 28-29 فبين سبحانه أنه قدم بالوعيد وأنه ليس بظلام للعبيد كما قال في الآية الأخرى { ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ } {100} وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْنِيبٍ } {101} {هود 100-101} فهو سبحانه نزه نفسه عن ظلمهم وبين أنهم هم الذين ظلموا أنفسهم بشركهم فمن لم يكن ظالما لنفسه تكون عقوبته ظلما تنزه الله عنه وقال في الآية الأخرى { إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ } {74} لَا يَفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ } {75} وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ } {76} {الزخرف 74-76} ³⁶⁶

نزه الله نفسه عن أمر يقدر عليه لا عن الممتنع لنفسه

أن سائر أهل السنة الذين يقرون بالقدر ليس فيهم من يقول إن الله تعالى ليس يعدل ولا من يقول إنه ليس بحكيم ولا فيهم من يقول إنه يجوز أن يترك واجبا ولا أن يفعل قبيحا فليس في المسلمين من يتكلم بمثل هذا الكلام الذي أطلقه ومن أطلقه كان كافرا مباح الدم باتفاق المسلمين ولكن هذه مسألة القدر والنزاع فيها معروف بين المسلمين فأما نفاة القدر كالمعتزلة ونحوهم

فقولهم هو الذي ذهب إليه متأخرو الإمامية وأما المثبتون للقدر وهو جمهور الأمة وأئمتها كالصحابية والتابعين لهم بإحسان وأهل البيت وغيرهم فهؤلاء تنازعوا في تفسير عدل الله وحكمته والظلم الذي يجب تنزيهه عنه وفي تعليل أفعاله وأحكامه ونحو ذلك فقالت طائفة إن الظلم ممتنع منه غير مقدور وهو محال لذاته كالجمع بين النقيضين وإن كل ممكن مقدور فليس هو ظلماً وهؤلاء هم الذين قصدوا الرد عليهم وهؤلاء يقولون إنه لو عذب المطيعين ونعم العصاة لم يكن ظالماً وقالوا الظلم التصرف فيما ليس له والله تعالى له كل شيء أو هو مخالفة الأمر والله لا أمر له وهذا قول كثير من أهل الكلام المثبتين للقدر ومن وافقهم من الفقهاء أصحاب الأئمة الأربعة وقال طائفة بل الظلم مقدور ممكن والله تعالى منزه لا يفعله لعدله ولهذا مدح الله نفسه حيث أخبر أنه لا يظلم الناس شيئاً والمدح إنما يكون بترك المقدور عليه لا بترك الممتنع قالوا وقد قال تعالى {وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا} طه 112 قالوا الظلم أن يحمل عليه سيئات غيره والهضم أن يهضم حسناته وقال تعالى {ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفُرَى نَفْصُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ} 100 {وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ} 101 {هود 100-101 فأخبر أنه لم يظلمهم لما أهلكهم بل أهلكهم بذنوبهم وقال تعالى {وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} الزمر 69 فدل على أن القضاء بينهم بغير القسط ظلم والله منزه عنه وقال تعالى {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ} الأنبياء 47 أي لا تنقص من حسناتها ولا تعاقب بغير سيئاتها فدل على أن ذلك ظلم ينزه الله عنه وقال تعالى {قَالَ لَا تَخْصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُمُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعْدِ} 28 {مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدِيَّ وَمَا أَنَا بِظَالِمٍ لِلْعَبِيدِ} 29 {ق 28-29 وإنما نزه نفسه عن أمر يفدر عليه لا عن الممتنع لنفسه ومثل هذا في القرآن في غير موضع مما يبين أن الله ينتصف من العباد ويقضي بينهم بالعدل وأن القضاء بينهم بغير العدل ظلم ينزه الله عنه وأنه لا يحمل على أحد ذنب غيره وقال تعالى {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} الأنعام 164 فإن ذلك ينزه الله عنه بل لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى يقول يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا فقد حرم على نفسه الظلم كما كتب على نفسه الرحمة في قوله {كُنْتُ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ} الأنعام 54

وفي الحديث الصحيح لما قضى الله الخلق كتب في كتاب فهو موضوع عنده فوق العرش إن رحمتي غلبت غضبي والأمر الذي كتبه الله على نفسه أو حرمه على نفسه لا يكون إلا مقدوراً له سبحانه فالممتنع لنفسه لا يكتبه على نفسه ولا يحرمه على نفسه وهذا القول قول أكثر أهل السنة والمثبتين للقدر من أهل الحديث والتفسير والفقه والكلام والتصوف من أتباع الأئمة الأربعة وغيرهم³⁶⁷

جعل إهلاك المهلكين حصاداً لهم

قال تعالى {اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَأَلْهَوْا وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيغُ قَتْرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ

وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ {الحديد20} و قد جعل إهلاك المهلكين حصادا لهم فقال

{ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفُرَى نَقَصُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ {هود100} 368

أَنْبَاءُ الْفُرَى يَعْلَمُ بِالسَّمْعِ وَالنَّقْلِ تَارَةً وَيَعْلَمُ بِالْعَقْلِ وَالْإِعْتِبَارِ بِآثَارِهِمْ تَارَةً

قال تعالى {ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفُرَى نَقَصُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ {100} وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْسِيبٍ {101} وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْفُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ {102} هود 100-102

ومن آيات الأنبياء إهلاك الله لمكذبيهم ونصره للمؤمنين بهم فهذا من أعلام نبوتهم ودلائل صدقهم كإغراق الله قوم نوح لما كذبوه وكإهلاكه قوم عاد بالريح الصرصر وإهلاك قوم صالح بالصيحة وإهلاك قوم شعيب بالظلة وإهلاك قوم لوط بإقلاب مداينهم ورجمهم بالحجارة وكإهلاك قوم فرعون بالغرق وقد ذكر الله القصص في القرآن في غير موضع وبين أنها من آيات الأنبياء الدالة على صدقهم كما يذكره في سورة الشعراء لما ذكر قصة موسى قال {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ} الشعراء67 ثم ذكر قصة إبراهيم وقال في آخرها {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ} الشعراء103 وكذلك ذكر مثل ذلك في قصة نوح وهود وصالح ولوط وشعيب ومن ذلك ما جعله من اللعنة الشائعة لمن كذبهم ومن لسان الصدق والثناء والدعاء لهم ولمن آمن بهم كما قال تعالى لما ذكر قصة نوح عليه السلام {وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ} {78} سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ} {79} الصافات78-79 ولهذا قال تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم {فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ} هود49 فأخبر أن العاقبة للمتقين ثم إنه ما وقع لهؤلاء وهؤلاء يعلم بالسَّمْعِ وَالنَّقْلِ تَارَةً وَيَعْلَمُ بِالْعَقْلِ وَالْإِعْتِبَارِ بِآثَارِهِمْ تَارَةً كما قال عن أهل النار {وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ} {الملك10} كما ذكر الله الطريقتين في قوله لما قص قصص نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وموسى في سورة هود {ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفُرَى نَقَصُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ {100} وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْسِيبٍ {101} وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْفُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ {102} هود 100-102} 369

368مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 153

369الجواب الصحيح ج: 6 ص: 392

ظلم النفس جنس عام يتناول كل ذنب

فإنه سبحانه وتعالى حرم على نفسه الظلم والظلم ممتنع من الله سبحانه وتعالى بإتفاق المسلمين وقيل الظلم وضع الشيء في غير موضعه فهو سبحانه لا يظلم الناس شيئا قال تعالى { وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا } طه 112 قال المفسرون هو أن يحمل عليه سيئات غيره ويعاقب بغير ذنبه والهضم أن يهضم من حسناته³⁷⁰

والتحقيق أن ظلم النفس جنس عام يتناول كل ذنب وفي الصحيحين أن أبا بكر قال يا رسول الله علمني دعاء أدعو به في صلاتي فقال قل اللهم إني ظلمت نفسي ظلما كثيرا ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم وفي صحيح مسلم وغيره أن النبي كان يقول في استفتاحه اللهم أنت ربي وأنا عبدك ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت واهدني لأحسن الأخلاق فإنه لا يهدي لأحسنها إلا أنت واصرف عني سيئها فإنه لا يصرف عني سيئها إلا أنت وقد قال أبو البشر وزوجته { قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ } الأعراف 23 وقال موسى { رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي } القصص 16 وقال ذوالنون يونس { لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ } الأنبياء 87 وقالت بلقيس { رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } النمل 44 وفي الصحيحين عن إبي هريرة رضى الله عنه عن النبي³⁷¹

وقال تعالى عموما عن أهل القرى المهلكة { وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ } هود 101
فظلموا أنفسهم بارتكابهم ما نهوا عنه وبعضياتهم لأنبيائهم وبتركهم التوبة إلى ربهم³⁷²

أن الانسان هو فاعل السيئات وانه يستحق عليها العقاب و الله ينعم عليه بالحسنات عملها و جزائها فإنه إذا كان ما أصابهم من حسنة فهو من الله فالنعم من الله سواء اء كانت ابتداء أو كانت جزاء و إذا كانت جزاء و هى من الله فالعمل الصالح الذى كان سببها هو أيضا من الله أنعم بهما الله على العبد و إلا فلو كان هو من نفسه كما كانت السيئات من نفسه لكان كل ذلك من نفسه و الله تعالى قد فرق بين النوعين فى الكتاب و السنة كما فى الحديث الصحيح الالهى عن الله يا

³⁷⁰مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 219

³⁷¹مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 693

³⁷²مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 572 و الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 13

عبادي إنما هي أعمالكم أحصيتها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله و من وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه³⁷³

وهذه النصوص النافية للظلم تثبت العدل في الجزاء وأنه لا يبخس عامل عمله وكذلك قوله فيمن عاقبهم {وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ} {هود 101} وقوله {وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ} {الزخرف 76} بين أن عقاب المجرمين عدلا لذنوبهم لا لأنا ظلمناهم فعاقبناهم بغير ذنب والحديث الذي في السنن لو عذب الله أهل سماواته وأهل أرضه لعذبتهم وهو غير ظالم لهم ولو رحمهم لكانت رحمته لهم خيرا من أعمالهم يبين أن العذاب لو وقع لكان لإستحقاقهم ذلك لا لكونه بغير ذنب وهذا يبين أن من الظلم المنفى عقوبة من لم يذنب وكذلك قوله تعالى {وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ} {30} مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَنَمُودٍ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ} {31} غافر 31- 32 يبين أن هذا العقاب لم يكن ظلما لإستحقاقهم ذلك وأن الله لا يريد الظلم

لا يعذب الله في الآخرة إلا من أذنب

قال تعالى {ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقِصُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ} {100} وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ} {101} وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ} {102} إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ} {103} وَمَا نُوحِئُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ} {104} يَوْمٌ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ} {105} فَأَمَّا الَّذِينَ شَفَعُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ} {106} خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لَمَّا يُرِيدُ} {107} وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُودٍ} {108} فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْْبُدُ هَوْلًا مَا يَعْْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْْبُدُ آبَاؤَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوفُونَ نَصِيبُهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ} {109} وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ} {110} وَإِنَّ كَلِمًا لَّيُوقِنَنَّ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} {111} فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} {112} وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ} {113} وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ

يُذْهِبِ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ {114} وَإِصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ
 الْمُحْسِنِينَ {115} فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي
 الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا
 مُجْرِمِينَ {116} وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ {117} وَلَوْ شَاءَ
 رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ {118} إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ
 خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمْلَانِ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ {119} هود-100

374 117

ويجب أن يعلم العبد أن عمله من الحسنات هو بفضل الله ورحمته ومن نعمته كما قال أهل الجنة
 { الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ {الأعراف43 وقال تعالى { وَلَكِنَّ
 اللَّهُ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ
 { الحجرات7 وقال تعالى { أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ
 قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ { الزمر22 وقال { أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ
 كَمَنْ مَتَلَّهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا { الأنعام122 وقال تعالى { وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ
 أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا
 { الشورى52 وكذلك إضافة السيئات إلى نفسه هو الذي ينبغي أن يفعله مع علمه بأن الله خالق كل
 موجود من الأعيان والصفات والحركات والسكنات كما قال آدم { رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ
 لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ { الأعراف23 وقال موسى { رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي
 { القصص16 وقال الخليل { وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ { الشعراء82 وقال
 لخاتم الرسل { فَاَعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ { محمد19 وقد قال
 تعالى في حق من عذبهم { وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ { هود101 } فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ
 جَاءَهُمْ بِأَسْنًا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ { الأعراف5 وأمثال هذا كثير في الكتاب والسنة وفي
 الحديث الصحيح الإلهي الذي رواه مسلم وغيره عن أبي ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما
 يروي عن ربه تعالى يا عبادي انى حرمت الظلم على نفسي جعلته بينكم محرما فلا تظالموا يا
 عبادي انكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا ولا أبا لي فاستغفروني أغفر لكم يا
 عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعمو
 نى أطعمكم يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسونى أكسكم يا عبادي لو أن أولكم وآخركم
 وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم ما زاد ذلك فى ملكي شيئا يا عبادي لو أن أولكم
 وآخركم وإنسكم وجنكم اجتمعوا فى صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان منهم مسألتة لم
 ينقص ذلك من ملكي إلا كما ينقض البحر إذ يغمر فيه المخيط غمسة واحدة يا عبادي إنما هي
 أعمالكم أحصياها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا
 نفسه فقد بين هذا الحديث أن من وجد خيرا بالعمل الصالح فليحمد الله فإنه هو الذي أنعم بذلك
 وإن وجد غير ذلك إما سرا له عقاب وإما عبثا لافائدة فيه فلا يلومن إلا نفسه فإنه هو الذي ظلم
 نفسه وكل حادث بقدرة الله ومشيتته³⁷⁵

³⁷⁴مجموع الفتاوى ج: 18 ص: 145

³⁷⁵مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 443 و أمراض القلوب ج: 1 ص: 78

حرم الله الظلم على نفسه ونفاه عن نفسه بقوله { وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ } هود 101 وقوله { وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا } الكهف 49 وقوله { وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ } فصلت 46 وقوله { إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكْ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا } النساء 40 وقوله { قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا } النساء 77 ونفى إرادته بقوله { وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ } آل عمران 108 وقوله { وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ } غافر 31 ونفى خوف العباد له بقوله { وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا } طه 112 فإن الناس تنازعا في معنى هذا الظلم تنازعا صاروا فيه بين طرفين متباعدين ووسط بينهما وخيار الأمور أوساطها وذلك بسبب البحث في القدر ومجامعته للشرع إذ الخوض في ذلك بغير علم تام أوجب ضلال عامة الأمم ولهذا نهى النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه عن التنازع فيه فذهب المكذبون بالقدر القائلون بأن الله لم يخلق أفعال العباد ولم يرد أن يكون إلا ما أمر بأن يكون وغلاتهم المكذبون بتقدم علم الله وكتابه بما سيكون من أفعال العباد من المعتزلة وغيرهم إلا أن الظلم منه هو نظير الظلم من الأدميين بعضهم لبعض وشبهوه ومثله في الأفعال بأفعال العباد حتى كانوا هم ممثلة الأفعال وضربوا الله الأمثال ولم يجعلوا له المثل الأعلى بل أوجبوا عليه وحرموا ما رأوا أنه يجب على العباد ويحرم بقياسه على العباد وإثبات الحكم في الأصل بالرأي وقالوا عن هذا إذا أمر العبد ولم يعنه بجميع ما يقدر عليه من وجوه الإعانة كان ظالما له والتزموا أنه لا يقدر أن يهدي ضالا كما قالوا إنه لا يقدر أن يضل مهتديا وقالوا عن هذا إذا أمر اثنين بأمر واحد وخص أحدهما بإعانتة على فعل الأمر كان ظالما إلى أمثال ذلك من الأمور التي هي من باب الفضل والإحسان جعلوا تركه لها ظلما وكذلك ظنوا أن التعذيب لمن كان فعله مقدرًا ظلم له ولم يفرقوا بين التعذيب لمن قام به سبب استحقاق ذلك ومن لم يقم وإن كان ذلك الاستحقاق خلقه لحكمه أخرى عامة أو خاصة وهذا الموضوع زلت فيه أقدام وضلت فيه أفهام فعارض هؤلاء آخرون من أهل الكلام المثبتين للقدر فقالوا ليس للظلم منه حقيقة يمكن وجودها بل هو من الأمور الممتنعة لذاتها فلا يجوز أن يكون مقدورا ولا يقال إنه هو تارك له باختياره ومشيبته وإنما هو من باب الجمع بين الضدين وجعل الجسم الواحد في مكانين وقلب القديم محدثا والمحدث قديما وإلا فمهما قدر في الذهن وكان وجوده ممكنا و الله قادر عليه فليس بظلم منه سواء فعله أولم يفعله وتلقى هذا القول عن هؤلاء طوائف من أهل الإثبات من الفقهاء وأهل الحديث من أصحاب مالك والشافعي وأحمد وغيرهم ومن شراح الحديث ونحوهم وفسروا هذا الحديث بما يبنون على هذا القول وربما تعلقوا بظاهر من أقوال مأثورة كما روينا عن إياس بن معاوية أنه قال ما ناظرت بعقلي كله أحدا إلا القدرية قلت لهم ما الظلم قالوا أن تأخذ ما ليس لك أو أن تتصرف فيما ليس لك قلت فله كل شيء وليس هذا من إياس إلا لبيين أن التصرفات الواقعة هي في ملكه فلا يكون ظلما بموجب حدهم وهذا مما لا نزاع بين أهل الإثبات فيه فإنهم متفقون مع أهل الإيمان بالقدر على أن كل ما فعله الله هو عدل وفي حديث الكرب الذي رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أصاب عبدا قط هم ولا حزن فقال اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتي بيدك ماض في حكمك عدل في قضايتك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي وغمي إلا أذهب الله همه وغمه وأبدله مكانه فرحا قالوا يا رسول الله أفلا نتعلمهن قال بلى ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن فقد بين أن كل قضائه في عبده عدل ولهذا يقال كل نعمة منه فضل وكل نقمة منه عدل ويقال أطعناك بفضلك والمنة لك وعصيتك بعلمك أو بعدلك والحجة لك فأسألك بوجوب حجتك علي وانقطاع حجتى إلا ما غفرت لي وهذه المناظرة من إياس كما قاله ربيعة بن أبي عبد الرحمن لغيلان حين

قال له غيلان نشدتك الله أترى الله يحب أن يعصى فقال نشدتك الله أترى يعصى قسرا يعني قهرا فكأنما ألقمه حجرا فإن قوله يحب أن يعصى لفظ فيه إجمال وقد لا يتأتى في المناظرة تفسير المجملات خوفا من لدد الخصم فيؤتى بالواضحات فقال أفتراه يعصى قسرا فإن هذا إلزام له بالعجز الذي لازم للقدرية ولمن هو شر منهم من الدهرية الفلاسفية وغيرهم وكذلك إياس رأى أن هذا الجواب المطابق لحدهم خاصم لهم ولم يدخل معهم في التفصيل الذي يطول وبالجملة فقوله تعالى { وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا } طه 112 قال أهل التفسير من السلف لا يخاف أن يظلم فيحمل عليه سيئات غيره ولا يهضم فينقص من حسناته ولا يجوز أن يكون هذا الظلم هو شيء ممتنع غير مقدور عليه فيكون التقدير لا يخاف ما هو ممتنع لذاته خارج عن الممكنات والمقدورات فإن مثل هذا إذا لم يكن وجوده ممكنا حتى يقولوا إنه غير مقدور وأراده كخلق المثل له فكيف يعقل وجوده فضلا أن يتصور خوفه حتى ينفي خوفه ثم أي فائدة في نفي خوف هذا وقد علم من سياق الكلام أن المقصود بيان أن هذا للعامل المحسن لا يجزى على إحسانه بالظلم والهضم فعلم أن الظلم والهضم المنفي يتعلق بالجزاء كما ذكره أهل التفسير وأن الله لا يجزيه إلا بعمله ولهذا كان الصواب الذي دلت عليه النصوص إن الله لا يعذب في الآخرة إلا من أذنب كما قال {لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ} ص 85 فلو دخلها أحد من غير أتباعه لم تمتلئ منهم ولهذا ثبت في الصحيحين في حديث تحاج الجنة والنار من حديث أبي هريرة وأنس أن النار تمتلئ ممن كان ألقى فيها حتى ينزوي بعضها إلى بعض وتقول قط قط بعد قولها هل من مزيد وأما الجنة فيبقى فيها فضل عمن يدخلها من أهل الدنيا فينشئ الله لها خلقا آخر ولهذا كان الصواب الذي عليه الأئمة فيمن لم يكلف في الدنيا من أطفال المشركين ونحوهم ما صح به الحديث وهو أن الله أعلم بما كانوا عاملين فلا نحكم لكل منهم بالجنة ولا لكل منهم بالنار بل هم ينقسمون بحسب ما يظهر من العلم فهم إذا كلفوا يوم القيامة في العرصات كما جاءت بذلك الآثار وكذلك قوله تعالى { مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ } فصلت 46 يدل الكلام على أنه لا يظلم محسنا فينقصه من إحسانه أو يجعله لغيره ولا يظلم مسيئا فيجعل عليه سيئات غيره بل لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت وهذا كقوله { أَمْ لَمْ يَنْبَأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى {36} وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَى {37} أَلَا تَزُرُ وَازِرَةً وَزُرَ أُخْرَى {38} وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى {39} } النجم 36-39 فأخبر أنه ليس على أحد من وزر غيره شيء وأنه لا يستحق إلا ما سعاه وكلا القولين حق على ظاهره فأخبر أنه ليس على أحد من وزر غيره شيء وأنه لا يستحق إلا ما سعاه وكلا القولين حق على ظاهره وإن ظن بعض الناس أن تعذيب الميت ببكاء أهله عليه ينافي الأول فليس كذلك إذ ذلك النائح يعذب بنوحه لا يحمل الميت وزره ولكن الميت يناله ألم من فعل هذا كما يتألم الإنسان من أمور خارجة عن كسبه وإن لم يكن جزءا الكسب والعذاب أعم من العقاب كما قال صلى الله عليه وسلم السفر قطعة من العذاب وكذلك ظن قوم أن انتفاع الميت بالعبادات البدنية من الحي ينافي قوله { وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى } النجم 39 فليس الأمر كذلك فإن انتفاع الميت بالعبادات البدنية من الحي بالنسبة إلى الآية كانتفاعه بالعبادات المالية ومن ادعى أن الآية تخالف أحدهما دون الآخر فقوله ظاهر الفساد بل ذلك بالنسبة إلى الآية كانتفاعه بالدعاء والاستغفار والشفاعة وقد بينا في غير هذا الموضع نحو من ثلاثين دليلا شرعيا يبين انتفاع الإنسان بسعي غيره إذ الآية إنما نفت استحقاق السعي وملكه وليس كل ما لا يستحقه الإنسان ولا يملكه لا يجوز أن يحسن إليه مالكة ومستحقه بما ينتفع به منه فهذا نوع وهذا نوع وكذلك ليس كل ما لا يملكه الإنسان لا يحصل له من جهته منفعة فإن هذا كذب في الأمور الدينية والدنيوية وهذه النصوص النافية للظلم تثبت العدل في الجزاء وأنه لا يبخس عامل عمله وكذلك قوله فيمن عاقبهم { وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ } هود 101 وقوله { وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ } الزخرف 76 بين أن عقاب المجرمين عدلا لذنبهم لا لأننا ظلمناهم فعاقبناهم بغير ذنب والحديث الذي في السنن لو عذب الله أهل سماواته وأرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ولو رحمهم لكانت رحمته لهم خيرا من أعمالهم

يبين أن العذاب لو وقع لكان لاستحقاقهم ذلك لا لكونه بغير ذنب وهذا يبين أن من الظلم المنفي عقوبة من لم يذنب وكذلك قوله تعالى { وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ {30} } مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَنَمُودٍ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ {31} } غافر 30-31 يبين أن هذا العقاب لم يكن ظلماً لاستحقاقهم ذلك وأن الله لا يريد الظلم والأمر الذي لا يمكن القدرة عليه لا يصلح أن يمدح الممدوح بعدم إرادته وإنما يكون المدح بترك الأفعال إذا كان الممدوح قادراً عليها فعلم أن الله قادر على ما نزه نفسه عنه من الظلم وأنه لا يفعله³⁷⁶

الجهمية وغيرهم يقولون بان الله عز وجل يخلق ما هو شر محض لا نفع فيه ولا رحمة ولا حكمة لأحد وإنما يتصف بإرادة ترجح مثلاً على مثل لا فرق عنده بين أن يرحم أو يعذب وليست نفسه ولا إرادته مرجحة للأحسن إلى الخلق بل تعذيبهم وتنعيمهم سواء عنده وهو مع هذا يخلق ما يخلق لمجرد العذاب والشر ويفعل ما يفعل لا لحكمة ونحو ذلك مما يقوله الجهمية وهؤلاء يقيمون حجج إبليس وأتباعه على الله ويجعلون الرب ظالماً لهم وهو خلاف ما وصف الله به نفسه في قوله تعالى { وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ } هود 101 كيف يكون ظالماً وهم فيما بينهم لو اساء بعضهم إلى بعض أو قصر في حقه لكان يؤاخذوه ويعاقبه وينتقم منه ويكون ذلك عدلاً إذا لم يعتد عليه ولو قال إن الذي فعلته قدر علي فلا ذنب لي فيه لم يكن هذا عذراً له عندهم باتفاق العقلاء فإذا كان العقلاء متفقين على أن حق المخلوق لا يجوز إسقاطه احتجاجاً بالقدر فكيف يجوز إسقاط حق الخالق احتجاجاً بالقدر وهو سبحانه الحكم العدل الذي لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً³⁷⁷

قال تعالى { وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهِلِكَ الْفَرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ } هود 117 كان الصواب في قول من يقول إن الله لا يعذب في الآخرة إلا من عصاه بترك الأمور أو فعل المحظور والمعتزلة في هذا وافقوا الجماعة بخلاف الجهمية ومن اتبعهم من الأشعرية وغيرهم فإنهم قالوا بل يعذب من لا ذنب له أو نحو ذلك ثم هؤلاء يحتجون على المعتزلة في نفس الإيجاب والتحريم العقلي بقوله تعالى { وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا } الإسراء 15 وهو حجة عليهم أيضاً في نفي العذاب مطلقاً إلا بعد إرسال الرسل وهم يجوزون التعذيب قبل إرسال الرسل فأولئك يقولون يعذب من لم يبعث إليه رسولا لأنه فعل القبائح العقلية وهؤلاء يقولون بل يعذب من لم يفعل قبائح قط كالأطفال وهذا مخالف للكتاب والسنة والعقل أيضاً قال تعالى { وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا } الإسراء 15³⁷⁸

³⁷⁶الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 402-406

³⁷⁷الحسنة والسيئة ج: 1 ص: 79

³⁷⁸منهاج السنة النبوية ج: 1 ص: 1

وهذه الصيغة تدل على امتناع المنفى كقوله { وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ } هود 117 وقوله { وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ } الأنفال 33³⁷⁹

لفظ الدعاء والدعوة في القرآن يتناول معنيين

الدعاء قصد المدعو و التوجه إليه إما على وجه المسألة و إما على وجه العبادة المحضة لأن دعاء الشيء هو طلبه و إرادته سواء طلب لذاته أو للأمر منه و من ذلك قوله تعالى { وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ } غافر 60 فإنه فسر بالمسألة و بالعبادة و قوله تعالى { فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتَشَبَّهُ } هود 101³⁸⁰

قال تعالى { وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتَشَبَّهُ } هود 101 لفظ الدعاء والدعوة في القرآن يتناول معنيين دعاء العبادة ودعاء المسألة قال الله تعالى { فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ } الشعراء 213 وقال تعالى { وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ } المؤمنون 117 وقال تعالى { وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ } القصص 88 وقال { وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا } الجن 19 وقال { إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا } النساء 117 ولفظ الصلاة في اللغة أصله الدعاء وسميت الصلاة دعاء لتضمنها معنى الدعاء وهو العبادة والمسألة

وفي الصحيحين عن النبي انه قال ينزل ربنا كل ليلة الى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول من يدعوني فأستجيب له من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له فذكر اولاً لفظ الدعاء ثم ذكر السؤال والاستغفار والمستغفر سائل كما ان السائل داع لكن ذكر السائل لدفع الشر بعد السائل الطالب للخير وذكرهما جميعاً بعد ذكر الداعي الذي يتناولهما وغيرهما فهو من باب عطف الخاص على العام وقال تعالى { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ } البقرة 186 وكل سائل راغب راهب فهو عابد للمسؤول وكل عابد له فهو ايضاً راغب وراهب يرجو رحمته ويخاف عذابه فكل عابد سائل وكل سائل عابد فاحد الاسمين يتناول الآخر عند تجرده عنه ولكن اذا جمع بينهما فانه يراد بالسائل الذي يطلب جلب المنفعة ودفع المضرة بصيغ السؤال والطلب ويراد بالعابد من يطلب ذلك بامتثال الامر وان لم يكن في ذلك صيغ سؤال والعابد الذي يريد وجه الله والنظر اليه هو ايضاً راج خائف راغب راهب

³⁷⁹مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 300

³⁸⁰شرح العمدة ج: 4 ص: 28

يرغب فى حصول مراده ويرهب من فواته قال تعالى { إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا } الأنبياء 90 وقال تعالى { تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا } السجدة 16 ولا يتصور ان يخلو داع لله دعاء عبادة او دعاء مسألة من الرغب والرهب من الخوف والطمع

381

والدعاء لله وحده سواء كان دعاء العبادة أو دعاء المسئلة والإستعانة كما قال تعالى { وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ } الأنعام 52 ودم الذين يدعون الملائكة والأنبياء وغيرهم فقال { فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتَّيَّبٍ } هود 101

382

الشفاعة التي نفاها القرآن مطلقا ما كان فيها شرك

وقال تعالى { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } 40 { بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ } 41 { الأنعام 40-41 وكذلك قوله { اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ } 59 { أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بَلٌّ لَهُمْ قَوْمٌ يَعْبُدُونَ } 60 { أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيًا وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ { 61 } { النمل 59-61 أى أله مع الله فعل هذا وهذا وهذا استفهام إنكار وهم مقرون بأنه لم يفعل هذا اله آخر مع الله ومن قال من المفسرين ان المراد هل مع الله اله آخر فقد غلط فانهم كانوا يجعلون مع الله الهة أخرى كما قال تعالى { أُنْتُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى قُلْ لَأَشْهَدُ } الأنعام 19 وقال تعالى { فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ } هود 101 وقال تعالى عنهم { أَجَعَلَ الْأَلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنْ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ } ص 5 وكانوا معترفين بأن آلهتهم لم تشارك الله فى خلق السموات والأرض ولا خلق شىء بل كانوا يتخذونهم شفعاء ووسائط كما قال تعالى { وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ } يونس 18 وقال عن صاحب يس { وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } 22 { أَتَأْتِخُ مِنْ دُونِهِ إِلَهَةً إِنْ يُرِدِنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ } يس 22-23 وقال تعالى { وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ } الأنعام 51 وقال تعالى { اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ } السجدة 4 وقال { قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شَرِكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مَنْ ظَهِيرٌ } 22 { وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ } 23 { سبأ 22-23 فنفى عما سواه كل ما يتعلق به المشركون فنفى أن يكون لغيره ملك أو قسط من الملك أو يكون عوننا لله ولم يبق الا الشفاعة فبين أنها لا تنفع الا لمن أذن له الرب كما قال تعالى { مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ } البقرة 255 وقال تعالى عن

³⁸¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 238

³⁸²مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 69

الملائكة { وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى } الأنبياء 28 وقال { وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مَن بَعَدَ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى } النجم 26 فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون هي منتقية يوم القيامة كما نفاها القرآن وأما ما أخبر به النبي أنه يكون فأخبر أنه يأتي فيسجد لربه ويحمده لا يبدأ بالشفاعة أو لا فإذا سجد وحمد ربه بمحامد يفتحها عليه يقال له أي محمد ارفع رأسك وقل تسمع وسل تعط واشفع تشفع فيقول أي رب أمتي فيحده له حدا فيدخلهم الجنة وكذلك في الثانية وكذلك في الثالثة وقال له أبو هريرة من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة قال من قال لا اله الا الله خالصا من قلبه فتلك الشفاعة هي لأهل الاخلاص باذن الله ليست لمن أشرك بالله ولا تكون الا باذن الله وحقيقته ان الله هو الذي يتفضل على أهل الاخلاص والتوحيد فيغفر لهم بواسطة دعاء الشافع الذي أذن له أن يشفع ليكرمه بذلك وينال به المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرين كما كان في الدنيا يستسقى لهم ويدعو لهم وتلك شفاعة منه لهم فكان الله يجيب دعاءه وشفاعته وإذا كان كذلك فالظلم ثلاثة أنواع فالظلم الذي هو شرك لا شفاعة فيه وظلم الناس بعضهم بعضا لا بد فيه من اعطاء المظلوم حقه لا يسقط حق المظلوم لا بشفاعة ولا غيرها ولكن قد يعطى المظلوم من الظالم كما قد يغفر لظالم نفسه بالشفاعة فالظالم المطلق ما له من شفيح مطاع وأما الموحد فلم يكن ظالما مطلقا بل هو موحد مع ظلمه لنفسه وهذا انما نفعه في الحقيقة اخلاصه لله فبه صار من أهل الشفاعة ومقصود القرآن بنفى الشفاعة نفى الشرك وهو أن أحدا لا يعبد الا الله ولا يدعو غيره ولا يسأل غيره ولا يتوكل على غيره لا في شفاعة ولا غيرها فليس له أن يتوكل على أحد في أن يرزقه وان كان الله يأتيه برزقه بأسباب كذلك ليس له أن يتوكل على غير الله في أن يغفر له ويرحمه في الآخرة وان كان الله يغفر له ويرحمه بأسباب من شفاعة وغيرها فالشفاعة التي نفاها القرآن مطلقا ما كان فيها شرك وتلك منتقية مطلقا ولهذا أثبت الشفاعة باذنه في مواضع وتلك قد بين الرسول أنها لا تكون الا لأهل التوحيد والاخلاص فهي من التوحيد ومستحقها أهل التوحيد³⁸³

{ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبِ }

قول الخليل عن الأصنام { رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلَّلَنِي كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ } إبراهيم 36 فنسب الإضلال إليهن والإضلال هو ضرر لمن أضلله وكذلك قوله { وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبِ } هود 101 وهذا كما يقال أهلك الناس الدرهم والدينار وأهلك النساء الأحمران الذهب والحريير كما يقال للمحبوب المعشوق الذي تضر محبته وعشقه إنه عذب هذا وأهلكه وأفسده وقتله وعثره وإن كان ذلك المحبوب قد لا يكون شاعرا بحال هذا البتة وكذلك يقال في المحسود إنه يعذب حاسديه وإن كان لا شعور له بهم وفي الصحيحين عن عمرو بن عوف عن النبي أنه قال والله ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخاف أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتتنافسوا فيها كما تنافسوا فيها وتهلككم كما أهلكتهم فجعل الدنيا المبسوطة هي المهلكة لهم وذلك بسبب حبها والحرص عليها والمنافسة فيها وإن كانت مفعولا بها لا إختيار لها فهكذا المدعو المعبود من دون الله الذي لم يأمر بعبادة نفسه إما لكونه جمادا وإما لكونه عبدا مطيعا لله من الملائكة والأنبياء والصالحين من الإنس والجن فما يدعى من دون الله هو لا ينفع ولا يضر لكن هو السبب في دعاء الداعي له وعبادته إياه وعبادة ذاك ودعاؤه هو الذي ضره فهذا الضر المضاف إليه غير الضر

المنفى عنه فضرر العابد له بعبادته يحصل في الدنيا والآخرة وإن كان عذاب الآخرة أشد فالمشركون الذين عبدوا غير الله حصل لهم بسبب شركهم بهؤلاء من عذاب الله في الدنيا ما جعله الله عبرة لأولى الأبصار قال الله تعالى {ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفُرَى نَقْصُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ} 100 { وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْنِيبٍ } 101 { هود 100-101 فبين أنهم لم تنفعهم بل ما زادتهم إلا شرا وقد قيل في هذا كما قيل في الضر قبل ما زادتهم عبادتها وقيل أنها في القيامة تكون عوناً عليهم فتزيدهم شرا وهذا كقوله {وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا} 81 { كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا } 82 { مريم 81-82 والتنبيب عبر عنه الأكثرون بأنه التحسير كقوله تعالى {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ } 1 { المسد 1 وقيل التنبيب والإهلاك وقيل ما زادوهم إلا شرا ووقوله { وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْنِيبٍ } هود 101 فعل ماض يدل على أن هذا كان في الدنيا وقد يقال فالشر كله من جهنم فلم قيل فما زادوهم فيقال بل عذبوا على كفرهم بالله ولو لم يعبدوهم فلما عبدوهم مع ذلك إزدادوا بذلك كفرا وعذابا فما زادوهم إلا خسارة وشرا ما زادوهم ربها وخيرا³⁸⁴

الأعمال هي سبب في الثواب والعقاب

والقرآن يبين في غير موضع أن الله لم يهلك أحدا ولم يعذبه إلا بذنب قال تعالى {وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ } هود 102

وقال { وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكُمْ } النساء 79 و قال لهم في شأن احد { أَوْلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ } آل عمران 165 و قال تعالى { وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ } الشورى 30 و قال تعالى في سورة الشورى أيضا { وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ } الشورى 48³⁸⁵

قال تعالى { وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ } 50 { ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ } 51 { كَذَابَ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ } 52 { ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُعَيَّرًا

³⁸⁴مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 275

³⁸⁵مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 425 والحسنة والسيئة ج: 1 ص: 162

نَعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُعَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ {53} كَذَّابٌ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ
 مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلُّ كَاثِرٍ مَنكُورٍ {54}
 الانفال 50-54 فإن أخذه يتضمن أخذهم ليصلوا بعد الموت إلى العذاب ولفظ الهلاك يقتضي
 هلاكهم في الدنيا وزوال النعمة عنهم فذكر هلاكهم بزوال النعم وذكروا أخذهم بالنعم كما قال
 {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ} {هود 102} ولا يوقع النعم
 ويسلب النعم إلا من أتى بالسيئات المقتضية لذلك كما فعل بمن خالف رسله من جميع الأمم ك

386

الأعمال هي سبب في الثواب والعقاب فلو قال قائل إن الله أخرج آدم من الجنة بلا ذنب وأنه قدر
 ذلك أو قال إنه غفر لآدم بلا توبة وأنه علم ذلك كان هذا كذبا وبهتاننا بخلاف ما إذا قال {فَنَلَقَىٰ
 آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ} {البقرة 37} {فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَّتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا
 مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ} طه 121 فإنه يكون صادقا في ذلك والله سبحانه علم ما يكون من آدم قبل أن
 يكون وهو عالم به بعد أن كان وكذلك كل ما أخبر به من قصص الأنبياء فإنه علم أنه
 أهلك نوح وعاد وثمود وفرعون ولوط ومدين وغيرهم بذنوبهم وأنه نجى الأنبياء ومن إتبعهم
 بإيمانهم وتقواهم كما قال {فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَبْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ
 ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ} {الأعراف 165} وقال {فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا
 عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَن أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَن خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَن أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ
 لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} {العنكبوت 40} وقال {ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ
 مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ} {100} {وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ
 مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْسِبُ} {101} {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ
 الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ} {102} {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ
 مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ} {103} {وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ} {104} {يَوْمَ يَأْتُ لَا تَكَلِّمُ
 نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ} {105} {فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَيُنَادُونَ فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ} {106}
 {خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ} {107} {وَأَمَّا
 الَّذِينَ سَعَدُوا فَيَنَادُونَ فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرُ
 مَجْدُودٍ} {108} {هود 100-103} 387

"إن الله يملي للظالم فإذا أخذه لم يفلته"

قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح عن أبي هريرة قال إن الله يملي للظالم فإذا
 أخذه لم يفلته ثم قرأ {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ} {هود 102}
 وقال أيضا في الحديث الصحيح عن أبي موسى أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل
 المؤمن كمثل الخامة من الزرع تفيئها الرياح تقومها تارة وتمليها أخرى ومثل المنافق مثل شجرة
 الأرز لا تزال ثابتة على أصلها حتى يكون انجعافها مرة واحدة فالكاذب الفاجر وإن أعطي دولة

³⁸⁶رسالة في معنى كون الرب عادلا ج: 1 ص: 135

³⁸⁷مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 278

فلا بد من زوالها بالكلية وبقاء ذمه ولسان السوء له في العالم وهو يظهر سريعاً ويزول سريعاً كدولة الأسود العنسي ومسيلمة الكذاب والحارثي والدمشقي وبابا الرومي ونحوهم وأما الأنبياء فإنهم يبتلون كثيراً ليمحصوا بالبلاء فإن الله إنما يمكن العبد إذا ابتلاه ويظهر أمرهم شيئاً فشيئاً كالزراع قال تعالى {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا} الفتح 29 ولهذا كان أول ما يتبعهم ضعفاء الناس فاعتبار هذه الأمور وسنة الله في أوليائه وأنبيائه الصادقين وفي أعداء الله والمنتبئين الكذابين مما يوجب الفرق بين النوعين وبين دلائل النبي الصادق ودلائل المنتبئ الكذاب وقد ذكر ابتلاء النبي والمؤمنين ثم كون العاقبة لهم في غير موضع³⁸⁸

وقوله تعالى {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ} هود 102 فإنه سبحانه إذا حكم في الأمور المتماثلة بحكم فإن ذلك لا ينتقض ولا يتبدل ولا يتحول بل هو سبحانه لا يفوت بين المتماثلين وإذا وقع تغيير فذلك لعدم التماثل وهذا القول أشبه بأصول الجمهور القائلين بالحكمة في الخلق والأمر وأنه سبحانه يسوي بين المتماثلين ويفرق بين المختلفين كما دل القرآن على هذا في مواضع كقوله تعالى أفجعل المسلمين كالمجرمين سورة القلم 35 ومن هذا الباب صارت قصص المتقدمين عبرة لنا ولولا القياس وأطراد فعله وسنته لم يصح الإعتبار بها والإعتبار إنما يكون إذا كان حكم الشيء حكم نظيره كالأمثال المضروبة في القرآن وهي كثيرة³⁸⁹

استعمال اللفظ في حال في معنى وفي حال اخرى

ومن ظن ان الحقيقة في مثل قوله {وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا} يوسف 82 هو سؤال الجدران فهو جاهل هناك من ينكرون استعمال اللفظ في حال في معنى وفي حال اخرى كما يستعمل لفظ القرية تارة في السكان وتارة في المساكن ويدعون انه لا يعنى به الا المساكن وهذا غلط فبعضهم يقولون هنا محذوف تقديره وأسأل أهل القرية وبعضهم يقولون بل المراد وأسأل الجدران والصواب ان المراد بالقرية نفس الناس المشتركين الساكنين في ذلك المكان فلفظ القرية هنا أريد به هؤلاء كما في قوله تعالى {وَكَايِّنَ مِّنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ} محمد 13 وكذلك قوله تعالى {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ} هود 102 وقوله {وَكَايِّنَ مِّنْ قَرْيَةٍ عَنَّتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسِبْنَاَهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاَهَا عَذَابًا نُكْرًا} الطلاق 8 ونظائره متعددة³⁹⁰

³⁸⁸الجواب الصحيح ج: 6 ص: 423

³⁸⁹رسالة في لفظ السنة في القرآن ج: 1 ص: 56

³⁹⁰مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 463

{ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ }

قال تعالى { ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَفُصُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ } 100 { وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْسِيبٍ } 101 { وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ } 102 { إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَسْهُودٌ } 103 { وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ } 104 { يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ } 105 { فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ } 106 { خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لَمَّا يُرِيدُ } 107 { وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُودٍ } 108 { هود 100 - 108 فإنه قد يقال غاية ما أصاب هؤلاء أنهم ماتوا والناس كله يموتون وأما كونهم أهلكوا كله وصارت بيوتهم خاوية وصاروا عبرة يذكرون بالشر ويلعنون إنما يخاف ذلك من آمن بالآخرة فإن لعنة المؤمنين لهم بالآخرة وبعضهم لهم كما جرى لآل فرعون هو مما يزيدهم عذابا كما أن لسان الصدق وثناء الناس ودعاءهم للأنبياء وإتباعهم لهم هو ما يزيده ثوابا فمن استدل بما أصاب هؤلاء على صدق الأنبياء فأمن بالآخرة خاف عذاب الآخرة وكان ذلك له آية وأما من لم يؤمن بالآخرة ويظن أن من مات لم يبعث فقد لا يبالي بمثل هذا وإن كان يخاف هذا من لا يخاف الآخرة لكن كل من خاف الآخرة كان هذا حاله وذلك له آية ³⁹¹

اليوم الاخر هو الذي ذكره الله في القرآن

قال تعالى { قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ } التوبة 29 مع ان النصرارى يقرون بمعاد الابدان لكن لما انكروا ما اخبر به الرسول من الاكل والشرب ونحو ذلك صاروا ممن لا يؤمن بالله واليوم الآخر وهؤلاء الفلاسفة لا يقرون بمعاد الابدان ولهم في معاد النفوس ثلاثة اقوال والثلاثة تذكر عن الفارابي نفسه انه كان يقول تارة هذا وتارة هذا وتارة هذا منهم من يقر بمعاد الانفس مطلقا ومنهم من يقول انما تعاد النفوس العالمة دون الجاهلة فان العالمة تبقى بالعلم فان النفس تبقى ببقاء معلومها والجاهلة التي ليس لها معلوم باق تفسد وهذا قول طائفة من اعيانهم ولهم فيه مصنفات ومنهم من ينكر معاد الانفس كما ينكر معاد الابدان وهو قول طوائف منهم وكثير منهم يقول بالتناسخ وليس شيء من ذلك ايمانا باليوم الاخر فان اليوم الاخر هو الذي ذكره الله في قوله تعالى { رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَأَرْيَبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ } آل عمران 9 وقوله تعالى { ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَفُصُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ } 100 { وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْسِيبٍ } 101 { وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ } 102 { إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَسْهُودٌ } 103 { وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ } 104 { يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ

وَسَعِيدٌ {105} فَأَمَّا الَّذِينَ شَفَعُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ {106} خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ
السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ {107} وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فِي الْجَنَّةِ
خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُوذٍ {108} هود 100-

392 108

طوى السموات لا يوجب عدمها وفسادها بل أصلها باق

وسئل رحمه الله عن قوله تعالى {وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ
السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ} هود 108 وقوله تعالى {يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ
{الأنبياء 104 فأجاب الحمد لله قال طوائف من العلماء ان قوله { مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ
وَالْأَرْضُ } هود 108 أراد بها سماء الجنة وأرض الجنة كما ثبت في الصحيحين عن النبي صلى
الله عليه وسلم أنه قال إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة
وسقفه عرش الرحمن وقال بعض العلماء في قوله تعالى {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ
الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ} الأنبياء 105 هي أرض الجنة وعلى هذا فلا منافاة
بين انطواء هذه السماء وبقاء السماء التي هي سقف الجنة إذا كلما علا فإنه يسمى في اللغة سماء
كما يسمى السحاب سماء والسقف سماء وأيضا فإن السموات وأن طويت وكانت كالمهل
وإستحالت عن صورتها فإن ذلك لا يوجب عدمها وفسادها بل أصلها باق بتحويلها من حال إلى
حال كما قال تعالى {يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ} إبراهيم 48 وإذا بدلت فإنه
لا يزال سماء دائمة وأرض دائمة والله أعلم³⁹³

الحق الذي على الله هو أحقه على نفسه

قال تعالى {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ} القمر 49 وهو سبحانه يعلم قبل أن يخلق الأشياء كل
ما سيكون وهو يخلق بمشيئته فهو يعلمه ويريده وعلمه وإرادته قائم بنفسه وقد يتكلم به ويخبر به
كما في قوله {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَآخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ
لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ} {110} وَإِنَّ كَلِمًا لَيُؤْفِقُنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ
خَبِيرٌ {111} هود 110-111³⁹⁴

³⁹²الرد على المنطقيين ج: 1 ص: 459

³⁹³مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 109 و دقائق التفسير ج: 2 ص: 258

³⁹⁴مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 382

أن الخبر المجرد المطابق للعلم لا يبين وجه فعله وتركه إذ العلم يطابق المعلوم فعلمه بأنه يفعل هذا وانه لا يفعل هذا ليس فيه تعرض لأنه كتب هذا على نفسه وحرم هذا على نفسه كما لو أخبر عن كائن من كان أنه يفعل كذا ولا يفعل كذا لم يكن في هذا بيان لكونه محموداً ممدوحاً على فعل هذا وترك هذا ولا في ذلك ما يبين قيام المقتضى لهذا والمانع من هذا فإن الخبر المحض كاشف عن المخبر عنه ليس فيه بيان ما يدعو إلى الفعل ولا إلى الترك بخلاف قوله

{ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ } { الأنعام 12 } وحرم على نفسه الظلم فإن التحريم مانع من الفعل وكتابته على نفسه داعية إلى الفعل وهذا بين واضح إذ ليس المراد بذلك مجرد كتابته انه يفعل وهو كتابة التقدير كما قد ثبت في الصحيح انه قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين الف سنة وكان عرشه على الماء فإنه قال { كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ } { الأنعام 12 } ولو أريد كتابة التقدير لكان قد كتب على نفسه الغضب كما كتب على نفسه الرحمة إذ كان المراد مجرد الخبر عما سيكون وكان قد حرم على نفسه كل ما لم يفعله من الإحسان كما حرم الظلم وكما أن الفرق ثابت في حقنا بين قوله { كَتَبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ } { البقرة 178 } وبين قوله { وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ } { القمر 52 } وقوله { مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا } { الحديد 22 } وقوله فيبعث إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات فيقال له أكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد فهكذا الفرق أيضاً ثابت في حق الله ونظير ما ذكره من كتابته على نفسه كما تقدم قوله تعالى { وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ } { الروم 47 } وقول النبي في الحديث الصحيح يا معاذ أتدرى ما حق الله على عباده قلت الله ورسوله اعلم قال حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك قلت الله ورسوله اعلم قال حقهم عليه ألا يعذبهم ومنه قوله في غير حديث كان حقا على الله أن يفعل به كذا فهذا الحق الذي عليه هو أحقه على نفسه بقوله ونظير تحريمه على نفسه وإيجابه على نفسه ما أخبر به من قسمه ليفعلن وكلمته السابقة كقوله { وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ } { طه 129 } وقوله { لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ } { السجدة 13 } و { لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ } { إبراهيم 13 } { فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ } { آل عمران 195 } { فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ } { الأعراف 6 } ونحو ذلك من صيغ القسم المتضمنة معنى الإيجاب والمعنى بخلاف القسم المتضمن للخبر المحض ولهذا قال الفقهاء اليمين إما أن توجب حقا أو منعا أو تصديقا أو تكديبا³⁹⁵

إقامة الحجة على أهل الشرائع ودم تفرقهم و إختلافهم

قال تعالى { وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ } { 110 } وَإِنَّ كَلِمًا لَيُوفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ } { 111 } { هود 110-111 } لفظ الاختلاف في القرآن يراد به التضاد والتعارض لا يراد به مجرد عدم التماثل كما هو اصطلاح كثير من النظار ومنه قوله { وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا }

{النساء 82} وقوله {إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلَفٍ} {8} {يُؤْفِكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ} {9} {الذاريات 8-9} وقوله {وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ} {البقرة 253} ³⁹⁶

قال تعالى { وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ } {البينة 4} فيه إقامة الحجة على أهل الشرائع و ذم تفرقهم و إختلافهم و أن ذلك بعد أن جاءتهم البينة و هاتان الجملتان نظيرهما قوله { كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيُحْكَمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ } {البقرة 213} ثم قال { وَمَا اختلفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اختلفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ } {البقرة 213} و مثل ذلك قوله تعالى { شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ } {الشورى 13} ثم قال { وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَفُضِّي بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ } {الشورى 14} وقوله { **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِّي بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ** } {هود 110} فى سورة هود و سورة عسق ³⁹⁷

(فيه نقص الرجوع الى نفس المرجع) وهكذا توجه عامة اليهود والنصارى في شك من ذلك مريب ³⁹⁸

أهل الرحمة لا يختلفون

أن الله تعالى ذكر أن المختلفين جاءتهم البينة وجاءهم العلم وإنما اختلفوا بغيا ولهذا ذمهم الله وعاقبهم فإنهم لم يكونوا مجتهدين مخطئين بل كانوا قاصدين البغي عالمين بالحق معرضين عن القول وعن العمل به ونظير هذا قوله { إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اختلفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ } {آل عمران 19} قال الزجاج اختلفوا للبغى لا لقصد البرهان وقال تعالى { **وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأً صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اختلفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ** } {يونس 93} وقال تعالى { **وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ** } {16} { **وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اختلفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ**

³⁹⁶مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 19

³⁹⁷مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 510

³⁹⁸الجواب الصحيح ج: 3 ص: 56

يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ {17} ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ {18} إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ {19} هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ {20} الجاثية 16-20 فهذه المواضع من القرآن تبين أن المختلفين ما اختلفوا حتى جاءهم العلم والبيانات فاختلّفوا للبغي والظلم لا لأجل اشتباه الحق بالباطل عليهم وهذا حال أهل الاختلاف المذموم من أهل الأهواء كلهم لا يختلفون إلا من بعد أن يظهر لهم الحق ويجيئهم العلم فيبغى بعضهم على بعض ثم المختلفون المذمومون كل منهم يبغى على الآخر فيكذب بما معه من الحق مع علمه أنه حق ويصدق بما مع نفسه من الباطل مع العلم أنه باطل وهو لاء كلهم مذمومون ولهذا كان أهل الاختلاف المطلق كلهم مذمومين في الكتاب والسنة فإنه ما منهم إلا من خالف حقا واتبع باطلا ولهذا أمر الله الرسل أن تدعوا إلى دين واحد وهو دين الإسلام ولا يتفرقوا فيه وهو دين الأولين والآخرين من الرسل وأتباعهم قال تعالى {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ} {الشورى 13} يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ {51} وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ {52} فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ {53} المؤمنون 51-53 أي كتبا اتبع كل قوم كتابا مبتدعا غير كتاب الله فصاروا متفرقين مختلفين لأن أهل التفرق والاختلاف ليسوا على الحنيفية المحضة التي هي الإسلام المحض الذي هو إخلاص الدين لله الذي ذكره الله في قوله {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ} {البينة 5} وقال في الآية الأخرى {فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} {30} مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ {31} مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ {32} الروم 30-32 فنهاه أن يكون من المشركين الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا وأعاد حرف من ليبين أن الثاني بدل من الأول والبدل هو المقصود بالكلام وما قبله توطئة له وقال تعالى {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَفُضِّي بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ} {110} وَإِنَّ كَلَامًا لِّيُوقِنَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ {111} فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمِن تَابٍ مَعَكَ وَلَا تَطَّعُوا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ {112} وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ} {113} وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ} {114} وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} {115} فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ} {116} وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ} {117} وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ} {118} إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ

{119} هود 110-119 فأخبر أن أهل الرحمة لا يختلفون³⁹⁹

الاستقامة اتباع ما أمر

ان الكلمات الجوامع التي في القرآن تتضمن امثال المأمور به والوعيد على المعصية بتركه مثل قوله تعالى لنبية **{فَاسْتَقِمَّ كَمَا أَمَرْتُ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطَّغَوْا}** {هود112} وقال **{فَلِذَلِكَ فَادُعْ وَاسْتَقِمَّ كَمَا أَمَرْتُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ}** {الشورى15} وقال **{قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}** {14} **{قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ}** {15} {الأنعام14-15} وقال **{قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ}** {11} **{وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ}** {12} {الزمر11-12} وقال **{قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُكُمْ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَّفَكَّرُونَ}** {الأنعام50} وقال **{وَاتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ}** {يونس109} وقال **{وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ}** {الأنعام153} الى امثال هذه النصوص التي يوصى فيها باتباع ما أمر ويبين أن الاستقامة في ذلك وانه لم يأمر الا بذلك وأنه ان ترك ذلك كان عليه العذاب ونحو ذلك مما يبين ان اتباع الامر أصل عام وان اجتناب المنهى عنه فرع خاص⁴⁰⁰

الظالم لا يجوز أن يؤتم به في ظلمه ولا يركن اليه

وإذا قيل هذا هو الامام فهو الذي يستحق أن يؤتم به كما قال تعالى لابراهيم **{ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}** {البقرة124} فعهد بالامامة لا ينال الظالم فالظالم لا يجوز أن يؤتم به في ظلمه ولا يركن اليه كما قال تعالى **{وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ}** {هود113} فمن اتمم بمن لا يصلح للامامة فقد ظلم نفسه فكيف بمن جعل مع الله الها آخر وعبد من لا يصلح للعبادة والله تعالى **{ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ}** {النساء48}⁴⁰¹

يغزى مع كل أمير برا كان أو فاجرا إذا كان الغزو مشروعا

ولا خلاف بين علماء السنة أنهم يقاتلون مع أئمة العدل مثل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه لكن هل يقاتلون مع أئمة الجور فنقل عن مالك أنهم لا يقاتلون وكذلك قال فيمن نقض العهد من أهل الذمة لا يقاتلون مع أئمة الجور ونقل عنه أنه قال ذلك في الكفار وهذا منقول عن مالك وبعض أصحابه ونقل عنه خلاف ذلك وهو قول الجمهور وأكثر أصحابه خالفوه في ذلك وهو مذهب أبي حنيفة والشافعي وأحمد وقالوا يغزى مع كل أمير برا كان أو فاجرا إذا كان الغزو الذي يفعله جائزا فإذا قاتل الكفار أو المرتدين أو ناقضي العهد أو الخوارج قتالا مشروعا قوتل معه وإن قاتل قتالا وإن قاتل قتالا غير جائز لم يقاتل معه فيعاون على البر والتقوى ولا

⁴⁰⁰مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 113

⁴⁰¹مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 202-204

يعاون على الإثم والعدوان كما أن الرجل يسافر مع من يحج ويعتمر وإن كان في القافلة من هو ظالم فالظالم لا يجوز أن يعاون على الظلم لأن الله تعالى يقول {وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ {المائدة} 2 وقال موسى { رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ {القصص} 17 وقال تعالى {وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ {هود} 113 وقال تعالى {مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِّنْهَا {النساء} 85 والشفيع المعين فكل من أعان شخصا على أمر فقد شفعه فيه فلا يجوز أن يعان أحد لا ولي أمر ولا غيره على ما حرمه الله ورسوله وأما إذا كان للرجل ذنوب وقد فعل برا فهذا إذا أعين على البر لم يكن هذا محرما كما لو أراد مذب أن يؤدي زكاته أو يحج أو يقضى ديونه أو يرد بعض ما عنده من المظالم أو يوصى على بناته فهذا إذا أعين عليه فهو إعانة على بر وتقوى ليس إعانة على إثم وعدوان فكيف الأمور العامة والجهاد لا يقوم به إلا ولاة الأمور فإن لم يغز معهم لزم أن أهل الخير الأبرار لا يجاهدون فتفتت عزمات أهل الدين عن الجهاد فإما أن يتعطل وإما أن ينفرد به الفجار فيلزم من ذلك استيلاء الكفار أو ظهور الفجار لأن الدين لمن قاتل عليه وهذا الرأي من أفسد الآراء وهو رأي أهل البدع من الرافضة والمعتزلة وغيرهم حتى قيل لبعض شيوخ الرافضة إذا جاء الكفار إلى بلادنا فقتلوا النفوس وسبوا الحريم وأخذوا الأموال هل نقاتلهم فقال لا المذهب أنا لا نغزو إلا مع المعصوم فقال ذلك المستفتى مع عاميته والله إن هذا لمذهب نجس فإن هذا المذهب يفضي إلى فساد الدين والدنيا وصاحب هذا القول تورع فيما يظنه ظلما فوقع في أضعاف ما تورع عنه بهذا الورع الفاسد وأين ظلم بعض ولاة الأمور من استيلاء الكفار بل من استيلاء من هو أظلم منه فالأقل ظلما ينبغي أن يعاون على الأكثر ظلما فإن الشريعة مبناها على تحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها بحسب الإمكان ومعرفة خير الخيرين وشر الشرين حتى يقدم عند التزاحم خير الخيرين ويدفع شر الشرين ومعلوم أن شر الكفار والمرتدين والخوارج أعظم من شر الظالم وأما إذا لم يكونوا يظلمون المسلمين والمقاتل لهم يريد أن يظلمهم فهذا عدوان منه فلا يعاون على العدوان⁴⁰²

ما خوطب به خوطبت به الأمة ما لم يرد نص بالتخصيص

فان الله سبحانه لما قال {وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ {الأعراف} 204 وقال {وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ {الأعراف} 205 وهذا أمر للنبي ولأمة فانه ما خوطب به خوطبت به الأمة ما لم يرد نص بالتخصيص كقوله {وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ {ق} 39 وقوله {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ {هود} 114 وقوله {أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ {الإسراء} 78 ونحو ذلك وهذا أمر يتناول الامام والمأموم والمنفرد بأن يذكر الله في نفسه بالغدو والآصال وهو يتناول صلاة الفجر والظهر والعصر فيكون المأموم مأمورا بذكر ربه في نفسه لكن إذا كان مستمعا كان مأمورا بالاستماع وإن لم يكن مستمعا كان

مأمورا بذكر ربه في نفسه والقرآن أفضل الذكر كما قال تعالى { وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ
{ الأنبياء 50⁴⁰³

الإسلام هو الإستسلام لخلقه وأمره

فإنه لا يقبل دين إلا دين الإسلام وهو الإستسلام لخلقه وأمره فيسلم لما قدره وقضاه ويسلم لما يأمر به ويحبه وهذا نفعه وندعو إليه وذاك نسلمه ونتوكل فيه عليه فنرضى بالله ربا وبالإسلام ديننا وبمحمد نبيا ونقول في صلاتنا {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} الفاتحة 5 مثل قوله تعالى { فَأَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ } هود 123 وقوله تعالى { اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ } البقرة 153 وقوله تعالى { وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ } {114} وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } {115} هود 114 - 115⁴⁰⁴

لم يخاطبوا بالصلاة الا ومسامها معلوم عندهم

وبسبب الكلام في مسألة الايمان تنازع الناس هل في اللغة أسماء شرعية نقلها الشارع عن مسماها في اللغة أو أنها باقية في الشرع على ما كانت عليه في اللغة لكن الشارع زاد في أحكامها لا في معنى الأسماء وهكذا قالوا في إسم الصلاة و الزكاة و الصيام و الحج إنها باقية في كلام الشارع على معناها اللغوي لكن زاد في أحكامها ومقصودهم ان الايمان هو مجرد التصديق وذلك يحصل بالقلب واللسان وذهبت طائفة ثالثة الى أن الشارع تصرف فيها تصرف أهل العرف فهي بالنسبة الى اللغة مجاز وبالنسبة الى عرف الشارع حقيقة والتحقيق أن الشارع لم ينقلها ولم يغيرها ولكن استعملها مقيدة لا مطلقة كما يستعمل نظائرها ولفظ الايمان أمر به مقيدا بالايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وكذلك لفظ الإسلام بالإستسلام لله رب العالمين وقد بين الرسول تلك الخصائص والاسم دل عليها فلا يقال أنها منقولة ولا أنه زيد في الحكم دون الاسم بل الاسم انما استعمل على وجه يختص بمراد الشارع لم يستعمل مطلقا وهو إنما قال {أَقِيمُوا الصَّلَاةَ} بعد أن عرفهم الصلاة بالمأمور بها فكان التعريف منصرفا الى الصلاة التي يعرفونها لم يرد لفظ الصلاة وهم لا يعرفون معناها ولهذا كل من قال في لفظ الصلاة أنه عام للمعنى اللغوي أو أنه مجمل لتردده بين المعنى اللغوي والشرعي ونحو ذلك فأقولهم ضعيفة فان هذا اللفظ انما ورد خبرا أو أمرا فالخبر كقوله { أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى } {9} عَبْدًا إِذَا صَلَّى } {10} العلق 9-10 وسورة اقرأ من أول ما نزل من القرآن وكان بعض الكفار أما أبو جهل أو غيره قد نهى النبي عن الصلاة وقال لئن رأيتني يصلي لأطأن عنقه فلما رآه ساجدا رأى من الهول ما أوجب تكوصه على عقبه فإذا قيل { أَرَأَيْتَ الَّذِي

⁴⁰³مجموع الفتاوى ج: 23 ص: 284

⁴⁰⁴مجموع الفتاوى ج: 27 ص: 379

يُنْهَى {9} عَبْدًا إِذَا صَلَّى {10} العلق 9-10 فقد علمت تلك الصلاة الواقعة بلا إجمال في اللفظ ولا عموم ثم أنه لما فرضت الصلوات الخمس ليلة المعراج أقام النبي لهم الصلوات بمواقيتها صبيحة ذلك اليوم وكان جبرائيل يوم النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون يأتون بالنبي فإذا قيل لهم {أَقِيمُوا الصَّلَاةَ} عرفوا أنها تلك الصلاة وقيل أنه قبل ذلك كانت له صلاتان طرفي النهار فكانت أيضا معروفة فلم يخاطبوا بإسم من هذه الأسماء الا ومسماه معلوم عندهم فلا اجمال في ذلك ولا يتناول كل ما يسمى حجا ودعاء ووصوما فإن هذا انما يكون اذا كان اللفظ مطلقا وذلك لم يرد⁴⁰⁵

الصلاة عمود الدين فمتى ذهبت سقط الدين

وعماد الدين الذي لا يقوم إلا به هو الصلوات الخمس المكتوبات ويجب على المسلمين من الاعتناء بها ما لا يجب من الاعتناء بغيرها كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يكتب إلى عماله إن أهم أمركم عندي الصلاة فمن حفظها وحافظ عليها حفظ دينه ومن ضيعها كان لما سواها من عمله أشد إضاعة وهي أول ما أوجبه الله من العبادات والصلوات الخمس تولى الله إيجابها بمخاطبة رسوله ليلة المعراج وهي آخر ما وصى به النبي صلى الله عليه وسلم أمته وقت فراق الدنيا جعل يقول الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم وهي أول ما يحاسب عليه العبد من عمله وآخر ما يفقد من الدين فإذا ذهبت ذهب الدين كله وهي عمود الدين فمتى ذهبت سقط الدين قال النبي رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله وأمر الصلاة عظيم شأنها أن تذكر ههنا فإنها قوام الدين وعماده وتعظيمه تعالى لها في كتابه فوق جميع العبادات فإنه سبحانه يخصها بالذكر تارة ويفرنها بالزكاة تارة وبالصبر تارة وبالنسك تارة⁴⁰⁶

إقامة الصلاة تتضمن إتمامها بحسب الإمكان

قل تعالى {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ} هود 114 وان الله سبحانه وتعالى أمر في كتابه بإقامة الصلاة و ذم المصلين الساهين عنها المضيعين لها فقال تعالى في غير موضع {أَقِيمُوا الصَّلَاةَ} وإقامتها تتضمن إتمامها بحسب الإمكان كما سيأتي في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال أقيموا الركوع و السجود فإنني أراكم من بعد ظهري و في رواية أتموا الركوع و السجود و سيأتي تقرير دلالة ذلك وقد أخرج البخاري ومسلم في الصحيحين وأخرج أصحاب السنن أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وأصحاب المسانيد كمسند احمد وغير ذلك من أصول الإسلام عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المسجد فدخل رجل ثم جاء فسلم على النبي صلى الله عليه وسلم فرد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ارجع فصل فإنك

⁴⁰⁵مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 300

⁴⁰⁶مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 430

لم تصل فرجع الرجل فصلى كما كان صلى ثم سلم عليه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم
وعليك السلام ثم قال ارجع فصل فإنك لم تصل حتى فعل ذلك ثلاث مرات فقال الرجل والذي
بعثك بالحق ما أحسن غير هذا فعلمني قال إذا قمت إلى الصلاة فكبر ثم اقرأ ما تيسر معك من
القرآن ثم اركع حتى تطمئن راكعاً ثم ارفع حتى تعتدل قائماً ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً ثم اجلس
حتى تطمئن جالساً ثم اقل ذلك في صلاتك كلها وفي رواية للبخاري إذا قمت إلى الصلاة فاسبغ
الوضوء ثم استقبل القبلة فكبر وقرأ بما تيسر معك من القرآن ثم اركع حتى تطمئن راكعاً ثم ارفع
رأسك حتى تعتدل قائماً ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً ثم ارفع حتى تستوي وتطمئن جالساً ثم اسجد
حتى تطمئن ساجداً ثم ارفع حتى تستوي قائماً ثم اقل ذلك في صلاتك كلها وفي رواية له ثم
اركع حتى تطمئن راكعاً ثم ارفع حتى تستوي قائماً وبقية مثله وفي رواية وإذا فعلت هذا فقد
تمت صلاتك وما انتقصت من هذا فإنما انتقصته من صلاتك وعن رفاع بن رافع رضي
الله عنه أن رجلاً دخل المسجد فذكر الحديث وقال فيه فقال النبي صلى الله عليه وسلم إنه لا تتم
صلاة لأحد من الناس حتى يتوضأ فيضع الوضوء مواضعه ثم يكبر ويحمد الله عز وجل ويثني
عليه وقرأ بما شاء من القرآن ثم يقول الله أكبر ثم يركع حتى يطمئن راكعاً ثم يقول الله أكبر ثم
يرفع رأسه حتى يستوي قائماً ثم يسجد حتى يطمئن ساجداً ثم يقول الله أكبر ثم يرفع رأسه حتى
يستوي قاعداً ثم يقول الله أكبر ثم يسجد حتى تطمئن مفاصله ثم يرفع رأسه فيكبر فإذا فعل ذلك فقد
تمت صلاته وفي رواية إنها لا تتم صلاة أحدكم حتى يسبغ الوضوء كما أمر الله عز وجل
فيغسل وجهه ويديه إلى المرفقين ويمسح برأسه ورجليه إلى الكعبين ثم يكبر الله ويحمده ثم
يقرأ من القرآن ما أذن له وتيسر وذكر نحو اللفظ الأول وقال ثم يكبر فيسجد فيمكن وجهه و
ربما قال جبهته من الأرض حتى تطمئن مفاصله وتسترخي ثم يكبر فيستوي قاعداً على مقعدته
ويقوم صلبه فوصف الصلاة هكذا أربع ركعات حتى فرغ ثم قال لا تتم صلاة لأحدكم حتى يفعل
ذلك رواه أهل السنن أبو داود والنسائي وابن ماجه والترمذي وقال حديث حسن والروايتان
لفظ أبي داود وفي رواية ثالثة له قال إذا قمت فتوجهت إلى القبلة فكبر ثم اقرأ بأم القرآن و
بما شاء الله أن تقرأ فإذا ركعت فضع راحتك على ركبتيك وامد ظهرك وقال إذا سجدت فمكن
لسجودك فإذا رفعت فاقعد على فخذك اليسرى وفي رواية أخرى قال إذا أنت قمت في صلاتك
فكبر الله عز وجل ثم اقرأ ما تيسر عليك من القرآن وقال فيه فإذا جلست في وسط الصلاة
فاطمئن وافترش فخذك اليسرى ثم تشهد ثم إذا قمت فمثل ذلك حتى تفرغ من صلاتك وفي رواية
أخرى قال فتوضأ كما أمرك الله ثم تشهد فأتم ثم كبر فإن كان معك قرآن فاقرأ به وإلا فاحمد الله
عز وجل وكبره وهله وقال فيه وإن انتقصت منه شيئاً انتقصت من صلاتك فالنبي صلى
الله عليه وسلم أمر ذلك المصلي في صلاته بأن يعيد الصلاة وأمر الله ورسوله إذا أطلق كان
مقتضاه الوجوب وأمره إذا قام إلى الصلاة بالطمأنينة كما أمره بالركوع والسجود وأمره
المطلق على الإيجاب وأيضاً قال له فإنك لم تصل فنفي أن يكون عمله الأول صلاة والعمل
لا يكون منفيًا إلا إذا انتفى شيء من واجباته فأما إذا فعل كما أوجبه الله عز وجل فإنه لا يصح
نفيه لانتفاء شيء من المستحبات التي ليست بواجبة⁴⁰⁷

الوقت في كتاب الله وسنة رسول الله نوحان

وأما الوقت فالأصل في ذلك ان الوقت في كتاب الله وسنة رسول الله نوحان وقت إختيار ورفاهية ووقت حاجة وضرورة أما الأول فالأوقات خمسة وأما الثاني فالأوقات ثلاثة فصلاوات الليل وصلاوات النهار وهما اللتان فيهما الجمع والقصر بخلاف صلاة الفجر فإنه ليس فيها جمع ولا قصر لكل منهما وقت مختص وقت الرفاهية والإختيار والوقت مشترك بينهما عند الحاجة والإضطراب لكن لا تؤخر صلاة نهار إلى ليل ولا صلاة ليل إلى نهار ولهذا وقع الأمر بالمحافظة على الصلاة الوسطى صلاة العصر وقال النبي فيها من فاتته صلاة العصر فقد حبط عمله وقال فكانما وتر أهله وماله وقد دل على هذا الأصل ان الله في كتابه ذكر الوقت تارة ثلاثة وتارة خمسة أما الثلاثة ففي قوله **{وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ}** {هود114} وفي قوله **{أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ}** {الإسراء78} وقوله **{وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ}** {48} **{وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ}** {49} {الطور48-49} وأما الخمس فقد ذكرها أربعة في قوله **{فَسَبِّحْهُنَّ اللَّهُ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ}** {17} **{وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ}** {18} {الروم17-18} وقوله **{فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ}** طه130 وقوله **{وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ}** {39} **{وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ}** {40} {ق39-40} والسنة هي التي فسرت ذلك وبينته وأحكامته وذلك أنه قد ثبت بالنقل المتواتر عن النبي أنه كان يصلي الصلوات الخمس في خمس مواقيت في حال مقامه بالمدينة وفي غالب أسفاره حتى أنه في حجة الوداع آخر أسفاره كان يصلي كل صلاة في وقتها ركعتين وإنما جمع بين الظهر والعصر بعرفة وبين العشاءين بمزدلفة ولهذا قال ابن مسعود ما رأيت رسول الله صلى صلاة لغير وقتها إلا المغرب ليلة جمع والفجر بمزدلفة وإنما قال ذلك لأنه غلس بها تغليسا شديدا وقد بين جابر في حديثه انه صلاها حين طلع الفجر ولهذا إتفق المسلمون على الجمع بين الصلاتين بعرفة ومزدلفة لأن جمع هاتين الصلاتين في حجة الوداع دون غيرهما مما صلاه بالمسلمين بمنى أو بمكة هو من المنقول نقلا عاما متواترا مستقيضا وثبت عنه أنه بين مواقيت الصلاة بفعله لمن سأله عن المواقيت بالمدينة كما رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي موسى وحديث بريدة بن الحصيب وبين له جبريل المواقيت بمكة كما رواه جابر وابن عباس وروى مسلم في صحيحه المواقيت من كلام النبي صلى الله عليه وسلم من حديث عبدالله بن عمر وهو أحسن أحاديث المواقيت لأنه بيان بكلام النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال وقت الفجر مالم تطلع الشمس ووقت الظهر مالم يصر ظل كل شيء مثله ووقت العصر مالم تصفر الشمس ووقت المغرب مالم يسقط نور الشفق ووقت العشاء إلى نصف الليل وقد روى نحو ذلك من حديث أبي هريرة مرفوعا وفيه نظر وعلى هذه الأحاديث إعتد الإمام أحمد لكثرة إطلاعه على السنن وأما غيره من الأئمة فبلغه بعض هذه الأحاديث دون بعض فاتبع ما بلغه ومن إتبع ما بلغه فقد أحسن وما على المحسنين من سبيل⁴⁰⁸

اكثر آيات القرآن بدأت بالفجر

أن اكثر آيات القرآن بدأت بالفجر مثل قوله **{وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ}** {هود114} وقوله **{وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا}** طه130 وقوله **{فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ}**

وَسَبَّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ {ق39 وإنما بدأ بالظهر تارة كما بدأ في المغرب في قوله تعالى {فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ} الروم 17 الآية فتارة يبدأ أول النهار وتارة بأوسطه وتارة بأول الليل ولأن النائم إذا استيقظ بأول النهار كان بمنزلة الخلق الجديد فإن الانتباه حياة بعد الموت ونشور بعد السكون فما فعله حينئذ كان أول أعماله وبهذا يتبين أن أعمال النهار سابقة لأعمال الليل وإن أعمال النهار فواتيح وأعمال الليل خواتيم وإن كان الليل هو المتقدم على النهار خلقاً وإبداعاً⁴⁰⁹

ولفظ الليل والنهار في كلام الشارع إذا أطلق فالنهار من طلوع الفجر كما في قوله سبحانه وتعالى {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ} {هود114} وكما في قوله صم يوماً وافطر يوماً وقوله كالذي يصوم النهار ويقوم الليل ونحو ذلك فانما أراد صوم النهار من طلوع الفجر وكذلك وقت صلاة الفجر وأول وقت الصيام بالنقل المتواتر المعلوم للخاصة والعمامة والاجماع الذي لا ريب فيه بين الأمة وكذلك في مثل قوله صلاة الليل مثني مثني فإذا خفت الصباح فأوتر بركعة ولهذا قال العلماء كالامام أحمد بن حنبل وغيره ان صلاة الفجر من صلاة النهار وأما اذا قال الشارع نصف النهار فانما يعنى به النهار المبتدئ من طلوع الشمس لا يريد قط لا في كلامه ولا في كلام أحد من علماء المسلمين بنصف النهار النهار الذي أوله من طلوع الفجر فان نصف هذا يكون قبل الزوال ولهذا غلط بعض متأخري الفقهاء لما رأى كلام العلماء ان الصائم المتطوع يجوز له ان ينوي التطوع قبل نصف النهار وهل يجوز له بعده على قولين هما روايتان عن أحمد ظن أن المراد بالنهار هنا نهار الصوم الذي أوله طلوع الفجر وسبب غلظه في ذلك أنه لم يفرق بين مسمى النهار اذا أطلق وبين مسمى نصف النهار فالنهار الذي يضاف اليه نصف في كلام الشارع وعلماء امته هو من طلوع الشمس والنهار المطلق في وقت الصلاة والصيام من طلوع الفجر⁴¹⁰

الجمع لا يختص بالسفر الطويل بل يجمع للمطر ويجمع للمرض

قال تعالى { وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذَكَرَى لِلذَّاكِرِينَ } {هود114} وفعل كل صلاة في وقتها أفضل إذا لم يكن حاجة عند الأئمة كلهم وهو مذهب أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد في ظاهر مذهبيهما بل تنازعوا في جواز الجمع على ثلاثة أقوال فمذهب أبي حنيفة أنه لا يجمع إلا بعرفة ومزدلفة ومذهب مالك وأحمد في إحدى الروايتين أنه لا يجمع المسافر إذا كان نازلاً وإنما يجمع إذا كان سائراً بل عند مالك إذا جد به السير ومذهب الشافعي وأحمد في الرواية الأخرى أنه يجمع المسافر وإن كان نازلاً وسبب هذا

⁴⁰⁹شرح العمدة ج: 4 ص: 149

⁴¹⁰مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 471

النزاع ما بلغهم من أحاديث الجمع فإن أحاديث الجمع قليلة فالجمع بعرفة ومزدلفة متفق عليه وهو منقول بالتواتر فلم يتنازعا فيه وأبو حنيفة لم يقل بغيره لحديث ابن مسعود الذي في الصحيح أنه قال ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى صلاة لغير وقتها إلا صلاة الفجر بمزدلفة وصلاة المغرب ليلة جمع وأراد بقوله في الفجر لغير وقتها التي كانت عادته أن يصليها فيه فإنه جاء في الصحيح عن جابر أنه صلى الفجر بمزدلفة بعد أن برق الفجر وهذا متفق عليه بين المسلمين أن الفجر لا يصلى حتى يطلع الفجر لا بمزدلفة ولا غيرها لكن بمزدلفة غلس بها تغليسا شديدا وأما أكثر الأئمة فبلغتهم أحاديث في الجمع صحيحة كحديث أنس وابن عباس وابن عمر ومعاذ وكلها من الصحيح ففي الصحيحين عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا ارتحل قبل أن تزيغ الشمس أخر الظهر إلى وقت العصر ثم نزل فصلاهما جميعا وإذا ارتحل بعد أن تزيغ الشمس صلى الظهر والعصر ثم ركب وفي لفظ في الصحيح كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يجمع بين الصلاتين في السفر أخر الظهر حتى يدخل أول وقت العصر ثم يجمع بينهما وفي الصحيحين عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا عجل به السير جمع بين المغرب والعشاء وفي لفظ في الصحيح أن ابن عمر كان إذا جد به السير جمع بين المغرب والعشاء بعد أن يغيب الشفق ويقول إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا جد به السير جمع بين المغرب والعشاء وفي صحيح مسلم عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم جمع بين الصلاتين في سفرة سافرهما في غزوة تبوك فجمع بين الظهر والعصر وبين المغرب والعشاء قال سعيد بن جبير قلت لابن عباس ما حمله على ذلك قال أراد أن لا يخرج أمته وكذلك في صحيح مسلم عن أبي الطفيل عن معاذ بن جبل قال جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك بين الظهر والعصر وبين المغرب والعشاء قال فقلت ما حمله على ذلك قال أراد أن لا يخرج أمته بل قد ثبت عنه أنه جمع في المدينة كما في الصحيحين عن ابن عباس قال صلى لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الظهر والعصر جميعا من غير خوف ولا سفر وفي لفظ في الصحيحين عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى بالمدينة سبعا وثمانية جمع بين الظهر والعصر والمغرب والعشاء قال أيوب لعله في ليلة مطيرة وكان أهل المدينة يجمعون في الليلة المطيرة بين المغرب والعشاء ويجمع معهم عبد الله بن عمر وروى ذلك مرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهذا العمل من الصحابة وقولهم أراد أن لا يخرج أمته يبين أنه ليس المراد بالجمع تأخير الأولى إلى آخر وقتها وتقديم الثانية في أول وقتها فإن مراعاة مثل هذا فيه حرج عظيم ثم إن هذا جائز لكل أحد في كل وقت ورفع الحرج إنما يكون عند الحاجة فلا بد أن يكون قد رخص لأهل الأعذار فيما يرفع به عنهم الحرج دون غير أرباب الأعذار وهذا يبينني على أصل كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أن المواقيت لأهل الأعذار ثلاثة ولغيرهم خمسة فإن الله تعالى قال **{وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِّنَ اللَّيْلِ}** {هود 114} فذكر ثلاثة مواقيت والطرف الثاني يتناول الظهر والعصر والزلف يتناول المغرب والعشاء وكذلك قال **{أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا}** {الإسراء 78} والدلوك هو الزوال في أصح القولين يقال دلكت الشمس وزالت وزاغت ومالت فذكر الدلوك والغسق وبعد الدلوك يصلى الظهر والعصر وفي الغسق تصلى المغرب والعشاء ذكر أول الوقت وهو الدلوك وآخر الوقت وهو الغسق والغسق اجتماع الليل وظلمته ولهذا قال الصحابة كعبد الرحمن بن عوف وغيره إن المرأة الحائض إذا طهرت قبل طلوع الفجر صلت المغرب والعشاء وإذا طهرت قبل غروب الشمس صلت الظهر والعصر وهذا مذهب جمهور الفقهاء كمالك والشافعي وأحمد وأيضا فجمع النبي صلى الله عليه وسلم بعرفة ومزدلفة يدل على جواز الجمع بغيرهما للعذر فإنه قد كان من الممكن أن يصلي الظهر ويؤخر العصر إلى دخول وقتها ولكن لأجل النسك والاشتغال بالوقوف قدم العصر ولهذا كان القول المرضي عند جماهير العلماء أنه يجمع بمزدلفة وعرفة من كان أهله على مسافة القصر ومن لم يكن أهله كذلك فإن النبي صلى الله عليه وسلم لما صلى صلى معه جميع المسلمين أهل مكة وغيرهم ولم يأمر أحدا منهم بتأخير العصر ولا بتقديم

المغرب فمن قال من أصحاب الشافعي وأحمد إن أهل مكة لا يجمعون فقوله ضعيف في غاية الضعف مخالف للسنة البينة الواضحة التي لا ريب فيها وعذرهم في ذلك أنهم اعتقدوا أن سبب الجمع هو السفر الطويل والصواب أن الجمع لا يختص بالسفر الطويل بل يجمع للمطر ويجمع للمرض كما جاءت بذلك السنة في جمع المستحاضة فإن النبي صلى الله عليه وسلم أمرها بالجمع في حديثين وأيضا فكون الجمع يختص بالطويل فيه قولان للعلماء وهما وجهان في مذهب أحمد أحدهما يجمع في القصير وهو المشهور ومذهب الشافعي لا والأول أصح لما تقدم والله أعلم⁴¹¹

العشاء تجب بالطهر قبل الفجر

(فيه نقص في البداية) وأما وقت الإدراك و الضرورة فيمتد إلى طلوع الفجر الثاني لما روى يحيى بن آدم عن ابن عباس قال لا يفوت وقت الظهر حتى يدخل وقت العصر ولا يفوت وقت العصر حتى يدخل وقت المغرب ولا يفوت وقت العشاء إلى الفجر وروى الخلال أيضا عن ابن عباس لا يفوت وقت العشاء إلى الفجر وسنذكر إن شاء الله عن عبد الرحمن بن عوف وأبي هريرة و ابن عباس انهم قالوا في الحائض إذا طهرت قبل طلوع الفجر صلت المغرب و العشاء و لم ينقل عن صحابي خلافه بل وافقهم التابعون على إن العشاء تجب بالطهر قبل الفجر مع قوله في حديث أبي قتادة لما ناموا أما أنه ليس في النوم تفريط إنما التفريط على من لم يصل الصلاة حتى يجيء وقت الأخرى رواه احمد ومسلم وأبو داود فانه يقتضي امتداد كل صلاة إلى وقت التي تليها و إنما استثنى منه الفجر لظهور وقتها و ظاهر القرآن في قوله تعالى { **وَزُلْفَاءَ مِنَ اللَّيْلِ** } هود 114 وقوله سبحانه { **إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ** } الإسراء 78 وقوله تعالى { **وَمِنْ آتَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ** } طه 130 يعم ذلك الجملة و تأخير الصلاة إلى هذا الوقت لغير عذر لا يجوز كما تقدم في صلاة العصر وأول وقتها من طلوع الفجر الثاني كما تقدم في أحاديث المواقيت كلها مع قوله { **طَرَفِي النَّهَارِ** } هود 114 وقوله { **وَقُرْآنَ الْفَجْرِ** } الإسراء 78 وقوله { **وَجِينَ تَصْبِحُونَ** } الروم 17 وقوله { **قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا** } طه 130 وغير ذلك وهما فجران فالأول المستدق المستطيل في طول السماء كذنب السرحان وهو الذئب ويسمى الفجر الأول ولا عبرة به في شيء من الأحكام ثم يسود الأفق بعده ثم يطلع الفجر الصادق بعده معترضا في الأفق منتشرا لا ظلمة بعده ولذلك قال صلى الله عليه وسلم لا يمنعكم من سحوركم أذان بلال ولا الفجر المستطيل ولكن الفجر المستطير في الأفق وقد تقدم وقد روى أبو حفص والدارقطني عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال الفجر فجران فجر تحل فيه الصلاة ويحرم فيه الطعام وفجر تحرم فيه الصلاة ويحل فيه الطعام أما الذي يذهب مستطيلا في الأفق فانه يحل الصلاة ويحرم الطعام ويمتد وقتها في حال الاختيار والاضطرار إلى طلوع الشمس فإذا بدا حاجب الشمس خرج وقتها هذا ظاهر المذهب وهو المنصوص عنه⁴¹²

⁴¹¹الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 147-149 و مجموع الفتاوى ج: 24 ص: 24

⁴¹²شرح العمدة ج: 4 ص: 180-183

إذا طهرت الحائض في آخر النهار صلت الظهر والعصر جميعا

وإذا فوت الصلاة حتى خرج الوقت بأن يؤخر صلاة الليل إلى النهار والنهار إلى الليل فإنه يَأْتَمُ بذلك كما قال النبي في الحديث الصحيح من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله وقد جوز بعض العلماء تأخير الصلاة في بعض الأوقات كحال المسابقة كقول أبي حنيفة وأحمد في إحدى الروايتين والذي عليه أكثر العلماء أنه لا يجوز تأخير الصلاة بحال وهو قول مالك والشافعي وأحمد في ظاهر مذهبه لكن يجوز الجمع بين الصلاتين لعذر عند أكثر العلماء كما جمع النبي بين الظهر والعصر بعرفة وبين المغرب والعشاء بمزدلفة والجمع في هذين الموضوعين ثابت بالسنة المتواترة واتفق العلماء وكذلك ثبت في الصحيح عن النبي أنه كان يجمع في السفر إذا جد به السير وأنه صلى بالمدينة ثمانيا جمعا الظهر والعصر وسبعا المغرب والعشاء أراد بذلك أن لا يحرّج أمته لقوله تعالى { مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ } الحج 78 فلماذا كان مذهب الإمام أحمد وغيره من العلماء كطائفة من أصحاب مالك وغيره أنه يجوز الجمع بين الصلاتين إذا كان عليه حرج في التفريق فيجمع بينهما المريض وهو مذهب مالك وطائفة من أصحاب الشافعي ويجوز الجمع بين المغرب والعشاء في المطر عند الجمهور كمالك والشافعي وأحمد وقال أحمد يجوز إذا كان له شغل وقال القاضي أبو يعلى إذا كان له عذر يبيح له ترك الجمع والجماعة جاز الجمع فمذهب فقهاء الحجاز وفقهاء الحديث كمالك والشافعي وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه وأبي ثور وابن المنذر وغيرهم يجوز الجمع بين الصلاتين في الجملة ولا يجوز التقويت بأن يؤخر صلاة النهار إلى الليل وصلاة الليل إلى النهار ومذهب طائفة من فقهاء الكوفة كأبي حنيفة وغيره أنه لا يجوز الجمع إلا بعرفة ومزدلفة وكذلك إذا تعذر فعلها في الوقت أجزاها عن الوقت وقول من أمر بالجمع بين الصلاتين من غير تقويت أرجح من قول من أمر بالتقويت ولم يأمر بالجمع فإن الكتاب والسنة يدلان على أن الله أمر بفعل الصلاة في وقتها وأمر بالمحافظة عليها كما قال تعالى { حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى } البقرة 238 هذه ناسخة لتأخير الصلاة يوم الخندق وقال النبي صلوا الصلاة لوقتها وقد دل الكتاب والسنة على أن المواقيت خمسة في حال الاختيار وهي ثلاثة في حال العذر ففي حال العذر إذا جمع بين الصلاتين بين الظهر والعصر وبين المغرب والعشاء فإنما صلى الصلاة في وقتها لم يصل واحدة بعد وقتها ولهذا لم يجب عليه عند أكثر العلماء أن ينوي الجمع ولا ينوي القصر وهذا قول مالك وأبي حنيفة وأحمد في نصوصه المعروفة وهو اختيار أبي بكر عبدالعزيز ولهذا كان عند جمهور العلماء كمالك والشافعي وأحمد إذا طهرت الحائض في آخر النهار صلت الظهر والعصر جميعا وإذا طهرت في آخر الليل صلت المغرب والعشاء جميعا كما نقل ذلك عن عبدالرحمن بن عوف وأبي هريرة وابن عباس لأن الوقت مشترك بين الصلاتين في حال العذر فإذا طهرت في آخر النهار فوقت الظهر باق فتصلها قبل العصر وإذا طهرت في آخر الليل فوقت المغرب باق في حال العذر فتصلها قبل العشاء ولهذا ذكر الله المواقيت تارة خمسا ويذكرها ثلاثا تارة كقوله { وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِّنَ اللَّيْلِ } هود 114 الآية وهو وقت المغرب والعشاء وكذلك قال الله تعالى { أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ } الإسراء 78 والدلوك هو الزوال وغسق الليل هو اجتماع ظلمة الليل وهذا يكون بعد مغيب الشفق فأمر الله بالصلاة من الدلوك إلى الغسق فرض في ذلك الظهر والعصر والمغرب والعشاء ودل ذلك على أن هذا كله وقت الصلاة فمن الدلوك إلى المغرب وقت الصلاة ومن المغرب إلى غسق الليل وقت الصلاة وقال { وَقُرْآنَ الْفَجْرِ } الإسراء 78 لأن الفجر خصت بطول القراءة فيها ولهذا جعلت

ركعتين في الحضر والسفر فلا تقصر ولا تجمع إلى غيرها فإنه عوض بطول القراءة فيها عن كثرة العدد⁴¹³

وتجب الصلاة أيضا بإدراك آخر جزء من الوقت فإذا أسلم الكافر أو طهرت الحائض أو النفساء في آخر جزء من وقت صلاة ولو أنه بقدر تكبيرة فعليهما فعلها أداء إن أمكن وألا ف قضاء من غير خلاف في المذهب لأنهما أدركا بعض الوقت على وجه يصح بناء ما بعده عليه فأشبهه من أمكنه فعل الجميع في الوقت وكذلك إن بلغ الصبي وعقل المجنون وقلنا لا صلاة عليهما وإن كان الإدراك في وقت الثانية من المجموعتين وجبت الأولى أيضا لما ذكره الإمام أحمد وغيره عن عبد الرحمن بن عوف و عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قالوا إذا طهرت الحائض قبل مغيب الشمس صلت الظهر والعصر وإذا رأيت الظهر قبل أن يطلع الفجر صلت المغرب والعشاء وروى حرب عن أبي هريرة قال إذا طهرت قبل أن يطلع الفجر صلت المغرب والعشاء وهذا لأن مواقيت الصلاة خمسة في حال الاختيار وثلاثة في حال العذر والضرورة بدليل قوله تعالى **{ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ } هود 114** وقوله سبحانه **{ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ } الإسراء 78** وإن السنة مضت بذلك في حال العذر حتى جاز إن يصلي الظهر والعصر ما بين الزوال إلى غروب الشمس ويصلي المغرب والعشاء ما بين الغروب إلى طلوع الفجر وهو الجمع بين الصلاتين إذا آخر الأولى بنية الجمع ثم حدث له عذر أخرهما بسببه إلى وقت الضرورة وهذا وقت الضرورة فلذلك كان مدركا للأولى بما أدرك به الثانية وإن كان الإدراك في وقت الأولى بأن تحيض المرأة في وقت الظهر أو المغرب أو يجن الرجل فهل يجب عليهما قضاء العصر والعشاء على روايتين إحداهما يجب القضاء لأن وقتها واحد والثانية لا يجب وهي المنصورة عند أصحابنا لأن وقت الأولى إنما يكون وقتا للثانية إذا فعل الأولى فتكون الثانية تابعة لها بخلاف وقت الثانية فإنه يكون وقتا للأولى فعلها أو لم يفعلها⁴¹⁴

{ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ }

" لمن عمل بها من امتي "

وقوله **{ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرِي لِلذَّاكِرِينَ } هود 114** وغير ذلك من الآيات التي نزلت بمكة ثم جرى بالمدينة سبب يقتضي الخطاب فأنزلت مرة ثانية⁴¹⁵

مجموع الفتاوى ج: 21 ص: 432-435

وروى معاذ بن جبل رضي الله عنه قال جاء رجل فقال يا رسول الله ما تقول في رجل أصاب من امرأة لا تحل له فلم يدع شيئاً يصيب الرجل من المرأة إلا قد أصابه منها إلا أنه لم يجمعها فقال تَوْضُأً وَضَوْءًا حَسَنًا ثُمَّ قَمِ فَصَلْ قَالَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ **{وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهِنُ بِهَا السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ}** هود 114 فقال معاذ أهي خاصة أم للمسلمين عامة قال بل هي للمسلمين عامة رواه أحمد والدارقطني فأمر بالوضوء مع المباشرة دون الفرج⁴¹⁶

قد حرم الله سبحانه وتعالى الفواحش ما ظهر منها وما بطن وان اتى هذه الفواحش معتقدا تحريمها فهو من المسلمين الذين قال فيهم النبي صلى الله عليه وسلم في حديث ابي ذر من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة وان زنا وان سرق فإن المسلم الذي يأتي بفاحشة اما ان يتوب الى الله ويستغفره فيدخل في قوله **{وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهِنُ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ}** هود 114 وفي الصحيحين عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم ان رجلا اصاب من امرأة قبله فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له فأنزل عليه **{وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهِنُ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ}** هود 114 قال الرجل الى هذه الآية قال لمن عمل بها من امتي والمسلم اذا اتى الفاحشة لا يكفر وان كان كمال الايمان الواجب قد زال عنه كما في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع الناس اليه فيها ابصارهم وهو مؤمن فأصل الايمان معه وهو قد يعود الى المعصية ولكنه يكون مؤمنا اذا فارق الدنيا كما في الصحيح عن عمر ان رجلا كان يدعي حمارا وكان يشرب الخمر وكان كلما اتى به الى النبي صلى الله عليه وسلم امر بجلده فقال رجل لعنه الله ما اكثر ما يؤتى به الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم لا تلغنه فإنه يحب الله ورسوله فشهد له بأنه يحب الله ورسوله ونهى عن لعنته كما تقدم في الحديث الاخر الصحيح وان سرق وذلك ان معه اصل الاعتقاد ان الله حرم ذلك ومعه خشية عقاب الله ورجاء رحمة الله وايمانه بأن الله يغفر الذنوب ويأخذ به فيغفر الله له به كما في الصحيح عن ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم وقال اذنب عبد ذنبا فقال أي رب اني اذنبت ذنبا فاغفر لي فقال ربه علم عبدي ان له ربا يغفر الذنوب ويأخذ به قد غفرت لعبدي ثم اذنب ذنبا اخر فقال أي رب اذنبت ذنبا فاغفره لي فقال ربه علم عبدي ان له ربا يغفر الذنوب ويأخذ به قد غفرت لعبدي ثم اذنب ذنبا آخر فقال أي رب قد اذنبت ذنبا فاغفره لي فقال علم عبدي ان له ربا يغفر الذنوب ويأخذ به قد غفرت لعبدي فليفعل ما شاء وكذلك في الصحاح من غير وجه حديث الذي لم يعمل خيرا قط وقال لأهله اذا انا مت فاحرقوني ثم اسحقوني ثم ذروني في يوم ريح الحديث فقال الله له ما حملك على ما فعلت قال خشيتك يا رب فغفر الله له بتلك الخشية وكذلك من افضل اعمال المؤمن التوبة كما قال النبي صلى الله عليه وسلم للغامرية التي اقرت بالزنا حتى رجمها لقد ابنت توبة لو تابها مكس لغفر له وهل وجدت توبة افضل من ان جادت بنفسها لله وحديث صلاة التوبة محفوظ في السنن عن علي بن ابي بكر الصديق عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ما من مسلم يذنب

ذنباً فيتوضأ ويحسن الوضوء ثم يصلي ركعتين ويستغفر الله الا غفر له وقرأ هذه الآية {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ بِمَا يُصِرُّونَ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ} آل عمران 135 وهذا باب واسع فان الذنوب التي يبئلى بها العباد يسقط عنهم وهو مؤمن ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع الناس اليه فيها ابصارهم وهو مؤمن فأصل الايمان معه وهو قد يعود الى المعصية ولكنه يكون مؤمناً اذا فارق الدنيا كما في الصحيح عن عمر ان رجلاً كان يدعي حماراً وكان يشرب الخمر وكان كلما اتى به الى النبي صلى الله عليه وسلم امر بجلده فقال رجل لعنه الله ما اكثر ما يؤتى به الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم لا تلعه فإنه يحب الله ورسوله فشهد له بأنه يحب الله ورسوله ونهى عن لعنته كما تقدم في الحديث الاخر الصحيح وان زنا وان سرق وذلك ان معه اصل الاعتقاد ان الله حرم ذلك ومعه خشية عقاب الله ورجاء رحمة الله وايمانه بأن الله يغفر الذنوب ويأخذ به فيغفر الله له به كما في الصحيح عن ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم الذنوب كما يقوله الخوارج ولا انه يخرج من الايمان بالكلية كما يقوله المعتزلة لكن ينقص الايمان ويمنع كماله الواجب وان كانت المرجئة تزعم ان الايمان لا ينقص ايضاً فمذهب اهل السنة المتبعون للسلف الصالح ان الايمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية فأما استحلال ما حرم الله ورسوله من الفواحش وغيرها فهو كفر وبمثله اهلك الله قوم لوط الذين استحلوا الفاحشة وفعلوها معلنين بها مستحلين لها قال تعالى {فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّن سَجِيلٍ مَّنضُودٍ} {82} مُسَوِّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ} {83} هود 82- 83 وقد روى عن قتادة من الظالمين من هذه الامة وقد روى انه يكون فيها خسف وقذف ومسح⁴¹⁷

عمل الحسنات يطهر النفس ويزكيها من الذنوب

أن الزكاة تستلزم الطهارة لأن معناها معنى الطهارة قوله {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ} {التوبة 103} من الشر {وَتُزَكِّيهِمْ} {التوبة 103} بالخير قال اللهم طهرنى بالماء والبرد والتلج كان يدعو به فى الإستفتاح وفى الإعتدال من الركوع والغسل فهذه الأمور توجب تبريد المغسول بها و البرد يعطى قوة وصلابة وما يسر يوصف بالبرد وقررة العين ولهذا كان دمع السرور باردا ودمع الحزن حارا لأن ما يسوء النفس يوجب حزنها وغمها وما يسرها يوجب فرحها وسرورها وذلك مما يبرد الباطن فسأل النبي أن يغسل الذنوب على وجه يبرد القلوب أعظم برد يكون ما فيه من الفرح والسرور الذي أزال عنه ما يسوء النفس من الذنوب وقوله بالتلج والبرد والماء البارد تمثيل بما فيه من هذا الجنس والا فنفس الذنوب لا تغسل بذلك كما يقال أذقنا برد عفوك وحلاوة مغفرتك ولما قضى أبو قتادة دين المدين قال صلى الله عليه وسلم الآن بردت جلدته ويقال برد اليقين وحرارة الشك ويقال هذا الأمر يتلج له الصدر إذا كان حقا يعرفه القلب ويفرح به حتى يصير فى مثل برد الثلج ومرض النفس أما شبهة وأما شهوة أو غضب والثلاثة توجب السخونة ويقال لمن نال ممطلوبه برد قلبه فإن الطالب فيه حرارة الطلب وقوله {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ} {التوبة 103} دليل على أن عمل الحسنات يطهر النفس ويزكيها من الذنوب السالفة فإنه بعد قوله {وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ} {التوبة 102} الآية فالتوبة والعمل الصالح يحصل بها التطهير والتزكية ولهذا قال فى سياق قوله {قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ

يَعُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ { النور 30 الآيات } وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً { النور 31 الآية فأمرهم جميعاً بالتوبة في سياق ما ذكره لأنه لا يسلم أحد من هذا الجنس كما في الصحيح إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا الحديث وكذلك في الصحيح أن قوله **{ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ } هود 114** نزلت بسبب رجل نال من امرأة كل شيء إلا الجماع ثم ندم فنزلت ويحتاج المسلم في ذلك إلى أن يخاف الله وينهى النفس عن الهوى ونفس الهوى والشهوة لا يعاقب عليه بل على إتباعه والعمل به فإذا كانت النفس تهوى وهو ينهاها كان نهيه عبادة لله وعملاً صالحاً وثبت عنه أنه قال المجاهد من جاهد نفسه في ذات الله فيؤمر بجهادها كما يؤمر بجهاد من يأمر بالمعاصي ويدعو إليها وهو إلى جهاد نفسه أحوج فإن هذا فرض عين وذاك فرض كفاية والصبر في هذا من أفضل الأعمال فإن هذا الجهاد حقيقة ذلك الجهاد فمن صبر عليه صبر على ذلك الجهاد كما قال والمهاجر من هجر السيئات ثم هذا لا يكون محموداً فيه إلا إذا غلب بخلاف الأول فإنه من **{ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا } النساء 74** ولهذا قال صلى الله عليه وسلم ليس الشديد بالصرعة إلخ وذلك لأن الله أمر الإنسان أن ينهى النفس عن الهوى وأن يخاف مقام ربه فحصل له من الإيمان ما يعينه على الجهاد فإذا غلب لكان لضعف إيمانه فيكون مفرطاً بترك الأمور بخلاف العدو الكافر فإنه قد يكون بدنه أقوى فالذنوب إنما تقع إذا كانت النفس غير ممثلة لما أمرت به ومع إمتثال الأمور لا تفعل المحظور فإنهما ضدان قال تعالى **{ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ } يوسف 24** الآية وقال **{ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ } الحجر 42** فعباد الله مخلصون لا يغويهم الشيطان والغى خلاف الرشد وهو إتباع الهوى فمن مالت نفسه إلى محرم فليات بعبادة الله كما أمر الله مخلصاً له الدين فإن ذلك يصرف عنه السوء الفحشاء خشية ومحبة والعبادة له وحده وهذا يمنع من السيئات فإذا كان تائباً فإن كان ناقصاً فوقع السيئات من صاحبه كان ماحياً لها بعد الوقوع فهو كالترياق الذي يدفع أثر السم ويرفعه بعض حصوله وكالغذاء من الطعام والشراب وكالإستمتاع من بالحلال الذي يمنع النفس عن طلب الحرام فإذا حصل له طلب إزالتة وكالعلم الذي يمنع من الشك ويرفعه بعد وقوعه وكالطب الذي يحفظ الصحة ويدفع المرض وكذلك كما في القلب من الإيمان يحفظ بأشباهة مما يقوم به وإذا حصل منه مرض من الشبهات والشهوات وأزيل بهذه ولا يحصل المرض إلا لنقص أسباب الصحة كذلك القلب لا يمرض إلا لنقص إيمانه وكذلك الإيمان والكفران متضادان فكل ضدين فأحدهما يمنع الآخر تارة ويرفعه أخرى كالسواد والبياض حصل موضعه ويرفعه إذا كان حاصلًا كذلك الحسنات والسيئات ⁴¹⁸

الذنب المحقق يرتفع عقابه في الآخرة بأسباب متعددة

فإن الذنوب مطلقاً من جميع المؤمنين هي سبب العذاب لكن العقوبة بها في الآخرة في جهنم تندفع بنحو عشرة أسباب منها الأعمال الصالحة فإن الله تعالى يقول **{ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ } هود 114** وقال النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل يوصيه يا معاذ اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان كفارات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر أخرجاه في الصحيحين وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم من صام رمضان

إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه وقال من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه وقال أرأيتم لو أن بياض أحدم نهرًا غمرا يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل كان يبقى من دونه شيء قالوا لا قال كذلك الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا كما يمحو الماء الدرن وهذا كله في الصحيح وقال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ } {10} { تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } {11} { يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } {12} { الصف 10- 12 } وفي الصحيح يغفر للشهيد كل شيء إلا الدين وما روى أن شهيد البحر يغفر له الدين فإسناده ضعيف والدين حق لأدمي فلا بد من استيفائه وفي الصحيح صوم يوم عرفة كفارة سنتين وصوم يوم عاشوراء كفارة سنة ومثل هذه النصوص كثير وشرح هذه الأحاديث يحتاج إلى بسط كثير فإن الإنسان قد يقول إذا كفر عني بالصلوات الخمس فأني شيء تكفر عني الجمعة أو رمضان وكذلك صوم يوم عرفة وعاشوراء وبعض الناس يجيب عن هذا بأنه يكتب لهم درجات إذا لم تجد ما تكفره من السيئات فيقال أو لا العمل الذي يمحو الله به الخطايا ويكفر به السيئات هو العمل المقبول والله تعالى إنما يتقبل من المتقين والناس لهم في هذه الآية وهي قوله تعالى { إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ } { المائدة 27 } ثلاثة أقوال طرفان ووسط فالخوارج والمعتزلة يقولون لا يتقبل الله إلا ممن اتقى الكبائر وعندهم صاحب الكبيرة لا يقبل منه حسنة بحال والمرجئة يقولون من اتقى الشرك والسلف والأئمة يقولون لا يتقبل إلا ممن اتقاه في ذلك العمل ففعله كما أمر به خالصا لوجه الله تعالى قال الفضيل بن عياض في قوله تعالى { لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا } { هود 7 } قال أخلصه وأصوبه قيل يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه قال إن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل حتى يكون خالصا وصوابا والخالص أن يكون لله والصواب أن يكون على السنة فصاحب الكبائر إذا اتقى الله في عمل من الأعمال تقبل الله منه ومن هو أفضل منه إذا لم يتق الله في عمل لم يتقبله منه وإن تقبل منه عملا آخر وإذا كان الله يتقبل ممن يعمل العمل على الوجه المأمور به ففي السنن عن عمار عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إن العبد لينصرف عن صلواته ولم يكتب له منها إلا نصفها إلا ثلثها إلا ربعها حتى قال إلا عشرها وقال ابن عباس ليس لك من صلواتك إلا ما عقلت منها وفي الحديث رب صائم حظه من صيامه العطش ورب قائم حظه من قيامه السهر وكذلك الحج والجهاد وغيرهما وفي حديث معاذ موقوفا ومرفوعا وهو في السنن الغزو غزوان فغزو بيتغى به وجه الله ويطاع فيه الأمير وتتفق فيه كرائم الأموال وبياسر فيه الشريك ويجتنب فيه الفساد ويتقى فيه الغلول فذلك الذي لا يعدله شيء وغزو لا بيتغى به وجه الله ولا يطاع فيه الأمير ولا تتفق فيه كرائم الأموال ولا يبياسر فيه الشريك ولا يجتنب فيه الفساد ولا يتقى فيه الغلول فذاك حسب صاحبه أن يرجع كفافا وقيل لبعض السلف الحاج كثير فقال الداج كثير والحاج قليل ومثل هذا كثير فالمحو والتكفير يقع بما يتقبل من الأعمال وأكثر الناس يقصرون في الحسنات حتى في نفس صلواتهم فالسعيد منهم من يكتب له نصفها وهم يفعلون السيئات كثيرا فهذا يكفر بما يقبل من الصلوات الخمس شيء وبما يقبل من الجمعة شيء وبما يقبل من صيام رمضان شيء آخر وكذلك سائر الأعمال وليس كل حسنة تمحو كل سيئة بل المحو يكون للصغائر تارة ويكون للكبائر تارة باعتبار الموازنة والنوع الواحد من العمل قد يفعله الإنسان على وجه يكمل فيه إخلاصه وعبوديته لله فيغفر الله له به كبائر كما في الترمذي وابن ماجه وغيرهما عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال يصاح برجل من أمتي يوم القيامة على رؤوس الخلائق فينشر عليه تسعة وتسعون سجلا كل سجل منها مد البصر فيقال هل تنكر من هذا شيئا فيقول لا يا رب فيقول لا ظلم عليك فتخرج له بطاقة قدر الكف فيها شهادة أن لا إله إلا الله فيقول أين تقع هذه البطاقة مع هذه السجلات فتوضع هذه البطاقة في كفيه والسجلات في كفة فتقلت البطاقة وطاشت السجلات فهذه حال من قالها بإخلاص وصدق كما قالها هذا الشخص وإلا

فأهل الكباير الذين دخلوا النار كلهم كانوا يقولون لا إله إلا الله ولم يترجح قولهم على سيئاتهم كما ترجح قول صاحب البطاقة وكذلك في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه فيها العطش فوجد بئرا فنزل فيها فشرب ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش فقال الرجل لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني فنزل البئر فملأ خفه ثم أمسكه بفيه حتى رقى فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له وفي لفظ في الصحيحين إن امرأة بغيا رأت كلبا في يوم حار يطيف ببئر قد أدلع لسانه من العطش فنزعت له موقها فسقته به فغفر لها وفي لفظ في الصحيحين أنها كانت بغيا من بغايا بني إسرائيل وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بينما رجل يمشي في طريق وجد غصن شوك على الطريق فأخره فشكر الله له فغفر له وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال دخلت امرأة النار في هرة ربطتها لا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت فهذه سقت الكلب بإيمان خالص كان في قلبها فغفر لها وإلا فليس كل ما بغى سقت كلبا يغفر لها وكذلك هذا الذي نحى غصن الشوك عن الطريق فعلة إذ ذاك بإيمان خالص وإخلاص قائم بقلبه فغفر له بذلك فإن الأعمال تتفاضل بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والإخلاص وإن الرجلين ليكون مقامهما في الصف واحدا وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض وليس كل من نحى غصن شوك عن الطريق يغفر له قال الله تعالى {لَنْ يَبَالَغَ اللَّهُ لِحُومِهَا وَلَا دِمَائِهَا وَلَكِنْ يَبَالَغُ التَّقْوَى مِنْكُمْ} الحج 37 فالناس يشتركون في الهدايا والضحايا والله لا يناله الدم المهرق ولا اللحم المأكول والتصدق به لكن يناله تقوى القلوب وفي الأثر أن الرجلين ليكون مقامهما في الصف واحدا وبين صلاتيهما كما بين المشرق والمغرب فإذا عرف أن الأعمال الظاهرة يعظم قدرها ويصغر قدرها بما في القلوب وما في القلوب يتفاضل لا يعرف مقادير ما في القلوب من الإيمان إلا الله عرف الإنسان أن ما قاله الرسول كله حق ولم يضرب بعضه ببعض وقد قال تعالى {وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ} المؤمنون 60 وفي الترمذي وغيره عن عائشة رضي الله عنها قالت يا رسول الله أهو الرجل يزنى ويسرق ويشرب الخمر ويخاف أن يعاقب قال لا يا ابنه الصديق بل هو الرجل يصوم ويصلى ويتصدق ويخاف أن لا يتقبل منه وقد ثبت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو انفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه وذلك أن الإيمان الذي كان في قلوبهم حين الإنفاق في أول الإسلام وقلة أهله وكثرة الصوارف عنه وضعف الدواعي إليه لا يمكن أحدا أن يحصل له مثله ممن بعدهم وهذا يعرف بعضه من ذاق الأمور وعرف المحن والابتلاء الذي يحصل للناس وما يحصل للقلوب من الأحوال المختلفة وهذا مما يعرف به أن أبا بكر رضي الله عنه لن يكون أحد مثله فإن اليقين والإيمان الذي كان في قلبه لا يساويه فيه أحد قال أبو بكر بن عياش ما سبقهم أبو بكر بكثرة صلاة ولا صيام ولكن بشيء وقر في قلبه وهكذا سائر الصحابة حصل لهم بصحبته للرسول مؤمنين به مجاهدين معه إيمان ويقين لم يشركهم فيه من بعدهم⁴¹⁹

الرد على الذين يقولون ان الحسنات انما تكفر الصغائر فقط فأما الكبائر فلا تغفر الا بالتوبة

قد دلت نصوص الكتاب والسنة على أن عقوبة الذنوب تزول عن العبد بنحو عشرة أسباب منها الحسنات الماحية كما قال تعالى {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ} هود 114 وقد قال تعالى {إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ} النساء 31 ومنها المصائب المكفرة ومنها دعاء المؤمنين بعضهم لبعض وشفاعة نبيهم وقال صلى الله عليه وسلم الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر وقال من صام رمضان إيماناً وإحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه وقال من قام ليلة القدر إيماناً وإحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه وقال من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه وقال فتنة الرجل في أهله وماله وولده تكفرها الصلاة والصيام والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقال من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل عضو منها عضواً منه من النار حتى فرجه بفرجه وهذه الأحاديث وأمثالها في الصحاح وقال الصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار والحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب وسؤالهم على هذا الوجه أن يقولوا الحسنات انما تكفر الصغائر فقط فأما الكبائر فلا تغفر الا بالتوبة كما قد جاء في بعض الأحاديث ما اجتنبت الكبائر فيجاب عن هذا بوجوه أحدها أن هذا الشرط جاء في الفرائض كالصلوات الخمس والجمعة وصيام رمضان وذلك ان الله تعالى يقول {إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ} النساء 31 فالفرائض مع ترك الكبائر مقتضية لتكفير السيئات واما الأعمال الزائدة من التطوعات فلا بد أن يكون لها ثواب آخر فان الله سبحانه يقول {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ} 7 {وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} 8 {الزلزلة 7-8} الثاني أنه قد جاء التصريح في كثير من الأحاديث بان المغفرة قد تكون مع الكبائر كما في قوله غفر له وان كان فر من الزحف وفي السنن أتينا رسول الله في صاحب لنا قد أوجب فقال اعتقوا عنه يعنق الله بكل عضو منه عضواً منه من النار وفي الصحيحين في حديث أبي ذر وان زنا وان سرق الثالث أن قوله لأهل بدر ونحوهم اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ان حمل على الصغائر أو على المغفرة مع التوبة لم يكن فرق بينهم وبين غيرهم فكما لا يجوز حمل الحديث على الكفر لما قد علم أن الكفر لا يغفر الا بالتوبة لا يجوز حمله على مجرد الصغائر المكفرة باجتناب الكبائر الرابع أنه قد جاء في غير حديث أن أول ما يحاسب عليه العبد من عمله يوم القيامة الصلاة فان أكملها والا قيل أنظروا هل له من تطوع فان كان له تطوع أكملت به الفريضة ثم يصنع بسائر أعماله كذلك ومعلوم أن ذلك النقص المكمل لا يكون لترك مستحب فان ترك المستحب لا يحتاج الى جبران ولأنه حينئذ لا فرق بين ذلك المستحب المتروك والمفعول فعلم أنه يكمل نقص الفرائض من التطوعات وهذا لا ينافي من أن الله لا يقبل النافلة حتى تؤدي الفريضة مع أن هذا لو كان معارضا للأول لوجب تقديم الأول لأنه أثبت وأشهر وهذا غريب رفعه وانما المعروف أنه في وصية أبي بكر لعمر وقد ذكره أحمد في رسالته في الصلاة وذلك لأن قبول النافلة يراد به الثواب عليها ومعلوم أنه لا يثاب على النافلة حتى تؤدي الفريضة فانه اذا فعل النافلة مع نقص الفريضة كانت جبرا لها واكمالا لها فلم يكن فيها ثواب نافلة ولهذا قال بعض السلف النافلة لا تكون الا لرسول الله لأن الله قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وغيره يحتاج الى المغفرة وتآول على هذا قوله {وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ} الإسراء 79 وليس اذا فعل نافلة وضيع فريضة تقوم النافلة مقام الفريضة مطلقا بل قد يكون عقوبته على ترك الفريضة أعظم من ثواب النافلة فان قيل العبد اذا نام عن صلاة أو نسيها كان عليه أن يصلحها اذا ذكرها بالنص والاجماع فلو كان لها بدل من التطوعات لم يجب القضاء قيل هذا خطأ فان قيل هذا يقال في جميع مسقطات العقاب فيقال اذا كان العبد يمكنه رفع العقوبة بالتوبة لم يبنه عن الفعل ومعلوم أن العبد عليه أن يفعل المأمور ويترك المحذور لأن الاخلال بذلك سبب للذم والعقاب وان جاز

مع اخلاله أن يرتفع العقاب بهذه الأسباب كما عليه أن يحتمى من السموم القاتلة وان كان مع تناوله لها يمكن رفع ضررها بأسباب من الأدوية والله عليم حكيم رحيم أمرهم بما يصلحهم ونهاهم عما يفسدهم ثم اذا وقعوا فى أسباب الهلاك لم يؤيسهم من رحمته بل جعل لهم أسبابا يتوصلون بها الى رفع الضرر عنهم ولهذا قيل ان الفقيه كل الفقيه الذى لا يؤيس الناس من رحمة الله ولا يجريهم على معاصى الله ولهذا يؤمر العبد بالتوبة كلما أذنب قال بعضهم لشيخه إني أذنب قال تب قال ثم أعود قال تب قال ثم أعود قال تب قال الى متى قال الى أن تحزن الشيطان وفى المسند عن على عن النبى أنه قال ان الله يحب العبد المفتن التواب وأيضا فان من نام عن صلاة أو نسيها فصلاته اذا استيقظ أو ذكرها كفارة لها تبرا بها الذمة من المطالبة ويرتفع عنه الذم والعقاب ويستوجب بذلك المدح والثواب وأما ما يفعله من التطوعات فلا نعلم القدر الذى يقوم ثوابه مقام ذلك ولو علم فقد لا يمكن فعله مع سائر الواجبات ثم اذا قدر أنه أمر بما يقوم مقام ذلك صار واجبا فلا يكون تطوعا والتطوعات شرعت لمزيد التقرب الى الله كما قال تعالى فى الحديث الصحيح ما تقرب الى عبدى بمثل اداء ما افترضت عليه ولا يزال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه الحديث فاذا لم يكن العبد قد أدى الفرائض كما أمر لم يحصل له مقصود النوافل ولا يظلمه الله فان الله لا يظلم مثقال ذرة بل يقيمها مقام نظيرها من الفرائض كمن عليه ديون لأناس يريد أن يتطوع لهم بأشياء فان وفاهم وتطوع لهم كان عادلا محسنا وان وفاهم ولم يتطوع كان عادلا وان أعطاهم ما يقوم مقام دينهم وجعل ذلك تطوعا كان غالطا فى جعله بل يكون من الواجب الذى يستحقونه ومن العجب أن المعتزلة يفتخرون بأنهم أهل التوحيد والعدل وهم فى توحيدهم نفوا الصفات نفيا يستلزم التعطيل والإشراك وأما العدل الذى وصف الله به نفسه فهو أن لا يظلم مثقال ذرة وأنه {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ} {7} وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} {8} الزلزلة 7-8 وهم يجعلون جميع حسنات العبد وإيمانه حابطا بذنب واحد من الكبائر وهذا من الظلم الذى نزه الله نفسه عنه فكان وصف الرب سبحانه بالعدل الذى وصف به نفسه أولى من جعل العدل هو التكذيب بقدر الله⁴²⁰

الوعيد الموجود فى الكتاب والسنة لا يلحق التائب

وهذا أمر متفق عليه بين المسلمين أن الوعيد فى الكتاب والسنة لأهل الكبائر موجود ولكن الوعيد الموجود فى الكتاب والسنة قد بين الله فى كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم أنه لا يلحق التائب بقوله {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} {الزمر 53} أى لمن تاب وقال فى الآية الأخرى {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} {النساء 48} فهذا فى حق من لم يتب فالشرك لا يغفر وما دون الشرك ان شاء الله غفره وان شاء عاقب عليه وفى الصحيحين عن النبى أنه قال ما يصيب المؤمن من نصب ولا وصب ولا هم ولا غم ولا حزن ولا أذى حتى الشوكة يشاكها الا كفر الله بها من خطاياها ولهذا لما نزل قوله {مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ} {النساء 123} قال أبو بكر يا رسول الله قد جاءت قاصمة الظهر وأينا لم يعمل سوءا فقال يا أبا بكر أأنت تنصب أأنت تحزن أأنت تصيبك الأولى فذلك مما تجزون به فالمصائب فى الدنيا يكفر الله بها من خطايا المؤمن ما به يكفر وكذلك الحسنات التى يفعلها قال الله تعالى {إِنَّ

الْحَسَنَاتِ يُذْهِبَنَّ السَّيِّئَاتِ { هود 114} وقال النبي الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان كفارات لما بينهما إذا اجتنبت الكبائر فالله تعالى لا يظلم

عده شيئاً كما قال { فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ {7} وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ {8} } الزلزلة 7-8 فالوعيد ينتفى عنه إما بتوبة وإما بحسنات يفعلها تكافىء سيئاته وإما بمصائب يكفر الله بها خطاياها وأما بغير ذلك وكما أن أحاديث الوعيد تقدم وكذلك أحاديث الوعد فقد يقول لا إله إلا الله ويحمد وجوب الصلاة والزكاة فهذا كافر يجب قتله وقد يكون من أهل الكبائر المستوجبين للنار وهذه مسألة الوعد والوعيد من أكبر مسائل العلم وقد بسطناها في مواضع⁴²¹

يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان

وأما قول الذين يحتجون بسابق القدر ويقولون إنه قد مضى الأمر والشقى شقى والسعيد سعيد محتجين بقوله صلى الله عليه وسلم من قال لا إله إلا الله دخل الجنة وإن زنى وإن سرق فيقال له لا ريب أن الكتاب والسنة فيهما وعد ووعيد وقد قال الله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا { النساء 10} وقال الله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا {29} وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُذْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصَلِّيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا {30} } النساء 29-30 ومثل هذا كثير في الكتاب والسنة والعبد عليه أن يصدق بهذا وبهذا لا يؤمن ببعض ويكفر ببعض فهؤلاء المشركون أرادوا أن يصدقوا بالوعد ويكذبوا بالوعد والحرورية والمعتزلة أرادوا أن يصدقوا بالوعد دون الوعد وكلاهما أخطأ والذي عليه أهل السنة والجماعة الإيمان بالوعد والوعيد فكما أن ما توعد الله به العبد من العقاب قد بين سبحانه أنه بشروط بأن لا يتوب فإن تاب تاب الله عليه وبأن لا يكون له حسنات تمحو ذنوبه فإن { **الْحَسَنَاتِ يُذْهِبَنَّ السَّيِّئَاتِ { هود 114}** و بأن لا يشاء الله أن يغفر له { إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ { النساء 48} فهكذا الوعد له تفسير وبيان فمن قال بلسانه لا إله إلا الله وكذب الرسول فهو كافر بإتفاق المسلمين وكذلك إن جحد شيئاً مما أنزل الله فلا يد من الإيمان بكل ما جاء به الرسول ثم إن كان من أهل الكبائر فأمره إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له فإن إرتد عن الإسلام ومات مرتداً كان في النار فالسيئات تحبطها التوبة والحسنات تحبطها الردة ومن كان له حسنات وسيئات فإن الله لا يظلمه بل { فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ {7} وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ {8} } الزلزلة 7-8 والله تعالى قد يتفضل عليه ويحسن إليه بمغفرته ورحمته ومن مات على الإيمان فإنه لا يخلد في النار فالزاني والسارق لا يخلد في النار بل لا بد أن يدخل الجنة فإن النار يخرج منها من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان وهؤلاء المسؤول عنهم يسمون القدرية المباحية المشركين وقد جاء في ذمهم من الآثار ما يضيق عنه هذا المكان والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم وحسبنا الله ونعم الوكيل⁴²²

⁴²¹مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 648-649

⁴²²مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 271

المغتاب له سبيل الى التوبة بكل حال

ان توبة العبد فيما بينه وبين الله ممكنه من جميع الذنوب حتى انه لو سب سرا احادا من الناس موتى ثم تاب واستغفر لهم بدل سبهم لرجي ان يغفر الله له ولا يكلف الله نفسا الا وسعها فكذلك ساب الانبياء والرسل لو لم تقبل توبته وتغفر زلته لانسد باب التوبة وقطع طريق المغفرة والرحمة وقد قال تعالى لما نهى عن الغيبة { **أَيُّجِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْنَاهُ** وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ } الحجرات 12 فعلم ان المغتاب له سبيل الى التوبة بكل حال وان كان الذي اغتیب ميتا او غائبا بل على اصح الروايتين ليس عليه ان يستحله في الدنيا اذا لم يكن علم فان فساد ذلك اكثر من صلاحه وفي الاثر كفارة الغيبة ان تستغفر لمن اغتیبته وقد قال تعالى { **إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ** } هود⁴²³ 114

الاعتذار عن النفس بالباطل و الجدال عنها لا يجوز

فلاعتذار عن النفس بالباطل و الجدال عنها لا يجوز بل إن أذنب سرا بينه وبين الله اعترف لربه بذنبه و خضع له بقلبه و سأله مغفرته و تاب إليه فانه غفور رحيم تواب و إن كانت السيئة ظاهرة تاب ظاهرا و إن أظهر جميلا و أبطن قبيحا تاب في الباطن من القبيح فمن أساء سرا أحسن سرا و من أساء علانية أحسن علانية { **إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرٌ لِلذَّكِرِينَ** } هود⁴²⁴ 114

لا يزيل الإيمان كله إلا الكفر المحض

والإيمان عندهم(اهل السنة) يتفاضل فيكون إيمان أكمل من إيمان كما قال النبي صلى الله عليه وسلم أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا فيقولون قوله { **إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ** } المائدة 27 أي ممن اتقاه في ذلك العمل ليس المراد به الخلو من الذنوب ولا مجرد الخلو من الشرك بل من اتقاه في عمل قبله منه وإن كانت له ذنوب أخرى بدليل قوله { **وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ** } هود⁴²⁴ 114 فلو كانت الحسنة لا تقبل من صاحب السيئة لم تمحها وقد ثبت بالكتاب والسنة المتواترة الموازنة بين الحسنات والسيئات فلو كانت الكبيرة تحبط الحسنات لم تبق حسنة توزن معها وقد ثبت في الصحيحين أن بغيا سقت كلبا فغفر الله لها

⁴²³الصارم المسلول ج: 3 ص: 918

⁴²⁴مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 447

بسقيه قالوا وابنا آدم لم يكن أحدهما مشركا ولكن لم يقصد التقرب إلى الله بالطيب من ماله كما جاء في الأثر فلماذا لم يتقبل الله قربانه وقد قال تعالى في حق المنافقين { وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ } التوبة 54 فجعل هذه موانع قبول النفقة دون مطلق الذنوب قال أهل الحديث والسنة ومن نفى عنه الإيمان فلأنه ترك بعض واجباته والعبادة ينفي اسمها بنفي بعض واجباتها لأنها لم تبقى كاملة ولا يلزم من ذلك أن لا يبقى منه شيء بل قد دلت النصوص على أنه يبقى بعضه ويخرج من النار من بقي معه بعضه ومعلوم أن العبادات فيها واجب كالحج فيه واجب إذا تركه كان حجة ناقصة يأثم بما ترك ولا إعادة عليه بل يجبره بدم كرمي الجمار وإن لم يجبره بقي في ذمته فكذلك الإيمان ينقص بالذنوب فإن تاب عاد وإلا بقي ناقصا نقصا يأثم به وقد يحرم في الحج أفعال إذا فعلها نقص حجة ولم يبطل كالتطيب ولبس الثياب بل يجبر ذلك ولا يفسده من المحرمات إلا الجماع فكذلك لا يزيل الإيمان كله إلا الكفر المحض الذي لا يبقى مع صاحبه شيء من الإيمان قالوا وهذا هو الذي يحبط جميع الأعمال وأما ما دون ذلك فقد يحبط بعض العمل كما في آية المن والأذى فإن ذلك يبطل تلك الصدقة لا يبطل سائر أعماله قوله تعالى { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي } الإسراء 85 وقوله { وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَرُفُلًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ } هود 114 وغير ذلك من الآيات التي نزلت بمكة ثم جرت بالمدينة سبب يقتضى الخطاب فأُنزلت مرة ثانية⁴²⁵

وقد ثبت في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من كانت عنده لأخيه مظلمة من عرض أو شيء فليتحلله منه اليوم قبل أن لا يكون درهم ولا دينار إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فطرحته عليه ثم ألقى في النار أخرجاه في الصحيحين فثبت أن الظالم يكون له حسنات فيستوفي المظلوم منها حقه وكذلك ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ما تعدون المفلس فيكم قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا دينار قال المفلس من يأتي يوم القيامة وله حسنات أمثال الجبال وقد شتم هذا وأخذ مال هذا وسفك دم هذا وقذف هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإذا فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحته عليه ثم طرح في النار رواه مسلم وقد قال تعالى { إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ } هود 114 فدل ذلك على أنه في حال إساءته يفعل حسنات تمحو إساءته وإلا لو كانت السيئات قد زالت قبل ذلك بتوبة ونحوها لم تكن الحسنات قد أذهبتها⁴²⁶

⁴²⁵ منهاج السنة النبوية ج: 5 ص: 298-296

⁴²⁶ منهاج السنة النبوية ج: 3 ص: 398-397

الناوى الجازم الآتى بما يمكن فإنه بمنزلة الفاعل التام

والهام بالسيئة التى لم يعملها مع قدرته عليها لم توجد منه إرادة جازمة وفاعل السيئة التى تمضى لا يجزى بها إلا سيئة واحدة كما شهد به النص وبهذا يظهر قول الأئمة حيث قال الإمام أحمد اللهم همان هم خطرات وهم إصرار فهم الخطرات يكون من القادر فإنه لو كان همه إصرارا جازما وهو قادر لوقع الفعل ومن هذا الباب هم يوسف حيث قال تعالى {وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ} يوسف 24 الآية وأما هم المرأة التى راودته فقد قيل أنه كان هم إصرار لأنها فعلت مقصورها وكذلك ما ذكره عن المنافقين فى قوله تعالى {وَهُمْ أَيْمَانُكُمْ لَم يَنَالُوا} التوبة 74 فهذا الهم المذكور عنهم هم مذموم كما ذمهم الله عليه ومثله يذم وإن لم يكن جازما كما سنبينه فى آخر الجواب من الفرق بين ما ينافى الإيمان وبين ما لا ينافيه وكذلك الحريص على السيئات الجازم بإرادة فعلها إذا لم يمنعه إلا مجرد العجز فهذا يعاقب على ذلك عقوبة الفاعل لحديث أبى كبشة ولما فى الحديث الصحيح إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار قيل هذا القاتل فما بال المقتول قال إنه كان حريصا على قتل صاحبه وفى لفظ أنه أراد قتل صاحبه فهذه الإرادة هى الحرص وهى الإرادة الجازمة وقد وجد معها المقذور وهو القتال لكن عجز عن القتل وليس هذا من الهم الذى لا يكتب ولا يقال أنه إستحق ذلك بمجرد قوله لو أن لى ما لفلان لعملت مثل ما عمل فإن تمنى الكبائر ليس عقوبته كعقوبة فاعلها بمجرد التكلم بل لا بد من أمر آخر وهو لم يذكر أنه يعاقب على كلامه وإنما ذكر أنهما فى الوزر سواء وعلى هذا فقوله إن الله تجاوز لأمتى عما حدثت به أنفسها ما لم تكلم به أو تعمل لا ينافى العقوبة على الإرادة الجازمة التى لا بد أن يقترن بها الفعل فإن الإرادة الجازمة هى التى يقترن بها المقذور من الفعل وإلا فمتى لم يقترن بها المقذور من الفعل لم تكن جازمة فالمريد الزنا و السرقة و شرب الخمر العازم على ذلك متى كانت إرادته جازمة عازمة فلا بد أن يقترن بها من الفعل ما يقدر عليه ولو أنه يقربه إلى جهة المعصية مثل تقرب السارق إلى مكان المال المسروق ومثل نظر الزانى وإستماعه إلى المزنى به وتكلمه معه ومثل طلب الخمر والتماسها ونحو ذلك فلا بد مع الإرادة الجازمة من شىء من مقدمات الفعل المقذور بل مقدمات الفعل توجد بدون الإرادة الجازمة عليه كما قال النبي فى الحديث المتفق عليه العينان تزنيان وزناهما النظر واللسان يزنى وزناه النطق واليد تزنى وزناها البطش والرجل تزنى وزناها المشى والقلب يتمنى ويشتهى والفرج يصدق ذلك أو يكذبه وكذلك حديث أبى بكر المتفق عليه إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار قيل يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول قال أنه أراد قتل صاحبه وفى رواية فى الصحيحين أنه كان حريصا على قتل صاحبه فإنه اراد ذلك إرادة جازمة فعل معها مقصوره منعه منها من قتل صاحبه العجز وليست مجرد هم ولا مجرد عزم على فعل مستقبل فإستحق حينئذ النار كما قدمنا من ان الإرادة الجازمة التى أتى معها بالممكن يجرى صاحبها مجرى الفاعل التام و الإرادة التامة قد ذكرنا انه لا بد أن يأتى معها بالمقذور أو بعضه وحيث ترك الفعل المقذور فليست جازمة بل قد تكون جازمة فيما فعل دون ما ترك مع القدرة مثل الذى يأتى بمقدمات الزنا من اللمس والنظر والقبلة ويمتنع عن الفاحشة الكبرى ولهذا قال فى حديث أبى هريرة الصحيح العين تزنى والأذن تزنى واللسان يزنى إلى أن قال والقلب يتمنى ويشتهى أى يتمنى الوطء ويشتهيه ولم يقل يريد ومجرد الشهوة والتمنى ليس إرادة جازمة ولا يستلزم وجود الفعل فلا يعاقب على ذلك وإنما يعاقب إذا أراد إرادة جازمة مع القدرة والإرادة الجازمة التى يصدقها الفرغ ومن هذا الحديث الذى فى الصحيحين عن ابن مسعود أن رجلا اصاب من امرأة قبله فأتى رسول الله فذكر ذلك له فأنزل الله تعالى {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ} هود 114 الآية فقال الرجل إلى هذه فقال لمن عمل بها من أمتى فمثل هذا الرجل وأمثاله لا بد فى الغالب أن يهيم بما هو أكبر من ذلك كما قال والقلب يتمنى ويشتهى والفرج يصدق ذلك أو يكذبه لكن إرادته القلبية للقبلة كانت إرادة جازمة فإقترن

بها فعل القبلة القدرية وأما إرادته للجماع فقد تكون غير جازمة وقد تكون جازمة لكن لم يكن قادرا والأشبه في الذي نزلت فيه الآية انه كان متمكنا لكنه لم يفعل فتفرق احمد وغيره بين هم الخطرات وهم الإصرار هو الذي عليه الجواب فمن لم يمنعه من الفعل إلا العجز فلا بد أن يفعل ما يقدر عليه من مقدماته وإن فعله وهو عازم على العود متى قدر فهو مصر ولهذا قال ابن المبارك المصر الذي يشرب الخمر اليوم ثم لا يشربها إلى شهر وفي رواية إلى ثلاثين سنة ومن نيته أنه إذا قدر على شربها شربها وقد يكون مصرا إذا عزم على الفعل في وقت دون وقت كمن يعزم على ترك المعاصي في شهر رمضان دون غيره فليس هذا بتائب مطلقا ولكنه تارك للفعل في شهر رمضان ويثاب إذا كان ذلك الترك لله وتعظيم شعائر الله وإجتناح محارمه في ذلك الوقت ولكنه ليس من التائبين الذين يغفر لهم بالتوبة مغفرة مطلقة ولا هو مصر مطلقا وأما الذي وصفه ابن المبارك فهو مصر إذا كان من نيته العود إلى شربها قلت والذي قد ترك المعاصي في شهر رمضان من نيته العود إليها في غير شهر رمضان مصر أيضا لكن نيته أن يشربها إذا قدر عليها غير النية مع وجود القدرة فإذا قدر قد تبقى نيته وقد لا تبقى ولكن متى كان مريدا إرادة جازمة لا يمنعه إلا العجز فهو معاقب على ذلك كما تقدم وتقدم ان مثل هذا لا بد ان يفترن بإرادته ما يتمكن من الفعل معه وبهذا يظهر ما يذكر عن الحارث المحاسبى أنه حكى الإجماع على ان النوى للفعل ليس بمنزلة الفاعل له فهذا الإجماع صحيح مع القدرة فإن النوى للفعل القادر عليه ليس بمنزلة الفاعل وأما النوى الجازم الآتى بما يمكن فإنه بمنزلة الفاعل التام كما تقدم ومما يوضح هذا أن الله سبحانه في القرآن رتب الثواب والعقاب على مجرد الإرادة كقوله تعالى {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصَلُّهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا} الإسراء 18 وقال {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهَا نُوفٌّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ} {15} {أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ} {16} {هود 15-16} وقال {مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ} الشورى 20 فرتب الثواب والعقاب على كونه يريد العاجلة ويريد الحياة الدنيا ويريد حرث الدنيا وقال في آية هود {نُوفٌّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا} {هود 15} إلى أن قال {وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} {16} {هود 16} فدل على أنه كان لهم أعمال بطلت وعوقبوا على أعمال أخرى عملوها وإن الإرادة هنا مستلزمة للعمل ولما ذكر إرادة الآخرة قال {وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ} الإسراء 19 وذلك لأن إرادة الآخرة وإن استلزمت عملها فالثواب إنما هو على العمل المأمور به لا كل سعى ولا بد مع ذلك من الإيمان ومنه قوله {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزُوجِكُ إِن كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهَا} {الأحزاب 28} الآية {وَإِن كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالِدَارَ الْآخِرَةَ} {الأحزاب 29} فهذا نظير تلك الآية التي في سورة هود وهذا يطابق قوله إذا التقى المسلمان بسيفيهما إلا أنه قال فإنه أراد قتل صاحبه أو أنه كان حريصا على قتل صاحبه فذكر الحرص والإرادة على القتل وهذا لا بد ان يفترن به فعل وليس هذا مما دخل في حديث العفو إن الله عفا لأمتي عما حدثت به أنفسها⁴²⁷

الصبر واجب على أداء الواجبات وترك المحظورات

وينبغي ان الانسان إذا ابتلى فعليه ان يصبر ويثبت ولا ينكل حتى يكون من الرجال الموقنين القائمين بالواجبات ولا بد في جميع ذلك من الصبر ولهذا كان الصبر واجبا باتفاق المسلمين على

اداء الواجبات وترك المحظورات ويدخل فى ذلك الصبر على المصائب عن ان يجزع فيها والصبر عن اتباع اهواء النفوس فيما نهى الله عنه وقد ذكر الله الصبر فى كتابه فى اكثر من تسعين موضعا وقرنه بالصلاة فى قوله تعالى {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ} البقرة 45 {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} البقرة 153 وقوله {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ} {114} **وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} {115} هود 114-115** {فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا} طه 130 {فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ} غافر 55 الآية وجعل الامامة فى الدين موروثه عن الصبر واليقين بقوله {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ} السجدة 24 فان الدين كله علم بالحق وعمل به والعمل به لا بد فيه من الصبر بل وطلب علمه يحتاج الى الصبر كما قال معاذ بن جبل رضى الله عنه عليكم بالعلم فان طلبه لله عبادة ومعرفة خشية والبحث عنه جهاد وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة ومذاكرته تسبيح به يعرف الله ويعبد وبه يمجد الله ويوحد يرفع الله بالعلم اقواما يجعلهم للناس قادة وائمة يهتدون بهم وينتهون الى رأيهم فجعل البحث عن العلم من الجهاد ولا بد فى الجهاد من الصبر ولهذا قال تعالى {وَالْعَصْرِ} {1} إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ {2} {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ} {3} العصر 1-3⁴²⁸

قرن الصبر بالأعمال الصالحة عموما وخصوصا

وفى الصحيح عن النبى أنه كان يقول فى خطبه خير الكلام كلام الله وخير الهدى هدى محمد وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وإذا كان خير الكلام كلام الله وخير الهدى هدى محمد فكل من كان إلى ذلك أقرب وهو به اشبه كان إلى الكمال اقرب وهو به احق ومن كان عن ذلك ابعد وشبهه اضعف كان عن الكمال ابعد وبالباطل احق والكامل هو من كان لله اطوع وعلى ما يصيبه اصبر فكلما كان اتبع لما يأمر الله به ورسوله واعظم موافقة لله فيما يحبه ويرضاه وصبر على ما قدره وقضاه كان أكمل وأفضل وكل من نقص عن هذين كان فيه من النقص بحسب ذلك وقد ذكر الله تعالى الصبر والتقوى جميعا فى غير موضع من كتابه وبين أنه ينصر العبد على عدوه من الكفار المحاربيين والمعاهدين والمنافقين وعلى من ظلمه من المسلمين ولصاحبه تكون العاقبة قال الله تعالى {بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمَدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ} آل عمران 125 وقال أخوة يوسف له {قَالُوا إِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} يوسف 90 وقد قرن الصبر بالأعمال الصالحة عموما وخصوصا فقال تعالى {وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ} يونس 109 وفى اتباع ما اوحى اليه التقوى كلها تصديقا لخبر الله وطاعة لامره وقال تعالى

⁴²⁸مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 39 و أمراض القلوب ج: 1 ص: 54 و التحفة العراقية ج: 1

وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ
{114} {وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} {115} هود 114- 115⁴²⁹

أعظم عون لولى الأمر خاصة ولغيره عامة ثلاثة أمور

وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا ذبح أضحيته يقول اللهم منك ولك وأعظم عون لولى الأمر خاصة ولغيره عامة ثلاثة أمور أحدها الاخلاص لله والتوكل عليه بالدعاء وغيره وأصل ذلك المحافظة على الصلوات بالقلب والبدن الثانى الاحسان الى الخلق بالنفع والمال الذى هو الزكاة الثالث الصبر على أذى الخلق وغيره من النوائب ولهذا يجمع الله بين الصلاة والصبر كثيرا كقوله تعالى {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ} البقرة 45 وكقوله تعالى { وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ} {114} {وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} {115} هود 114-115 وقوله تعالى {فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا} طه 130 وكذلك فى سورة ق {فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ} ق 39 وقال تعالى {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ} {97} {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ} {98} الحجر 97-98 وأما قرنه بين الصلاة والزكاة فى القرآن فكثير جدا فبالقيام بالصلاة والزكاة والصبر يصلح حال الراعى والرعية إذا عرف الانسان ما يدخل فى هذه الاسماء الجامعة يدخل فى الصلاة ذكر الله تعالى ودعاؤه وتلاوه كتابه واخلاص الدين له والتوكل عليه وفى الزكاة الاحسان الى الخلق بالمال والنفع من نصر المظلوم وإغاثة الملهوف وقضاء حاجة المحتاج فى الصحيحين عن النبي انه قال كل معروف صدقة فيدخل فيه كل إحسان ولو ببسط الوجه والكلمة الطيبة فى الصحيحين عن عدى بن حاتم رضى الله عنه قال قال النبي صلى الله عليه وسلم مامنكم من احد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه حاجب ولا ترجمان فينظر أيمن منه فلا يرى إلا شيئا قدمه وينظر أشأم منه فلا يرى إلا شيئا قدمه فينظر أمامه فتستقبله النار فمن استطاع منكم ان يتقى النار ولو بشق تمرة فليفعل فان لم يجد فبكلمة طيبة وفى السنن عن النبي قال لا تحقرن من المعروف شيئا ولو ان تلقى أخاك ووجهك اليه منبسط ولو ان تفرغ من دلوك فى إناء المستقى وفى السنن عن النبي ان أثقل ما يوضع فى الميزان الخلق الحسن وروى عنه انه قال لأمر سلمة يا أم سلمة ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة وفى الصبر احتمال الأذى وكظم الغيظ والعفو عن الناس ومخالفة الهوى وترك الأشر والبطر كما قال تعالى {وَلْيُنْ أَدْفُنَا الْإِنْسَانَ مِمَّا رَحِمَهُ ثُمَّ نَرَّعْنَا مِنْهُ إِنَّهُ لِيُؤْسُ كُفُورٌ} {9} {وَلْيُنْ أَدْفُنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَّسْتَهٌ لِيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتِ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ} {10} {إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ} {11} هود 9-11 وقال لنبيه {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} {الأعراف 199} وقال تعالى {وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ} {133} {الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} {134} آل عمران 133- 134 وقال تعالى {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ} {34} وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ} {35} {وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} {36} فصلت 34-36 وقال تعالى {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ

⁴²⁹مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 35 و مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 676 و الزهد والورع

عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ { الشورى 40 قال الحسن البصرى رحمة الله عليه إذا كان يوم القيامة نادى مناد من بطنان العرش ألا ليقم من وجب أجره على الله فلا يقوم إلا من عفا وأصلح

430

مصلحة وفضائل الأعمال وثوابها وفوائدها

الحسنات تعلق بعلمتين احدهما ما تتضمنه من جلب المصلحة والمنفعة والثانية ما تتضمنه من دفع المفسدة والمضرة وكذلك السيئات تعلق بعلمتين احدهما ما تتضمنه من المفسدة والمضرة والثانية ما تتضمنه من الصد عن المنفعة والمصلحة مثال ذلك قوله { وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ } {هود 114} فهذا دفع المؤذي ثم قال { ذَلِكَ ذِكْرِي لِلذَّاكِرِينَ } {هود 114} فهذا مصلحة وفضائل الأعمال وثوابها وفوائدها ومنافعها كثير في الكتاب والسنة من هذا النمط⁴³¹

الفقه قبل الأمر

قال تعالى { فَاسْتَعِمْ كَمَا أَمَرْتُ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } {112} وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَمَا تَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ } {113} وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرِي لِلذَّاكِرِينَ } {114} وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } {115} فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ } {116} هود 112-116 والقيام بالواجبات من الدعوة الواجبة وغيرها يحتاج إلى شروط يقام بها كما جاء في الحديث ينبغي لمن أمر بالمعروف ونهى عن المنكر أن يكون فقيها فيما يأمر به فقيها فيما ينهى عنه رفيقا فيما يأمر به رفيقا فيما ينهى عنه حليما فيما يأمر به حليما فيما ينهى عنه فالفقه قبل الأمر ليعرف المعروف وينكر المنكر والرفق عند الأمر ليسلك أقرب الطرق إلى تحصيل المقصود والحلم بعد الأمر ليصبر على أذى المأمور المنهى فإنه كثيرا ما يحصل له الأذى بذلك ولهذا قال تعالى { وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ } لقمان 17 وقد أمر نبينا بالصبر في مواضع كثيرة كما قال تعالى في أول المدثر { فَمُ قَأْنِذِرْ } {2} وَرَبِّكَ فَكْبِّرْ } {3} وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ } {4} وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ } {5} وَلَا تَمُنْ بِتَسْتَكْبِرْ } {6} وَلِرَبِّكَ

⁴³⁰مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 362-364 والسياسة الشرعية ج: 1 ص: 111

⁴³¹مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 194

فَاصْبِرْ {7} المدثر 2-7 وقال تعالى {وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا} الطور 48 وقال
{وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ} المزمّل 10⁴³²

"من عبد الله بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح"

قال تعالى {فَاسْتَفْعِمْ كَمَا أَمَرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطَّعُوا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} {112} وَلَا تَرْكَبُوا
إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ} {113} وَأَقِمِ الصَّلَاةَ
طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبُنَّ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذَكَرَى لِلذَّاكِرِينَ} {114} وَاصْبِرْ
فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} {115} فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَوْمٍ غَن
الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا
مُجْرِمِينَ} {116} هود 112-116 قال عمر بن عبد العزيز من عبد الله بغير علم كان ما يفسد أكثر
مما يصلح وكما في حديث معاذ بن جبل رضى الله عنه العلم امام العمل والعمل تابعه وهذا
ظاهر فان القصد والعمل ان لم يكن بعلم كان جهلا وضلالا واتباعا للهوى كما تقدم وهذا هو
الفرق بين أهل الجاهلية وأهل الاسلام فلا بد من العلم بالمعروف والمنكر والتمييز بينهما ولا بد
من العلم بحال الأمور والمنهى ومن الصلاح ان يأتى بالأمر والنهى بالصرط المستقيم وهو
اقرب الطرق الى حصول المقصود ولا بد في ذلك من الرفق كما قال النبى ما كان الرفق
فى شئ الا زانه ولا كان العنف فى شئ الا شاناه وقال إن الله رفيق يحب الرفق فى الأمر
كله ويعطى عليه ما لا يعطى على العنف ولا بد أيضا أن يكون حليما صبورا على الأذى
فانه لا بد ان يحصل له أذى فان لم يحلم ويصبر كان ما يفسد أكثر مما يصلح كما قال لقمان لابنه
{ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ } لقمان 17
ولهذا أمر الله الرسل وهم أئمة الامر بالمعروف والنهى عن المنكر بالصبر كقوله لخاتم الرسل
بل ذلك مقرون بتبليغ الرسالة فانه أول ما أرسل أنزلت عليه سورة يا أيها المدثر بعد
ان أنزلت عليه سورة اقرأ التى بها نبئ فقال { يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ } {1} فَمُ فَأَنْذِرْ } {2} وَرَبِّكَ
فَكَبَّرَ } {3} وَثِيَابِكَ فَطَهَّرَ } {4} وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ } {5} وَلَا تَمَنَّ أَنْ تَنْتَكِرَ } {6} وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ } {7}
المدثر 1-7 فافتتح آيات الارسال الى الخلق بالأمر بالندارة وختمها بالأمر بالصبر ونفس الانذار
أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فعلم انه يجب بعد ذلك الصبر وقال {وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ
فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا} الطور 48 وقال تعالى {وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا
{ الْمَزْمَل 10 } فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ } {الأحقاف 35 } فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا
تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ } {القلم 48 } وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ } {النحل 127 } وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا
يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } هود 115 فلا بد من هذه الثلاثة العلم والرفق والصبر العلم قبل الأمر
والنهى والرفق معه والصبر بعده وان كان كل من الثلاثة مستصحباً فى هذه الاحوال وهذا كما
جاء فى الأثر عن بعض السلف ورووه مرفوعاً ذكره القاضى أبو يعلى فى المعتمد لا يأمر
بالمعروف وينهى عن المنكر إلا من كان فقيها فيما يأمر به فقيها فيما ينهى عنه رفيقا فيما يأمر به
رفيقا فيما ينهى عنه حليما فيما يأمر به حليما فيما ينهى عنه وليعلم أن الأمر بهذه الخصال
فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مما يوجب صعوبة على كثير من النفوس فيظن انه بذلك
يسقط عنه فيدعه وذلك مما يضره أكثر مما يضره الأمر بدون هذه الخصال أو أقل فان ترك
الأمر الواجب معصية فالمنتقل من معصية الى معصية أكبر منها كالمستجير من الرمضاء بالنار

والمنتقل من معصية الى معصية كالمنتقل من دين باطل الى دين باطل وقد يكون الثاني شرا من الأول وقد يكون دونه وقد يكونان سواء فهكذا تجد المقصر في الأمر والنهي والمعتدى فيه قد يكون ذنب هذا أعظم وقد يكون ذنب هذا أعظم وقد يكونان سواء⁴³³

الإحسان يجمع كمال الإخلاص لله والإتيان بالفعل الحسن

قال تعالى { **وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** } هود 115 أما الإحسان فقوله أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك قد قيل أن الإحسان هو الإخلاص والتحقيق أن الإحسان يتناول الإخلاص وغيره والإحسان يجمع كمال الإخلاص لله ويجمع الإتيان بالفعل الحسن الذي يحبه الله قال تعالى { **بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** } البقرة 112 وقال تعالى { **وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا** } النساء 125 فذكر إحسان الدين أولا ثم ذكر الإحسان ثانيا⁴³⁴

قال تعالى { **وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** } هود 115 والإحسان ضد الإساءة وهو فعل الحسن سواء كان لازما لصاحبه أو متعديا إلى الغير

قال تعالى { **فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ** } هود 116 عن اهمية الأمر بالمعروف وعن خطورة الترف

{ **وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ** }⁴³⁵

قال تعالى { **وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ** } هود 117 كان الصواب في قول من يقول إن الله لا يعذب في الآخرة إلا من عصاه بترك المأمور أو فعل المحذور والمعتزلة في هذا وافقوا الجماعة بخلاف الجهمية ومن اتبعهم من الأشعرية وغيرهم فإنهم قالوا بل يعذب من لا ذنب له أو نحو ذلك ثم هؤلاء يحتجون على المعتزلة في نفس الإيجاب والتحریم العقلي بقوله

⁴³³مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 136-138 و الاستقامة ج: 2 ص: 233

⁴³⁴مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 622

⁴³⁵مجموع الفتاوى ج: 30 ص: 370

تعالى { وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا } الإسراء 15 وهو حجة عليهم أيضا في نفي العذاب مطلقا إلا بعد إرسال الرسل وهم يجوزون التعذيب قبل إرسال الرسل فأولئك يقولون يعذب من لم يبعث إليه رسولا لأنه فعل القبائح العقلية وهؤلاء يقولون بل يعذب من لم يفعل قبيحا قط كالأطفال وهذا مخالف للكتاب والسنة والعقل أيضا قال تعالى { وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا } الإسراء 15⁴³⁶

وهذه الصيغة تدل على امتناع المنفى كقوله { وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقَرْيَةَ بِظُلْمٍ } هود 117 وقوله { وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ } الأنفال 33 (ذكر تفسيرها مع تفسير هود 100-102)⁴³⁷

أن الله على كل شيء قدير

اتفق المسلمون وسائر أهل الملل على أن الله على كل شيء قدير كما نطق بذلك القرآن أى في مواضع كثيرة جدا وأن الشيء إسم لما يوجد فى الأعيان ولما يتصور فى الأذهان فما قدره الله وعلم أنه سيكون هو شيء فى التقدير والعلم والكتاب وأن لم يكن شيئا فى الخارج ومنه قوله { إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } يس 82 لفظ الشيء فى الآية يتناول هذا وهذا فهو على كل شيء ما وجد وكل ما تصوره الذهن موجودا إن تصور أن يكون موجودا قدير لا يستثنى من ذلك شيء ولا يزداد عليه شيء كما قال تعالى { بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نَسُوِيَ بَنَاتَهُ } القيامة 4 وقال { وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لِقَادِرُونَ } المؤمنون 18 قال المفسرون لقادرون على أن نذهب به حتى تموتوا عطشا وتهلك مواشيكم وتخرب أراضيكم ومعلوم أنه لم يذهب به وهذا كقوله { أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ } الواقعة 68 إلى قوله { وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكذِّبُونَ } الواقعة 82 وهذا يدل على أنه قادر على ما لا يفعله فإنه أخبر أنه لو شاء جعل الماء أجاجا وهو لم يفعله ومثل هذا { وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا } السجدة 13 { وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ } يونس 99 { وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَنَّا } البقرة 253 فإنه أخبر فى غير موضع أنه لو شاء لفعل أشياء وهو لم يفعلها فلو لم يكن قادرا عليها لكان إذا شاءها لم يمكن فعلها⁴³⁸

كل ما كان بعد عدمه فانما يكون بمشيئة الله وقدرته وهو سبحانه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن فما شاء وجب كونه وهو تحت مشيئة الرب وقدرته وما لم يشأ امتنع كونه مع قدرته عليه كما قال تعالى { وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا } السجدة 13 { وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَنَّا الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مَنْ

⁴³⁶ منهاج السنة النبوية ج: 1 ص: 1

⁴³⁷ مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 300

⁴³⁸ مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 10

بَعْدَ مَا جَاءَهُمُ النَّبَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ {البقرة 253} **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ** {هود 118} فكون الشيء واجب الوقوع لكونه قد سبق به القضاء على انه لا بد من كونه لا يمتنع ان يكون واقعا بمشيئته وقدرته و ارادته وان كانت من لوازم ذاته كحياته وعلمه فان ارادته للمستقبلات هي مسبوقه بارادته للماضي {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} يس 82 وهو انما أراد هذا الثاني بعد أن أراد قبله ما يقتضى ارادته فكان حصول الارادة اللاحقة بالارادة السابقة⁴³⁹

الله حكمة بالغة في أقضيته وأقداره

الله حكمة بالغة في أقضيته وأقداره و إن لم يعلمه العباد فإن الله علم علما وعلمه لعباده أو لمن يشاء منهم و علم علما لم يعلمه لعباده { وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا } البقرة 255 وهو سبحانه أراد من العباد ما هم فاعلوه إرادة تكوين كما إتفق المسلمون على أنه ما شاء الله كان و ما لم يشأ لم يكن وكما قال {فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا} الأنعام 125 وكما قال **{وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ} {118} {إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ} {119} {هود 118-119}** و كما قال {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ} البقرة 253 وكما قال {يُنَبِّئُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ} إبراهيم 27 ولكن لم يرد المعاصي من أصحابها إرادة أمر وشرع و محبة و رضى و دين بل ذلك كما قال تعالى {يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ} البقرة 185 وكما قال تعالى {يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سَبِيلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ} النساء 26 {وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهْوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا} {27} {يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا} {28} النساء 27-28 و قال تعالى {مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ} المائدة 6 و كما قال تعالى {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} الداريات 56⁴⁴⁰

أخبر الله بقدرته على أشياء مع أنه لا يفعلها

قدرة الرب لا يفعل بها إلا مع وجود مشيئته فإن ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وليس كل ما كان قادرا عليه فعله قال تعالى {بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ} القيامة 4 وقال تعالى {قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ

⁴³⁹مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 245

⁴⁴⁰مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 201

بأس بعض { الأنعام 65 } وقد ثبت في الصحيحين عن جابر رضي الله عنه أنه لما نزلت هذه الآية قل هو القادر على أن يعث عليكم عذاباً من فوقكم قال النبي صلى الله عليه وسلم أعود بوجهك أو من تحت أرجلكم قال أعود بوجهك أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض قال هاتان أهون قالوا فهو يقدر الله عليهما وهو لا يشاء أن يفعلهما بل قد أجاز الله هذه الأمة على لسان نبيها ان لا يسلم عليهم عدوا من غيرهم فيجتاحهم او يهلكهم بسنة عامة وقد قال تعالى { أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ } {3} بلى قادرين على أن نسوي بنانه {4} القيامة 3-4 } قاله الله قادر على ذلك وهو لا يشاؤه وقد قال تعالى { وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا } السجدة 13 وقال تعالى { وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً } هود 118 } فانه تعالى قادر على ذلك فلو شاءه لفعله بقدرته وهو لا يشاؤه وقال تعالى { وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً } يونس 99 } وقد قال تعالى { **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَرَالُونَ مُحْتَلِفِينَ** } هود 118 } وقال { **وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا** } البقرة 253 } ومثل هذا متعدد في القرآن وإذا كان لو شاءه لفعله دل على أنه قادر عليه فإنه لا يمكن فعل غير المقدور وإذا كان كذلك علم أن الفعل لو وجد بمجرد كونه قادراً لوقع كل مقدور بل لا بد مع القدرة من الإرادة⁴⁴¹

وأمثال ذلك مما أخبر الله تعالى أنه لو شاء لفعله فإن هذه الأمور التي أخبر الله أنه لو شاء لفعله تستلزم أنها ممكنة مقدورة له⁴⁴²

متى حصلت القدرة التامة و الإرادة الجازمة وجب وجود المقدور و حيث لا يجب فإنما هو لنقص القدرة أو لعدم الإرادة التامة والرب تعالى ما شاء كان و ما لم يشأ لم يكن و هو يخبر في غير موضع أنه لو شاء لفعله أموراً لم يفعلها كما قال { **وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا** } السجدة 13 } **{ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً } هود 118** } { **وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا** } البقرة 253 } فبين أنه لو شاء ذلك لكان قادراً عليه لكنه لا يفعله لأنه لم يشاؤه إذ كان عدم مشيئته أرجح في الحكمة مع كونه قادراً عليه لو شاءه⁴⁴³

فالذي لا يقع من مقدرات الرب التي لو شاء لفعله و هو يعلم أنه لا يفعلها فلا يجوز أن يقال أنه غير قادر عليها كما قاله بعض غلاة أهل البدع و قد ذكر في غير موضع من القرآن ما لا يكون أنه لو شاء لفعله كقوله { **وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا** } السجدة 13 } وقوله { **وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا** } الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم

⁴⁴¹منهاج السنة النبوية ج: 3 ص: 271 و مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 489

⁴⁴²منهاج السنة النبوية ج: 2 ص: 290

⁴⁴³مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 459

مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ {البقرة 253} وقوله {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً} هود 118 و أمثال هذه الآيات تبين أنه لو شاء أن يفعل أموراً لم تكن لفعلها وهذا يدل على أنه قادر على ما علم أنه لا يكون فإنه لو لا قدرته عليه لكان إذا شاء لا يفعله فإنه لا يمكن فعله إلا بالقدرة عليه فلما أخبر و هو الصادق في خبره أنه لو شاء لفعله علم أنه قادر عليه و إن علم سبحانه أنه لا يكون و علم أيضاً أن خلاف المعلوم قد يكون مقدوراً و إذا قيل هو ممتنع فهو من باب الممتنع لعدم مشيئة الرب له لا لكونه ممتنعاً في نفسه و لا لكونه معجزاً عنه⁴⁴⁴

ولا ريب أن الله على كل شيء قدير كما نطق به القرآن في غير موضع فإن قدرته من لوازم ذاته والمصحح لها الإمكان فلا اختصاص لها بممكن دون ممكن لكن الممتنع لذاته ليس شيئاً باتفاق العقلاء فلا يعقل وجوده في الخارج فإنه لا يعقل في الخارج كون الشيء موجوداً معدوماً أو متحركاً ساكناً أو كون أجزاء الحركة المتعاقبة مقترنة في آن واحد أو كون اليوم موجوداً مع أمس وغدا وأمثال ذلك وحينئذ فمثل هذا لا يدخل في عموم الكتاب وأما الممتنع لغيره وهو ما علم الله أنه لا يكون وأخبر أنه لا يكون وكتب أنه لا يكون فهذا لا يكون لعدم إرادته وأنه لا يكون فإنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن فهذا لو شاء لفعله كما أخبر القرآن في غير موضع أنه لو شاء الله لآتى كل نفس هداها ولو شاء لجعل الناس أمة واحدة وأمثال ذلك⁴⁴⁵

(فيه نقص في البداية) أيضاً تنازعهم في المأمور به الذي علم الله أنه لا يكون أو أخبر مع ذلك أنه لا يكون فمن الناس من يقول إن هذا غير مقدور عليه كما أن غالبية القدرية يمنعون أن يتقدم علم الله وخبره وكتابه بأنه لا يكون وذلك لاتفاق الفريقين على أن خلاف المعلوم لا يكون ممكناً ولا مقدوراً عليه وقد خالفهم في ذلك جمهور الناس وقالوا هذا منقوض عليهم بقدرة الله تعالى فإنه أخبر بقدرته على أشياء مع أنه لا يفعله كقوله {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ} هود 118 ونحو ذلك مما يخبر أنه لو شاء لفعله وإذا فعله فإنما يفعله إذا كان قادراً عليه فقد دل القرآن على أنه قادر عليه يفعله إذا شاءه مع أنه لا يشاؤه وقالوا أيضاً إن الله يعلمه على ما هو عليه فيعلمه ممكناً مقدوراً للعبد غير واقع ولا كائن لعدم إرادة العبد له أو لبغضه آياه ونحو ذلك لا لعجزه عنه وهذا النزاع يزول بتنوع القدرة عليه كما تقدم فإنه غير مقدور القدرة المقارنة للفعل وإن كان مقدوراً القدرة المصححة للفعل التي هي مناط الأمر والنهي عنه⁴⁴⁶

حكم الحلف على فعل مأمور إذا علقه بالمشيئة

فقد ثبت بالكتاب والسنة وإجماع العلماء أنه لو حلف ليقضيه حقه في غد إن شاء الله تعالى فخرج الغد ولم يقضه مع قدرته على القضاء من غير عذر وطالبه المستحق له لم يحنث ولو كانت

⁴⁴⁴مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 499

⁴⁴⁵الصفدية ج: 2 ص: 109

⁴⁴⁶درء التعارض ج: 1 ص: 62

المشيئة بمعنى الأمر لحنث لأنه مأمور بذلك وكذلك سائر الحلف على فعل مأمور إذا علقه بالمشيئة وأيضا فإنه قد قال تعالى {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً} يونس 99 مع أنه قد أمرهم بالإيمان فعلم أنه قد أمرهم بالإيمان ولم يشأه وكذلك قوله { وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً } الأنعام 125 دليل على أنه أراد ضلاله وهو لم يأمره بالضلال⁴⁴⁷

الاختلاف في كتاب الله نوعان

وأصل الدين أن يكون الحب لله والبغض لله والموالاة لله والمعادة لله والعبادة لله والاستعانة بالله والخوف من الله والرجاء لله والإعطاء لله والمنع لله وهذا إنما يكون بمتابعة رسول الله الذي أمره أمر الله ونهيه نهي الله ومعاداته معادة الله وطاعته طاعة الله ومعصيته معصية الله وصاحب الهوى يعميه الهوى ويصمه فلا يستحضر ما لله ورسوله في ذلك ولا يطلبه ولا يرضى لرضا الله ورسوله ولا يغضب لغضب الله ورسوله بل يرضى إذا حصل ما يرضاه بهواه ويغضب إذا حصل ما يغضب له بهواه ويكون مع ذلك معه شبهة دين أن الذي يرضى له ويغضب له أنه السنة وهو الحق وهو الدين فإذا قدر أن الذي معه هو الحق المحض دين الإسلام ولم يكن قصده أن يكون الدين كله لله وأن تكون كلمة الله هي العليا بل قصد الحمية لنفسه وطائفته أو الرياء ليعظم هو ويثنى عليه أو فعل ذلك شجاعة وطبعا أو لغرض من الدنيا لم يكن لله ولم يكن مجاهدا في سبيل الله فكيف إذا كان الذي يدعي الحق والسنة هو كتنظيره معه حق وباطل وسنة وبدعة ومع خصمه حق وباطل وسنة وبدعة وهذا حال المختلفين الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا وكفر بعضهم بعضا وفسق بعضهم بعضا ولهذا قال تعالى فيهم { وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ } 4 { وَمَا أَمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ } 5 { الْبَيِّنَةُ 4-5 } وقال تعالى { كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً } البقرة 213 يعني فاختلّفوا كما في سورة يونس وكذلك في قراءة بعض الصحابة وهذا على قراءة الجمهور من الصحابة والتابعين أنهم كانوا على دين الإسلام وفي تفسير ابن عطية عن ابن عباس أنهم كانوا على الكفر وهذا ليس بشيء وتفسير ابن عطية عن ابن عباس ليس بثابت عن ابن عباس بل قد ثبت عنه أنه قال كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام وقد قال في سورة يونس { وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا } يونس 19 فذمهم على الاختلاف بعد أن كانوا على دين واحد فعلم أنه كان حقا والاختلاف في كتاب الله على وجهين أحدهما أن يكون كله مذموما كقوله { وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ } البقرة 176 والثاني أن يكون بعضهم على الحق وبعضهم على الباطل كقوله { تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُمْ مَّنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَنَّا الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مَّنْ بَعْدَ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَّنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَنَّا لَوْ لَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ } البقرة 253 وقوله { هَذَانِ حَصَمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ } الحج 19 إلى قوله { إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ } الحج 23 وقوله { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى

وَالْمُجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ {الحج 17} لكن إذا أطلق الإختلاف فالجميع مذموم كقوله { وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ } {118} إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ **وَلِذَلِكَ خَلَفَهُمُ** {119} **هود 118-119** وقول النبي صلى الله عليه وسلم إنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ولهذا فسروا الإختلاف في هذا الموضع بأنه كله مذموم قال الفراء في اختلافهم وجهان أحدهما كفر بعضهم بكتاب بعض والثاني تبديل ما بدلوا وهو كما قال فإن المختلفين كل منهم يكون معه حق وباطل فيكفر بالحق الذي مع الآخر ويصدق بالباطل الذي معه وهو تبديل ما بدل فالإختلاف لا بد أن يجمع النوعين ولهذا ذكر كل من السلف أنواعا من هذا أحدها الإختلاف في اليوم الذي يكون فيه الإجتماع فالיום الذي أمروا به يوم الجمعة فعدلت عنه الطائفتان فهذه أخذت السبت وهذه أخذت الأحد وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم فهذا اليوم الذي اختلفوا فيه فهدانا الله له الناس لنا فيه تبع اليوم لنا وغدا لليهود وبعد غد للنصارى وهذا الحديث يطابق قوله تعالى { فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ } البقرة 213 وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا قام من الليل يصلي يقول اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلفوا فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم والحديث الأول يبين أن الله تعالى هدى المؤمني لغير ما كان فيه المختلفون فلا كانوا مع هؤلاء ولا مع هؤلاء وهو مما يبين أن الإختلاف كله مذموم والنوع الثاني القبلة فمنهم من يصلي إلى المشرق ومنهم من يصلي إلى المغرب وكلاهما مذموم لم يشره الله والثالث إبراهيم قالت اليهود كان يهوديا وقالت النصارى كان نصرانيا وكلاهما كان من الإختلاف المذموم { مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } آل عمران 67 والرابع عيسى جعلته اليهود لغية وجعلته النصارى إلها والخامس الكتب المنزلة آمن هؤلاء ببعض هؤلاء وبعض هؤلاء ببعض والسادس الدين أخذ هؤلاء بدين وهؤلاء بدين ومن هذا الباب قوله تعالى { وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ } البقرة 113 وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال اختصمت يهود المدينة ونصارى نجران عند النبي صلى الله عليه وسلم فقالت اليهود ليست النصارى على شيء ولا يدخل الجنة إلا من كان يهوديا وكفروا بالإنجيل وعيسى وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وكفروا بالتوراة وموسى فأنزل الله هذه الآية والتي قبلها واختلاف أهل البدع هو من هذا النمط فالخارجي يقول ليس الشيعي على شيء والشيعي يقول ليس الخارجي على شيء والقدري النافي يقول ليس المثبت على شيء والقدري الجبري المثبت يقول ليس النافي على شيء والوعيدية تقول ليست المرجئة على شيء والمرجئة تقول ليست الوعيدية على شيء بل ويوجد شيء من هذا بين أهل المذاهب الأصولية والفروعية⁴⁴⁸

"هك من كان قبلكم من الأمم باختلافهم في الكتاب"

⁴⁴⁸منهاج السنة النبوية ج: 5 ص: 260 و مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 516 و الجواب

الصحيح ج: 2 ص: 259

ومثل ذلك ما رواه مسلم أيضا عن عبد الله بن رباح الأنصاري أن عبد الله ابن عمرو قال هجرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فسمعت أصوات رجلين اختلفا في آية فخرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف في وجهه الغضب فقال إنما هلك من كان قبلكم من الأمم باختلافهم في الكتاب فعمل غضبه صلى الله عليه وسلم بأن الاختلاف في الكتاب هو كان سبب هلاك من قبلنا وذلك يوجب مجانبة طريقهم في هذا عينا وفي غيره نوعا والاختلاف على ما ذكره الله في القرآن قسما أحدهما قد يكون المختلفون كلهم على باطل فإنه يذم الطائفتين جميعا كما في قوله { وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ } {118} { إِلَّا مَنْ رَجَعَ رَبِّكَ } {119} هود 118-119 فجعل أهل الرحمة مستثنين من الاختلاف وأما القسم الثاني من الاختلاف المذكور في كتاب الله فهو ما حمد فيه إحدى الطائفتين وهم المؤمنون وذم فيه الأخرى كما في قوله تعالى { تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُمْ مَّنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتِ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَّنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا افْتَنَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ } البقرة 253 فقله (وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَّنْ كَفَرَ) حمد لإحدى الطائفتين وهم المؤمنون ودم للأخرى⁴⁴⁹

" المراء في القرآن كفر "

ومن الأمور التي نهى الله عنها في كتابه الفرق والاختلاف كقوله { وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا } آل عمران 103 إلى قوله { وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتِ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } {105} { يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ } {106} آل عمران 105-106 قال ابن عباس تبيض وجوه أهل السنة والجماعة وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة وقال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِبَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ } { الأنعام 159} وقال تعالى { فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ } { الروم 30} إلى قوله تعالى { وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } {31} { مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِبَعًا } {32} { الروم 30-32} وقد ذم أهل التفرق والاختلاف في مثل قوله { وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ } {البينة 4} وفي مثل قوله { وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ } {118} { إِلَّا مَنْ رَجَعَ رَبِّكَ } {119} هود 118-119 وفي مثل قوله { وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ } {البقرة 176} وكذلك سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم توافق كتاب الله كالحديث المشهور عنه الذي رواه مسلم بعضه عن عبد الله بن عمرو وسائره معروف في مسند أحمد وغيره من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج على أصحابه وهم يتناظرون في القدر ورجل يقول ألم يقل الله كذا ورجل يقول ألم يقل الله كذا فكأنما فقيء في وجهه حب الرمان فقال أبهذا أمرتم إنما هلك من كان قبلكم بهذا ضربوا كتاب الله بعضه ببعض وإنما نزل كتاب الله ليصدق بعضه بعضا لا ليكذب بعضه بعضا انظروا ما أمرتم به فا فعلوه وما نهيتم عنه فاجتنبوه هذا الحديث أو نحوه وكذلك قوله المراء في القرآن كفر وكذلك ما أخرجاه في الصحيحين عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ قوله { هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ } آل عمران 7 إلى قوله { فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ

{ آل عمران 7 فقال النبي صلى الله عليه وسلم إذا رأيتم الذين يتبعون ماتشابهه منه فأولئك الذين سمي الله فاحذروهم ⁴⁵⁰

"هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم"

أن الخلاف ما زال بين بني آدم من زمن نوح واختلاف الناس قبل المسلمين أعظم بكثير من اختلاف المسلمين وقد قال تعالى {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ النَّبِيُّاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} البقرة 213 قال ابن عباس كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام ثم اختلفوا بعد ذلك وقال تعالى {وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا} يونس 19 وقال تعالى {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَرَالُونَ مُخْتَلِفِينَ} {118} **إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَفَهُمُ} {119} هود 118-119** وقالت الملائكة لما قال تعالى {إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} البقرة 30 وقد أخبر الله تعالى أن ابني آدم قتل أحدهما أخاه وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها فإنه أول من سن القتل وقال تعالى {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُمْ مَّن كَفَلْنَا اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ النَّبِيُّاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَنَّا الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ النَّبِيُّاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَّنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَنَّاوَا وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ} البقرة 253

وقد قال تعالى {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ النَّبِيُّاتُ} آل عمران 105 فهذه نصوص القرآن تخبر بالاختلاف والتفرق الذي كان في الأمم قبلنا وقال صلى الله عليه وسلم افتترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة وافتترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة وقد أخبر الله من تكذيب قوم عاد وثمود وفرعون لأنبيائهم ما فيه عبرة وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ذروني ماتركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم ⁴⁵¹

اتبع الناس للرسول اقلهم اختلافا

قال تعالى {فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةً يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ} {116} وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى

⁴⁵⁰الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 453 و مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 310

⁴⁵¹منهاج السنة النبوية ج: 6 ص: 310

بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ {117} وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ {118}
إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ {119}

هود116-119 فان القوم كلما بعدوا عن اتباع الرسل والكتب المنزلة كان أعظم في تفرقهم واختلافهم فانهم يكونوا أضل كما في الحديث الذي رواه الترمذي عن ابي امامة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل ثم قرأ قوله { مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ } الزخرف58 إذ لا يحكم بين الناس فيما تنازعوا فيه إلا كتاب منزل ونبي مرسل كما قال تعالى { كَانِ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } البقرة213 ولهذا قال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا } النساء59 وقد أنزل مع رسله الكتاب والميزان كما قال تعالى { لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ } الحديد25 وقال { اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ } الشورى17 والميزان قال كثير من المفسرين هو العدل وقال بعضهم هو ما به توزن الامور وهو ما به يعرف العدل وكذلك قالوا في قوله { وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ } الرحمن7 الامثال المضروبة والاقيسة العقلية التي تجمع بين المتماثلات وتفرق بين المختلفات وقد امر الله بالجماعة والائتلاف ونهى عن الفرقة والاختلاف فقال تعالى { وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا } آل عمران103 وقال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِبَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ } الأنعام159 وقال { وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ } آل عمران105 وقد اخبر ان اهل الرحمة لا يختلفون فقال تعالى { وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ {118} إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ } {119} هود118-119 ولهذا يوجد اتباع الناس للرسول اقلهم اختلافا كأهل الحديث والسنة فانهم اقل اختلافا من جميع الطوائف ثم من كان إليهم اقرب من جميع الطوائف المنتسبة الى السنة كانوا اقل اختلافا فأما من بعد من السنة كالمعتزلة والرافضة فتجدهم اكثر الطوائف اختلافا⁴⁵²

انه تفرق أهل الكتاب في النبي صلى الله عليه وسلم كل يقول فيه قولاً هو نظير تفرق سائر الكفار فإن الكفار بالانبياء من عاداتهم أن تقول كل طائفة فيه قولاً يناقض قول الطائفة الأخرى وكذلك قولهم في الكتاب الذي أنزل عليه وأقوالهم كلها أقوال مختلفة باطلة وهذا هو الاختلاف المذموم الذي ذكره الله تعالى في قوله { وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ {118} إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ {119} } سورة هود الآياتان 118 119⁴⁵³

⁴⁵²الرد على المنطقيين ج: 1 ص: 334 و مجموع الفتاوى ج: 9 ص: 230

⁴⁵³الجواب الصحيح ج: 1 ص: 155

أهل الرحمة الذين لا يختلفون

ولم يشرع الله لنبي من الأنبياء أن يعبد غير الله البتة قال تعالى { فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } الروم 30 ثم قال { مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } {31} مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ } {32} الروم 31-32 فأهل الإشراك متفرقون وأهل الإخلاص متفقون وقد قال تعالى { **وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ } {118} إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ } {119} هود 118-119** فأهل الرحمة مجتمعون متفقون والمشركون فرقوا دينهم وكانوا شيعاً ولهذا تجد ما أحدث من الشرك والبدع يفترق أهله فكان لكل قوم من مشركي العرب طاغوت يتخذونه ندا من دون الله فيقربون له ويستعينون به ويشركون به وهؤلاء ينفرون عن طاغوت هؤلاء وهؤلاء ينفرون عن طاغوت هؤلاء بل قد يكون لأهل هذا الطاغوت شريعة ليست للآخرين كما كان أهل المدينة يهلون لمناة الثالثة الأخرى ويتخرجون من الطواف بين الصفا والمروة حتى أنزل الله تعالى إن الصفا والمروة من شعائر الله الآية وهكذا تجد من يتخذ شيئاً من نحو هذا الشرك كالذين يتخذون القبور وأثار الأنبياء والصالحين مساجد تجد كل قوم يقصدون بالدعاء والاستعانة والتوجه من لا تعظمه الطائفة الأخرى بخلاف أهل التوحيد فإنهم يعبدون الله وحده ولا يشركون به شيئاً في بيوته التي قد أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه مع أنه قد جعل لهم الأرض كلها مسجداً وطهوراً وإن حصل بينهم تنازع في شيء مما يسوغ فيه الاجتهاد لم يوجب ذلك لهم تفرقاً ولا اختلافاً بل هم يعلمون أن المصيب منهم له أجران وأن المجتهد المخطيء له أجر على اجتهاده وخطؤه مغفور له والله هو معبودهم وحده إياه يعبدون وعليه يتوكلون وله يخشون ويرجون وبه يستعينون ويستغيثون وله يدعون ويسألون⁴⁵⁴

ولست تجد اتفاقاً وائتلافاً إلا بسبب اتباع آثار الأنبياء من القرآن والحديث وما يتبع ذلك ولا تجد افتراقاً واختلافاً إلا عند من ترك ذلك وقدم غيره عليه قال تعالى { **وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ } {118} إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ } {119} هود 118-119** فأخبر أن أهل الرحمة لا يختلفون وأهل الرحمة هم أتباع الأنبياء قولاً وفعلاً وهم أهل القرآن والحديث من هذه الأمة فمن خالفهم في شيء فاته من الرحمة بقدر ذلك⁴⁵⁵

ولم يستوعب الحق إلا من اتبع المهاجرين والأنصار وأمن بما جاء به الرسول كله على وجهه لم يؤمن ببعض ويكفر ببعض وهؤلاء هم أهل الرحمة الذين لا يختلفون بخلاف أولئك المختلفين قال

⁴⁵⁴ اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 456

⁴⁵⁵ مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 52

تعالى { وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ } {118} إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ {119} هود 118-119
456

عامة ما تنازع فيه الناس يكون مع هؤلاء بعض الحق وقد تركوا بعضه وكذلك مع الآخرين ولا يشتهبه على الناس الباطل المحض بل لا بد أن يشاب بشيء من الحق فلهذا { لَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ } {118} إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ {119} هود 118-119 فإنهم هم الذين آمنوا بالحق كله وصدقوا كل طائفة فيما قالوه من الحق فهم جاءوا بالصدق وصدقوا به فلا يختلفون⁴⁵⁷

علم الله سبحانه من لوازم نفسه

الواحد من الناس إذا أراد أن يعمل عملاً قدر في نفسه ما يريد عمله ثم عمله كما قدر في نفسه وربما أظهر ما قدره في الخارج بصورته ويسمى هذا التقدير الذي في النفس خلقاً ومنه قول الشاعر ولأنت تقري ما خلقت وبعض الناس يخلق ثم لا يفري يقول إذا قدرت أمراً أمضيته وانفذته بخلاف غيرك فإنه عاجز عن إمضاء ما يقدره وقال تعالى { إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ } القمر 49 وهو سبحانه يعلم قبل أن يخلق الأشياء كل ما سيكون وهو يخلق بمشيئته فهو يعلمه ويريده و علمه وإرادته قائم بنفسه وقد يتكلم به ويخبر به كما في قوله { لَأْمَلَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ } هود 119⁴⁵⁸

فإن الله قد أخبر عما يكون من أفعال العباد قبل أن تكون بل أعلم بذلك من شاء من ملائكته وغير ملائكته وقال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ } {96} وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَبْرُؤُوا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ } {97} يونس 96-97 وقال { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ } البقرة 6 وهذا خير عن المستقبل وأنهم لا يؤمنون وقال تعالى { لَأْمَلَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ } ص 85 وقال { وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأْمَلَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ } السجدة 13 وهذا قسم منه على ذلك وهو الصادق البار في قسمه و صدقه مستلزم لعلمه بما أقسم عليه وهو دليل على أنه قادر على ذلك وقد يستدل به على أنه خالق أفعال العباد إذ لو كانت أفعالهم غير مقدورة له لم يمكنه أن يملأ جهنم بل كان ذلك إليهم إن شاؤوا عصوه فملأها وإن شاؤوا أطاعوه فلم يملأها لكن قد يقال أنه علم أنهم يعصونه فأقسم على جزائهم على ذلك وقد يجاب عن ذلك بأن علمه بالمستقبل قبل أن يكون مستلزم لخلقه له فإنه

⁴⁵⁶مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 131

⁴⁵⁷مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 37

⁴⁵⁸مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 381

سبحانه لا يستفيد العلم من غيره كالملائكة والبشر ولكن علمه من لوازم نفسه فلو كانت أفعاله خارجة عن مقدوره ومراده لم يجب أن يعلمها كما يعلم مخلوقاته وبسط هذا له موضع آخر ⁴⁵⁹

مشيئة الله العامة الكونية

وأما قولهم الأمور قد فرغ منها فهذا نظير ما قاله بعضهم في الدعاء أنه لا حاجة إليه لأن المطلوب إن كان مقدرًا فلا حاجة إليه وإن لم يكن مقدرًا لم ينفع وهذا القول من أفسد الأقوال شرعًا وعقلًا وكذلك قول من قال التوكل والدعاء لا يجلب به منفعة ولا يدفع به مضرة وإنما هو عبادة محضة وإن حقيقة التوكل بمنزلة حقيقة التفويض المحض وهذا وإن كان قاله طائفة من المشايخ فهو غلط أيضًا وكذلك قول من قال الدعاء إنما هو عبادة محضة فهذه الأقوال وما أشبهها يجمعها أصل واحد وهو أن هؤلاء ظنوا أن كون الأمور مقدرًا مقضية يمنع أن يتوقف على أسباب مقدرًا أيضًا تكون من العبد ولم يعلموا أن الله سبحانه يقدر الأمور ويقضيها بالأسباب التي جعلها معلقة بها من أفعال العباد وغير أفعالهم ولهذا كان طور قولهم يوجب تعطيل العمال بالكلية وقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن هذا مرات فأجاب عنه كما أخرجاه في الصحيحين عن عمران بن حصين قال قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم أهل الجنة من أهل النار قال نعم قالوا ففيم العمل قال كل ميسر لما خلق له وفي الصحيحين عن علي بن أبي طالب قال كنا في جنازة فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس معه مخصرة فجعل ينكت بالمخصرة في الأرض ثم رفع رأسه وقال ما من نفس منفوسة إلا وقد كتب مكانها من النار أو الجنة إلا وقد كتبت شقية أو سعيدة قال فقال رجل من القوم يا نبي الله أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل فمن كان من أهل السعادة ليكون إلى السعادة ومن كان من أهل الشقاوة ليكون إلى الشقاوة قال اعملوا فكل ميسر لما خلق له أما أهل السعادة فييسرون للسعادة وأما أهل الشقاوة فييسرون للشقاوة ثم قال نبي الله صلى الله عليه وسلم الليل فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى أخرجاه الجماعة في الصحاح والسنن والمسائيد وروى الترمذي أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل فقيل يا رسول الله أرأيت أدوية ننداوى بها ورقى نسترقى بها وتقى نتقيها أترد من قدر الله شيئًا فقال هي من قدر الله وقد جاء هذا المعنى عن النبي صلى الله عليه وسلم في عدة أحاديث فيبين صلى الله عليه وسلم أن تقدم العلم والكتاب بالسعيد والشقي لا ينافي أن تكون سعادة هذا بالأعمال الصالحة وشقاوة هذا بالأعمال السيئة فإنه سبحانه يعلم الأمور على ما هي عليه وكذلك يكتبها فهو يعلم أن السعيد يسعد بالأعمال الصالحة والشقي يشقى بالأعمال السيئة فمن كان سعيدًا ييسر للأعمال الصالحة والشقي يشقى بالأعمال السيئة فمن كان للأعمال السيئة التي تقتضي الشقاوة كلاهما ميسر لما خلق له وهو ما يصير إليه من مشيئة الله العامة الكونية التي ذكرها الله سبحانه في كتابه في قوله تعالى ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ {118} إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ {119} هود 118-119 وأما ما خلقوا له من

محبة الله ورضاه وهو إرادته الدينية وأمره بموجباتها فذلك مذكور في قوله الذاريات { وَمَا خَلَقْتُ
الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } الذاريات 56⁴⁶⁰

{ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ }

(فيه نقص) وإنما زعم بعض الناس ذلك في قوله { **وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ** } هود 119 التي في آخر سورة هود فإن بعض القدرية زعم أن تلك اللام العاقبة والصيرورة أي صارت عاقبتهم إلى الرحمة وإلى الاختلاف وإن لم يقصد ذلك الخالق وجعلوا ذلك كقوله { **فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ** } القصص 8 وقول الشاعر لدوا للموت وابنوا للخراب وهذا أيضا ضعيف هنا لأن لام العاقبة إنما تجيء في حق من لا يكون عالما بعواقب الأمور ومصايرها فيفعل الفعل الذي له عاقبة لا يعلمها كآل فرعون فأما من يكون عالما بعواقب الأفعال ومصايرها فلا يتصور منه أن يفعل فعلا له عاقبة لا يعلم عاقبته وإذا علم أن فعله له عاقبة فلا يقصد بفعله ما يعلم أنه لا يكون فإن ذلك تمن وليس بإرادة وأما اللام فهي اللام المعروفة وهي لام كي ولام التعليل التي إذا حذف انتصب المصدر المجرور بها على المفعول له وتسمى العلة الغائية وهي متقدمة في العلم والإرادة متأخرة في الوجود والحصول وهذه العلة هي المراد المطلوب المقصود من الفعل لكن ينبغي أن يعرف أن الإرادة في كتاب الله على نوعين أحدهما الإرادة الكونية وهي الإرادة المستلزمة لوقوع المراد التي يقال فيها ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن وهذه الإرادة في مثل قوله { **فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ** } الأنعام 125 وقوله { **وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** } هود 34 وقال تعالى { **وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتُلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ** } البقرة 253 وقال تعالى { **وَلَوْ لَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ** } الكهف 39 وأمثال ذلك وهذه الإرادة هي مدلول اللام في قوله { **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ** } {118} **إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ** } {119} هود 118-119 قال السلف خلق فريقا للاختلاف وفريقا للرحمة ولما كانت الرحمة هنا الإرادة وهناك كونية وقع المراد بها فقوموا واختلفوا وقوموا⁴⁶¹

اللام لبيان الجملة الشرعية المتعلقة بالإرادة الشرعية كما في قوله تعالى { **يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ** } النساء 26 وقد تكون لبيان العاقبة الكونية كما في قوله تعالى { **وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ** } {118} **إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ** } {119} هود 118-119 أي خلق قوما للاختلاف وقوله للرحمة⁴⁶²

⁴⁶⁰أمراض القلوب ج: 1 ص: 45-46 و التحفة العراقية ج: 1 ص: 46

⁴⁶¹دقائق التفسير ج: 2 ص: 527

⁴⁶²مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 237

لا تمتلئ جهنم الا من أتباع ابليس من الجنة والناس

فإن الله تعالى لا يضعف السينات بغير عمل صاحبها ولا يجزي الانسان في الآخرة الا بما عملت نفسه ولا تمتلئ جهنم الا من أتباع ابليس من الجنة والناس كما قال تعالى **{إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأُمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ}** {هود 463 119}

قال تعالى عن النار **{كُلَّمَا أَلْقِي فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ}** {8} قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير {9} الملك 8- 9 فقد أخبر سبحانه وتعالى بصيغة العموم أنه كلما ألقى فيها فوج سألهم الخزنة هل جاءهم نذير فيعترفون بأنهم قد جاءهم نذير فلم يبق فوج يدخل النار إلا وقد جاءهم نذير فمن لم يأت نذير لم يدخل النار وقال تعالى لإبليس **{لَأُمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ}** {ص 85} فقد أقسم سبحانه أنه يملؤها من إبليس وأتباعه وإنما أتباعه من أطاعه فمن لم يعمل ذنبا لم يطعه فلا يكون ممن تملأ به النار وإذا ملئت بأتباعه لم يكن لغيرهم فيها موضع وقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة وأنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لا يزال يلقي في النار وتقول هل من مزيد حتى يضع رب العزة فيها قدمه وفي رواية فيضع قدمه عليها فتقول قط قط ويزوى بعضها إلى بعض أي تقول حسبي حسبي وأما الجنة فيبقى فيها فضل فينشئ الله لها خلقا فيسكنهم فضول الجنة هكذا روي في الصحاح من غير وجه ووقع في بعض طرق البخاري غلط قال فيه وأما النار فيبقى فيها فضل والبخاري رواه في سائر المواضع على الصواب ليبين غلط هذا الراوي كما جرت عادته بمثل ذلك إذا وقع من بعض الرواة غلط في لفظ ذكر ألفاظ سائر الرواة التي يعلم بها الصواب وما علمت وقع فيه غلط إلا وقد بين فيه الصواب بخلاف مسلم فإنه وقع في صحيحه عدة أحاديث غلط أنكرها جماعة من الحفاظ على مسلم والبخاري قد أنكر عليه بعض الناس تخريج أحاديث لكن الصواب فيها مع البخاري والذي أنكر على الشيخين أحاديث قليلة جدا وأما سائر متونهما فمما اتفق علماء المحدثين على صحتها وتصديقها وتلقيها بالقبول لا يستريبون في ذلك وقد قال تعالى **{يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّبْنَاهُمْ دُنْيَاهُمْ فَشهدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ}** {130} ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ {131} الأنعام 130-131 فقط خاطب الجن والإنس واعترف المخاطبون بأنهم جاءتهم رسل يقصون عليهم آياته وينذرونهم لقاء يوم القيامة ثم قال **{ ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ}** {الأنعام 131} أي هذا بهذا السبب فعلم أنه لا يعذب من كان غافلا ما لم يأت نذير فكيف الطفل الذي لا عقل له ودل أيضا على أن ذلك ظلم تنزه سبحانه عنه وإلا فلو كان الظلم هو الممتنع لم يتصور أن يهلكهم بظلم بل كيفما أهلكهم فإنه ليس بظلم عند الجهمية الجبرية وقد قال تعالى **{وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَّهَاتِ رُسُلًا يَلْتَمِسُ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ}** {القصص 59} وقال تعالى **{وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصَلِحُونَ}** {هود 117} وقال تعالى **{وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا}** {طه 112} قال المفسرون الظلم أن يحمل عليه سيئات غيره والهضم أن ينقص من حسناته فجعل

سبحانه عقوبته بذنب غيره ظلما ونزه نفسه عنه ومثل هذا كثير كقوله { لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ } البقرة 286 وقوله { وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى } الأنعام 164 وكذلك قوله { لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيْهِ وَقَدْ قَدَّمْتُمُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعْدِ } 28 { مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدِيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ } 29 { 28- 29 فبين سبحانه أنه قدم بالوعيد وأنه ليس بظلام للعبيد كما قال في الآية الأخرى { ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ } 100 { وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَنْبِيهِ } 101 { هود 100- 101 فهو سبحانه نزه نفسه عن ظلمهم وبين أنهم هم الذين ظلموا أنفسهم بشركهم فمن لم يكن ظالما لنفسه تكون عقوبته ظلما تنزه الله عنه وقال في الآية الأخرى { إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ } 74 { لَا يُفْتَنُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ } 75 { وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ } 76 { الزخرف 74- 76 }⁴⁶⁴

أهل السنة لا ينفون عن الله سبحانه ما وصف به نفسه ولا يحرفون الكلم

عن مواضعه

فاعتقاد الفرقة الناجية المنصورة الى قيام الساعة أهل السنة والجماعة وهو الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والايمان بالقدر خيره وشره ومن الايمان بان الله الايمان بما وصف به نفسه في كتابه وبما وصفه به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكيف ولا تمثيل بل يؤمنون بأن الله سبحانه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه ولا يحرفون الكلم عن مواضعه ولا يلحدون في أسماء الله وآياته ولا يكيفون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه لأنه سبحانه لا سمي له ولا كفو له ولا ند له ولا يقاس بخلقه سبحانه وتعالى فانه سبحانه أعل م بنفسه وبغيره وأصدق قبلا وأحسن حديثا من خلقه ثم رسله صادقون مصدقون بخلاف الذين يقولون عليه ما لا يعلمون ولهذا قال سبحانه وتعالى { سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ } 180 { وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ } 181 { وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } 182 { الصافات 180- 182 فسبح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسول وسلم على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاء به المرسلون فإنه الصراط المستقيم صراط الذين انعم الله عليهم من النبيين والصدقيين والشهداء والصالحين وقد دخل في هذه الجملة ما وصف به نفسه في سورة الإخلاص التي تعدل ثلث القرآن وقوله سبحانه { إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ } هود 119⁴⁶⁵

⁴⁶⁴منهاج السنة النبوية ج: 5 ص: 100- 104

⁴⁶⁵مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 136

صيغة الجمع في كلام العرب للواحد العظيم

قال تعالى {وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ} هود 120 ذكر بصيغة الجمع {نَقُصُّ عَلَيْكَ} هود 120 و {عَلَيْنَا جَمْعُهُ وَقُرْآنُهُ} القيامة 17 و {عَلَيْنَا بَيَانُهُ} القيامة 19 فالقراءة هنا حين يسمعه من جبريل والبيان هنا بيانه لمن يبلغه القرآن ومذهب سلف الأمة وأئمتها وخلفها أن النبي سمع القرآن من جبريل وجبريل سمعه من الله عز وجل واما قوله نتلوا ونقص ونحوه فهذه الصيغة في كلام العرب للواحد العظيم الذي له أعوان يطيعونه فاذا فعل أعوانه فعلا بأمره قال نحن فعلنا كما يقول الملك نحن فتحنا هذا البلد وهو منا هذا الجيش ونحو ذلك⁴⁶⁶

أحوال الامم الماضية يعتبر بها ويقاس عليها أحوال الامم المستقبلية

قال تعالى {وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ} هود 120 وفي القرآن من قصص المرسلين التي فيها تسلية وتثبيت ليناسى بهم في الصبر على ما كذبوا وأوذوا⁴⁶⁷

وقال تعالى {وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ} النور 34 وهو ما ذكره من أحوال الامم الماضية التي يعتبر

بها ويقاس عليها أحوال الامم المستقبلية كما قال {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ} يوسف 111 فمن كان من أهل الايمان قيس بهم وعلم أن الله يسعده في الدنيا والآخرة ومن كان من أهل الكفر قيس بهم وعلم أن الله يشقيه في الدنيا والآخرة كما قال في حق هؤلاء {أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أَوْلَانِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ} القمر 43 وقد قال {قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ} آل عمران 137 وقال في حق المؤمنين {وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ} النور 55 وقال {وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ} 87 {فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْعَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ} 88 {الأنبياء 87- 88} وقال في قصة أيوب {فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرِّهِ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ} الأنبياء 84 {رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَى لِّأُولِي الْأَلْبَابِ} ص 43 وقال {أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدِهِ} الأنعام 90 وقال

⁴⁶⁶مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 128

⁴⁶⁷مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 179

{ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ } البقرة 214⁴⁶⁸

من الإيمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه من غير تحريف ولا تعطيل

ومن الإيمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه وبما وصفه به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل بل يؤمنون بأن الله سبحانه ليس كمثل شيء وهو السميع البصير فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه ولا يحرفون الكلم عن مواضعه ولا يلحدون في أسماء الله وآياته ولا يكيفون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه لأنه سبحانه لا سمي له ولا كفو له ولا ند له ولا يقاس بخلقه سبحانه وتعالى فإنه أعلم بنفسه وبغيره وأصدق قيلاً وأحسن حديثاً من خلقه وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات وقد دخل في هذه الجملة قوله سبحانه {وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهَا فَعَبْدُهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} هود 123⁴⁶⁹

ختم السورة وافتتحها بالتوحيد والإيمان بالرسول

وقد ختم السورة بقوله { وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ } {121} **وَانتظروا إِنَّا مُنتظرون** {122} **وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهَا فَعَبْدُهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** {123} **هود 121- 123** كما افتتحها بقوله { أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ } هود 2 فذكر التوحيد والإيمان بالرسول فهذا دين الله في الأولين والآخرين قال أبو العالية كلمتان يسأل عنها الأولون والآخرون ماذا كنتم تعبدون وماذا أجبتم المرسلين ولهذا قال { وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ } القصص 65 و { أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ } القصص 62 هو الشرك في العبادة وهذان هما الإيمان والإسلام وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ تارة في ركعتي الفجر سورتي الإخلاص وتارة بآيتي الإيمان والإسلام فيقرأ قوله { أَمَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا } البقرة 136 الآية (او هذه الآية لم اعرف من المقصود { أَمَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا } آل عمران 84 فأولها الإيمان وآخرها الإسلام ويقرأ في الثانية { قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ } آل عمران 64 فأولها إخلاص العباد لله وآخرها الإسلام له وقال { وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ

⁴⁶⁸مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 16- 17

الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 361

⁴⁶⁹العقيدة الواسطية ج: 1 ص: 13

وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمُ وَاللَّهُنَّ وَاللَّهُمُّ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ { العنكبوت 46
 ففيها الإيمان والإسلام في آخرها وقال { الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ } {69} ادْخُلُوا الْجَنَّةَ
 أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ {70} { الزخرف 69-70⁴⁷⁰

توحيد الإلهية الذي يحبه الله ويرضاه

توحيد الإلهية الذي يحبه الله ويرضاه ويأمر به وهو أن لا يعبد إلا إياه ولا يعبد إلا بطاعته
 وطاعة رسوله فمن استشعر هذا في قوله { لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ } { الأنبياء 87 } كان عبدا متوكلا عليه
 وكان ممثلا قوله { **وَأَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ** } { هود 123 } وقوله { عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ
 } { هود 88 } وقوله { **وَأَذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَيَّنَ إِلَيْهِ تَبَيُّنًا** } {8} { رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
 فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا } {9} { المزملة 8-9⁴⁷¹

فإن ما في القلب من معرفة الله ومحبهه وخشيته وإخلاص الدين له وخوفه ورجائه والتصديق
 بأخباره وغير ذلك مما يتباين الناس فيه ويتفاضلون تفاضلا عظيما ويقوي ذلك كلما ازداد العبد
 تدبرا للقرآن وفهما ومعرفة بأسماء الله وصفاته وعظمته وتفقره إليه في عبادته واشتغاله به بحيث
 يجد اضطراره إلى أن يكون تعالى معبوده ومستغاثه أعظم من اضطراره إلى الأكل والشرب فإنه
 لا صلاح له إلا بأن يكون الله هو معبوده الذي يطمئن إليه ويأنس به ويلتذ بذكره ويستريح به ولا
 حصول لهذا إلا بإعانة الله ومتى كان للقلب إله غير الله فسد وهلك هلاكا لا صلاح معه ومتى لم
 يعنه الله على ذلك لم يصلحه ولا حول ولا قوة إلا به ولا ملجأ ولا منجأ منه إلا إليه⁴⁷²

والمؤمن يجد نفسه محتاجة إلى الله في تحصيل مطالبه ويجد في قلبه محبة الله غير هذا فهو
 محتاج إلى الله من جهة أنه ربه ومن جهة أنه إله قال تعالى { **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**
 } { الفاتحة 5 } فلا بد أن يكون العبد عبدا لله ولا بد أن يكون مستعينا به ولهذا كان هذا فرضا على
 كل مسلم أن يقوله في صلاته وهذه الكلمة بين العبد وبين الرب وقد روي عن الحسن
 البصري رحمه الله أن الله أنزل مائة كتاب وأربعة كتب جمع سرها في الأربعة وجمع سر
 الأربعة في القرآن وجمع سر القرآن في الفاتحة وجمع سر الفاتحة في هاتين الكلمتين { **إِيَّاكَ
 نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** } { الفاتحة 5 } ولهذا ثناها الله في كتابه في غير موضع من القرآن كقوله {
فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ } { هود 123 } وقوله { **عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنبْنَا** } { الممتحنة 4 } وقوله { **عَلَيْهِ
 تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ** } { هود 88 } وقوله { **عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَّابٌ** } { الرعد 30 } وقوله { **وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ
 يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا** } {2} { وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ } {3} { الطلاق 2
 3 } وقد قال تعالى { **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** } { الذاريات 56 } ولهذا قال النبي صلى

⁴⁷⁰مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 104

الله عليه وسلم رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله
وأمثال ذلك ⁴⁷³

فان خلو الحي عن الارادة مطلقا محال فان لم يحب ما يحبه الله ويبغض ما يبغضه احب ما تحبه
نفسه و ابغض ما تبغضه نفسه فيخرج عن الفرق الالهي النبوي الذي هو حقيقة قول لا اله الا الله
وحقيقة دين الاسلام الى الفرق النفساني الشيطاني ثم هؤلاء صاروا فرقا اما ابن سينا وامثاله
من الملاحدة فانهم يأمرون بهذا مع سائر الحادهم من نفي الصفات وقدم الافلاك وانكار معاد
الابدان وجعل النبوة تنال بالكسب كالذكاء والزهد وانما يفيض عليها فيض من العقل الفعال
فيخرج من دين المسلمين واليهود والنصارى بل الفناء المحمود عند العارفين هو تحقيق شهادة
ان لا اله الا الله فلا يشهد لمخلوق شيئا من الالهية فيشهد انه لا خالق غيره ويشهد انه لا يستحق
العبادة غيره ويتحقق بحقيقة قوله {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} الفاتحة⁵ وقوله { فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ
عَلَيْهِ } هود¹²³

والا فاذا شهدت انه المستحق للعبادة مع رؤيتك نفسك لم تشهد حقيقة اياك نستعين واذا شهدت
حقيقة انه الفاعل لكل شيء ولم تشهد انه المستحق للعبادة دون ما سواه وان عبادته انما تكون
بطاعة رسوله لم تشهد حقيقة اياك نعبد واذا تحققت بقوله اياك نعبد واياك نستعين تحققت بالفناء
في التوحيد الذي بعث الله به رسله وانزل به كتبه قال الله تعالى {وَأَذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَيَّنْ إِلَيْهِ
تَبْيِيْلًا } {8} رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيْلًا } {9} المزملة 8-9 وقال تعالى
{ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ } هود¹²³ وقال تعالى { وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا } {2} وَيَرْزُقْهُ مِنْ
حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ } {3} الطلاق 2-3 وقال تعالى { قُلْ هُوَ رَبِّي لَا
إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٌ } الرعد⁴⁷⁴ 30

توحيد الالهية هو الفارق بين الموحدين والمشركين

كما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم في الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا رفع
رأسه من الركوع يقول ربنا و لك الحمد ملء السماء و ملء الأرض و ملء ما بينهما و ملء ما

⁴⁷³ منهاج السنة النبوية ج: 5 ص: 394

⁴⁷⁴ الرد على المنطقيين ج: 1 ص: 521-520

شئت من شيء بعد أهل الثناء و المجد أحق ما قال العبد و كلنا لك عبد فهذا حمد و هو شكر الله تعالى و بيان أن حمده أحق ما قاله العبد ثم يقول بعد ذلك اللهم لا مانع لما أعطيت و لا معطي لما منعت و لا ينفع ذا الجدم منك الجد وهذا تحقيق لوحدانيتها لتوحيد الربوبية خلقا و قدرا و بداية و هداية هو المعطي المانع لا مانع لما أعطى و لا معطى لما منع و لتوحيد الالهية شرعا و أمرا و نهيا و هو أن العباد و إن كانوا يعطون ملكا و عظمة و بختا و رياسة في الظاهر أو في الباطن كأصحاب المكاشفات و التصرفات الخارقة فلا ينفع ذا الجدم منك الجد أي لا ينجيه و لا يخلصه من سؤالك و حسابك حظه و عظمته و غناه ولهذا قال لا ينفعه منك و لم يقل لا ينفعه عندك فإنه لو قيل ذلك أو هم أنه لا يتقرب به اليك لكن قد لا يضره فيقول صاحب الجدم إذا سلمت من العذاب في الآخرة فما أبالي كالذين أوتوا النبوة و الملك لهم ملك في الدنيا و هم من السعداء فقد يظن ذو الجدم الذي لم يعمل بطاعة الله من بعده أنه كذلك فقال و لا ينفع ذا الجدم منك ضمن ينفع معنى ينجى و يخلص فبين أن جده لا ينجيه من العذاب بل يستحق بذنوبه ما يستحقه أمثاله و لا ينفعه جده منك فلا ينجيه و لا يخلصه فتضمن هذا الكلام تحقيق التوحيد و تحقيق قوله {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} الفاتحة 5 و قوله {فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ} هود 123 و قوله {عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} هود 88 و قوله {وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا} {8} رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا} {9} المزملة 8-9 قوله لا مانع لما أعطيت و لا معطى لما منعت توحيد الربوبية الذي يقتضى أنه سبحانه هو الذي يسأل و يدعى و يتوكل عليه و هو سبب لتوحيد الالهية و دليل عليه كما يحتج به في القرآن على المشركين فان المشركين كانوا يقولون بهذا التوحيد توحيد الربوبية و مع هذا يشركون بالله فيجعلون له أندادا يحبونهم كحب الله و يقولون إنهم شفعاؤنا عنده و إنهم يتقربون بهم اليه فيتخذونهم شفعا و قربانا كما قال تعالى {وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ} يونس 18 و قال تعالى {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى} الزمر 3 و قال تعالى {وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} {27} قُلْ لَّا نَسْرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} {28} الأحقاف 27-28 وهذا التوحيد هو عبادة الله و حده لاشريك له و أن لا نعبده إلا بما أحبه و ما رضىه و هو ما أمر به و شرعه على ألسن رسله صلوات الله عليهم فهو متضمن لطاعته و طاعة رسوله و موالاته أوليائه و معاداة أعدائه و أن يكون الله و رسوله أحب الى العبد من كل ما سواهما و هو يتضمن أن يحب الله حبا لا يماثله و لا يساويه فيه غيره بل يقتضى أن يكون رسوله صلى الله عليه و سلم أحب اليه من نفسه فإذا كان الرسول لأجل أنه رسول الله يجب أن يكون أحب الى المؤمن من نفسه فكيف بربه سبحانه و تعالى و في صحيح البخاري أن عمر قال يارسول الله و الله إنك لأحب إلي من كل شيء إلا من نفسي فقال لا يا عمر حتى أكون أحب اليك من نفسك قال فو الذي بعثك بالحق إنك لأحب إلي من نفسي قال الآن يا عمر وقد قال تعالى {النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ} الأحزاب 6 و قال تعالى {قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تُرَضُّونَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} التوبة 24 فان لم يكن الله و رسوله و الجهاد في سبيله أحب إلى العبد من الأهل و المال على اختلاف أنواعه فإنه داخل تحت هذا الوعيد فهذا التوحيد توحيد الالهية يتضمن فعل المأمور و ترك المحذور و من ذلك الصبر على المقذور كما أن الأول يتضمن الاقرار بأنه لا خالق و لا رازق معطي و لا مانع إلا الله و حده فيقتضى أن لا يسأل العبد غيره و لا يتوكل إلا عليه و لا يستعين إلا به كما قال تعالى في النوعين {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} الفاتحة 5 و قال {فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ} هود 123

و هذا التوحيد هو الفارق بين الموحدين و المشركين و عليه يقع الجزاء و الثواب في الأولى و الآخرة فمن لم يأت به كان من المشركين الخالدين فان الله لا يغفر أن يشرك به و يغفر ما دون

ذلك لمن يشاء أما توحيد الربوبية فقد أقر به المشركون و كانوا يعبدون مع الله غيره و يحبونهم كما يحبونه فكان ذلك التوحيد الذي هو توحيد الربوبية حجة عليهم فاذا كان الله هو رب كل شيء و مليكه و لا خالق و لا رازق إلا هو فلماذا يعبدون غيره معه و ليس له عليهم خلق و لا رزق و لا بيده لهم منع و لا عطاء بل هو عبد مثلهم لا يملك لنفسه ضرا و لانفعا و لا موتا و لا حياة و لا نشورا فان قالوا ليشفع فقد قال الله { مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ } البقرة 255 فلا يشفع من له شفاعة من الملائكة و النبيين إلا باذنه و أما قبورهم و ما نصب عليها من قباب و أنصاب أو تماثيلهم التي مثلت على صورهم مجسدة أو مرقومة فجعل الاستشفاع بها استشفاعا بهم فهذا باطل عقلا و شرعا فانها لاشفاعة لها بحال و لا لسائر الأصنام التي عملت للكواكب و الجن و الصالحين و غيرهم ⁴⁷⁵

عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد

قال تعالى { وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ } هود 123 عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد ومن هذا الباب لفظ العبادة فاذا أمر بعبادة الله مطلقا دخل في عبادته كل ما أمر الله به فالتوكل عليه مما أمر به والاستعانة به مما أمر به فيدخل ذلك في مثل قوله { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } الذاريات 56 وفي قوله { وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا } النساء 36 وقوله { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ } البقرة 21 وقوله { إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ } الزمر 2 { قُلِ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي } الزمر 14 وقوله { أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ } الزمر 64 ثم قد يقرن بها اسم آخر كما في قوله { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } الفاتحة 5 وقوله { فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ } هود 123 وقول نوح { اَعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا } نوح 3 ⁴⁷⁶

وهناك طائفة هم مستمسكون بالدين في اداء الفرائض المشهوره واجتناب المحرمات المشهوره لكن يغلطون في ترك ما امروا به من الاسباب التي هي عبادة ظانين ان العارف اذا شهد القدر اعرض عن ذلك مثل من يجعل التوكل منهم او الدعاء ونحو ذلك من مقامات العامة دون الخاصة بناء على ان من شهد القدر علم ان ما قدر سيكون فلا حاجة الى ذلك وهذا غلط عظيم فان الله قدر الاشياء باسبابها كما قدر السعادة والشقاوة باسبابها كما قال النبي صلى الله عليه وسلم ان الله خلق للجنة اهلا خلقها لهم وهم في اصلاب آبائهم وبعمل اهل الجنة يعملون وكما قال النبي لما أخبرهم بان الله كتب المقادير فقالوا يا رسول الله افلا ندع العمل ونتكل على الكتاب فقال لا

⁴⁷⁵ مجمع الفتاوى ج: 14 ص: 376-380 و الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 128

⁴⁷⁶ مجمع الفتاوى ج: 7 ص: 163

اعملوا فكل ميسر لما خلق له اما من كان من اهل السعادة فسييسر لعمل اهل السعادة واما من كان من اهل الشقاوة فسييسر لعمل اهل الشقاوة فما امر الله به عباده من الأسباب فهو عبادة والتوكل مقرون بالعبادة كما في قوله تعالى { فَأَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ } هود123 وفي قوله { قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أَنِيبُ } هود88 ومنهم طائفة قد تترك المستحبات من الاعمال دون الواجبات فتتقص بقدر ذلك ومنهم طائفة يعترضون بما يحصل لهم من خرق عادة مثل مكاشفة او استجابة دعوة مخالفة للعادة العامة ونحو ذلك فيشتغل احدهم عما امر به من العبادة والشكر ونحو ذلك فهذه الأمور ونحوها كثيرا ما تعرض لاهل السلوك والتوجه وانما ينجو العبد منها بملازمة امر الله الذي بعث به رسوله في كل وقت كما قال الزهري كان من مضى من سلفنا يقولون الاعتصام بالسنة نجاة وذلك ان السنة كما قال مالك رحمه الله مثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق لا فان قيل فإذا كان جميع ما يحبه الله داخلا في اسم العبادة لماذا عطف عليها غيرها كقوله {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} الفاتحة5 وقوله { فَأَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ } هود123 وقول نوح { أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا } نوح3 وكذلك قول غيره من الرسل قيل هذا له نظائر كما في قوله { إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ } العنكبوت45 والفحشاء من المنكر وكذلك قوله { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ } النحل90 وإيتاء ذي القربى هو من العدل والاحسان كما ان الفحشاء والبغي من المنكر وكذلك قوله { وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ } الأعراف170 واقامة الصلاة من اعظم التمسك بالكتاب وكذلك قوله { إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا } الأنبياء90 ودعأؤهم رغبا ورهبا من الخيرات وامثال ذلك في القرآن كثير وهذا الباب يكون تارة مع كون احدهما بعض الاخر فيعطف عليه تخصيصا له بالذكر لكونه مطلوبا بالمعنى العام والمعنى الخاص وتارة تكون دلالة الاسم تتنوع بحال الانفراد والاقتران فاذا افرد عم واذا قرن بغيره خص كاسم الفقير و المسكين لما افرد احدهما في مثل قوله { لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ } البقرة273 وقوله { إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ } المائدة89 دخل فيه الاخر ولما قرن بينهما في قوله { إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ } التوبة60 صارا نوعين وقد قيل ان الخاص المعطوف على العام لا يدخل في العام حال اقتران بل يكون من هذا الباب والتحقيق ان هذا ليس لازما قال تعالى { مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ } البقرة98 وقال تعالى { وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَنُوحَ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ } الأحزاب7 وذكر الخاص مع العام يكون لأسباب متنوعة تارة لكونه له خاصية ليست لسائر أفراد العام كما في نوح و ابراهيم وموسى وعيسى وتارة لكون العام فيه اطلاق قد لا يفهم منه العموم كما في قوله { هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ } {2} الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفقُونَ } {3} وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ } {4} البقرة 2-4 فقول { يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ } {3} البقرة3 يتناول الغيب الذي يجب الايمان به لكن فيه اجمال فليس فيه دلالة على ان من الغيب ما انزل اليك وما انزل من قبلك وقد يكون المقصود انهم يؤمنون بالمخبر به وهو الغيب وبالاخبار بالغيب وهو ما انزل إليك وما انزل من قبلك ومن هذا الباب قوله تعالى { ائْتِلْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ } العنكبوت45 وقوله { وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ } الأعراف170 و تلاوة الكتاب هي اتباعه كما قال ابن مسعود في قوله تعالى { الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ } البقرة121 قال يحللون حلاله ويحرمون حرامه ويؤمنون بمتشابهة ويعملون بمحكمه فاتباع الكتاب يتناول الصلاة وغيرها لكن خصها بالذكر لمزيتها وكذلك قوله لموسى { إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَأَعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي } طه14 واقامة الصلاة لذكره من اجل عبادته وكذلك قوله تعالى { اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ } المائدة35 وقوله { اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ } التوبة119 فان هذه الامور هي ايضا من تمام تقوى الله وكذلك قوله { فَأَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ } هود123 فان التوكل والاستعانة هي من عبادة الله لكن خصت بالذكر ليقصدها المتعبد بخصوصها فانها هي

العون على سائر انواع العبادة اذ هو سبحانه لا يعبد الا بمعونته اذا تبين هذا فكمال المخلوق في تحقيق عبوديته لله وكلما ازداد العبد تحقيقاً للعبودية ازداد كماله وعلت درجته ومن توهم ان المخلوق يخرج من العبودية بوجه من الوجوه او ان الخروج عنها اكمل فهو من اجهل الخلق واضلهم قال تعالى { وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ {26} لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ {27}

الانبياء 26-27 الى قوله { وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ {28} الانبياء 28⁴⁷⁷

من أحوال القلب وأعماله ما يكون من لوازم الايمان الثابتة فيه

ان الايمان والتوحيد لا بد فيهما من عمل القلب كحب القلب فلا بد من اخلاص الدين لله والدين لا يكون ديناً الا بعمل فان الدين يتضمن الطاعة والعبادة وقد انزل الله عز وجل سورتي الاخلاص قل يا ايها الكافرون وقل هو الله احد احداهما في توحيد القول والعلم و الثانية في توحيد العمل

والارادة فقال في الأول { قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ {1} اللَّهُ الصَّمَدُ {2} لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ {3} وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ {4} الاخلاص 1-4 فأمره ان يقول هذا التوحيد وقال في الثاني { قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ {1} لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ {2} وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ {3} وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ {4} وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ {5} لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ {6} الكافرون 1-6 فأمره ان يقول ما يوجب البراءة من عباده غير الله واخلاص العبادة لله و العبادة اصلها القصد والارادة والعبادة اذا افردت دخل فيها التوكل ونحوه واذا قرنت بالتوكل صار التوكل قسيماً لها كما ذكرناه في لفظ الايمان قال تعالى { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ { الذاريات 56 وقال تعالى { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ { البقرة 21 فهذا ونحوه يدخل فيه فعل المأمورات وترك المحظورات والتوكل من ذلك وقد قال في موضع آخر { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ { الفاتحة 5 وقال { فَاَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ { هود 123 ومثل هذا كثير ما يجيء في القرآن تنتوع دلالة اللفظ في عمومه وخصوصه بحسب الافراد والاقتران⁴⁷⁸

وقد أمر الله بالتوكل في غير آية أعظم مما أمر بالوضوء والغسل من الجنابة ونهى عن التوكل على غير الله قال تعالى { فَاَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ { هود 123

⁴⁷⁷الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 375-378 و مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 173-181

⁴⁷⁸مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 274 و الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 361

وأما قوله { الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } {2} الانفال 2 فيقال من أحوال القلب وأعماله ما يكون من لوازم الايمان الثابتة فيه بحيث اذا كان الانسان مؤمنا لزم ذلك بغير قصد منه ولا تعمد له⁴⁷⁹

قطب رحي الدين

فتوحيد الله وإخلاص الوجه والعمل له عبادة وإستعانة هي قطب رحي الدين وذلك أن العبد بل كل حي بل وكل مخلوق سوى الله هو فقير محتاج الى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره والمنفعة للحي هي من جنس النعيم واللذة والمضرة هي من جنس الألم والعذاب فلا بد له من أمرين أحدهما هو المطلوب المقصود المحبوب الذي ينتفع ويلتذ به والثاني هو المعين الموصل المحصل لذلك المقصود والمانع من دفع المكروه وهذان هما الشيطان المنفصلان الفاعل والغاية فهنا أربعة أشياء أحدها أمر هو محبوب مطلوب الوجود والثاني أمر مكروه مبيغض مطلوب العدم والثالث الوسيلة الى حصول المطلوب المحبوب والرابع الوسيلة الى دفع المكروه فهذه الأربعة الأمور ضرورية للعبد بل ولكل حي لا يقوم وجوده وصلاحه إلا بها وأما ما ليس بحي فالكلام فيه على وجه آخر إذا تبين ذلك فبيان ما ذكرته من وجوه أحدها أن الله تعالى هو الذي يحب أن يكون هو المقصود المدعو المطلوب وهو المعين على المطلوب وما سواه هو المكروه وهو المعين على دفع المكروه فهو سبحانه الجامع للأمر الأربعة دون ما سواه وهذا معنى قوله {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} الفاتحة 5 فإن العبودية تتضمن المقصود المطلوب لكن على أكمل الوجوه والمستعان هو الذي يستعان به على المطلوب فالأول من معنى الألوهية والثاني من معنى الربوبية إذ الاله هو الذي يؤله فيعبد محبة وإنابة وإجلالا وإكراما والرب هو الذي يربي عبده فيعطيه خلقه ثم يهديه الى جميع أحواله من العبادة وغيرها وكذلك قوله تعالى {عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أَنِيبُ} هود 88 وقوله {فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ} هود 123 وقوله {عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنْتَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} الممتحنة 4 وقوله تعالى {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ} الفرقان 58 وقوله تعالى {عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابُ} الرعد 30 وقوله {وَأذْكَرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً} {8} رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا {9} {المزمل 8-9} فهذه سبعة مواضع تنتظم هذين الأصلين الجامعين⁴⁸⁰

⁴⁷⁹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 16

⁴⁸⁰مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 20

لفظ العبادة يتضمن كمال الذل بكمال الحب

و الدعاء قصد المدعو و التوجه إليه إما على وجه المسألة و إما على وجه العبادة المحضة لأن دعاء الشيء هو طلبه و إرادته سواء طلب لذاته أو للأمر منه و من ذلك قوله تعالى { وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ } غافر 60 فإنه فسر بالمسألة و بالعبادة و قوله تعالى { وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ } القصص 88 فإن الدعاء في هذه المواضع يراد به نفس اتخاذ المدعو ربا و إليها بحيث يسأل و يعبد و قد فصل معنى الدعاء بقوله { إِيَّاكَ تَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } الفاتحة 5 و قوله تعالى { فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ } هود 123 و في قوله { عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ } هود 88 و نحو ذلك من الآي فهو يعبد من حيث هو اله و يسأل من حيث هو رب و إن كان كل عابد سائلا و طالبا و كل سائل عابدا و قاصدا من جهة الإلتزام فسميت العبادات لله المحضة مثل الصلاة و الذكر و السؤال و الركوع و السجود و الطواف صلاة أو هي دعاء لله و عبادة لله بلا توسط شيء آخر و لهذا قال ابن مسعود ما دمت تذكر الله فأنت في صلاة و إن كنت في السوق⁴⁸¹

و محبة الله و توحيده هو الغاية التي فيها صلاح للنفس و هو عبادة الله وحده لا شريك له فلا صلاح للنفس و لا كمال لها إلا في ذلك و بدون ذلك تكون فاسدة لا صلاح لها ولهذا كان هذا هو دين الإسلام الذي اتفقت عليه الرسل قال الله تعالى { وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ } آل عمران 85 و قد قال تعالى { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } الذاريات 56 فالغاية الحميدة التي بها يحصل كمال بني آدم و سعادتهم و نجاتهم عبادة الله وحده و هي حقيقة قول القائل لا إله إلا الله ولهذا بعث الله جميع الرسل و أنزل جميع الكتب و لا تصلح النفس و تزكو و تكمل إلا بهذا و لفظ العبادة يتضمن كمال الذل بكمال الحب فلا بد أن يكون العابد محبا للإله المعبود كمال الحب و لا بد أن يكون ذليلا له كمال الذل فمن أحب شيئا ولم يذل له لم يعبه و من خضع له ولم يحبه لم يعبه و كمال الحب و الذل لا يصلح إلا لله وحده فهو الإله المستحق للعبادة التي لا يستحقها إلا هو و ذلك يتضمن كمال الحب و الذل و الإجلال و الإكرام و التوكل و العبادة فالنفوس محتاجة إلى الله من حيث هو معبودها و منتهى مرادها و بغيتها و من حيث هو ربها و خالقها فمن آمن بالله رب كل شيء و خالقه ولم يعبد إلا الله وحده بحيث يكون الله أحب إليه من كل ما سواه و أخشى عنده من كل ما سواه و أعظم عنده من كل ما سواه و أرجى عنده من كل ما سواه بل من سوى بين الله و بين بعض المخلوقات في الحب بحيث يحبه مثل ما يحب الله و يخشاه مثل ما يخشى الله و يرجوه مثل ما يرجو الله و يدعوه مثل ما يدعوه فهو مشرك الشرك الذي لا يغفره الله ولو كان مع ذلك عفيفا في طعامه و نكاحه و كان حكيما شجاعا⁴⁸²

⁴⁸¹ شرح العمدة ج: 4 ص: 29

⁴⁸² الجواب الصحيح ج: 6 ص: 32

الاعراض عن التوكل خروج عن حقيقة الايمان

واما المحبة لله والتوكل عليه والاخلاص له ونحو ذلك فهذه كلها خير محض وهي حسنة محبوبة في حق كل احد من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين ومن قال ان هذه المقامات تكون للعامة دون الخاصة فقد غلط في ذلك ان اراد خروج الخاصة عنها فان هذه لا يخرج عنها مؤمن قط وانما يخرج عنها كافر او منافق وقد تكلم بعضهم في ذلك بكلام بينا غلظه فيه وانه تقصير في تحقيق هذه المقامات بكلام مبسوط وليس هذا موضعه ولكن هذه المقامات ينقسم الناس فيها الى خصوص وعموم فللخاصة خاصها وللعامة عامها مثال ذلك ان هؤلاء قالوا ان التوكل مناضلة عن النفس في طلب القوت والخاص لا يناضل عن نفسه وقالوا المتوكل يطلب بتوكله امرا من الامور والعارف يشهد الامور بفروعها منها فلا يطلب شيئا فيقال اما الاول فان التوكل اعم من التوكل في مصالح الدنيا فان المتوكل يتوكل على الله في صلاح قلبه ودينه وحفظ لسانه وارادته وهذا اهم الامور اليه ولهذا يناجي ربه في كل صلاة بقوله {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} الفاتحة 5 كما في قوله تعالى {فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ} هود 123 وقوله { عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ } هود 88 وقوله { قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ } الرعد 30 فهو قد جمع بين العبادة والتوكل في عدة مواضع لان هذين يجمعان الدين كله ولهذا قال من قال من السلف ان الله جمع الكتب المنزلة في القرآن وجمع علم القرآن في المفصل وجمع علم المفصل في فاتحة الكتاب وجمع علم فاتحة الكتاب في قوله {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} الفاتحة 5 وهاتان الكلمتان هما الجامعتان اللتان للرب والعبد كما في الحديث الذي في صحيح مسلم عن ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال يقول الله سبحانه قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين نصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدى ما سأل قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول العبد الحمد لله رب العالمين يقول الله حمدنى عبدي يقول العبد الرحمن الرحيم يقول الله اثنى علي عبدي يقول العبد مالك يوم الدين يقول الله مجدني عبدي يقول العبد اياك نعبد واياك نستعين يقول الله فهذه الآية بيني وبين عبدي نصفين ولعبدى ما سأل يقول العبد اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين يقول الله فهؤلاء لعبدي ولعبدى ما سأل فالرب سبحانه له نصف الثناء والخير والعبد له نصف الدعاء والطلب وهاتان جامعتان ما للرب سبحانه وما للعبد فايك نعبد واياك نستعين للعبد وفي الصحيحين عن معاذ رضي الله عنه قال كنت رديفا للنبي صلى الله عليه وسلم على حمار فقال يا معاذ اتدري ما حق الله على العباد قلت الله ورسوله ما حق العباد على الله اذا فعلوا ذلك قلت الله ورسوله اعلم قال حقهم عليه ان لا يعذبهم والعبادة هي الغاية التي خلق الله لها العباد من جهة امر الله ومحبهه ورضاه كما قال تعالى { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } الذاريات 56 وبها ارسل الرسل وانزل الكتب وهي اسم يجمع كمال الحب لله ونهايته وكمال الذل لله ونهايته فالحب الخلي عن ذل والذل الخلي عن حب لا يكون عبادة وانما العبادة ما يجمع كمال الامرين ولهذا كانت العبادة لا تصلح الا لله وهي وان كانت منفعتها للعبد والله غني عن العالمين فهي له من جهة محبهه لها ورضاه بها ولهذا كان الله اشد فرحا بتوبة العبد من الفاقد لراحته عليها طعامه وشرابه في ارض دوية مهلكة اذا نام ايسا منها ثم استيقظ فوجدها فالله اشد فرحا بتوبة عبده من هذا براحلته وهذا يتعلق به امور جليلة قد بسطانها وشرحناها في غير هذا الموضوع والتوكل والاستعانة للعبد لانه هو الوسيلة والطريق الذي ينال به مقصوده ومطلوبه من العبادة فالاستعانة كالدعاء والمسئلة وقد روى الطبراني في كتاب الدعاء عن النبي قال يقول الله عز وجل يا ابن آدم إنما هي أربع واحدة لي وواحدة لك وواحدة بيني وبينك وواحدة بينك وبين خلقي فاما التي لي فتعبدني لا تشرك بي شيئا واما التي هي لك فعملك اجازيك به احوج ما تكون اليه واما التي بيني وبينك فمفك الدعاء وعلى الاجابة واما التي بينك وبين خلقي فأت للناس ما تحب ان يأتوا اليك وكون هذا

لله وهذا للعبد هو باعتبار تعلق المحبة والرضا ابتداء فان العبد ابتداء يحب ويريد ما يراه ملائما
 له والله تعالى يحب ويرضى ما هو الغاية المقصودة في رضاه ويحب الوسيلة تبعا لذلك والا فكل
 مأمور به فمنفعته عائدة على العبد وكل ذلك يحبه الله ويرضاه وعلى هذا فالذي ظن ان التوكل
 من المقامات العامة ظن ان التوكل لا يطلب به الا حظوظ الدنيا وهو غلط بل التوكل في الامور
 الدينية اعظم وايضا التوكل من الامور الدينية التي لا تتم الواجبات والمستحبات الا بها والزاهد
 فيها زاهد فيما يحبه الله ويأمر به ويرضاه و الزهد المشروع هو ترك الرغبة فيما لا
 ينفع في الدار الآخرة وهو فضول المباح التي لا يستعان بها على طاعة الله كما ان الورع
 المشروع هو ترك ما قد يضر في الدار الآخرة وهو ترك المحرمات والشبهات التي لا تستلزم
 تركها ترك ما فعله ارجح منها كالواجبات فاما ما ينفع في الدار الآخرة بنفسه او يعين على ما
 ينفع في الدار الآخرة فالزهد فيه ليس من الدين بل صاحبه داخل في قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
 آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ } المائدة: 87 كما ان
 الاشتغال بفضول المباحات هو ضد الزهد المشروع فان اشتغل بها عن فعل واجب او فعل محرم
 كان عاصيا والا كان منقوصا عن درجة المقربين الى درجة المقتصدين و ايضا فان
 التوكل هو محبوب لله مرضي له مأمور به دائما وما كان محبوبا لله مرضيا له مأمورا به دائما لا
 يكون من فعل المقتصدين دون المقربين فهذه ثلاثة اجوبة عن قولهم المتوكل يطلب حظوظه
 واما قولهم ان الامور قد فرغ منها فهذا نظير ما قاله بعضهم في الدعاء انه لا حاجة اليه لان
 المطلوب ان كان مقدر فلا حاجة اليه وان لم يكن مقدر لم ينفع الدعاء وهذا القول من افسد
 الاقوال شرعا وعقلا وكذلك قول من قال التوكل والدعاء لا يجلب به منفعة ولا يدفع به
 مضرة وانما هو عبادة محضة وان حقيقة التوكل بمنزلة حقيقة التقويض المحض وهذا وان كان
 قاله طائفة من المشائخ فهو غلط ايضا وكذلك قول من قال ان الدعاء انما هو عبادة محضة
 فهذه الاقوال وما اشبهها يجمعها اصل واحد وهو ان هؤلاء ظنوا ان كون الامور مقدره مقضية
 يمنع ان تتوقف على اسباب مقدره ايضا تكون من العبد ولم يعلموا ان الله سبحانه يقدر الامور
 ويقضيها بالاسباب التي جعلها معلقة بها من افعال العباد وغير افعالهم ولهذا كان طرد قولهم
 يوجب تعطيل الاعمال بالكلية وقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم وآله وسلم عن هذا الاصل
 مرات فأجاب عنه كما اخرجنا في الصحيحين عن عمران بن حصين قال قيل لرسول الله وآله
 وسلم يا رسول الله أعلم اهل الجنة من اهل النار قال نعم قالوا فقيم العمل قال كل ميسر لما خلق له
 وفي الصحيحين عن علي بن ابي طالب قال كنا في جنازة فيها رسول الله فجلس ومعه مخرصة
 فجعل ينكت بالمخرصة في الارض ثم رفع رأسه وقال ما من نفس منقوسة الا وقد كتب مكانها
 من النار او الجنة الا وقد كتبت شقية او سعيدة قال فقال رجل من القوم يا نبي الله افلا يمكث على
 كتابنا وندع العمل فمن كان من اهل السعادة ليكون الى السعادة ومن كان من اهل الشقاوة ليكون
 الى الشقاوة قال اعملوا فكل ميسر لما خلق له اما اهل السعادة فييسرون للسعادة واما اهل الشقاوة
 فييسرون للشقاوة ثم قال نبي الله { فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى } {5} { وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى } {6} { فَسَنُيَسِّرُهُ
 لِلْيُسْرَى } {7} { وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى } {8} { وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى } {9} { فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى } {10} الليل 5-6
 اخرجه الجماعة في الصحاح والسنن والمسانيد وروى الترمذي ان النبي صلى الله عليه
 وآله وسلم سئل فقيل يا رسول الله ارأيت ادوية تنداوى بها ورقى نسترقه بها وتقى نتقيها هل ترد
 من قدر الله شيئا فقال هي من قدر الله وقد جاء هذا المعنى عن النبي صلى الله عليه وآله
 وسلم في عدة احاديث فبين صلى الله عليه وسلم وآله وسلم ان تقدم العلم والكتاب بالسعيد
 والشقي لا ينافي ان تكون سعادة هذا بالاعمال الصالحة وشقاوة هذا بالاعمال السيئة فانه سبحانه
 يعلم الامور على ما هي عليه وكذلك يكتبها فهو يعلم ان السعيد يسعد بالاعمال الصالحة والشقي
 يشقى بالاعمال السيئة فمن كان سعيدا يبسر للاعمال الصالحة التي تقتضي السعادة ومن كان شقيا
 يبسر للاعمال السيئة التي تقتضي الشقاوة وكلاهما ميسر لما خلق له وهو ما يصير اليه من مشيئة
 الله العامة الكونية التي ذكرها الله سبحانه في كتابه في قوله تعالى { وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ
 } {118} { إِلَّا مَنْ رَجَعَ رَبُّكَ وَلَدَيْكَ حَافِقُهُمْ } {119} هود: 118- 119 واما ما خلقوا له من محبة

الله ورضاه وهو إرادته الدينية التي امروا بموجبها فذلك مذكور في قوله { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } الذاريات 56 والله سبحانه قد بين في كتابه في كل واحدة من الكلمات و الأمر و الإرادة و الاذن و الكتاب و الحكم و القضاء و التحريم ونحو ذلك ما هو ديني موافق لمحبة الله ورضاه وامره الشرعي وما هو كوني موافق لمشيئته الكونية مثال ذلك انه قال في الامر الديني { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ } النحل 90 وقال تعالى { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا } النساء 58 ونحو ذلك وقال في الكوني { إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } يس 82 وكذلك قوله { وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُنْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا } الإسراء 16 على احدى الاقوال في هذه الآية وقال في الإرادة الدينية { يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ } البقرة 185 { يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبينَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } النساء 26 { مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ } المائدة 6 وقال في الإرادة الكونية { وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَنَلُوا وَلَكِنْ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا يُرِيدُ } البقرة 253 وقال { فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ } الأنعام 125 وقال نوح عليه السلام { وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ } هود 34 وقال تعالى { إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } يس 82 وقال تعالى في الاذن الديني { مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِيْنَةٍ أَوْ نَرَكْتُمْوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُسُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ } الحشر 5 وقال تعالى في الكوني { وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ } البقرة 102 وقال تعالى في القضاء الديني { وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ } الإسراء 23 اي امر وقال تعالى في الكوني { فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ } فصلت 12 وقال تعالى في الحكم الديني { أَجَلْتُ لَكُمْ بَيْمَتَهُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُبْتَلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحْلِي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ } المائدة 1 وقال تعالى { ذَلِكَ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ } الممتحنة 10 وقال تعالى في الكوني عن ابن يعقوب { فَلَنْ أُبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْتِيَ لِي آيَةُ أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ } يوسف 80 وقال تعالى { قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ } الأنبياء 112 وقال تعالى في التحريم الديني { حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالِدَمُّ وَالْحَمُّ الْخَنِزِيرِ } المائدة 3 وقال تعالى في التحريم الكوني { فَإِنَّهَا مُحْرَمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ } المائدة 26 وقال تعالى { وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ } 24 { لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ } 25 { المعارج 24-25 وقال تعالى في الكلمات الدينية { وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ } البقرة 124 وقال تعالى في الكونية { وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا } الأعراف 137 ومنه قوله المستفيض عنه من وجوه في الصحاح والسنن والمسانيد انه كان يقول في استعاذته اعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن برولا فاجر ومن المعلوم ان هذا هو الكوني الذي لا يخرج منه شيء عن مشيئته وتكوينه واما الكلمات الدينية فقد خالفها الفجار بمعصيته والمقصود هنا انه بين ان العواقب التي خلق لها الناس من سعادة وشقاوة يبسرون لها بالاعمال التي يصيرون بها الى ذلك كما ان سائر المخلوقات كذلك فهو سبحانه يخلق الولد وسائر الحيوان في الارحام بما يقدره من اجتماع الابوين على النكاح واجتماع المائين في الرحم فلو قال الانسان انا اتوكل ولا أطأ زوجتي فان كان قد قضي لي بولد وجد والا لم يوجد ولا حاجة الى وطء كان احمق بخلاف ما اذا وطئ وعزل الماء فان عزل الماء لا يمنع انعقاد الولد اذا شاء الله اذ قد يسبق الماء بغير اختياره ومن هذا ما ثبت في الصحيحين عن ابي سعيد الخدري قال خرجنا مع رسول الله في غزوة بني المصطلق فاصبنا سببا من العرب فاشتبهنا النساء واشتدت علينا العزبة واحببنا العزل فسالنا عن ذلك رسول الله فقال ما عليكم الا تفعلوا فان الله قد كتب ما هو خالق الى يوم القيامة وفي صحيح مسلم عن جابر ان رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال ان لي جارية هي خادمتنا وسانيتنا في النخل وانا اطوف عليها واكره ان تحمل فقال اعزل عنها ان شئت فانه سيأتيها ما

قدر لها وهذا مع ان الله سبحانه قادر على ما قد فعله من خلق الانسان من غير ابوين كما خلق آدم ومن خلقه من اب فقط كما خلق حواء من ضلع آدم القصير ومن خلقه من ام فقط كما خلق المسيح بن مريم عليه السلام لكن خلق ذلك بأسباب اخرى غير معتادة وهذا الموضوع وان كان انما يجده الزنادقة المعطلون للشرائع فقد وقع في كثير من دقه كثير من المشائخ المعظمين يسترسل احدهم مع القدر غير محقق لما امر به ونهى عنه ويجعل ذلك من باب التفويض والتوكل والجري مع الحقيقة القدرية ويحسب ان قول القائل ينغي للعبد ان يكون مع الله كالميت بين يدي الغاسل يتضمن ترك العمل بالامر والنهي حتى يترك ما امر به ويفعل ما نهى عنه وحتى يضعف عنده النور والفرقان الذي يفرق به بين ما امر الله به واحبه ورضيه وبين ما نهى عنه وابعضه وسخطه فيسوى بين ما فرق الله بينه كما قال تعالى {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ} الجاثية 21 وقال تعالى {أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ} {35} مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ} {36} القلم 35-36 وقال تعالى {أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ} {ص 28} وقال تعالى {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ} {الزمر 9} وقال تعالى {وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ} {19} وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ} {20} وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحُرُورُ} {21} وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ} {22} فاطر 19-22 و امثال ذلك حتى يفضي الامر بغلاتهم الى عدم التمييز بين الامر بالمأمور النبوي الالهي الفرقاني الشرعي الذي دل عليه الكتاب والسنة وبين ما يكون في الوجود من الاحوال التي تجري على ايدي الكفار والفجار فيشهدون وجه الجمع من جهة كون الجميع بقضاء الله وقدره وربوبيته و ارادته العامة وأنه داخل في ملكه ولا يشهدون وجه الفرق الذي فرق الله به بين اوليائه واعدائه والابرار والفجار والمؤمنين والكافرين واهل الطاعة الذين اطاعوا امره الديني واهل المعصية الذين عصوا هذا الامر ويستشهدون في ذلك بكلمات نقلت عن بعض الاشياخ او ببعض غلطات بعضهم وهذا اصل عظيم من اعظم ما يجب الاعتناء به على اهل طريق الله السالكين سبيل الارادة الذين يريدون وجهه فانه قد دخل بسبب اهمال ذلك على طوائف منهم من الكفر والفسوق والعصيان ما لا يعلمه الا الله حتى يصيروا معاونين على البغي والعدوان للمسلطين في الارض من اهل الظلم والعلو كالذين يتوجهون بقلوبهم في معاوننة من يهوونه من اهل العلو في الارض والفساد ظانين انهم اذا كانت لهم احوال اثروا بها في ذلك كانوا بذلك من اولياء الله فان القلوب لها من التأثير اعظم مما للابدان لكن ان كانت صالحة كان تأثيرها صالحا وان كانت فاسدة كان تأثيرها فاسدا فالاحوال يكون تأثيرها محبوبا لله تارة ومكروها لله اخرى وقد تكلم الفقهاء على وجوب القود على من يقتل غيره في الباطن حيث يجب القود في ذلك ويستشهدون ببواطنهم وقلوبهم الامر الكوني ويعدون مجرد خرق العادة لاحدهم بكشف يكشف له او تأثير يوافق ارادته هو كرامة من الله له ولا يعلمون انه في الحقيقة اهانة وان الكرامة لزوم الاستقامة وان الله لم يكرم عبده بكرامة اعظم من موافقته فيما يحبه ويرضاه وهو طاعته وطاعة رسوله وموالاة اوليائه ومعاداة اعدائه وهؤلاء هم اولياء الله الذين قال الله فيهم {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} {يونس 62} فإن كانوا موافقين له فيما اوجبه عليهم فهم من المقتصددين وان كانوا موافقين فيما اوجبه واحبه فهم من المقربين مع ان كل واجب محبوب وليس كل محبوب واجبا واما ما يتلى الله به عبده من السراء بخرق العادة او بغيرها او بالضراء فليس ذلك لاجل كرامة العبد على ربه ولا هوانه عليه بل قد يسعد بها قوم اذا اطاعوه في ذلك وقد يشقى بها قوم اذا عصوه في ذلك قال الله تعالى {فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ} {15} وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ} {16} الفجر 15-16 ولهذا كان الناس في هذه الامور على ثلاثة اقسام قسم ترتفع درجاتهم بخرق العادة اذا استعملوها في طاعة الله وقوم يتعرضون بها لعذاب الله اذا استعملوها في معصية الله كبلعام وغيره وقوم تكون في حقهم بمنزلة المباحات والقسم الاول هم المؤمنون حقا المتبعون لنبيهم سيد ولد آدم الذي انما كانت خوارقه لحجة يقيم بها دين

الله او لحاجة يستعين بها على طاعة الله ولكثرة الغلط فى هذا الاصل نهى رسول الله عن الاسترسال مع القدر بدون الحرص على فعل المأمور الذي ينفع العبد فروى مسلم فى صحيحه عن ابي هريرة قال قال رسول الله المؤمن القوي خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف وفى كل خير احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن وان اصابك شيء فلا تقل لو انى فعلت كان كذا وكذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل فان لو تفتح عمل الشيطان وفى سنن ابي داود ان رجلين اختصما الى النبي صلى الله عليه وسلم فقضى على احدهما فقال المقضى عليه حسبى الله ونعم الوكيل فقال رسول الله ان الله يلوم على العجز ولكن عليك بالكيس فاذا غلبك امر فقل حسبى الله ونعم الوكيل فأمر النبي لقوله تعالى {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} الفاتحة 5 وقوله تعالى { فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ } هود 123 فان الحرص على ما ينفع العبد هو طاعة الله وعبادته اذ النافع له هو طاعة الله ولا شيء انفع له من ذلك وكل ما يستعان به على الطاعة فهو طاعة وان كان من جنس المباح قال النبي فى الحديث الصحيح لسعد انك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله الا ازددت بها درجة ورفعته حتى اللقمة تضعها فى في امرأتك فأخبر النبي ان الله يلوم على العجز الذي هو ضد الكيس وهو التفريط فيما يؤمر بفعله فان ذلك ينافى القدرة المقارنة للفعل وان كان لا ينافى القدرة المتقدمة التى هى مناط الامر والنهي فإن الاستطاعة التى توجب الفعل تكون مقارنة له ولا تصلح الا لمقدورها كما ذكرها الله تعالى فى قوله { مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ } هود 20 وفى قوله { وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا } الكهف 101 واما الاستطاعة التى يتعلق بها الامر والنهي فتلك قد يقتصرن بها الفعل وقد لا يقتصرن كما فى قوله تعالى { وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا } آل عمران 97 وقول النبي لعمران ابن حصين صل قائما فان لم تستطع فقاعدا فان لم تستطع فعلى جنب فهذا الموضع قد انقسم الناس فيه الى اربعة اقسام قوم ينظرون الى جانب الامر والنهي والعبادة والطاعة شاهدين لالهية الرب سبحانه الذي امروا ان يعبدوه ولا ينظرون الى جانب القضاء والقدر والتوكل والاستعانة وهو حال كثير من المتفهمة والمتعبدة فهم مع حسن قصدهم وتعظيمهم لحرمان الله ولشعائره يغلب عليهم الضعف والعجز والخذلان لان الاستعانة بالله والتوكل عليه واللجأ اليه والدعاء له هي التى تقوى العبد وتيسر عليه الامور ولهذا قال بعض السلف من سره ان يكون اقوى الناس فليتوكل على الله وفى الصحيحين عن عبد الله بن عمرو ان رسول الله صفته فى التوراة انا ارسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وحرزا للاميين انت عبدى ورسولى سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب بالاسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يجزي بالسيئة الحسنة ويعفو ويغفر ولن اقبضه حتى اقيم به الملة العوجاء فأفتح به اعينا عميا وأدانا صما وقلوبا غلفا بان يقولوا لا اله الا الله ولهذا روى ان حملة العرش انما اطاقوا حمل العرش بقولهم لا حول ولا قوة الا بالله وقد ثبت فى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم انها كنز من كنوز الجنة قال تعالى { وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ } الطلاق 3 وقال تعالى { الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ } آل عمران 173 الى قوله { فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } آل عمران 175 وفى صحيح البخارى عن ابن عباس رضى الله عنه فى قوله { وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ } آل عمران 173 قالها ابراهيم الخليل حين القى فى النار وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم و قسم ثان يشهدون ربوبية الحق واقتنارهم اليه ويستعينون به لكن على اهوائهم واذواقهم غير ناظرين الى حقيقة امره ونهيه ورضاه وغضبه ومحبته وهذا حال كثير من المتفكرة والمتصوفة ولهذا كثيرا ما يعملون على الاحوال التى يتصرفون بها فى الوجود ولا يقصدون ما يرضى الرب ويحبه وكثيرا ما يغلطون فيظنون ان هذه معصيته هي مرضاته فيعودون الى تعطيل الامر والنهي ويسمون هذا حقيقة ويظنون ان هذه الحقيقة القدرية يجب الاسترسال معها دون مراعاة الحقيقة الامرية الدينية التى هي تحوى مرضاة الرب ومحبته وامره ونهيه ظاهرا وباطنا وهؤلاء كثيرا ما يسلبون احوالهم وقد يعودون الى نوع من المعاصي والفسوق بل كثير منهم يرتد عن الاسلام لان العاقبة للتقوى ومن لم يقف عند

امر الله ونهيه فليس من المتقين فهم يقعون في بعض ما وقع المشركون فيه تارة بدعة يظنونها شرعة وتارة في الاحتجاج بالقدر على الامر والله تعالى لما ذكر ما ذم به المشركين في سورة الانعام والاعراف ذكر ما ابتدعه من الدين وجعلوه شرعه كما قال تعالى {وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ اتَّقُوا اللَّهَ مَا لَا تَعْلَمُونَ} الأعراف 28 وقد ذمهم على ان حرموا ما لم يحرمه الله وان شرعوا ما لم يشرع الله وذكر احتجاجهم بالقدر في قوله تعالى {سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ} الأنعام 148 ونظيرها في النحل ويس والزخرف وهؤلاء يكون فيهم شبهة من هذا وهذا واما القسم الثالث وهو من اعرض عن عبادة الله واستعانته به فهؤلاء شر الاقسام و القسم الرابع هو القسم المحمود وهو حال الذين حققوا {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} الفاتحة 5 وقوله { فَأَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ } هود 123 فاستعانوا به على طاعته وشهدوا انه الههم الذي لا يجوز ان يعبد الا اياه بطاعته وطاعة رسوله وانه ربهم الذي ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع وانه {مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ} فاطر 2 {وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ} يونس 107 {قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِيَ بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ} الزمر 38 ولهذا قال طائفة من العلماء الالتفات الى الاسباب شرك في التوحيد ومحو الاسباب ان تكون اسبابا نقص في العقل والاعراض عن الاسباب بالكلية قدح في الشرع وانما التوكل المأمور به ما اجتمع فيه مقتضى التوحيد والعقل والشرع فقد تبين ان من ظن التوكل من مقامات عامة اهل الطريق فقد غلط غلطا شديدا وان كان من اعيان المشائخ كصاحب علل المقامات وهو من اجل المشائخ واخذ ذلك عنه صاحب محاسن المجالس وظهر ضعف حجة من قال ذلك لظنه ان المطلوب به حظ العامة فقط وظنه انه لا فائدة له في تحصيل المقصود وهذه حال من جعل الدعاء كذلك وذلك بمنزلة من جعل الاعمال المأمور بها كذلك كمن اشتغل بالتوكل عن ما يجب عليه من الاسباب التي هي عبادة وطاعة مأمور بها فان غلط هذا في ترك الاسباب المأمور بها التي هي داخلية في قوله تعالى { فَأَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ } هود 123 كغلط الاول في ترك التوكل المأمور به الذي هو داخل في قوله تعالى { فَأَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ } هود 123 لكن يقال من كان توكله على الله ودعاؤه له هو في حصول مباحات فهو من العامة وان كان في حصول مستحبات وواجبات فهو من الخاصة كما ان من دعاه وتوكل عليه في حصول محرمات فهو ظالم لنفسه ومن اعرض عن التوكل فهو عاص لله ورسوله بل خارج عن حقيقة الايمان فكيف يكون هذا المقام للخاصة قال الله تعالى { وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ } يونس 84 وقال تعالى { إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ } آل عمران 160 وقال تعالى { وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ } المائدة 11 وقال تعالى { قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ } الزمر 38 الى قوله { قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ } الزمر 38 وقد ذكر الله هذه الكلمة { حَسْبِيَ اللَّهُ } الزمر 38 في جلب المنفعة تارة وفي دفع المضرة اخرى فالأولى في قوله تعالى { وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ } التوبة 59 الآية و الثانية في قوله { الَّذِينَ قَالُوا لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ } آل عمران 173 وفي قوله تعالى { وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدِكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ } الأنفال 62 وقوله { وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ } التوبة 59 يتضمن الامر بالرضا والتوكل والرضا والتوكل يكتنفان المقدور فالتوكل قبل وقوعه والرضا بعد وقوعه ولهذا كان النبي يقول في الصلاة اللهم بعلمك الغيب وبقدرتك على الخلق احيني ما كانت الحياة خيرا لي وتوفني اذا كانت الوفاة خيرا لي اللهم انى اسألك خشيتك في الغيب والشهادة واسألك كلمة الحق في الغضب والرضا

واسألك القصد في الفقر والغنى واسألك نعيماً لا ينفد واسألك قررة عين لا تنقطع اللهم انى اسألك قررة عين لا تنقطع اللهم انى اسألك الرضا بعد القضاء واسألك برد العيش بعد الموت واسألك لذة النظر الى وجهك واسألك الشوق الى لقاءك من غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة اللهم زينا بزينة الايمان واجعلنا هداة مهتدين رواه احمد والنسائي من حيث عمار بن ياسر واما ما يكون قبل القضاء فهو عزم على الرضا لا حقيقة الرضا ولهذا كان طائفة من المشائخ يعزمون على الرضا قبل وقوع البلاء فاذا وقع انفسخت عزائمهم كما يقع نحو ذلك في الصبر وغيره كما قال تعالى {وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ} آل عمران 143 وقال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ} {2} كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ} {3} إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ} {4} الصف 2-4 نزلت هذه الآية لما قالوا لو علمنا أى الاعمال احب الى الله لعملناه فانزل الله سبحانه وتعالى آية الجهاد فكرهه من كرهه ولهذا كره للمرء ان يتعرض للبلاء بأن يوجب على نفسه ما لا يوجبه الشارع عليه بالعهد والنذر ونحو ذلك او يطلب ولاية او يقدم على بلد فيه طاعون كما ثبت فى الصحيحين من غير وجه عن النبي انه نهى عن النذر وقال انه لا ياتى بخير وانما يستخرج به من البخل وثبت عن في الصحيحين انه قال لعبد الرحمن بن سمرة لا تسأل الامارة فانك ان اعطيتها عن مسألة وكلت اليها وان اعطيتها من غير مسألة اعنت عليها اذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فأت الذي هو خير وكفر عنيمينك وثبت عنه فى الصحيحين انه قال فى الطاعون اذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه واذا وقع بأرض وانتم بها فلا تخرجوا فرارا منه وثبت عنه فى الصحيحين انه قال لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية ولكن اذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا ان الجنة تحت ظلال السيوف وامثال ذلك مما يقتضى ان الإنسان لا ينبغي ان يسعى فيما يوجب عليه اشياء ويحرم عليه اشياء فيبخل بالوفاء كما يفعل كثير ممن يعاهد الله عهداً على امور وغالب هؤلاء يبتلون بنقض العهود ويقتضى ان الانسان إذا ابتلى فعليه ان يصبر ويثبت ولا ينكل حتى يكون من الرجال الموقنين القائمين بالواجبات ولا بد فى جميع ذلك من الصبر ولهذا كان الصبر واجبا باتفاق المسلمين على اداء الواجبات وترك المحظورات ويدخل فى ذلك الصبر على المصائب عن ان يجزع فيها والصبر عن اتباع اهواء النفوس فيما نهى الله عنه وقد ذكر الله الصبر فى كتابه فى اكثر من تسعين موضعاً وقرنه بالصلاة فى قوله تعالى {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ} البقرة 45 {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} البقرة 153⁴⁸³

" احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز "

قوله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم وكلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم يقتضى وجوب التوكل على الله فى الرزق المتضمن جلب المنفعة كالطعام ودفع المضرة كاللباس وأنه لا يقضى غير الله على الإطعام والكسوة قدرة مطلقة وإنما القدرة التي تحصل لبعض العباد تكون على بعض أسباب ذلك ولهذا قال { وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا

⁴⁸³مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 18-39 و دقائق التفسير ج: 1 ص: 212 وأمراض القلوب

ج: 1 ص: 43-44 و التحفة العراقية ج: 1 ص: 43

{البقرة 233 وقال {وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ {النساء 5 فالمأمور به هو المقذور للعباد وكذلك قوله { أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ {14} بَيْتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ {15} أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ {16} {البلد 14- 15} وقوله { وَأَطْعُمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ {الحج 36} وقوله {فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعُمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ {الحج 28} وقال {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أطعمه إن أنتم إلا في ضلالٍ مُبينٍ {يس 47} فدم من يترك المأمور به اكتفاء بما يجري به القدر ومن هنا يعرف أن السبب المأمور به أو المباح لا ينافي وجوب التوكل على الله في وجود السبب بل الحاجة والفقر إلى الله ثابتة مع فعل السبب إذ ليس في المخلوقات ما هو وحده سبب تام لحصول المطلوب ولهذا لا يجب أن تقترن الحوادث بما قد يجعل سببا إلا بمشيئة الله تعالى فإنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن فمن ظن الاستغناء بالسبب من التوكل فقد ترك ما أوجب الله عليه من التوكل وأخل بواجب التوحيد ولهذا يخذل أمثال هؤلاء إذا اعتمدوا على الأسباب فمن رجا نصرا أو رزقا من غير الله خذله الله كما قال علي رضي الله عنه لا يرجون عبد إلا ربه ولا يخافن إلا ذنبه وقد قال تعالى { مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ {فاطر 2} وقال تعالى { وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بَضْرًا فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ {يونس 107} وقال { قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ {الزمر 38} وهذا كما أن من أخذ يدخل في التوكل تاركا لما أمر به من الأسباب فهو أيضا جاهل ظالم عاص لله يترك ما أمره فإن فعل المأمور به عبادة الله وقد قال تعالى { فَأَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ {هود 123} وقال {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ {الفتح 5} وقال { قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابُ {الرعد 30} وقال شعيب عليه السلام { عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ {هود 88} وقال { وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ {الشورى 10} وقال { قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ {المتحنة 4} فليس من فعل شيئا أمر به وترك ما أمر به من التوكل بأعظم ذنبا ممن فعل توكلأ أمر به وترك فعل ما أمر به من السبب إذ كلاهما مخل ببعض ما وجب عليه وهما مع اشتراكهما في جنس الذنب فقد يكون هذا ألوم وقد يكون الآخر مع أن التوكل في الحقيقة من جملة الأسباب وقد روى أبو داود في سننه أن النبي صلى الله عليه وسلم قضى بين رجلي فقال المقضي عليه حسبي الله ونعم الوكيل فقال النبي صلى الله عليه وسلم إن الله لا يلوم على العجز لكن عليك بالكيس فإن غلبك أمر فقل حسبي الله ونعم الوكيل وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير احرص على ما ينفعك واستعن ب الله ولا تعجز فإن أصابك شيء فلا تقل لو إني فعلت لكان كذا وكذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان ففي قوله صلى الله عليه وسلم احرص على ما ينفعك واستعن ب الله ولا تعجز أمر بالتنسب المأمور به وهو احرص على المنافع وأمر مع ذلك بالتوكل وهو الاستعانة بالله فمن اكتفى بأحدهما فقد عصى أحد الأمرين ونهى عن العجز الذي هو ضد الكيس كما قال في الحديث الآخر إن الله لا يلوم على العجز ولكن عليك بالكيس وكما في الحديث الشامي الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله فالعاجز في الحديث مقابل الكيس ومن قال العاجز الذي هو مقابل البر فقد حرف الحديث ولم يفهم معناه ومنه الحديث كل شيء بقدر حتى العجز والكيس ومن ذلك ما روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس قال كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون يقولون نحن المتوكلون فإذا قدموا سألوا الناس فقال الله تعالى {وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى {البقرة 197} فمن فعل ما أمر به من التزود فاستعان به

على طاعة الله وأحسن منه إلى من يكون محتاجاً كان مطيعاً لله في هذين الأمرين بخلاف من ترك ذلك ملتفتاً إلى أزواد الحجيج كلا على الناس وإن كان مع هذا قلبه غير ملتفت إلى معين فهو ملتفت إلى الجملة لكن إن كان المتزود غير قائم بما يجب عليه من التوكل على الله ومواساة المحتاج فقد يكون في تركه لما أمر به من جنس هذا التارك للترزود المأمور به وفي هذه النصوص بيان غلط طوائف فطائفة تضعف أمر السبب المأمور به فتعده نقصاً وقدحا في التوحيد والتوكل وأن تركه من كمال التوكل والتوحيد وهم في ذلك ملبوس عليهم وقد يقترن بالغلط اتباع الهوى في إخلاد النفس إلى البطالة ولهذا تجد عامة هذا الضرب التاركين لما أمروا به من الأسباب يتعلقون بأسباب دون ذلك فإما أن يعلقوا قلوبهم بالخلق رغبة ورهبة وإما أن يتركوا لأجل ما تبتلوا له من الغلو في التوكل واجبات أو مستحبات انفع لهم من ذلك كمن يصرف همته في توكله إلى شفاء مرضه بلا دواء أو نيل رزقه بلا سعي فقد يحصل ذلك لكن كان مباشرة الدواء الخفيف والسعي اليسير وصرف تلك الهمة والتوجه في علم صالح أنفع له بل قد يكون أوجب عليه من تبنته لهذا الأمر اليسير الذي قدره درهم أو نحوه وفوق هؤلاء من يجعل التوكل والدعاء أيضاً نقصاً وانقطاعاً عن الخاصة ظناً أن ملاحظة ما فرع منه في القدر هو حال الخاصة وقد قال في الحديث كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم وقال فاستكسوني أكسكم وفي الطبراني أو غيره عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى شسع نعله إذا انقطع فإنه إن لم يبسر له لم يتيسر وهذا قد يلزمه أن يجعل أيضاً استهداء الله وعمله بطاعته من ذلك وقولهم يوجب دفع المأمور به مطلقاً بل دفع المخلوق والمأمور وإنما غلطوا من حيث ظنوا سبق التقدير يمنع أن يعون بالسبب المأمور به كمن يتزندق فيترك الأعمال الواجبة بناء على أن القدر قد سبق بأهل السعادة وأهل الشقاوة ولم يعلم أن القدر سبق بالأمر على ما هي عليه فمن قدره الله من أهل السعادة كان مما قدره الله يتيسر لعمل أهل السعادة ومن قدره من أهل الشقاء كان مما قدره أنه يبسر له لعمل أهل الشقاء كما قد أجاب النبي صلى الله عليه وسلم عن هذا السؤال في حديث علي بن أبي طالب وعمران بن حصين وسراقة بن جعشم وغيرهم ومنه حديث الترمذي حدثنا ابن أبي عمير عن الجواب حدثنا سفيان عن الزهري عن أبي خزيمة عن أبيه قال سألت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله أرأيت أدوية تتداوى بها ورقي نسترقى بها وتقاة نتقيها هل ترد من قدر الله شيئاً فقال هي من قدر الله وطائفة تظن أن التوكل إنما هو من مقامات الخاصة المتقربين إلى الله بالنوافل كذلك قولهم في أعمال القلوب وتوابعها كالحب والرجاء والخوف والشكر ونحو ذلك وهذا ضلال مبين بل جميع هذه الأمور فروض على الأعيان باتفاق أهل الإيمان ومن تركها بالكلية فهو إما كافر وإما منافق لكن الناس هم فيها كما هم في الأعمال الظاهرة فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات ونصوص الكتاب والسنة طافحة بذلك وليس هؤلاء المعرضون عن هذه الأمور علماً وعملاً بأقل لوما من التاركين لما أمروا به من أعمال ظاهرة مع تلبسهم ببعض هذه الأعمال بل استحقاق الذم والعقاب يتوجه إلى من ترك المأمور من الأمور الباطنة والظاهرة إن كانت الأمور الباطنة مبنياً للأمور الظاهرة وأصولها والأمور الظاهرة كما لها وفروعها التي لا تتم إلا بها

الدعاء والتوكل من أعظم الأسباب

وفي خطبة النبي الحمد لله نستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا فجمع بين حمده والاستعانة به والإستغفار له فقد تبين أن الإلتفات الى الأسباب شرك في التوحيد وهو ظلم وجهل وهذه حال من دعا غير الله وتوكل عليه وأما قولهم (قول السلف) محو الأسباب أن تكون أسبابا نقص في العقل فهو كذلك وهو طعن في الشرع أيضا فإن كثيرا من أهل الكلام أنكروا الأسباب بالكلية وجعلوا وجودها كعدمها كما أن أولئك الطبيعيين جعلوها عللا مقتضية وكما أن المعتزلة فرقوا بين أفعال الحيوان وغيرها والأقول الثلاثة باطلة فإن الله يقول { وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ { الأعراف 57 وقال تعالى { وَمَا أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا { البقرة 164 وقال تعالى { يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ { المائدة 16 وقال تعالى { يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا { البقرة 26 وأمثال ذلك فمن قال يفعل عندها لا بها فقد خالف لفظ القرآن مع أن الحس والعقل يشهد أنها أسباب ويعلم الفرق بين الجبهة وبين العين في إختصاص أحدهما بقوة ليست في الآخر وبين الخبز والحصى في أن أحدهما يحصل به الغذاء دون الآخر وأما قولهم الإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع بل هو أيضا قدح في العقل فإن أفعال العباد من أقوى الأسباب لما نيط بها فمن جعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أو يجعل المتقين كالفجار فهو من أعظم الناس جهلا وأشدهم كفرا بل ما أمر الله به من العبادات والدعوات والعلوم والأعمال من أعظم الأسباب فيما نيط بها من العبادات وكذلك ما نهى عنه من الكفر والفسوق والعصيان هي من أعظم الأسباب لما علق بها من الشقاوات ومع هذا فقد قال خير الخلق أنه لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته منه وفضل ولما قال لهم ما منكم من أحد إلا وقد علم مقعده من الجنة ومقعدة من النار قالوا يا رسول الله أفلا نتكل على الكتاب ونذع العمل قال لا إعملوا فكل ميسر لما خلق له إما من كان من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة وأما كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل الشقاوة وكذلك الدعاء والتوكل من أعظم الأسباب لما جعله الله سببا له فمن قال ما قدر لي فهو يحصل لي دعوت أو لم أدع وتوكلت أو لم أتوكل فهو بمنزلة من يقول ما قسم لي من السعادة والشقاوة فهو يحصل لي أمنت أو لم أؤمن وأطعت أم عصيت ومعلوم أن هذا ضلال وكفر وأن كان الأول ليس مثل هذا في الضلال إذ ليس تعليق المقاصد بالدعاء والتوكل كتعليق سعادة الآخرة بالإيمان لكن لا ريب أن ما جعل الله سببا له بمنزلة ما جعل العمل الصالح سببا له وهو قادر على أن يفعله سبحانه بدون هذا السبب وقد يفعله بسبب آخر وكذلك من ترك الأسباب المشروعة المأمور بها أمر إيجاب أو امر إستحباب من جلب المنافع أو دفع المضار قادح في الشرع خارج عن العقل ومن هنا غلطوا في ترك الأسباب المأمور بها وظنوا أن هذا من تمام التوكل والتوكل مقرون بالعبادة في قوله { فَأَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ { هود 123 والعبادة فعل المأمور فمن ترك العبادة المأمور بها وتوكل لم يكن أحسن حالا ممن عبده ولم يتوكل عليه بل كلاهما عاص لله تارك لبعض ما أمر به والتوكل يتناول التوكل عليه ليعينه على فعل ما أمر والتوكل عليه ليعطيه مالا يقدر العبد عليه فالإستعانة تكون على الأعمال وأما التوكل فأعم من ذلك ويكون التوكل عليه لجلب المنفعة ودفع المضرة قال تعالى { وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ { التوبة 59 وقال تعالى { الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ { آل عمران 173 فمن لم يفعل ما أمر به لم يكن مستعينا بالله على ذلك فيكون قد ترك العبادة والإستعانة عليها بترك التوكل في هذا الموضوع أيضا وآخر يتوكل بلا فعل مأمور وهذا هو العجز المذموم كما في سنن أبي داود أن رجلين إختصما إلى النبي فحكم على أحدهما فقال المقضي عليه حسبي الله ونعم الوكيل فقال النبي إن الله يلوم على العجز ولكن عليك بالكيس فإن غلبك أمر فقل حسبي الله

ونعم الوكيل وفي صحيح مسلم عن النبي أنه قال المؤمن القوي خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير أحرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن وإن أصابك شيء فلا تقل لو أنى فعلت كذا لكان كذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان فأمر النبي صلى الله عليه وسلم المؤمن أن يحرص على ما ينفعه وأن يستعين بالله وهذا مطابق لقوله إياك نعبد وإياك نستعين وقوله **{فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ}** هود 123 فإن الحرص على ما ينفع العبد هو طاعة الله وعبادته إذ النافع له هو طاعة الله ولا شيء أنفع له من ذلك وكل ما يستعان به على الطاعة فهو طاعة وإن كان من جنس المباح قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح لسعد إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا ازددت بها درجة ورفعة حتى اللقمة تضعها في في امرأتك فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن الله يلوم على العجز الذي هو ضد الكيس وهو التفريط فيما يؤمر بفعله فإن ذلك ينافي القدرة المقارنة للفعل وإن كان لا ينافي القدرة المقدمة التي هي مناط الأمر والنهي فإن الاستطاعة التي توجب الفعل وتكون مقارنة له لا تصلح إلا لمقدورها فإن الإنسان ليس مأمورا أن ينظر إلى القدر عند ما يؤمر به من الأفعال ولكن عندما يجرى عليه من المصائب التي لا حيلة له في دفعها فما أصابك بفعل الأدميين أو بغير فعلهم أصبر عليه وارض وسلم قال تعالى **{مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ}** التغابن 11 قال بعض السلف إما ابن مسعود وإما علقمة هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم⁴⁸⁵

التوكل مقرون بالعبادة

قال تعالى **{فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ}** هود 123 وقال **{وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً}** {8} رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً {9} المزملة 8-9 وقال تعالى **{وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً}** {2} وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ {3} الطلاق 2-3 و التقوي تجمع فعل ما أمر الله به وترك ما نهى الله عنه وهذه الآية مطابقة لقوله **{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}** الفاتحة 5 الجامعة لعلم الكتب الإلهية كلها وذلك أن التقوى هي العبادة المأمور بها فإن تقوى الله وعبادته وطاعته أسماء متقاربة متكافئة متلازمة والتوكل عليه هو الإستعانة به فمن يتقى الله مثال **{إِيَّاكَ نَعْبُدُ}** الفاتحة 5 ومن يتوكل على الله مثال **{وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}** الفاتحة 5 كما قال **{فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ}** هود 123 وقال **{عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ}** هود 88

و يروى عن أبي ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ياأبا ذر لو عمل الناس كلهم بهذه الآية لوسعتهم وقوله **{مَخْرَجاً}** الطلاق 2 عن بعض السلف أي من كل ما ضاق على الناس ولهذا قال بعض السلف ما احتاج تقى قط يقول أن الله ضمن للمتقين أن يجعل لهم مخرجا مما يضيق على الناس و أن يرزقهم من حيث لا يحتسبون فيدفع عنهم ما يضرهم و يجلب لهم ما

⁴⁸⁵مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 176-178 و أمراض القلوب ج: 1 ص: 50 و التحفة العراقية

يحتاجون إليه فإذا لم يحصل ذلك دل على أن في التقوى خلا فليستغفر الله وليتب إليه و لهذا جاء في الحديث المرفوع الى النبي صلى الله عليه وسلم الذي رواه الترمذى أنه قال من أكثر الإستغفار جعل الله له من كل هم فرجا و من كل ضيق مخرجا و رزقه من حيث لا يحتسب و المقصود أن الله لم يأمر بالتوكل فقط بل أمر مع التوكل بعبادته و تقواه التى تتضمن فعل ما أمر و ترك ما حذر فمن ظن أنه يرضى ربه بالتوكل بدون فعل ما أمر به كان ضالا كما أن من ظن أنه يقوم بما يرضى الله عليه دون التوكل كان ضالا بل فعل العبادة التى أمر الله بها فرض وإذا أطلق لفظ العبادة دخل فيها التوكل و إذا قرن أحدهما بالآخر كان للتوكل إسم يخصه كما فى نظائر ذلك مثل التقوى و طاعة الرسول فإن التقوى إذا أطلقت دخل فيها طاعة الرسول و قد يعطف أحدهما على الآخر كقول نوح عليه السلام { أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا } نوح 3 و كذلك قوله { اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا } الأحزاب 70 و أمثال ذلك و قد جمع الله بين عبادته و التوكل عليه فى مواضع كقوله تعالى { قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٌ } الرعد 30 و قول شعيب { عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أَنِيبُ } الشورى 10 فإن الإنابة الى الله و المتاب هو الرجوع إليه بعبادته و طاعته و طاعة رسوله و العبد لا يكون مطيعا لله و رسوله فضلا أن يكون من خواص أوليائه المنقيين إلا يفعل ما أمر به و ترك ما نهى عنه و يدخل فى ذلك التوكل و أما من ظن أن التوكل يغني عن الأسباب المأمور بها فهو ضال و هذا كمن ظن أنه يتوكل على ما قدر عليه من السعادة و الشقاوة بدون أن يفعل ما أمره الله و هذه المسألة مما سئل عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم كما فى الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم قال ما منكم من أحد إلا و قد كتب مقعده من الجنة و النار فقيل يا رسول الله أفلا ندع العمل و نتكل على الكتاب فقال لا إعملوا فكل ميسر لما خلق له و كذلك فى الصحيحين عنه أنه قيل له أرأيت ما يعمل الناس فيه و يكدحون أفيما جفت الأقلام و طويت الصحف و لما قيل له أفلا نتكل على الكتاب قال لا إعملوا فكل ميسر لما خلق له و بين صلى الله عليه وسلم أن الأسباب الخلوقة و المشروعة هي من القدر فقيل له أرأيت رقى نسترقى بها و تقى ننقى بها و أدوية ننداوي بها هل ترد من قدر الله شيئا فقال هي من قدر الله فالإلتفات الى الأسباب شرك فى التوحيد و محو الأسباب أن تكون أسبابا نقض فى العقل و الأعراض عن الأسباب المأمور بها قدح فى الشرع فعلى العبد أن يكون قلبه متعمدا على الله لا على سبب من الأسباب و الله يبسر له من الأسباب ما يصلحه فى الدنيا و الآخرة فإن كانت الأسباب مقدورة له و هو مأمور بها فعلها مع التوكل على الله كما يؤدى الفرائض و كما يجاهد العدو و يحمل السلاح و يلبس جنة الحرب و لا يكتفى فى دفع العدو على مجرد توكله بدون أن يفعل ما أمر به من الجهاد و من ترك الأسباب المأمور بها فهو عاجز مفرط مذموم و فى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال المؤمن القوي خير و أحب الى الله من المؤمن الضعيف و فى كل خير احرص على ما ينفعك و استعن بالله و لا تعجزن و إن أصابك شيء فلا تقل لو أنى فعلت لكان كذا و كذا و لكن قل قدر الله و ما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان و فى سنن أبى داود أن رجلين تحاكما الى النبي صلى الله عليه وسلم فقضى على أحدهما فقال المقضى عليه حسبنا الله و نعم الوكيل فقال صلى الله عليه وسلم إن الله يلوم على العجز و لكن عليك بالكيس فإن غلبك أمر فقل حسبنا الله و نعم الوكيل و قد تكلم الناس فى حمل الزاد فى الحج و غيره من الأسفار فالذي مضت عليه سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم و سنة خلفائه الراشدين و أصحابه و التابعين لهم بإحسان و أكابر المشائخ هو حمل الزاد لما فى ذلك من طاعة الله و رسوله و إنتفاع الحامل و نفعه للناس و زعمت طائفة أن من تمام التوكل أن لا يحمل الزاد و قد رد الأكاب هذا القول كما رده الحارث المحاسبى فى كتاب التوكل و حكاه عن شقيق البلخي و بالغ فى الرد على من قال بذلك و ذكر من الحجج عليهم ما يبين به غلطهم و أنهم غالطون فى معرفة حقيقة التوكل و أنهم عاصون لله بما يتركون من طاعته و قد حكى لأحمد بن حنبل أن بعض الغلاة الجهال بحقيقة التوكل كان إذا وضع له الطعام لم يمد يده حتى يوضع فى فمه و إذا وضع يطبق فمه حتى يفتحوه و يدخلوا فيه الطعام فأنكر ذلك أشد الإنكار و

من هؤلاء من حرم المكاسب وهذا و أمثاله من قلة العلم بسنة الله في خلقه و أمره فإن الله خلق المخلوقات بأسباب و شرع للعباد أسبابا ينالون بها مغفرته و رحمته و ثوابه في الدنيا و الآخرة فمن ظن أنه بمجرد توكله مع تركه ما أمره الله به من الأسباب يحصل مطلوبه و أن المطالب لا تتوقف على الأسباب التي جعلها الله أسبابا لها فهو غالط فإله سبحانه و إن كان قد ضمن للعبد رزقه و هو لا بد أن يرزقه ما عمر فهذا لا يمنع أن يكون ذلك الرزق المضمون له أسباب تحصل من فعل العبد و غيره فعله و أيضا فقد يرزقه حلالا و حراما فإذا فعل ما أمره به رزقه حلالا و إذا ترك ما أمره به فقد يرزقه من حرام و من هذا الباب الدعاء و التوكل فقد ظن بعض الناس أن ذلك لا تأثير له في حصول مطلوب و لا دفع مرهوب و لكنه عبادة محضة و لكن ما حصل به حصل بدون و ظن آخرون أن ذلك مجرد علامة و الصواب الذي عليه السلف و الأئمة و الجمهور أن ذلك من أعظم الأسباب التي تنال بها سعادة الدنيا و الآخرة و ما قدره الله بالدعاء و التوكل و الكسب و غير ذلك من الأسباب إذا قال القائل فلو لم يكن السبب ماذا يكون بمنزلة من يقول هذا المقتول لو لم يقتل هل كان يعيش و قد ظن بعض القرية أنه كان يعيش و ظن بعض المنتسبين الى السنة أنه كان يموت و الصواب أن هذا تقدير لأمر علم الله أنه يكون فإله قدر موته بهذا السبب فلا يموت إلا به كما قدر الله سعادة هذا في الدنيا و الآخرة بعبادته و دعائه و توكله و عمله الصالح و كسبه فلا يحصل إلا به و إذا قدر عدم هذا السبب لم يعلم ما يكون المقدر و بتقدير عدمه فقد يكون المقدر حينئذ أنه يموت و قد يكون المقدر أنه يحيى و الجزم بإحدهما خطأ و لو قال القائل أنا لا أكل و لا أشرب فإن كان الله قدر حياتي فهو يحييني بدون الأكل و الشرب كان أحق كمن قال أنا لا أطأ إمرأتي فإن كان الله قدر لي و لدا تحمل من غير ذكر⁴⁸⁶

الرجاء مقرون بالتوكل

و اما قول علي بن ابي طالب رضي الله عنه لا يرجون عبد إلا ربه، فإن الراجي يطلب حصول الخير و دفع الشر و لا يأتي بالحسنات إلا الله و لا يذهب السيئات إلا الله {وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ} {يونس 107} {مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ} {فاطر 2} والرجاء مقرون بالتوكل فإن المتوكل يطلب ما رجاه من حصول المنفعة و دفع المضرة و التوكل لا يجوز إلا على الله كما قال تعالى {وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} {المائدة 23} وقال {وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ} {إبراهيم 12} وقال تعالى {إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} آل عمران 160 وقال تعالى {وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ} {التوبة 59} وقال تعالى {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} {الانفال 173} هؤلاء قالوا حسبنا الله أى كافينا الله فى دفع البلاء و أولئك أمروا أن يقولوا حسبنا فى جلب النعماء فهو سبحانه كاف عبده فى إزالة الشر و فى إنالة الخير أليس الله بكاف عبده و من توكل على غير الله و رجاه خذل من جهته و حرم {مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} {العنكبوت 41} {وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا} {81} كَلَّا

سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا {82} مريم 81-82 { وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ {الحج31} {لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا {الإسراء22} وقال الخليل {فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ {العنكبوت17} فمن عمل لغير الله رجاء أن ينتفع بما عمل له كانت صفتة خاسرة قال الله تعالى {وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ سَائِبًا وَّوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ {النور39} وقال تعالى {مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ {إبراهيم18} وقال تعالى {وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا {الفرقان23} وقال تعالى {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ {القصص88} كما قيل في تفسيرها كل عمل باطل إلا ما أريد به وجهه فمن عمل لغير الله ورجاه بطل سعيه والراجي يكون راجيا تارة بعمل يعمل لمن يرجوه وتارة بإعتماد قلبه عليه والتجائه إليه وسؤاله فذاك نوع من العبادة له وهذا نوع من الإستعانة به وقد قال تعالى {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ {الفاحة5} وقال {فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ {هود123} وقال {قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ {الرعد30} ⁴⁸⁷

الإخلاص والتوكل جماع صلاح الخاصة والعامة

ومتى اهتمت الولاة باصلاح دين الناس صلح للطائفتين دينهم وديناهم وإلا اضطربت الأمور عليهم وملاك ذلك كله صلاح النية للرعية وإخلاص الدين كله لله والتوكل عليه فان الاخلاص والتوكل جماع صلاح الخاصة والعامة كما أمرنا ان نقول في صلاتنا {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ {الفاحة5} فان هاتين الكلمتين قد قيل انهما يجمعان معانى الكتب المنزلة من السماء وقد روى أن النبي كان مرة فى بعض مغازيه فقال يا مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين فجعلت الرعوس تنذر عن كواهلها وقد ذكر ذلك فى غير موضع من كتابه كقوله {فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ {هود123} وقوله تعالى {عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ {هود88} وكان صلى الله عليه وسلم إذا ذبح أضحيته يقول اللهم منك ولك ⁴⁸⁸

⁴⁸⁷مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 166

⁴⁸⁸مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 361 ورسالة فى قوله تعالى واستعينوا بالصبر والصلاة ج: 1

ص: 82 و السياسة الشرعية ج: 1 ص: 110

فإنه لا يقبل دين إلا دين الإسلام وهو الإستسلام لخلقه وأمره فيسلم لما قدره وقضاه ويسلم لما يأمر به ويحبه وهذا نفعه وندعو إليه وذاك نسلمه ونتوكل فيه عليه فنرضى بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً ونقول في صلاتنا {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} الفاتحة 5 مثل قوله تعالى { فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ } هود 123 وقوله تعالى { اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ } البقرة 153 وقوله تعالى { وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ } 114 { وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } 115 { هود 114 - 489 115

امتنال الأمر على الإطلاق لا يصح بدون التوكل والاستعانة

وإذا كان الله قد فرض علينا أن نناجيه و ندعوه بهاتين الكلمتين {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} الفاتحة 5 في كل صلاة فمعلوم أن ذلك يقتضي أنه فرض علينا أن نعبده و أن نستعينه إذ إيجاب القول الذي هو إقرار و اعتراف و دعاء و سؤال هو إيجاب لمعناه ليس إيجاباً لمجرد لفظ لا معنى له فإن هذا لا يجوز أن يقع بل إيجاب ذلك أبلغ من إيجاب مجرد العبادة و الاستعانة فإن ذلك قد يحصل أصله بمجرد القلب أو القلب و البدن بل أوجب دعاء الله عز وجل و مناجاته و تكليمه و مخاطبته بذلك ليكون الواجب من ذلك كاملاً صورة و معنى بالقلب و بسائر الجسد و قد جمع بين هذين الأصلين الجامعين إيجاباً و غير إيجاب في مواضع كقوله في آخر سورة هود { فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ } هود 123 و قول العبد الصالح شعيب { وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ } هود 88 و قول إبراهيم و الذين معه { رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ } الممتحنة 4 و قوله سبحانه إذ أمر رسوله أن يقول { كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لَّتَتَلَوْا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٌ } الرعد 30 فأمر نبيه بأن يقول على الرحمن توكلت و إليه متاب كما أمره بهما في قوله { فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ } هود 123 والأمر له أمر لأمته و أمره بذلك في أم القرآن و في غيرها لأمته ليكون فعلهم ذلك طاعة لله و امتثالاً لأمره و لا يتقدموا بين يدي الله و رسوله و لهذا كان عامة ما يفعله نبينا صلى الله عليه و سلم و الخالصون من أمته من الأدعية و العبادات و غيرها إنما هو بأمر من الله بخلاف من يفعل ما لم يؤمر به و إن كان حسناً أو عفواً و هذا أحد الأسباب الموجبة لفضله و فضل أمته على من سواهم و فضل الخالصين من أمته على المشوبين الذين شابوا ماجاء به بغيره كالمنحرفين عن الصراط المستقيم و إلى هذين الأصلين كان النبي صلى الله عليه و سلم يقصد في عباداته و أذكاره و مناجاته مثل قوله في الأضحية اللهم هذا منك و لك فإن قوله منك هو معنى التوكل و الاستعانة و قوله لك هو معنى العبادة و مثل قوله في قيامه من الليل لك أسلمت و بك أمنت و عليك توكلت و إليك أنبت و بك خاصمت و إليك حاكمت أعود بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلني أنت الحي الذي لا تموت و الجن و الانس يموتون و إلى أمثال ذلك ⁴⁹⁰

⁴⁸⁹مجموع الفتاوى ج: 27 ص: 379

⁴⁹⁰مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 8 و رسالة في تحقيق التوكل ج: 1 ص: 91

لا تصح العبادة لله وطاعة أمره بدون التوكل عليه كما أن التوكل عليه لا يصح بدون عبادته وطاعته قال تعالى **{فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ}** {هود 123} وقال تعالى **{وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً}** {2} **{وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ}** {3} الطلاق 2-3 وقال تعالى **{وَأذْكَرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَنَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً}** {8} **{رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً}** {9} {المزمل 8-9} و المقصود أن إمتثال الأمر على الإطلاق لا يصح بدون

التوكل والإستعانة ومن كان واثقاً بالله أن يجلب له ما ينفعه ويدفع عنه ما يضره أمكن ان يدع هواه ويطيع أمره وإلا فنفسه لا تدعه أن يترك ما يقول أنه محتاج فيه إلى غيره ⁴⁹¹

ينبوع الخير وأصله إخلاص العبد لربه عبادة وإستعانة

في حديث أبي هريرة رضى الله عنهما الذى رواه الترمذى وصححه قيل يا رسول الله ما أكثر ما يدخل الناس الجنة قال تقوى الله وحسن الخلق قيل وما أكثر ما يدخل الناس النار قال الأجوفاں الفم والفرج وفى الصحيح عن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا فجعل كمال الإيمان فى كمال حسن الخلق ومعلوم أن الإيمان كله تقوى الله وتفصيل أصول التقوى وفروعها لا يحتمله هذا الموضوع فإنها الدين كله لكن ينبوع الخير وأصله إخلاص العبد لربه عبادة وإستعانة كما فى قوله **{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}** {الفاحة 5} وفى قوله **{فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ}** {هود 123} وفى قوله **{عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ}** {هود 88} وفى قوله **{فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ}** {العنكبوت 17} بحيث يقطع العبد تعلق قلبه من المخلوقين إنتفاعا بهم أو عملا لأجلهم ويجعل همته ربه تعالى وذلك بملازمة الدعاء له فى كل مطلوب من فاقة وحاجة ومخافة وغير ذلك والعمل لله بكل محبوب ⁴⁹²

ومعلوم أنه لا يكون شىء الا بمشيئة الله وقدرته وأن الخلق ليس منهم شىء الا ما أحدثه الله فيهم فاذا انقطع طلب القلب للمعونة منهم وطلبها من الله فقد طلبها من خالقها الذى لا يأتى بها الا هو قال تعالى **{مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ}** {فاطر 2} وقال تعالى **{وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ}** {يونس 107} وقال تعالى **{وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}** {الأنعام 17} **{قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ}** {الزمر 38} وقال صاحب يس **{أَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ**

⁴⁹¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 492

⁴⁹²مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 659 و الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 91-92

الرَّحْمَنُ بَضُرٌّ لَّا تُغْنِي عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلَا يُنْقِذُونِ {23} إِنِّي إِذَا أَنْفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ {24} يس 23-24 ولهذا يأمر الله بالتوكل عليه وحده في غير موضع وفي الأثر من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله ومن سره أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله أوثق منه بما في يده قال تعالى { وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا } الفرقان 58 والله تعالى أمر بعبادته والتوكل عليه قال تعالى { فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ } هود 123 وقال تعالى { قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ } الرعد 30 { وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ } يونس 84

493

النور والمعرفة هو أصل المحبة والإرادة

فالنور والمعرفة الذي هو أصل المحبة والإرادة ما تتميز به المحبة الإيمانية المحمدية المفصلة عن المجملة المشتركة وكما يقع هذا الإجمال في المحبة يقع أيضا في التوحيد قال الله تعالى في أم الكتاب التي هي مفروضة على العبد وواجبة في كل صلاة أن يقول { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } {5} وقد ثبت في الحديث الصحيح أن الله يقول قسمت الصلاة بيني وبين عبدى نصفين نصفها لى ونصفها لعبدى ولعبدى ما سأل فإذا قال العبد { الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } {2} قال الله حمدنى عبدى وإذا قال { الرَّحْمَنُ الرَّحِيمِ } {3} قال الله أنتى على عبدى وإذا قال { مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ } {4} قال مجدنى عبدى أو قال فوض الى عبدى وإذا قال { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } {5} قال فهذه الآية بينى وبين عبدى نصفين ولعبدى ما سأل فإذا قال { اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ } {6} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ } {7} قال فهؤلاء لعبدى ولعبدى ما سأل ولهذا روى أن الله أنزل مائة كتاب وأربعة كتب جمع معانيها فى القرآن ومعانى القرآن فى المفصل ومعانى المفصل فى أم الكتاب ومعانى أم الكتاب فى هاتين الكلمتين { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } {5} وهذا المعنى قد ثناه الله فى مثل قوله { فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ } هود 123 وفى مثل قوله { عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ } الرعد 30 وقوله { عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أَنِيبُ } الشورى 10 وكان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يقول فى نسكه اللهم هذا منك ولك فهو سبحانه مستحق التوحيد الذى هو دعاؤه واخلاص الدين له دعاء العبادة بالمحبة والإنابة والطاعة والإجلال والإكرام والخشية والرجاء ونحو ذلك من معانى تألهه وعبادته ودعاء المسئلة والاستعانة بالتوكل عليه والإلتجاء اليه والسؤال له ونحو ذلك مما يفعل سبحانه بمقتضى ربوبيته وهو سبحانه الاول والأخر والباطن والظاهر ولهذا جاءت الشريعة الكاملة فى العبادة باسم الله وفى السؤال بإسم الرب فيقول المصلى والذاكر الله أكبر وسبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله وكلمات الأذان الله أكبر الله أكبر الى آخرها ونحو ذلك وفى السؤال

{ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا { الأعراف 23 { رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي { الأعراف 151 { قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ { القصص 17 { رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي { القصص 16 { رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ { آل عمران 147 { رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ { المؤمنون 118 ونحو ذلك ⁴⁹⁴

فلا خالق إلا الله ولا رب إلا الله ولا يجيب المضطرين ويرزق العباد إلا الله فهو الذي يعطي ويمنع ويخفض ويرفع ويعز ويذل وهو الذي يستحق أن يستعان به ويتوكل عليه ويستعاذ به ويلتجئ العباد إليه فإنه لا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع ولا ينفع ذا الجد منه الجد كما قال تعالى في فاتحة الكتاب {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ { الفاتحة 5 وقال تعالى {فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ { هود 123 ⁴⁹⁵

أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه

وأما المقاصد فالقرآن أخبر بالعلم بالله والعمل له فجمع بين قوتى الإنسان العلمية والعملية الحسية والحركية الإرادية الإدراكية والإعتمادية القولية والعملية حيث قال { اعْبُدُوا رَبَّكُمُ { البقرة 21 فالعبادة لا بد فيها من معرفته والإنابة اليه والتذلل له والإفتقار اليه وهذا هو المقصود وإذا حصل الاعتراف بالرب والاقرار به من غير عبادة وإنابة كان وبالاً على صاحبه وشقاء له كما جاء فى الحديث أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه كإبليس اللعين فإنه معترف بربه مقرر بوجوده لكن لما لم يعبده كان رأس الأشقياء وكل من شقى فباتباعه له كما قال { قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْذُوراً مَذْحُوراً لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ { الأعراف 18 فلا بد أن يملأ جهنم منه ومن أتباعه مع أنه معترف بالرب مقرر بوجوده وإنما أبى واستكبر عن الطاعة والعبادة والقوة العلمية مع العملية بمنزلة الفاعل والغاية ولهذا قيل العلم بلا عمل كالشجر بلا ثمر والمراد بالعمل هنا عمل القلب الذى هو انابته الى الله وخشيته له حتى يكون عابداً له فالرسل والكتب المنزلة أمرت بهذا وأوجبته بل هو رأس الدعوة ومقصودها وأصلها والطريقة النبوية القرآنية السنوية الجماعية فيها العلم والعمل كاملين ففاتحة دعوة الرسل الأمر بالعبادة قال تعالى { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ { البقرة 21 وقال أمرت أن أقاتل

الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وذلك يتضمن الإقرار به وعبادته وحده فإن الإله هو المعبود ولم يقل حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله فإن اسم الله أدل على مقصود العبادة له التى لها خلق الخلق وبها أمروا وكذلك قوله لمعاذ إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وقال نوح عليه السلام

⁴⁹⁴مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 455

⁴⁹⁵مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 489

{ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَانْقُوهُ وَأَطِيعُوا } نوح 3 وكذلك الرسل في سورة الأعراف وغيرها وقال تعالى { فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ } هود 123⁴⁹⁶

العلة الغائية هي تقرير ألوهيته وعبادته وطاعته والعلة الفاعلية هي تقرير وحدانية كونه خالقا وربما والعلة الغائية هي المقصودة التي هي أعلى وأشرف بل هي علة فاعلية للعلة الفاعلية ولهذا قدمت في مثل قوله { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } الفاتحة 5 وفي مثل قوله { فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ } هود 123⁴⁹⁷

من راعى الأمر والقدر كان من الذين أنعم الله عليهم

والمؤمن مأمور بأن يفعل المأمور ويترك المحذور ويصبر على المقدور كما قال تعالى في قصة يوسف { إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } يوسف 90 فالتقوى فعل ما أمر الله به وترك ما نهى الله عنه ولهذا قال الله تعالى { فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ } غافر 55 فأمره مع الاستغفار بالصبر فإن العباد لا بد لهم من الاستغفار أولهم وآخرهم قال النبي في الحديث الصحيح يا أيها الناس توبوا إلى ربكم فالذي نفسى بيده إنى لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة وقال انه ليغان على قلبى وإنى لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم مائة مرة وكان يقول اللهم اغفر لى خطيئتى وجهلى واسرافى فى أمرى وما أنت أعلم به منى اللهم اغفر لى خطيئى وعمدى وهزلى وجدى وكل ذلك عندى اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أنت أعلم به منى أنت المقدم وأنت المؤخر وقد ذكر عن آدم أبى البشر انه استغفر ربه وتاب إليه فاجتباه ربه فتاب عليه وهداه وعن ابليس أبى الجن لعنه الله أنه أصر متعلقا بالقدر فلعنه وأقصاه فمن أذنب وتاب وندم فقد أشبهه أباه ومن أشبهه أباه فما ظلم قال الله تعالى { وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا } 72 { لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا } 73 { الأحزاب 72-73 } ولهذا قرن الله سبحانه بين التوحيد والاستغفار في غير آية كما قال تعالى { أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ } فصلت 6 { فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ } محمد 19 وفي الحديث الذى رواه ابن أبى عاصم وغيره يقول الشيطان أهلك الناس بالذنوب وأهلكونى بلا إله إلا الله والاستغفار فلما رأيت ذلك بثت فيهم الأهواء فهم يذنبون ولا يتوبون لأنهم يحسبون انهم يحسنون صنعا وقد ذكر سبحانه عن ذى النون انه { فَتَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ } 87 { فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْعَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ } 88 { الانبياء 87-88 } قال النبي دعوة أخى ذى النون ما دعا بها مكروب الا فرج الله كربته وجماع ذلك انه لا بد له فى الأمر من أصلين ولا بد له فى القدر من أصلين فى الأمر عليه الاجتهاد فى الإمتثال علما وعملا فلا تزال تجتهد فى العلم بما أمر الله به والعمل بذلك ثم عليه أن يستغفر

⁴⁹⁶مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 10

⁴⁹⁷مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 30

ويتوب من تفریطه فى المأمور وتعدیه الحدود ولهذا كان من المشروع أن یختم جمیع الاعمال بالإستغفار فكان النبى إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثا وقد قال الله تعالى { وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ } آل عمران 17 فقاموا باللیل وختموا بالإستغفار وآخر سورة نزلت قول الله تعالى (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ {1} وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا {2} } فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا {3} النصر 1-3 وفى الصحيح انه كان یكثر أن یقول فى ركوعه وسجوده سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لى یتأول القرآن وأما فى القدر فعليه أن یستعین بالله فى فعل ما أمر به یتوكل علیه ویدعوه ویرغب الیه ویستعید به ویكون مفتقرا الیه فى طلب الخیر وترك الشر وعليه أن یصیر على المقدور ویعلم أن ما أصابه لم یکن لیخطئه وما أخطأه لم یکن لیصیبه وإذا آذاه الناس علم أن ذلك مقدر علیه وهم مأمورون أن ینظروا الى القدر فى المصائب وأن یستغفروا من المعائب كما قال تعالى { فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ } غافر 55 فمن راعى الأمر والقدر كما ذكر كان عابدا لله مطيعا له مستعينا به متوكلا علیه من الذین أنعم الله علیهم من النبیین والصدیقیین والشهداء والصالحین وحسن أولئك رفيقا وقد جمع الله سبحانه بین هذین الأصلین فى مواضع كقوله { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } الفاتحة 5 وقوله { فَأَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ } هود 123 وقوله { عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ } الشورى 10 { عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ } هود 88 وقوله { وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا {2} وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا {3} } الطلاق 2-3 فالعبادة لله والاستعانة به وكان النبى یقول عند الأضحیة وكان النبى یقول عند الأضحیة اللهم منك ولك فما لم یکن بالله لا یكون فانه لا حول ولا قوة إلا بالله وما لم یکن لله فلا ینفع ولا یدوم ولا ید فى عبادته من أصلین أحدهما اخلاص الدین له والثانى موافقة أمره الذى بعث به رسله ولهذا كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه یقول فى دعائه اللهم اجعل عملى كله صالحا واجعله لوجهك خالصا ولا تجعل لأحد فيه شيئا وقال الفضیل بن عیاض فى قوله تعالى { لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا } الملك 2 قال أخلصه وأصوبه قالوا یا أبا على ما أخلصه وأصوبه قال إذا كان العمل خالصا ولم یکن صوابا لم یقبل وإذا كان صوابا ولم یکن خالصا لم یقبل حتى یكون خالصا صوابا والخالص أن یكون لله والصواب أن یكون على السنة⁴⁹⁸

لطائف لغوية

1- قال تعالى { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ {96} إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَأْنَاهُ كِبَارًا فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ {97} } هود 96-97 والسلطان هو الوحي المنزل من عند الله كما ذكر ذلك فى غير موضع كقوله { أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهَوْا يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ } الروم 35 وقوله { مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ } الأعراف 71 وقال ابن عباس كل سلطان فى القرآن فهو الحجة ذكره البخارى فى صحيحه⁴⁹⁹

⁴⁹⁸مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 123 و مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 69

⁴⁹⁹مجموع الفتاوى ج: 9 ص: 42

2- السلطان هو الحجة وهو الكتاب المنزل كما قال تعالى {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ} {هود 96} ⁵⁰⁰

3- قال تعالى {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ} {96} إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَأْنَاهُ قَاتِبِينَ فَأَتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ} {97} هود 96-97 وفرعون اسم لمن يملك مصر من القبط وهو اسم جنس كقيصر وكسري والنجاشي ونحو ذلك ⁵⁰¹

4- قال تعالى { ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَىٰ نَفْسُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ} {100} وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ} {101} هود 100-101 لفظ القرية والمدينة والنهر والميزاب وأمثلة هذه الأمور التي فيها الحال والمحال كلاهما داخل في الاسم ثم قد يعود الحكم على الحال وهو السكان وتارة على المحل وهو المكان وكذلك في النهر يقال حفرت النهر وهو المحل وجرى النهر وهو الماء ووضع الميزاب وهو المحل وجرى الميزاب وهو الماء وكذلك القرية قال تعالى {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً} {النحل 112} وقوله {وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فِجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ} {4} فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ} {5} الأعراف 4-5 وقال في آية أخرى {أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ} {الأعراف 97} فجعل القرى هم السكان وقال {وَكَايِنٌ مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا تَاصِرَ لَهُمْ} {محمد 13} وهم السكان وكذلك قوله تعالى {وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَّوْعِدًا} {الكهف 59} وقال تعالى {أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا} {البقرة 259} فهذا المكان لا السكان لكن لابد أن يلحظ أنه كان مسكونا فلا يسمى قرية الا اذا كان قد عمر للسكنى مأخوذ من القرى وهو الجمع ومنه قولهم قرية الماء في الحوض اذا جمعت فيه ونظير ذلك لفظ الانسان يتناول الجسد والروح ثم الاحكام تتناول هذا تارة وهذا تارة لتلازمهما فكذلك القرية اذا عذب أهلها خربت واذا خربت كان عذابا لأهلها فما يصيب أحدهما من الشر ينال الآخر كما ينال البدن والروح ما يصيب أحدهما فقولته {وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ} يوسف 82 مثل قوله {قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً} {النحل 112} فاللفظ هنا يراد به السكان من غير اضممار ولا حذف ⁵⁰²

5- ظلم النفس فانه اذا اطلق تناول جميع الذنوب فانها ظلم العبد نفسه قال تعالى {وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ} {هود 101} ⁵⁰³

⁵⁰⁰ الاستقامة ج: 1 ص: 22 و مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 316

⁵⁰¹ قاعدة في المحبة ج: 1 ص: 46

⁵⁰² مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 163

⁵⁰³ مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 62

6-قال تعالى { وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتَشَابَهُ } هود101 الدعاء قصد المدعو و التوجه إليه إما على وجه المسألة و إما على وجه العبادة المحضة لأن دعاء الشيء هو طلبه و إرادته سواء طلب لذاته أو للأمر منه و من ذلك قوله تعالى { وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ } غافر60 فإنه فسر بالمسألة و بالعبادة⁵⁰⁴

7-قال تعالى { وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقَرْيَةَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ } هود102 و من ظن ان الحقيقة في مثل قوله { وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا } يوسف82 هو سؤال الجدران فهو جاهل هناك من ينكرون استعمال اللفظ في حال في معنى وفي حال اخرى كما يستعمل لفظ القرية تارة في السكان وتارة في المساكن ويدعون انه لا يعنى به الا المساكن وهذا غلط فيعصم يقولون هنا محذوف تقديره واسأل أهل القرية وبعضهم يقولون بل المراد واسأل الجدران والصواب ان المراد بالقرية نفس الناس المشتركين الساكنين في ذلك المكان فلفظ القرية هنا أريد به هؤلاء كما في قوله تعالى { وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلُكُنَاهُمْ فَلَا تَاصِرَ لَهُمْ } محمد13 وكذلك قوله { وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسِبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا تَكَرَّرَ } الطلاق8 ونظائره متعددة⁵⁰⁵

8-قال تعالى { يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ } هود105 فإن الإذن نوعان إذن لمعنى المشيئة والخلق وإذن بمعنى الإباحة والإجازة⁵⁰⁶

9-قال تعالى { وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ } هود108 ان الجنة هي الدار الجامعة لكل نعيم واعلى ما فيها النظر الى وجه الله وهو من النعيم الذى ينالونه فى الجنة كما اخبرت به النصوص وكذلك اهل النار فانهم محجوبون عن ربهم يدخلون النار⁵⁰⁷

⁵⁰⁴شرح العمدة ج: 4 ص: 28

⁵⁰⁵مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 463

⁵⁰⁶الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 132

⁵⁰⁷مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 65

10- قال تعالى {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ} هود 110 وذكر كتاب موسى بهذه الإضافة لا بلفظ التوراة في غير موضع
508

11- قال تعالى {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ} 110 { وَإِنَّ كَلَامًا لَمَا لَيُؤْفِقِينَ رَبِّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ } 111 { هود 110-111 } ولفظ الاختلاف في القرآن يراد به التضاد والتعارض لا يراد به مجرد عدم التماثل كما هو اصطلاح كثير من النظار ومنه قوله { وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا } النساء 82 وقوله { إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ } 8 { يُؤْفِكُ عَنْهُ مَنْ أَفَكَ } 9 { الذاريات 8- 9 } وقوله { وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ } البقرة 253⁵⁰⁹

12- قال تعالى { فَاسْتَفِمْ كَمَا أُمِرْتُ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطَّعُوا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } هود 112 بصير منزه عن العمى⁵¹⁰

13- قال تعالى { وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ } هود 114 والذي عليه عامة المفسرين أن الحسنه و السيئه يراد بهما النعم و المصائب ليس المراد مجرد ما يفعله الانسان باختياره باعتباره من الحسنات أو السيئات ولفظ الحسنات و السيئات في كتاب الله يتناول هذا و هذا قال الله تعالى عن المنافقين { إِنْ تَمَسَسْتُمْ حَسَنَةً تَسَوْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تُصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يُضْرِكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا } آل عمران 120 و قال تعالى في حق الكفار المتطيرين بموسى و من معه { فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ } الأعراف 131 ذكر هذا بعد قوله { وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ } الأعراف 130 و أما الأعمال المأمور بها و المنهى عنها ففي مثل قوله تعالى { مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا } الأنعام 160⁵¹¹

14- قال تعالى { وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } هود 115 والإحسان ضد الإساءة وهو فعل الحسن سواء كان لازما لصاحبه أو متعديا إلى الغير⁵¹²

⁵⁰⁸الجواب الصحيح ج: 5 ص: 244

⁵⁰⁹مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 19

⁵¹⁰الجواب الصحيح ج: 4 ص: 407

⁵¹¹مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 234-235

⁵¹²مجموع الفتاوى ج: 30 ص: 370

15- هذه الصيغة تدل على امتناع المنفى كقوله {وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقَرْىَ بِظُلْمٍ} هود 117 وقوله {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ} الأنفال 33⁵¹³

16- قال تعالى {وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقَرْىَ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصَلِحُونَ} هود 117 لفظ القرية والمدينة والنهر والميزاب وأمثال هذه الأمور التي فيها الحال والمحال كلاهما داخل في الاسم ثم قد يعود الحكم على الحال وهو السكان وتارة على المحل وهو المكان وكذلك في النهر يقال حفرت النهر وهو المحل وجرى النهر وهو الماء ووضعت الميزاب وهو المحل وجرى الميزاب وهو الماء وكذلك القرية قال تعالى {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً} النحل 112 وقوله {وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ} 4 {فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ} 5 {الأعراف 4-5} وقال في آية أخرى {أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقَرْىِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ} الأعراف 97 فجعل القرى هم السكان وقال {وَكَايُنَ مَنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا} الكهف 59 وقال تعالى {أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا} البقرة 259 فهذا المكان لا السكان لكن لا بد أن يلحظ أنه كان مسكونا فلا يسمى قرية الا اذا كان قد عمر للسكنى مأخوذ من القرى وهو الجمع ومنه قولهم قرية الماء في الحوض اذا جمعت فيه ونظير ذلك لفظ الانسان يتناول الجسد والروح ثم الاحكام تتناول هذا تارة وهذا تارة لتلازمهما فكذلك القرية اذا عذب أهلها خربت واذا خربت كان عذابا لأهلها فما يصيب أحدهما من الشر ينال الآخر كما ينال البدن والروح ما يصيب أحدهما فقوله {وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ} يوسف 82 مثل قوله {قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً} النحل 112 فاللفظ هنا يراد به السكان من غير اضممار ولا حذف⁵¹⁴

17- قال تعالى {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ} 118 {إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ} 119 { هود 118-119 اللام التعليل (لامات كي) }⁵¹⁵

18- قال تعالى {وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ} هود 120 والوعظ في القرآن مرادا به الأمر والنهي بترغيب وترهيب⁵¹⁶

⁵¹³مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 300

⁵¹⁴مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 163

⁵¹⁵الصفدية ج: 1 ص: 148

⁵¹⁶مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 45

19- قال تعالى { وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ } هود 120 ذكر بصيغة الجمع { نَقُصُّ عَلَيْكَ } هود 120 و { عَلَيْنَا جَمْعُهُ وَقُرْآنُهُ } القيامة 17 و { عَلَيْنَا بَيَانُهُ } القيامة 19 فالقراءة هنا حين يسمعه من جبريل والبيان هنا بيانه لمن يبلغه القرآن ومذهب سلف الأمة وأئمتها وخلفها أن النبي سمع القرآن من جبريل وجبريل سمعه من الله عز وجل واما قوله نتلوا ونقص ونحوه فهذه الصيغة في كلام العرب للواحد العظيم الذي له أعوان يطيعونه فاذا فعل أعوانه فعلا بأمره قال نحن فعلنا كما يقول الملك نحن فتحنا هذا البلد وهو منا هذا الجيش ونحو ذلك⁵¹⁷

20- قال الله تعالى { وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ } هود 123 أن جميع الأفعال مشتقة سواء كانت هي مشتقة من المصدر أو كان المصدر مشتقا منها أو كان كل واحد منهما مشتقا من الآخر بمعنى أن بينهما مناسبة في اللفظ والمعنى لا بمعنى أن أحدهما أصل والآخر فرع بمنزلة المعاني المتضايقة كالأبوة والبنوة أو كالأخوة من الجانبين ونحو ذلك فعلى كل حال إذا أمر بفعل كان نفس مصدر الفعل أمرا مطلوباً للأمر مقصوداً له كما في قوله { وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ } هود 123 وفي قوله { وَاتَّقُوا اللَّهَ } البقرة 189 وفي قوله { وَأَحْسِنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } المائدة 93 وفي قوله { فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ } التغابن 8 وفي قوله { أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا } نوح 3 فإن نفس التقوى والإحسان والإيمان والعبادة والتوكل أمور مطلوبة مقصودة بل هي نفس المأمور به⁵¹⁸

⁵¹⁷مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 128

⁵¹⁸اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 51

رَبِّ
أَوْزَعْنِي أَنْ أَشْكُرَ

نِعْمَتِكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ
صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي

إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ

الحمد لله رب العالمين

###